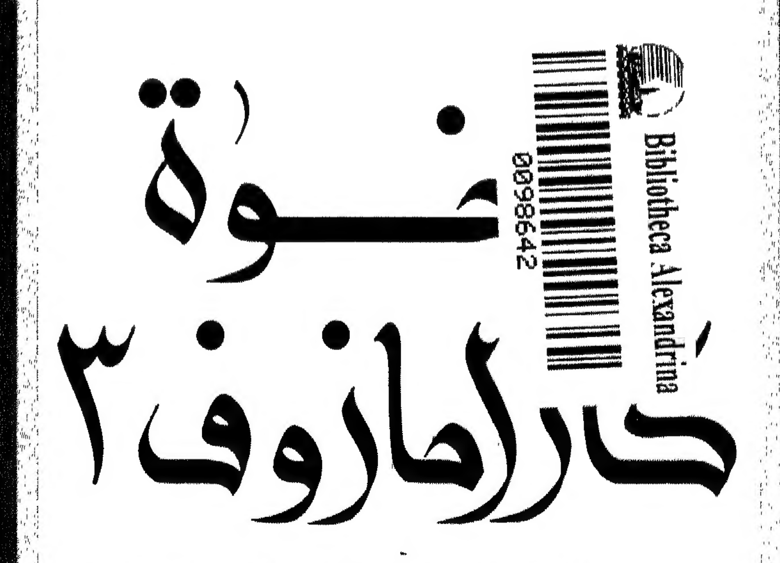
دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١١

ترجمة الدكتور سامي الدروبي









الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الثامن عشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص. ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

الإخوة كارامازوف

٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجزء الرابع



الباب العاشر: الصبيان

١
كوليا كراسوتكين

نحن في أول شهر تشرين الثاني (نوفمبر) . درجة البرودة احدى عشرة . المياه تتجمد . وقد هطل على الأرض المتجلدة في الليل ثلج ناعم . فهذه هي الريح الجافة الحادة تسفعه الآن في الشوارع الكالحة من مدينتنا الصغيرة ، فتثيره أكداساً كبيرة على ميدان « السوق » . الصباح يملؤه الضباب ، ولكن الثلج انقطع عن الهطول .

انك ترى ، غير بعيد من الميدان ، قرب متجر آل بلوتنيكوف ، منزلاً صغيراً ، نظيفاً في الداخل والخارج على السواء ، هو منزل أرملة الموظف كراسوتكين . ان الموظف كراسوتكين الذي كان سكرتيراً حكومياً (*) قد مات منذ زمن طويل ... فقريباً يكون انقضى على موته أربع عشرة سنة ؟ ولكن زوجته ، وهي امرأة حسنة الوجه باشة الهيئة ، في نحو الثلاثين من عمرها ، ما تزال تعيش من ايراداتها ، في منزلها النظيف . وهي تعيش في هذا المنزل حياة شريفة محتشمة ، لأن لها طبعاً متواضعاً رقيقاً حنوناً ، وان تكن على شيء من المرح . لم يكن عمرها قد تجاوز الثامنة عشرة حين مات عنها زوجها ، وهي لم تعش معه الا سنة

واحدة ، أي الزمن لذى كان لازماً لانجاب ابنها • ومنذ ذلك الحين ، منذ اليوم الدى ترملت فيه ، لم تعش الا من أجل هذا الصغير ، فوقفت حياتها كلها على ابنها كوليا وحده • ولانها ، على حبها ابنها ، خلال هذه الأعوام الأربعة عشر ، حباً جنونا لا حدود له ، قد عانت من العذاب ، كما تتصورون ذلك ، أكثر كثيرا مما ذاقت من الفرح ، فهي كل يوم ترتعد خوفاً وتموت هلعاً متى تصورت أن ابنها يمكن أن يصيبه برد ، أو أن يمرض ، أو أن يرتكب تهوراً أثناء لعبه ، فيتسلق كرسياً فيسقط ، الخ ••• وحين دخل كوليا المدرسة الابتدائية ، ثم حين قُبل بعد ذلك في المدرسة الثانوية بمدينتنا ، أسرعت أمه تدرس معه جميع العلوم لتساعده وتعاونه في مذاكرة دروسه • وأسرعت تتعرف كذلك بمدرّسيه ، بل وبنسائهم أيضاً ، وتعلقت برفاق صفه ، فهي تدللهم وتتفانى في بذل جميع الملاطفات لهم ، حتى لا يلحقوا بابنها أية اساءة ، حتى لا يسخروا منه أو يضربوه • وقد بلغت من ذلك أن الصبية انتهوا حقاً الى السخرية منه بسببها ، فأخذوا يناكدونه ، مطلقين عليه اسم « حبيب أمه » • ولكن الفتى عرف كيف يدافع عن نفسه • انه طفل شجاع ، « قوى قوة هائلة » ، لم تلبث شهرة قوته هذه أن ذاعت بين رفاقه ورسخت في نفوسهم • وكان حاذقاً بارعاً ، قوى الطبع صلب الارادة جريئاً مغامراً جسوراً • وكان الى الى ذلك تلميذاً ناجحاً متفوقاً حتى لقد كان التلاميذ يؤكدون أنه استطاع أن يتفوق في الرياضيات وفي التاريخ العام على الأستاذ داردينالوف نفسه• ولكنه رغم أنه ينظر الى الآخرين من عل ، يعرف كيف يحافظ ، في وضعه ، على أن يكون بسيطاً وأن يكون نعم الرفيق • ولئن كان يقبل احترام رفاقه له على أنه حق من حقوقه ، فلقد كان هذا لا يصرفه عن حسن التصرف معهم وعن التزام اللطف والكياسة في معاملتهم • وكان يعرف خاصةً كيف يحافظ على القصد والاعتدال ، كان قادراً على ضبط

نفسه عند الاقتضـاء ، فهو لا يتجاوز قط ، فى علاقاته برؤسائه ، حدوداً معينة لا يمكن احتمال تجاوزها ، ولا يُعدّ تخطيها الا تمرداً وترديا فى الفوضوية وخروجاً على المشروعية . على أنه كان يحب كثيراً أن يتحرر بعض التحرر ، ولا يعدم أبداً فرصـة تحقيق هذه الرغبـة ، فينطلق فى افعال مرحة طائشة ، كسائر الصبية الصغار ، لا بدافع « الشيطنة » والحق يقال ، بل نشداناً للذة ابتكار شيء ما ، واحداث أثر فى النفوس ، ولفت الأنظار اليه ، وتأكيد ذاته بجرأة وجسارة ، والقيام بدور من الأدوار . وكان الفتى على جانب عظيم من الشعور بنفسه والتمسك بكبريائه ، وقد استطاع أن يسيطر على أمه سيطرة تامة ، وأن يكون له عليها سلطان كبير يشبه أن يكون طغيـاناً واسـتبداداً . وقد خضعت الأم وأذعنت منذ زمن طويل ، وانما كان يؤلمها أن تتصور أن فتاها « لا يحبها كثيراً » ، وكانت لا تطيق هذه الفكرة ولا تسـتطيع احتمالها . كان يتراءى لهـا دائماً أن كوليا « فاتر العاطفة » تجاهها ، وكان يتفق لها أن تبكى بكاء هستريا ، آخذةً عليه هذا الفتور ؟ وكان الفتى يكره هذه « المشاهد » ، فكلما طالبته أمه بمزيد من العاطفة ، ثبت هو مزيداً من الثبات على جمود احساسه وبرود عاطفته . والواقع أنه لم يكن يفعل ذلك واعياً ، وانما كان يفعله على غير ارادة منه ، فتلك كانت طبيعته : كان يحب أمه كثيراً ، ولكنه كان يكره هذا الافراط السخيف فى اظهار المشاعر ، كان يكره تلك « العواطف التى تشبه عواطف العجول » ، كما كان يقول بلغته ، لغة التلميذ .

وكان أبوه قد خلّف مكتبة خاصة . وكان كوليا يحب القراءة ، فقرأ عدداً من الكتب المودعة فى الخزانة ذات الزجاج . لم يُقلق هذا أمّه ، غير أنها كانت تستغرب أن يعكف ابنها ساعات طويلة على قراءة كتـاب بدلاً من أن ينصرف الى اللعب . هكذا قرأ كوليا كتباً ما كان يمكن أن توضع بين يديه فى سنه هذه . على أن الفتى الذى كان لا يحب أن يتخطى

بعض الحدود في حيله ومكره ، قد أخذ منذ زمن يثرثر ثرثرات ترعب أمه . لم يكن فى سلوكه شىء يجافى الآخلاق ، ولكنه أصبح يتلذذ بالقيام بمغامرات متهورة طائشـة . من ذلك أن الأم قد ذهبت مع ابنها فى هذا الصيف نفسه ، أثناء عطلة تموز (يوليو) الى قريبة من قريباتها تسكن فى مقاطعة أخرى على مسافة سبعين فرسخاً من مدينتنا ، لقضـاء أسـبوع عندها . ان زوج هذه المرأة موظف فى السكة الحديدية ، فهو يعمل فى محطة القطار بالمنطقة (وهى تلك المحطة نفسـها التى سـافر منها ايفـان فيدوروفتش الى موسكو منذ شهر) . قضى كوليا الأيام الأخيرة يدرس تجهيزات السكة الحديدية بكثير من العناية والاهتمام ، لأنه رأى أن هذه المعلومات الجديدة ستتيح له أن يبهر رفاقه فى المدرسة عند عودته. وسرعان ما توثقت الصلة بينه وبين صبية آخرين فى المنطقة كان بعضهم يسكن فيما حول المحطة مباشرة وكان بعضهم الآخر يسكن فى منازل تبعد قليلاً عن المحطة . هكذا تألفت منهم عصبة" عدد أفرادها ستة أولاد أو سبعة ، تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسـة عشرة ، وبينهم اثنـان من مدينتنا . وقد نظم هؤلاء الفتيان ألعاباً ، وتخيلوا انواعاً من العبث والهزل ، ثم اذا بهذه العصـبة المرحـة تخترع فى اليوم الرابع أو الخامس رهاناً بروبلين على مغامرة عجيبة فظيعة . ان كوليا ، وهو أصغر أفراد العصبة ، وكان الكبـار يستخفون به لهـذا السبب ، قد اقترح فى ذات يوم ، من قبيل حب الظهور أو من قبيل ابراز الجسارة ، أن يرقد فى احدى الليالى بين خطى السكة الحديدية ، وأن يظل جامداً على هذا الوضع أثناء مرور القطار بسرعة عند الساعة الحادية عشرة . لا شك أن كوليا كان قد درس صعوبات هذه المغامرة سلفاً وخلص الى هذه النتيجة ، وهى أن فى وسعه أن يضطجع هذا الاضطجاع بين خطى السكة الحديدية ، وأن يظل راقداً هنالك تحت عربات القطار دون أن تلامسه . ولكن ما أشد ما تحتاج اليه

هذه المغامرة من هدوء أعصاب ورباطة جأش ! وكان كوليا يزعم أنه قادر على ذلك ، فهزىء منه الفتيان فى أول الأمر ، ونعتوه بأنه كذاب وبأنه متبجج ، فما زاده ذلك الا اغتياظاً وعناداً ؛ وكان يحنقه خاصة أن ينظر اليه هؤلاء الفتيان الذين هم فى الخامسة عشرة من أعمارهم نظرة متعالية ، وأن يرفضوا أن يعدوه نداً لهم ، وأن يصفوه بأنه « صغير » ، وتلك فى نظره اهانة لا تطاق ! قرر الفتيان أن يذهبوا عند هبوط الليل الى مكان يبعد عن المحطة مسافة فرسخ ، ليقوموا بهذه التجربة هنالك ، حيث يكون القطار بعد تحركه من المدينة قد أخذ يجرى سريعاً . تواعد الفتيان اذن أن يلتقوا فى ذلك المكان . كانت الليلة غير مقمرة ، وكان الظلام دامساً . وفى الساعة المتفق عليها رقد كوليا بين خطى السكة الحديدية . واختبأ المتراهنون الخمسة الآخرون بين الأشجار فى أسفل المنحدر قرب الطريق ، وهم يشعرون بشيء من الانفعال فى أول الأمر ، ثم اجتاحتهم الخشية والندامة بعد ذلك . وسُمعت أخيراً همهمة القطار الذى غادر المحطة . وسطع ضوءان أحمران فى الليل ، وأقبل القطار العملاق يجرى مسرعاً بضجة كدوى الرعد . صاح الصبيان وقد شلّهم الذعر فى مخبئهم ، صاحوا يقولون لكوليا : « أركض ، أركض ، أهرب » ، ولكن كان قد فات الأوان . ووصل القطار ومرّ فوق كوليا . ظل كوليا متمدداً بلا حراك . وهرع اليه الصبيان يحاولون انهاضه . فاذا هو ينتصب واقفاً على قدميه فجأة ، ثم يمضى يهبط المنحدر دون أن ينطق بكلمة . حتى اذا وصل الى قرب الطريق أعلن لرفاقه أنه تظاهر بالاغماء ليرعبهم . ولكن الحقيقة هى أنه قد أغمى عليه فعلاً ، كما اعترف لأمه بذلك بعد مدة طويلة . ومنذ ذلك الحين اشتهر كوليا باسم « الجسور » . وقد عاد الصبى الى المنزل فى تلك الليلة أصفر الوجه ، وانتابته فى الغد حمى خفيفة . ولكنه كان يشعر بالسعادة ، وكان يضحك ويمزح . ولم يذع

أمر هذا الحادث فوراً ، وانما ذاع بعد عودة كوليـا الى مدينتنا ، فاهتزت سلطات المدرسة اهتزازاً قوياً ؛ وتدخلت أم كوليا لدى الادارة ضارعة اليها أن تصفح عن الولد وأن تعامله بالحسنى ، وظلت تبذل مساعيها ، الى أن تولى المعلم داردانيلوف ، وهو رجل محترم مسـموع الكلمة ، أمر الدفاع عن الصبى ، فأهملت القضية كأن شيئاً لم يحدث • ان داردينالوف هذا ، وهو رجل عازب ما يزال شاباً ، كان قد أُخذ بالسيدة كراسوتكينا منذ زمن طويل ، وعرض عليهـا الزواج فى السـنة الماضـية بكثير من الاحترام وهو يرتعش خوفاً • ولكنها رفضت عرضه رفضاً قاطعاً ، لأنها رأت أن زواجها خيانة لابنها • ومع ذلك ظل داردينالوف يقدّر ، على أساس بعض العـلائم الخفية ، أن عليـه أن لا يفقد الأمل ، وأن الأرملة الشابة الفتانة ، ولكن المبالغة فى عفتها ووسواسها ، لا تخلومن الميل اليه والاعجاب به • وكان من شأن تلك المغامرة المجنونة التى قام بها كوليا أن حطمت الجليد بين المعلم والأرملة ، وقد أُفهم داردانيلوف ، حين شكر له توسـطه فى الأمر ، أنه ليس محظوراً عليـه أن يراوده أى أمل • صحيح أن ذلك قد قيل الماعاً بعيداً غامضاً ، ولكن داردانيلوف ، الرجل الطاهر الذيل المرهف الشعور هو أيضاً ، كان لا يطلب أكثر من ذلك حتى يشعر بسعادة كاملة • وكان يحب كوليـا ، ولكنه رأى أنه لا يليق بكرامته أن يتزلف اليه ، لذلك كان يعامله أثناء الدروس معاملة قاسية متشددة • ولسنا نبتعد عن الانصاف اذا قلنا ان كوليا نفسه كان يجافيه • لقد كان كوليا يحضّر واجباته المدرسـية بكثير من العنـاية ، وكان ثانى التلاميذ ترتيباً فى صفه ، وكان يجيب بلهجة جافة جداً عن جميع الأسئلة التى يلقيها عليه المعلم • وكان جميع رفاقه ، من جهة أخـرى ، مقتنعين بأنه يستطيع فى مادة التاريخ العام أن ينافس أستاذه • وقد حدث فعلاً أن سأل كوليا استاذه فى ذات يوم : « من بنى مدينة طروادة ؟ » ، فاقتصر

داردانيلوف في الاجابة عن هذا السؤال على ذكر أمور عامة عن هجرات الشعوب وعن غموض تاريخ العصور القديمة وعن الأساطير ، ولم يقل شيئا عمن بنى مدينة طروادة ، وعدّ هذا السؤال تافهاً لا داعي اليه • وهكذا ظل التلاميذ مقتنعين بأن داردانيلوف يجهل اسم باني طروادة • وكان كوليا قد عثر على بعض المعلومات عن تأسيس مدينة طروادة من كتاب سماراجدوف * الذي كان أحد الكتب الموروثة عن أبيه • وأراد التلاميذ أخيراً أن يعرفوا من بنى طروادة ، ولكن كراسوتكين لم يكشف عن سِّره ، وظل محاطاً في علمه الذي لا سبيل الى معرفته ، بهالةٍ من المهابة والاحترام •

وقد حدث تغير في موقف كوليا من أمه بعد حادث السكة الحديدية • ان السيدة آنا فيدوروفنا (وهذا هو اسم السيدة كراسوتكينا) قد أوشكت أن تُجن من الهلع حين علمت بالمغامرة التي قام بها ابنها ، وأصابتها نوبات عصبية عنيفة تتابعت أياماً ثم عادت تصيبها بعد هدنة قصيرة •

وارتاع كوليا من الحالة التي صارت اليها أمه • فقطع لها على نفسه عهد الشرف ليعزفنّ بعد الآن عن هذه الأعمال ، وليمتنعنّ في المستقبل عن مغامرات من هذا النوع • حلف على ذلك أمام الأيقونة ، وحلف على ذلك أيضا بذكرى أبيه ، كما طلبت أمه • وقد انفجر كوليا « الجسور » عندئذ باكياً بكاء طفل في السادسة من عمره ، واستسلم لنوبة من « العاطفية » ، وظل الابن وأمه طوال النهار يتعانقان باكيين • ومع ذلك عاد كوليا منذ الصباح « فاتر الشعور » ، « بارد العاطفة » ، ولكنه أصبح منذ ذلك الحين أشد صمتاً ، وأكثر تواضعاً ، وأكبر قوة ، وأطول روية • ولكن ما ان انقضت ستة أسابيع حتى اندفع كوليا في مغامرة جديدة ، فوصل اسمه حتى الى أسماع قاضي الصلح • على أن القضية في هذه المرة لم تكن أكثر من « شيطنة » مضحكة ليست بذات خطر ، ولم يكن هو نفسه الفاعل

فيها ، وانما جرفه اليها غيره • وسنشير اليها فيما بعد على كل حال• وعاشت أمه مرة أخرى في مخاوف مستمرة ، وأحس داردانيلوف بازدياد آماله على قدر ازدياد مخاوف المرأة المسكينة • يجب أن نلاحظ هنا أن كوليا كان يحزر الأحلام الخفية التي تراود استاذه ، فكان يحتقره احتقاراً عميقاً لهذه « العواطف الكاذبة السخيفة » ؛ حتى لقد اتفق له في الماضي أن أعرب عن احتقاره هذا بحضور أمه دون أية مداراة ، ملمعاً الى أنه يعرف كل المعرفة الهدف الذي يريد أن ينتهي اليه داردانيلوف • غير أنه بعد حادث السكة الحديدية قد تبدل موقفه في هذه الناحية أيضا • فأصبح لا يسمح لنفسه بشيء من الغمز ولو كان غمزاً مستسراً ، وأخذ يتكلم عن داردانيلوف أمام أمه بمزيد من الاحترام ؛ واذ أدركت أمه ، باحساس قلبها المرهف ، الأسباب التي تدفعه الى اتخاذ هذا الموقف الجديد ، فقد شعرت بكثير من الشكر والعرفان • ولكنها كانت تحمر خجلاً ويصبح خداها كالورد لوناً كلما اتفق أن ذكر زائر غريب اسمَ داردانيلوف بحضور كوليا عَرَضاً • وكان كوليا في تلك اللحظات ينظر من النافذة متجهم الوجه ، أو يتظاهر بأنه ينعم النظر الى حذاءيه فاحصاً حالتها ، أو ينادي كلبه « برزفونه » غاضباً حانقاً ، وهو كلب طويل الشعر ضخم الجسم ولكن منظره يثير الشفقة ويبعث على الرثاء ، وكان كوليا قد تبناه منذ شهر ، لكنه يخفيه في غرفته عن رفاقه لا يدري أحد لماذا ! كان كوليا يسوم الكلب سوء العذاب من أجل أن يعلمه أنواعاً شتى من الحيل ؛ واستطاع أخيراً أن يجعل الكلب يتعلق به تعلقاً شديداً ويكلفه كلفاً قوياً حتى أصبح الكلب يعول حزناً وكمداً حين يغادر كوليا المنزل ذاهباً الى المدرسة ، ويطير فرحاً وحماسة كلما عاد كوليا الى المنزل ، فمتى رأى « برزفونه » صاحبه أخذ ينط ويتواثب طرباً ، وأخذ يتقرب منه ويتحبب اليه ، وراح يرقد على الأرض متظاهراً بالموت ، أي طفق يجري الحركات

التى عُلّمها ، وطفق ينفـذها ، ولكنه لا ينفـذها فى هـذه المرة بأمر ، بل ينفذها من تلقاء نفسه ، فى اندفاعة انفعاله وشكرانه •

بالمناسبة : لقد أغفلت أن أقول ان كوليا كراسوتكين هو بعينه ذلك الفتى الذى طعنه بموسى فى وركه الصبيُّ ايليوشا الذى يعرفه القارىء (هو ابن الضابط المتقاعد سنيجيريف) وذلك دفاعاً عن أبيه ضدّ تلاميذ المدرسة الذين كانوا يتكلمون عنه باحتقار •

٢

الأولاد

في ذلك الصباح الذى يملؤه الجليد والضباب من شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ، كان كوليا كراسوتكين فى المنزل • اليوم يوم أحد ، فلا مدرسة • ودقت الساعة الحادية عشرة • ان كوليا يريد أن يخرج من المنزل حتماً «لأمر هام جداً» • ولكن كوليا كان فى البيت عندئذ وحيداً ، وقد عُهد اليه بحراسة البيت ان صح التعبير ، لأن جميع الكبار قد اضطروا الى الغياب عن المنزل لظروف طارئة لم تكن فى الحسبان • ان منزل الأرملة كراسوتكينا يضم شقة أخرى من غرفتين ، يفصلها عن الشقة التى تشغلها صاحبة الدار دهليز • وتلك الشقة قد استأجرتها زوجة طبيب ، فهى تعيش فيها مع ابنين لها صغيرين جداً • وقد توثقت بين المرأتين ، وهما فى سن واحدة ، عرى صداقة قوية • أما الطبيب فكان قد سافر الى أورنبورج منذ أكثر من سنة ، ثم سافر من هناك الى طشقند ، ثم انقطعت أخباره منذ ستة أشهر ، فلولا الصداقة التى قامت بين الزوجة وبين السيدة كراسوتكينا التى خففت حزنها ، لقضت هذه الزوجة المهجورة كل وقتها فى البكاء • ومن أجل أن تبلغ زوجة الطبيب ، كاترين ، غاية سوء الحظ ، ألم يكن من الضرورى أن تبلغها

خادمتها الوحيدة ، فى لحظة مباغتة لم تكن فى الحسبان ، ليلة الأحد ، أنها تتأهب لأن تضع مولوداً ؟ ذلك ما حدث . أما أن أحداً لم يلاحظ قبل تلك اللحظة حالتها ، فذلك أمر يوشك أن يكون معجزة . اضطربت زوجة الطبيب للحادث اضطراباً شديداً ، وقررت أن تنقل كاترين ، ما دام فى الوقت متسع ، الى قابلة فى مدينتنا كانت تستقبل فى منزلها سكاناً يبيتون ويطعمون. ولما كانت تحرص كثيراً على هذه الخادمة ، فقد أسرعت تضع قرارها هذا موضع التنفيذ ، فمضت بها الى القابلة ومكثت قربها . وفى الصباح كان لا بد من الاستعانة بالسيدة كراسوتكينا التى تستطيع الاستفادة من بعض العلاقات لتأمين شيء من الحماية للخادم التى توشك أن تلد . هكذا غابت السيدتان عن المنزل . ومن جهة أخرى ، كانت آجاتى ، خادمة السيدة كراسوتكينا ، قد ذهبت الى السوق . فبذلك وجد كوليا نفسه مكلفاً ، الى حين ، بحراسة الدار ومراقبة طفلى زوجة الطبيب ، الصبى والبنت ، اللذين بقيا وحدهما معه فى المنزل . لم يكن دور الحارس يرعب كوليا ، لا سيما وأن الكلب « برزفونه » الى جانبه . ولقد أمر الكلب بأن يبقى راقداً تحت دكة فى الدهليز ، وأن يظلل «ساكناً» لا يتحرك . وكان كوليا يذهب ويجيء بين الغرف ، فكلما خرج الى الدهليز ، انتفض الحيوان الشهم ، وأدار وجهه الى جهة سيده ، وضرب الأرض بذيله ضربتين فرحتين ضارعتين ؛ ولكن كوليا لا يصفر له منادياً وا أسفاه ، ويقتصر على أن يرشق الكلب المسكين بنظرة قاسية ، فيسرع الكلب الى التجمد على سكونه المطلوب . والواقع أن كوليا لم يكن مهتماً الا بالطفلين . صحيح أن حادث كاترين قد أيقظ فى نفسه احتقاراً عميقاً ، ولكنه كان يحب الصغيرين المسكينين المحرومين من أبيهما حباً كثيراً ، وكان قد جاءهما بكتاب مسلٍ . ان ناستيا * ، وهى الكبرى ، تبلغ من عمرها ثمانى سنين ، وتعرف القراءة . وان أخاها ، وهو أصغر منها

يسنة ، يجد لذة عظيمة فى الاستماع الى القصص التى تقرؤها له • واضح أن فى وسع كوليا أن يجد لهما تسلية أدعى الى الضحك ، كأن يضعهما فى صف ويلعب معهما لعبة الجنود ، أو لعبة الاختباء ، وذلك ما سبق أن فعله مراراً دون أن يشعر منه بغضاضة ، حتى لقد شاع فى المدرسة أن كوليا كان يتسلى مع الصغيرين بتمثيل دور الحصان ، فهو يدع لهما أن يقرناه مطأطئاً رأسه ، ولكن كوليا قد فنّد هذه التهم ، وقال ان لعبة الحصان تخل بالكرامة حقاً « فى هذا العصر » اذا هو لعبها مع رفاق مثله فى الثالثة عشرة من أعمارهم ، ولكنه انما يلعبها من أجل الطفلين لأنه يحبهما كثيراً ، وليس من حق أحد أن يسأله حساباً عن عواطفه • لذلك كان هذان الطفلان يعبدانه عبادة • على أن كوليا لم يكن فى هذه المرة منشرح النفس للعب • لقد كان عليه أن يعنى يومئذ بقضية شخصية هامة جداً ، بل وسرية بعض الشيء • والزمن يمضى • وآجاتى التى كان يمكن أن يكل اليها أمر الطفلين لم تعد من السوق بعد • لقد قطع كوليا الدهليز عدة مرات ، ففتح باب شقة زوجة الطبيب ، وألقى نظرة قلقة على الطفلين المنهمكين فى القراءة تنفيذاً لأمره • فكان الطفلان يبتسمان ابتسامة عريضة صامتة كلما ظهر لهما ، متوقعين أن يفاجئهما بشيء عجيب مضحك • ولكن هموم كوليا فى ذلك النهار كانت أخطر وأكثر من أن يفكر فى تسليتهما واضحاكهما • فلما دقت الساعة الحادية عشرة أخيراً عزم عزماً حازماً جازماً على أن يخرج دون أن ينتظر آجاتى المنحوسة ، اذا هى لم تعد خلال عشر دقائق ، وذلك طبعاً بعد أن يستقطع الطفلين عهداً بأن يظلا أثناء غيابه عاقلين هادئين ، وأن لا يخافا ولا يبكيا • وعلى هذا ، ارتدى معطفه الشتوى الصغير المبطن بقطن والمزدان بياقة من تقليد فراء الثعلب ، ووضع كيسه المدرسى على كتفه • ورغم التوصيات الملحة التى تسديها اليه أمه بأن لا يخرج فى « مثل هذا البرد » دون أن ينتعل

خفّي المطّاط ، فانه حين اجتاز الدهليز لم يزد على أن رمى الخفين بنظرة ازدراء واحتقار • فلما رآه الكلب مرتدياً ثيابه للخروج ، ضرب الأرض بذيله ضربتين ، واضطرب وتحرك ، وتقلقل وتدحرج ، حتى لقد أصدر أنيناً شاكياً • ولكن كوليا رأى أن هذا الافراط فى الحماسة ونفاد الصبر عند كلبه يدل على قلة الانضباط ، لذلك تركه ينتظر تحت الدكة دقيقة أخرى طويلة ، ولم يصفر له منادياً الا حين فتح الباب ، فوثب الحيوان الشهم وقد جُنّ فرحاً ، وأخذ يقفز وينط أمام كوليا • اجتاز الفتى الدهليز ، ودخل غرفة الطفلين • انهما ما يزالان جالسين أمام مائدة صغيرة كما كانا من قبل ، ولكنهما كفّا عن القراءة ، وكأنهما منهمكان في مناقشة حامية جداً • كثيراً ما كان يتفق لهما أن تختلف آراؤهما فى تقدير أحداث الحياة اليومية ، وكانت ناستيا هى التى تنتصر فى هذه الخصومات دائماً ، من حيث أنها الكبرى• فاذا لم يشأ كوستيا * أن يعترف بالهزيمة ، احتكم الى كوليا كراسوتكين ، فسرعان ما يكون الرأى الذى يراه كوليا هو الحكم الأخير والقول الفصل فى نظر المتخاصمين كليهما• وبدا على كوليا فى هذه المرة أن الموضوع الذى يدور عليه النقاش بين « الصغيرين » يشد انتباهه ويثير اهتمامه ، فقد وقف فى عتبة الباب يصغى اليهما • فلما لاحظا أنه يهتم بما يقولان تضاعفت حماستهما وحرارتهما فى المناقشة •

قالت ناستيا مزقزقة :

ـ مستحيل ، مستحيل أن أصدّق أن القابلات يجدن الصغار فى حقول الخضار تحت الكرنب ؟ الآن شتاء ، فلا تنبت خضار ، فكيف يمكن أن تحمل القابلة بنتاً الى كاترين ؟

دمدم كوليا يقول لنفسه :

ـ عجيب !

ـ وعلى كل حال ، اذا كانت القـابلات تأخذ هؤلاء الأطفـال من مكان ما ، فانهن لا يأتين بهن الا الى النساء المتزوجات .

كان كوستيا يحدق الى أخته ، ويصغي بانتباه ، ويبدو عليه التأمل والتفكير • وقال أخيراً بصوت جازم على هدوء :

ـ ما أنت الا غبيـة يا ناستيا ! كيف يمكن أن يكون لكاترين طفل وهى غير متزوجة ؟

فقالت ناستيا متململة نافدة الصبر :

ـ أنت لا تفهم فى هذه الأمور شيئاً ! لعل لها زوجاً ولكنه فى السجن. ولذلك كان لها طفل •

سألها كوستيا بهدوء ووقار :

ـ أأنت واثقة من أن زوجها فى السجن ؟

فقاطعته ناستيا فجأة وقد نسيت افتراضها الأول :

ـ أنا أعرف كيف حدث هذا • ليس لها زوج • أنت على حق • ولكنهـا كانت ترغب فى أن تتزوج ، فأخـذت تفكر فى زواجها المقبل ، ففكرت ثم فكرت ، ومن كثرة ما فكرت حصلت على زوج بل على طفل !

قال كوستيا وقد اقتنع كل الاقتناع :

ـ اذا كان الأمر كذلك ، فهذا مختلف كل الاختلاف • ولكن كان ينبغى أن تذكريه لى من قبل ، فاننى ما كنت لأستطيع أن أحزره •

تدخل كوليا قائلاً :

ـ هيه يا أولاد ! انكم أخطر مما كنت أتصور !

صاح كوستيا يقول :

ـ هه ! هذا « برزفونه » أيضاً !

ثم ناداه وهو يصفق له بأصابعه •

بدأ كوليا يقول وقد بدا فى وجهه الاهتمام الشديد :

ـ اسمعوا يا أولاد ! يجب أن تساعدونى • لا بد أن آجاتى قد كُسرت ساقها ، لأنها لم تعد حتى الآن • ذلك هو التعليل الوحيد لتأخرها • ويجب علىّ حتماً أن أخرج • فهل تأذنون لى أن أنصرف ؟

تبادل الصغيران نظرة قلقة ، وأظلم وجهاهما بعد أن كانا حتى ذلك الحين باشين باسمين • وبدا عليهما من جهة أخرى أنهما لم يفهما ما يُنتظر منهما •

ـ ألن ترتكبوا حماقات أثناء غيابى ؟ ألن تتسلقوا الخزانة فتكسروا أرجلكم ؟ ألن تبكوا ذعراً من الوحدة ؟ •

ارتسم على قسمات الطفلين كدر عميق •

ـ اذا وعدتمونى بأن تبقوا عقلاء ، فسوف أريكم شيئاً ، سوف أريكم مدفعاً صغيراً من البرونز يُحشى ببارود حقيقى •

فسرعان ما اطمأن وجها الطفلين • وصاح كوستيا مشرق المحيا :

ـ أرنى هذا المدفع !

دسّ كراسوتكين يده فى كيس المدرسة وسلّ منه مدفعاً صغيراً من البرونز فوضعه على المائدة •

ـ ها •• ها •• هذا يهمكم ! أنظروا : انه محمول على عجلات !

قال ذلك وهو يدحرج المدفع على المائدة • وأضاف :

ـ ويمكن اطلاق النار منه • يُحشى خردقاً ، فتخرج الطلقة •

ـ هل يمكن القتل به أيضاً ؟

ـ طبعاً ! بهذا المدفع يمكن قتل أى نسان ، على شرط أن تحسن التصويب طبعاً •

أراهما كراسوتكين أين يجب وضع البارود ، وكيف يمكن ادخال الخردق • أراهما فتحة صغيرة فى البرونز تسمى الضوء ، ولم ينس أن يذكر لهما أن المدفع يندفع الى وراء عند الاطلاق • أصغى اليه الصغيران بفضول شديد ، وأثار خيالهما خاصةً ذلك الاندفاعُ الى وراء •

سألته ناستيا :

ـ هل عندك بارود أيضاً ؟

ـ عندى •

قالت وهى تبتسم ابتسامة ضارعة وتجر كلماتها جراً :

ـ أرنا البارود أيضاً •

فدسّ كراسوتكين يده فى كيسه مرةً أخرى ، فأخرج منه قارورة فيها قليل من البارود الحقيقى ، وورقة لُفَّ بها بعض الخردق • حتى لقد مضى فى الملاطفة الى حد فتح القارورة وسكب شيء من البارود فى راحة يده •

ـ انظروا ! ولكن يجب أن لا يكون هنا نار ، والا حدث انفجار يدمرنا جميعاً •

كذلك قال كراسوتكين ليثير خيال الصغيرين مزيداً من الاثارة •

وأخذ الطفلان يتفحصان البارود فى خشية واحترام يزيدان لذتهما• ولكن اهتمام كوستيا كان منصرفاً الى الخردق خاصة • قال يسأل :

ـ ألا يحترق الخردق ؟

ـ لا ، لا يمكن أن يشتعل الخردق •

قال كوستيا متوسلاً :

ـ اعطنى بضع حبات من الخردق •

ـ سأعطيك • هاك هذه الحبات • خذها • ولكن لا ترها ل «ماما» ما لم أعد أنا ؟ والا ظنتها بارودا ً، فماتت هلعاً ، وجلدتكما كليكما •

أسرعت ناستيا تقول مصححة :

ـ ماما لا تجلدنا قط •

ـ أعرف • ولكننى قلت هذا لجمال الصورة • يجب أن لا تكذبوا أبداً على أمكم ، الا هذه المرة ، بانتظار عودتى • والآن ، يا أولاد ، هل أستطيع أن أنصرف ؟ ألن تبكوا جزعاً أثناء غيابى ؟

قال كوستيا بصوت رخو ، وهو يوشك أن ينفجر باكياً منذ الآن :

ـ سـ ••• نـ ••• ـبكى ! •••

وزادت ناستيا تقول بسرعة خائفة :

ـ طبعاً سنبكى •

ـ ما أخطركم فى هذه السن يا أولاد ! يا عصافيرى الصغيرة ! سيكون علىّ أن أبقى معكم لا أدرى الى متى ؟ والوقت يمر ملحاً الحاحاً رهيباً وا أسفاه !

قال كوستيا :

ـ أصدر أمرك الى « برزفونه » بالتظاهر بالموت •

ـ لا مناص • لا بد من التهرب الى « برزفونه » ! برزفونه : تعال هنا •

أصدر كوليا أوامره الى الكلب ، فأخذ الكلب ينفذ الحركات التى تعلمها • ان برزفونه كلب كثيف الشعر ضخم القامة لا تستطيع أن تحدد لونه ، فهو أشهب أغبر معا ، وهو أعور العين ، مصلوم الأذن اليسرى ، لا يدرى أحد لماذا• أخذ الكلب يصيت ويثب فرحاً ، ويتبختر ، ويمشى على قائمتيه الخلفيتين ، ويستلقى على ظهره ويتظاهر بالموت • وانه ليقوم بهذه اللعبة الأخيرة اذا بالباب يُفتح واذا بآجاتى ، الخادمة السمينة الضخمة التى تعمل عند السيدة كراسوتكينا ، وهى امرأة مجدورة الوجه ، فى نحو الأربعين من عمرها ، اذا بها تظهر فى العتبة حاملةً بيدها شبكة المؤن التى اشترتها من السوق• وقفت آجاتى ونظرت الى الكلب معجبة بينما الشبكة تتدلى من طرف ذراعها اليسرى • ورغم أن كوليا كان ينتظر وصولها نافد الصبر ، فانه لم يقطع ما كان بسبيله من تمثيل حين رآها ، وترك الكلب جامداً على وضعه الساكن مدة من الوقت ثم صفر له ، فما ان سمع الكلب الصفير حتى وثب واقفاً على قوائمه ، وراح يقفز كالمجنون من شدة فرحه بأنه قام بواجبه •

قالت آجاتى منتشية :

ـ هذا كلب حقاً !

فسألها كوليا بقسوة :

ـ لماذا تأخرت يا مخلوقة نسوية ؟

ـ أنا مخلوقة نسوية ؟ انظروا الى هذا الولد الخايب ؟

ـ خايب ؟

ـ طبعا خايب ! ليس شأنك أنت أن أتأخر أنا أو أن لا أتأخر • ما دمت قد تأخرت فلا بد أن ذلك كان لازماً •••

كذلك قالت آجاتى متذمرة وهى تنهمك قرب الموقد • على أنها لم تتكلم بصوت حانق أو مغتاظ • بالعكس : كان يبدو أنها تجد لذة فى مشاجرة سيدها الفتى المرح •

قال كوليا وهو ينهض عن الأريكة :

ـ اسمعى يا من عقلك كعقل العصافير • هل تحلفين لى بأقدس ما تقدسين فى هذا العالم ، وبشىء آخر أيضاً ، على أنك ستعتنين بالأولاد أثناء غيابى ، وبأنك ستراقبينهم بلا غفلة عنهم ؟ ان علىّ ان أخرج •

فقالت آجاتى مدهوشة ضاحكة :

ـ وعلام أحلف ؟ لسوف أهتم بهم دون يمين أحلفها •

ـ بل يجب أن تحلفى على ذلك بخلاص روحك ! والا لم أخرج•

ـ اذن لا تخرج • هل يضيرنى أن لا تخرج ؟ ثم ان الأفضل أن تمكث فى الدار ، فالبرد فى الخارج شديد يجمّد المياه •

قال كوليا يخاطب الطفلين :

ـ اسمعوا ياأولاد ! ستبقى هذه المرأة معكم الى أن أعود ، أو الى أن تعود أمكم التى كان يجب أن تعود منذ زمن طويل هى أيضاً • وسوف تهيىء لكم فطوركم • ستطعمينهم ، أليس كذلك يا آجاتى ؟

ـ جائز •

ـ الى اللقاء يا طيورى الصغيرة • اننى أنصرف الآن مرتاح البال مطمئن الضمير •

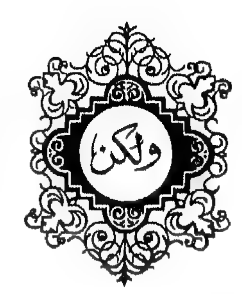
ثم أضاف يقول لآجاتى بصوت خافت وهيئة رزينة وهو يمر أمامها :

ـ أما أنت أيتها المرأة الطيبــة فأرجو أن لا تقصى عليهم ، بصــدد كاترين ، تلك القصص السخيفة التى تعودتن أن تخترعنها فى مثل هذه الأحوال . فما ينبغى افساد نفوسهم . تعال هنا يا برزفونه !

قالت آجاتى متذمرة وقد فقدت فى هذه المرة صبرها :

ـ اذهب الى الشيطان ! انك تضحكنى بهذه الأوضاع التى تصطنعها ! يحسن أن تُجلد حتى تتعلم كيف تتكلم !

٣
التلميذ



كوليـا كان قد كف عن الاصـغاء ٠ ها هو ذا يستطيع الخروج أخيراً ٠ وبعد أن اجتاز البـاب الكبير ، التفت الى وراء ، وشـد كتفيـه ، ودمدم يقـول : « اف ٠٠٠ ما أشـد هذا البرد ! » ، وسار فى أول الأمر قُدُماً على طول الشارع ؛ ثم مال بعد قليل الى زقاق عرضانى يؤدى الى ميدان «السوق» ، ووقف أخيراً أمام الدار التى تقع قبل آخر دار ، فأخرج من جيبه صفارةً فصفر بها صفيراً قوياً ، كاشارة متفق عليها، ولم يضطر أن ينتظر أكثر من دقيقة واحدة ، فها هو ذا صبى أحمر اللون فى الحادية عشرة من عمره ، يهرع نحوه . ان هذا الصبى يرتدى هو أيضاً معطفاً دافئاً ، نظيفاً جداً ، بل وأنيقاً، انه الفتى سموروف ، تلميذ الصف التحضيرى (ان كوليا يسبقه صفين) ، وهو ابن موظف ذى يسار كان أهله قد حظروا عليه أن يعاشر كراسوتكين الذى اشتهر بأنه صبى متهور عنيد مستعد للقيام بأجرأ المغامرات الخطرة ٠ وواضح أن سموروف قد تسلل الى الشارع على غير علمٍ من أهله ٠ ان سموروف هذا ــ ولعل القارىء يتذكر ذلك ــ كان أحد عصبة الصبيان الذين رشقوا ايليوشا بالحجارة من فوق القناة منذ شهرين ٠ وهو الذى كلم الكسى كارامازوف عن ايليوشا فى تلك المناسبة ٠

قال سموروف وقد لاح فى وجهه العزم :

ـ اننى أنتظرك منذ ساعة يا كراسكوتين •

واتجه الفتيان نحو ميدان السوق •

قال كوليا :

ـ تأخرت حقاً • والذنب فى تأخرى ذنب بعض الظروف • قل لى : ألن تُجلد لأنك جئت معى ؟

ـ دعك من هـذا الـكلام ! أتظن أننى أُجلد فى البيت ؟ هـل « برزفونه » معك ؟

ـ كما ترى •

ـ هل تنوى اصطحابه أيضاً ؟

ـ طبعاً •

ـ آه ••• ليته « يوتشكا » !

ـ هذا مستحيل • « يوتشكا » لم يبق له وجود • لقد اختفى دون أن يخلف أثراً •

قال سموروف فجأة وهو يتوقف :

ـ خطرت لى فكرة • ما دام ايليوشا يزعم أن « يوتشكا » كان كلباً طويل الشعر ، مثل « برزفونه » هذا ، وكان أشهب اللون أيضاً ، أفلا نستطيع أن نقول له ان هذا « يوتشكا » ؟ لعله يصدق •

ـ اعلم أيها التلميذ أنه ما ينبغى للمرء أن يكذب ، ولو فى سبيل الخير • هذه واحدة • أما الثانية فهى أننى أرجو خاصة أن لا تكون قد تكلمت هناك عن زيارتى •

قال سمورروف :

ـ أبداً . ما هذا الكلام ؟ أأنا غبى الى هذه الدرجة من الغباء ؟

ثم أضاف يقول متنهداً :

ـ ولكن « برزفونه » لن يعزّيه . ان أباه ، الكابتن ، هذه الخرفة الرثة البالية ، قد قال لنا انه سيجيئه اليوم بكلب أسود البوز من أرقى كلاب الحراسة جنساً ، وهو يعتقد أن ايليوشا سيتعزى بهذا الكلب . ولكننى أشك فى ذلك .

ـ وكيف حال ايليوشا ؟

ـ حاله سيئة جداً . أظن أنه مصاب بالسل . انه لم يفقد وعيه ، ولكن تنفسه صعب ... أوه ! ما أشد ما يلقى من عناء فى التنفس ! طلب منذ مدة أن يخرج فى نزهة ، فألبسوه ثيابه وحذاءيه ، فما سار بضع خطوات حتى تهالك . فهتف يقول لأبيه : « قلت لك مراراً يا بابا ان هذين الحذاءين غير صالحين . لقد كنت أجد مشقة فى المشى بهما حتى فى الماضى » . ظن أنه سقط بسبب الحذاءين ، مع أنه سقط بسبب ضعفه. لن يعيش أكثر من أسبوع . ان الدكتور هرتسنشتوبه يراه من حين الى حين . لقد أصبحوا أغنياء من جديد . ان معهم مالاً كثيراً .

ـ أوغاد !

ـ من هم الأوغاد ؟

ـ الأطباء أوغاد ، هم وعلمهم كله . اننى أتكلم على وجه العموم ، ولكننى أخصص أيضاً . أنا لا أؤمن بالطب . الطب لا حاجة اليه . على اننى أريد أن أدرس هذه المشكلة دراسةً أدق . قل لى بانتظار

ذلك : لماذا أنتم حاذقون جميعاً فى العواطف المزعومة المسرفة ؟ يظهر أن تلاميذ الصف جميعاً يذهبون اليه ، أليس كذلك ؟

ـ لا ، لا جميع تلاميذ الصف • نحن عشرة تلاميذ فقط نزوره كل يوم • ليس لهذا كبير شأن •

ان ألكسى كارامازوف هو الذى يدهشنى أمره خاصةً فى هذه القصة • سيُحكم على أخيه خلال أيام لجريمة رهيبة ، ثم هو يجد من وقته متسعاً للاشتراك مع عدد من التلاميذ فى اصطناع العواطف !

ـ ليس هذا عواطف مزعومة• أنت نفسك تذهب الآن الى ايليوشا، تذهب اليه لتصالحه ؟

ـ لأصالحه ؟ تضحكنى هذه الكلمة ! ثم اننى لا أسمح لأحد بأن يحلّل أفعالى •

هتف سموروف يقول بحرارة :

ـ ما أعظم سعادة ايليوشا حين سيراك ! انه لا يتوقع زيارتك البتة • لماذا رفضت أن تجىء اليه طوال هذه المدة ؟

ـ يا عزيزى الفتى الطيب ، هذا شأنى أنا لا شأنك أنت • أنا أذهب اليه بارادتى ، لأن ذلك يحلو لى • أما أنتم فتذهبون اليه مدفوعين دفعاً من الكسى كارامازوف • ذلك هو الفرق • ثم من قال لك ان فى نيتى أن أصالحه ؟ أنا لا أحب هذه الكلمة •

ـ كلا • نحن لا نذهب اليه بسبب كارامازوف ! لقد ذهب التلاميذ اليه من تلقاء أنفسهم ؟ ولئن تم ذلك بصحبة كارامازوف فى أول الأمر فذلك أمر طبيعىٌ • ليس فى سلوكنا هذا شىء من حماقة أو من عاطفية مصطنعة ! ذهب اليه واحد منا فى البداية ، ثم فعل ذلك واحد آخر ، وهكذا دواليك • وما كان أعظم ابتهاج أبيه برؤيتنا ! لسوف يُجنّ

أبو ايليوشا اذا مات ايليوشا • هو يدرك أن ابنه لن يعيش • وقد سعد سعادة كبيرة بتصالحنا معه • سألنا ايليوشا عن أحوالك ، ولكنه لم يضف الى ذلك شيئاً • سألنا عنك ثم صمت • أما أبوه فسوف يفقد عقله أو سوف يشنق نفسه • ثم ان سلوكه كان دائماً سلوك انسان مختل العقل • ولكنه رجل نبيل جداً ، ولقد أخطأنا في الحكم عليه • ان الذنب في ذلك هو ذنب الرجل الذي ضربه في ذات يوم ، أقصد ذلك الرجل الذي قتل بعد ذلك أباه •

ــ مهما يكن من أمر فان كارامازوف هذا يظل لغزاً في نظري • كان في وسعي أن أتعرف عليه منذ زمن طويل ، غير أنني أحب في بعض الحالات أن أظهر كبريائي • على كل حال ، لقد كونت لنفسي رأياً فيه ، وما زلت في حاجة الى التثبت من هذا الرأي والى اكماله •

قال كوليـا هذا وصمت وقوراً رصيناً • ولزم سـموروف الصمت أيضاً • واضح أنه كان يشعر نحو كوليا كراسوتكين باعجاب شـديد ، وما كان له قط أن يعامله معاملة الند للند • وهو الآن يحس بفضول قوي، لأن كوليا قد ذكر أنه يقوم بهذه الزيارة « بارادته » ، فلا بد أن يكون في الأمر اذن سر • لماذا اتخذ كوليـا هذا القـرار فجـأة ؟ ولماذا يذهب الى ايليوشا في هذا اليوم على وجه التحديد ؟ كان الفتيان يجتازان عندئذ ميدان السـوق حيث تزدحم في هذه السـاعة عربات البائعين والدواجن المعروضة للبيع • هؤلاء نساء يقفن تحت أفاريز حوانيتهن عارضات خبزاً صغيراً وبسكويتاً وخيطاناً • ان الناس في مدينتنا يطلقون ، بسذاجة ، اسم « المعارض » على أسواق الأحد هذه التي تقام بضع مرات في السنة • وكان « كاريون » يجري في جميع الجهات ، ويسرح ويمرح ، راكضـاً الى اليسـار تارة ، والى اليمين تارة أخرى ، متجهاً الى كل موضع فيه شيء يشمه • فاذا لقي كلاباً أخرى بادلها ، بسرور واضح ، حركات التودد

المألوفة ، بوزاً الى بوز ، على ما تقتضيه قواعد الآداب عند الكلاب •••

قال كوليا فجأة :

ـ أحب أن أرصد مشاهد الحياة الواقعية ياسموروف • هل لاحظت كيف تتعارف الكلاب بشم بعضها بعضاً ؟ لا شك فى أنها اذ تفعل ذلك انما تخضع لقانون من قوانين الطبيعة •

ـ نعم ، لقانون مضحك جداً فى رأيى •

ـ كلا ، ما هو بمضحك ، أنت مخطىء ، ليس فى الطبيعة مايضحك ، رغم كل ما قد يظنه الانسان لامتلاء عقله بأوهام حمقاء ! لو كان فى وسع الكلاب أن تفكر وأن تعبِّر لوجدت حتماً فى السلوك الاجتماعى لدى البشر ، سادتهم ، لوجدت فى هذا السلوك من الأمور المضحكة فى نظرها مثل مانجد نحن فى سلوكها ، وربما وجدت أكثر من ذلك أيضاً ! أكرر : لسوف تجد لدينا من المضحكات أكثر مما نجد لديها ، لأننى مقتنع بأننا نرتكب من الحماقات أكثر مما ترتكب الحيوانات• تلك فكرة من راكيتين ، وهى فكرة ممتازة • أنا اشتراكى يا سموروف •

سأله سموروف :

ـ ما الاشتراكى ؟

ـ الاشتراكى من يؤمن بأن يصبح جميع البشر متساوين ، وأن تصبح آراؤهم واحدة فى كل شىء ، وأن يلغى الزواج ، وأن يتغير الدين وتتغير القوانين على ما يحب كل فرد ، وهلَّم جرا ••• انك لم تبلغ من النضج فى سنك هذه ما يؤهلك لأن تفهم هذه الأمور • ما أشد البرد مع ذلك !

ـ صحيح • تبلغ البرودة اثنتى عشرة درجة اليوم • لقد نظر أبى فى الترمومتر منذ قليل •

ـ هل لاحظت يا سموروف أن المرء ، حين تهبط الحرارة في وسط الشتاء الى خمس عشرة درجة تحت الصفر أو حتى الى ثماني عشرة درجة ، لا يتألم من البرد مثلما يتألم منه في نهاية الخريف حين تتجمد المياه عرضاً ولا تهبط الحرارة الى أكثر من اثنتي عشرة درجة تحت الصفر ، ولا يكون هنالك الا ثلج قليل ، كما هي الحال اليوم ؟ ذلك أن الناس لا يكونون قد اعتادوا البرد • كل شيء في الانسانية عادة ، والأمر كذلك في ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية • ان العادة هي المحرك الكبير للحياة الانسانية • انظر الى هذا الفلاح كم هو مضحك ؟

قال كوليا ذلك وهو يومىء الى فلاح طويل القامة يرتدي معطفاً من فراء الخروف وتبدو عليه البساطة والسذاجة • كان الفلاح مدثر اليدين بقفازين قصيرين ، وهو يضرب يديه احداهما بالأخرى نشداناً للدفء ، وقد غشت حبيبات الجليد لحيته الطويلة الحمراء •

قال كوليا بصوت متحدٍ مستفزٍ وهو يمر قرب الفلاح :

ـ تجلدت لحيته •

فأجابه الفلاح بلهجة هادئة وقورة :

ـ لست الوحيد الذي تجلدت لحيته •

قال سموروف قلقاً :

ـ لا تسع الى مشاكسته ومشاجرته •

ـ ليس في هذا بأس • لن يزعل • هو رجل طيب شهم • الى اللقاء يا متا !

ـ الى اللقاء !

ـ هل اسمك اذن متا فعلاً ؟

ـ طبعاً • أكنت تجهل ذلك ؟

ــ لم أكن أعرف ذلك • وانما سميتك بهذا الاسم مصادفة •

ــ غريب • أأنت تلميذ فى المدرسة ؟

ــ نعم •

ــ ها ••• وهل يجلدونك فى المدرسة ؟

ــ أحياناً •

ــ هل الجلد مؤلم ؟

ــ تقريباً •

ــ كذلك هى الحياة •

بهذا ختم الفلاح الحوار متنهداً •

ــ استودعك الله يا متا !

ــ استودعك الله • أنت غلام طيب !

وتابع الفتيان طريقهما • قال كوليا :

ــ هذا الفلاح لطيف محبب • اننى أحب الحديث مع أفراد الشعب، ويحلو لى أن أنصفهم •

ــ لماذا كذبت عليه فزعمت له أننا نُجلد فى المدرسة ؟

ــ كان لا بد من مواساته قليلاً •

ــ مواساته ؟ لم أفهم •

ــ اسمع يا سموروف • أنا لا أحب كثيراً أن أُسأل حين لا يُفهم عنى فوراً • هناك أمور يصعب شرحها • ان هذا الفلاح يتصور أن التلاميذ يُجلدون فى المدرسة ، وأن الأمور يجب أن تكون كذلك • ما تلميذ لا يُجلد ؟ فلو قلت له بفظاظة اننا لا نُجلد فى المدرسة لما فهم

شـيئاً ولأحزنه ذلك • على أنك لا تفهم هؤلاء النـاس • يجب أن تتعلم مخاطبة الشعب •

ــ ولكننى أتوسل اليك أن لا تناكدهم ، والا فقد تقع لنا قصة كالتى وقعت لنا فى ذلك اليوم ، مع ذلك الغبى !

ــ هل يخيفك هذا ؟

ــ لا تمزح يا كوليا • هناك أسباب تدفعنى الى الخوف • لسـوف يغضب أبى غضباً رهيباً • لقد حظروا علىّ حظراً قاسياً أن أخرج معك •

ــ اطمئن • لن يقع شىء هذه المرة • صباح الخير يا ناتاشا !

كذلك صاح كوليا يحيى بائعة كانت تقف تحت افريز حانوتها • فأجابت المرأة التى تبدو شابة ، أجابت تقول بصوت حاد :

ــ ناتاشا ؟ أتريد أن تضحك ؟ أنا اسمى ماريا •

ــ ماريا ؟ هذا أحسن • استودعك الله •

ــ شوفوا الولد الوقح ! طوله طول البطاطسة ، ثم هو يتعاظم !

قال كوليـا وهو يحـرك يده باشارة عريضـة كأن المرأة هى التى تزعجه :

ــ طيب طيب ••• ستقصين علىّ هذا فى يوم الأحد القادم • أنا الآن مشغول !

ــ ليس عندى ما أقصـه عليك يا متبجح ! شوفوا هذا الولد ! أنت الذى ناديتنى متحرشا بى ، بينما لم أكن أهتم بك يا وقح ! ان السـوط هو ما تستحقه أيها الولد البطال ! نحن نعرفك •••

كذلك صرخت ماريا تقول غاضـبة • فانفجـرت البائعات اللواتى

كانت بسطاتهن قريبة من بسطتها ، انفجرت تضحك . وفجأة ، انبجس من رواق المخازن فى الميدان رجل غاضب حانق . ان هيئته تدل على أنه مستخدم في محل تجاري ، حتى انه ليس من مدينتنا ، وانما هو مارّ بها عرضاً . هو شاب يرتدى قفطاناً ازرق طويلاً ، وعلى رأسه قبعة ذات حافة تخرج من تحتها خصل شعر كستناوى ، ووجهه شاحب مجدور . انه يبدو مضطرباً اضطراباً أهوج غبياً ، وها هو ذا يتجه رأساً نحو كوليا وهو يهدده بقبضة يده . قال له صارخاً :

ـ أنا أعرفك ، أنا أعرفك من زمن ...

نظر اليه كوليا متفرساً فيه ، فلم يفلح فى أن يتذكر متى وأين احتك بهذا الرجل . ان مصادماته فى الشارع مع الناس أكثر من أن يستطيع تذكرها جميعاً .

سأله كوليا بلهجة ساخرة :

ـ ها ... تعرفنى ؟

ـ نعم نعم ، أعرفك أعرفك ...

كذلك ردّد الرجل فى غباء .

ـ فى هذا خير لك . أنا مستعجل الآن . استودعك الله .

فصاح المستخدم يقول :

ـ تعود الى وقاحاتك ؟ تعود ؟ أنا أعرفك يا وقح ! أتعود الى وقاحاتك ؟ .

قال كوليا وهو يتوقف عن السير ويتفرس فى الرجل :

ـ ليس يهمك أنت أن أكون أنا وقحاً أو أن لا أكون . ليس هذا من شأنك !

ـ كيف ؟ ليس من شأنى ؟

ـ ليس من شأنك أنت على كل حال !

ـ من شأن مَن° اذن ؟ ألا قلت لى !

ـ هو الآن من شأن تريفون نيكيتتش .

ـ اى تريفون نيكيتتش تعنى ؟

كذلك سأل الرجل البسيط وقد بدت فى وجهه علامات دهشة بلهاء ، ولكن صوته ما يزال غاضباً . نظر اليه كوليا بوقار ، ثم سأله على حين فجأة بقسوة :

ـ هل ذهبت الى « كنيسة الصعود » ؟

ـ أية كنيسة ؟ ولماذا يجب علىّ أن أذهب اليها ؟

هكذا سأل المستخدم متحيراً مرتبكاً . فاستأنف كوليا استجوابه بلهجة أشد قسوة أيضاً :

ـ هل تعرف سابانايف ؟

ـ أى سابانايف ؟ كلا ... لا أعرفه .

قال كوليا يحسم الحوار :

ـ فليأخذك الشيطان اذن !

ثم مال فجأة الى يمين ، وانصرف بخطى سريعة ، كأنه يرفض أن ينزل الى حيث يكلم رجلاً غبياً لا يعرف حتى سابانايف .

صاح المستخدم يسأله وقد ثاب الى نفسه واضطرب من جديد :

ـ انتظر ، اسمع ، اى سابانايف تعنى ؟

ثم التفت فجأة الى البائعات فسألهن وهو يتفرس فيهن بغباء :

ـ لماذا كلمني عن سابانايف ؟

فانفجرت النساء تضحك •

قالت احداهن :

ـ هذا الولد ماكر •

فكرر المستخدم يسأل ملحاً وهو يحرك يده اليمنى باشارات عريضة :

ـ أي سابانايف ؟ من هذا ؟

قالت احدى البائعات وكأنما قد خطرت ببالها فكرة مفاجئة :

ـ أغلب الظن أنه سابانايف الذى كان مستخدماً عند آل كوزمتشيف ••• لا يمكن الا أن يكون هو •••

حدّق اليها المستخدم منقلب الهيئة زائغ النظرة •

وعادت امرأة ثانية تقول :

ـ عند آل كو ••• ز ••• متشيف ؟ ولكن ذاك لم يكن اسمه تريفون !

كان اسمه كوزما وليس تريفون • والتلميذ انما ذكر اسم تريفون نيكيتتش • فليس المقصود اذن سابانايف ذاك نفسه •

فانبرت امرأة ثالثة تتدخل فى المناقشة فتقول بعد أن ظلت طول الوقت صامتة تصغى بانتباه شديد :

ـ بل أنت مخطئة • لم يكن اسمه تريفون ولا سابانايف ، بل كان اسمه تشيبوف ، ألكسى ايفانوفتش ، أتذكر ذلك جيداً : ألكسى أيفانوفتش تشيبوف •

قالت بائعة رابعة تؤيد كلام الثالثة بلهجة جازمة :

ـ هذا صحيح • المقصود هو تشيبوف فعلاً •

كان المستخدم ينقل بصره بينهن واحدة واحدة ، وقد بدت في وجهه أمائر الحيرة والذهول • قال الشاب مهموماً :

ـ ولكن لماذا ، لماذا ألقى علىّ هذا السؤال : « هل تعرف سابانايف ؟ » ؟ هلاّ قلتن لى لماذا ألقى علىّ هذا السؤال أيتها النساء الطيبات ! لا يعلم الا الشيطان ما الذى كان يدور فى رأسه حين كلمنى عن ساباناييف •••

فأجابته احداهن بصوت صارم :

ـ ما أنت الا أحمق ! ألم نقل لك ان المقصود ليس ساباناييف بل تشيبوف ، ألكسى ايفانوفتش تشيبوف ؟

ـ تشيبوف ؟ أى تشيبوف ؟ قولى لى ما دمت تعلمين !

ـ هو رجل طويل القامة طويل الشعر ، كانت له دكته فى السوق هذا الصيف •

ـ ما شأنى أنا بصاحبك تشيبوف هذا ؟ هه ؟ قولوا لى أيتها النساء الطيبات !

ـ هل علىّ أنا أن أعرف ما شأنك به ؟

وقالت امرأة أخرى :

ـ هل نعرف نحن ؟ يجب أن تعرف أنت ما الذى يريده منك ، ما دمت تصرخ هذا الصراخ ! لقد كلمك أنت ولم يكلمنا نحن ، يا أهبل ! أم تراك لا تعرف الرجل ؟

ـ أى رجل ؟

ـ تشيبوف طبعاً !

ـ شيطان يأخذ تشيبوف ، ويأخذك أنت أيضاً معه ! سوف أضربه ، ذلك كل ما أقوله لكُنّ ، لأنه سخر منى .

ـ أأنت تضرب تشيبوف ؟

ـ لا ، لا ، ليس تشيبوف من سأضربه ، يا امرأة شريرة تزرع الشقاق ، وانما سأضرب الصبى . أتيننى به الى هنا ، أتيننى به حالاً ، حالاً ...

ضجت النساء تضحك ضحكاً صاخباً . أما كوليا فكان قد ابتعد ، وهو يسير الآن مختالاً اختيال المنتصرين ؛ وأما سموروف الذى يسير الى جانبه فانه يلتفت من حين الى حين نحو عصبة البائعات اللواتى كن يلوحن بأيديهن صائحات . ان سموروف مبتهج هو أيضاً ابتهاجاً كبيراً ، ولكنه يخشى أن يجره كوليا الى قصة لا تحمد عقباها .

سأله سموروف وهو يتنبأ بالجواب :

ـ عن أى سابانايف كلمته ؟

ـ أأنا أدرى ؟ سوف يظلون يتشاجرون فى هذا الأمر حتى المساء . لشد ما أحب أن أحيِّر وأن أربك الأغبياء من جميع طبقات المجتمع . أنظر ! هذا بليد آخر هناك ، ذلك الفلاح ، هل تراه ؟ كثيراً ما يقال : « أغبى الاغبياء غبى فرنسى » . أما أنا فأرى أن وجوه الروس تكشف أحياناً عن غباوة يحسدون عليها . أليس مكتوباً على جبين هذا الرجل مثلاً أنه بليد ؟ اننى أقصد ذلك الفلاح نفسه . ما رأيك ؟

ـ دعه وشأنه يا كوليا . امض بنا !

ـ لن أدعه وشأنه بحال من الأحوال ! اننى اشعر باندفاع لا سبيل الى مقاومته . هيه ! أنت ... هناك ! صباح الخير أيها الفلاح الطيب !

ها هو ذا الرجل المنادى ، وهو فلاح قوى البنية يزدان وجهه المدوّر الخالى من المكر بلحية متناثرة ، ها هو ذا يرفع رأسه ببطء وينظر الى الفتى •

ـ طيب ، ليكن ، صباح الخير ، اذا كنت لا تعبث !

ـ واذا كنت أعبث ؟

ـ لك ما تشاء عندئذ ، اعبث قليلاً أيها الفتى • مباح للمرء أن يتسلى فى هذا العالم • ليس يسىء ذلك الى أحد •

ـ معذرة أيها الطيب ، لقد أردت أن أمزح •

ـ سيغفر الله لك •

ـ وهل تغفر لى أنت ؟

ـ من كل قلبى • امض فى سبيلك !

ـ يبدو لى أنك فلاح ذكى •

ـ أذكى منك على كل حال •

كذلك قال الرجل على غير توقع ، ولكن دون أن يتخلى عن هدوئه ورصانته •

فأجابه مرتبكاً :

ـ أشك فى ذلك •

ـ بلى بلى ! أنا أذكى منك •

ـ قد يكون هذا حقاً •

ـ أرأيت ؟

ـ استودعك الله أيها الفلاح •

ـ استودعك الله •

قال كوليا مخاطباً سموروف بعد بضع لحظات من صمت :

ـ الفلاحون أنواع • لم أكن أتوقع فى هذه المرة أن أقع على فلاح ذكى • اننى أشعر بالسعادة كلما صادفت ذكاءً لدى أبناء الشعب •

وفى بعيد ، دقت ساعة الكاتدرائية الحادية عشرة والنصف • فغذّ الفتيان الخطى ، وقطعا بسرعة ، دون كلام تقريباً ، المسافة الكبيرة التى كانت ما تزال تفصلهما عن منزل الكابتن سنيجيريف • حتى اذا صارا على بعد عشرين خطوة منه ، توقف كوليا وأمر سموروف أن يدخل قبله ليرجو كارامازوف أن يخرج الى الشارع • وقال لسموروف شارحاً :

ـ أريد أولاً أن أتعرف به وأن أتشمم جو المكان •

فاعترض سموروف قائلاً :

ـ علام نأتى به الى هنا ؟ الأفضل أن تدخل رأساً ، وسوف يسعدهم كثيراً أن يروك • ما أغرب هذه الفكرة ، أن تتعرف بالرجل على قارعة الطريق فى هذا البرد الشديد !

قال كوليا يحسم المناقشة بلهجة مستبدة (كان كوليا يحب كثيراً أن يصطنع أوضاع السيطرة والتسلط فى معاملة « الصغار ») :

ـ هناك أسباب تدفعنى الى استدعائه الى هنا ، وأنا أعرف ماذا أفعل•

فأسرع سموروف يطيع الأمر راكضاً الى المنزل •

٤

« يوتشكا »

أسند كوليا ظهره الى السياج ، مصطنعاً هيئة الوقار ، منتظراً وصول أليوشا . انه يتمنى منذ زمن طويل أن يتعرف الى أليوشا . لطالما سمع التلاميذ يتكلمون عنه ، ولكنه كان حتى الآن ، حين يسمع ما يُحكى عن أليوشا ، يتظاهر بقلة الاكتراث وبشىء من الازدراء ، حتى أنه لم يفته ، فى بعض المناسبات ، أن « ينتقد » سلوك أليوشا . الواقع أنه كان فى قرارة نفسه يرغب رغبة قوية فى أن يلقاه : ان شيئا ما ، فى التفاصيل التى تُنقل اليه دائماً عن أليوشا ، كان يحببه به ويجذبه اليه . لذلك كانت اللحظة الراهنة خطيرة : ان عليه قبل كل شىء أن يحافظ على كرامته بتأكيد استقلاله . فهو يقول لنفسه : « والا فقد يعدنى صبياً فى الثالثة عشرة ، فيكلمنى كما يكلم سائر هؤلاء الصبية الصغار . لماذا يعاشرهم معاشرة أصدقاء ؟ سوف ألقى عليه هذا السؤال فى أول فرصة . ان ما يضايقنى خاصةً هو أننى قصير القامة الى هذا الحد من القصر . ان توزيكوف أصغر منى سناً وأطول منى قامةً . ولكن محياى ينم عن ذكاء . أنا دميم ، أعرف ذلك ؛ ان وجهى ليس وسيماً ، ولكنه يعبّر عن ذكاء . ينبغى لى ، من جهة أخرى ، أن أحرص على أن

لا أسرف فى الافصاح عن نفسى والاعراب عن مشاعرى • لو وثبت الى عنقه ، فمن عسى يظننى ؟ أوه ! يا للخــزى ؟ اننى لا أجــرؤ أن أفكر فى هذا ! ••• » •

كذلك كان يتأمل كوليا ، وهو فريسة اضطراب شديد ، رغم كل ما كان يبذله من جهود فى سبيل أن يصطنع هيئة الهدوء وقلة المبالاة • وكان قصر قامته خاصةً هو الذى يقلقه أكثر مما يقلقه وجهه « المحروم من الوسامة » • نعم ، قصر قامته• لقد رسم منذ العام الماضى ، على الجدار ، فى بيته ، خطاً بقلم الرصاص ، يشير الى طول قامته ؛ وهو منذ ذلك الحين حتى الآن ، يقف تحت هــذا الخط كل شــهرين ، مهموم القلب ، قلق البال ، ليعرف هل زاد طوله أم هو لم يزد • ومن المؤسف أن طوله كان لا يزداد الا ببطء • فكان ذلك يملأ نفسه فى بعض اللحظات كمداً ويأساً. والحق أن قسمات وجهه لم تكن « محرومة من الوسامة » ، بل لقد كانت لطيفة محببة • ان وجهه أبيض شــاحب ، فيه بقع احمــرار • وان عينيه الشهباوين صغيرتان ولكنهما تفيضان حيــاة ونشــاطاً ، وتنظران نظرات جريئة ، ويلتمع فيهما لهيب من العاطفة فى بعض الأحيان • وان وجنتيه عريضتان ، وشفتيه صغيرتان دقيقتان ، ولكنهما فى مقابل ذلك حمراوان جداً • أما أنفه فقد كان دقيقاً كذلك ، وكان أفنى • فكان كوليا اذا نظر الى وجهه فى المرآة ، أشاح عن صورته مشــمئزاً وهو يدمدم : « أنف أفطس ، أفطس تماماً » • وكان يتساءل فى بعض الأحيان ، وقد راوده الشك حتى فى هذا : « هل لى حقاً وجه ذكى ؟ » • يجب أن لا نظن مع ذلك أن همّ قامته ووجهه كان يستغرق كل فكره • فان الأمر لم يكن كذلك قط • فمهما تكن اللحظات التى كان يقضيها منفرداً بالمرآة قاسية ، فقد كان ينساها بسرعة ، ثم لا تخطر بباله فترات طويلة « وانما تشــغله

عنها الأفكار والحياة الواقعية شغلاً كاملاً » ، على حد التعبير الذى كان يحلو له أن يعرّف به نشاطه وعمله .

لم يلبث أليوشا أن ظهر ، فاتجه كوليا بخطى سريعة . فلاحظ كوليا ، من بعد ، أنه مشرق الوجه منبسط الأسارير . تساءل مغتبطاً : « هل يبهجه الى هذه الدرجة أن يرانى ؟ » . يجب أن نقول هنا أن أليوشا كان قد تغير كثيراً عما كان عليه فى اللحظة التى تركناه فيها . هو لا يرتدى الآن مسوح الدير ، بل يرتدى بدلة أنيقة ، ويضع على رأسه لبادة رمادية ، وقد قصّ شعره قصيراً ، وكان هذا الزى يناسبه كثيراً ، وقد أصبح شاباً وسيماً حقاً . وما يزال وجهه البهيج يشع فرحاً ، غير أن هذا الفرح قد أصبح الآن هادئاً . وكأنه متجمع على نفسه . وقد دُهش كوليا حين رأى أليوشا يخرج الى الشارع بلا معطف ، ولا شك أن أليوشا قد نسى من تعجله أن يرتدى معطفه .

مدّ اليوشا يده الى كوليا بغير تكلف قائلاً له :

ـ هأنت ذا أخيراً ! لقد انتظرنا أن نراك ، بصبر نافد .

ـ أعلم أننى قد تأخرت ، وسأشرح لك أسباب ذلك . على كل حال ، يسعدنى أن أتعرف اليك . لطالما تمنيت أن تتاح لى هذه الفرصة ، لأننى سمعت عنك كثيراً .

كذلك دمدم يقول كوليا بصوت مضطرب ، لأن الانفعال قد قطّع أنفاسه .

ـ كنا سنتعارف على كل حال . أنا أيضاً سمعت عنك كثيراً . ولكنك أسرفت فى التأخر عن المجىء الى هنا ، أسرفت اسرافاً شديداً .

ـ قل لى : كيف هو الآن ؟

ـ حالة ايليوشا سيئة جداً . سيموت لا محالة .

هتف كوليا يقول بحرارة :

ـ كيف هذا ؟ هلاّ اعترفت أن الطب كريه مقيت يا كارامازوف !

ـ هل تعلم أن ايليوشا قد نطق باسمك مراراً ؟ حتى لقد كان في بعض الأحيان يتكلم عنك في أحلامه ، وفي لحظات هذيانه أيضاً . واضح جداً أنه كان متعلقاً بك أشد التعلق في السابق ... قبل ذلك الحادث ... حادث الموسى . يبدو أن لهذا سبباً آخر ... قل لي : أهذا كلبك ؟

ـ نعم ، هو « برزفونه » .

ـ آ ... أليس هو « يوتشكا » اذن ؟ فهل فُقد « يوتشكا » الى الأبد ؟

كذلك قال أليوشا وهو ينظر الى عيني أليوشا حزيناً .

فقال أليوشا وهو يبتسم ابتسامة ملغزة :

ـ أعرف أنكم جميعاً هنا تفكرون في « يوتشكا » وتحلمون به . اني مطلع على هذا الأمر . اسمع يا كارامازوف ، سأشرح لك هذه القصة. اذا كنت قد جئت الى هنا ، واستدعيتك ، فانما فعلت ذلك لأبسط لك الموقف مقدماً قبل أن ندخل البيت .

وتابع كوليا كلامه قائلاً بحماسة متزايدة :

ـ في هذا الربيع انما دخل ايليوشا الصف التحضيري . وأنت تعلم ما هو الصف التحضيري : صبية ، أولاد صغار . فسرعان ما أخذوا يعاكسون ايليوشا . وأنا أتقدمه بصفين ، فكنت أرقب تلك المشاهد ، من بُعد طبعاً . رأيت أن الطفل صغير ، هزيل ، ولكنه لا يخضع

ولا يستكين ، حتى لقد يمضي الى حد مقاتلتهم ضربا بالأيدى • لقد كان ذا انفه وكبرياء ، وكانت عيناه تقدحان شررا • انني احب الصبيان الذى هم على هذه الشاكلة • وكان الاخرون يشاكسونه مزيداً من المشاكسه بسبب هذه الكبرياء ! وكانت ثيابه خاصه هي التي تحتمل الاستهزاء به حينذاك : سروال مشمور ، حداءان متثائبان ••• كان الصبية يندفعون الى التهكم عليه فرحين ، وكانوا يحاولون اذلاله • أخذ ذلك يسوءني ، فسرعان ما تدخلت فأدبتهم • انني أضربهم متى وجب أن أضربهم ، وهم مع ذلك يعبدونني عبادة ، هل تعرف ذلك يا كارامازوف ؟ (كذلك أضاف كوليا متفاخراً) • وأنا أعبد الأطفال على كل حال • وأعلم أن عندى في البيت ، في هذه اللحظة نفسها ، طفلين أعنى بهما ، وهما اللذان أخراني • هكذا كفّ الصبيان عن اضطهاد ايليوشا ، وأصبحت أحميه • ولقد كان الولد شديد الكبرياء ، صدّقني ، شديد الكبرياء جداً ، ولكنه أذعن لي أخيراً اذعان عبد ، فهو ينفذ أوامرى ، ويصغي الىّ اصغاءه الى اله ، ويحاول أن يقلدني في كل شيء • كان في أثناء فترات الاستراحة بين الدروس يهرع الىّ فوراً ، فنمضي نتروض معاً • وكذلك في أيام الآحاد • والتلاميذ في مدرستنا يتهكمون عادةً حين يرون كبيراً يرتبط هذا الارتباط بصغير ، ولكن تلك آراء سخيفة • لقد كانت معاشرته تسرني ، أفليس هذا سبباً كافياً ؟ وحاولت أن أعلمه ، أن أنمي ثقافته ، ولماذا لا أحاول تثقيفه ما دام محبباً الى نفسي ! أنت نفسك يا كارامازوف قد ارتبطت بجميع هؤلاء الصبية الصغار • فأنت تريد اذن أن تحدث أثراً في الجيل الجديد ، أن تغيره ، أن تكون نافعاً له • انني اعترف لك بأن هذه الصفة من صفات طبعك التي عرفتها مما يرويه الرفاق عنك هي التي شاقتني فيك أكثر من أى شيء آخر • ولكن فلنعد الى الوقائع : لقد أدركت أن الصبي أخذ يصير الى الافراط في الحساسية ، في العاطفية • وأنا أكره

أشــد الكره هذه « العواطف التى تشـبه عواطف العجول » ، أكرههـا وأمقتها منـذ ولدت ، فاعلم هـذا ! وقد لاحظت عـدا ذلك شــيئاً من التناقض فى وضعه : فهو من جهة أولى شديد الأنفة والكبرياء ، وهو من جهة ثانية مخلص لى اخلاص عبد • كان يطيعنى فى كل أمر خاضعاً ، ثم اذا بعينيه تقدحان على حين فجأة شرراً ، فلا يريد أن يوافقنى ، بل هو يناقش ويماحك ويغضب • كان يتفق لى أن أعرض له بعض الآراء • لن أقول انه كان يعارض عندئذ هذه الآراء ، فلقد كنت أرى رؤية واضحة أن معارضته كانت تستهدفنى أنا شخصياً ، وأنه كان يتمرد ويعصى لأننى كنت أرد على اندفاعات عاطفته ببرود • عندئذ قررت ، حتى أربيه ،أن أظهر له مزيداً من البرود وأن أقوّى تحفظى تجاهه على قدر ازدياد تعلقه بى • كان ذلك من جانبى موقفاً مقصوداً محسوباً ، يتفق ومبادئى • لقد أردت أن أنشىء طبعه ، أن أقوى عزيمته ، أن أصلّب ارادته ، أن أخلق منه رجلاً ••• الخلاصة ••• لا شك أنك تفهمنى بنصف كلمة • وفى ذات يوم ، لاحظت فيه اضطراباً غريباً • كان يبدو منهاراً مصعوقاً • وظل على هذه الحال أياماً • أدركت أن هذا التبدل لا يمكن أن يكون مردّه الى قلة عاطفتى وحدها ،وأن له أسباباً أخرى أقوى وأرفع• تساءلت ما عسى تكون الدرامة التى تجرى فى نفسه • ولاحقته بالأسئلة ، فاذا أنا أعرف الحقيقة : لقد تعـرّف ، لا أدرى كيف ، الى سـمردياكوف خادم المرحوم أبيك (الذى كان ما يزال حيـاً فى تلك الآونة) • فعمد سمردياكوف الى تعليم هذا الأحمق الصغير مزحة سخيفة غبية ، بل قل مزحةً وحشية حقيرة هى أن يأخذ لب الخبز فيدس فيه دبوساً ثم يلقيه طعاماً الى كلب تائه ، الى واحد من تلك الحيوانات الساغبة التى تبلع ، دون مضغ ، كل ما يقع تحت أسـنانها •••• وذلك ليرى ما عسى يحدث بعد ذلك • هكذا أعدّا لقمة من خبز ، وألقياها الى « يوتشكا » ذاك

الكلب الضخم الطويل الشعر الذى كثيراً ما جرى الحديث عليه منذ ذلك الحين • هو كلب من تلك الكلاب التى ينسى الناس أن يطعموها ، والتى تقضى النهار كله نابحة على الهواء (هل تحب ذلك النباح الغبى يا كارامازوف ؟ أما أنا فلا أستطيع احتماله) • انقض الكلب المسكين على لقمة الخبز ، فبلعها ، فسرعان ما أخذ يعول متلوياً من الألم ، ثم انصرف على الفور راكضاً لا يلوى على شىء ، آناً متوجعاً • هكذا اختفى ذلك الكلب ، على حسب الرواية التى رواها لى ايليوشا نفسه • لقد اعترف لى ايليوشا بفعلته وهو يبكى ، فهو ينتحب انتحاباً قوياً ويعانقنى متشنجاً ، وما ينفك يكرر قوله : « كان الكلب يركض ويئن ، يركض ويئن •• » فالى هذا الحد كان تأثره من ذلك المنظر !••• لاحظت أن عذاب الضمير يضنيه ، وأن الندم يهده هداً • أخذت الأمر مأخذ الجد • كنت حريصاً خاصة على أن أعاقبه على سلوكه السابق ، فعمدت الى الحيلة والمكر ••• أعترف لك بذلك • تظاهرت باستياء شديد من فعلته ، استياء أشد كثيراً من استيائى فى الواقع • قلت له : « لقد ارتكبت عملاً حقيراً ، عملاً جباناً ••• أنت نذل ••• لن أشى بك طبعاً ، ولكننى أنهى الآن علاقات الصداقة بيننا • وسأفكر فى الأمر ، ثم أبلغك بواسطة سموروف (هو الصبى الذى صحبنى الى هنا ، وكان مخلصاً لى على الدوام) هل قررت أن أعيد الصلة بينى وبينك ، أم قررت أن أهجرك الى الأبد فتى نذلاً لا يستحق الاهتمام » • أحدثت هذه الأقوال فى نفسه أثراً رهيباً • وسرعان ما أحسست ــ أعترف لك بذلك ــ أننى أقسو عليه قسوة قد يكون فيها غلو واسراف • ولكن ما العمل ؟ لقد كنت أعمل بوحى من اقتناعاتى • وفى الغد ، أرسلت اليه سموروف لأبلغه أننى « لن أكلمه بعد اليوم قط » • تلك هى الاصطلاحات التى نستعملها فى المدرسة للتعبير عن انقطاع كل اتصال بين رفيقين • والحقيقة أننى كنت أريد أن أهجره

بضعة أيام فقط ، ثم أمد اليه يدى حين أرى ندامته . تلك كانت نيتى الجازمة على كل حال . ولكن ماذا تظن أنه حدث ؟ اصغى الى الرسالة التى بلغه اياها سموروف ثم صاح يقول له وقد قدحت عيناه شرراً : « أبلغ كراسوتكين أننى سألقى بعد الآن لقم خبزٍ فيها دبابيس الى جميع الكلاب ، الى جميع الكلاب ! » . قلت لنفسى عندئذ : « ها ... ها ... لقد استيقظت فيه روح التمرد ، فيجب أن تُقمع وتُقهر » . وأظهرت له منذ ذلك الحين احتقاراً تاماً ، معرضاً عنه كلما لقيته أو مبتسماً ابتسامة صغيرة ساخرة . وفى تلك الآونة انما وقعت لأبيه تلك الحادثة ، حكاية الليفة كما تعلم . انك لتقدّر الآن أن الصغير قد أصبح منذ ذلك الحين مهيأً لنوبات عنف . واذ رأى التلاميذ أننى هجرته فقد هاجموه من جديد ، صائحين له من أجل اغاظته واخراجه عن طوره : « الليفة ، الليفة ، الخ » . كان ذلك بداية مشاجرات آسف لها أسفاً شديداً ، ذلك أننى أعتقد أنه قد كيلت له الضربات فى ذات مرة . وفى يوم من الأيام هجم عند الخروج من المدرسة على العصبة كلها . وشاءت المصادفة أن أكون على بعد عشر خطوات منه ألاحظه وأرقبه . أحلف لك أننى لم أكن قد سخرت منه. بالعكس : لقد أيقظ فى نفسى عندئذ شفقةً كبيرة ، شفقة كبيرة جداً . وكنت أوشك أن أهب الى نجدته . ولكن نظرته التقت بنظرتى فجأة . ولست أدرى ما الذى ظن أنه يقرؤه فى عينىّ ، ولكنه استل موساه بغتةً ، وهجم علىّ ، فأغمد الموسى فى وركى ، هنا ، فوق الساق اليمنى قليلاً . لم أتحرك . أعترف لك يا كارامازوف أننى أبرهن فى بعض الظروف على شجاعة . لم أزد على نظرت اليه باحتقار ، وكانت نظرتى تقول بوضوح : « أهذا كل شىء ؟ ألا تريد أن تضربنى أيضاً ، عرفاناً منك بالصداقة التى حملتها لك ؟ هيّا ، افعل بى ما تشاء ! » . ولكنه أخفى موساه ، وفقد شجاعته فجأة ، وخاف ، ثم لم

يملك زمام نفسه ، فاذا هو ينفجر باكياً ناشجاً . ثم ولى هارباً . لم أش به طبعا . حتى لقد أمرت جميع التلاميذ بان يكتموا ما وقع بغية ان لا يصل الامر الى مسمع الادارة . ولم أقل لامي شيئاً كذلك ، ولم أقصص عليها الواقعة الا بعد أن التأم الجرح التئاماً تاماً . وكان الجرح خدشاً بسيطاً على كل حال . وقد علمت بعدئذ أنه فى ذلك اليوم نفسه اقتتل مع رفاقه ، ورماهم بالحجارة ، وعض احدى أصابعك . لا شك أنك تدرك الآن الحالة النفسية التى كان عليها حينذاك . ما العمل ؟ انه ليؤسفنى أننى تصرفت تصرفاً أحمق . فحين مرض لم أزره لأغفر له... أقصد ... لأتصالح معه ... وأنا الآن نادم على ذلك . ولكن ينبغى لى أن أقول مع ذلك أن هناك ، فى هذه القضية ، أسباباً دفعتنى الى أن أتصرف كما تصرفت . الخلاصة ... هذه هى القصة كلها ... ولكن واضح" أننى تصرفت تصرفاً أحمق ...

صاح أليوشا يقول بانفعال شديد :

ــ أوه ! خسارة أننى لم أعرف قصة علاقاتك بايليوشا ... والا لجئتك منذ زمن طويل راجياً أن تصحبنى اليه . تصور أنه كان يتكلم عنك أثناء مرضه وهذيانه . كنت أجهل أنك عزيز على نفسه الى ذلك الحد . هل يمكن فعلاً أن لا تكون قد عثرت على « يوتشكا » ؟ ألم تجده حقاً ؟ ان أبا ايليوشا ورفاقه قد بحثوا عن الكلب فى المدينة كلها . هل تتصور أن ايليوشا قد قال لأبيه ثلاث مرات بحضورى ، قال له مريضاً باكياً : « لئن كنت أتألم يا بابا ، فلأننى قتلت يوتشكا ... ان الله يعاقبنى » . لا سبيل الى اخراج هذه الفكرة من رأسه ! لو استطعنا على الأقل أن نهتدى الى يوتشكا وأن نريه اياه حتى يعلم أن الكلب لم يمت ، اذن لبعث حياً من شدة الفرح . ولقد كنا جميعاً نعوّل عليك فى هذا .

سأل كوليا بفضول شديد :

ـ لماذا قدرتم أننى سأعثر على « يوتشكا » ؟ لماذا كنتم تعوّلون علىّ أنا ولا تعولون على أحد غيرى ؟

ـ شاع أنك تبحث عن الكلب وأنك ستجيء به الى ايليوشا متى وجدته • أسمعنا سموروف فى ذات مرة شيئاً من هذا القبيل • ونحن جميعاً نجهد فى أن نقنع ايليوشا بأن « يوتشكا » حى ، بأنه رُئى فى مكان ما • وقد جاءه رفاقه بأرنب لا أدرى من أين حملوه ، فنظر ايليوشا الى الحيوان الصغير مبتسماً ابتسامةً ضعيفة ، وطلب أن ترد الى الأرنب حريته • فعلنا ذلك • وفى تلك اللحظة نفسها عاد أبوه مصطحباً كلباً صغيراً غير مفطوم من كلاب الحراسة • كان الأب يظن أن هذا سيواسى ابنه • ولكننى أخشى أن تكون حالة الابن قد ازدادت سوءاً بسبب ذلك •••

ـ قل لى أيضاً يا كارامازوف : الى أى نوع من الرجال ينتمى أبوه ؟ اننى لا أعرفه الا بالنظر • فما هو فى رأيك ؟ أهو مهرّج ؟

ـ لا !••• ان هناك أناساً أوتوا حساسية عميقة ، ولكن القدر قد صعقهم وسحقهم • وما تهريجهم عندئذ الا نوع من الانتقام المرّ الساخر ازاء أولئك الذين لا يجرؤون أن يواجهوهم ولا يجسرون ، من فرط ما اعتادوا الخضوع الذليل ، أن يصارحوهم بالحقيقة وجهاً لوجه • ثق يا كوليا أن هذا التهريج يمكن أن يكون له ، فى بعض الحالات ، أساس تراجيدى جداً • ان أفكاره كلها وحياتها كلها قد تركزت الآن على ايليوشا • يكفى أن يموت ايليوشا حتى يُجنّ حزناً أو ينتحر • اننى لا أنظر اليه مرة الا وأصبح على مثل اليقين من ذلك •

قال كوليا بلهجة قاطعة :

ـ أفهمك يا كارامازوف • ألاحظ الآن أنك خبير فى معرفة النفس الانسانية •

ـ لقد ظننت حين رأيتك منذ قليل مع هذا الكلب أنك تجيء بيوتشكا .

ـ صبراً يا كارامازوف . قد نعثر على ذلك الكلب . أما هذا فهو «برزفونه» . سأتركه فى غرفة ايليوشا ، وأغلب الظن أنه سيتسلى به أكثر مما يتسلى بكلب الحراسة الصغير ذاك الذى أتاه به أبوه . اسمع يا كارامازوف . سأذكر لك بعض الأمور . آه ... رباه ! ماذا أفعل ؟ (هكذا صاح كوليا قلقاً مهموماً) ... أؤخرك فى هذا البرد الشديد وأنت بغير معطف ! هأنت ذا ترى مدى أنانيتى ... نحن جميعاً أنانيون ، وا أسفاه !

ـ لا تقلق . صحيح أن الجو بارد . ولكننى لا أصاب بالزكام بسهولة . على أننا نحسن صنعاً اذا نحن دخلنا البيت . بالمناسبة : ما اسمك؟ أنا أعرف أنهم ينادونك كوليا ، ولكن كوليا ماذا ؟

ـ اسمى نيقولا ، نيقولا ايفانوف كراسوتكين ، أو نيقولا ايفانوف بن كراسوتكين ، اذا أردنا أن نستعمل لغة الدواوين .

كذلك قال كوليا وهو يضحك ضحكة صغيرة غريبة . ثم أسرع يضيف :

ـ لعلك تقدّر اننى أكره اسم نيقولا هذا الذى أحمله ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنه مبتذل ، تافه ...

ـ أأنت فى السنة الثالثة عشرة من عمرك ؟

ـ بل فى الرابعة عشرة . سأتم الرابعة عشرة بعد أسبوعين . وأحب أن أعترف لك رأساً بوجه من وجوه ضعفى يا كارامازوف حتى تعرف

طبعي معرفة جيدة منذ البداية : انني أكره أن أُسأل عن عمري ، بل أمقت ذلك أشد المقت ... ثم ... يجب أن أقول لك ... هناك نميمة في حقي تجري الآن وتشيع ... انهم يدعون أنني لعبت في الأسبوع الماضي مع تلاميذ الصف التحضيري لعبة اللصوص ... صحيح أنني لعبت هذه اللعبة ... لست أنكر ذلك ... أما أن يُقال انني لعبتها لنفسي ، لمسرتي أنا ، فذلك تشنيع كريه . هناك أسباب تدفعني الى الاعتقاد بأن هذه الشائعة قد بلغت مسمعك . فاعلم اذن أنني لم ألعب هذه اللعبة بدافع ميل شخصي ، وانما لعبتها لأسرّ الأطفال الذين لا يستطيعون أن يتخيلوا شيئاً بدوني . ان الناس في هذه المدينة يحبون الأقاويل . ان هذه المدينة لا تعيش الا على الثرثرات ، أؤكد لك ذلك .

ـ هبك لعبت لمسرتك الخاصة ، فأي ضير في هذا ؟

ـ لمسرتي الخاصة ؟ ما هذا الكلام ؟ أترتضي أنت أن تلعب لعبة الحصان مثلاً ؟

قال أليوشا مبتسماً :

ـ فكرّ قليلاً : في المسرح تُمثّل التمثيليات للكبار ، ومع ذلك نرى فيها مغامرات أبطال ، ومعارك حروب ، بل ونرى فيها لصوصاً من قطاع الطرق في بعض الأحيان . أليس هذا هو ذلك اللعب نفسه في حقيقة الأمر ، وانما اكتسى صورة أخرى ؟ اعلم أن الصبيان الصغار ، حين يلعبون لعبة الحرب أو لعبة اللصوص من قطاع الطرق ، اثناء فترات الاستراحة بين الدروس ، انما يقومون بعمل فني أيضاً على طريقتهم الخاصة . هذا فن ناشيء ، هذه تطلعات فنية تتجلى في نفوس الصغار . وان هذه الألعاب لتكون في بعض الأحيان أجمل من تمثيليات المسرح . الفرق الوحيد هو أن الناس يجيئون الى المسرح ليروا الممثلين ، على حين

أن الأطفال في ألعابهم هم ممثلون ومشاهدون فى آن واحد . هذه سلوى مشروعة تماماً .

سأل كوليا وهو ينظر الى أليوشا باتباه شديد :

ـ أتعتقد بذلك حقاً ؟ أهذه قناعتك ؟ انك تعبّر عن فكرة شائقة جداً ، هل تعلم ذلك ؟ سأفكر فيها ملياً وسأجترها اجتراراً حين أعود الى منزلى بعد قليل. لقد كنت أتوقع أن أتعلم منك أموراً شائقة ، أعترف لك بذلك . أننى أحب أن أتعلم منك يا كارامازوف .

بهذا ختم كوليا كلامه متحدثاً بلهجة نافذة حارة . فأجابه أليوشا وهو يبتسم له ويصافحه :

ـ وأنا أيضاً أريد أن أتعلم منك .

كان كوليا مفتوناً بأليوشا . ولقد أرضاه خاصة أن يعامله أليوشا معاملة الند للند ، كما يعامل « شخص كبير » .

قال كوليا وهو يضحك ضحكةً عصبية صغيرة :

ـ سأريك حيلة يا كارامازوف ، هى نوع من التمثيل المسرحى . لهذه الغاية انما جئت الى هنا .

ـ لندخل أولاً الى عند أصحاب الدار ، فى اليمين . لقد خلع جميع رفاقك معاطفهم ، لأن جو الغرفة خانق ، والمكان ضيق .

ـ لن أمكث مدة طويلة ، فلا حاجة الى خلع معطفى . وسيبقى «برزفونه» فى الدهليز ، ويتظاهر بالموت . تعال يا « برزفونه » . أرقد ومت . ها هو ذا قد مات . سأدخل أولاً ، فأرى ما يجرى ، ثم أصفر فى اللحظة المناسبة منادياً : تعال يا «برزفونه» . فيسرع الكلب وقد جُنّ فرحاً . ولكن يجب أن لا ينسى سموروف أن يفتح الباب فى اللحظة المناسبة . سألقى اليه التعليمات اللازمة ، فترى هذا الفصل .

٥

على سرير اليوشا

المكان ضيق والجو حار فى الغرفة التى تسكنها أسرة الكابتن المتقاعد سنيجريف ، والتى كان يتكدس فيها فى تلك الساعة زوار كثيرون جداً • ان عدداً كبيراً من الصبيان يقفون قرب سرير ايليوشا • ورغم أنهم مستعدون جميعاً ، مثل سموروف نفسه ، أن ينكروا أن يكون تصالحهم مع ايليوشا هو من صنع أليوشا ، فلقد كان الأمر كذلك فى الواقع • ولقد كانت كل براعة أليوشا هو أنه قادهم الى غرفة أليوشا واحداً بعد واحد ، متحاشياً الاندفاعات العاطفية ، متحاشياً ما كانوا يسمونه « عواطف العجول » ، حريصاً على أن يضفى على هذه الزيارات مظهر بادرة عفوية طارئة • وقد أحسنت هذه الزيارات الى ايليوشا ، وواسته كثيراً • ان هذه الصداقة القوية وهذا الاهتمام الكبير اللذين يظهرهما له هؤلاء الصبية ، اعداؤه القدامى ، قد أثرت فى نفسه تأثيراً عميقاً • ليس ينقصه الآن الا كراسوتكين • ان غياب كراسوتكين يثقل على صدره كثيراً • ان سوء التفاهم الذى نشب بينه وبين كراسوتكين ، صديقه الوحيد وحاميه ، هو بين ذكرياته المرة آلمها جميعاً •

وذلك ما أدركه سموروف حق الادراك (وهو فتى ذكى جداً كان أول من جاء يصالح ايليوشا) • ولكنه حين أبلغ كراسوتكين ، بكلمات مغطاة ، أن أليوشا يحب أن يراه « لأمر من الأمور » ، فان كوليا قد أسرع يقطع حديثه معه ، وكلفه بخشونة وجفاء أن يقول لكارامازوف انه يعرف بنفسه ما الذى يجب عليه أن يعمله وانه ليس فى حاجة الى نصائح أحد • وأضاف الى ذلك أنه اذا قرر أن يعود المريض فسيفعل ذلك فى الوقت الذى يراه مناسباً ، لأن له «آراءه الخاصة» بهذا الصدد • حدث ذلك قبل يوم الأحد هذا بخمسة عشر يوماً • وذلك هو السبب فى أن أليوشا لم يزره كما كان ينوى أن يفعل• وبانتظار فرصة مواتية أرسل سموروف الى كراسوتكين مرتين ، ولكن كوليا أجاب فى المرتين كلتيهما بخشونه وتذمر ، وأبلغ أليوشا أنه سوف يعدل عن زيارة ايليوشا الى الأبد اذا ارتأى أليوشا أن يجىء اليه ؟ وطلب أن يُترك وشأنه بعد الآن • وكان سموروف نفسه يجهل الى آخر يوم أن كوليا قد قرر أن يجىء الى ايليوشا فى هذا الصباح • وفى عشية ذلك الأحد ، حين ودّع كوليا صاحبه سموروف ، انما أمره بأن ينتظره فى صباح الغد ليذهبا معاً الى أسرة سنيجيريف • وقد أوصاه ملحاً بأن لا ينبىء أحداً بأمر هذه الزيارة ، لأنه يريد أن يحضر على غير توقع أو انتظار • وأطاعه سموروف • كان سموروف يرجو فى سرّه أن يجىء كوليا بالكلب « يوتشكا » ، لأن كراسوتكين قد أفلتت منه فى ذات مرة ، بحضور سموروف ، كلمات مفادها « أنهم جميعاً حمير ، لأنهم لمّا يستطيعوا بعد أن يعثروا على الكلب ، اذا كان الكلب ما يزال حياً » • ومع ذلك ، حين سمح سموروف لنفسه فى ذات يوم ، لاعتقاده بأن الفرصة مواتية ، بأن يشير اشارة غامضة الى موضوع الكلب أثناء حديث له مع كراسوتكين، فان كراسوتكين غضب وصرخ يقول : « أأنا حمار حتى أضيّع وقتى

فى البحث فى أرجاء المدينة كلها عن كلاب الآخرين ، بينما أنا أملك كلبى «برزفونه» ؟ وهل أبلغ من الغباء من جهة أخرى حدّ الاعتقاد بأن كلباً من الكلاب يمكن أن يبقى حياً بعد أن بلع دبوساً ؟ ألا دعونا من عاطفيات العجول هذه ! » .

لقد أصبح ايليوشا منذ خمسة عشر يوماً لا يبارح سريره الموضوع فى زاوية الغرفة تحت الأيقونات . وهو لم يرجع الى المدرسة منذ اليوم الذى التقى فيه بأليوشا وعضّ له اصبعه . لقد رقد فى سريره فى ذلك المساء نفسه ، ولكن كان يتفق له أثناء الشهر الأول من مرضه أن ينهض فى بعض الأحيان ليسير بضع خطوات فى الغرفة أو الدهليز . غير أنه ضعف شيئاً فشيئاً حتى أصبح لا يستطيع أن يتحرك بدون مساعدة أبيه . وكان الأب يرتعد خوفاً على حياة ابنه ، حتى لقد كف عن الشراب ، وكانت خشيته من أن يشهد موت ابنه تجعله شبه مجنون . وكثيراً ما كان يتفق له ، بعد أن يروّض صغيره فى الغرفة ممسكاً به من ذراعه ، وبعد أن يساعده على الرقاد ثانيةً فى سريره ، أن يهرب الى ركن مظلم من الدهليز ، فيضع جبينه على الجدار ويأخذ يبكى بكاءً متشنجاً ، وهو يخنق أصوات نشيجه حتى لا يسمعها ايليوشا . فاذا عاد الى الغرفة حاول أن يسلّى عزيزه الصغير وأن يفرحه وأن يبهجه ، قاصاً عليه حكايات هزلية أو راوياً له نكتاً مضحكة أو مقلداً أمامه أوضاعاً مضحكة لأشخاص لقيهم، أو محاكياً له أصوات حيوانات مختلفة . وكان ايليوشا مع ذلك لا يحب لأبيه أن يمثل هذا التمثيل وأن يقوم بدور المهرّج أمامه . كان يحاول أن يخفى الضيق الذى يحسه ، ولكنه كان يدرك حق الادراك فى قرارة قلبه المحطم المسحوق ، أن أباه قد أذلّه المجتمع ، وأن ذكرى ذلك اليوم الرهيب فى الكاباريه تحاصره ولا تبارحه لحظة . وكانت نينا الكسيحة ، أخت ايليوشا ، المهيضة الوديعة ، تكره هى أيضاً أن ترى مايقوم به أبوها

من حركات مضحكة (أما فرفارا نيقولايفنا فقد سافرت الى سان بطرسبرج منذ زمن طويل لتتابع دراستها) • ولا كذلك الأم البلهـاء ، فقد كانت تجد في ذلك لذة كبيرة ، وكانت تضحك من كل قلبها متى أخذ زوجها يقـوم بحـركاته الهزلية • كان ذلك هو الشيء الوحيد الذى يمكن أن يسرها وأن يسرّى عنها • وهى فى كل ما عدا ذلك من وقت ، لا تكف عن الشكوى والبكاء ، قائلة ان الجميع قد نسوها ، وان أحداً لا يحترمها ، وان الاساءات والاهـانات تنصب عليها ، الخ • غير أن تبدلاً لم يكن فى الحسبان قد حدث لها منذ بضعة أيام • أصبح يتفق فى كثير من الأحيان أن تنظر صامتة الى ايليوشا فى ركنه ، فاذا هى تطرق وتغرق فى التفكير • لقد أصبحت أقرب الى الصمت ، وبدا عليهـا شيء من هدوء ، فاذا بكت حاولت أن لا يُسمع بكاؤها • وقد لاحظ الكابتن هذا التبدل فشعر بدهشة أليمـة • ولقد كانت زيارات رفاق الابن تضـايق الأم الخرفة فى أول الأمر ، ولا تزيد على أن تثير غضبها وحنقها • ولكن صرخاتهم الفرحة وحكاياتهم المسلية أخـذت بعدئذ تسرّى عنهـا ، ثم أصبحت الأم تحب هؤلاء الأولاد ، وبلغت من ذلك أخيراً أن وجودهم غدا ضرورة لا غنى لها عنهـا ، فاذا غابوا هوت الى حـزن مرهق • كانت اذا قصّ التلاميذ حكايات أو أخـذوا يلعبون ، تضحك أو تصفق بيديها ، وتنـاديهم اليها فى بعض الأحيان فتقبلهم • وكان الفتى سـموروف يحظى بايثارها اياه على غيره • أما الـكابتن فكان مجيء التلاميذ يملؤه فرحاً طافحاً فى كل مرة ، وكان يأمل فى تلك اللحظات أن يسرّى وجودهم عن ايليوشا ، فيشفى بسرعة متى كف عن الحزن • كان لا يشـك لحظة ، رغم جميع المخاوف التى توقظها فى نفسه حالة ابنه ، فى أن ابنه سيسترد عافيته ، وكان هذا الاقتنـاع هو الذى شـد أزره حتى هذه الأيام الأخيرة • انه يستقبل هؤلاء الزوّار الصغار باحترام وتأثر ، وينهمك حولهم ، ويضع

نفسه فى خدمتهم ، ويقترح عليهم أن يحملهم فوق ظهره ، ولا شك أنه كان سيفعل ذلك لولا أن ايليوشا قد أظهر شيئاً من عدم الرضى عن وضع أبيه هذا . لذلك كفوا أخيراً عن هذه الألعاب . غير أن الأب قد عوّض الأولاد عن هذا ، فأصبح يشترى لهم سكاكر وفطائر وجوزاً ، ويعد لهم شاياً وحلوى بالفاكهة . يحسن أن نذكر هنا أن المال أصبح لا يعوزه فى هذه الفترة . فقد قبل أن يأخذ المائتى روبل التى أرسلتها اليه كاترين ايفانوفنا بعد رفضه الأول ، قبلها فى هذه المرة بغير عناء ، كما أن ما تنبأ به أليوشا فى هذا الصدد قد ثبت صدقه ، فقد جاءت اليهم كاترين ايفانوفنا بنفسها لتتعرف اليهم ، واستطاعت أن تفتن حتى الأم البلهاء ، واستمرت منذ ذلك الحين على مساعدتهم ، ونسى الكابتن كبرياءه القديمة وارتضى أن يتلقى هذه المعونات من شدة خوفه أن يفقد ابنه . وقد أصبح الدكتور هرتسنشتوبه يعود المريض كل يومين بطلب من كاترين ايفانوفنا ، ولكن تدخله لم يسفر عن نتائج طبية كثيرة رغم الأدوية الكثيرة التى حشا بها المريض . غير أنهم ينتظرون طبيباً جديداً جاء من موسكو ، حيث ينعم بشهرة واسعة وصيت ذائع . لقد طلبته كاترين ايفانوفنا خصيصاً ، لقاء أجور باهظة . صحيح أنها لم تستدعه من أجل أن يعالج ايليوشا ، وانما هى استدعته لغرض آخر سنتحدث عنه فيما بعد ، ولكنها انتهزت فرصة وجوده فى مدينتنا ، فرجته أن يعود المريض الصغير أيضاً ، وأبلغت الكابتن ذلك فى الوقت المناسب . ولكن الكابتن ، فى مقابل ذلك ، لم يكن يتوقع زيارة كوليا كراسوتكين ، رغم أنه تمنى منذ زمن طويل أن يجيء هذا الفتى الذى تكلم عنه ايليوشا بكثير من الحنين ، وكان أمره يعذبه عذاباً شديداً .

حين فتح كراسوتكين باب الغرفة ، كان الكابتن والأولاد يحيطون بسرير المريض الصغير ، ويتأملون كلب الحراسة الرضيع الذى وُلد

البارحة • كان أبو ايليوشا قد أوصى باحتجاز هذا الكلب له منذ أسبوع ، آملاً أن يسَّرى به عن ابنه الذى لم يستطع أن ينسى اختفاء «سكارابه» • وكان ايليوشـا الذى يعلم منذ ثلاثة أيام أنه سـيؤتى بكلب صغير ، كلب أصيل ، كلب من أرقى أنواع كلاب الحراسـة (وذلك أمر هـام) كان يتظاهر ، لباقةً ، بأنه أشد ما يكون ابتهاجاً بهذه الهدية • ومع ذلك كان جميع الحضور ، الأب والأولاد على السواء ، قد أدركوا حق الادراك أن هذا الكلب الجـديد لم يزد على أن أذكى فى قلب المريض تلك الذكرى الأليمة ، ذكرى الآلام التى سببتّها للكلب المسـكين « يوتشكا » • كان الكلب الصغير مضطجعاً قرب ايليوشـا يتحـرك • وكن ايليوشـا يبتسم ابتسامة ضعيفة واهنة ، وهو يلاعبه بيده الشاحبة الشفيفة الناحلة • كان واضحاً أن ايليوشـا معجب بالحيوان الصـغير ••• ولكن هذا الحيـوان الصغير ليس « يوتشكا » ؛ ان « يوتشكا » ما يزال غائباً ! آه ••• يا ليت أن الجمع بين « يوتشكا » وهـذا الكلب الصـغير ممكن ، اذن لكان ذلك سعادة كبرى !•••

صاح أحد الفتية يقول وقد لمح كوليا :

ـ كراسوتكين !

حدث اضطراب خلال لحظة ، وتبـاعد الأولاد فاصطفوا على جانبى السرير كاشفين بذلك عن ايليوشـا ، وهرع الكابتن يسـتقبل كوليـا ، متمتما :

ـ أدخل ، تفضل ••• أيها الضيف العزيز ! يا صغيرى ايليوشا ، هذا السيد كراسوتكين قد جاء يعودك •

أسرع كوليا يمد يده اليه ، مبرهناً بذلك على معرفته التامة بالآداب الاجتمـاعية • والتفت أولاً نحو زوجـة الـكابتن ، الجالسـة على مقعد

(وكانت فى تلك اللحظة مستاءة جداً ، فهى تعبر عن غضبها من أن الأولاد قد حجبوا عنها سرير ايليوشا فحالوا بذلك بينها وبين رؤية الكلب الصغير) ، فانحنى يحييها بكثير من الاحترام ، ثم التفت نحو نينا فحيَّاها كما تُحيَّا سيدة تحيةً فيها كثير من الاحتفال أيضاً ؛ فكان لبادرة التهذيب والأدب هذه أثر حسن جداً فى نفس البلهاء • فانبرت تقول بصوت عال وهى تباعد ذراعيها :

ـ يدرك المرء فوراً أنه رجل مهذب • شتان بينه وبين زوارنا الآخرين هؤلاء الذين يركب بعضهم فوق بعض !

تمتم الكابتن يقول بحنان يخالطه قلق على حالة امرأته :

ـ كيف هذا يا عزيزتى ؟ يركب بعضهم فوق بعض ؟ ماذا تقصدين ؟

ـ طبعاً ••• هكذا يصلون جميعاً • فى الدهليز يركب بعضهم على أكتاف البعض الآخر ، ويتواقحون فيدخلون راكبين الى غرفة أسرة مرموقة كأسرتنا ••• أهؤلاء زوار محترمون ؟

ـ ولكن من دخل على النحو يا عزيزتى ، من ؟

ـ هذا واحد ركب على ذاك ، اليوم • وهذا ركب على الآخر أيضاً •••

كان كوليا أثناء ذلك قد اقترب من سرير ايليوشا • وقد شحب لون ايليوشا شحوباً شديداً ، ونهض على مرقده وحدّق الى كراسوتكين • ان كراسوتكين لم يره منذ شهرين فها هو ذا يتوقف على حين فجأة مبهوتاً من منظر رفيقة القديم الصغير : كان لا يتوقع أن يراه بوجهٍ نحل هذا النحول كله واصفر هذا الاصفرار كله وسطعت فيه عينان محمومتان

قد اتسعتا هذا الاتساع • وخطف بصره هزال يديه أيضاً • انه يتأمله الآن في دهشة أليمة ، بينما ايليوشا ، المتيبس الشفتين ، يتنفس تنفساً شاقاً سريعاً • تقدم كوليا خطوة نحوه ، وقال له بصوت متلجلج وهو يمد اليه يده :

ـ هيه يا عزيزى ••• كيف حالك ؟

واختنق صوته ، واضطرب اضطراباً تاماً • تقبضت قسمات وجهه ، واختلجت أطراف شفتيه • وكان ايليوشا ، الذى ما يزال عاجزاً عن أن ينطق بكلمة ، يبتسم له ابتسامة ضعيفة • رفع كوليا يده فجأة ، وأجراها فى شعر ايليوشا لا يدرى لماذا ، وقال له متمتماً :

ـ الأمر بسيط ، اطمئن •••

قال له ذلك ليشجعه ، ولكنه كان يتكلم كآلة • صمتا كلاهما لحظة• ثم سأل كوليا بصوت كابٍ :

ـ أرى أن عندك كلباً صغيراً آخر ؟

فأجاب ايليوشا بهمهمة طويلة لاهثة يقول :

ـ ن ••• ـعـ ••• ـم •

قال كوليا برصانة ، كأن للملاحظة التى يقولها خطورة خاصة :

ـ ان بوزه أسود ، وهذا يدل على أنه سيكون كلباً شرساً •

والحق أن كوليا كان عاجزاً عن السيطرة على انفعاله ، رغم جميع الجهود التى يبذلها ، وهو يخشى أن ينفجر باكياً مثل « طفل » •

ـ سيكون من الواجب ربطه بسلسلة حين يكبر • أنا أعرف هذا •

هتف أحد الفتيان يقول :

ـ سيكون ضخماً •

فقالت أصوات أخرى :

ـ حتماً ••• ما دام من أحسن أنواع كلاب الحراسة • سيكون حجمه كحجم عجل •

وأسرع الكابتن يقول مؤيداً :

ـ سيكون ضخماً ضخامة عجل ، ضخامة عجل حقاً • لقد اخترت هذا الكلب خصيصاً ••• انه من نوع شرس جداً ••• أبواه أيضاً ضخمان شرسان ••• يصل طولهما الى هنا ••• اجلس ، تفضل اجلس ••• اجلس على سرير ايليوشا ، أو اجلس هنا على هذه الدكة • أهلاً بك يا ضيفنا العزيز الذى انتظرناه زمناً طويلاً ••• هل جئت فى صحبة ألكسى فيدوروفتش ؟

جلس كوليا على السرير قرب ايليوشا • لا شك أنه قد أعدّ أثناء الطريق كل ما كان ينوى أن يقوله حتى يكون وضعه منطلقاً منذ بداية الحديث ، ولكنه قد فقد تسلسل الكلام ••• فها هو ذا يجيب عن سؤال الكابتن قائلاً :

ـ بل جئت ••• جئت ••• مع « برزفونه » ••• عندى الآن كلب يسمى هكذا ••• هو اسم روسى تماماً • انه ينتظر هناك ••• فمتى صفرت له أسرع يجىء •

والتفت نحو ايليوشا فجأة وقال له :

ـ أنا أيضاً عندى كلب •

ثم اذا هو يسأل ايليوشا بغتة :

ـ هل تتذكر « يوتشكا » يا عزيزى ؟

فما أن سمع ايليوشا السؤال حتى تقبض وجهه تقبضاً أليماً ، وألقى على كوليا نظرة مثقلة بالمرارة • وكان أليوشا واقفاً قرب الباب ، فقطب حاجبيه وأومأ من بعيد ليهيب بكوليا أن لا يجيء على ذكر « يوتشكا » ، ولكن كوليا لم يلاحظ شيئاً أو تظاهر بأنه لا يرى شيئاً •

سأل ايليوشا بصوت محطّم :

ـ أين هو « يوتشكا » ؟

ـ دعك من « يوتشكا » يا عزيزى ••• « يوتشكا » لا يساوى شيئاً ••• يوتشكا ضاع •••

صمت ايليوشا وحدّق الى كوليا من جديد • واستطاع أليوشا أن يجذب انتباه كراسوتكين فأومأ له بالحاح ، مهيباً به أن لا يستمر ، ولكن كوليا أشاح عنه متظاهراً بأنه لم يلاحظ شيئاً •

ـ « يوتشكا » اختفى ولم يترك أثراً • وهل كان يمكنه أن يعيش بعد أن بلع فطيرة بالفاكهة كتلك الفطيرة ؟

كذلك تابع كوليا كلامه دون رحمة ، بصوت أصبح لا هثاً لا يدرى أحد لماذا • ثم أردف يقول :

ـ ولكننى اصطحبت « برزفونه » ••• هذا اسم جميل ••• لقد جئت بهذا الكلب •

فقال ايليوشا فجأة :

ـ لا أريده !

ـ بلى بلى • أحب أن تراه ، يجب أن تراه • سوف يسليك • لقد جئت به خصيصاً ••• ان له شعراً طويلاً كالآخر ••• هل تأذنين لى يا سيدتى بادخال كلبى ؟

كذلك أضاف وهو يلتفت فجأة نحو السيدة سينجيريفا ، متكلماً بانفعال لا سبيل الى فهمه •

فصاح ايليوشا يقول بصوت محطم من الألم :

ـ لا ، لا أريد •

وكانت عيناه الساطعتان تعبران عن عتب •

عندئذ تدخل الكابتن الذى كان جالساً على سحارة قرب الجدار ، تدخل يقول :

ـ ربما كان الأفضل ••• ربما كان الأفضل أن تختار وقتاً آخر •••

ولكن كوليا أصرّ ، والتفت الى سموروف وقال يأمره :

ـ افتح الباب !

فما أن نفذ سموروف الأمر حتى صفر كوليا ، فاذا « برزفونه » يهرع فيصير فى الغرفة •

صرخ كوليا يقول وقد وثب عن مكانه :

ـ اقفز يا « برزفونه » ، تبختر ! •••

فاذا الكلب ينتصب واقفاً على قائمتيه الخلفيتين ، قرب سرير ايليوشا • فحدث عندئذ شىء لم يكن فى الحسبان قط : ارتعش المريض الصغير ، ونهض بكثير من الجهد والعناء ، ومال على « برزفونه » يتفحصه وقد اصفر من شدة الانفعال ، ثم هتف يقول بصوت مرتعش من الألم والفرح معاً :

ـ ولكن هذا « يوتشكا » !

فصرخ كراسوتكين هو أيضاً يقول بصوتٍ مجلجل سعيد :

ـ فماذا كنت تظن اذن ؟

وانحنى على الكلب ، فأحاطه بذراعيه ، وقرّبه من وجه ايليوشا ، وهو يقول له :

ـ أنظر يا عزيزى ، انظر ••• هأنت ذا ترى : انه أعور ومصلوم الاذن • تلك هى بعينها العلامات التى ذكرتها حين وصفت لى «يوتشكا» • وبفضل هذه العلامات انما استطعت أن أجده • ولم أحتج من أجل ذلك الى زمن طويل • كان كلباً لا صاحب له ، لا صاحب له ! (هكذا أضاف يقول شارحاً وهو ينقل بصره بسرعة من ايليوشا الى الكابتن فالى زوجة الكابتن ، فالى أليوشا ، ثم يعود الى ايليوشا) • كان هذا الكلب يعيش فى الحوش الخلفى من منزل آل فيدوتوف ، ويظن أنه قد وجد لنفسه هنالك مأوى يأوى اليه ، ولكنهم كانوا لا يطعمونه ، فكان يضرب فى البرية على غير هدى ••• ووجدته آخر الأمر ••• أرأيت يا صاحبى؟ ان هذا الكلب لم يبلع لقمتك والا لمات من ذلك حتماً • لقد لفظها دون أن يبلعها ، لذلك ما يزال حياً • أنت لم تلاحظ أنه لم يبلع الدبوس • لقد لفظه • ولكن الدبوس قد وخز له لسانه • ولهذا السبب أخذ يعوى ، فتخيلت أنت أنه بلع اللقمة • ولا بد أنه لبث يعوى زمناً طويلاً ، لأن للكلاب فى فمها أغشية حساسة جداً ••• أشدّ حساسية من أغشية أفواه البشر ••• أشد كثيراً •••

كذلك صاح يقول كوليا وقد احمر وجهه وأشرق حماسه •

أما ايليوشا فكان لا يستطيع أن يتكلم ، وهو يكتفى بأن ينظر الى كوليا محملق العينين فاغر الفم أصفر اللون • لو أن كراسوتكين الذى لم يدر فى خلده شىء ، قد استطاع أن يتصور مدى المشقة التى يمكن أن يعانيها ايليوشا فى هذه الدقيقة ، ومدى الضرر الذى يمكن أن تلحقه هذه المفاجأة بصحة المريض ، اذن لما قرر أن يدبر هذا الفصل المسرحى •

ولعل أليوشا كان بين جميع الحضـور الشخص الوحيد الذى ربما خطر بباله ما قد ينتج عن هذا من أثر • أما الكابتن فقد كان يتصرف تصرف طفل صغير • فهو يهتف بصوت فرح سعيد :

ـ هذا « يوتشكا » ! هـذا « يوتشكا » اذن ! ايليوشـا ، عزيزى ايليوشـا ، انه هنا ، اليك هو ، صـاحبك « يوتشكا » ! ماما ! ماما ! هذا « يوتشكا » !

وكان الكابتن كمن يبكى •

قال سموروف بمرارة :

ـ ما أغبانى حين لم يخطر ببالى شىء ! ألم أقل لكم ان كراسوتكين سيجد « يوتشكا » ؟ فها هو ذا قد وجده •

وقال صوت آخر فرح :

ـ وجده !

ودوى صوت طفل ثالث يقول :

ـ مرحى كراسوتكين !

وترجعت أصوات جميع الأطفال يهتفون وهم يصفقون بأيديهم :

ـ مرحى ! مرحى !

قال كوليا محاولاً أن يسيطر على الجلبة :

ـ لحظة •• اصغوا الىّ • سأروى لكم كيف تم ذلك • الأمر كله هنا • لقد عثرت عليـه ، فقدته الى بيتى ، وخبـأته فى غرفتى ، دون أن أظهر عليه أحداً حتى هذا اليوم • سموروف وحده علم منذ أسبوعين أن عندى كلباً ، ولكننى أوهمته أن الكلب هو «برزفونه» فصـدّق ما قلته له• وفى أثناء هذا الوقت علمت « يوتشكا » أنواعاً من الحيل • سـوف ترون

كيف أصبح « يوتشكا » عالماً • لقد روّضته من أجل أن آتيك به مهذباً كل التهذيب مربى كل التربية يا عزيزى ! سوف ترى كيف أصبح صاحبك « يوتشكا » • هل عندكم قطعة لحم ؟ سوف يريكم شيئاً يميت من فرط الضحك • قليلاً من اللحم ، أليس عندكم قليل من اللحم ؟

أسرع الكابتن الى الدهليز ، وذهب الى شقة أصحاب المنزل حيث كان يُهيأ للأسرة عشاؤها• ومن أجل أن لا يضيع وقت ثمين ، أسرع كوليا يأمر «برزفونه» قائلاً له : « مت » • فاذا بالكلب يأخذ يدور ، ثم يستلقى على ظهره ، ويسكن سكوناً تاماً ، رافعاً قوائمه الأربع فى الهواء • طفق الأولاد يضحكون • واستمر ايليوشا ينظر الى الكلب بابتسامة اليمة • ولكن الأم خاصةً هى التى كان يبدو أنها تجد مسرة كبيرة فى رؤية «برزفونه» متظاهراً بالموت ، فهى تضحك ضحكاً صاخباً ، وتنادى الكلب صافقةً بأصابعها : « برزفونه ، برزفونه ! » •

قال كوليا باعتزاز مشروع :

ــ لن ينهضه شىء فى الدنيا كلها ! مهما تنادوه جميعاً ، فلن يتحرك• ولكن يكفى أن آمره أنا حتى ينهض فوراً • تعال يا « برزفونه » !

فما ان سمع الكلب نداء كوليا حتى وثب وأخذ ينط فرحاً • وهرع الكابتن فى تلك اللحظة حاملاً قطعة من لحم مسلوق •

أسر كوليا يسأله بوقار :

ــ أليس اللحم ساخناً جداً ؟

ثم تناول قطعة اللحم بأصابعه ، وأضاف يقول :

ــ لا ، ليس ساخناً جداً ، والا أضرّت السخونة بالكلب • انظروا

الآن جميعاً ! أنظر يا ايليوشا • هلاّ نظرت ! لماذا لا تنظر ؟ أأجيئك به ، ثم ترفض حتى أن تهتم ؟

ان المشهد الجديد هو أن توضع قطعة اللحم فى طرف بوزه الممدود ، على أن يظل الكلب ساكناً لا يتحرك • ان على الحيوان المسكين أن يظل على هذا الوضع ، واللحم فى متناول فمه ، ما ظل سيده يطلب منه ذلك ، فليس يجوز له أن يقوم بأية حركة ولو خلال نصف ساعة • غير أن الكلب لم يُحمل على الانتظار الا دقيقة قصيرة • صاح كوليا يقول :

ـ هيَّا !

فاذا بقطعة اللحم المسلوق تدخل فم « برزفونه » بسرعة البرق • وأعرب الحضور عن دهشتهم وحماستهم طبعاً •

هتف أليوشا يقول متعجباً بلهجة فيها عتب على غير ارادة منه :

ـ هل يُعقل أن تكون قد تأخرت عن المجىء هذا التأخر كله لا لهدف غير ترويض الكلب ؟

ـ طبعاً ••• هذا هو الهدف الوحيد • أردت أن أعرضه بكل روعته •

هكذا أجاب كوليا بسذاجة •

وقال ايليوشا ينادى الكلب وهو يصفق باصابعه النحيلة ليلفت انتباهه اليه :

ـ « برزفونه ، برزفونه ! » •

قال كوليا :

ـ لا حاجة بك الى أن تناديه • سوف يقفز الى سريرك من تلقاء نفسه •

ثم أمر الكلب قائلاً له ، وهو يضرب السرير بيده :

ـ هنا يا برزفونه !

فاذا بالكلب يثب الى قرب ايليوشا •

أحاط ايليوشا رأس الحيوان بيديه ، فلعق الحيوان وجه ايليوشا عرفاناً بالجميل • وشد ايليوشا نفسه الى الكلب ، وتمدد على سريره ، وأخفى وجهه فى جزائز شعره الكثيفة •

عاد كوليا يجلس على سرير ايليوشا ، وقال له :

ـ ايليوشا ! أستطيع أن أريك شيئاً آخر أيضاً ••• لقد جئتك بمدفع صغير • سبق أن حدثتك عنه ، هل تتذكر ؟ لقد قلت لى عندئذ : « لشد ما أحب أن أراه ! » • فهأنا ذا جئتك به اليوم •

قال ايليوشا ذلك ، وسلّ المدفع البرونزى الصغير من كيسه بسرعة • كان كوليا يُسرع ، لأنه كان يحس هو نفسه بالسعادة • ولولا ذلك لانتظر أن يزول أثر المفاجأة الأولى، الذى أحدثه ظهور «برزفونه». ولكنه كان فى هذه المرة يتعجل اظهارهم على اللعبة غير عابىء بأى رزانة ، ولسان حاله يقول : « هأنتم أولاء سعداء ، فلأهبن لكم مزيداً من السعادة ! » • كان كوليا يشعر بافتتان قوى •

ـ لقد لاحظت هذه اللعبة عند الموظف موروزوف منذ زمن طويل• فتمنيت الحصول عليها ، ولكن من أجلك أنت يا عزيزى ، من أجلك أنت • كان موروزوف قد أخذها من أخيه ، وكان لا يستعملها • ولقد استطعت أن أحصل منه عليها مقابل كتاب من مكتبة بابا عنوانه « قريب محمد أو الجنون النافع » * • انه كتاب فاسق ظهر فى موسكو منذ مائة عام، أيامَ لم تكن هنالك رقابة على المطبوعات بعد • وموروزوف من عشاق هذه الأمور ، حتى لقد شكر لى هذه المقايضة •••

كان كوليا يمسك المدفع الصغير بيده امساكاً يتيح للجميع أن يروه وأن يعجبوا به • ونهض ايليوشا على سريره ، وأخذ يتأمل اللعبة منتشياً مع استمراره على معانقة « كاريون » بيده اليمنى • وبلغ التأثير ذروته حين أعلن كوليا أن معه كذلك باروداً ، وأن فى وسعهم أن يطلقوا النار من المدفع ، « هذا اذا كانت السيدات لا ترى فى ذلك بأساً » • فسارعت «ماما» تطلب أن تنعم النظر فى اللعبة من قرب ، فلُبّى طلبها فوراً • أعجبها المدفع البرونزى الصغير المركب على عجلات اعجاباً شديداً ، وأخذت تدحرجه فوق ركبتيها • ولم تتردد فى أن تأذن باطلاق النار من المدفع ، دون أن تفهم الموضوع جيداً فى الواقع • وأخرج كوليا البارود والخردق فأظهر عليهما الحضور • وتولى الكابتن ، بصفته عسكرياً قديماً، تولى حشو المدفع ، فسكب بنفسه قليلاً من البارود على ضوء المصباح • أما الخردق فرجا أن لا يُستعمل هذه المرة • وُضع المدفع على أرض الغرفة ، ووُجّهت فوهته نحو فضاء خالٍ ، وأشعل البارود بعود ثقاب • فانطلقت النار كأحسن ما يكون الانطلاق • ارتعشت « ماما » فى اللحظة الأولى ، ثم أخذت تضحك مسرورة مبتهجة • وكان الصبيان ينظرون الى اللعبة باعجاب صامت• غير أن الكابتن كان أسعدهم طراً ، وكان لا يحول بصره عن ايليوشا • وتناول كوليا المدفع ، فأهداه فوراً الى المريض الصغير ، كما أهدى اليه البارود والخردق ، قائلاً له وهو فى قمة الغبطة والسعادة :

ـ هذا لك ، هذا لك ، أعددته منذ مدة طويلة لأهديه اليك •

فانبرت البلهاء تقول ضارعة بصوت كصوت طفل :

ـ بل أعطنيه أنا •

كان وجهها يعبر عن المرارة ، وعن الخوف من أن يُرفض طلبها• فاضطرب كوليا ؟ واهتز الكابتن ، فصاح يقول لزوجته وهو يدنو منها :

ـ عزيزتى ، عزيزتى ، هـذا المدفع لك ، لك أنت • فليحتفظ به ايليوشا الى حين ، ما دام قد أهدى اليه ، ولكنه لك أنت طبعاً • سيسمح لك ايليوشـا بأن تلعبى به كلما أردت ذلك • هو لكما كليكما ، لكما كليكما •••

فقالت الأم وهى توشك أن تبكى :

ـ لا ، لا أريد أن يكون لنا كلينـا • أريد أن يكون لى وحدى ، ولا أريد أن يكون منه شىء لايليوشا •

صاح ايليوشا يقول فجأة :

ـ ماما ، خذيه ، اننى أهديه اليك •

وكأنما خشى أن يسىء الى كوليا اذا هو تنازل عن هديته لشخص آخر ، فسأله ضارعاً :

ـ هل أستطيع أن أهديه الى ماما ياكراسوتكين ؟

فأسرع كوليا يقول موافقاً :

ـ لم لا ؟

وتناول المدفع من بين يدى ايليوشـا ، فمدّه بنفسـه الى الأم وهو يحييها أرق تحية • (لقد بكت الأم من شدة التأثر) •

صاحت الأم تقول بانفعال :

ـ ايليوشا ، بنىّ الصغير ، أنت تحبنى حقاً ، أنت على الأقل •

ثم عادت تدحرج المدفع الصغير على ركبتيها •

قال زوجها وقد أدرك رغبتها فوراً :

ـ عزيزتى ، هلاّ أذنت لى أن أقبّل يدك ؟

استأنفت الأم كلامها شاكرة وهى تومىء الى كراسوتكين •

ـ هذا ألطف جميع هؤلاء الصبيان •

وقال كوليا :

ـ أما البارود يا ايليوشا ، فسأجيئك منه بالقدر التى تشاء • اننا نصنعه بأنفسنا • لقد تعلم بوروفيكوف الطريقة : أربعة وعشرون جزءاً من النطرون ، وعشرة أجزاء من الكبريت ، وستة من فحم الحطب • يطحن هذا كله معاً ، ثم يصب عليه ماء ليُجعل عجينةً تمرّ بعد ذلك من خلال جلد حمار • هكذا يتم الحصول على البارود •

قال ايليوشا :

ـ حدثنى سموروف عن بارودك ، ولكن بابا يقول ان هذا ليس هو البارود الحقيقى •

فقال كوليا محتجاً وقد احمر وجهه :

ـ ليس هو البارود الحقيقى ؟ كيف ذلك؟ على كل حال ، لا أدرى••

أسرع الكابتن يصحح مُحرجاً :

ـ لا •• أنا لم أقل شيئاً • ربما أكون قد ذكرت أن البارود الحقيقى يُصنع بطريقة أخرى ، ولكن ليس لهذا أية قيمة ••• ان من الممكن أن يُحصل على البارود بهذه الطريقة أيضاً •

ـ أنت أعلم منا على كل حال • لقد أشعلنا بارودنا فى وعاء مرهم ، فاحترق احتراقاً كاملاً ولم يخلّف الا قليلاً من السناج • وكان من جهة أخرى عجينة لا ينقصها الا امرارها من خلال جلد •• ومهما يكن من أمر ، فأنت أدرى بهذه الأمور منى ••• بالمناسبة : لقد جُلد بولكين بسبب بارودنا ، جلده أبوه ، هل بلغك هذا ؟

هكذا سأل كوليا ملتفتاً نحو ايليوشا على حين فجأة. فأجابه ايليوشا.

ـ بلغني .

وكان ايليوشا يصغي الى كوليا باهتمام شديد ولذة قوية .

ـ كنا قد حضّرنا زجاجة من بارود ، فخبأها بولكين تحت سريره. واكتشفها أبوه فقال : « قد تحدث انفجاراً » وجلد ابنه على الفور . حتى لقد كان في نيته أن يشكوني الى ادارة المدرسة . وحظر على ابنه منذ ذلك الحين أن يراني . أصبحوا لا يسمحون لأحد بمعاشرتي . حتى سموروف مُنع من ذلك. لقد ترسخت سمعتي ، فهم يقولون انني «متهور» (قال كوليا ذلك وهو يبتسم ابتسامة ازدراء) . يرجع هذا الى زمان قصة السكة الحديدية تلك ...

صاح الكابتن يقول :

ـ لقد سمعنا بمأثرة السكة الحديدية هذه . كيف استطعت أن تصمد هذا الصمود بين القضيبين ؟ هل يمكن حقاً أن لا تكون قد خفت حين مر القطار من فوقك ؟ لا شك أن ذلك كان رهيباً !.

كان الكابتن يتفنن في تملق كوليا .

أجاب كوليا بلهجة فيها اهمال :

ـ خفت ؟ لا ... لم أخف كثيراً ... ولكن تلك الأوزة اللعينة هي التي جاءتني بسمعة التهور هذه .

أضاف كوليا ذلك وهو يلتفت نحو ايليوشا من جديد .

كان كوليا يحاول أن يصطنع في كلامه هيئة عدم المبالاة ، ولكنه رغم ما كان يبذله من جهود في هذا السبيل ، لم يتمكن من العودة الى السيطرة على نفسه ، وأصبح لا يجد اللهجة المناسبة .

قال ايليوشا مشرق الأسارير :

ـ سمعت أيضاً بقصة الأوزة هذه ! حكوها لى • ولكن هناك نقطة لم أفهمها جيداً • هل صحيح أنهم قادوك الى القاضى ؟

قال كوليا يشرح منطلقاً :

ـ تلك مهزلة سخيفة تافهة أثيرت حولها ضجة كبيرة فى هذه المدينة على عادة الناس هنا • كنت اجتاز ميدان « السوق » حين كان يؤتى اليه بأوز ، فوقفت أنظر الى الأوز • فاذا بفتى من هنا ، فتى اسمه فشيناكوف يعمل الآن أجيراً ساعياً فى متجر آل بلوتنيكوف ، اذا هو يأخذ يتفرس فىّ ويسألنى : « مالك تنظر الى الأوز هكذا ؟ » • رفعت بصرى نحوه • انه شاب فى نحو العشرين من عمره ، له وجه مدوّر غبى• اننى لا أحتقر الشعب أبداً ، اعلموا هذا • اننى أحب البسطاء من النـاس ••• نحن متخلفون كثيراً عن الشعب ، تلك بديهية أؤمن بها ••• يُخيَّل الىّ أنك تضحك يا كارامازوف ، أليس كذلك ؟

ـ بتاتاً ! بالعكس : أنا أصغى اليك بكثير من الانتباه •

هكذا أجابه أليوشا بلهجة طيبة ساذجة ، فسرعان ما استرد كوليـا الأذىُ شجاعته ، وراح يكمل كلامه بفرح فقال :

ـ نظريتى الخاصـة بسـيطة واضحة ياكارامازوف • اننى أؤمن بالشعب ، واننى لأشعر بسعادة كلما استطعت أن أنصفه ، ولكن بدون أن أتملقـه طبعاً ، هذا شرط لا بد منه • ها ••• نعم ••• كنت أتكلم عن تلك الأوزة • التفت نحو ذلك الأبله فأجبته : « اننى أتسـاءل عما لعل الأوزة تفكر فيه الآن » فحملق بغباء ، ثم استأنف يسألنى : « وما الذى تفكر فيه هذه الأوزة ، فى رأيك ؟ » قلت : « هل ترى تلك العربة المحمّلة شوفاناً ؟ ان الشوفان يتساقط من الكيس ، وقد مدت الأوزة رقبتها لتنقر

الشوفان ، واقفة تحت العجلة تماماً ، هل لاحظت ذلك ؟ » ، قال : « طبعاً لاحظته ! » قلت : « فاذا دفعنا العربة الآن قليلاً ، قطعت العجلة رقبة الأوزة ، أصحيح أم لا ؟ » . قال : « طبعاً ستقطع العجلة رقبة الأوزة ! » قال ذلك فاتحاً فاه من السرور ، فالى هذا الحد أفرحته تلك الفكرة . قلت : « فهيّا بنا اذن أيها الشجاع! » فردّد يقول : « هيّا بنا ! » .

ولم يطل الأمر . وقف هو قرب اللجام دون أن يراه أحد ، ورابطت أنا الى جانب لأوجّه الأوزة . أما صاحب العربة فلم ينتبه الينا ، لانه كان يتحدث مع أحد الناس . ولم أحتج الى التدخل من أجل أن أوجه الاوزة ، فقد مدت عنقها تحت العجلة من تلقاء نفسها لتبلغ حبات الشوفان ، وأومأتُ الى الفتى ، فشد اللجام ، فما هي الا لحظة حتى كانت رقبة الأوزة قد قُطعت . وشاءت المصادفة أن يرانا في تلك اللحظة جميع الفلاحين المتجمعين في الميدان ، فأخذوا يعولون بصوت واحد قائلين له : « فعلت هذا عمداً » فقال لهم : « لا ، لم أفعله عمداً » فقالوا : « بل فعلته عمداً » ؛ وازداد صراخهم ، وقالوا : « قودوه الى قاضي الصلح ! » .

واقتادوني أنا أيضاً قائلين : « كنت أنت حاضراً ، فأنت الذي حرضته ، ان جميع الناس يعرفونك في السوق » . والواقع أنني معروف جداً في السوق ، لا أدري لماذا (كذلك أضاف كوليا قائلاً باعتزاز) . وذهبنا الى قاضي الصلح . وجيء بالأوزة أيضاً . خاف صاحبي الفتى وأخذ ينتحب . حقاً ، كان يبكي كامرأة . أما صاحب العربة فكان يصرخ قائلاً : « على هذا يمكنكم أن تقتلوا ما شئتم من أوز . . » . وكان ثمة شهود كثيرون . وفصل قاضي الصلح في القضية بسرعة : حكم بتعويض قدره روبل لصاحب الأوزة ، وقضى بأن يحتفظ الشاب بالأوزة ، وختم قاضي الصلح كلامه قائلاً : فلا مزاح من هذا النوع في المستقبل ! » ولكن الشاب كان لا يزيد على أن يبكي ويتشكى قائلاً وهو يشير الىّ :

« لســت أنا ••• هــو الذى علّمنى » ، فأجبت ، دون أن أفقد هــدوء أعصابى ، بأننى لم أعلّمه شيئاً البتة ، وانما عبّرت عن فكرة هذه المزاحة فى صــورة عامة ، كمشروع لا أكثر • فابتسم قاضى الصلح نيفيدوف ، ثم أسرع يندم على أنه تبسم ، وقال لى : « سأرسل تقريراً عنك الى ادارة المدرسة فى الحال ، حتى لا تندفع بعد الآن فى مشاريع من هذا النوع بدلاً من الاكباب على التحصيل واعداد دروسك » • والواقع أنه لم يش بى الى ادارة المدرســة ، وانما كان ذلك منه تهــديداً • غير أن القضــية ذاعت فى المدينة حتى وصلت الى آذان الســلطات المدرسية • انكم تعلمون أن للمسئولين فى المدرسة آذاناً طويلة ! استاء الاستاذ كولباسنيكوف استياءً شديداً ، ولكن داردانيلوف دافع عنى من جديد• وما يزال كولباسنيكوف غاضباً أشد الغضب حانقاً علينا جميعاً حنق كلب مسعور • ولا شك أنك تعلم يا ايليوشا أنه قد تزوج منذ مدة قصيرة • أخــذ من آل ميخائيلوف ألف روبل مهراً ، عدا خطيبته التى هى آية من آيات الدمامة • وقد نظم تلاميذ الصف الثالث قصيدة فى هذه المناسبة ، قالوا :

بلوعة وأسف شديد
علم تلاميذ الصف الثالث
أن الاستاذ كولباسنيكوف
أخطأه التوفيق فتزوج

وهلم جرا ••• هى قصيدة فكهة ، سآتيك بها فى مرة أخرى • أما داردانيلوف فلن أقول فيه ســوءاً : انه رجل واسع المعرفة ، واسع المعرفة حقاً • اننى أحترم أمثاله من الناس ، ولكن ليس لأنه دافع عنى •

هنا انبرى سموروف الذى كان يشعر عندئذ باعتزاز بكراسوتكين ، فقال :

ـــ ومع ذلك غلبته أنت فى السؤال عن انشاء مدينة طروادة •

كانت حكاية الأوزة قد فتنت سموروف .

وعاد الكابتن يقول بلهجة المديح والتملق :

ـ غلبته حقاً ؟ كان ذلك فى موضوع انشاء مدينة طروادة ، أليس كذلك ؟ لقد قيل لنا فعلاً انك كنت أقوى منه فى هذه النقطة . حدثنى ايليوشا عن هذا فى ذلك اليوم نفسه ..

قال ايليوشا :

ـ انه يعرف كل شى يا بابا ، انه يعرف أكثر منا جميعاً ! هو يتواضع ، ولكنه أول التلاميذ فى جميع العلوم ...

كان ايليوشا ينظر الى كوليا بسعادة لا نهاية لها .

أجاب كوليا باعتزاز متواضع :

ـ أما حكاية طروادة هذه فهى فى الواقع مسألة تافهة لا قيمة لها .

لقد توصل كوليا أخيراً الى ايجاد اللهجة المناسبة ، ومع ذلك كان ما يزال قلقاً جداً : كان يحس انه مهتاج قليلاً ، وأنه قد روى حادث الاوزة بحرارة مفرطة . لقد كان أليوشا صامتاً أثناء رواية هذه القصة ، لم يخرج عن رزانته لحظة واحدة . فها هو ذا كوليا الحساس الأذىّ يتعذب الآن اذ يتساءل : « أتراه قد صمت احتقاراً لى ، لاعتقاده بأننى استجدى المديح والثناء ؟ ان كان قد سمح لنفسه بأن يظن ذلك ، فسوف أعرف كيف ... » . وها هو ذا يقول جازماً بمزيد من الثقة أيضاً :

ـ فى رأيى أن ذلك السؤال ليس له قيمة حقيقية .

ـ أنا أعرف من أنشأ طروادة ، أنا أعرف من بنى طروادة !

كذلك قال فجأة ، على غير توقع ، فتى لم يكن قد فتح فاه بكلمة حتى ذلك الحين . انه تلميذ صموت خجول ، جميل الوجه جداً ، فى نحو

الحادية عشرة من عمره • ان اسمه كارتاشوف ، وكان جالساً قرب الباب• دُهش كوليا دهشة شديدة ، وتفرس في الطفل مصطنعاً هيئة الوقار • الواقع أن ذلك السؤال ، وهو : « من أنشأ مدينة طروادة ؟ » ، كان قد أصبح سراً يُناقش في جميع صفوف المدرسة ، وكان لا بد لمعرفة ذلك السر من الرجوع الى كتاب سماراجدوف • وكان كوليا هو التلميذ الوحيد الذي يملك ذلك الكتاب • ولكن الفتى كارتاشوف قد انتهز في ذات يوم لحظة غفلة من كوليا ، فأسرع يفتح كتاب سماراجدوف الذي كان ملقى بين كتب كوليا المدرسية ، فوقع عرضاً على الصفحة التي يتكلم فيها الكتاب عن انشاء مدينة طروادة • وحدث ذلك منذ مدة طويلة ، ولكن الفتى كان شديد الخجل ، فلم يجرؤ حتى الآن أن يؤكد على مسمع من الناس أنه يعرف هو أيضاً أسماء بناة طروادة • كان يخشى أن يترتب على ذلك وقوع حادث مزعج ، وأن يربكه كوليا بتفوقه عليه في العلم • غير أنه لم يستطع في هذه المرة أن يكبح جماح نفسه ، فانطلق يتكلم ، مرضياً بذلك حاجةً في نفسه ما فتئت تعذبه منذ أسابيع •

قال كوليا متعالياً وهو يلتفت نحو الفتى الوقح :

ـ قل لنا اذن من أنشأ مدينة طروادة !

لقد أدرك كوليا ، من تعبير وجه الفتى ، أن الفتى يعرف السرّ ، فسرعان ما تهيأ لمواجهة جميع النتائج • وحدث شيء من الكدر في مزاج الحضور •

قال الفتى بسرعة :

ـ بنى مدينة طروادة : توسر ، وداردانوس ، وايليوس ، وتروس•

واحمر وجهه فوراً ؛ وبلغ من الاحمرار أن منظره أصبح يثير الألم في النفس • حدّق اليه الفتيان الآخرون ، وتفرسوا فيه دقيقة طويلة ،

ثم التفتوا بأبصارهم نحو كوليا بحركة واحدة • ظل كوليا يرمق المنافس الجرىء باحتقار دون أن يفقد هدوءه ، ثم تنازل فقال له :

ـ قل لنا اذن كيف بنوها ؟ قل لنا ماذا يعنى على وجه العموم بناء مدينة أو دولة ؟ هل وضع كل منهم آجرةً مثلاً ؟

ضج الجميع يضحكون • واصطبغ لون الصبى المذنب بلون كلون القرمز فى هذه المرة • وصمت ، وأوشك أن يبكى • وتركه كوليا جالساً على كرسى الاتهام دقيقة أخرى • ثم أنشأ يقول له بقسوة ، كأنما هو يريد أن يلقن الفتى المتهور درساً :

ـ ما ينبغى للمرء أن يسمح لنفسه بمناقشة أحداث تاريخية من هذا النوع ، الا اذا كان يفهم أولاً معنى ما يقال • على أننى من جهتى لا أقيم وزناً كبيراً لأساطير العجائز هذه •

وأضاف يقول باهمال ، مخاطباً جميع الحضور :

ـ ثم اننى لا أقدر التاريخ العام كثيراً •

سأله الكابتن بنوع من الذعر :

ـ لا تقدر التاريخ العام ؟

ـ نعم ، لا أقدر التاريخ العام • انه دراسة الحماقات البشرية ، لا أكثر •

وأضاف يشرح بلهجة رصينة وهو ينظر خلسةً الى أليوشا ، لأن أليوشا هو بين سائر الحضور الشخص الوحيد الذى يتهيب كوليا رأيه :

ـ أنا لا احترم الا الرياضيات والعلوم الطبيعية •

ولكن اليوشا ظل صامتاً محافظاً على جده ورزانته • فلو أبدى رأيا فى تلك اللحظة اذن لاختتمت المناقشة • غير أنه لم يفتح فمه ، ومن الجائز

« أن يكون صمته احتقاراً » ، لذلك اغتاظ كوليا اغتياظاً شديداً ، وأردف يقول :

ــ وكذلك أرى أن تعليم اللغات المندثرة * جنون محض ... ألاحظ يا كارامازوف أنك تخالفنى فى الرأى من جديد ، أليس كذلك ؟

قال أليوشا بهدوء وهو يبتسم ابتسامة متحفظة :

ــ حقاً ، لست أوافقك على رأيك .

قال كوليا وقد عاد يلهث شيئاً فشيئاً :

ــ اذا شئت أن تعرف رأيى ، فاعلم أن تعليم اللغات القديمة هو فى نظرى اجراء بوليسى للقمع والاضطهاد . تلك هى الغاية الوحيدة التى استهدفت من تعليم اللغات القديمة . انهم يعلمون هذه اللغات لأنها مملة مضجرة تخبّل العقل . كانت الحياة حزينة غبية ، فأرادوا لها مزيداً من الجهامة والبلادة والغباء . كان السخف يحكم العالم ، فرأوا أن يفاقموا ذلك اذا أمكن . هذا هو السبب فى أنهم فرضوا تعليم اللغات المندثرة على المناهج المدرسية . ذلك رأيى أنا على كل حال ، وانى لآمل أن لا أغيّره وأن لا أحيد عنه فى يوم من الأيام .

بهذا ختم كوليا كلامه جازماً قاطعاً .

قال الفتى سموروف بصوت مجلجل مؤيد ، وكان قد أصغى الى كلام رفيقه بانتباه :

ــ هذه هى الحقيقة .

فصاح أحد الصبيان يقول على حين فجأة :

ـ هو مع ذلك أول التلاميذ فى اللغة اللاتينية !

فقال ايليوشا مؤيداً :

ـ نعم يا بابا ، انه يقـول هذا الكلام مع أنه أحسن تلاميذ الصف فى اللغة اللاتينية .

اعتقد كوليا أن عليه أن يســوّغ ذلك ، رغم أنه ُسرّ كثيراً بهذا المدح ، فقال :

ـ لا يبرهن هذا على شيء ! انني أبلع اللاتينية لأنه لا بد من ذلك ، ولأنني وعدت أمي بأن أتم دراستي . وأنا أرى أن على المرء أن يتقن كل ما يشرع فيه . ولكن ذلك لا يمنعني من أن أحتقر ، فى قرارة نفسى ، كل الكلاسيكيين ، وكل هذه الدناءة... أغير موافق أيضاً ياكارامازوف؟

قال أليوشا وهو يبتسم من جديد :

ـ ولكن أين الدناءة التى تتحدث عنها ؟

ـ أين ؟ ألا تفهم ؟ لقـد ترجمت مؤلفـات الكلاسيكيين الى جميع اللغات . فليس الغرض من تعليمنا اللغة اللاتينية اذن هو أن نستطيع قراءة تلك المؤلفات ، وانما هنالك أسباب بوليسية ، والهدف هو تخبيل عقولنا. أفليس هذا دناءة ؟

فصاح أليوشا يسأله مدهوشاً :

ـ ولكن من ذا الذى دسّ هذه الأفكار فى رأسك ؟

ـ أولاً ، أنا أستطيع أن أفهم هذه الأشياء بنفسى دون أن يدسـها أحد فى رأسى ؛ ثانياً ، اعلم أن الأسـتاذ كولباسنيكوف هو الذى شرح بصوتٍ عالٍ أمام جميع تلاميذ الصف الثالث ما قلته الآن .

ـ وصل الطبيب !

كذلك صاحت تقول نينا على حين فجأة ، ولم تكن قد نطقت قبل ذلك بكلمة •

ان مركبةً خاصة تملكها السيدة هوخلاكوفا قد وقفت فعلاً أمام المنزل • هبَّ الكابتن الى لقاء الطبيب طائش اللب بعد أن انتظر وصوله طوال فترة الصباح • وأصلحت ماما زينتها واصطنعت وضع الوقار • واقترب أليوشا من سرير ايليوشا وأخذ يرتِّب وسادة المريض ، فكانت نينا تنظر اليه من قرارة مقعدها قلقة • أما الفتيان فقد أسرعوا يودِّعون ، ووعد بعضهم بأن يرجع في المساء • ونادى كوليا « برزفونه » ، فسرعان ما وثب الكلب فصار في أسفل السرير • وقال كوليا لايليوشا مسرعاً :

ـ على أنني لن أنصرف • سأنتظر في الدهليز ثم أعود متى ذهب الطبيب • سأعود مع « برزفونه » •

وكان الدكتور قد دخل الغرفة • انه شخص مهيب المظهر ، يرتدي معطفاً من فراء ، وعلى عارضيه لحيتان قائمتان ، وذقنه محلوقة بكثير من العناية • فبعد أن اجتاز عتبة الغرفة توقف على حين فجأة متردداً : لقد أحسَّ أنه أخطأ المنزل •

ـ ما هذا ؟ أين أنا ؟

كذلك دمدم يقول دون يخلع معطفه ، محتفظاً على رأسه بقبعته المصنوعة من فراء ثعلب الماء ، والمزودة بحافة ذات فراء أيضاً • ان هؤلاء الناس ، وهذا المسكن الفقير ، وهذا الغسيل المنشور على حبل في ركن الغرفة ، ان ذلك كله قد حيَّره •

انحنى الكابتن أمامه انحناءة كبيرة ، وتمتم يقول مفرطاً في الترحيب والمراعاة والاكرام :

ـ أنت هنا يا سيدى ، هنا ، عندى ، أنت آت الى ...

قال الطبيب بصوت عال أجش :

ـ هل أنت سني ... جير ... يف ؟ اذن أنت السيد سنيجيريف ؟

ـ نعم ، أنا ...

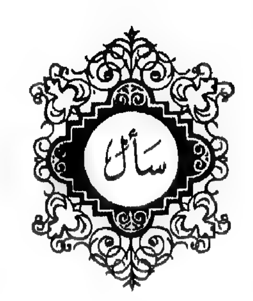
ـ آ !...

ـ ألقى الطبيب على الغرفة نظرة ازدراء أخرى ، وخلع معطفه . فظهر فى عنقه وسام عظيم ساطع سرعان ما خطف جميع الأبصار . تناول الكابتن المعطف طيرانا ، وتنازل الطبيب فخلع قبعته . وقال يسأل بصوت مجلجل فيه شيء من تذمر :

ـ أين هو المريض ؟

٦

نضج مبكر



كوليا متعجلاً :

ـ ما الذى سيقوله الطبيب فى رأيك ؟ يا له من وجه كريه ! ألا ترى ذلك ؟ اننى أكره الطب.

فأجابه أليوشا بحزن :

ـ ايليوشا هالك . أظن أن لا شك فى هذا ، وأن نهايته قريبة .

ـ يا للسفلة ! الطب سفالة ! على أننى سعيد بأن قد أتيحت لى فرصة معرفتك يا كارامازوف . لقد تمنيت هذا منذ زمن طويل . ولكن يؤسفنى أن لقاءنا قد تم فى ظروف أليمة كهذه .

ودّ كوليا لو يقول شيئا فيه مزيد من الحرارة والعاطفة والانفعال ، ولكنه شعر بشىء من الحرج . وقد لاحظ أليوشا ذلك فشد على يده مبتسماً .

تمتم ايليوشا من جديد يقول مضطرباً مرتبكاً :

ـ لقد تعلمت منذ مدة طويلة أن أحترم فيك انساناً ذا مزايا أخلاقية نادرة . قيل لى انك صوفى وانك عشت فى الدير . واننى لأسلم بأن تكون صوفياً ، ولكن ... هذا لا يصدمنى ولم يمنعنى من أن أشعر نحوك

بعاطفة ومودة . ان الاتصال بوقائع الحياة سوف يشفيك ... ذلك مايحدث دائماً فى الطبائع التى تشبه طبيعتك .

سأله أليوشا بشيء من الدهشة :

ـ ماذا تعنى بقولك « صوفى » ؟ ومن أى شيء تريد لى أن أشفى ؟

ـ من أفكارك عن الله ، وهلم جرا ...

ـ كيف ؟ أأنت لا تؤمن بالله أنت ؟

ـ الحق أننى لا اعتراض لى على الله . اطمئن . صحيح أن فكرة الله ليست الا افتراضاً ... ولكننى أعترف بأن الله ضرورى ، بل ولا غنى عنه للمحافظة على النظام ... والحياة الاجتماعية ، وهلم جرا ...

ثم أضاف كوليا يقول وقد احمر وجهه فجأة :

ـ اذا كان الله غير موجود ، فيجب أن نخترعه .

ذلك أن كوليا قد خطر بباله أن أليوشا ربما ظن أنه يحب أن يُظهره على معلوماته ، وأن يبرهن له على أنه يستطيع أن يناقش « كشخص كبير » . فقال كوليا لنفسه متضايقاً : « أنا لا أحب أبداً أن أعرض معلوماتى أمامه » . وشعر فجأة بحسرة شديدة . وقال يحسم الأمر :

ـ أعترف لك بأننى أكره المناقشات فى هذا الموضوع . ألا يمكن أن يحب المرء الانسانية دون أن يؤمن بالله ؟ ما رأيك ؟ لقد كان فولتير مثلا ، لا يؤمن بالله ، ومع ذلك كان يحب الانسانية .

وقال لنفسه باستياء : « أيضا ، أيضا ! » .

قال اليوشا فى رفق ، بصوت هادىء طبيعى ، كما لو كان يحادث رفيقاً من سنه ، أو شخصاً أكبر منه سنا :

ـ لقد كان فولتير يؤمن بالله ، ولكن يبدو أن ايمانه كان ضعيفاً ، وكان كذلك لا يحب الانسانية كثيراً •

دُهش كوليا كثيراً من تردد أليوشـــا هذا النوع من التردد في الافصاح عن رأيه في فولتير ، ومن هذه الطريقة في مخاطبته متكلاً على رأيه هو الصغير كوليا •

سأله أليوشا •

ـ بالمناسبة ، هل قرأت فولتير ؟

ـ لا ، لم أقرأه بالذات ••• بلى ••• بلى ••• قرأت « كانديد » في ترجمة روسية ، ترجمة قديمة ، كريهـــة ، فظيعة (« أيضـــاً ! أيضاً ! ») •

ـ وهل فهمته ؟

ـ طبعاً ••• فهمت كل شيء ••• أقصد ••• لماذا تقدّر أنني قد لا أكون فهمته ؟ هناك فقرات صعبة طبعاً ••• أنا قادر على أن أفهم أن هذه رواية فلسفية ترمي الى البرهان على فكرة •

كذلك أسرع يضيف كوليا مرتبكاً ارتباكاً تاماً • ثم قال فجأة ، لا يدري المرء لماذا :

ـ أنا اشتراكي يا كارامازوف ، أنا اشتراكي عنيد •

ضحك أليوشا وسأله مدهوشاً :

ـ اشتراكي ؟ متى اتسع وقتك لأن تصبح اشتراكياً ؟ أظن أنك لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرك ، أليس كذلك ؟

شعر كوليا بامتعاض شديد ، وقال يحتج بقوة :

ـ أولاً : ليس عمرى ثلاث عشرة سنة بل أربع عشرة • ثانياً : لست أفهم ما شأن عمرى هنا • الأمر الآن أمر آرائى لا عدد سنى عمرى ، أليس كذلك ؟

ـ حين تتقدم فى السن قليلاً ستدرك بنفسك أثر العمر فى آرائنا • ثم اننى أحس أنك تردد آراء سمعتها ••••

هكذا قال أليوشا بلهجة معتدلة متواضعة ، ولكن كوليا لم يدع له أن يتم كلامه ، لأنه صاح يقول متحمساً :

ـ من فضلك ! انك من انصار الخضوع والصوفية ! • ألا فاعترف أن الديانة المسيحية لم تنفع الا الأغنياء والأقوياء ، اذ سمحت لهم بابقاء الطبقات الاجتماعية على حالة العبودية • هل تستطيع أن تنكر هذا ؟

هتف اليوشا يقول :

ـ لحظة ! أنا أعرف أين قرأت هذه الجملة • لا شك أنهم قد أدخلوك فى هذه العقيدة •

ـ دعك من هذا الكلام ! لماذا تتصور أن أكون قد قرأت هذا الكلام فى موضع ما ؟ ثم ان أحداً لم يدخلنى فى عقيدة من العقائد • أنا قادر على أن أفكر بنفسى ••• واعلم من جهة أخرى أننى لا آخذ على المسيح شيئاً * • ان المسيح انسان له آراء واسعة كريمة ، ولو عاش فى عصرنا لانضم الى الحركة الثورية ، ولربما قام فيها بدور مرموق ••• بل هذا مؤكد •

صاح أليوشا يسأله :

ـ من أين جئت بهذه الفكرة ناشدتك الله ؟ من هو ذلك الغبى الذى ارتبطت به ؟

ـ الحقيقة لا تخفى . أعترف لك بأننى كثيراً ما أتحدث مع السيد راكيتين فى قضية من القضايا ، ولكن يقال أن بيلنسكى العجوز كان يؤمن بهذه الأفكار نفسها .

ـ بيلنسكى ؟ لا أتذكر ذلك . وهو على كل حال لم ينشرها .

ـ اذا لم يكن قد نشرها ، فقد عبَّر عنها فى أحاديثه ، على مايقال. سمعت ذلك من ... ولكن ما قيمة أن أذكر اسم الشخص الذى سمعت منه هذا الكلام !

ـ هل قرأت بيلنسكى ؟

ـ الحق ... لا ... لم أقرأه كله ... ولكنى قرأت كلامه عن تاتيانا * وكيف رفضت أن تسافر مع أونيجين .

ـ لماذا رفضت أن تسافر ؟ أأنت تفهم منذ الآن هذه الأشياء ؟

قال كوليا محتجاً وهو يبتسم ابتسامة غاضبة :

ـ أرجوك ... كأنك تظن أننى صبى صغير من نوع سموروف. لا يذهبنَّ بك الظن ، على كل حال ، الى اننى ثورى متطرف. اننى كثيراً ما أختلف فى الرأى مع راكيتين . واذا ذكرتُ تاتيانا ، فلا تحسب أننى من أنصار تحرر المرأة . اننى أعترف بأن المرأة مرءوسة وأن وظيفتها الخضوع .

وأضاف كوليا يقول مبتسماً بلا سبب ظاهر :

ـ « النساء تحيك » ، كما قال نابوليون . ففى هذه النقطة على الأقل ، أشاطر ذلك الرجل الزائف المظلمة رأيه كاملاً . واننى لأرى كذلك ، من جهتى ، أن الهجرة الى أمريكا هروباً من الوطن خسة ودناءة وصغار ، بل هى أكثر من ذلك أيضاً : هى حماقة وغباوة وبلاهة ! علام

نذهب الى أمريكا فى حين أن هناك أشياء كثيرة يجب أن نفهمها فى بلادنا لنخدم الانسانية فى عصرنا هذا خاصة ؟ ليس يعوزنا العمل . هنالك عمل خصب يجب القيام به . ذلك ما أجبت به .

ـ ذلك ما أجبت به ؟ أجبت به مَنْ ؟ هل عرض عليك أحد أن تسافر الى أمريكا ؟

ـ أعترف بأنهم حاولوا جرى الى ذلك ، ولكننى رفضت . يجب أن يبقى هذا سراً بيننا بطبيعة الحال . لا تقل عنه كلمة لأحد . مفهـوم يا كارامازوف ؟ اننى لا أفضى بهذا السر الى أحد غيرك . لست أريد أن أقع بين أقدام أفراد « الشعبة الثالثة » * ، وأن أتلقى دروساً فى « جسر الجنازير » :

ستذكر المبنى الكبير

بقرب جسر الجنازير

هل تتذكر هذا البيت من الشعر ؟ انه رائع . لماذا تضحك ؟ أتراك تظن أننى كذبت عليك تباهياً وافتخاراً ؟ (قال كوليا ذلك ، وهو يسائل نفسه بسرعة ولكن بقلق : « ماذا لو علم أننى لم أقرأ الا هذا العدد من مجلة « الناقوس » ، الذى وجدته فى مكتبة أبى ، وأننى لا أعرف شيئاً آخر غيره فى ميدان الأدب الثورى ؟ ») .

قال أليوشا :

ـ لا ، لا ، لست أضحك ، ولم يخطر ببالى قط أنك كذبت علىّ . المصيبة هى أنك لا تكذب . قل لى الآن : هل قرأت بوشكين ؟ هل قرأت قصة « أوجين أونيجين » ، أنت الذى تحدثت عن تاتيانا منذ لحظة ؟

ـ لا ، لم أقرأه بعد ، ولكننى أنوى أن أفعل . واعلم يا كارامازوف

أننى لا أحمل أفكاراً سابقة وآراء ميتة ، وأننى أريد أن أسمع الطرف الآخر أيضاً . لماذا ذلك السؤال ؟

ـ لا لشىء !

هتف كوليا يقول فجأة بصوت قاطع :

ـ قل لى يا كارامازوف : لابد أنك تحتقرنى احتقاراً رهيباً !

وانتصب واقفاً أمام أليوشا كأنه يتخذ الوضع العسكرى وتابع كلامه يقول :

ـ هيّا اعترف بذلك دون لف ولا دوران !

سأله أليوشا وهو ينظر اليه بدهشة :

ـ أحتقرك ؟ لماذا عساى احتقرك ؟ كل ما هنالك أنه يحزننى أن تفسد بمثل هذه السخافات طبيعةٌ جميلة كطبيعتك فى فجر حياتها .

قاطعه كوليا يقول وهو يشعر مع ذلك بشىء من الارتياح لهذا الثناء على طبيعته :

ـ دعك من طبيعتى الآن . الواقع أننى سريع التأذى ، أنا أعرف هذا . اننى سريع التأذى بغباوة ، ببلاهة . لقد ابتسمت أنت منذ لحظة ، فتخيلت أنا أن ...

ـ ابتسمت لأسباب أخرى . سأشرح لك الأمر . لقد قرأت فى الآونة الأخيرة انطباعات رجل أجنبى ، ألمانى ، عاش فى روسيا وعبّر عن رأيه فى شبيبة مدارسنا على النحو التالى : « لو أطلعت تلميذاً روسياً على خريطة للسماء ذات النجوم ، خريطة لم يسبق له أن رآها من قبل ، لأعادها اليك منذ الغد مصحَّحةً » : نقص كبير فى المعرفة وغرور شديد لا حدّ له ، هؤلاء هم تلاميذ مدارسنا فى رأى هذا الألمانى .

هتف كوليا يقول وهو يضحك مقهقهاً :

ـ ولكن هذا صحيح كل الصحة ! هأهأهأ ! هذه هي الحقيقه صافية لقد أدرك عين الصواب . مرحى للألماني ! ولكن هذا الرأس المربع لم يستطع مع ذلك أن يرى مزايانا . انني أسلّم بأن فينا غروراً ؟ ولكن هذه آفة من آفات سن الشباب يُصلحها الزمن بمقـــدار ما يجب أن يصلحها . ونحن نملك في مقابل ذلك ميزة تتأكد فينا منذ الطفولة تقريباً، هي ميزة استقلال الفكر . نحن نملك جرأة التصور والاقتناع ، على حين أنهم ، هم ، لا يعرفون تجاه أي سلطة الا عبودية كعبودية البقالين ... ورغم كل شيء ، فان ذلك الألماني قد رأى صواباً . مرحى للألماني ! على أنني أظن أن من الواجب أن يُردّ الألمان الى الرشد . انهم في حاجة الى أن يلقّنوا درساً ، مهما يكونوا أقوياء في العلوم .

سأل أليوشا مبتسماً :

ـ لماذا تريد لهم أن يُردّوا الى الرشد ؟

ـ لعلني قلت هراءً ، اعترف لك بذلك . انه ليتفق لي في بعض الأحيان أن أكون طفلاً على نحو فظيع ، وحين ابتهج أفقد سيطرتي على نفسي ، فأقول أنواعاً من السخافات . ولكنني ألاحظ أننا نثرثر هنا في سفاسف بينما يبدو أن الطبيب تأخر هنـــاك . على أنه ربما انتهز الفرصة ليفحص الأم في الوقت نفسه ، وكذلك نينـــا الكسيحة . لقد أعجبتني نينا هذه كثيراً ، هل تعلم ؟ حين خرجتُ دمدمتْ تقول لي بصوت خافت جداً : « لماذا لم تجيء قبل الآن ؟ » . قالت ذلك بلهجـــة تزخر عتباً . يخيّل الي أنها طيبة جداً ، وأنها كذلك شقية جداً جداً .

قال أليوشا بكثير من الحرارة :

ـ نعم نعم ، سوف ترى حين تعود اليهم أنها انسانة رائعة . انه

ليفيدك كثيراً أن تتردد الى أناس مثلهما ، فتتعلم أشياء كثيرة ما زلت تجهلها فى هذه الحياة ، أشياء ستظهر لك وتتجلى لبصيرتك من صحبة هؤلاء الناس. تلك أحسن وسيلة من أجل أن تتبدل .

هتف كوليا يقول بحرارة :

ـ لشدما يؤسفنى أننى لم أجىء قبل هذا الوقت ! اننى ألوم نفسى على ذلك .

ـ شىء مؤسف حقاً . لابد أنك لاحظت كم سعد هذا الصغير المسكين بزيارتك . لشدما عذبه انتظارك سُدى !

ـ لا تذكرنى بهذا . ذلك يعذب نفسى تعذيباً شديداً . هذه خطيئتى على كل حال . لقد تأخرت عن المجىء بدافع حب الذات ، بدافع الأنانية، وكذلك بدافع روح الاستبداد هذه التى لا أفلح فى التخلص منها ، رغم الجهود التى بذلتها طوال حياتى . اننى أدرك الآن ياكارامازوف أننى تافه فى أمور كثيرة .

قال أليوشا بصوت يفيض عاطفة وحباً :

ـ بالعكس : ان لك طبيعة رائعة ، وان تكن قد أصابها شىء من الزيف . اننى أفهم الآن كيف استطعت أن تؤثر هذا التأثير الكبير فى ذلك الصغير المسكين الذى يملك روحاً نبيلة وحساسية مرضية .

هتف كوليا يقول :

ـ أأنت تقول هذا الكلام ؟ تصور أننى ظننت غير مرة ، منذ جئت الى هنا ، أنك تحتقرنى ! آه ... ليتك تعلم مدى اهتمامى برأيك وحرصى عليه !

ـ أيمكن حقاً أن تكون مفرط الحساسية سريع التأذى الى هذه

الدرجة ؟ أفي مثل سنك ؟ آ ••• لقد تصورت فيك هذا • منذ قليل ، في الغرفة ، حين كنت أصغى الى الحكايات التى قصصتها ، قلت لنفسى : لابد أن يكون هذا الفتى مفرط الحساسية سريع التأذى •

ـ أحزرت اذن ؟ يا لنفاذ بصيرتك ! يا لقوة حدسك ! اننى معجب بك • أعتقد أنك حزرت ذلك حين قصصت أنا حـــكاية الأوزة • لقد أحسستُ في تلك اللحظة أنك احتقرتني لتفاخرى بالمكر • وقد أخذت أكرهك عندئذ ، وأخذت أطنب في الحديث عامداً • وبعد ذلك ـ ونحن في هذا المكان ـ أحسست بعد أن قلت عبارتى : « اذا لم يكن الله موجوداً فيجب أن نخترعه » ، أحسست أننى تسرعت كثيراً فى عرض معرفتى واظهار علمى ، لاسيما وأننى كنت قد قرأت هذه العبـــارة فى كتاب • ولكننى أحلف لك على أننى ان سارعت الى اظهار معرفتي فما كان ذلك منى حباً بالظهور ، وانما صدر هكذا عفو الخاطر ، لا أدرى لماذا ، ولعله صدر عن فرح ، بل انه قد صدر عن فرح حتماً ••• على أننى أعلم حق العلم أن من الغباء جداً ومن العار جداً أن يرتمى المرء على عنق الآخرين هكذا عن فرح • ولكننى مقتنع الآن بأنك لا تحتقرنى ، وأن الأمر كله كان من تصور خيالى وحده • آه ••• لو علمت مدى شقائى ياكارامازوف! اننى أتخيل أحياناً ، لا يدرى الا الله لماذا ، أن جميع الناس يسخرون منى ، وانى لأشعر فى مثل تلك اللحظات بأننى مستعد لتحطيم كل ما هو موجود •

قال أليوشا مبتسماً :

ـ وأنت تعذب أهلك طبعاً •

ـ نعم ، ولا سيما أمى • قل يا كارامازوف : هل تجدنى مضحكاً جداً ؟

هتف أليوشا يقول :

ـ ما أغربها فكرة ! دعك من هذه التصورات ! وما هو المضحك على كل حال ؟ جميع الناس يكونون أو يبدون مضحكين فى بعض المناسبات. على أى شىء يدل هذا ؟ ان الأفراد الذين يملكون مواهب عالية ، فى هذا العصر ، يخشون أكثر ما يخشون أن يعدهم النـــــاس مضحكين ، وهم أشقياء لهذا السبب ولكن الشىء الذى يدهشنى هو أنك عانيت هذا الشعور فى هذه السن المبكّرة ، وان كنت قد أتيح لى أن ألاحظ هذه الأشــياء نفسها لدى أشخاص آخـــرين . فالأطفال أنفســهم قد أخذوا فى أيامنا هذه يقاسون من هذا الخوف الغبى . يوشك ذلك أن يكون جنوناً . ان فى هذا افراطاً فى حب الذات ، ولا شك أن الشيطان قد استقر فيه ... نعم ... الشيطان ...

كذلك ردّد أليوشا غير مازح البتة كما توهم كوليا الذى كان ينظر اليه محدقاً .

وتابع يقول :

ـ استقر الشيطان فيه ... لقد استولى الشيطان على الجيل الحاضر كله .

وختم أليوشا كلامه قائلاً :

ـ أنت تشبه الآخرين فى هذه النقطة . أريد أن أقول انك تشبه عدداً كبيراً من الأشخاص الآخرين الذين أصابهم هذا التشوه نفسه . صدقنى مع ذلك : ما ينبغى أن يشبه الانسان جمهرة الناس .

ـ هل ينبغى للانسان اذن أن يختلف عن سائر الناس ؟

ـ نعم . يجب أن لا أكون على هذه الشاكلة ، ولو أصبح جميع الناس كذلك . كن مختلفاً ولو صرت وحيداً . الواقع أنك لا تشبه

الآخرين : فانك لم تخجل منذ قليل أن تعترف بجوانبك السيئة وحتى بعيوبك المضحكة • فأى الناس يملك هذه الجرأة اليوم ؟ لا أحد يملكها ولا أحد يشعر بالحاجة الى أن يحكم على نفسه حكماً موضوعياً • فلا تتردد اذن فى أن تتميز عن جمهرة الناس • لا تكن كسائر أولئك الملأ ، ولو أمسيت وحيداً فى نوعك •

ـ ما أروع هذا الكلام الذى تقوله لى ! اننى لأدرك الآن أن ظنى فيك لم يخطىء • انك قادر على أن تعزى وتواسى • آه يا كارامازوف ، لطالما انتظرت التعرف اليك • لقد ترقبت فرصة لقائك زمناً طويلاً • هل صحيح أنك أردت أن تتعرف الىّ أيضاً ؟ لقد قلتَ منذ قليل انك فكّرتَ فىّ •

ـ نعم ، سمعت عنك وفكّرت فيك ••• هب حبّ الذات هو الذى أوحى اليك بذلك السؤال ، فأى ضير فى هذا ؟

قال كوليا بصوت أضعفه الانفعال اضعافاً غريباً وكأن فيه حياء :

ـ هل تعلم يا كارامازوف أن حديثنا هذا يشبه مصارحة غرام • أليس هذا مضحكاً ، مضحكاً جداً ؟

أجاب أليوشا وهو يبتسم ابتسامة مشرقة :

ـ البتة ! وهبه مضحكاً ، فأى بأس فى ذلك ، ما دام الحديث على هذا النحو ممتعاً هذه المتعة ، عذباً هذه العذوبة ؟

ـ اعترف يا كارامازوف أنك أنت أيضاً تشعر الآن ببعض الخجل من وجودك معى ••• اننى أقرأ هذا فى عينيك •

كذلك قال كوليا وهو يبتسم ابتسامة ماكرة تشبه أن تكون سعيدة •

ـ ممّ عسانى أخجل ؟

ـ اذن لماذا احمر وجهك ؟

صاح أليوشا يقول ضاحكاً :

ـ أنت تجعل وجهي يحمر •

واصطبغ وجهه فعلاً بحمرة شديدة • ثم تمتم يقول شبه مضطرب :

ـ طيب ••• أشعر ببعض الخجل ، لا يدرى الا الله لماذا • أنا نفسى لا أعرف السبب •

هتف كوليا يقول في سورة من حماسة ، وقد اشتعل خداه وسطعت عيناه :

ـ ما أعظم ما أحبك وأحترمك في هذه اللحظة ، لأنك تشعر بخجل معى ! ذلك أنك تشبهنى •••

قال أليوشا فجأة دون أن يدرى لماذا :

ـ اصغ الىّ يا كوليا : لا شك أنك ستشقى كثيراً فى هذه الحياة •

فقال كوليا يؤيد كلامه :

ـ أعرف ذلك • ما أصدق تنبؤك بالمستقبل !

ـ مع ذلك سوف تحب الحياة •

ـ صحيح ، صحيح ! مرحى ! انك نبى ! نحن متفاهمان يا كارامازوف • وما يعجبنى خاصةً فيك هو أنك تخاطبنى مخاطبة الند للند ، مع أننا لسنا ندين متكافئين ، لا ، لا ، فأنت أعلى منى ! ولكننا سنتفاهم • طوال الشهر الماضى ، ظللت أقول لنفسى : « اما أننا سنصبح صديقين منذ اللحظة الأولى والى الأبد ، واما أننا سنصبح عدوين منذ الكلمات الأولى وحتى الممات ! »

قال أليوشا وهو يضحك ضحكة فرحة :

ـ منذ قلت لنفسك هذا الكلام ، كنتَ تحبنى ، هذا أكيد .

ـ كنت أحبك ، كنت أحبك حباً رهيباً ، آه ... نعم ... وكنت أحلم بك ! ماذا تفعل حتى تعلم الغيب هذا العلم ؟ هه ... هذا هو الطبيب ... ترى ما الذى سيقوله لنا ؟ هل ترى الى تعبير وجهه ؟

٧
أليوشا

في تلك اللحظة خرج الطبيب من الغـرفة مرتدياً فراءه واضعاً قبعته على رأسه . كان وجهه يعبر عن الامتعاض والاحتقار ، كأنه كان يخشى أن يتسخ من ملامسة ذلك المسـكين الحقير . ألقى على الدهليز نظرة خاطفة ، ثم حدّق الى أليوشا وكوليا بقسوة . أشار أليوشا للحوذي من الباب ، فاقتربت العربة التي أقلت الطبيب ، اقتربت من مدخل البيت . ولكن في تلك اللحظة هرع الكابتن ليدرك الطبيب ، فانحنى له انحناءة كبيرة ، ثم رجاه متذللاً معتذراً ، أن يسمح له بحديث أخير معه .

بدأ فقال :

ـ يا صاحب السعادة ، يا صاحب السعادة ... أهذا ممكن ؟

ولكنه لم يستطع أن يتم كلامه ، واكتفى بأن عقف يديه يأساً ، وهو يلقي على الطبيب نظرة ضراعة قصوى ، كأن الأقوال التي سيتفوه بها الطبيب يمكن أن تبدل الموت المحكوم به على ابنه المسكين .

أجاب الطبيب يقول في اهمال ، بصوتٍ تخالطه مع ذلك لهجة التسلط والاستبداد المعهودة فيه :

ـ لا حيلة لى فى الأمر • أنا لست الهاً •••

ـ دكتور ••• صاحب السعادة ••• هل هذا وشيك ، هل هو وشيك ؟

أجاب الطبيب وهو ينطق بأحرف كلامه نطقاً واضحاً :

ـ كونوا مستعدين لكل شيء •

ثم خفض عينيه وسار خطوة فى اتجاه العربة •

قال الكابتن مروّعاً :

ـ صاحب السعادة ، ناشدتك يسوع المسيح ••• هل يمكن حقا أن لا يكون هناك أى شيء ، أن لا يكون هناك أى شيء يستطيع انقاذه بعد الآن ؟

أجاب الطبيب يقول نافدَ الصبر :

ـ هذا لا يتوقف عليّ الآن •

ثم استدرك يقول وهو يتوقف لحظة :

ـ هِمْ ••• ومع ذلك ••• اذا كنتم تملكون مثلاً أن ترسلوا مريضكم ، فوراً ، دون ابطاء (وقد نطق الطبيب قوله « فوراً ، دون ابطاء » لا بقسوة فحسب ، بل بما يشبه الغضب أيضاً ، حتى ان الكابتن ارتعش) ، الى سيراكوز ••• فمن الجائز أن تستطيع الظروف المناخية الملائمة أن تحدث بعض التغيير ، ولكن •••

هتف الكابتن يقول وقد بدا عليه أنه لم يفهم •

ـ الى سيراكوز ؟

فتدخل كوليا يقول بصوت رنان يشرح الأمر :

ـ سيراكوز هى فى جزيرة صقلية •

فصاح الكابتن يقول وقد اضطرب اضطراباً تاماً :

ـ فى جزيرة صقلية ؟

ثم أضاف يقول وهو يحرك يديه بحركة دائرية عريضة ليشير الى فقر مسكنه :

ـ أما رأيت اذن ؟ وامرأتى ، وأسرتى ؟ ما الذى يصيرون اليه ؟

ـ لا ، لا ، لن يكون على الأسرة أن تذهب الى صقلية • أرسل أسرتك الى القفقاس فى بداية الربيع ••• يجب أن تقيم ابنتك زمناً فى منطقة القفقاس ••• أما زوجتك فلن تعالج هنالك الا مدة قصيرة فى مركز من مراكز المياه الحارة لتشفى من أوجاع الروماتزم ••• ثم يكون عليك بعد ذلك أن ترسلها فوراً الى باريس ، عيادة الدكتور لابولوتييه للأمراض العقلية • وفى امكانى أن أزودك بكلمة اليه ••• ان من الجائز أن تتحسن حالتها بعض التحسن فى هذه الحالة •

عاد الكابتن يقول وهو يلوّح بذراعيه يائساً ، ويشير الى ألواح الخشب التى تتألف منها جدران مسكنه :

ـ دكتور ، دكتور ، رأيت بعينيك !

فقال الطبيب وهو يضحك ضحكة صغيرة :

ـ هه ••• ليس هذا شأنى أنا • أنا لم أزد على أن ذكرت لك ، فى الاجابة عن سؤالك ، ما يستطيع العلم أن ينصح بالقيام به محاولةً أخيرة بعد اليأس ••• أما فيما عدا ذلك ••• فأنا آسف ••• ولكن •••

ـ لا تخف أيها « المداوى » لن يعضك كلبى •

كذلك قال كوليا فى صخب وقد لاحظ النظرة القلقة التى ألقاها الطبيب على « برزفونه » المرابط فى العتبة •

كان صـــوت كوليا يرتعش غضباً ، وقد تعمد أن يسميه باســـم « المداوى » بدلاً من اســـم « الطبيب » ، اهانةً له ، كما شرح ذلك فيما بعد •

قال الطبيب وهو يرفع رأسه ويحدق الى أليوشا مدهوشاً :

ـ كيف ؟

ثم أضاف يسأل أليوشا فجأة ، كأنه يطلب منه تفسيراً لقلة الأدب هذه :

ـ من ؟ ماذا ؟ عمن يتكلم !

فقال كوليا من جديد ، مشدّداً على كلماته :

ـ أنا صاحب « برزفونه » • لا تهتم بشخصى أيها المداوى •

قال الطبيب ولم يفهم من ذا الذى يسمى بهذا الاسم :

ـ « برزفونه » ؟ أى « برزفونه » ؟

ـ « برزفونه » ، « برزفونه » ، أى غـرابة فى هـذا ؟ الى اللقـاء أيها المداوى ، سوف نلتقى مرة أخرى فى سيراكوز •

استشاط الطبيب غيظاً ، فانفجر يقول على حين فجأة :

ـ من هذا الـ ••• من هذا •• الوقح ؟

فقال أليوشا بسرعة وهو يقطب حاجبيه :

ـ هو تلميذ من هنا يا دكتور • انه هازل ، فلا تلق اليه بالاً •

وصاح أليوشا يخاطب كوليا قائلاً له :

ـ اسكت يا كوليا •

ثم عاد يخاطب الطبيب بشيء من نفاد الصبر في هذه المرة :

ـ لا تلق اليه بالاً يا دكتور •

فأعول الطبيب يقول وهو يضرب الأرض بقدميه حانقاً مسعوراً :

ـ انه يستحق السوط ، ال ••• سـ ••• وط ! يجب تأديبه !

اصفر وجه كوليا ، وقدحت عيناه شرراً ، وقال للطبيب بصوت مرتعش :

ـ هل تعلم أيها المداوى أن كلبي « برزفونه » يستطيع أن يعض ؟ تعال يا « برزفونه » !

فصرخ أليوشا يقول له بلهجة صارمة :

ـ اذا قلت كلمة واحدة أخرى ، فهذا فراق بيني وبينك !

ـ اعلم أيها المداوى أن هناك شخصاً واحداً في هذا العالم يستطيع أن يأمر نيقولا كراسوتكين • هو هذا الرجل •

قال كوليا ذلك وهو يومىء الى أليوشا • ثم اتجه فجأة نحو الباب ودخل الغرفة • واندفع « برزفونه » وراءه •

لبث الدكتور جامداً زهاء خمس ثوانٍ ، كأنما قد استبد به ذهول ، وهو ما يزال شاخصاً ببصره الى أليوشا • ثم بصق على الأرض ، وتقدم الى جهة العربة بخطى سريعة وهو يردد بصوت عال :

ـ عجيب ، عجيب ، عجيب ، عجيب !

أسرع الكابتن يساعده في ركوب العربة • أما أليوشا فقد تبع كوليا ودخل الغرفة • كان كوليا قد وصل الى سرير ايليوشا ووقف

عنده ، فتناول ايليوشا يده ، ونادى أباه ، فما هى الا دقيقة حتى عاد الأب .

ـ بابا ، بابا ، تعال الى هنا .

كذلك تمتم يقول ايليوشا فى اضطراب شديد .

ثم لم يقوَ على اتمــام كلامه ، فدفع ذراعيــه الناحلتين الى أمام ، وطوق بهما أباه وكوليا معاً فى حركة متشنجة ، وضم أحدهما الى الآخر بعناق واحد ، شاداً جسمه اليهما شداً قوياً . فأخذ الكابتن عندئذ ينشج نشيجاً صامتاً . أما كوليا فأخذت شفتاه وذقنه ترتعش .

أنّ ايليوشا يقول بلهجة مرة :

ـ بابا ، بابا ، ما أشد ألمى عليك !

قال الكابتن متمتماً :

ـ بنىّ ايليوشا ... ملاكى ... قال الطبيب انك ... ستشفى ... وسنسعد جميعاً ...

صاح ايليوشا قائلاً :

ـ بابا ، أنا أعرف ماذا قال لك الطبيب الجديد عنى ! ... فهمته من النظر اليه !

وشدّ اليه أباه وكوليا من جديد ، بكل قواه ، مسنداً وجهه الى كتف الكابتن .

ـ بابا ، بابا ، لا تبك ... حين سأموت ستأخذ صبياً آخر ، صبياً طيباً صغيراً تختاره من بين أحسن من ستعرف من صبيان ، وتسميه باسم ايليوشا مثلى ، وتحبه كما تحبنى ...

صرخ كراسوتكين يقول له بصوت يشبه أن يكون خانقاً :

ـ لا تقل سخافات يا عزيزى !

وتابع ايليوشا كلامه فقال :

ـ أما أنا يا بابا ، فلا تنسنى أبداً ، تعال الى قبرى زائراً • اسمع يا بابا : أريد أن تدفننى قرب تلك الصخرة الكبيرة التى كنا نتجه اليها أثناء نزهاتنا • وزرنى هنالك مساءً فى صحبة كراسوتكين ••• ومع « برزفونه » أيضاً ••• سأنتظركم هنالك ••• بابا ، بابا !

اختنق صوت ايليوشا • ظل الثلاثة متعانقين صامتين • وفى مقعدها، كانت نينا تبكى بكاء رفيقاً • واذ لاحظت الأم أن الجميع يسكبون الدموع ، انفجرت تبكى هى أيضاً ، وصاحت تنادى :

ـ صغيرى ايليوشا ، صغيرى ايليوشا !

انسل كراسوتكين من عناق ايليوشا بغتةً ، وقال يشرح بسرعة :

ـ الى اللقاء يا عزيزى • أمى تنتظرنى على الغداء • من المؤسف أننى لم أنبئها • لسوف تقلق الآن ••• على أننى سأجىء اليك بعد الغداء، وسأمكث معك طول النهار ، وطول المساء أيضاً • سأقص عليك حكايات كثيرة • سأرجع مع « برزفونه » • أما الآن فسأصطحبه ، والا أخذ ينبح فأزعجك • الى اللقاء !

وهرول الى الدهليز • كان يبذل جهداً من أجل أن لا يبكى • ولكن دموعه تفجرت فى الدهليز • وعلى هذه الحال انما وجده أليوشا• قال له أليوشا ملحاً :

ـ كوليا ، عليك أن تفى بعهدك قطعاً ، وأن تعود كما وعدته ، والا حزن حزناً شديداً •

ـ سأرجع حتماً• آه ••• لشدّ مايحزننى أننى لم أجىء قبل الآن•

كذلك تمتم يقول كوليا باكياً ، دون أن يشعر بخجل من البكاء في هذه المرة .

وفى تلك اللحظة خرج الكابتن من الغرفة كالمجنون ، وأغلق الباب وراءه بسرعة . كان في وجهه تعبير غريب ، وكانت شفتاه تختلجان . وقف أمام الشابين ، ورفع ذراعيه فى الهواء ، ودمدم يقول زائغ النظرة تائه الهيئة صارفاً بأسنانه :

ـ لا أريد صبياً صغيراً طيباً ... لا أريد صبياً آخر ! ألا فليعقل لسانى اذا نسيتك يا أورشليم * ...

وتوقف عن الكلام فجأة كأنما قد خنقه الانفعال ، وتهاوى على الأرض راكعاً ، وأمسك رأسه بيديه المقبوضتين وأخذ يبكى مطلقاً أنات مشوشة ولكن محاولاً أن يخنقها حتى لا يسمعه أحد فى الغرفة .

هرع كوليا الى الشارع . وصاح يقول لأليوشا بصوت جاف كالملح:

ـ الى اللقاء يا كارامازوف ! هل تأتي أنت أيضاً ؟

ـ سأجيء هذا المساء حتماً .

ـ ماذا أراد أن يقول حين تكلم عن أورشليم ؟ ما معنى هذا ؟

ـ هذه آية من التوراة « اذا نسيتك يا أورشليم » ، معنى هذا : اذا نسيت ما هو عندى أعز شيء وأغلى شيء ، اذا خنت من ذكرياتى أقدسها ، فلتنزل علىّ عندئذ ...

ـ كفى ! فهمت ! لا تنس أن تجيء أنت أيضاً . تعال يا «برزفونه» !

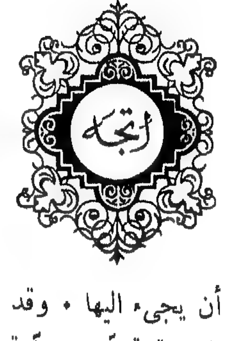
كذلك صاح كوليا ينادى الكلب بصوت حانق ، واتجه نحو بيته بخطى واسعة .



الباب الحادي عشر: الأخ ايفان فيدروفتش

١

عند جروشنكا



أليوشا نحو ميدان الكاتدرائية حيث يقع منزل التاجرة موروزوفا • كان أليوشا ذاهباً الى عند جروشنكا • لقد أرسلت اليه جروشنكا ، فى ساعة مبكرة من الصباح ، خادمتها فينيا ، ترجوه ملحة أن يجىء اليها • وقد علم من سؤال فينيا أن المرأة الشابة تعانى منذ الليلة البارحة قلقاً جديداً قوياً • وكان أليوشا ، خلال هذين الشهرين اللذين أعقبا اعتقال ميتيا ، قد زارها مراراً ، تارةً من تلقاء نفسه ، وتارةً بطلب من دمترى • وكانت جروشنكا قد مرضت مرضاً شديداً بعد حبس ميتيا بثلاثة أيام ، وظلت تعانى من المرض خمسة أسابيع ؛ حتى لقد لبثت فى الأسبوع الأول فاقدةً وعيها • وقد تبدلت ملامح وجهها تبدلاً كبيراً أثناء ذلك الوقت ، فاصفرت ونحلت ، وان تكن قد أصبحت قادرة على الخروج منذ ما يقرب من خمسة عشر يوماً • على أنها أصبحت فى نظر أليوشا أعظم جمالاً وفتنةً ، وكان أليوشا يحب كثيراً أن يلتقى بنظرتها حين يجىء اليها • ان شيئاً ما فى تعبير عينيها قد أصبح أقوى ثباتاً وأكثر تروياً وتأملاً • ان المرء يلاحظ فيها نوعاً من تبدل روحى ، ونوعاً من عزيمة راسخة ، وان تكن هذه العزيمة تشتمل على اذعان وهدوء • ان

غضناً قصيراً عمودياً يرتسم الآن على جبينها بين الحاجبين فيسبغ على وجهها معنى التأمل العميق ، ويضفى عليه تعبيراً يشبه أن يكون قسوة في الوهلة الأولى • لم يبق هنالك ، في الظاهر ، أثر لما كان يُرى فيها من خفة وطيش • ومع ذلك كان يُدهش أليوشا أنها لم تفقد مرحها الفتى رغم النازلة التى ألمت بها ، رغم اعتقال الرجل الذى تحبه ، رغم حبس هذا الرجل فى اللحظة التى أوشكت أن تصبح فيها خطيبته ، رغم اتهامه بجريمة خطيرة ، وكذلك رغم مرضها الذى أعقب ذلك ، ورغم قرب مثول الرجل أمام المحكمة • وان عينيها اللتين كانتا فيهما كثير من الكبرياء فى الماضى ، يلوح فيهما الآن استسلام وادع وخضوع هادىء ، وان كان يتفق من حين الى حين أن يسطع فى نظرتها لهيب مقلق ، ولا سيما فى اللحظات التى يراودها فيها ذلك العذاب القديم الذى لم يهدأ فى قلبها أثناء تلك المدة ، بل كان يشتد ويقوى بغير انقطاع • ان موضوع هذا القلق الأليم ما يزال هو نفسه : انه كاترين ايفانوفنا التى كثيراً ما ذكرت جروشنكا اسمها فى هذيانها أثناء المرض • كان أليوشا يدرك أن جروشنكا تغار من هذه المرأة على ميتيا غيرة رهيبة ، رغم أن كاترين ايفانوفنا لم تزر ميتيا فى السجن مرة واحدة ، كما كان فى وسعها أن تفعل ذلك بغير عناء فى كل آن • وكان ذلك كله يضع أمام أليوشا مهمة صعبة ، لأن جروشنكا لا تفضى بآلامها وتباريحها الا اليه ، وما تنفك تسأله المشورة والنصح ، وهو فى بعض الحالات لا يدرى بم يجيبها ، وماذا يقول لها •

لذلك كان أليوشا مهموماً مغموماً حين دخل مسكن المرأة الشابة • كانت جروشنكا فى بيتها ، قد رجعت من السجن منذ نصف ساعة • وأدرك أليوشا ، من الحركة السريعة التى قامت بها لتنهض عن مقعدها وتهب الى لقائه ، أنها كانت تنتظره نافدة الصبر • وكان هنالك على المائدة ورق لعب أُعدّ لشخصين • ان أريكة الجلد التى كانت فى الجهة الأخرى

من المائدة قد أحيلت الآن سريراً ، وها هو ذا العجوز ماكسيموف ، الضعيف المريض ، ولكن على تبسم متكلف وتلطف متصنع ، يرقد على هذا السرير نصف رقاد ، مرتدياً ثوب المنزل ، واضعاً على رأسه طاقية . ان هذا العجوز الذى ليس له مأوى لم يترك جروشنكا منذ عودتها من موكرويه قبل شهرين ، وهو يعيش فى بيتها منذ ذلك الحين . لقد رجعا من موكرويه معاً فى المطر والوحل ، فلما وصلا الى مسكنها كان البرد قد نفذ فى جسمه حتى العظام ، وكان يقاسى هلعاً شديداً ورعباً رهيباً ، فما ان دخلا المسكن حتى جلس على الديوان وأخذ يحدّق الى المرأة الشابة صامتاً ، وهو يبتسم ابتسامة ذليلة متوسلة ضارعة. وكانت جروشنكا عندئذ مصعوقة من المصيبة التى نزلت بها ، وكانت ترتعد من الحمى منذ تلك اللحظة ، فنسيت وجود ماكسيموف خلال نصف الساعة الأولى ، مشغولة باصدار أوامرها الى خدمها . ثم ألقت عليه بصرها مدهوشة ، فضحك العجوز ضحكة صغيرة تثير الشفقة وتبعث على الرحمة ، ونظر الى عينيها دون أن ينطق بكلمة . فنادت عندئذ فنيا ، وأمرتها أن تقدم للعجوز طعاماً . وظل العجوز طوال ذلك النهار لا يتحرك من مكانه ، حتى اذا هبط الليل ، وأغلقت النوافذ ، سألت فنيا مولاتها :

ــ هل سيبيت الليلة هنا يا آنستى ؟

فأجابتها جروشنكا قائلة :

ــ نعم ، اعدى الأريكة سريرا له .

وحين سألت جروشنكا العجوز بعد ذلك ، علمت أنه أصبح لا يعرف الآن الى أين يأوى ، لأن « السيد كالجانوف ، المحسن اليه ، قد أعلن له جازماً أنه لن يستقبله بعد الآن فى بيته ، وأعطاه خمسة روبلات زاداً » .

فقالت له جروشنكا بحزن وهى تبتسم ابتسامة شـــفقة وعطف : « اذن فابق هنا والله يرعاك » . فارتعش المسكين لهذه الابتسامة من شدة الانفعال ، واختلجت شفتاه فى نشيج مخنوق اعترافاً بالجميل . ولم يتركها بعد تلك اللحظة حتى أثناء مرضها . لقد وجد الطفيلي التائه مأوى . ولم تطرده فينيا وجُدَّتُها طباخةُ جروشنكا ، بل ظلتا تطعمـانه وترتبـان له سريره على الأريكة . حتى ان جروشنكا ألفت وجوده بعد ذلك واعتادته ، فكانت اذا رجعت من زيارة لميتيا (وقد أخذت تزور ميتيا منذ بداية نقاهتها قبل أن تبل من مرضها تماماً) ، جلست الى جانب «ماكسيموشكا» ، وأخذت تثرثر معه فى سـفاسف وترهات ، حتى تطرد حزنها وحتى لا تفكر فى شقائها . وقد اتفق أن كان العجـوز يحسن قصّ الحكايات المضحكة فى المناسبات ، فاذا هو يصبح حاجة لا غنى لها عنها . وكانت جروشنكا لا تكاد تستقبل أحداً عدا أليوشا الذى كان مع ذلك لا يزورها كل يوم ، ولايمكث عندها الا قليـلاً . أما صاحبها التـاجر العجوز فقد كان فى تلك الفترة مريضاً مرضاً شديداً ، وكان ملازماً فراشه . كان « بسبيل أن يرحل » ، على حد تعبير سكان المدينة ، وقد مات فعلاً بعد محاكمة ميتيا بثمانية أيام. واذ أحسّ بقرب نهايته ، فقد أمر قبل موته بثلاثة أسابيع أن يصعد اليه ابناؤه وزوجاتهم وأولادهم وأن لا يبتعدوا عن سريره ؛ وفى الوقت نفسه أصدر أوامره الى خدمه بأن لا يستقبلوا جروشنكا فى بيته ، وأن يبلغوها مايلى اذا هى جاءت : « ان مولانا يأمر بأن تعيشى فى السعادة والفرح زمناً طويلاً ، وأن تنسيه نسياناً تاماً » . ومع ذلك كانت جروشنكا ترسل من يسأل عن أخباره كل يوم تقريباً .

حين دخل أليوشا على جروشنكا ، رمت ورق اللعب ، ومدت اليه يدها فرحةً وهى تصيح :

ـ هأنت ذا أخيراً ! ان « ماكسيموشكا » هذا المسكين كان يتسلى

بتخويفى زاعماً أنك لن تجىء • ليتك تعرف مدى حاجتى اليك ! اجلس الى المائدة • ماذا تريد ؟ قهوة ؟

أجاب أليوشا وهو يجلس قرب المائدة :

ـ بسرور • بدأت اشعر بجوع شديد •

ـ عظيم ! فينيا ، هاتى قهوة بسرعة ! ان الماء يغلى منذ مدة طويلة • أمرت باعداده خصيصاً لك • فينيا ، هاتى فطائر باللحم أيضاً ، ولتكن ساخنة جداً • هل تعلم يا أليوشا ان قد وقعت لى اليوم قصة رهيبة مع هذه الفطائر ؟ حملتها له الى السجن ، فردّها الىّ بخشونة ، ورفض أن يمسّها ، هل تصدق ؟ حتى لقد رمى احداها على الأرض ثم داسها بقدمه • قلت له : « سأتركها عند الحارس ، فاذا لم تأكلها حتى هذا المساء ، كان معنى ذلك أنك تؤجج فى نفسك الشر والغضب » ، قلت له ذلك وانصرفت • فهأنت ذا ترى أننا تشاجرنا مرةً أخرى • كلما زرته انتهينا بمشاجرة •

كانت جروشنكا تتكلم متعجلة وهى فريسة انفعال شديد • وسرعان ما فقد ماكسيموف طمأنينته وابتسم غاضاً بصره • سألها أليوشا :

ـ ولأى سبب تشاجرتما اليوم ؟

ـ لسبب ما كان لى حقاً أن أتوقعه • تصور أنه أصبح يغار من « القديم » • لقد سألنى : « لماذا تعطينه مالاً ؟ أأخذت اذن تعيلينه ؟ » • هى الغيرة ، الغيرة دائماً • انه يغار حين يأكل ، حين ينام • حتى لقد أقام الدنيا وأقعدها فى الاسبوع الماضى ، بصدد العجوز كوزما •

ـ ولكنه كان يعلم بوجود « القديم » !

ـ طبعاً كان يعلم بوجوده • افهم اذا كنت تستطيع أن تفهم ! كان على علم بهذه العلاقة منذ البداية ، وها هو ذا يأخذ يهيننى اليوم فجأة لهذا

السبب • انني لأستحى أن أردد على مسمعك ما قاله لى صارخاً • يا له من أحمق ! وقد جاء راكيتين يزوره حين انصرفت • من يدرى ؟ لعل راكيتين هذا هو الذى يثيره علىّ •

ثم أضافت تقول ذاهلة :

ـ ما رأيك ؟

ـ رأيى أنه يحبك ، يحبك كثيراً • ولكن أعصابه ثائرة الآن •

ـ من حقه أن تكون أعصابه ثائرة ، ما دام سيُحكم عليه غداً • وذلك بعينه هو السبب الذى من أجله أردت أن أزوره اليوم ، لأحدّثه عن يوم الغد هذا • تقول لى انه ثائر الأعصاب • أفليس من حقى أن أكون ثائرة الأعصاب أنا أيضاً ؟ ثم هو يحدثنى عن ذلك البولندى ••• يا له من أحمق ! الحمد لله على أنه لا يغار من ماكسيموشكا أيضاً !

هنا تدخل ماكسيموف قائلاً :

ـ كانت زوجتى تغار علىّ كثيراً •

فأجابته جروشنكا ضاحكة رغم ارادتها :

ـ عليك أنت ؟ دعك من هذا الكلام ! ممن يمكن أن تغار عليك ؟

ـ من الخادمات •

ـ اسكت ياماكسيموف ، لست اليوم فى مزاج يمكننى من الضحك• ان غضباً شديداً قد استحوذ على نفسى • أما الفطائر ، فليس يجديك أن تنظر اليها هكذا ••• لن تصيب منها شيئاً • ان أكلتها آذتك • ولن أعطيك خمراً كذلك • هأنا ذى مضطرة الى العناية بهذا الرجل أيضاً • ألا يمكن أن يقال ان بيتى أصبح ملجأ خيرياً للبر والاحسان ؟

كذلك قالت جروشنكا ضاحكة •

فقال ماكسيموف بصوت واهن متباك :

ــ أنا لست أهلاً لاحسانك • أنا انسان تافه لا قيمة لى • الأولى أن تغدقى مساعداتك على من قد يكونون أحوج اليها منى •

ــ ما من أحد ليس بنافع فى هذا العالم يا ماكسيموف • هل يعلم المرء فى الواقع الى من يحتاج أو لا يحتاج • ان ذلك البولندى يقع الآن على عاتقى كذلك يا أليوشا• تصور أنه مرض اليوم هو أيضاً • وقد زرته• نعم ، سأرسل اليه الفطائر عامدةً ، عامدةً • لم يكن يخطر ببالى أن أفعل • ولكن ميتيا اتهمنى باننى أرسلت اليه فطائر • لذلك سأرسل اليه منها اليوم قصداً ، قصداً • هه ! هذه فينيا تجىء برسالة • هى رسالة من البولندى • لا شك أنه يطلب مالاً من جديد !

صدق ظن جروشنكا • ان « السيد » موزيالوفكتش يرسل اليها رسالةً تبلغ مبلغاً عظيماً من الطول والتصنع على عادته ، وفيها يرجو ان تقرضه ثلاثة روبلات ، ضاماً الى الرسالة سنداً بالمبلغ يتعهد فيه بردّ المال فى غضون ثلاثة أشهر ، مذيلاً السند بتوقيعه وتوقيع «السيد» فروبلفسكى أيضاً • وكانت جروشنكا قد تلقت قبل ذلك من صاحبها « القديم » عدداً كبيراً من مثل هذه الرسائل مع مثل هذه السندات • بدأ ذلك عند شفائها منذ أسبوعين ، ولكن جروشنكا علمت أن « السيدين » قد جاءا يسألان عن صحتها مراراً • كانت الرسالة الأولى التى أرسلها البولندى طويلة ، قد كتبها على ورقة كبيرة وختمها بخاتم كبير يحمل شعار نسب أسرته • وكان مضمون الرسالة غامضاً جداً ومتصنعاً جداً ، فلم تستطع جروشنكا أن تقرأ الا نصفها ثم رمتها دون أن تفهم منها شيئاً • ثم انها كانت فى تلك الآونة لا تعبأ كثيراً بما قد يُكتب اليها ! وفى الغد أُتبعت تلك الرسالة برسالة أخرى يرجوها فيها « السيد » موزيالوفكتش بأن تسلفه ألفى روبل ، متعهداً بالسداد بعد فترة وجيزة • ولم تردّ جروشنكا لا على

الرسالة الأولى ولا على الرسالة الثانية • ثم تتالت رسائله كل يوم ، يكتبها دائماً بلهجة فيها كثير من الجد والاحتفال ، ولكن المبلغ الذى يلمتس ان تقرضه اياه ينخفض شيئاً بعد شىء ، فيهبط الى مائة روبل ، ثم يهبط الى خمسة وعشرين روبلاً ، ثم الى عشرة روبلات • واخيرا تلقت جروشنكا رسالةً جديدة يرجوها فيها « السيدان » أن تسلفهما روبلاً واحدا ، وقد ضمنَّا الى الرسالة سنداً وقّعاه كلاهما • عندئذ شعرت جروشنكا بشىء من الشفقة • ومضت تزور « السيد عند الغسق ، فاذا هى تجد البولنديين فى عوز يشبه أن يكون تاماً ، فلا طعام ، ولا تدفئة ، ولا سجاير ، وهما فوق ذلك مدينان لصاحبة البيت التى يسكنان عندها • ان المائتى روبل التى ربحاها فى موكرويه من اللعب بالورق مع ميتيا قد ذابت بسرعة • وما كان أشد دهشة جروشنكا حين رأت « السيدين » يستقبلانها استقبالا فيه كثير من التعاظم والادعاء ، مهتمين أشد الاهتمام بقواعد الكياسة الاجتماعية ، مسترسلين فى كلام متفخم متنفخ • لم تزد جروشنكا عندئذ على أن ضحكت من تكلفهما ، ثم أعطت صاحبها «القديم» عشرة روبلات• وقد قصت هذا المشهد على ميتيا فى ذلك اليوم نفسه ضاحكة ، فلم يخطر ببال ميتيا يومئذ أن يستاء أو أن يمتعض • غير أن « السيدين » قد تشبثا منذ ذلك الحين بجروشنكا ، وأصبحا يمطرانها كل يوم برسائل يضرعون اليها فيها أن تمدهم بمعونة مالية • فكانت ترسل اليهما فى كل مرة مساعدات ضئيلة • ولكن ها هو ذا ميتيا يُظهر اليوم غيرة ضارية •

قالت جروشنكا مضطربة بعض الاضطراب :

ـ شاءت غباوتى أن أزوره اليوم عابرةً ، بضع دقائق ، قبل أن أذهب الى ميتيا ، لأنه مرض هو أيضاً ، وقد قصصت ذلك على ميتيا ضاحكة • قلت له : « تصور أن صاحبى البولندى قد أخذ يغنى لى أغانيه القديمة عازفاً على القيثارة ، آملاً أن يؤثر فى نفسى وأن يردّنى اليه »•

فاذا بميتيا يثب فجأة ، ويأخذ يرشقنى باهانات فظيعــة • يميناً لأرسلن للبولنديين فطائر ! يا فينيا ، أظن أنهما بعثا بتلك الصبية من جديد ، أليس كذلك ؟ فاعطيها ثلاثة روبلات لهما ، وحمّليها كذلك عشر فطائر ملفوفة بورق • أما أنت يا أليوشا ، فأريد حتماً أن تروى لميتيا أننى أرسلت اليهما فطائر •

قال أليوشا مبتسماً :

ـ لا ، لن أروى له ذلك بحال من الأحوال •

قالت جروشنكا بمرارة :

ـ دعك من هذا الكلام ! أتتخيل أنه يهتم بأمرى ويتعذب من أجلى، بينما هو يتظاهر بالغيرة تظاهراً لا أكثر ؟

قال أليوشا :

ـ يتظاهر تظاهراً ؟ ماذا تريدين أن تقولى ؟

ـ ما أغباك يا صغيرى أليوشا ! ألا انك لا تفهم فى هذه الأمور شيئاً رغم ذكائك • ان ما يغضبنى ، أنا المسـكينة ، ليس هو أنه يغار علىّ • بالعكس : ان عدم غيرته هو ما يعذبنى • هكذا أنا • لن آخذ عليه يوماً أن يكون غيوراً ، فأنا نفسى مسمومة القلب شديدة الغيرة • ولكننى شقية لأنه لا يحبنى البتة ، وانما هو يتظاهر اليوم بالغيرة على • ذلك كل شىء • ما أنا بالعمياء • اننى أرى كل شىء رؤية واضحة • لقد أخذ يكلمنى فجأة عن الأخـرى ، عن كاتيا تلك ، ممتدحاً ما صنعته فى سبيله ، مثنيـاً على ما قامت به من أجله • قال لى : « لقد استقدمت طبيباً من موسكو ليشترك فى المناقشات أمام المحكمة انقاذاً لى • واستقدمت من العاصمة أيضاً محامياً هو أشهر المحامين وأبرعهم ، وأعلمهم فى الوقت نفسه » • هو اذن يحبها ولا يحبنى ، يحبها هى ، ولا يحبنى أنا ، ما دام قد طفق يتغنى بمدائحها

أمامى ناظراً الىّ بعينيه الوقحتين ! انه مذنب فى حقى ، ثم هو يسعى الى مشاجرتى ليلقى الذنب على عاتقى ، على عاتقى وحدى ، كأنه يريد أن يقول : « لقد كنت على صلة بذلك البولندى قبلى ، فمن حقى اذن أن أهجرك فى سبيل كاتيا » . انه يريد أن يلقى الذنب كله علىّ وحدى . انه يتعمد أن يشاجرنى ، يتعمد ذلك تعمداً ... ولكننى سوف ...

لم تكمل جروشنكا كلامها لتشرح ما تنوى أن تفعله . وانما أخفت عينيها بمنديل ، وطفقت تبكى فى نشيج يثير الشفقة .

قال أليوشا بصوت جازم :

ـ انه لا يحب كاترين ايفانوفنا .

فقالت جروشنكا بصوت يشوبه شىء من التهديد وهى تزيح المنديل عن عينيها :

ـ سوف أعرف بنفسى أهو يحبها أم لا .

لقد تقبضت قسمات وجهها من الغضب . ولاحظ أليوشا ، على حزن وحسرة ، أن ما كان يشيع فى وجهها قبل ذلك من رقة هادئة وفرح ساج قد حل محلّه الآن عنف وشر .

قالت فجأة تحسم الأمر :

ـ كفى سخافات ! اننى لم استدعك لأكلمك فى هذا ، يا أليوشا ، يا ملاكى ! قل لى : ما الذى سيحدث غداً ، ما الذى سيحدث غداً ؟ ذلك ما يعذبنى . أنا وحدى أفكر فى هذا وأقاسى منه . اننى أنظر الى الآخرين فلا أجد أحداً يقلق أو يكترث . هل فكرت فى الأمر أنت على الأقل ؟ غداً سيُحكم عليه مع ذلك ! قل لى كيف ستجرى الأمور أمام المحكمة ! ان الخادم هو الذى قتل ، ان الخادم هو الذى قتل ! يارب ! هل يُعقل

أن يحكموا عليه بدلاً من أن يحكموا على الخادم ، دون أن يتدخل أحد لانصافه ؟ انهم لم يعمدوا حتى الى ازعاج هذا الخادم بشيء ، أليس كذلك ؟

قال أليوشا مطرقاً مفكراً :

ـ استجوبوه استجواباً محكماً • ولكنهم خلصوا جميعاً الى أنه ليس مجرماً • وهو الآن مريض جداً • انه منذ وقوع ذلك الحادث يُصاب بنوبات صرع لا تنقطع •

وأضاف أليوشا يقول :

ـ انه مريض جداً •

ـ آه ••• يا رب ! ليتك تستطيع أن تقابل ذلك المحامي ، وأن تشرح له القضية بنفسك • يقال انه استقدم من بطرسبرج لقاء أجر قدره ثلاثة آلاف روبل •

ـ دبرنا المبلغ نحن الثلاثة : كاترين ايفانوفنا وأخي ايفان ، وأنا • وضع كل منا ألفاً • أما الطبيب فان كاترين ايفانوفنا هي التي دفعت ألفي روبل لاستقدامه من موسكو • ان المحامي فيتوكوفتش يتقاضى في العادة أكثر من هذا المبلغ ، ولكن القضية قد ذاع صيتها في روسيا كلها ، وكتبت عنها جميع الصحف ، لذلك عزم أمره على الدفاع عن ميتيا آخر الأمر ، لا طمعاً في المال ، بل سعياً الى المجد • ستظل هذه القضية شهيرة ، وسيبقى اسمه مقترناً بها • ولقد كلمته أمس •

سألته جروشنكا متعجلة :

ـ كلمته ؟ فماذا قال لك ؟

ـ أصغى الى كلامي ، ولكنه امتنع عن ابداء أية ملاحظة • قال انه قد كوّن رأياً شخصياً في الموضوع ، ووعدني مع ذلك بأن يحسب حساب ما قدمت له من شروح •

ـ يحسب حساب ما قدمت له من شروح ؟ ما معنى هذا الكلام ؟ ألا أنهم جميعاً سواسية ! هؤلاء المحامون جميعاً أوغاد ! لسوف يضيعونه أخيراً • والطبيب ، لماذا استقدموا الطبيب ؟

قال أليوشا وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة :

ـ استقدموه خبيراً • يريدون أن يقرروا أن أخي مجنون ، وأنه قد ارتكب جريمة القتل في نوبة جنون لا يدري ماذا يفعل • ولكن أخي لن يوافق على ذلك أبداً •

هتفت جروشنكا تقول :

ـ ولكن هذا حق اذا كان قد قتل • لا شك في أنه كان فاقداً عقله ، فاقداً عقله تماماً ، ولا شك أنني مسئولة عن ذلك أنا الشقية • ولكنه لم يقتل ، لم يقتل ! هم جميعاً يؤكدون أن ميتيا هو القاتل • المدينة كلها تعتقد بذلك • وفينيا نفسها أدلت بشهادة لا يمكن أن يُستخرج منها الا أنه قاتل • وجميع الأشخاص الذين كانوا في المتجر ، وذلك الموظف أيضاً ! وهناك زبائن الكاباريه الذين ينقلون كل كلمة من كلماته ، وكل قول من أقواله • انهم جميعاً يشهدون عليه ، ويتبارون في اغراقه •

قال أليوشا بلهجة فيها يأس :

ـ نعم ، تكاثرت الشهادات تكاثراً يدعو الى القلق •

ـ ثم جريجوري ، جريجوري فاسيليتش الذي يصر على أن الباب كان مفتوحاً • انه لم يتزحزح عن هذه الشهادة • هو يدعي أنه رأى الباب بعينه مفتوحاً • يستحيل أن يتزعزع يقينه من ذلك • لقد ذهبت اليه وتكلمت معه • كاد يشتمني •

قال أليوشا :

ـ لشهادته شأن كبير ، وهو أخطر الشهود على أخى •

قالت جروشنكا بلهجة غريبه وهيئة قلقة :

ـ أما عن جنون ميتيا ، فيخيّل الىّ أنه لا يملك كل عقله ، وحتى هذه الساعة • هل تعلم أننى أردت أن أكلمك فى هذا الأمر منذ مدة طويلة يا أليوشا ؟ اننى اذهب اليه كل يوم ، فما ينفك يزداد عجبى من سلوكه • قل لى رأيك : ما معنى هذه الأحاديث الغريبة التى يحدثنى بها فى غير انقطاع ؟ انه يتكلم ، ويتكلم ، فلا أتوصل الى فهم ما يقوله لى • قدّرت فى البداية أن الأمر أمر مسائل تحتاج الى ذكاء عظيم وعلم واسع ، فلا أستطيع أن أدركها • ولكنه أخذ يحدثنى فجأة عن صبى ، عن ولد صغير لا أعرفه • سألنى : « لماذا يجب أن يتألم الصبى ؟ اننى أرتضى أن أذهب الى سيبيريا بسبب هذا الصبى • صحيح أننى لم أقتل ، ولكن يجب أن أذهب الى سيبيريا » • أى صبى يعنى ؟ اننى لا أفهم من هذا الكلام شيئاً • ومع ذلك طفقت أبكى وأنا أسمع له ، لأنه أجاد الكلام اجادة رائعة • كان فى عينيه دموع ، فانفجرت أنا منتحبة • عندئذ قبلنى على حين فجأة ، ورسم علىّ اشارة الصليب • ما معنى هذا كله يا أليوشا ؟ قل لى . أىّ ولد يعنى ؟

قال أليوشا مبتسماً :

ـ انى لأتساءل أليس فى هذا مكيدة يدبرها راكيتين • لقد أخذ يتردد اليه فى السجن • ولكن لا ••• ليس هذا من راكيتين • أنا لم أزر ميتيا أمس ، ولكننى سأذهب اليه اليوم •

قالت جروشنكا وقد اضطربت على حين فجأة :

ـ لا ، ليس هو راكيتكا ! ان أخاه ايفان فيدوروفتش هو الذى يبلبل له عقله • انه هو الذى يزوره فى السجن •

تفرس فيها أليوشا كالمذهول وقال :

ـ ايفن ؟ ماذا تقولين ؟ ايفان يزوره ؟ لقد أكد لى ميتيا أن ايفان لم يزره مرةً واحدة •

هتفت جروشنكا تقول مضطربة وقد احمر وجهها احمراراً شديداً •

ـ آ ••• ذلك ••• ما أكثر ثرثرتى ! لقد أسرفت فى الكلام ! لحظة ••• اسكت يا أليوشا ! ما دمت قد زلّ لسانى ببعض الحقيقة ، فسأقول لك الحقيقة كلها : لقد زاره مرتين • مرةً منذ وصل ، لأنه أسرع يعود من موسكو حين بلغه نبأ الحادث ، ولم أكن قد مرضت بعد • ومرةً منذ أسبوع • وقد طلب من ميتيا أن لا يقول لأحد شيئاً عن هاتين الزيارتين • حظر عليه أن يذيع أمرهما لأى مخلوق • لقد زاره سراً •

كان أليوشا يفكر تفكيراً عميقاً • ان شيئاً ما يشغل باله الآن • لقد صعقه هذا النبأ •

قال ببطء :

ـ ان أخى ايفان لا يحدثنى أبداً فى قضية ميتيا • ثم انه لم يكد يكلمنى أبداً خلال هذين الشهرين • وكان يبدو ممتعضاً من زيارتى كلما زرته • لذلك لم أره منذ ثلاثة أسابيع • ـ همْ ••• اذا كان قد زار ميتيا منذ أسبوع ، فذلك غريب حقاً ••• لقد حدث فى ميتيا تغير خلال هذه الأيام الثمانية الأخيرة •

أسرعت جروشنكا تقول :

ـ حدث فيه تغير ، حدث فيه تغير ، هذا صحيح • ان بينهما سراً• قال لى ميتيا نفسه ذلك ، قال ان الأمر سر • وهو سر يعذبه تعذيباً شديداً ، هل تعلم ؟ ان ميتيا ما يزال مرحاً فى بعض اللحظات : ولكن

حين يهز رأسه ، ويأخذ يسير في زنزانته ، ويحك شعر صدغه بابهامه الأيمن ، أدرك أن هناك شيئاً في قلبه . أنا أعرف هذا . كان قبل ذلك مرحاً جداً . وما يزال مرحاً حتى الآن في الواقع ، ولكن ...

ـ ولكنك قلت لي انه ثائر الأعصاب جداً .

ـ نعم ، هو مرح وثائر الاعصاب في آن واحد . تثور أعصابه فجأة ، ثم يصفو مزاجه بعد دقيقة واحدة ، ثم يهتاج من جديد . انه يدهشني مزيداً من الدهشة يوماً بعد يوم يا أليوشا . ان ما ينتظره رهيب ، ومع ذلك يتفق له أن يضحك أحياناً لترهات كأنه طفل .

ـ هل صحيح أنه أراد أن لا تكلميني عن ايفان ؟ هل قال لك : « لا تحدثيه في هذا الأمر » ؟

ـ ذلك بعينه هو ما قاله لي : « لا تحدثيه في هذا الأمر ! » هو خائف منك أنت خاصة . ذلك أن هناك سراً . وهو نفسه يعترف بذلك. هناك سر يا أليوشا ، يا عزيزي ، فامض اليه ، وحاول أن تعرف الحقيقة : ما ذلك السر الذي بينهما ؟

وأضافت جروشنكا تقول بصوت أصبح ضارعاً على حين فجأة :

ـ ثم عد الي وأخبرني . خلصني من قلقي وهمي ، أنا المخلوقة التي تستحق الرثاء ، فعسى أن أعرف مصيري المنحوس ! من أجل هذا انما استدعيتك .

ـ هل تظنين أن هذا السر يتعلق بك ؟ لو كان كذلك ، لما كلمك فيه البتة .

ـ هل أدري ؟ لعله أراد أن يحدثني في الأمر ، ولكنه لم يجرؤ ، فاكتفى بالتنبيه . لقد أسمعني أن هناك سراً ولكنه لم يوضح .

ـ ماذا تفترضين ؟

ـ ماذا افترض ؟ افترض أن الأمر أمر ضياعى أنا • لقد اتفقوا هم الثلاثة على تضييعى ، لأن كاتيا وراء هذه المؤامرة • ان كاتيا هى التى أعدت كل شيء• لقد أطرى مزايا هذه المرأة ، قال : «هى كيت وكيت»• معنى ذلك أننى لست مثلها • انه يمهد ••• انه ينبهى • ذلك أنه قرر أن يتركنى • هذا هو السر كله • لقد تآمروا هم الثلاثة : ميتيا وكاتيا وايفان فيدوروفتش • اسمع يا أليوشا : هناك سؤال أريد أن ألقيه عليك منذ مدة طويلة : لقد أعلن لى فجأة فى الأسبوع الماضى أن ايفان يحب كاترين ايفانوفنا • فهل هذا صحيح ؟ أجبنى بصدق واخلاص ، دون أن تحاول مداراتى ومراعاتى •

ـ لا أحب أن أكذب عليك • ان ايفان لا يحب كاترين ايفانوفنا• ذلك رأيى أنا على الأقل •

ـ هذا ما قدّرته أنا أيضاً • لقد كذب علىّ • ياله من وقح ! واضح أنه كذب علىّ ! وهو يتظاهر الآن بالغيرة ، ليستطيع بعد ذلك أن يلقى الذنب كله علىّ • ألا انه لغبى • انه لا يجيد حتى التمثيل • انه بطبيعته صريح مسرف فى الصراحة ••• ولكننى سألقنه درساً ، سألقنه درساً ! لقد صرخ يقولى لى : « أنت تؤمنين باننى قاتل » • صرخ يقول هذا الكلام لى أنا • انه يأخذ هذا علىّ أنا • طيب • أما كاتيا تلك ، فويل لها • سأعرف كيف « أدبرها » أمام المحكمة • سوف أروى لهم قصة صغيرة ••• سوف أقول كل ما أعرف !

وأخذت جروشنكا تبكى بكاءً مراً •

قال أليوشا وهو ينهض :

ـ اليك ما أريد أن أقوله لك على وجه اليقين : أولاً : هو يحبك ،

يحبك أكثر من أى شىء فى هذا العالم ، ولا يحب أحداً غيرك على الاطلاق ، تستطيعين أن تصدقينى . أنا أعلم هذا . أنا من هذا على يقين تام . ثانياً : أحب أن تعرفى أننى لن أحاول استخرج منه سره . واذا أفضى الىّ به اليوم من تلقاء نفسه ، فسوف أنبهه فوراً الى أننى قد وعدتك بابلاغك هذا السر . وسوف أعود اليك فى هذا اليوم نفسه ، فأقول لك كل ما أكون قد علمته . على أننى ... يخيل الى ... أن كاترين ايفانوفنا لا شأن لها بهذا الأمر ، وأن السر يتعلق بشىء آخر غير هذا تماماً . بل اننى لواثق من ذلك . يستحيل أن يكون الأمر أمر كاترين ايفانوفنا . أنا من ذلك على قناعة راسخة . والآن الى اللقاء .

صافحها أليوشا . كانت جروشنكا ما تزال تبكى . أدرك أنها لم تصدق ما قدم لها من شروح مواسية . ولكن جروشنكا كانت قد تخففت من حزنها بعض التخفف لأنها عبرت عنه . شعر أليوشا بشفقة عليها ، وأسف لاضطراره الى تركها وهى فيما هى فيه من كرب . ولكن كان عليه أن يسرع ، لأن هناك أموراً كثيرة عليه أن يقوم بها فى ذلك اليوم .

٢

القدم الصغيرة المريضة

إن الأمر الأول الذى كان على أليوشا أن يهتم به ، يناديه الى منزل السيدة هوخلاكوفا ؛ وهو يغذ الخطى للوصول الى هذا المنزل ، حتى يفرغ من ذلك الأمر بأقصى سرعة ، فما يصل بعد ذلك الى ميتيا متأخراً . كانت السيدة هوخلاكوفا مريضة منذ ثلاثة أسابيع . لقد تورمت احدى قدميها لسبب مجهول ، فهى تقضى أيامها فى مقصورتها متمددة على كنبة ، مرتدية غلالة جذابة لكنها محتشمة ، لأنها لم تضطر الى ملازمة فراشها . كان أليوشا قد عبّر بينه وبين نفسه ، فى يوم من الأيام ، عن هذه الملاحظة المسلية البريئة ، وهى أن السيدة هوخلاكوفا قد أخذت تتغندر منذ زمن : فهى تتزين بعقد صغيرة وأشرطة جميلة ، وهى تتفنن فى التجمل . ولقد أدرك أليوشا سبب عنايتها هذه بملابسها ، ولكنه كان يطرد هذه الخواطر من ذهنه ، ويعدها عبثاً لا طائل تحته . والواقع أن السيدة هوخلاكوفا قد أخذت ، منذ شهرين ، تستقبل بين من تستقبل من معارف وأصحاب ، أخذت تستقبل الموظف الشاب برخوتين فى أحيان كثيرة .

حين وصل أليوشا الذى لم يزر السيدة هوخلاكوفا منذ أربعة أيام ،

حين وصل الى منزلها الآن ، أسرع يتجه رأساً الى غرفة ليزا . فمع ليزا انما كان عليه أن يبحث الأمر الهام الذى أشرنا اليه ، لأن الفتاة قد أوفدت اليه خادمتها بالأمس ترجوه ملحة أن يجيء اليها بأقصى سرعه ممكنة ، « لأمر خطير جداً » ، وذلك ما أقلق أليوشا لأسباب عدة . ولكن حين ذهبت الخادمة الى ليزا لتبلغها وصول أليوشا ، علمت السيدة هوخلاكوفا بحضوره مصادفة ، فأرسلت تطلب اليه فوراً أن يجيء اليها « دقيقة واحدة » . فرأى أليوشا أن من الأفضل أن يلبى رغبة الأم أولاً، والا فمن الممكن أن ترسل اليه من يستدعيه من عند ليزا كل خمس دقائق ، أثناء انصرافه الى الحديث مع ليزا .

كانت السيدة هوخلاكوفا متمددة على كنبتها ، مهتمة بحسن ملبسها اهتماماً خاصاً ، وكان واضحاً أنها مضطربة اضطراباً عصبياً شديداً . فلما دخل عليها أليوشا استقبلته بصيحات حماسة .

ـ منذ قرون ، منذ قرون ما رأيتك ! اسبوع كامل ، كيف يمكن هذا ؟ ولكن لا ! ... لقد جئت منذ أربعة أيام ، جئت يوم الاربعاء الماضى. أأنت ذاهب الى ليزا ؟ لاشك أنك كنت تريد أن تمضى اليها سائراً على رءوس الأصابع حتى لا أسمعك . يا صديقى العزيز ، يا صديقى العزيز جداً ألكسى فيدوروفتش ، ليتك تعلم مدى القلق الذى تسبّبه لى حالة ابنتى ! ولكننى سأكلمك عن هذا الأمر فيما بعد . ان تلك المسألة تشغل بالى أكثر من سائر المسائل ، ولكن فيما بعد ، فيما بعد ! عزيزى ألكسى فيدروفتش ، اننى أعهد اليك بابنتى ليزا . اننى منذ موت الشيخ زوسيما، رحمه الله (وهنا رسمت السيدة اشارة الصليب) ، أعدُّك ناسكاً ، رغم أنك ترتدى رداءك الجديد على أجمل زى . أين عثرت على خياط بارع هذه البراعة ؟ ولكن لندع هذا الآن ، ليس هذا أهم شىء ، سنتحدث عن هذا فيما بعد . سامحنى اذا ناديتك احياناً باسم أليوشا فقط . أنا امرأة

عجوز ، فكل شيء جائز لى (قالت السيدة هوخلاكوفا هذا وهى تبتسم فى دلال وغنج) • ولكن لندع هذا الآن • سنتحدث عنه فيما بعد • ان الشيء الأساسى هو أن لا أنسى المسألة الهامة • ذكرنى بذلك عند اللزوم ، فاذا ثرثرت فابتعدت كثيراً عن الموضوع ، فعليك أن تقاطعنى سائلاً : « والأمر الأساسى ؟ » • ولكن أين لى أن أعرف الآن ما هو الأمر الأساسى ! منذ نقضت ليزا العهد الذى قطعته لك ــ ولم يكن ذلك الا لغو طفلة يا ألكسى فيدوروفتش ، أعنى عهدها بأن تتزوجك فى يوم من الأيام ــ فلا شك أنك أدركت أن ذلك كله لم يكن الا ثمرة خيال مضطرب عند بنت صغيرة مريضة طال سكونها وجمودها على كرسيها المتحرك • الحمد لله على أنها أصبحت قادرة على أن تمشى الآن ! ان ذلك الطبيب الجديد الذى استقدمته كاتيا من موسكو لأخيك المسكين الذى سوف يحاكم غداً ••• ولكن فيم الكلام على الغد ! اننى متى تصورت هذا الغد أوشك أن أموت جزعاً • ذلك من الفضول خاصة • المهم أن هذا الطبيب قد جاء الينا أمس وفحص ليزا ••• ودفعت له أجراً قدره خمسون روبلاً • ولكن لا ، هأناذا ابتعد عن المسألة مرة أخرى ••• ليس هذا ما كنت أريد أن ••• لقد فقدت تسلسل أفكارى تماماً كما ترى • ذلك أننى متعجلة • لماذا أتعجل هذا التعجل ؟ لا أدرى • أصبحت لا أعرف شيئا ولا أفهم شيئاً • لقد اختلط كل شيء فى ذهنى أخيراً ، حتى صار أشبه بغيوم • اننى أخشى أن تفر من لحظة الى أخرى ضجراً وسآمة مما أقول، مع أننى لم أكد أراك• رباه ! ما لى نسيت ! نحن نثرثر هنا ، بينما ••• ولكن يجب أن نشرب القهوة أولاً • يا جوليا ، يا جرافير ، هاتوا القهوة ، هاتوا القهوة حالاً •

أسرع أليوشا يشكرها قائلاً انه قد شرب قهوة منذ قليل •

ــ عند من ؟

ـ عند أجرافين الكسندروفنا •

ـ عند تلك ••• تلك المرأة ؟ ولكنها سبب هلاكهم جميعاً • لست أدرى على كل حال • يقال انها أصبحت أشبه بقديسة ، وان جاء هذا متأخراً فى رأيى ••• كان ينبغى ان يخطر ببالها ذلك من قبل ، يوم كان ذلك ضرورياً ومفيداً • أما الآن ، فما فائدة قداستها ؟ اسكت ، اسكت يا ألكسى فيدوروفتش ، لأن هناك أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك ، اشياء تبلغ من الكثرة أننى أخشى أن أفقد تسلسل أفكارى • وتلك المحاكمة أيضاً ••• سوف أحضرها مهما كلف الأمر ••• اننى استعد لحضورها، سوف يأخذوننى الى المحكمة على كرسى • ثم اننى أستطيع جداً أن أبقى جالسة • وسيكون بقربى أناس يسندوننى • لا شك أنك تعلم أننى دُعيت الى الشهادة • ماذا أقول لهم ، ماذا أقول لهم ؟ اننى لا أعرف البتة ما أستطيع أن أقوله لهم • سوف يكون علىّ أن أحلف يميناً ، أليس كذلك ؟ قل لى •••

ـ نعم ، ولكننى أظن أنك فى حالة لا تمكنك من المثول أمام المحكمة •

ـ أستطيع أن أبقى قاعدة • أوه ••• ولكنك تفقدنى تسلسل أفكارى • تلك المحاكمة ، تلك الجريمة البشعة ، ثم ذلك الرحيل الى سيبريا التى سيذهبون اليها جميعاً • سيتزوج أناس آخرون أثناء ذلك ! ما أسرع ما تمضى الحياة ! كل شىء يجرى ، كل شىء يتغير ، ثم لا يبقى أخيراً شىء ، لا يبقى الا عجائز يتربص بهم الموت • ليكن ، ليكن ••• اننى أشعر باعياء • ان كاتيا هذه ـ هذه الانسانة الفتانة ـ قد حطمت جميع آمالى : انها تنوى الآن أن تلحق بأحد أخويك الى سيبريا • وسيلحق بها الثانى الى هناك ، فيعيش فى مدينة مجاورة • وبذلك لا يزيدون على أن

يضرب بعضهم بعضاً • ان ذلك يفقدني صوابي ، أؤكد لك ••• ولا سيما بسبب ما نشر في الصحف عن هذه القضية • ان جرائد سان بطرسبرج وموسكو مليئة بأخبارها منذ أسابيع • آه ••• نعم ••• تخيل أنهم تكلموا في هذه الصحف عني أنا أيضاً ، زاعمين أنني كنت « الصديقه العزيزة جداً » لأخيك ! انني لأشمئز من استعمال الألفاظ النابية • هل تستطيع أن تتخيل أمراً كهذا الأمر ، قل لي ، هل تستطيع أن تتصوره ؟

ــ مستحيل • أين قرأت هذا الكلام ؟

ــ سأريك ما نُشر • لقد نشر في جريدة «الشائعات» * التي تصدر في سان بطرسبرج ، وقد وصلتني الجريدة أمس ، فأسرعت أقرؤها • ان هذه الجريدة قد بدأت صدورها في هذا السنة وأنا أحب الأقاويل حباً شديداً ، لذلك اشتركت في الجريدة • هل كان في وسعي أن أتنبأ أن الشائعات ستتناولني أنا ؟ اقرأ ، اقرأ ، الكلام هنا ، في هذا العمود •

قالت السيدة هوخلاكوفا ذلك ومدّت الى أليوشا ورقة جريدة كانت قد أخفتها تحت وسادتها •

كانت السيدة هوخلاكوفا في حالة انهيار نفسي شديد • ليس الأمر في هذه المرة أمر نوبة من نوبات اعتكار المزاج ، وانما هو هزة قوية أصابت كيانها كله ، ولعل أفكارها قد بلغت في هذه الساعة من الاضطراب والبلبلة والتشويش أنها أصبحت في رأسها أشبه بغيوم متكاثفة • ان الشائعة التي نشرت في الجريدة المذكورة تتضمن غمزاً واضحاً وتعريضاً ساخراً لا بد أن يحدث في نفسها أثراً أليماً جداً• ومن حسن حظها ، مع ذلك ، أنها كانت في تلك اللحظة عاجزة عن تركيز فكرها على موضوع واحد • فبفضل ذلك انما كانت تستطيع أن تنسى المقالة الفاضحة بعد دقيقة ، وأن تنتقل الى موضوعات أخرى يجرى عليها الحديث • ولا شك

أن أليوشا كان لا يجهل أن كلاماً كثيراً قد نُشر فى صحف روسيا كلها عن هذه القضية الفظيعة ولا شك أنه قد قرأ خلال هذين الشهرين كثيراً من الأنباء التى تفتق عنها خيال المتخيلين والتى لا تمت الى الواقع بصلة (الى جانب المعلومات الصحيحة) عن أخيه ، وعن آل كارامازوف جملةً ، وعنه هو أيضاً . من ذلك مثلاً ما نشرته احدى الصحف من أن أليوشا قد بلغ من الذعر فى أعقاب الجريمة الرهيبة التى اقترفها أخوه أنه اعتصم بدير من الأديرة ، ليعيش حياة الرهبان . وقد أيدت جريدة أخرى هذا النبأ ، ولكنها أضافت اليه أنه قد سرق صندوق الدير متعاوناً مع شيخه زوسيما ، ثم لاذ الاثنان بالفرار معاً . أما الشائعة التى نشرت فى جريدة « الشائعات » فقد كان عنوانها ما يلى : « مراسلنا فى سكوتوبريجو نيفسك يكتب الينا عن قضية كارامازوف » (ذلك هو فعلاً اسم مدينتنا الصغيرة التى لم أجرؤ أن أسميها حتى الآن) . ان المقالة قصيرة ، ولم تُذكر فيها السيدة هوخلاكوفا اسماً . ولقد أُغفل على وجه العموم ذكر جميع أسماء الأشخاص، واقتُصر على الاشارة الى أن المجرم الذى أحدثت جريمته ضجة كبرى ، والذى سيحاكم قريباً ، هو ضابط محال على التقاعد برتبة كابتن ، متغطرس كسول عنيف رجعى التفكير ، هذا الى أنه زير نساء مستهتر ، كان له بعض التأثير فى «نساء عديدات أضجرتهن الوحدة»، فمن هذه السيدات « أرملة عاطلة » كانت تتصابى وتحاول أن تبدو شابة مع أن لها بنتاً بالغة راشدة ، وقد بلغت من الافتتان بهذا الرجل الدنىء أنها عرضت عليه قبل وقوع الجريمة بساعتين فى أكثر تقدير ، أن تعطيه ثلاثة آلاف روبل ، ليوافق على اختطافها والسفر معها الى مناجم الذهب فوراً . ولكن الشقى آثر أن يقتل أباه ليسلبه ثلاثة آلاف روبل ، أملاً أن لا تُكتشف جريمته ، أو مؤثراً فى كل حال أن يتعرض لهذا الخطر على أن يرحل الى سيبيريا فى صحبة السيدة العاطلة التى تنعم بمفاتن

سن الاربعين • واختتمت المقالة التى أرادت أن تكون فكهة ، اختتمت على نحو مايجب أن تختتم فعبرت عن أشد الاستنكار لهذه الجريمة الفظيعة التى ارتكبها قاتل أبيه بنذالة ما بعدها نذالة ، ولم تنس فى الوقت نفسه أن تدين نظام الرق القديم •

قرأ أليوشا المقالة باهتمام واستطلاع ، ثم طوى ورقة الجريدة وردّها الى السيدة هوخلاكوفا •

تمتمت تقول من جديد :

ـ هذا عنى أنا ، عنى أنا ، أليس كذلك ؟ لا شك أبداً فى أنه عنى أنا • لقد نصحته فعلاً ، قبل وقوع الجريمة بساعة ، أن يذهب الى مناجم الذهب • فانظر ماذا خرج من ذلك فجأة : « مفاتن سن الأربعين » ! هل كان ذلك غرضى ؟ هل خطر ببالى هذا ؟ أسأل الله أن يغفر له هذه التخرصات مثلما أغفرها له أنا • ذلك أن كاتب هذه المقالة هو ••• لا بد أنك تعرف من هو ••• انه صديقك راكيتين •

قال أليوشا :

ـ هذا جائز جداً • ولكننى كنت أجهل ذلك •

ـ انه هو ، انه هو ، ليس هذا جائزاً بل هو أكيد والسبب اننى طردته من منزلى • أظن أنك علمت بهذا الحادث •

ـ أعرف أنك طلبت منه أن لا يتردد الى بيتك • أما السبب الذى دفعك الى هذا القرار ، فأعترف ••• أننى لم أعلم به ••• لم أعلم به منك على الأقل •

ـ اذن علمت به منه هو • أهو حاقد علىّ كثيراً ، أهو غاضب منى جداً ؟

ـ نعم ، هو غاضب ، ولكنه غاضب من جميع الناس • أما السبب الذى من أجله أغلقت بابك دونه ، فانه لم يذكره لى • وأنا على وجه العموم لا أراه الا نادراً • ليس هو صديقى •

ـ طيب • سأقول لك الحقيقة كلها • لا ضير • ثم اننى نادمة على شىء من الأشياء فى هذه المسألة ، ان هناك عنصراً صغيراً أنا مسئولة عنه • هو أمر بسيط ، بسيط جداً ، أمر تافه لا قيمة له ، حتى لقد لا يكون له وجود الا فى خيالى. اسمع يابنى العزيز (هنا بشّ وجه السيدة هوخلاكوفا وارتسمت على شفتيها ابتسامة رائعة وان تكن لا تفهم فكأنها لغز) ••• اسمع ••• اننى أشتبه فى أنه ••• سامحنى يا أليوشا ، فانما أنا أخاطبك كما تخاطب أم ابنها ••• أقصد ••• لا ••• ان عكس هذا هو ما أردت أن أقوله ••• اننى أخاطبك كمايخاطَب كاهن ••• اذ لا مجال للحديث هنا عن أم ••• لا قيمة لهذا على كل حال ••• المهم اننى أكلمك كما كان يمكن أن أكلم الأب زوسيما معترفة • ذلك هو أحسن تشبيه هنا • ألم أصفك منذ قليل بأنك راهب ناسك ؟ ••• فاسمع اذن : ان هذا الشاب الشقى ، صاحبك راكيتين ••• أوه ••• رباه ! اننى لا أستطيع أن أغضب منه حقاً ! أنا مستاءة كثيراً بل وحانقة جداً ••• ولكن على ضعف ••• الخلاصة : ان هذا الشاب الطائش السطحى قد أولع بى فجأة ••• تصور ! أنا لم ألاحظ ذلك الا فيما بعد • فى البداية ، أى منذ شهر ، أصبح يكثر من زيارتى ، وأصبح يجىء الىّ كل يوم تقريباً ، رغم أننا متعارفان منذ زمن طويل • لم أشتبه فى شىء • لم يخطر ببالى شىء • ولكن هأنا ذا ألاحظ قبساً من نور على حين فجأة ، وهأنا ذا آخذ أنتبه الى بعض الأشياء مدهوشة كل الدهشة • أنت تعلم أننى أصبحت منذ شهرين أستقبل فى كثير من الأحيان ذلك الشـــاب الطيب الرائع المتواضع الرصـين ، بطرس ايلتش برخوتين ، الموظف فى مدينتنـا •

لقد التقيت أنت به عندى مراراً على كل حال • انه شاب جاد كل الجد ، لائق كل اللياقة ، ألا ترى ذلك ؟ انه يجىء الى بيتى مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع ، أقصد أننى لا أراه فى جميع الأيام ، ولست أجد أى ضير فى أن يجىء كل يوم على كل حال • هو دائماً حسن الهيئة جيد الهندام • وأنت لا تجهل يا أليوشا أننى أحب الشباب • اننى أحب الشباب المتواضعين الذين يملكون مواهب عظيمة ، من أمثالك أنت مثلاً يا أليوشا • ان لهذا الشاب ذكاء يجعله مساوياً لرجل دولة • وما أجمل حديثه ! سوف أتوسط له لدى الأوساط العليا ، نعم ، نعم ، سوف أتوسط له حتماً • سيكون فى المستقبل دبلوماسياً من الطراز الأول • وقد أنقذ حياتى تقريباً فى ذلك اليوم الرهيب • أنقذنى من موت محقق حين جاء الىّ فى الليل • أما صديقك راكيتين ، فانه يجىء دائماً بحذاءيه الضخمين يجرهما على السجاد جراً • الخلاصة : أخذ راكيتين يسمعنى تلميحات مستخفية فى أول الأمر ، وفى ذات يوم شد على يدى شداً قوياً حين انصرف • فما ان شدّ على يدى ذلك الشدّ حتى شعرت بألم فى ساقى • وقد التقى عندى ببطرس ايلتش ، ولكنه ما انفك يسفهه ويعيبه وينتقده دون سبب • واقتصرت أنا على أن ألاحظهما كليهما ، فكان يسلينى أن أرى كيف يعامل كل منهما الآخر وكيف يتصرف كل منهما ازاء الآخر • وانى لوحدى فى ذات مرة (وكنت فى تلك الآونة قد أصبحت مضطرة الى الاضطجاع) اذا بمشيل ايفانوفتش يجيئنى حاملاً الىّ أشعاراً ••• تصور ! ••• هى قصيدة صغيرة أوحت اليه بها ساقى المريضة • انتظر • سأنشدك الأبيات :

كيف للساق الجميلة
كيف للساق اللذيذة
أن تعانى المًا
يا الهى !

نسيت التتمـــه • يصعب علىّ دائمـاً حفظ الشـــعر • لا بأس على كل حال • لقد خبأت القصيدة فى مكان قريب جداً • سوف أطلعك عليها فى ذات مرة • ولكنها أشعار رائعة ، حقاً • هى لا تتحدث عن قدمى فحسب ، بل تتحدث عن أكثر من ذلك ، لانها تتضمن فكرة أخلاقية هامةً جداً • يؤسفنى أننى لا أتذكر الآن تلك الفكرة • أستطيع أن أجمل رأيى فأقول ان هذه القصيدة تستحق أن تحفظ فى ألبوم • وقد شكرته طبعاً ، فسُرّ بذلك سروراً عظيماً • وفى تلك اللحظة نفسها دخل بطرس ايلتش ، فسرعان ما تجهم وجه ميشيل ايفانوفتش • أدركت أن وصول بطرس ايلتش قد أفسد عليه مشاريعه • ذلك أنه كان ينوى ، ولا شك ، أن يقول لى شيئاً بعد قراءة القصـــيدة • لقد أحسست أنا بذلك ، ولكن ها هو ذا بطرس ايلتش يدخل فى تلك اللحظة نفسها • أطلعت بطرس ايلتش على القصيدة طبعاً ، ولكن دون أن أقول له من الذى نظمها • على أننى واثقة ، واثقة كل الثقة ، من أنه سرعان ما حزر الحقيقة ، وان كان ينكر ذلك حتى الآن • هو يدعى أنه لم يحزر شيئاً • ولكنه يزعم ذلك عامداً • انفجر بطرس ايلتش ضـــاحكاً حين قرأ القصيدة ، ثم نقدها نقداً لاذعاً ، فقال : « هى أشعار تافهة ،جديرة بطالب من طلاب اللاهوت فى أكثر تقدير » • لقد ثار على رداءة القصـــيدة الصغيرة • وهذا صاحبك يستبد به حنق شديد على حين فجأة ، بدلاً من أن يضحك • قلت لنفسى : « آه ••• يارب ! لسوف يتضاربان ! » • قال راكيتين : « أنا ناظم القصـــيدة • لقد كتبت هذه الأبيات من باب المزاح ، لأننى أرى أنه لا يليق برجل أن يضيّع وقته فى النظم • ولكن أشعارى جميلة مع ذلك• ان فى النية اقامة نصب تذكارى لبوشكين * الذى الذى تغنى بجمال أقدام النساء • وان لأشعارى أنا اتجاهاً أخلاقياً • أما أنت (قال ذلك مخاطباً بطرس ايلتش) ، فما أنت الا رجل رجعى

عاجز عجزاً تاماً عن فهم الصبوات العميقة للانسانية •لقد ظللت غريباً عن المشاعر النبيلة التي تهز قلوب أبناء الجيل الراهن • ان التقدم قد مرّ بقربك دون أن يلامسك ، لأنك لست الا موظفاً مرتشياً ! » أخذت أصرخ أنا أيضاً ، ضارعة اليهما أن يسكتا ويهدءا • وليس بطرس ايلتش هذا بالرجل الهيّاب ، هل تعلم ذلك ؟ ولكنه سرعان ما اصطنع لهجة رصينة وقورة رفيعة ، فبعد أن أصغى الى راكيتين ساخر الهيئة أخذ يعتذر له قائلاً : « كنت أجهل أنك ناظم هذه الأبيات ، ولو عرفت ذلك لما قلت الكلام الذي قلته ، بل لانبريت أطرى الأبيات • يقال ان الشعراء شديدو الحساسية سريعو التأذى ••• » • الخلاصة أنه استهزأ به وسخر منه ، ولكن بلهجة يدل ظاهرها على غاية اللباقة والكياسة • لقد شرح لى هو نفسه فيما بعد أن ذلك كان تهكماً ، لأننى كنت ظننت فى أول الأمر أنه تكلم جاداً لا هازلاً • ولقد كنت أثناء تلك المناقشة مضطجعة كاضطجاعى الآن أمامك ، وكنت أتساءل هل يليق بى أو لا يليق أن أطرد ميشيل ايفانوفتش لأنه أجاز لنفسه أن يصرخ في بيتي وأن يهين ضيفي • فهل تصدق ما سأقوله لك ؟ كنت مضطجعة وقد أغمضت عينى وأخذت أفكر : « أمن اللياقة أن أطرده أم لا ؟ أأصرخ طالبة اليه أن ينصرف أم لا ؟ » • كان هناك صوت يهيب بى : « اصرخى ! » ، وكان هناك صوت آخر ينصحنى بأن لا أصرخ • فما ان سمعت هذا الصوت الثاني الذى ينصحنى بأن لا أصرخ حتى أخذت أصرخ ، وسقطت مغشياً علىّ فوراً • وقام البيت وقعد كما تقدّر • ونهضت بعد لحظات فقلت لميشيل ايفانوفتش : « يؤسفنى أن أقول لك اننى لا أحب أن أراك بعد اليوم فى منزلى • » • هكذا طردته من بيتى • آه يا ألكسى فيدوروفتش ، انى لأعلم حق العلم أننى أسأت التصرف •ولقد كذبت من جهة أخرى ، لأننى لم أكن غاضبة منه فى الواقع • ولكننى أحسست أن تدخلى هذا

سيكون فيه كثير من الرفعة والتميز ، فاستسلمت لاغراء ما في ذلك المشهد من جمال . على أن وضعي كان طبيعياً ، فقد طفقت أبكي ، وظللت أبكي عدم أيام . ومع ذلك كنت قد نسيت بعد الغداء كل شيء . وقد انقطع راكيتين عن زيارتي منذ أسبوعين ، فكنت أتساءل : « هل يُعقل حقاً أن لا يأتي بعد الآن قط ؟ » . وظللت ألقي على نفسي هذا السؤال حتى أمس ، حين جاءوني عند المساء بجريدة « الشائعات » هذه ، فلما قرأت المقالة أوشكت أن انقلب على ظهري . من ذا الذي يمكن أن يكون قد كتب هذه المقالة الا راكيتين نفسه ؟ لقد عاد الى مسكنه غاضباً حانقاً ، فلا بد أنه جلس الى مكتبه فوراً ليدبج هذه الرسالة الصحفية ، ثم أرسلها الى الجريدة التي سارعت تنشرها . حدث هذا منذ أسبوعين تماماً . ولكنني ألاحظ يا أليوشا أنني اتخبط في الحديث هنا وهناك ، ناسيةً الأمر الأساسي الذي كنت أريد أن أكلمك فيه . ماذا تريد ؟ ذلك أقوى مني !

حاول أليوشا أن يدسّ كلمة فقال في خراقة :

ـ أنا اليوم مستعجل جداً لأصل الى عند أخي في الساعة المحددة .

ـ صحيح ، صحيح . لقد ذكرتني بالأمر . قل لي : ما هو المس ؟

سألها أليوشا مدهوشا :

ـ أي مس ؟

ـ المس القضائي . المس الذي من أجله يُغفر كل شيء . فمهما يقترف المرء من جرم ، يغفر له على الفور .

ـ بأية مناسبة تسألين هذا السؤال ؟

ـ اليك الأمر : ان كاتيا هذه ••• آه ••• ما أروعها من مخلوقة ! ما أجملها من انسانة ، ولكنني لم استطع أن أعرف أيهما تحب • لقد كانت عندي منذ مدة ، وعبثاً حاولت أن أفهم منها شيئاً • جهد ضائع ، وعناء لا جدوى منه لا سيما وأنها اتخذت مني على حين فجأة وضعاً سخيفاً جداً • انها لا تتحدث معي الا عن صحتي ، ولا شيء غير ذلك • لقد اصطنعت في مخاطبتي لهجة بلغت من التقيد بالرسميات أنني قلت لنفسي : « لا بأس ، لا بأس ، أسأل الله أن يرعاك يا عزيزتي ! ••• » آ ••• نعم ••• كنت أسألك عن المس • وذلك بمناسبة وصول الطبيب ••• هل تعلم أن في مدينتنا الآن طبيباً جديداً ؟ ولكن لا بد أنك تعلم ذلك ، فهو طبيب من أطباء الأمراض العقلية ، وأنت الذي استقدمته ••• أقصد ••• لا أنت ، بل كاتيا ••• كاتيا أيضاً ! اليك المسألة اذن : هذا رجل ليس بمجنون ، ولكنه يُصاب فجأة بمس • لقد احتفظ بوعيه ، وهو يعلم ماذا يفعل ، ولكنه مع ذلك ممسوس • لعل هذا ما جرى في حالة دمتري فيدوروفتش ••• لا بد أن مساً قد ألم به • هذه نظرية حديثة أكتُشفت منذ اعادة تنظيم محاكمنا • ان اعادة تنظيم القضاء هذه قد أحسنت الينا جميعاً ، ولولاها لم نعرف المس • لقد زارني الطبيب الجديد ، وسألني عما حدث في تلك الأمسية ، أقصد مسألة مناجم الذهب تلك : كان يريد أن أصف له الحالة التي كان عليها أخوك • حقاً لقد كان أخوك في حالة مس واضحة • جاء اليّ صارخاً : « أريد مالاً ، أريد مالاً ، أنا في حاجة الى ثلاثة آلاف روبل ، فأعطني ثلاثة آلاف روبل » ، ثم مضى ، وأصبح قاتلاً على حين فجأة • كان يقول : « لا أريد أن أقتل ، لا أريد أن أقتل » • ولكنه قتل • فلهذا السبب انما سيغفرون له ، لأنه قاوم المس ، ثم قتل بعد ذلك •

قاطعها أليوشا يقول بلهجة فيها شيء من الضيق :

ـ ولكنه لم يقتل •

وأحس بتبرم وقلق يستوليان عليه شيئاً بعد شيء •

قالت السيدة هوخلاكوفا :

ـ أعرف أنه لم يقتل • ان العجوز جريجورى هو الذى •••

صاح أليوشا :

ـ جريجورى ؟ كيف ؟

ـ نعم ، نعم ، هو جريجورى • فبعد أن صرعه دمترى فيدوروفتش ، لبث مغمى عليه مدة من الوقت ، ثم نهض فرأى الباب مفتوحاً ، فهرع ليقتل فيدور بافلوفتش •

ـ ولكن لماذا ، لماذا ، لأى هدف ؟

ـ انتابه مس • لقد ضربه دمترى فيدوروفتش على رأسه ، فلما أفاق من غيبوبته ، كان المس قد استحوذ على عقله ، فمضى يقتل • ولئن كان ينكر أنه القاتل ، فان ذلك لا يبرهن على شيء ، لأن من الجائز جداً أنه أصبح لا يتذكر • ولكن صدقنى اذا قلت لك ان من الأفضل ، من الأفضل كثيراً أن يكون دمترى فيدوروفتش هو الذى ارتكب الجريمة • ثم انه هو الذى قتل • ان القاتل هو دمترى فيدوروفتش فى الواقع ، رغم اننى أؤكد أنه جريجورى ، وذلك أفضل ، أفضل كثيراً • لا تسيء فهمى • أنا لا أدعى أن من الأفضل أن يكون الأب قد قتله ابنه • لست أثنى على قتل الابن أباه • هيهات أن أفعل ذلك • بالعكس : أناأؤمن بأن على الأبناء أن يحترموا آباءهم • ولكن من الأفضل مع ذلك أن يكون هو القاتل • ولن تكون فى حاجة الى أن تشكو وتندب وتستنكر ، ما دام قد قتل بغير وعى • أقصد أنه كان واعياً ، ولكنه لا يعرف ماذا يفعل • لا ، لا ، يجب أن يغفروا له • أنا أؤيد تبرئته • لسوف تكون تبرئته مثلاً

انسانياً جميلاً ، ولسوف تتيح لنا أن نفهم حسنات اعادة تنظيم القضاء • كنت أجهل مزايا هذا النظام الجديد الذي يقال انه وجد منذ زمن • فما ان علمت بهذا الأمر أمس حتى أحسست بشعور بلغ من القوة أنني أردت استدعاءك فوراً • وفي المستقبل ، متى بُرِّئ أخوك ، سيجب عليه حتماً أن يجيء الى الغداء عندي منذ خروجه من المحكمة • سأدعو جميع معارفي وأصحابي ، وسنشرب نخب اعادة تنظيم القضاء • لا أظن أن أخاك خطر جداً • ثم انني سأدبر الأمر بحيث يكون عدد المدعوين كبيراً ، فاذا حدث شيء كان في الامكان اخراجه من البيت • وبعد ذلك يستطيع أن يستقر في مدينة أخرى قاضيَ صلح ، أو أن يُعيَّن لوظائف من هذا القبيل ، لأن الذين عانوا الشقاء بأنفسهم يكونون خير القضاة • وأي انسان يستطيع من جهة أخرى أن يزعم أنه مبرأ من المس • اننا جميعاً مصابون بالمس ، أنت وأنا وسائر الناس • ليست تعوزنا الأمثلة على ذلك : هذا رجل يبدو في الظاهر هادئاً ويغني أغنية عاطفية • وفيما هو كذلك اذا بشيء من الأشياء لا يرضيه ، فيخرج مسدساً ويقتل أول قادم ثم يشفى • لقد قرأت في الآونة الأخيرة قصة من هذا النوع ، وقد أكد جميع الأطباء هذه الظاهرة • ان الأطباء في أيامنا هذه يؤكدون دائماً ، يؤكدون كل شيء • تصور أن ابنتي ليزا مصابة بمس • أمس اضطرتني الى البكاء ، وأمس الأول أيضاً • واليوم انما اكتشفت الحقيقة ، وهي أنها قد اعتراها مس • آه ••• ليتك تعلم كم تسبب لي ليزا من عناء ! اني لأتساءل أحياناً : ألم تفقد عقلها ؟ تُرى ماذا استدعتك ؟ أهي استدعتك أم أنت جئت من تلقاء نفسك ؟

قال أليوشا وهو ينهض بحزم :

ـ بل هي استدعتني ، وأنا ذاهب اليها •

فصاحت السيدة هوخلاكوفا تقول وهي تبكي :

ـ ولكن يا صديقي العـزيز ، يا صـديقي العزيز جـداً ألكسي فيدوروفتش ، الآن انما وصلنا الى الأمر الأساسي • شهد الله أنني أكل اليك لبزا صاردقة" في ذلك كل الصدق• لأن تستدعيك ليزا على غير علم أمها ، فليس هذا بالأمر الخطير جداً • وما كان لى أكل ابنتي بمثل هذه الطمأنينة الى أخيك ايفان فيدوروفيتش ، سامحني اذا قلت هذا ، رغم أنني أعده ، حتى اليوم ، شاباً تفيض نفسه فروسية • هل تتصور مع ذلك أنه زار ليزا ، من غير أن أعلم أنا شيئاً ؟

قال أليوشا مدهوشاً كل الدهشة :

ـ ماذا ؟ كيف ؟ متى زارها ؟

ومع ذلك لم يعد الى الجلوس ، بل استمع الى شروح السـيدة هوخلاكوفا واقفاً •

ـ سأقص عليك كل شيء• ومن أجل هذا انما استدعيتك فيما أظن• على أنني أصبحت لا أعرف أنا نفسي لماذا استدعيتك • اليك الأمر : لقد زارني ايفان فيدوروفتش مرتين منذ عودته من موسـكو • فأما في المرة الأولى فقد جاء من قبيل اللباقة بصفته صـديقاً لا أكثر • وأما في المرة الثانية ، وهي حديثة جداً ، فقد كانت كاتيـا عندي ، فعلم بذلك ، فجاء هو أيضا • لست أطمع طبعاً في أن يشرفني بالمجيء الى منزلي كثيراً ، لأنني أعرف مدى انشـغاله في هذه الآونة ••• بسبب ميتة أبيك تلك الفظيعـة ••• ولكن هـأنا ذا أعلم على حين فجـأة أنه عـاد الى منزلي لا ليزورني أنا ، بل ليزور ليزا • حدث ذلك منذ ستة أيام • حضر اليها، ومكث خمس دقائق ، ثم ما لبث أن انصرف • لم أعلم بهذا الا بعد ثلاثة أيام • علمت من جرافير ، فدهشت دهشـة" شـديدة • أسرعت أنادي ليزا ، ولكنهـا لم تزد على أن ضحكت • وقالت تشرح لي : « كان يظن

يا ماما أنك نائمة ، فجاء الىّ يسأل عن صحتك » • أغلب الظن أن هذا صحيح • ومع ذلك ليتك تعلم مدى ما تسببه لى ليزا من قلق ! آه ••• يا رب !••• تصور أنها فى ذات ليلة ـ حدث هذا منذ أربعة أيام ، عقب زيارتك الأخيرة فوراً ـ قد انتابتها نوبة عصبية على حين فجأة : فكانت تصرخ وتئن كأنها مصابة بهستريا • لماذا لا أصاب أنا بنوبات عصبية ؟ ان فى وسعى أنا أيضاً أن أنعم بهذا الترف • وتكرر ذلك فى الغد ، وتكرر أيضاً فى اليوم الذى تلاه ؟ وأمس حدث فصل جديد ، وفى نحو المساء بدأت تظهر عليها أعراض المس• صرخت تقول لى بغتةً : « أنا أمقت ايفان فيدوروفتش. يجب أن لا تستقبليه ياماما ، يجب أن تمنعيه من دخول بيتنا ! » • ذُهلت ، وأجبتها بأن من المستحيل علينا أن نعامل على هذا النحو شاباً مثله كريم النفس رفيع الثقافة ، شقياً هذا الشقاء كله فوق ذلك • ذلك أن هذه القصص كلها انما هى شقاء لا سعادة ، ألا ترى هذا الرأى ؟ فلم يكن من بنتى الا أن أجابت على كلامى بقهقهة مجلجلة أحسست أن فيها اهانة جارحةً لى • ومع ذلك قلت لنفسى : « لا بأس ، ما دمت قد استطعت أن أفرحها ، فلعل نوباتها العصبية ستزول الآن » • وكنت أنوى أنا نفسى ، من جهة أخرى ، أن أطرد ايفان فيدوروفتش بسبب زياراته الغريبة هذه لابنتى بدون اذنى • حتى لقد كنت أريد أن أطلب منه شرحاً لذلك • ولكن ها هى ذى ليزا تثور على جوليا ثورة عنيفة فى هذا الصباح منذ استيقظت ، حتى لقد بلغت من ذلك أنها صفعتها، هل تتصور هذا ؟ أليس هذا شذوذاً غريباً ؟ لاحظ أننى أنا لا أخاطب خدمى أبداً بصيغة المفرد• وما انقضت على ذلك ساعة حتى كانت ليزا تعانق جوليا وتقبل قدميها • وفى مقابل ذلك بعثت تبلغنى أنها لن تجىء الىّ ، لن تجىء الىّ قط ، هل تستطيع أن تتصور مثل هذا ؟ فلما جررت نفسى الى غرفتها يائسة ، ارتمت علىّ وغمرتنى بقبلاتها وهى تبكى ؟ وفيما هى

تقبلني دفعتني الى خارج الغرفة دون أن تنطق بكلمة واحدة ، فلم أعرف آخر الأمر شيئاً . انني أضع الآن جميع آمالي فيك ، يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش ، ولا شك أنك تدرك أنك تمسك بيديك مصيري وحياتي. أضرع اليك أن تذهب الى ليزا ، وأن تكلمها كما لا يستطيع غيرك أن يكلمها . ثم عُدْ اليّ لتشرح لي ما يحدث في نفسها ، ولتقص عليّ كل شيء ، أنا أمها . ذلك أنني سأموت ، نعم سأموت اذا استمرت تجري الأمور على هذه الحال زمناً طويلاً أيضاً ، والا فسأهرب من هذا البيت تاركةً كل شيء . لقد نفدت قدرتي على الاحتمال ، وخارت قوتي . صحيح أن صبري واسع ، ولكن لهذا الصبر حدوداً ، فاذا بلغت هذه الحدود أمكن أن تقع أمور فظيعة ... آه ... يا رب !...

وفيما كانت السيدة هوخلاكوفا تقول هذا الكلام ، اذا هي تلمح الموظف برخوتين داخلاً الى الغرفة ، فصاحت تقول وقد أشرقت أساريرها على حين فجأة :

ـ هذا بطرس ايلتش يصل أخيراً ! لقد تأخرت عن المجيء . انتظرتك طويلاً . هيه ! اجلس ، تكلم ، قرر مصيري . ماذا قال المحامي ؟ الى أين تذهب يا ألكسي فيدوروفتش ؟

ـ أنا ؟ الى ليزا ...

ـ ها ... نعم ... صحيح ... لن تنسى أن تفعل ما طلبته منك ، أليس كذلك ؟ على هذا يتوقف مصيري ، نعم مصيري ...

دمدم أليوشا يقول وهو يستعجل الخروج :

ـ لن أنسى ، هذا اذا وفقت الى أن ...

ـ لا ، لا ... ان عليك أن تعود الى حتماً . لا أريد كلمة « قد » ... والا مت ! ...

كذلك صاحت تقول السيدة هوخلاكوفا ، ولكن أليوشا كان قد خرج .

٣

شيطان صغير

حين دخل أليوشا غرفة ليزا وجد الفتاة مضطجعة نصف اضطجاع على الكرسي المتحرك التي كانوا ينقلونها عليه في السابق حين لم تكن تستطيع أن تمشي بعد . لم تقم ليزا بحركة من أجل أن تهب الى لقائه ، وانما حدقت اليه بنظرة ثاقبة نافذة . كانت عيناها مشتعلتين قليلاً ، وكان وجهه الشاحب يبدو مصفراً بعض الاصفرار . دهش أليوشا من التغير الذي طرأ على مظهرها في غضون ثلاثة أيام . حتى لقد لاحظ أنها نحلت بعض النحول . لم يمدد اليها يده ، بل اقتصر على ملامسة أصابعها الطويلة التي كانت جامدة على ثوبها . ثم جلس قدامها دون أن يقول كلمة .

قالت ليزا بصوت جاف :

ـ أعلم أنك تستعجل الذهاب الى أخيك في السجن . لقد احتجزتك ماما ساعتين ، ولم تزد على أن كلمتك عني وعن جوليا أثناء تلك المدة كلها .

سألها أليوشا :

ـ كيف عرفت هذا ؟

فأجابته :

ـ تنصت على البـاب ... لماذا تنظر الىّ هكذا ؟ انه ليحلو لى أن أتجسس على أحاديث أمى ، وسأظل أفعل ذلك كلما شاء لى هواى أن أفعله. لست أرى فى هذا أى بأس ، ولا يخطر ببالى أبداً أن أعتذر عنه.

ـ ما الذى جعل مزاجك معتكراً هذا الاعتكار ؟

ـ أنا ؟ بالعكس : اننى مسرورة جـداً . لقد قلت لنفسى فى هذه اللحظة نفسـها ، للمرة الثلاثين ، اننى قد أُلهمت حقـاً حين نكلت عن وعدى ورفضت أن أصبح زوجتك. أنت زوج لايطاق. هبنى تزوجتك، ثم كلفتك بأن تحمل رسالة الى عشيقى : لسـوف تقـوم بهذه المهمة ، ولن تقتصر على حمل الرسالة اليه بل ستجيئنى بالرد أيضاً . وحين تبلغ الأربعين من العمر ستظل تحمل رسائل من هذا النوع متى كلفتك بذلك.

وأخذت ليزا تضحك . فقال أليوشا مبتسماً :

ـ ان فيك مزيجاً من طفل طيب وطفل خبيث فى آن واحد .

ـ هل تجدنى ساذجة ؟ اننى ساذجة ، وبفضل هذا لا أخجل منك. أنا لا أتحـرج أمامك ، اننى أرفض أن أخجل منـك ، نعم منـك أنت بالذات . قل لى يا أليوشـا : لماذا أنا لا أحترمك ؟ اننى أحبـك كثيراً ، ولكننى لا أحترمك . والا لما استطعت أن أقول لك هذا فى وجهك دون أن احمر ، أليس كذلك ؟

ـ هو كذلك .

ـ هل تعتقد أننى لا أحترمك ؟

ـ لا ، لا أعتقد بذلك .

ضحكت ليزا ضحكة عصـبية مرة أخـرى . كانت تتكلم بسرعـة ، فى نوع من تعجل قلق مهموم .

ـ أرسلت سكاكر الى أخيك دمتري فيدوروفتش فى سجنه • أليوشا ، ليتك تعلم كم أنت لطيف ! سوف أحبك كثيراً لأننى أبحت لنفسى أن أكف عن حبك بمثل هذه السرعة •

ـ لماذا استدعيتنى اليوم يا ليزا ؟

ـ أردت أن أنقل اليك رغبة • اننى أتمنى أن أعذّب • اتمنى أن يتزوجنى أحد ، وأن يعذب روحى بعد ذلك : يخوننى ويهجرنى ويسافر • لا أريد أن أكون سعيدة •

ـ أتحبين الفوضى اذن ؟

ـ نعم ، أحب أن أعيش فى الفوضى • أحلم دائماً باحراق المنزل • أتخيل كيف سأقترب من العمارة ، وأشعل فيها النار دون أن يرانى أحد • يجب أن يتم هذا بالسر حتماً • ويهب الآخرون يسعون هنا وهناك محاولين اطفاء اللهب ، ولكن اللهب ما ينفك يشتد • وأكون هناك ، أرى كل شىء ، ولا أنطق بكلمة • هوه ! تلك سخافات ! اننى ضجرة ، ضجرة ضجراً رهيباً •

قالت ليزا ذلك وحركت يدها الصغيرة باشارة اشمئزاز •

قال أليوشا فى رفق ولين :

ـ انك تعيشين فى الثراء •

ـ أيكون من الأفضل أن أعيش فى الفقر ؟

ـ نعم ، ذلك أفضل •

ـ ان صاحبك الراهب الراحل هو الذى دسّ فى رأسك هذه الأفكار • ذلك خطأ • فليبق الآخرون فقراء ؛ أما أنا فأريد أن أكون

غنية • آكل سكاكر ، واشرب قشدة ، ولا أعطي من ذلك شيئاً لأحد • لا ، لا ، لا تقل لي شيئاً (قالت ليزا ذلك وهي تحرك يدها بايماءة تصد اليوشا عن الكلام ، مع أن أليوشا لم يفتح فمه) • لقد سبق أن قصصت عليّ تلك الحكايات• انها مضجرة• لو كنت فقيرة لقتلت أحداً • ولو كنت غنية لقتلت أيضاً • لماذا أبقى دون أن أعمل شيئاً ؟ أريد أن أحصد ، هل تعلم ! أريد أن أجني محصول القمح • سوف أتزوجك ، وسوف تصبح أنت فلاحاً ، لا فلاحاً حقيقياً ، وسيكون عندنا مُهر ، مهر صغير جميل ، هل تريد هذا ؟ بالمناسبة : هل تعرف كالجانوف ؟

ـ أعرفه •

ـ انه يسير حالماً طول الوقت • يقـول : « لماذا أحيا ؟ الأوْلى أن أحلم » • ان الانسان يستطيع أن يحلم بأشـياء مسلية ، أما الحياة فهي مضجرة دائماً • على أنه سيتزوج قريبـاً • لقد صارحني بحبـه ، هل تتصور ؟ صارحني أنا أيضاً • هل تعرف كيف تدوّم خذروفاً ؟

ـ نعم •

ـ هو أشـبه بخذروف : يكفي أن ترميـه ثم تجعله يدور ويدور بضربات سوط • الخذروف يُضرب بسوط صغير ، فاذا هو يدور ، ثم يدور • ذلك ما سـأفعله • سـأتزوجه ثم أظل أدوّمه طوال حيـاته كخذروف • ألا تشعر بخجل من الثرثرة معي !

ـ لا •

ـ لا بد أنك حانق من سماع ما اقوله من ترهاتٍ سخيفة الى هذا الحـد • أنا لا أحب أن أكون قديسـة ، هل تعلم ؟ ما هو العقـاب الذي سأعاقب به في الحيـاة الآخرة على الخطيئـة الكبرى ؟ لا بد أن تكون عالماً بهذه الأمور •

قال أليوشا وهو يتفرس فى وجه الفتاة بانتباه :

ـ سوف يحكم الله عليك •

ـ سوف يُحكم علىّ • ذلك بعينه ما أتمناه • أمثل أمام المحكمة ، فيحكم علىّ ، فأنفجر ضاحكةً وأنا أحدق الى أعين الجميع • آه ••• ما أعظم شوقى الى احراق المنزل ، الى احراق منزلنا يا اليوشا ! أنت لا تصدق ، أليس كذلك ؟

ـ لم لا ؟ انه ليتفق حتى لأطفال فى الثانية عشرة من أعمارهم أن يتمنوا احراق شىء ما ، ثم اذا هم يفعلون ذلك • هذا نوع من المرض•

ـ خطأ ، خطأ ! أعلم أن هنـاك أطفـالاً ••• ولكننى أتكلم عن شىء آخر •

ـ أنت تعدين الشر خيراً • هذه نوبة طارئة لن تدوم ، ولا شـك أنها من بقايا مرضك القديم •

ـ لا بد أنك تحتقرنى كثيراً حتى تقول هذا الكلام • الحقيقة أبسط من ذلك • أنا لا أحب عمل الخير ، وأوثر عليه الشر • ذلك كل ما فى الأمر ، وليس فى هذا أى مرض •

ـ لماذا تحبين عمل الشر ؟

ـ لأدمر كل شىء ، فلا يبقى شىء • آه ••• ما أجمـل أن أفتح عينى ، فأرى أن كل شىء قد زال ! اعلم يا أليوشا أننى أحلم دائماً بأن اقترف سيئات كثيرة رهيبة • أظل أعمل زمناً طويلاً فى الظلام والسر ، ثم يكتشـفون الحقيقة على حين فجأة • سيهبُّون عندئذ جميعاً ضدى ، وسيشيرون الىّ بالأصابع • فلا أزيد أنا على أن أتفرس فيهم هادئة كل

الهدوء • ما أمتع هذا ! لماذا يكون هذا ممتعاً يا أليوشا ؟ هل تستطيع أن تقول لى لماذا ؟

ـ لا أدرى ، ولكننى أعرف أن الأمر كذلك • هذه هى الحاجة الى تحطيم شيء ما ، أو الى اشعال النار في المنزل كما قلت أنت منذ هنيهة • هذه العواطف توجد فى نفوسنا أحياناً •

ـ أنا لم أقل كلاماً عابثاً ، لسوف أفعل ما قلت •

ـ أصدّق •

ـ آه ••• ما أعظم ما أحبك لأنك قلت انك تصدقنى • أنت لا تكذب البتة ، البتة ، أليس كذلك ؟ أم لعلك ظننت مع هذا اننى قلت ما قلت عامدةً لأغيظك ؟

ـ لا ، لا أظن ذلك ••• وان كان من الممكن أن يكون فيك الى جانب هذا شيء من حب الاغاظة •

ـ صحيح • هنالك قليل من الاغاظة فى هذا • أعترف لك بذلك•

ثم هتفت تقول فجأة وقد قدحت فى نظرتها شرارة :

ـ لن أكذب أمامك أبداً •

دُهش أليوشا خاصةً مما كان فى الفتاة من جد• لم يكن فى وجهها أثر لسخرية أو « شيطنة » ، على حين أن المرح والابتسام العنيد كانا لا يفارقانها قبل ذلك أبداً حتى فى « أخطر » اللحظات •

قال أليوشا مفكراً :

ـ ثمة ساعات يحب فيها البشر الجريمة •

ـ صحيح . هذا هو تماماً . لقد عبرت عن تفكيري نفسه . البشر يحبون الجريمة . جميع البشر يحبون الجريمة . يحبونها دائماً ، لا في بعض « الساعات » فحسب . وكأن هناك اتفاقاً عاماً بين الناس على الكذب في هذا الأمر . ما من أحد يحب أن يكون صادقاً مخلصاً في هذه النقطة . هم جميعاً يؤكدون أنهم يكرهون الشر ، مع أنهم يحبونه في سريرة أنفسهم.

ـ أما تزالين تقرئين كتباً سيئة ؟

ـ نعم ، وماما تحب هذه الكتب حب العبادة ، وتخفيها تحت وسادتها . ومن هناك أسرقها .

ـ ألا تستحيين أن تدمِّري روحك هذا التدمير ؟

ـ أحب أن أدمر نفسي . في هذه المدينة فتى تمدد تحت خطَّي السكة الحديدية ومرَّ القطار فوقه . انني أغبط هذا الفتى وأحسده على سعادته . أنظر مثلاً : سيحكمون غداً على أخيك لأنه قتل أباه ، والناس جميعاً يستحسنون أنه قتله .

ـ الناس جميعاً يستحسنون أنه قتل أباه ؟

ـ هم مفتونون بذلك ، مفتونون ! صحيح أنهم يصيحون قائلين ان ذلك فظيع ، ولكنهم في قرارة أنفسهم مفتونون . وأنا نفسي مفتونة ، أنا أول المفتونين .

قال أليوشا في رفق :

ـ هناك جانب من حق فيما ذكرته عن مشاعر الناس وعواطفهم .

فصاحت ليزا تقول بصوت فيه كثير من الحماسة :

ـ يا سلام ! ما هذه الفكرة ؟ من ذا الذي يصدق أن راهباً هو الذي يقول هذا الكلام ؟ لا تستطيع أن تتصور يا أليوشا مدى ما أكنه لك من

احترام لانك لا تكذب أبدا • اسمع : يجب أن أقص عليك حلماً مضحكا أراه فى بعض الاحيان • يتفق لى ان أرى فى الحلم شياطين • أكون فى الليل وحدى مع شمعة فى الغرفة ، وفجأةً تنبجس الشياطين من جميع الأركان • انهم فى كل مكان ، حتى تحت المائدة • ها هم اولاء يفتحون البـاب ، وهأنا ذا أرى أن فى الخـارج منهم جمهرة كبيرة أيضاً • انهم يريدون أن يدخلوا ليقبضوا علىّ • لقد اقتربوا ومدّوا مخالبهم• وأرسم اشارة الصليب فاذا هم يتراجعون جميعاً وقد استولى عليهم الخوف • ولكنهم لا ينصرفون تماماً ، بل يتلبثون قرب الأبواب وفى أركان الغرفة، كأنهم ينتظرون • وأشعر عندئذ برغبة قوية فى أن أسب الله بصـوت عالٍ • وآخذ أشتم الرب ، فاذا بالشياطين يتجهون نحوى جمهرةً من جديد ، فرحين كل الفرح ، جذلين كل الجذل ، يهمّون أن يقبضوا علىّ ••• ولكن ••• قف ! وأرسم اشارة الصليب مرة أخرى ، فيتراجعون مذعـورين • ذلك أمر أبلغ من الضحك له أن أنفـاسى تتقطع فى بعض الأحيان •

قال أليوشا فجأة :

ـ أنا أيضاً أرى هذا الحلم أحياناً •

صاحت ليزا تقول مدهوشة دهشة قوية :

ـ أهذا ممكن ؟ لا تمزح يا أليوشا ، أرجوك ، لأن ما أقوله جد لا هزل • هل يمكن أن يرى شخصان اثنان حلماً واحداً بعينه ؟

ـ يمكن جداً •

عادت ليزا تقول وقد استبدت بها دهشة تبدو شديدة :

ـ أليوشا ، أكرر قولى : هذا أمر هام جداً • ليس الحلم نفسه هو الذى يدهشنى هذا الادهاش كله ، وانما يدهشنى أن ترى أنت فى الحلم

عين ما أرى أنا . أنت لا تكذب عليّ قط ، فقل لى الحقيقة هذه المرة أيضاً : أصحيح ما أفضيت به الىّ الآن ؟ ألم تكن مازحاً ؟

ــ هى الحقيقة بعينها .

قالت ليزا فجأة بصوت متوسل :

ــ أليوشا ، زرنى كثيراً ، زرنى أكثر مما تزورنى الآن .

قال أليوشا بلهجة جازمة :

ــ سأزورك دائماً ، سأزورك طوال حياتى .

عادت ليزا تقول :

ــ أنت الانسان الوحيد الذى أفتح له قلبى هكذا . أنا لا أتكلم بصدق الا معك . أنت الانسان الوحيد الذى أثق به واركن اليه فى هذا العالم . وانى لأحب أن أتحدث اليك أكثر مما أحب أن أتحدث الى نفسى أيضاً . زد على ذلك أننى لا أخجل منك البتة يا أليوشا . لماذا لا أخجل البتة ؟ هل صحيح يا أليوشا أن اليهود يسرقون الأطفال ليذبحوهم فى عيد الفصح ؟

ــ لا أدرى .

ــ عندى كتاب يصف محاكمة يهودى يقال انه قطع أصابع يدى طفل صغير فى الرابعة من عمره ، ثم صلبه على جدار ، صلبه بمسامير . وقد أكد أمام المحكمة أن الصبى الصغير مات بسرعة ، بعد أربع ساعات ... هذا سريع حقاً ! ويقال ان الصبى ظل يئن بغير انقطاع، وان اليهودى كان ينظر اليه مستمتعاً بالمشهد . ما أحسن هذا !

ــ أهذا حسن ؟

ــ نعم ، حسن . أقول لنفسى فى بعض الأحيان اننى أنا التى صلبت هذا الطفل . أراه معلقاً يئن ، وأرى نفسى جالسةً أمامه آكل مطبوخ

الأناناس بالسكر • اننى أحب مطبوخ الأناناس كثيراً • وأنت ؟

كان أليوشا ينظر اليها صامتاً • وهذا وجه ليزا الشـاحب الأصفر ينقبض فجأة ، وهذا لهب يطوف بعينيها •

ـ حين قرأت تلك القصة عن اليهودى ، ظللت أبكى طوال الليل، هل تعلم ؟ كنت أتخيل صرخات الطفل وأناته (ان طفلاً فى الرابعة من عمره ليدرك ما يقع له) ، ثم لا أزيد أنا على أن أحلم بمطبوخ الأناناس. فلما طلع الصبح بعثت برسالة الى أحدهم طالبةً اليه أن يجيئنى حتماً • جاء • قصصت عليه حكاية الطفل والأناناس • قلت له كل شيء ، كل شيء ، وأضفت : « هذا حسن » • فانفجر فى قهقهة كبيرة ، وأعلن أن هذا حسن جداً فى الواقع ، ثم نهض وانصرف • لم يمكث عندى الا خمس دقائق • احتقرنى ، هه ؟ قل لى يا أليوشا : أهو احتقرنى أم لا ؟

هكذا هتفت ليزا وهى تنتصب على كرسيها المتحرك ، وقد ومضت عيناها ببريق ساطع •

قاطعها أليوشا يسألها وقد اضطرب اضطراباً شديداً :

ـ قولى : أأنت التى استدعيته ؟

ـ أنا التى استدعيته •

ـ برسالة ؟

ـ نعم ، برسالة •

ـ أمن أجل أن تسأليه عن أمر ذلك الطفل ؟

ـ لا ، لا من أجل هذا ، لا من أجل هذا أبداً • ولكن حين دخل غرفتى أسرعت ألقى عليه سؤالاً عن موضوع الطفل • فأجابنى ضاحكاً، ثم نهض وخرج •

قال أليوشا فى رفق :

ـ لقد أحسن التصرف معك •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ولكنه احتقرني ، أليس كذلك ؟ سخر مني ؟

ـ لا ... لأن من الجائز جداً أن يكون هو نفسه مقتنعاً بمزايا مطبوخ الأناناس . انه مريض جداً يا ليزا ، هو أيضاً .

هتفت ليزا تقول وقد التمعت عيناها :

ـ نعم نعم ، هو مقتنع بذلك .

وتابع أليوشا كلامه فقال :

ـ انه لا يحتقر أحداً ، ولكنه لا يؤمن بأحد أيضاً . ومتى لم يؤمن بأحد فلا بد أن يحتقر في آخر الأمر حتماً .

ـ وأن يحتقرني أنا اذن أيضاً ؟ أيحتقرني أنا أيضاً ؟

ـ أنت أيضاً .

قالت ليزا في حنق شديد :

ـ طيب ، طيب . حين خرج من عندي ضاحكاً أحسست أن من الممتع للمرء أن يشعر بأنه محتقر. ان الطفل المقطوع الأصابع شيء رائع؟ وجميل جداً أن يُحتقر المرء ...

وانطلقت ليزا تضحك ضحكاً مجلجلاً وهي تحدق الى أليوشا في عينيه . وصاحت تقول فجأة وهي تنتصب على كرسيها المتحرك وتطوقه بذراعيها بقوة :

ـ هل تعلم يا أليوشا ؟ هل تعلم ؟ أود لو ... انقذني يا أليوشا !

ثم كررت تقول بصوت يشبه في هذه المرة أن يكون أنيناً :

ـ أنقذني يا أليوشا . من ذا الذي كان يمكنني أن أفضي اليه بما قلته لك اليوم ؟ وما اعترفت لك به كان هو الحقيقة مع ذلك ، كان هو الحقيقة صافية . أوه ! سوف أقتل نفسي ، لأنني أشمئز من كل شيء.

أصبحت لا أريد أن أحيـا ، لأنى سئمت كل شيء • لقد مللت • لقد ضجرت • كل شيء يثير فى نفسى الكره • أليوشا ، لماذا لا تحبنى البتة ؟ انك لا تحبنى قط •••

بهذا ختمت ليزا كلامها جائشـة النفس • فقال أليوشـا محتجاً بحرارة •

ـ بل أنا أحبك •

ـ أفسوف تبكى علىّ ؟

ـ سوف أبكى عليك •

ـ لا أريد أن تبكى علىّ لأننى رفضت أن أتزوجك ، ولكننى أريد أن تبكى علىّ لغير سبب ، هكذا ، هل تفهم ؟

ـ سوف أفعل ، أعدك بذلك •

ـ شكراً • أنا ظمأى الى أقوالك • أما الآخرون فليحكموا علىّ ، وليدينونى ، ليسحقونى جميعاً ، جميعـاً ، دون اسـتثناء أحـد • لاننى لا أحب أحداً • هل سـمعت ؟ لا أحب أحداً ، لا أحب أحـداً البتة • اننى أكرههم كلهم •

ثم أضافت وهى تتركه فجأة :

واذهب الآن يا أليوشا • لقد آن أن تمضى الى أخيك •

سألها أليوشا شبه مذعور :

ـ كيف أتركك وأنت فى هذه الحالة ؟

ـ اذهب الى أخيك • سوف يغلقون السجن بعد قليل • أسرع • اليك قبعتك • قبّل ميتيا • انصرف • انصرف الآن •

قالت ليزا ذلك ودفعته الى خارج الغرفة دفعاً يشبه أن يكون اخراجاً

بالقوة • فكان أليوشا ينظر اليها مدهوشاً دهشة أليمة ، ثم اذا هو يشعر فجأة بأن ورقة مطوية توضع فى يده اليمنى • انها رسالة مغلقة صغيرة المساحة • ألقى نظرة على العنوان فقرأ : « الى ايفان فيدوروفتش كارامازوف » • فشخص ببصره الى ليزا بقوة ، ولكن وجه الفتاة كان يعبر عندئذ عن معنى يكاد يكون هو التهديد • وأمرته بصوت مندفع ، وهى ترتعش من رأسها الى قدمها :

ــ اعطه هذه الرسالة ، اعطه اياها حتماً ، أعطه اياها اليوم ، فوراً• والا شربتُ سماً • من أجل هذا انما استدعيتك •

واغلقت الباب وراءه فجأة • وسمع صوت المزلاج يُدفع •

وضع أليوشا الرسالة فى جيبه ، وهبط السلم دون أن يمر بالسيدة هوخلاكوفا التى كان قد نسى وجودها • فما ان ابتعد حتى سحبت ليزا المزلاج من جديد ، وشقت الباب قليلاً ، فأدخلت اصبعها فى الشق ، ثم عادت تغلق الباب بحركة مفاجئة • انقضت عشر ثوان أخرجت ليزا بعدها اصبعها واتجهت تجلس على مقعد من المقاعد بخطى بطيئة • جلست على المقعد منتصبة القامة تماماً ، وأخذت تتفرس فى اصبعها التى اسودت وفى الدم الذى تفجر تحت ظفرها • كانت شفتاها تختلجان ، ودمدمت تقول مراراً بسرعة :

ــ شريرة ، شريرة ، شريرة ، شريرة !

٤
النشيد والسد

كان الوقت متأخراً حين طرق أليوشا باب السجن (تعلمون أن النهار قصير عندنا فى تشرين الثانى، نوفمبر) . لقد هبط الليل . ولكن أليوشا يعلم أنهم لن يضعوا عقبات فى سبيل دخوله على ميتيا.

كان كل شيء ، فى مدينتنا الصغيرة ، يجرى كما تجرى الأمور فى أى مكان آخر . فبعد الآونة الأولى التى أعقبت الاعتقال ، وبعد التحقيق التمهيدى ، كان الوصول الى السجن صعباً ، وكان على الأهل أو الأصدقاء الذين يرغبون فى رؤية السجين أن يقوموا ببعض الاجراءات الرسمية . ولئن لم تهمل هذه الأنظمة بعد ذلك ، فقد استثنى منها عدد من الأشخاص . حتى لقد أصبح يسمح لميتيا فى بعض الأحيان أن يكلم زواره فى غرفة المقابلات دون رقيب . على أن عدد هؤلاء المستثنين كان محدوداً . انهم : جروشنكا ، وأليوشا ، وراكيتين . فأما جروشنكا فقد كانت تحظى من رئيس الشرطة ميشيل ماكاروفتش بعطف خاص. كان هذا العجوز يريد اصلاح خطئه الذى ارتكبه حين قذفها بما قذفها به من شتائم فى موكرويه . انه حين علم حقيقة الأمر فيما بعد ، قد غيّر رأيه فى المرة الشابة تغييراً تاماً . ومن غريب الأمور أنه على بقائه مقتنعاً اقتناعاً جازماً بارتكاب ميتيا الجريمة ، قد رقّ لميتيا شيئاً فشيئاً منذ اعتقاله ، وكان

يقول لنفسه : « انه رجل طيب تفيض نفسه خيراً ، ولكن السكر والاضطراب النفسي قد أورداه موارد الهلاك ! » • ان نوعاً من الشفقة قد حلّ في نفس رئيس الشرطة محل الكره الذى شعر به في أول الأمر • وأما أليوشا ، الذى يعرفه رئيس الشرطة منذ زمن طويل فقد كان يحبه رئيس الشرطة كثيراً • وأما راكيتين الذى أخذ يزور ميتيا فى سجنه كثيراً منذ زمن ، فقد كان على علاقات طيبة متصلة « بآنسات رئيس الشرطة » ، كما كان يسميهن ، وكان يُرى فى منزل رئيس الشرطة كل يوم تقريباً• زد على ذلك أنه كان يعطى دروساً لأولاد مفتش السجن ، وهو عجوز طيب لطيف ، ولكنه متشدد في القيام بواجبه لا تلين له في ذلك قناة • وكان أليوشا ، هو أيضاً ، على صلة وثيقة بهذا المفتش ، فهو يعرفه منذ مدة طويلة ، وكان المفتش يحب أن يتحدث معه فى « شئون مقدسة » • أما ايفان فيدوروفتش فكان المفتش يحترمه بل ويخشاه ، ويهاب قوة فكره خاصة ، رغم أنه كان يعد نفسه فيلسوفاً ، ويتباهى بأنه « يفكر تفكيراً حراً » • وفى مقابل ذلك ، كان المفتش يشعر نحو أليوشا بمحبة لاسبيل الى مقاومتها • لقد شرع أثناء هذه السنة الأخيرة في دراسة الأناجيل المزيفة ، فكان ما ينفك يطلع صديقه الشاب على ما يجول فى ذهنه من أفكار • حتى لقد كان فى الماضى يسعى اليه فى الدير ، ويظل يناقش الكهنة من الرهبان ساعات •

جملة القول انه لم يكن على أليوشا حين يصل الى السجن متأخراً الا أن يذهب الى مفتش السجن ، فاذا بكل شيء يجرى هيناً ليناً • أضف الى ذلك أن جميع موظفى السجن حتى أصغر حارس ، كانوا قد ألفوا أليوشا • والموظف لا يضع العقبات متى كانت السلطات تغمض أعينها •

وكان ميتيا يترك زنزانته متى نودى ، وينزل الى القاعة التى تتخذ مكاناً للمقابلة .

فلما دخل أليوشا هذه الغرفة ، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام راكيتين الذى يتهيأ للانصراف . كان راكيتين يتحدث بصوت عالٍ الى ميتيا الذى يشيّعه ضاحكاً ضحكاً قوياً جداً بينما راكيتين يتذمر . ان راكيتين قد أصبح منذ زمن يمتعض من لقاء أليوشا ، ويتجنب أن يكلمه ، ولا يحييه الا على مضض ، فلما لمح أليوشا في هذه المرة ، قطب حاجبيه وأشاح عينيه ، وتظاهر بانهماكه فى عقد أزرار معطفه الشتوى ذى الياقة الفرائية ، ثم انهمك بعد ذلك فى البحث عن مظلته ؟ ودمدم يقول من أجل أن يقول شيئاً ما :

ـ أرجو أن لا أنسى شيئاً مما يخصنى .

فأجابه ميتيا مازحاً :

ـ واياك أن تنسى خاصةً ما يخص غيرك !

وأسرع يضحك من كلمته هو .

فغضب راكيتين فجأة وصرخ يقول وهو يرتجف غيظاً وحنقاً :

ـ خير لك أن تسدى هذه النصيحة الى ذويك آل كارامازوف ، لا الى راكيتين ، أيها المستغلون !

فأجابه ميتيا قائلاً :

ـ ماذا دهاك ؟ انا انما كنت مازحاً . شيطان يأخذك .

ثم أضاف يخاطب أليوشا ، مشيراً برأسه الى راكيتين الذى كان يبتعد مسرعاً :

ـ هم جميعاً كذلك . لقد كان هنا مرحاً صافى المزاج ، فاذا هو يغضب الآن على حين فجأة . لقد أبى أن يحييك حتى بايماءة . أأنتما

متخاصمان تماماً ؟ لقد تأخرت اليوم ، وأنا أنتظرك نافذَ الصبر منذ الصباح • لا بأس ، سنتدارك ما فات •

سأله أليوشا وهو يشير بعينه الى الجهة التى خرج منها راكيتين :

ـ لماذا يزورك هذا كثيراً ؟ أتراك قد توثقت الصداقة بينك وبينه ؟

ـ أأنا تتوثق الصداقة بيني وبين ميشيل ؟ لا ••• هذا وغد كبير• هو يظن اننى ••• شقي مسكين • ثم انه لا يفهم المزاح ، ذلك مايغيظنى منه أكثر من أى شيء آخر • انه لا يملك روح الفكاهة • نفسه واحدة حزينة كجدران هذا السجن كما رأيتُها حين وصلتُ الى هنا • ولكنه فى مقابل ذلك رجل ذكى • هيه يا ألكسى ، هأنا ذا قد هلكت الآن !

قال ميتيا ذلك ثم جلس على دكة وأجلس اليوشا الى جانبه • قال أليوشا خجلاً :

ـ نعم ، سيُحكم عليك غداً • ولكن ألم يبق لك أى أمل فعلاً يا أخى ؟

قال ميتيا وهو يلقى على أخيه نظرة غامضة :

ـ ماذا تقصد ؟ آ ••• فهمت ••• تقصد تلك المحاكمة ! ولكن هذه القصة لا تعنينى • اننا لم نتحدث حتى الآن الا فى سفاسف ، كهذه المحاكمة التى تبدأ غداً ، وقد سكتُّ أمامك عن المسائل الأساسية حتى الآن • صحيح أننى سيُحكم عليَّ غداً ، ولكن ليس هذا ما جعلنى أقول اننى هلكت • ليس رأسى هو الذى يتهدده الخطر حتى الآن ، بل ما فى داخل رأسى • لماذا تنظر اليَّ هذه النظرة التى تدل على الاستياء ؟

ـ اننى لا أفهم ما تقصد يا ميتيا •

ـ أقصد أفكارى ••• أقصد «الايطيقا» * • ماذا تعنى هذه الكلمة : « الايطيقا » ؟

سأله أليوشا مدهوشاً :

ـ نعم ، ذلك ضرب من العلم فيما يبدو ،

ـ نعم ، هناك علم يسمى بهذا الاسم ... ولكن ... أعترف لك بأننى لا أستطيع أن أشرح لك ما هو هذا العلم ،

ـ أما راكيتين فيعرف ما هو هذا العلم ، ان راكيتين هذا يعرف أشياء كثيرة ، شيطان يأخذه ، انه لن يصبح راهباً ، انه يفكر فى الذهاب الى سان بطرسبرج ، ويأمل أن يمارس هنالك عمل النقد ، ولكن فى اتجاه أخلاقى رفيع ، على كل حال ، قد يكون نافعـاً فى هذا المجال ، وقد يصبح شخصاً مرموقاً فى الوقت نفسه ، انه رجل ماكر يعرف كيف يدبر أموره ... وبشست « الايطيقا » ! هل تعلم أننى هلكت يا ألكسى ، يا رجلاً تقياً من رجال الله ! اننى أحبك أكثر مما أحب سائر الناس ، ان قلبى ليدمى حين أفكر فيك، من ذلك العالم الذى يسمى شارل برنار ؟

سأله أليوشا مدهوشاً من جديد :

ـ شارل برنار ؟

ـ لا ، لا شارل ، لقد أخطأت ، لحظة ، أقصد كلود برنار* ، من كلود برنار هذا ؟ لعله كيميائى ؟

قال أليوشا :

ـهو عالم من العلماء ، ولكن أعترف لك بأننى لا أستطيع أن أقول لك أشياء كثيرة عنه ، لقد سمعت أنه عالم ، ولكن لا أدرى فى أى ميدان من ميادين العلم ،

استأنف ميتيا كلامه قائلا :

ـ طيب ... شيطان يأخذه ... أنا أيضاً لا أدرى ... لعله واحد من أولئك الأشقياء الذين كثر عددهم فى أيامنا هذه، أما راكيتين فسيعرف

كيف يشق طريقه وينجح • انه يحسن التسلل الى كل مكان • هو فى نوعه برنار آخر • أوه ! ما أكثر الذين يمكن أن يسموا برنار فى هذا العالم الآن !

سأله أليوشا ملحاً :

ــ هلاّ قلت لى ماذا دهاك ؟

ــ انه ينوى أن يكتب شيئاً عنى ، عن فضيتى ، ويأمل أن يكون ذلك بداية نشاطه الأدبى • ولهذا الغرض انما يزورنى • لقد شرح لى هو نفسه ذلك • انه يرجو أن يكتب مقالةً تتيح له أن يبسط بعض الآراء الأخلاقية ، كأن يقول ، اذا صدق فهمى : « ما كان يمكنه الا أن يقتل ، لأن بيئته قد أفسدته » • وسيعبر عن معان أخرى من هذا القبيل ، وسيصبغ ذلك كله بلون اشتراكى فيما يقول • شيطان يأخذه • وليقل ما يشاء ، وليصبغ ما يقوله بما يحب أن يصبغه به • فذلك كله لا يعنينى فى شىء • انه لا يحب أخانا ايفان • انه يكرهه • وليست عاطفته نحوك خيراً من عاطفته نحو ايفان • أما أنا فاننى أحتمل زياراته لأنه رجل ذكى • ولكننى أعده مع ذلك مغروراً بعض الغرور • قلت له منذ لحظات : « ليس آل كارامازوف أشقياء ، بل هم فلاسفة ، لأن جميع الروس الحقيقيين فلاسفة• أما أنت فانك لم تصبح فيلسوفاً رغم جميع دراساتك ، لأنك لست الا فلاحاً » • وقد ضحك ضحكاً خبيثاً حين سمعنى أقول هذا الكلام • فأضفت عندئذ قولى : « لا جدال فى الآراء » ★ نكتة حلوة ، هه ؟ أنا أيضاً أستطيع أن أكون كلاسيكياً اذا أردت •

بذلك ختم ميتيا كلامه وهو ينفجر ضاحكاً على حين فجأة • قاطعه أليوشا سائلاً :

ــ لماذا تقدّر أنك هالك ؟ لماذا قلت هذا الكلام منذ هنيهة ؟

ـ لماذا أنا هالك ؟ هم ••• الواقع ••• اذا أردت أن أقول الحقيقة ••• انني آسف على الله ! هذا هو الأمر •••

ـ آسف على الله ؟ كيف ؟

ـ تخيل ما يلي : ان هناك أعصاباً في موضع من الرأس ••• أقصد في الدماغ ••• شيطان يأخذ الاعصاب ••• والأعصاب ألياف ، فحين تأخذ هذه الأليـاف بالاهتزاز ••• أقصـد يكفي أن أنظر الى شيء من الأشياء بعيني حتى تأخذ هذه الأليف بالاهتزاز حالاً •• ومتى اهتزت الألياف تكونت صورة ، لا على الفور ، بل بعد لحظة ••• تنقضي دقيقـة فتحدث لحظة ••• لا ، لا لحظة ••• شيطان يأخذ اللحظة ••• أقصـد تحدث صورة ، أي يحدث شيء أو فعل ••• شـيطان يأخذهما ! ••• فذلك هو السبب في أنني أدرك ثم أفكر • ليس السبب أن لي نفساً ،وأنني خلقت على صورة الله • سخافات هذه الأفكار كلها ! لقد شرح لي ميشيل كل شيء أمس ، فشـعرت بما يشبه الحرق في قلبي • العلم شيء رائع يا أليوشا ! هي انسانية جديدة ستولد • انني أدرك الآن هذا ادراكاً تاماً ••• ولكنني مع ذلك آسف على الله •

قال أليوشا :

ـ أنت آسف على الأقل • هذا وحده شيء ذو بال •

ـ أن أكون آسفاً على الله ؟ هي الكيمياء يا أخي ، الكيمياء ! لا حيلة لك يا صاحب القداسة ، الكيمياء تتقدم ، تنحوا ، أفسحوا المكان ، أفسحوا المكان ! أما راكيتين هذا فانه لا يحب الله ! هو لا يحبـه • ذلك ضعفهم جميعاً على كل حال • ولكنهم يكتمونه • انهم يكذبون • انهم يمثلون • سألته : «هل ستبسط هذه الأفكار في مقالات نقدية ؟» ، فأجابني ضاحكاً : « لن يُسمح لي بذلك ، هذا مؤكد » ، فسألته بعد ذلك : « ولكن ما الذي

سيصير اليه الانسان فى هذا كله ، بغير اله ، وبغير حياة آخرة ؟ هل نستنتج من هذا أن كل شىء سيكون مباحاً بعد الآن ، وأن فى وسع الانسان أن يفعل ما يشاء ؟ » ، فأجابنى ضاحكاً من جديد : « أكنت لا تعرف هذا اذن ؟ » ثم أضاف قائلاً : « ان الانسان الذكى يمكنه أن يبيح لنفسه كل شىء ، لأنه سيستطيع دائماً أن يدبر أمره ويخرج من مأزقه ، أما أنت فقد قتلت ثم سمحت لهم بأن يقبضوا عليك • ولذلك تتعفن الآن فى زنزانة » • ذلك ما قاله لى ، لى أنا • هذا خنزير قذر حقاً ! هؤلاء الأوغاد ، كنت فيما مضى أطردهم • أما الآن ، فأنا أصغى اليه ، أسمع له • ان فى ما يقوله كثيراً من الأشياء المعقولة • وهو عدا هذا يجيد الكتابة جداً • فى الأسبوع الماضى ، قرأ علىّ احدى مقالاته • فسجلت ثلاثة أسطر منها عامداً • لحظة • اليك ما سجلته •

وأسرع ميتيا فاستل من جيب صديرته ورقة وقرأ :

« من أجل أن يكون المرء قادراً على أن يحل هذه المشكلة ، يجب عليه أولاً أن يضع شخصه فى تعارض مع واقع حياته • • » • هل تفهم ما معنى هذا ؟

قال أليوشا الذى كان يلاحظ ميتيا بدهشة واستطلاع :

ـ لا ، لا أفهم •

ـ وأنا أيضاً لا أفهم • ان هذه الجملة غامضة ،ولكنها تبدو لى عميقة جداً • وقد أسرّ الىّ « أن جميع الناس يكتبون اليوم بهذه الطريقه • فالبيئة هى التى تفرضها ••• » • انهم يخافون البيئة • وهو ينظم اشعاراً ، هذا الوغد • لقد تغنى بقدم هوخلاكوفا ، هأ هأ هأ •

قال أليوشا :

ـ أعرف ذلك .

ـ ها ... ذكر لك هذا ؟ هل قرئت لك تلك الأبيات ؟

ـ لا .

ـ هي عندي . سأقرؤها لك . هذه حكاية طويلة ، هل تعلم ؟ سأقصها عليك . يا للوغد ! منذ ثلاثة أسابيع قام في رأسه أن يغيظني . قال لي : « ما أغباك ! أنت ضيعت نفسك ، وضيعت نفسك في سبيل ثلاثة آلاف روبل فقط . أما أنا فسأجني مائة وخمسين ألف روبل ، بتزوج أرملة غنية . وبعد ذلك أشترى منزلاً جميلاً في سان بطرسبرج . » . وأسرَّ الىَّ عندئذ أنه يغازل السيدة هوخلاكوفا ، التي لم تكن ذكية حتى في ريعان صباها ، ثم لم يبق لها شيء من فطنة حين بلغت الأربعين من عمرها . وأضاف قوله : « وهي فوق ذلك حساسة عاطفية ، ومن هنا سآتيها . سوف أتزوجها ، وآخذها الى سان بطرسبرج ، فانشيء هنالك جريدة . » . وكانت تطوف على شفتيه ابتسامة شبقة وهو يقول لي هذا الكلام ، ولكن لا بسبب هوخلاكوفا طبعاً ، لأن خيال المائة وخمسين ألفا روبل هو الذي كان يُسيل لعابه . ومنذ ذلك الحين أصبح يسرُّ الىَّ كل يوم بأشياء جديدة ، قائلاً : « ان الأمور تجرى مجرى حسناً » ، ويشرق وجهه فرحاً أثناء ذلك . ولكن ها هو ذا يُطرد فجأةً من منزل السيدة هوخلاكوفا . لقد غلبه بطرس ايلتش وانتصر عليه . مرحى ! وددت لو أقبل تلك الحمقاء لأنها استطاعت أن تطرده من منزلها . في فترة حماسته انما نظم تلك القصيدة . وقد اعترف لي قائلاً : « تلك أول مرة أغض فيها من قيمتي فأرضى أن أنظم شعراً . لقد ارتضيت ذلك لأغوى امرأة حمقاء غبية في سبيل عمل عظيم أريد أن أحققه . فمتى استوليت على أموال هذه البقرة العجوز ، استطعت أن أكون بعد ذلك نافعاً للمجتمع » .

ان هؤلاء الناس يجدون فى جميع الأحيان عذراً يسوّغون به حقاراتهم ودناءتهم ، هو عذر المنفعة الاجتماعية • وقد قال لى : « ومع ذلك صنعت خيراً مما صنع صاحبكم بوشكين ، لاننى استطعت أن أودع حزناً وطنياً عظيماً فى بضعة أبيات شعرية صغيرة هى فى ظاهرها سارة مرحة » • على أن ما يقوله عن بوشكين يبدو لى معقولاً • فما دام ذلك الشاعر يملك موهبة عظيمة حقاً ، فانه ما كان له أن يقتصر على التغنى بأقدام صغيرة جميلة ! وما كان أشد اعتزاز راكيتين بتلك الأشعار التى نظمها ! ان فهم غروراً ، هؤلاء الشعراء جميعاً ! ان العنوان الذى تخيله هذا «الفيلسوف الوضعى» لقصيدته هو التالى : « لشفاء قدم المحبوب الصغيرة » •

ياللقدم الفتانة
المتورمة الآن
الأطباء حولها منهمكون
ليضمدوها بحب وحنان
لست اندب القدم ،
فانى أترك هذا لبوشكين •
لكننى اشكو الراس
لأنه لا يفكر كما ينبغى أن يفكر •
كانت قد بدأت تفهمنى
حين تمردت القدم !
هلموا فاشفوا القدم الرقيقة
حتى تستطيع الأفكار أن تحلق •

انه وغد ، وغد حقاً ، ولكن أشعاره مرحة • ثم ان فيها « فكرة وطنية » ، كما يقول • لقد استشاط غيظاً حين طُرد • كان يصرف بأسنانه من شدة الحنق •

قال أليوشا :

ـ لقد انتقم منذ الآن • نشر مقالة عن السيدة هوخلاكوفا •

وقص أليوشا على ميتيا بسرعة ، قصة المقالة الواشية المتجنية التى ظهرت فى جريدة « الشائعات » • فقال ميتيا مؤيداً وهو يقطب حاجبيه :

ـ انه هو ، انه هو ••• هو كاتب المقالة • ليس فى ذلك شك ! آه من تلك الأقاويل والنمائم ! أنا على علم ••• ما أكثر ما نشروا من تخرصات لئيمة حقيرة حتى الآن ، عن جروشنكا مثلاً ! وعن الاخرى أيضاً ، عن كاتيا ••• هِمْ •••

قال ميتيا ذلك ، وأخذ يمشى فى الغرفة مهموم البال •

استأنف أليوشا قائلاً بعد صمت :

ـ لا أستطيع أن أبقى مدة طويلة هذا المساء يا أخى • ان غداً ليوم عظيم رهيب بالنسبة اليك : غداً تتم ارادة الله ••• يدهشنى مع ذلك أنك فى عشية ذلك الغد تضيع وقتك فى الكلام عن سفاسف •••

قاطعه ميتيا يقول بحرارة :

ـ لا يدهشنك هذا • أتراك تؤثر أن أتكلم عن ذلك الشقى العفن النتن ، عن القاتل ؟ لقد سبق أن تكلمنا عنه ، وأسرفنا فى الكلام • لا أريد أن أسمع بعد الآن شيئاً عن سمردياكوف ، النتن ابن النتنة ، لسوف يعاقبه الله ••• سوف ترى ••• ليعاقبنَّه الله لا محالة •••

واقترب من أليوشا وقد استولى عليه اضطراب شديد ، وقبَّله فجأة • كانت عيناه تسطعان • وأخذ يقول بنوع من الوجد كأنه خارج عن طوره :

ـ لا يستطيع راكيتين أن يفهم هذا ، أما أنت فسوف تفهمه • ومن أجل ذلك انما كنت فى ظمأ شديد الى أن أراك • هل تعلم أننى ، منذ زمن طويل ، أريد أن أكلمك فى أشياء كثيرة ، هنا ، بين هذه الجدران المتقشرة ، ولكننى لم أعالج النقطة الأساسية حتى الآن ؟ يبدو أنه لم يكن قد آن لى أن أسرّ اليك بما فى نفسى بعد • لقد انتظرت ، انتظرت الى آخر دقيقة ، لأفتح لك قلبى• أخى ، أخى ، اننى فى أثناء هذين الشهرين الأخيرين ، قد أصبحت انساناً آخر • لقد وُلد فىّ كائن جديد • الحق أنه كان موجوداً فىّ منذ الأزل ، ولكن ما كان له أن يظهر لولا تلك الكارثة • شيء رهيب ! اننى لا أخشى أن أعمل بيدى فى المناجم عشرين عاماً • ذلك لا يهمنى • هناك شيء آخر هو الذى اخشاه الآن• اننى أخشى أن يزول، من جديد، الانسانُ الذى بُعث حياً فى نفسى. ان المرء يستطيع أن يجد حتى فى سجون الأشغال الشاقة ، حتى فى جحيم غياهب المناجم، يستطيع أن يجد بقربه سجيناً آخر يخفق فيه قلب انسانى وان يكن رجلاً قاتلاً • يستطيع المرء أن يصادقه ، لأنه مباح للمرء هنالك أيضاً أن يحيا وأن يحب وأن يتألم ! يستطيع المرء أن ينذر نفسه لذلك السجين ، ليشعل فى قلبه مرةً أخرى شعلة الحب التى اطفأها الظلم ، يستطيع أن يحيطه بالعناية والرعاية والحب والعطف خلال سنين ، الى أن تنبجس أخيراً من ظلمات وجوده نفسٌ أحياها الألم وطهّرها ونقّاها وأسبغ عليها حلة النبل والكرم ، فاذا هى تندفع بعد ذلك نحو النور والضياء • ان فى وسعنا أن نحيى الملاك فى الشيطان ، وأن نبعث البطل فى الجبان • انهم كُثُرٌ هنالك ، أولئك الذين سقطوا ؟ انهم مئات ومئات ، ونحن جميعاً مسئولون عن مصيرهم • لماذا رأيت فى حلمى .« الطفل » ، وأنا اجتاز من حياتى مرحلة تبلغ هذا المبلغ من ألم الفاجعة وعذاب المأساة ؟ « لماذا يجب أن يتألم الطفل » ؟ تلك اشارة من السماء نزلت علىّ فى ساعة المحنة

العظمى • سأمضى الى سجن الأشغال الشاقة من أجل ذلك الطفل • ان جميع البشر متضامنون فى أخطائهم ، وكل انسان مسئول عن آثام سائر الناس • « الطفل الصغير » يتعذب فى سبيل الآخرين ، لأن فى هذا العالم اطفالاً منهم الصغار ومنهم الكبار • «الطفل الصغير» موجود فى كل مكان• سأمضى فى سبيل الآخرين ، لأنه لابد أن يكفر أحد عن الآخرين وأن يفتديهم • أنا لم أقتل أبى ، ولكن من واجبى أن أضحى بنفسى • اننى أقبل ما كُتب علىّ ! هنا ، فى هذا السجن ، انما فهمت هذه الأشياء كلها ••• هنا ، بين هذه الجدران المتقشرة •• انهم كثيرون هنـــاك ، تحت الأرض ، يحفرون فى المنجم • صحيح أننا ســـنكون مكبلين بالأغلال ، وصحيح أن ارادتنا ستكون محطمة • ولـــكن ، هناك ، فى ذلك الألم الكبير ، سنبعث الى الفرح ، الى الفرح الذى لا يمكن بدونه أن يحيـــا الانسان ، الى الفرح الذى بدونه لا يوجد الله ، لأن الله هو ينبوع الفرح، فتلك هى الخاصة التى ينفرد بها الله • رباه ! ألا فليفن الانسان نفسه فى الصلاة والدعاء ! كيف يمكننى أن أعيش تحت الأرض بدون الله ؟ ان راكيتين يكذب ! وحين ســـيطرد البشرُ الله من على ســطح الأرض ، سنهتدى اليه نحن فى جوف الأرض ، ونرتد اليه • ان السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة لا يستطيع أن يحيا بدون الله ، وهو أعجز عن ذلك من الانسان الحر الطليق ! فمن غياهب الليل ، سنغنى نحن الذين نعيش تحت الأرض ، سنغنى نشـــيداً حزينـاً يمجد الخالقَ ينبوعَ الســـعادة والضياء • تبارك الرب ، وتبارك فرحه ! اننى أحب الله !

كان ميتيا يكاد يختنق وهو ينطق بهذه الكلمات • كان قد اصفر وجهه ، وتقبضت شفتاه تقبضاً عصبياً ، وسالت من عينيه دموع• واستأنف كلامه يقول :

ـ لا يأخى ، ان الحيـــاة غنيـــة ، فى وسـع المرء أن يحيـــا تحت

الأرض أيضاً . لا تستطيع أن تصدق يا أليوشا الى أى حد أحب الآن أن أحيا ، ولا تستطيع أن تتصور رغبتي المحمومة القوية فى أن أوجد وأن أعرف ، لا تستطيع أن تتصور هذه الرغبة التى استولت على وأنا بين هذه الجدران المنقشرة ! ان راكيتين لن يفهم هذا فى يوم من الأيام ، لأنه لا يفكر الا فى تحصيل ثروة ، وبناء منزل كبير يؤجره ويتقاضى أجوره بانتظام . لذلك انتظرتك نافد الصبر . ليس يهمنى الألم . لن أخشى الألم بعد الآن مهما يكن كبيراً . كنت أخافه فى الماضى ، ولكننى أصبحت لا أخافه . هل تعلم أن من الجائز أن أرفض الاجابة أمام المحكمة ؟ يخيل الى فى بعض الأحيان أن بى من القوة ما سوف يمكننى من تذليل جميع المصاعب ، والانتصار على جميع المحن ، لا لشىء الا أن أقول لنفسى فى كل لحظه سعيدا : « أنا كائن ، أنا موجود » . لسوف أردد وانا فى العذاب الذى لا نهاية له : «أنا موجود» . لسوف أهتف حين يشنجنى الألم : « أنا كائن » . لسوف أشعر اذا رُبطت بالعمود وشددت اليه ، بأننى ما زلت أحيا ، وسوف أرى الشمس . وهبنى لم أرها ، فسوف أعرف على الأقل أن الشمس تشرق على العالم وتتلألأ . لأن أعرف أن الشمس تتلألأ فذلك وحده حياة كاملة . أليوشا ، طفلى الحبيب ، أن أفكارهم الفلسفية تقتلنى قتلاً ، تعساً لهم ! ان أخانا ايفان ...

قاطعه اليوشا سائلاً :

ـ هيه ... ما له ، ايفان ؟

ولكن ميتيا لم يسمع .

ـ كنت فى الماضى أجهل جميع هذه الشكوك ، ولكنها كانت تضطرب فى نفسى على غير علم منى . ولعلنى لم أندفع فى الشراب ، ولم أكن أقاتل الناس وأنقاد للعنف الا لأن تلك المعانى كانت تغلى فى داخلى.

فمن أجل أن أخنقها ومن أجل أن أسحقها انما كنت أتخبط ذلك التخبط. ان أخانا ايفان ليس مثل راكيتين . انه يخفى فى نفسه فكرة يكتمها سراً . ان أخانا ايفان يشبه أبا الهول . انه يصمت ، يصمت دائماً . أما أنا فان فكرة الله تعذبنى ، وهى عذابى الوحيد الحق . ما عسى أن يحدث اذا لم يوجد الله؟ لنفرض أن راكيتين على حق ، لنفرض أن الدين من صنع خيال الانسان . اذا لم يوجد الله كان الانسان هو سيد الأرض، ورئيس الكون ! عظيم! ولكن كيف يكون هذا الانسان فاضلاً بدون الله؟ ذلك هو السؤال ، وأنا لا أنفك ألقى على نفسى هذا السؤال . من الذى سيحبه الانسان اذا لم يوجد الله ؟ قل لى : الى من سيندفع الانسان بشكران روحه ، ولمن سنغنى أنشودة فرح ؟ ان راكيتين يسخر من هذا كله . هو يرى أن الانسان يستطيع أن يحب الانسانية مستغنياً عن الله . لا يستطيع الا سخيف مثله أن يصدق هذا الكلام . أما أنا فلن أفهمه فى يوم من الأيام. الحياة تبدو سهلةً لراكيتين. قال لى اليوم : « الأولى بك أن تهتم الآن بزيادة الحرية فى العالم ، موسعاً حرية المواطن السياسية . فاذا لم تستطع ذلك فحاول على الأقل أن تعمل ما يجب عمله حتى لا يزيد الجزارون أسعار اللحم . فبذلك تخدم الانسانية خدمةً أصدق وأجدى مما تخدمها بهذه الفلسفات كلها . » . أجبته قائلاً : « انك اذا أنكرت الله ، تنتهى الى زيادة سعر اللحم أنت نفسك ، فتربح بالكوبك روبلاً ». عندئذ غضب راكيتين . ما هى الفضيلة ؟ اشرح لى الفضيلة يا ألكسى . أنا فى ذهنى فكرة عن الخير ، ولكن الصينى فى ذهنه فكرة أخرى مختلفة عن فكرتى أنا . فالخير فكرة نسبية ، أليس كذلك ؟ أليس الخير فكرة نسبية ؟ هذه مشكلة مقلقة . لن تسخر منى ، أنت على الأقل ، اذا قلت لك ان هذه المشكلة قد أرقتنى ليلتين ، فلم أستطع النوم . اننى أتساءل اليوم كيف يمكن أن يحيا البشر دون أن يفكروا فى هذه المشكلة .

باطل ! ان ايفان لا يؤمن بالله . انه لا يؤمن الا بالأفكار . ذلك يفوق مستواى . ولكنه يصمت . أحسب أنه ما سونى" . سألته فلم أظفر منه بجواب . ملت عليه ميلى على نبع حقيقة لأروى ظمئى ، ولكنه لم يجبنى . مرةً واحدة ، افلتت منه كلمة .

سأل أليوشا معجلاً :

ـ ماذا قال ؟

ـ سألته : « أكلُّ شىء مباح اذن ؟ » ، فقطب حاجبيه وقال : « كان أبونا فيدور بافلوفتش رجلاً خالع العذار ، ولكنه كان يفكر تفكيراً سليماً » . ذلك كل ما قاله لى . لم يقل شيئاً آخر . على الأقل ، هذا أوضح من ثرثرات راكيتين .

قال أليوشا بمرارة :

ـ حقاً ؟ متى جاء اليك ؟

ـ سأحدثك عن هذا فى مرة أخرى . أما الآن ، فما حان الحين بعد . أنا لم أكد أكلمك عن ايفان حتى هذه الساعة . أرجأت الحديث عنه الى النهاية . فمتى خُتمت القضية وصدر الحكم ، سأقص عليك شيئاً . سأقول لك عندئذ كل شىء . هناك حكاية رهيبة . ستكون حكَماً علىّ فى هذه المسألة . أما الآن فلا أريد أن نعالج هذا الموضوع . اعرف كيف تصمت بانتظار ذلك . كنت تكلمنى منذ هنيهة عن يوم الغد ، عن المحاكمة ، فهل تصدّق أننى لا أعلم شيئاً ؟

ـ هل تكلمت مع ذلك المحامى ؟

ـ المحامى ؟ دعك من هذا ! لقد قصصت عليه كل شىء . انه وغد لطيف من أوغاد العاصمة ، انه برنار ! هو لا يصدّق كلمة واحدة مما

أقوله له • تصور أنه مقتنع بانني أنا القاتل ! أرى ذلك في نظرته الىّ • سألته : « فلماذا توليت اذن مهمة الدفاع عني ؟ » • انني أسخر من هؤلاء الناس جميعاً • وقد استدعوا كذلك طبيبـاً ، بغية أن يزعموا للمحكمة أنني مجنون ! ألا انني لن أطيق ذلك ، ولن أقبله ! ان كاترين ايفانوفنا هي التي تظن أنها بذلك تقوم « بواجبها » حتى النهاية • على أنها تجبر نفسها على ذلك اجباراً ، وتحمل نفسها عليه حملاً (قال ميتيا هذا وهو يبتسم ابتسامة مرة) • انها قطة ، قاسية القلب ! وهي تعرف ما قلت عنها من كلام في موكرويه ، وتعرف أنني وصفتها بأنها امرأة « ذات غضب شديد » • لقد نُقل اليها هذا الكلام • نعم ، لقد تكاثرت الشهادات علىّ حتى أصبحت لا تُعد ولا تُحصى • ما يزال جريجوري يتهمني • هو رجل شريف ، لكنه غبي • ما أكثر الشرفاء عن غباوة ! هذه فكرة عبّر عنها راكيتين • لقد أصبح جريجوري يناصبني العداء • أصبح عدوّي • وهناك أناس يؤثر المرء أن يكونوا أعداءه على أن يكونوا أصدقاءه • أقول هذا وأنا أقصد كاترين ايفانوفنا • أخشى ••• آه ••• أخشى خاصةً أن تقصّ على المحكمة حكاية تلك التحية الساجدة بعد دفع مبلغ الأربعة آلاف وخمسمائة روبل • انها لن تعفيني من قصّ هذه الحكاية ، معتقدةً أنها بذلك تبرىء ذمتها تجاهي ! آه ••• لسوف تمضي الى نهاية الشوط ••• أنا أعرفها • ولكنني لا أريد تضحيتها هذه ! سوف أشعر من ذلك بالخزي والعار أمام قضائي • كيف يكون في امكاني أن أحتمل هذا ؟ اذهب اليها يا أليوشا لترجوها أن لاتقص هذه الحكاية على الناس • أتظن أن هذا مستحيل ؟ لا ضير اذن • سيان عندي أن تقصّها وأن لا تقصّها • سأرتضي مذعناً • أما هي فلست أشفق عليها ولا أرثي لها • هي التي أرادت ذلك • لن تنال الا ما تستحقه • وأما أنا يا ألكسي، فسوف ألقي فيهم خطاباً ••• اعلم هذا ••• (قال ميتيا ذلك وهو يبتسم

ابتسامة مرة من جديد) • ولكن ، ولكن ••• هناك جروشا ، جروشا ••• آه ••• رباه ! ••• لماذا ينبغي لها أن تلقى عذاباً كهذا العذاب ؟ (كذلك صاح ميتيا فجأة وفي صوته دموع) • ان صورة جروشا تقتلني، تقتلني قتلاً ، تقتلني قتلاً ! لقد زارتني جروشا في هذا اليوم •

ـ حكت لي كل شيء • لقد أهنتها اهانة شديدة •

ـ أعرف هذا • تباً لطبعي ما أرداه ! لقد عذبتها بالغيرة • وحين ودعتها ندمت وقبلتها ولكنني لم استغفرها •

صاح أليوشا يسأله :

ـ لماذا لم تستغفرها ؟

ـ حماك الله يا فتاي الصغير من استغفار امرأة تحبها ، على خطيئة ارتكبتها فعلاً ••• لا سيما المرأة التي تحبها ، التي تحبها ، مهما تكن اخطاؤك في حقها ، لأن المرأة مخلوقة لا يعرف الا الشيطان ما في نفسها • أنا خبير في هذا على الأقل • حاول مرة أن تعترف لها بأنك أذنبت في حقها ، وأن تقول لها : « أنا مذنب ، فاغفري لي ، اغفري لي »• لتسمعن منها عندئذ سيلاً من ملامات • لن ترضى قط أن تغفر لك ببساطة ، بل ستأخذ تذلك وتخفضك الى الأرض ، معددة جميع أخطائك ، حتى تلك التي لم تقترفها • لن تنسى شيئاً ، وستضخم كل شيء ، وستختلق اخطاء جديدة عند الحاجة ، وبعد ذلك فقط سترضى أن تغفر لك • وخير النساء هن اللواتي يغفرن على هذا النحو • ولكنها ستفرغ أولاً أعماق دروج أحقادها وتلقيها على رأسك • تلك هي قسوتهن الكاسرة المفترسة • هن جميعاً كذلك • اعلم هذا • كذلك خلقن ، من أولاهن الى آخرهن ، هاته الملائكة اللواتي لا نستطيع أن نحيا بدونهن • سأطلعك بغير تكلف ولا تحرج على حقيقة كبرى

يا صغيري الطيب : ان كل رجل يحترم نفسه يجب عليه أن يعيش تحت حذاء امراة • ذلك هو اقتناعي العميق • بل هو اكثر من اقتناع : هو شعور عميق وعاطفة حميمة • ان على الرجل ان يكون كريما ، وهذا لن يغض من قيمته أبدا ، ولو كان قيصر • أما أن يستغفر ، فكلا ثم كلا! يجب على الرجل أن لا يستغفر امرأة بحال من الاحوال • تذكر دائماً هذه القاعدة التي علمك اياها اليوم أخوك ميتيا ، أخوك ميتيا التي أوردته النساء موارد الهلاك • لا، لا ، انني أوثر أن أصلح اخطائي في حق جروشنكا بطريقة أخرى ، دون استغفار • انني أعظمها وأقدسها حقاً يا ألكسى ، انني أشعر نحوها باعجاب لا حدود له • وهي تدرك ذلك وا أسفاه ، ثم ترى انني لا أمحضها حباً كافياً • انها تعذبني بحبها • لم يكن هذا أمراً ذا بال في الماضي • كنت في الماضي لا أحبها الا بسبب منحنيات وخطوط جسمها الجهنمية • أما الآن فان روحها هي التي نفذت في نفسي فصرنا روحاً واحدة • بها انما أصبحت رجلاً • هل يزوجوننا في السجن ؟ ان لم يزوجونا فلأموتن غيرة • انني لا أزيد كل يوم على أن أحلم بأمور رهيبة فظيعة ••• ماذا قالت لك عني ؟

ردد له أليوشا أقوال جروشنكا • أصغى ميتيا بانتباه شديد ، وألقى على أخيه أسئلة كثيرة ،وظل راضياً مغتبطاً ، وهتف يقول :

— هي اذن لا تحقد علي لأنني غيور • تلك امرأة حقاً • قالت لك : « أنا نفسي قاسية » ، أليس كذلك ؟ آه ••• انني أحبهن ، هاته النساء القاسيات ، رغم أنني لا أطيق أن يعذبنني بالغيرة • انني لا أحتمل هذا • سيكون بيننا شجار كثير ، أنا وهي ، ولكنني سأحبها حباً أبدياً لا نهاية له • هل سيزوجوننا ؟ هل يزوجون السجناء ؟ تلك هي المسألة كلها • لسوف يستحيل علي أن أحيا بدونها •••

سار ميتيا في الغرفة بضع خطوات مقطباً حاجبيه • وكان الظلام

قد خيم أثناء ذلك • وفجأة ظهر على ميتيا القلق ، كأن فــكرة ثقيلة قد هاجمته وجثمت على صدره •

ـ آه ! ••• قالت لك ان هناك سراً بيننا ، أليس كذلك ؟ قالت اننا نحن الثلاثة قد دبرنا مؤامرة عليها بتحريض من كاتيا ؟ لا يا عزيزتى جروشنكا ! ••• لقد أخطأت الظن ••• أخطأت الظن كما لا يجيد أن يخطئه الا النساء ، هاته الحمقاوات ! لا بأس يا أليوشا ، يا بنى العزيز ، سأكشف لك عن سرنا •

نظر ميتيا الى جميع الجهات محاذراً ، ثم اقترب من أليوشا حتى لامسه وأخذ يهمس فى أذنه وقد بدت فى وجهه معانى السر ، رغم أن أحداً لا يستطيع فى الواقع أن يسمعهما : فالعجوز غاف على دكة فى ركن من القاعة ، والخفراء أبعد من أن يستطيعوا مباغتتهما أثناء الحديث • قال ميتيا بهمس سريع :

ـ سأكشف لك عن سرنا • لقد كنت أنوى أن أطلعك على هذا السر فيما بعد ، ولكن كيف يمكننى أن أتخذ قرارى بدونك ؟ أنت كل شيء فى نظرى • ومهما أقل ان ايفان يفوقنا ، فأنت فى نظرى ملاك • ولقــرارك وحــده قيمــة فى الواقع • من يدرى ؟ لعلك أنت المتفــوق لا ايفان • اسمع : ان المسألة مسألة ضمير ، مسألة ضمير أخلاقى • هذا سر خطير جداً ، يبلغ من الخطورة أننى لا أستطيع أن أحمله وحدى ، ولا أن أنفرد باتخاذ قرار فيه • فأنا أعتمد عليك • على أن اتخاذ القرار لم يحن حينه بعد • وانما يجب انتظار صدور الحكم • فمتى أصدرت المحكمة حكمها ، كان عليك أن تقطع برأى فى الأمر فتقرر مصيرى • أما الآن فلا تقل شيئاً • سأشرح لك الموضوع ، فتصغى الى ما سأقوله لك دون أن تفصح عن رأى • عليك أن تصمت • لن أقول لك كل شيء اليوم • سأكشف لك عن مجمل الفكرة دون التفاصيل • عليك خاصة

أن لا تقول شيئاً ، أن لا تنطق بكلمة : لا سؤال ، ولا حركة ! اتفقنا ؟ ولكنني نسيت : هناك عيناك ، فما عساني صانعاً بعينيك اللتين سأقرأ فيهما جوابك ؟ آه من عينيك ! انني أخشى أن تقولا لى رأيك ولو سكت . اسمع يا أليوشا : لقد اقترح علىّ ايفان « أن أهرب » . لن أقصّ عليك التفاصيل : لقد تصورنا كل شيء ، وسيُدبَّر كل شيء . اسكت ، لا تنطق بكلمة . سأسافر الى أمريكا مع جروشنكا . هل أستطيع أن أعيش بدونها ؟ انهم لن يستطيعوا أن يمنعوها من اللحاق بى . هل يزوّجون السجناء ؟ ايفان يؤكد أنهم لا يفعلون . فما عساى أفعل بدون جروشنكا ، تحت الأرض ، في المناجم ، مع المطرقة ؟ ولكن من جهة أخرى هناك الضمير . سأكون قد فررت من الألم . لقد تلقيت اشارة من السماء ، فاذا هربت كنت أتجاهل هذه الاشارة ، وأُعرض عن طريق التطهر الذى فُتح أمامى . ايفان يؤكد أننى سأستطيع أن أصبح فى أمريكا بالارادة الطيبة والعزيمة الصادقة أنفع منى فى المناجم تحت الأرض . طيب ! ولكن أين يصبح النشيد الذى سننشده من تحت الأرض ، اذا أنا سافرت الى أمريكا ؟ أمريكا ... ان أمريكا هى العودة الى هذا العالم الباطل . لا بد أن أمريكا ملأى بأنواع الدناءة . أعتقد أن الأمر هنالك كذلك . هل أفرُّ من التكفير عن ذنوبى ؟ هل أهرب من طريق الصليب ؟ اننى أفضى اليك بما فى نفسى يا ألكسى ، لأنك الانسان الوحيد الذى يستطيع أن يفهمنى . أما الآخرون فان ما قلته لك فى هذه اللحظة ليس فى نظرهم الا حماقة وغباوة وسخفاً . لسوف يظنون أن لوثةً خالطت عقلى فجننت ، أو أننى أبله . لا ، أنا لم أفقد عقلى ، ولا أنا معتوه . ان ايفان يدرك ، هو على الأقل ، ماذا يعنى ذلك النشيد ، ولكنه يجيبنى ، بل يلزم الصمت . انه لا يؤمن بالنشيد . لا تقل شيئاً ! اسكت ! اسكت ! قرأت جوابك فى عينيك . لقد انتهيتَ

الى قرار منذ الآن • لا تعلن هذا القرار ، ارحمنى ، لأننى لا أستطيع أن أحيا بدون جروشنكا • انتظر صدور الحكم !

أنهى ميتيا كلامه منقلبَ السحنة • كان يمسك أليوشا من كتفه بقوة ، ويغرس فى عينى أخيه نظرة ملتهبة مثقلةً بمساءلة قلقة • وعاد يردد مرةً ثالثة قوله :

ـ هل يزوّجون السجناء ؟

أصغى اليه أليوشا بدهشة عميقة ، وأحس باضطراب شديد • وسأله :

ـ قل لى : هل يلح ايفان على مشروع الهرب هذا ؟ ومن ذا الذى فكّر فى هذا المشروع أولَ من فكّر فيه ؟

ـ هو الذى فكّر فيه • وانه ليلح كثيراً • لم يكن قد زارنى قبل ذلك • ثم اذا به يجىء الىّ فجاة منذ اسبوع ، فيأخذ يتحدث فى مشروع الهرب هذا على الفور • انه يلحُّ الحاحاً رهيباً • هو لا يرجونى رجاء ، لا يتوسل الىّ توسلاً ، بل يأمرنى أمراً • انه لا يشك فى أننى سأطيعه ، رغم أننى فتحت له قلبى كما فتحته لك الآن ، وحدثته عن النشيد • شرح لى خطته تفصيلاً • لقد حصل على جميع المعلومات الضرورية • سأبسط لك هذا فيما بعد • انه يلح الحاحاً حانقاً • وهو يعرض علىّ المال خاصة : عشرة آلاف روبل للهرب ، وعشرين ألفا للاستقرار فى أمريكا • يقول اننا نستطيع بالعشرة آلاف روبل أن ننظم أمر الهرب مطمئنين الى النجاح كل الاطمئنان •

سأله أليوشا :

ـ وهل طلب منك أن لا تحدثنى فى هذا الأمر ؟

ـ أمرنى بأن لا أقول كلمة واحدة لأى انسان ، وخاصةً لك

أنت ، خاصةً لك أنت ، بأية حال من الأحوال ! أغلب الظن أنه يخشى أن تعارض هذا المشروع باسم الوجدان الأخلاقي • لا تذكر له أنني أفضيت اليك بهذا السر • لا تقل له كلمةً واحدة في هـــذا الأمر ، أرجوك ، أضرع اليك !

قال أليوشا :

ـ أنت على حق • لا يمكن اتخاذ قرار من هذا النوع قبل صدور الحكم • فمتى أصدرت المحكمة حكمها ، عرفتَ أنت نفسك ما الذي يجب عليك أن تفعله• سيكون قد وُلد فيك انسان جديد ، وهذا الانسان الجديد هو الذي سيقرر •

ـ انسان جديد أو برنارٌ يقرر كما يمكن أن يقرر برنار • لعلني أنا نفسي واحد من أمثال برنار •

بهذا ختم ميتيا كلامه وهو يبتسم ابتسامة مرة • قال أليوشا يسأل أخاه :

ـ أخي ، هل يمكن حقاً أن لا يكون لك أي أمل في تبرئة نفسك؟

فرفع ميتيا كتفيه بحركة متشنجة ، وحرَّك رأسه ، وقال متعجلاً :

ـ أليوشا ، ملاكي ، آن لك أن تنصرف • لقد سمعت الآن صوت المفتش في الفناء ، وسيكون هنا بين لحظة وأخرى • تأخرنا كثيراً ، وهذا يخالف النظام • قبِّلني بسرعة ، وارسم عليَّ اشـــارة الصليب يا ملاكي • ارسم عليَّ اشارة الصليب لنازلة الغد •

تعانق الأخوان وقبل كل منهما الآخر •

قال ميتيا فجأة :

ـ ان ايفان يقترح عليَّ الهرب ، ولكنه مقتنع بأنني القاتل •

وطافت بشفتيه ابتسامة حزينة •

سأله أليوشا :

ـ هل سألته أهو يعتقد أنك القاتل ؟

ـ لا ، لم أسأله عن هذا • أردت أن أسأله ، ولكننى لم أجسر • على أنه لا داعى الى سـؤاله ، لأننى أقرأ رأيه فى عينيـه • والآن استودعك الله !

تعانق الأخـوان وقبّل كل منهما الآخـر مرةً ثانيـة • وأسرع أليوشا ينصرف • ولكن ميتيا ناداه على حين فجأة ، لحظةَ همَّ أن يخرج من الحجرة ، وقال له وهو يمسكه من كتفيه :

ـ أليوشا ، أنعم النظر الى وجهى ، هكذا !•••

كان وجهه قد بلغ من الاصفرار أن منظره يبدو مروّعاً فى الظلام• وتقبضت شفتاه ، وغارت نظرته فى عينى أليوشا :

ـ أليوشا ، قل لى الحقيقة كاملةً كأن الله يسمع كلامك فى هذه اللحظة • أتعتقد أننى قتلت ؟ أتعتقد أنت ، نعم أنت ، أننى قتلت ؟ أريد أن أعرف الحقيقة ، لا تكذب ، لا تكذب •••

كذلك صاح ميتيا خارجاً عن طوره •

فتمتم أليوشا يقول زائغ النظرة :

ـ ما هذا الكلام ؟ ما هذا الكلام ؟ ماذا أصابك ؟•••

فعاد ميتيا يقول مردداً :

ـ قل الحقيقة ، أريد الحقيقة ، لا تكذب •

فهتف أليوشا يقول بصوت متهدج مرتجف :

ـ أنا لم يخطر على بالى لحظة أنك قاتل •

كان الانفعال يخنقه ، ورفع يده اليمنى كمن يريد أن يحلف يميناً • فأشرق فى وجه ميتيا عندئذ تعبير عن سعادة • وقال ببطء كأنه يثوب الى نفسه بعد اغماء :

ـ شكراً ، شكراً • لقد رددت الىّ الحياة • تصور أننى كنت أخشى حتى الآن أن ألقى عليك هذا السؤال • كنت أخاف أن أسألك ، أن أسألك أنت ، أنت خاصة ! امض الآن • انك قد امددتنى بقوى ليوم الغد ، بارك الله فيك ! انصرف الآن • حان أن تنصرف •

وأضاف يقول بغتة :

ـ أحبّ ايفان !

خرج أليوشا والدموع تنهمر من عينيه • ان هذا الشك الذى يعذّب ميتيا ، ان اساءة الظن هذه التى تساور ميتيا ، حتى فيه هو أليوشا ، قد بصّرت أليوشا بهوة اليأس السحيقة التى هوى اليها أخوه الشقى ، والتى لم يكن أليوشا يظنها عميقة هذا العمق كله • وشعر أليوشا من جديد بذلك الألم الحاد الذى يكاد يكون جسمياً ، ذلك الألم الذى شعر به قبل لحظات • وعادت الى ذهنه تلك العبارة التى هتف بها أخوه ميتيا : « أحبّ ايفان » • وكان أليوشا ذاهباً الى ايفان على كل حال ، فلقد كان يحب أن يراه منذ هذا الصباح • ان التفكير فى ايفان يعذبه كما يعذبه التفكير فى ميتيا • والآن ، بعد اجتماعه هذا بأخيه ميتيا ، أصبحت حاجته الى التحدث مع ايفان أقوى منها فى أى وقت مضى •

٥

ما أنت ، ما أنت !

كان على أليوشا ، حتى يذهب الى ايفان ، أن يمر أمام المنزل الذى تسكنه كاترين ايفانوفنا • ان نوافذ شقة السيدة الشابة مضاءة• توقف أليوشا أمام المدخل وقرر أن يصعد • انه لم ير كاترين ايفانوفنا منذ أكثر من أسبوع ، وخطر على باله فجأة أن ايفان يمكن أن يكون عندها الآن ، ولا سيما فى عشية يوم حاسم كيوم الغد• فبينما هو يصعد السلَّم الذى يضيئه مصباح صينى بنور ضعيف ، إذ هو يلمح رجلاً يهبط السلَّم ، فما ان وصل هذا الرجل اليه حتى عرف أنه أخوه• اذن لقد كان ايفان عند المرأة الشابة ثم هو تركها فى هذه اللحظة•

قال ايفان فيدوروفتش بلهجة جافة خشنة :

ـ آ ••• أهـذا أنت اذن ؟ طاب يومك ، والى اللقـاء • أأنت ذاهب اليها ؟

ـ نعم •

ـ لا أنصحك بذلك ، لأنها مضطربة اليوم اضطراباً شديداً ، ولن تستطيع زيارتك الا أن تفاقم اضطرابها •

صاح صوت يقول من أعلى ، من خلال بابٍ فُتح على حين فجأة :

ـ بل اصعد ، اصعد . أأنت آت من عنده يا ألكسى فيدوروفتش ؟

ـ نعم ، رأيته منذ برهة .

ـ هل حمّلك رسالة الىّ ؟ ادخل يا أليوشا . وأنت أيضاً يا ايفان ، تعال ، آمرك بهذا ... هل سمعت ؟

كان صوت كاترين ايفانوفنا يبلغ فى تلك اللحظة من صرامة الأمر أن ايفان فيدوروفتش قرر بعد بضع لحظات من تردد ، أن يصعد ثانيةً فى صحبة أليوشا .

ودمدم يقول بينه وبين نفسه حانقاً :

ـ لقد تجسست علينا .

ولكن أليوشا سمع دمدمته .

قال ايفان فيدوروفتش وهو يدخل الصالون :

ـ اسمحى لى أن لا أخلع معطفى . ثم اننى لن أجلس ، لأننى لا أنوى أن أمكث أكثر من دقيقة واحدة .

قالت كاترين ايفانوفنا :

ـ اجلس يا ألكسى فيدوروفتش .

وظلت هى نفسها واقفة .

انها لم تتغير كثيراً منذ شهرين ، ولكن وميضاً خبيثاً يسطع الآن فى عينيها القاتمتين . سوف يتذكر أليوشا فيما بعد أنها بدت له فى تلك اللحظة جميلة جمالاً خاصاً .

ـ ما الذى كلفك بأن تقوله لى ؟

قال أليوشا وهو يحدّق الى عينيها :

ـ كلفنى بأن أقول لك شيئاً واحداً • انه يرجوك أن تراعى نفسك ، وأن لا تذكرى أمام المحكمة (وهنا اضطرب قليلاً) ••• أن لا تذكرى أمام المحكمة ••• ما جرى بينكما ••• أثناء أول لقاء ••• فى تلك المدينة الصغيرة ••• مدينة المعسكر •••

قاطعته كاترين ايفانوفنا وهى تضحك ضحكة مرة :

ـ آ ••• يقصد تلك التحية الساجدة وذلك المال ؟ أهو خائف على نفسه أم علىّ ؟ قل لى ! من ذا أراعى فى هذا الأمر ؟ أأراعى نفسى أم أراعيه هو ؟ تكلم يا الكسى فيدوروفتش !

كان أليوشا يتفرس فيها بانتباه ويحاول أن يحزر ما يدور فى فكرها •

قال بصوت رقيق عذب :

ـ هو يرجوك أن تراعى نفسك وأن تراعيه أيضاً •

فقالت بلهجة مسعورة وهى تحمر احمراراً شديداً على الفور :

ـ هكذا •

ثم أضافت تقول بصوت يداخله تهديد غامض :

ـ انك لا تعرفنى بعد يا ألكسى فيدوروفتش ! وربما كنت لا أعرف نفسى أنا أيضاً • من يدرى ؟ قد تتمنى أن تسحقنى سحقاً فى الغد بعد ادلائى بشهادتى أمام المحكمة •

قال أليوشا :

ـ قولى ما يمليه عليك الشرف • لا حاجة الى أكثر من ذلك •

فأجابت بقسوة :

ـ ليست المرأة شريفة دائماً • لقد كنت أتخيل منذ أقل من ساعة أنني سأتقزز من الكلام عن هذا المسخ ، عن هذا الشخص الكريه ••• ولكن لا ! انه ما يزال في نظري انساناً •

ثم هتفت تسأل على حين فجأة بصوت تمازجه هستريا وهي تلتفت بغتةً نحو ايفان فيدوروفتش :

ـ ولكن هل مؤكدٌ أنه قتل ؟ أهو هو القاتل ؟

سرعان ما أدرك أليوشا أنها سبق أن ألقت هذا السؤال على ايفان منذ دقائق قليلة قبل وصوله ، وأن المناقشة التي دارت حول هذه النقطة، للمرة المائة في أغلب الظن ، قد انتهت بمشاجرة •

وتابعت تقول مخاطبةً ايفان أيضاً بصيغة المفرد :

ـ لقد ذهبتُ الى سمردياكوف ••• أنت أوهمتني أن ميتيا قتل أباه ! بسببك انما صدقت أنا ذلك •

ضحك ايفان ضحكةً حمل نفسه عليها حملاً • وقد ارتعش أليوشا حين سمع هذه المخاطبة بصيغة المفرد • لقد كان لا يتصور أن العلاقة بينهما حميمة الى هذا الحد •

قال ايفان بجفاف وخشونة :

ـ كفى هذا اليوم • أنا ذاهب • سأرجع غداً •

ودار على عقبيه فجأة ، وخرج من البيت • فأسرعت كاترين ايفانوفنا تمسك يدي أليوشا وتقول له بحركة آمرة ودمدمة متعجلة :

ـ اتبعه ، أدركه ! لا تدعه وحده لحظةً واحدة • انه مجنون •

ألا تدرى أنه فقد عقله ؟ لقد أصيب بحمى حارة ، صدقنى ! طبيبى هو الذى قال لى ذلك . هيّا ، اسرع ! أركض لتدركه ...

وثب أليوشا من مكانه واندفع فى اثر ايفان فيدوروفتش . لم يكن ايفان قد ابتعد أكثر من خمسين خطوة .

ـ ماذا تريد منى ؟

كذلك هتف يقـول ايفان ملتفتاً فجـأة الى وراء منذ لمح أن أخاه يريد اللحاق به . وتابع كلامه يقول بلهجة حانقة :

ـ لا شك أنها أمرتك بأن تتبعنى لاننى مجنون ، أليس كذلك ؟ لقد حفظتُ هذه القصة على ظهر القلب .

ـ واضح أنها مخطئة فى هذا . ولكنها على حق حين تقـول انك مريض . لقد تفرستُ فى وجهك منذ قليل ، فلاحظت أنك مريض ، مريض جداً ، يا ايفان !

كان ايفان يسير دون أن يتوقف ، وكان أليوشا يتبعه .

سأله ايفان بصـوت أصبح هادئاً على حين فجأة ، وزايله كل أثر من آثار الحنق :

ـ هل تعرف يا ألكسى فيدوروفتش كيف يصبح المرء مجنوناً ؟

وكان يبدو على ايفان أن نوعاً طيباً كريماً من حب الاستطلاع هو الذى يحرك نفسه الآن .

أجابه أليوشا قائلاً :

ـ لا ، لا أعرف . ولكن يخيّل الىّ أن الجنون أشكال شتى .

ـ هل تعتقد أن فى وسع المرء أن يدرك هو نفسه أنه قد جُنّ ؟

فأجاب أليوشا مدهوشاً بعض الدهشة :

ـ أحسب أن المرء لا يقدر فى مثل هذه الحالة أن يلاحظ نفسه •

صمت ايفان نصف دقيقة • ثم قال فجأة :

ـ اذا كنت تحب أن تكلمنى فأرجوك أن تغير موضوع الحديث •

فقال أليوشا فى خجل :

ـ صحيح • كدت أنسى • معى رسالة لك •

وأخرج من جيبه رسالة ليزا ومدّها الى أخيه •••

كانا فى تلك اللحظة قريبين من أحد مصابيح الشـارع ، فسرعان ما عرف ايفان خط صاحبة الرسالة •

قال وهو يضحك ضحكة خبيثة :

ـ ها ••• رسالة من تلك الشيطانة الصغيرة •

ثم مزق الرسالة قطعاً ورماها في الهـواء دون أن يفض الظرف ، فتناثرت أجزاؤها • وقال بلهجة احتقار وهو يتابع سيره :

ـ لم تبلغ السادسة عشرة ثم هى تعرض نفسها •

فهتف أليوشا قائلاً :

ـ كيف هذا ؟

ـ كيف ؟ كأية امرأة فاسقة •

فقال أليوشا يحتج فى ألم :

ـ ما هذا الذى تقوله يا ايفان ؟ انها طفلة ! أنت تهين طفلة • هى مريضة ، مريضة جداً • لعلها جُنَّت هى أيضاً ••• ما كان يمكننى أن أرفض حمل رسالتها اليك ••• وكنت أحب أن أعرف جلية الأمر منك أنت ••• حتى يمكن انقاذها •

ـ لن تعلم منى شيئاً • اذا كانت هى طفلة فلست أنا حاضنتها •
اســكت يا ألكسيى • كفى ! اننى لا أفكر فيها ، حتى ولا تخطر على
بالى •

وصمتا كلاهما بضع لحظات • ثم قال ايفـان فجأة بصـوت حانق
قاطع :

ـ سوف تقضى الليـل كله مصلية مبتهلة الى السيدة العـذراء أن
تلهمها الصواب وأن تدلها على ما يجب أن تقوله غداً فى المحكمة •

ـ هل تقصد ••• كاترين ايفانوفنا ؟

ـ نعم ••• انها تتساءل هل يجب عليها أن تنقذ ميتيا أو أن تضيعه •
سوف تصلى من أجل أن تهتدى الى الرأى السديد • انها لا تعرف هى
نفسها حتى الآن ما الذى ستقوله ، لأن وقتها لم يتســع بعد لأن تتهيأ
للأمر • هى أيضاً تعدنى حاضنة لها ، وتريد لى أن أهدهدها !

قال أليوشا بحزن :

ـ كاترين ايفانوفنا تحبك يا أخى •

ـ جائز • ولكن هذا لا يعنينى •

ـ انها تتألم • لماذا قلت لها اذن ••• فى بعض المرات ••• كلاماً
يمكن أن يبعث فى نفسها أملاً ؟ أنا أعرف فعلاً أنك قد أتحت لها أن
تأمل •

كذلك قال أليوشا بصوت فيه شىء من لوم خجل • وأضاف :

ـ سامحنى اذا قلت لك هذا الكلام !

فقال ايفان متضايقاً منزعجاً :

ـ لا أستطع أن أتصرف كما ينبغي أن أتصرف ، أى أن أقطع صلتي بها وأن أقول لها الحقيقة بقسوة • يجب انتظار صدور الحكم على القاتل أولاً • لو تركتها الآن لضيعت ذلك المسكين مدفوعة بروح الانتقام • ذلك أنها تكرهه ، وهى تعلم أنها تكرهه • كل شيء هنا كذب• ليس بها أى صدق ! هى الآن ، والى أن أقطع صلتي بها ، ستظل تأمل ، وستمتنع لهذا السبب عن تضييع ذلك الشيطان ، لعلمها بانني أحاول أن أخرجه من المأزق • فمتى يصدر ذلك الحكم اللعين ؟

لقد ترجّعت كلمتا « القاتل » و « الشيطان » فى قلب أليوشا ترجعاً أليماً موجعاً •

وسأل أليوشا أخاه مفكراً محاولاً أن ينفذ الى معنى أقوال ايفان :

ـ كيف يكون فى وسعها أن تضيّع أخانا ؟ ما هى الأشياء التى يمكن أن تقولها فى شهادتها فتنزل بدمترى كارثة ؟

ـ أنت تجهل هذا حتى الآن • انها تملك ورقة مكتوبة بخط دمترى نفسه ، ورقة تثبت اثباتاً قاطعاً أنه قاتل فيدور بافلوفتش •

صاح أليوشا يقول :

ـ مستحيل !

ـ لماذا ؟ لقد قرأت الورقة بنفسى •

أجاب أليوشا بقوة :

ـ لا يمكن أن يكون هناك ورقة من هذا النوع • ذلك مستحيل استحالة مطلقة ، لأن دمترى لم يقتل • ليس هو قاتل أبينا ، ليس هو قاتله •••

توقف ايفان فيدوروفنش عن المشى • وسأل أخاه بلهجة فيها شىء من الاستعلاء :

ـ فمن عسى يكون القاتل فى رأيك ؟

قال أليوشا بصوت خافت نافذ :

ـ من ؟ أنت تعرفه •

ـ ماذا ؟ أيظل يتصور ذلك الاتهام الغبى لرجل أبله مصاب بالصرع ؟ أتقصد سمردياكوف ؟

شعر أليوشا برعدة تهز جسمه كله • وقال :

ـ أنت تعلم حق العلم أنه هو القاتل •

أفلتت منه هذه الكلمات كأنما على غير ارادة ، وكان يختنق اختناقاً.

فقال ايفان يصرخ فى هذه المرة صراخاً وقد ألمّ به ما يشبه أن يكون غضباً مسعوراً :

ـ من تعنى ؟ من تعنى ؟ تكلم !

لقد فقد ايفان كل سيطرة له على نفسه •

عاد أليوشا يقول بهمس مختنق :

ـ أنا لا أعرف الا شيئاً واحداً هو أن قاتل أبينا ليس أنت • لا ••• ما أنت ، ما أنت !•••

سأله ايفان مذهولاً :

ـ « ما أنت » ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

فكرر أليوشا قوله :

ـ ما أنت قاتل أبينا ، ما أنت !

وخيم الصمت لحظة • ثم قال ايفان وهو يبتسم ابتسامة لا يكاد يكون فيها من التبسم الا انفراج الشفتين :

ـ أعلمُ أن القاتل ليس أنا طبعاً •

وغرس نظراته في عيني أليوشا • وكان الأخوان قد وصلا الى أحد مصابيح الشارع من جديد •

ـ اسمع يا ايفان : لقد اتهمت نفسك بنفسك غير مرة ، اتهمت نفسك بأنك أنت القاتل •

تمتم ايفان يقول زائغ النظرة تائه الهيئة :

ـ متى قلت أنا هذا ؟ متى ؟ لقد كنت بموسكو في ذلك الأوان • متى قلت أنا هذا الكلام ؟

ـ قلته لنفسك مراراً في الساعات التي خلوت فيها الى ضميرك أثناء الشهرين الرهيبين •

كذلك قال أليوشا متابعاً كلامه بصوت خافت ، ولكنه كان ينطق كل كلمة من كلماته واضحة • كان يتكلم كمن تدفعه الى الكلام قوة لا تغالب ، قوة غريبة عن ارادته ان صح التعبير :

ـ اتهمت نفسك مراراً كثيرة قائلاً ان القاتل الحقيقي هو أنت • ولكنك لست القاتل يا ايفان • أنت مخطيء • لست أنت القاتل • هل تسمعني ؟ ما أنت ، ما أنت ! الله قد أرسلني لأقول لك هذا •

سكت الأخوان • وامتد صمت ثقيل خلال دقيقة كاملة • ان كلاً منهما يحدّق الى عيني أخيه منكفيء اللون شاحب الوجه • وفجأةً أخذت اعضاء ايفان كلها ترتعش ، وأمسك أليوشا من كتفه ، ودمدم يقول كازاً أسنانه :

ـ جئت الى بيتى اذن فى السر ، فى الخفاء ... جئت ليلاً بينما كان هو عندى ، هو ... هيّا اعترف ! رأيتَه ، رأيته ، أليس كذلك ؟

سأله أليوشا مذهولاً :

ـ من تعنى ؟ أتعنى ميتيا ؟

زأر ايفان يقول خارجاً عن طوره :

ـ لا ، لا ميتيا . شيطان يأخذ ميتيا . قل : من أين عرفت «أنه» جاء الىّ ؟ كيف علمت بذلك ؟ تكلم !

قال أليوشا مروّعاً مذعوراً :

ـ من تقصد ؟ من ذا الذى تعنيــه بقــولك انه جاء اليك ؟ من هو هذا ؟ اننى لا أعرف من الذى تشير اليه بهذا الكلام .

ـ بل تعرف ، تعرف ... ولولا ذلك ما استطعت أن .. يستحيل أن لا تكون عارفاً بالأمر ...

وسكت ايفان فجأة فى وسط الجملة ، وأمسك عن الكلام . بدا أنه يفكر فى شيء ما . وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة .

عاد أليوشا يقول بصوت مختلج :

ـ أخى ، أنا قلت لك ما قلت لأنك تصدقنى دائماً . قلت لك ماقلت لتتذكر قولى الى الأبد : لست أنت القاتل . تذكر هذا طوال حياتك ، هل تسمع ؟ لقد أمرنى الله بأن أقول لك هذا الكلام ، ولو جعلك ذلك تكرهنى بعد اليوم ...

ولكن ايفان فيدوروفتش كان قد استرد سيطرته على نفسه وتحكمه بسلوكه . فبدأ يقول بسخرية باردة :

ـ اسمع يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا لا أطيق الأنبيــاء ولا المرضى

بداء الصرع . أما الذين يرسلهم الرب فأنا أكرههم كرهاً خاصاً وأمقتهم مقتاً شـديداً ... تعلم ذلك حق العلم . انني أقطع منذ الآن كل علاقة لى بك ، أقطع كل علاقة لى بك الى الأبد فيما يخيّل الىّ . أرجوك أن تتركنى فوراً ، عند هذا المفترق . وليس لك على كل حال الا أن تمضى فى هذا الشارع الصغير الذى يفضى بك الى مسكنك . وحاذر خاصة أن تجىء الىّ اليوم . هل سمعت ؟

ودار على عقبيه ، وابتعد بخطى ثابتة دون أن ينظر الى وراء .

صاح أليوشا يقول له :

ـ أخى ، اذا حدث لك شىء فى النهار ، فاذكرنى أنا قبل كل شىء !...

لم يجب ايفان . وانتظر أليوشا ، عند مفترق الطرق ، قرب المصباح ، غياب شبح أخيه فى الظلام . وعندئذ ابتعد هو أيضاً يتجه الى مسكنه بخطى بطيئة . كان الأخوان يسكنان منفصلين فى منزلين مختلفين . لم يشأ أحد منهما أن يقيم فى المنزل الخالى الذى خلفه فيدور بافلوفتش. كان أليوشا يسكن فى غرفة مؤثثة عند أسرة من صغار سكان المدينة . وكان ايفان يقيم فى شقة واسعة بعيدة عن مسكن أخيه استأجرها من دار امرأة ثرية هى أرملة أحد الموظفين . لم يكن يخدمه هنالك الا عجوز صغيرة صماء مصابة بالروماتزم ترقد كل يوم فى الساعة السادسة من المساء ، وتنهض من نومها كل يوم فى الساعة السادسة من الصباح . ولكن ايفان كان قد أصبح قليل المطالب فى شئون الخدمة أثناء هذين الشهرين الأخيرين ، وأصبح يميل الى الوحدة والاعتزال فى بيته ، ويحلو له أن يتولى بنفسه ترتيب الغرفة التى ينام فيها ، ولا يدخل سائر غرف شقته الا نادراً . فلما وصل الى باب منزله وضع يده على الجرس

ولكنه أمسك عن قرعه فجأة • كان ما يزال يشعر بغضب شديد يُرعش جسمه كله • فما هى الا لحظة حتى أرخى الجرس وبصق على الأرض اشمئزازاً ، واستدار على عقبيه ، ومضى يتجه بخطى سريعة نحو الطرف الآخر من المدينة ، وذهب الى منزل صغير من خشب ، يوشك أن يكون متداعياً ويقع على بعد فرسخين ، وهو منزل تسكنه ماريا كوندراتيفنا ، تلك المرأة التى كانت فى الماضى جارة فيدور بافلوفتش وكانت تلتمس من مطبخ فيدور بافلوفتش شيئاً من حساء ، وكان سمردياكوف ينشدها أغانيه عازفاً على القيثارة • لقد باعت هذه المرأة دارها الصغير التى كانت تقطنها فى الماضى ، وأصبحت تساكن الآن أمها فى كوخ حقير ، وقد أقام سمردياكوف عندها منذ موت فيدور بافلوفتش ، مريضاً يشبه أن يكون محتضراً • فالى عند سمردياكوف انما كان يتجه الآن ايفان فيدوروفتش ، تدفعه الى ذلك فكرة مباغتة قاهرة •

٦

أول اجتماع بسمردياكوف

هذه ثالث مرة يزور فيها ايفان الخادم سمردياكوف، بعد عودته من موسكو ، ليتحدث معه • كان قد اجتمع به مرةً أولى بعد وقوع الكارثة فوراً ، يومَ وصوله من موسكو ، وزاره مرة ثانية بعد ذلك بأسبوعين ؛ ثم انقطع عنه بعد تلك المقابلة الثانية ، ولم يكد يسمع عنه شيئاً منذ شهر • ان ايفان فيدوروفتش لم يرجع من موسكو الا بعد موت أبيه بخمسة أيام ، وكان أبوه قد دُفن عشية رجوعه هو من موسكو • ويرجع سبب هذا التأخر الى أن أليوشا كان لا يعرف عنوان أخيه بموسكو فرجا كاترين ايفانوفنا أن تتولى ابلاغه نبأ الوفاة ببرقية ؛ وكانت المرأة الشابة تجهل هى أيضاً أين كان عنوان ايفان على وجه الدقة ، فأبرقت الى عمتها والى أختها وفى تقديرها ان ايفان فيدوروفتش سيزورهما منذ يصل الى موسكو • وقد حدث أن ايفان لم يزرهما الا فى اليوم الرابع ، فلما قرأ البرقية أسرع يعود الى مدينتنا • وكان أليوشا أول شخص تحدث معه ايفان عن الفاجعة ، فما كان أشد دهشته حين لاحظ أن أخاه أليوشا يرفض رفضاً مطلقاً أن يشتبه فى دمترى ، وانما يتهم سمردياكوف اتهاماً قاطعاً جازماً بأنه هو القاتل ، على خلاف الرأى الذى أجمع عليه الناس فى مدينتنا• فلما تحدث ايفان بعد ذلك مع رئيس

الشرطة ووكيل النيابة واطلع على تفاصيل الاتهام والتحقيق ، ازدادت دهشته من موقف أليوشا ، فنسب هذا الموقف الى عاطفة الأخوة القوية ، والى العطف والشفقة على شقى مسكين ، ذلك أن ايفان كان لا يجهل فى الواقع ان أليوشا يحب دمترى كثيراً • ولنقل فى هذه المناسبة بضع كلمات عن عواطف ايفان نحو أخيه دمترى فيدوروفتش : لقد كان ايفان يكره أخاه دمترى كرهاً حقيقياً ، ولا يشعر نحوه بنوع من شفقة غامضة الا فى القليل النادر ، وهى شفقة ترتبط باحتقار عميق يبلغ حد الاشمئزاز • لقد شعر ايفان دائماً بنفور من ميتيا ، وكان ينفر حتى من شكله ، ويسوءه ما تحمله كاترين ايفانوفنا لهذا الشاب من حب • وقد زار ميتيا فى السجن يوم وصوله نفسه ، فلم تضعف هذه الزيارة اقتناعه بأن ميتيا هو القاتل ، بل عززت هذا الاقتناع ورسختته • لقد وجد أخاه فريسة اضطراب كبير وجيشان مرضى • كان ميتيا يتكلم كثيراً ، مع بقائه ذاهلاً حائراً مشوشاً ، وكان يعبّر عما بنفسه بجمل مفككة وعبارات مقطعة • كان يتهم سمردياكوف ، وما ينفك يخبط فى كلامه خبط عشواء ، عائداً على حين فجأة الى مسألة الثلاثة آلاف روبل التى « سرقها » منه المتوفى ، قائلاً من حين الى حين : « كان هذا المال مالى أنا ، هَبْنى سرقته فلا جناح علىّ » • أما القرائن التى تشهد عليه وتعزز اتهامه فهو لا يكاد يدحضها ، حتى اذا عرض الوقائع التى كان يرى أنها دليل على براءته ، اضطرب كلامه واختلطت الأمور فى حديثه بكثير من الخرافة ، وكأنه كان لا يحب أن يبرىء نفسه فى نظر أخيه أو فى نظر أى انسان آخر ؟ فهو يغضب ويثور ، ويحتقر الاتهامات مستعلياً ، ويرد عليها بمسبات وشتائم ، ويتهكم باحتقار على شهادة جريجورى بشأن الباب المفتوح ، مؤكداً أن « الشيطان هو الذى كان قد فتح الباب » ، دون أن يحاول البحث عن أى تعليل ممكن لهذه الواقعة • حتى لقد وجد السبيل ، أثناء هذا الاجتماع

الأول بأخيه ايفان فيدوروفتش ، الى أن يهينه ويجرح شعوره ، مردداً في جفاء وخشونة أن الذين يدعون « أن كل شيء مباح » ليس من حقهم أن يشتبهوا فيه وأن يستجوبوه • وجملة القول أنه لم يظهر لايفان شيئاً من مودة ، بل خاشنه وأغلظ له القول • وبعد هذا الاجتماع فوراً انما ذهب ايفان فيدوروفتش الى سمردياكوف •

كان ايفان ، حين غادر موسكو ، قد فكر في سمردياكوف طويلاً في القطار ، وفكّر في الحديث الذى جرى بينه وبينه عشية رحيله • ان عدداً من التفاصيل كان يوقظ في نفسه الشبهات ويقلقه اقلاقاً شديداً . ولكن ايفان ، أثناء الشهادة التى أدلى بها أمام قاضى التحقيق ، قد آثر أن يسكت مؤقتاً عن ذلك الحديث الذى كان قد جرى بينه وبين سمردياكوف . كان ايفان يريد أن يتحدث بنفسه أولاً مع سمردياكوف . وكان سمردياكوف يومئذ في مستشفى المدينة • وقد صرّح الدكتور هرتسنشتوبه لايفان ، وكذلك الطبيب فارفنسكى الذى لقيه ايفان في المستشفى ، صرّحا له جازمين قاطعين أن نوبة الصرع التى أصيب بها سمردياكوف كانت واقعية تماماً ، حتى لقد استغربا هذا السؤال : « ألا يمكن أن يكون سمردياكوف قد تظاهر بالمرض تظاهراً يوم وقوع حادثة القتل؟ » • وقد أفهما ايفان أن نوبة الصرع التى ألمت بسمردياكوف في هذه المرة كانت خطيرة خطورة خاصة شديدة ، لأنها امتدت عدة أيام ، وتكررت مرات كثيرة ، حتى كادت تودى بحياته ؛ وبفضل الاسعافات التى استطاعا أن يقدماها والاجراءات التى عمدا الى اتخاذها انما أصبح من الممكن أن يقال الآن ان المريض لن يموت من هذه النوبة الرهيبة التى ألمت به • وأضاف الدكتور هرتسنشتوبه قوله : « على أن قواه العقلية ستظل مضطربة بعض الاضطراب مدى الحياة أو زمناً طويلاً على الأقل » • واذ كان ايفان يسأل بشيء من نفاد الصبر

« هل يجب أن يعد الخادم مجنوناً » ، فقد أجيب بأنه ليس مجنوناً كل الجنون ، وانما لوحظت فيه أنواع من الشذوذ • فقرر ايفان أن يتحقق بنفسه من طبيعة هذه الاضطرابات على وجه الدقة • وقد سمحوا له بأن يقترب من المريض دون عراقيل •

كان سمردياكوف راقداً على سريره في حجرة ذات سريرين • أما السرير الثاني فكان يشغله رجل من سكان المدينة كان مصاباً بمرض الاستسقاء ، وكان قد بلغ درجة قصوى من الضعف ، فلن يعيش أكثر من يوم آخر أو يومين آخرين ، فلا يمكن أن يكون وجوده في الغرفة حائلاً دون الحديث •

ابتسم سمردياكوف ابتســامة حذرة مرتابة حين رأى ايفــان فيدوروفتش حتى لقد ظهر عليه في أول الأمر شيء من الوجل ؟ أو هذا ما شعر به ايفان على الأقل • ولكن ذلك الوجل سرعان ما تبدد ، حتى لقد دُهش ايفان من هدوء سمردياكوف بعد ذلك • واستطاع ايفان مع هذا أن يقتنع من أول نظرة ألقاها على المريض أن حالته خطيرة حقاً • لقد كان سمردياكوف ضعيفاً أشد الضعف ، وكان يتكلم ببطء كأنه يجد عناءً في تحريك لسانه ، وكان قد هزل جسمه هزالاً بالغاً ، واصـفر لونه اصفراراً شديداً • ولم ينقطع سمردياكوف خلال الدقائق العشرين التي استغرقتها الزيارة عن الشكوى من آلام في رأسه وأوجاع في جميع أعضاء جسمه • وكان وجهه الجاف الذي يشبه وجوه الخصيان يبدو أنه قد ضؤل وصغر ، وكان الشعر على صدغيه مبعثراً متشعثاً ، ولم يبق من ذؤابته الا خصلة متناثرة في قمة الرأس • ولكن عينه اليسرى ذات الجفن المتغضّن قليــلاً ، والتي تغمز من حين الى حين لتوحي بمعان ماكرة ، تشهد بأن سمردياكوف ما يزال سمردياكوف • وتذكر ايفــان جملته

التي سبق أن قالها له ذات يوم : « يحلو للمرء احيـــاناً أن يتحـدث مع انسان ذكي » •

جلس ايفـــان على اسكملة من جهـــة قدمي المريض • فانقلب سمردياكوف على فراشه متألماً ، ولكنه ظل صامتاً لا يتكلم ، كأنه لا يريد أن يكون البادىء بالكلام • ولم يكن في نظرته شيء يدل على الاستطلاع• سأله ايفان :

ـ هل تستطيع أن تتحدث معي ؟ ألا يتعبك ذلك ؟

فتمتم سمردياكوف يقول بصوت واهن :

ـ طبعاً أستطيع أن أتكلم •

ثم أضاف يسأله متلطفاً كأنما ليشجع زائره المرتبك :

ـ هل وصلت منذ مدة طويلة ؟

ـ وصلت اليوم ••• جئت لأجلو الموقف •

تنهد سمردياكوف • فأسرع ايفان يسأله فجأة :

ـ لماذا تتنهد وقد كنت على علم بالأمر •

صمت سمردياكوف لحظة دون أن يدع لنفسه أن يهتز أو يتأثر • ثم قال :

ـ كيف كان يمكن أن لا أعلم ؟ لقد كان سهلاً حزر ما سيقع • ولكنني لم أكن أستطيع أن أتنبأ كيف سينتهي الأمر •

ـ تتنبأ بماذا ؟ لا تتهرب من الكلام باللف والدوران ••• ألم تتنبأ بأنك ستصاب بنوبة صرع حين ستنزل الى القبو ؟ لقد حرصت على أن تحدد أن ذلك سيقع لك أثناء نزولك الى القبو !

سأله سمردياكوف بهدوء :

ـ هل ذكرت هذا فى الشهادة التى أدليت بها ؟

غضب ايفان فيدوروفتش وأجابه بقوله :

ـ لم أذكره بعد ، ولكننى سأذكره حتماً . هناك نقاط كثيرة عليك أن توضّحها لى ، واعلم اننى لن أسمح لك بأن تمثل دور الماكر المخاتل معى !

ـ علام أمثّل دور الماكر ما دام أملى كله معقـــوداً عليك ، وعلى الرب !

كذلك قال سمردياكوف بذلك الهدوء نفسه ، مكتفياً باغمـــاض عينيه لحظة .

بدأ ايفان يقول :

ـ أولاً ، أنا أعلم حق العلم أن من المستحيل التنبؤ بنوبة صرع . لقد سألت عن هذا الأمر ، فعلمت علم اليقين أن ذلك مستحيل ، لذلك أنصحك بأن لا تراوغ . يستحيل على المرء أن يتنبأ باليوم والساعة التى يُصاب بها بنوبة من هذا النوع . فكيف أمكنك اذن أن تحدّد لى سلفاً الساعة واليوم اللذين ستوافيك فيهما هذه النوبة ، وكيف أمكنك فوق هذا أن تعيّن المكان الذى ستصاب فيه بهذه النوبة فتقول انه القبو ؟ كيف كان يمكنك أن تتنبأ بأن نوبة الصرع ستلم بك فى القبو ، اذا لم تكن قد اصطنعتها اصطناعاً ، وتظاهرت بها تظاهراً ؟

أجاب سمردياكوف يقول دون تعجل ، جاراً كلماته جراً :

ـ كان علىّ أن أنزل الى القبو فى كل حال ، بل كان علىّ أن أنزل اليه عدة مرات فى اليوم . وفى ظروف كهذه الظروف انما سقطت من الشونة فى العام الماضى . صحيح أن المرء لا يســـتطيع أن يتنبأ باليوم

والساعة التى توافيه فيها نوبة صرع ، ولكنه يستطيع أن يحس ذلك وأن يوجسه •

ــ نعم ، ولكنك تنبأت باليوم والساعة •

ــ خير لك ، ياسيدى ، فيما يتعلق بمرضى ، أن تسأل أطباء هذا المستشفى • سلهم عن نوبة الصرع أكانت مصطنعة أم لا ! أما أنا فلا أرى أن عليّ أن أزيد على ما قلت شيئاً •

ــ والقبو ، القبو ؟ كيف علمت أن هذا سيقع لك فى القبو ؟

ــ لا يقلقنْك أمر القبو ! المسألة بسيطة : حين كنت نازلاً الى القبو ألمّ بى ذعر وخوف وقلق ، ألمّ بى ذعر خاصةّ ، لأنك كنت غائباً فلم يبق لى أحد يحمينى • نزلت الى ذلك القبو وأنا أقول لنفسى : « الآن ستجيئنى النوبة ، الآن ! ••• هل سأقع ؟ هل سأسقط ؟ » وبسبب ذلك القلق الذى شعرت به عندئذ انما أحسست فجأة بذلك التشنج اللعين فى حلقى ، بذلك التشنج الذى لا حيلة لى فى دفعه ••• ثم ترنحت ••• وتدحرجت ! ••• هذه التفاصيل كلها ، وذلك الحديث الذى جرى بينى وبينك قبل الحادث بيوم أمام المنزل ، حين أطلعتك على مخاوفى وقلقى بشأن القبو ، ذلك كله قصصته بأمانة على الدكتور هرتسنشتوبه ، وعلى قاضى التحقيق نيقولا بارفينوفتش ، فسجّلا جميع تصريحاتى فى المحضر • أما الدكتور فارفنسكى فقد ألحّ عندئذ على أن الأمور لابد أن تكون قد جرت هذا المجرى ، وعلى أن نوبة الصرع التى أصابتنى انما كان مردُّها حتماً الى خوفى منها ، وتوقعى لها : « أسوف أسقط أم سوف لا أسقط ؟ » ، فاذا بالنوبة توافينى فى تلك اللحظة بعينها• ذلك ما دوّنوه فى المحضر ، وأضافوا اليه أن الأمور لابد أن تكون قد جرت على هذا النحو نتيجةً للخوف الذى هجس فى نفسى •

قدم سمردياكوف هذه الايضاحات ثم تنفس تنفساً عميقاً شاقاً ، كأنه يحس بأنه محطم من فرط التعب والعناء •

سأله ايفان فيدوروفتش مبلبلاً بعض البلبلة :

ــ أأنت ذكرت هذه التفاصيل اذن في شهادتك ؟

ذلك أن ايفان كان ينوى أن يخيف الخادم بتهديده بافشاء أمر الحديث الذى جرى بينهما عشية الجريمة ، فاذا هو يعلم الآن أن الرجل قد سبقه من تلقاء نفسه الى ذكر جميع التفاصيل •

وقال سمردياكوف بصوت صار ثابتاً على حين فجأة :

ــ ماذا كنت أخشى ؟ بالعكس : اننى أحرص على أن تُسَجَّل الحقيقة كلها فى المحضر •

ــ هل ذكرت الحديث الذى جرى بيننا كلمة كلمة ؟

ــ لا ، لم أذكره كلمة كلمة •

ــ هل قلت لهم أيضاً انك تجيد التظاهر بنوبات الصرع كما تباهيت بذلك أمامى ؟

ــ لا ، لم أقل لهم ذلك •

ــ قل لى الآن لماذا كنت حريصاً ذلك الحرص كله على أن أسافر الى تشرماشنايا ؟

ــ كنت اخشى أن تسافر الى موسكو • ان تشرماشنايا أقل بعداً من موسكو على كل حال •

ــ كاذب ! كنت تريد أن أبتعد عن هنا • « سافر ، أهرب من الاثم » • ذلك ما كنت تقوله لى •

ـ لئن أسديت اليك هذه النصيحة ، فانما فعلت ذلك من باب الصداقة لك ، والاخلاص لشخصك ، لأننى كنت أتوقع النازلة التى كانت ستحل بهذه الدار ، فكنت أشفق عليك وأرثى لك. غير أن اهتمامى بسلامتى غلب علىّ ، فقلت لك « اهرب من الاثم » ، وذلك لأفهمك أن شراً يتربص بالدار ، فأحملك على البقاء هنا لتحمى أباك .

هتف ايفان يقول غاضباً على حين فجأة :

ـ كان عليك أن تقول لى ذلك ببساطة دون لف ودوران !

ـ كيف كان يمكننى أن أكلمك بصراحة ؟ كان الخوف قد شلّنى شلاً ، وكنت أخشى فوق ذلك أن أُغضبك . صحيح أن هناك ما كان يحملنى على أن أخاف أن يرتكب دمترى فيدوروفتش حماقة ما ، وأن يستولى على ذلك المبلغ لأنه كان يعده ملكاً له ، ولكن كيف كان فى وسعى أن أتنبأ بأن الأمر سينتهى الى جريمة قتل ؟ كنت أظن أنه سيكتفى بأخذ الثلاثة آلاف روبل التى كان سيدى يخبئها فى ظرف تحت الفراش . ولكنه قتل أباه بدلاً من ذلك . أكان فى وسعك أنت مثلاً أن تتنبأ بما وقع ؟

قال ايفان فيدوروفتش وقد أصبح واجماً يفكر :

ـ اذا كنت تقول أنت نفسك ان التنبؤ بذلك كان مستحيلاً ،فكيف كان يمكننى أن أتنبأ أنا به ، فأبقى هنا ؟ انك تخلط الأمور وتتخبط فى الكلام .

ـ كان يمكنك أن تتنبأ بالأمر لأننى كنت أُلحّ عليك أن تسافر الى تشرماشنيا لا الى موسكو .

ـ كيف كان يمكننى أن أتنبأ ؟ ما هذا الكلام الذى تقوله ؟

بدا على سمردياكوف تعب شديد ، فصمت بضع لحظات من جديد. ثم قال :

ـ كان يمكنك أن تتنبأ بذلك ، حين لاحظت أننى كنت أوثر أن أعلم أنك فى تشرماشنيا لا فى موسكو لأن موسكو بعيدة جداً • فاذا عرف دمترى فيدوروفتش أنك قريب من هنا ، فلعله كان سيتردد ؟ وكان فى وسعك اذا كنت فى تشرماشنايا أن تسارع فتجيء لتحمينى عند الحاجة لأننى قد حدثتك عن مرض جريجورى فاسيلتش وعن توجسى لنوبة الصرع التى ستوافينى • وقد أطلعتك ، عدا ذلك ، على الاشارات التى يمكن بواسطتها حمل أبيك على فتح الباب • وحين أسررت اليك أن دمترى فيدوروفتش كان على علم بهذه الاشارات لأننى أطلعته عليها ، كنت أقدّر أنك ستدرك ما يتربص بالدار من شر ، وأنك ستعدل حتى عن السفر الى تشرماشنيا ، وأنك ستبقى هنا •

حدث ايفان نفسه قائلاً : « انه يحسن التفكير ، رغم أنه يسيء نطق الكلمات • فأين هى اذن تلك الاضطرابات العقلية التى تكلم عنها الدكتور هرتسنشتوبه ؟ » •

هتف ايفان يقول غاضباً :

ـ أتراك تمكر بى ؟ يا لك من قاطع طريق ! •••

فأجابه سمردياكوف وقد لاح فى وجهه أقصى البراءة :

ـ أنا ؟ أعترف لك بأننى كنت قد أيقنت أنك فهمتنى حق الفهم أثناء ذلك الحديث •

فصاح ايفان يقول غاضباً من جديد :

ـ لو قد فهمت لبقيت •

ـ وأنا ظننت أنك فهمت كل شيء ، وحزرت كل شيء ، وأنك أسرعت تسافر بغية الابتعاد عن الاثم ، والنأى عما يتهيأ هنا من شر ، بالهرب الى مكان بعيد ، من باب الخوف ان صح التعبير •

ـ ها ؟ أتراك تتخيل أن جميع الناس جبناء مثلك ؟

ـ معذرة يا سيدى • كنت أظن أنك مثلى !

عاد ايفان يقول مضطرباً :

ـ لنسلّم أنه كان فى امكانى أن أحزر ••• لقد كنت أقدّر حقاً أنك تهيىء شراً من الشرور •••

ولكن ايفان صاح يقول فجأة وقد تذكر نقطة معينة من الحديث الذى جرى بينهما قبل رحيله :

ـ لكنك تكذب ! تكذب ! هل تتذكر أنك اقتربتَ من عربتى لحظةَ رحيلى لتقول لى : « يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكى » ؟ • اذن لقد سرّك أن ترانى راحلاً ما دمت قد أخذت تكيل لى المديح !

قال سمردياكوف وهو يبذل جهداً واضحاً من أجل أن يسترد أنفاسه :

ـ لئن سُررت ، ان سرورى لم يكن له من سبب الا اننى رأيتك لا تسافر الى موسكو بل الى تشرماشنيا التى هى أقرب من موسكو على الأقل • أما الأقوال التى تعدها مديحاً ، فانك قد أسأت فهمها • ذلك أننى قد قصدت بها الى لومك فى حقيقة الأمر •

ـ الى لومى ؟ لومى على ماذا ؟

ـ على أنك رغم توجسك الشر ، تترك أباك وتعدل عن البقاء هنا

لحمايتنا . ذلك أننى كنت أنا أيضاً معرَّضاً لأن أُقحم فى القضية بسبب هذه الثلاثة آلاف روبل التى كان يمكن أن يُظن أننى سرقتها .

قال ايفان غاضباً من جديد :

ـ شيطان يأخذك ! لحظة ... هل حدثت قاضى التحقيق ووكيل النيابة عن تلك الاشارات ، عن تلك الضربات على النافذة ؟

ـ حدثتهما عنها . قلت لهما كل شيء .

دُهش ايفان فيدوروفتش بينه وبين نفسه من جديد . ثم استأنف كلامه قائلاً :

اذا كنتُ قد ارتبت فى شيء من الأشياء أثناء ذلك الحديث ، فقد دار ارتيابى على أن من الممكن أن ترتكب أنت حقارةً ما . صحيح أن دمترى كان يمكن أن يقتل ، أما أن يسرق فذلك ما لم أسـلّم به حينذاك . ولا كذلك أنت ، فاننى كنت أتوقع منك كل شيء . ألم تسرَّ الىَّ أنت نفسك أن فى وسعك أن تصطنع نوبة صرع ؟

ـ قلته عن بساطة . اننى لم أتظاهر بنوبة صرع فى يوم من الأيام . وانما أردت أن أتباهى أمامك وأتفاخر . كان ذلك غباوة منى . كنت أحبك كثيراً ، وأحدثك بسذاجة تامة وبراءة كاملة .

ـ ان أخى يتهمك اتهاماً قاطعاً بأنك قتلت وسرقت .

أجابه سمردياكوف يقول بابتسامة مرة :

ـ ماذا بقى له أن يقول ؟ من ذا الذى سيصدقه اليوم بعد أن تجمعت عليه جميع تلك الأدلة ؟ الباب الذى رآه جريجورى فاسيلتش مفتوحاً على سبيل المثال ... كيف يمكنه أن يتهمنى بعد هذا ؟ سامحه الله ! انه يحاول انقاذ نفسه بأية طريقة ! ...

صمت سمردياكوف بضع لحظات كأنه يفكر ، ثم أردف يقول :

ـ هو الأمر نفسه ••• انه يريد أن يلقي الجرم على عاتقي مدعياً أنني أنا الذي قمت بالضربة ••• أعرف القصة ••• ولكن فكّر قليلاً : لقد ذكرت لك مازحاً أنني أحسن التظاهر بنوبة الصرع • أفكان يمكن أن أقول لك انني قادر على ذلك التظاهر لو كنت أنوي قتل أبيك ؟ هل يتخيل أحد أن انساناً يبيّت جريمة كهذه الجريمة يمكن أن يبلغ به الغباء حدّ فضح نفسه سلفاً ، وتقديم دليل يثبت ارتكابه الجريمة ، بالتحدث في هذا الأمر الى ابن الضحية نفسه ؟ ذلك شيء لا يمكن تصديقه اطلاقاً • ما من أحد يسمعنا في هذه اللحظة ، ما من أحد يسمعنا الا الله . ولكنك ، حتى لو كشفت عن هذه الواقعة لوكيل النيابة وقاضي التحقيق ، لن تزيد على أن تخدمني : هل يمكن أن يكون المرء مجرماً بهذه السذاجة كلها ؟ ذلك ما سيقوله جميع الناس •

قال ايفان فيدوروفتش وقد أدهشه ما تشتمل عليه هذه الملاحظة الأخيرة من منطق :

ـ اسمع ، انني لا أشتبه أبداً في انك ارتكبت هذه الجريمة ، بل انني لأرى أن اتهامك بها أمر سخيف مضحك •

نطق ايفان بهذه الكلمات وهو ينهض • وأردف يقول :

ـ واني لأشكر لك أنك طمأنتني في هذا الموضوع • انني أتركك الآن ، ولكنني سأزورك مرة أخرى • الى اللقاء •أتمنى لك شفاء سريعاً • أأنت في حاجة الى شيء ؟

ـ شكراً يا سيدي ! شكراً لك على كل شيء • ان مارفا اجناتفنا تهتم بأمري ، وتجعلني في غير حاجة الى شيء البتة ، على عادتها في الشهامة والأريحية • لا شيء يعوزني • وهناك اناس طيبون يزورونني كل يوم•

ــ الى اللقاء • ثم اننى لن أكشف شيئاً مما ذكرته لى عن حذقك فى اصطناع الصرع والتظاهر به •

ثم أضاف يقول فجأة دون أن يعرف لماذا :

ــ وأنصحك بأن لا تتحدث عن هذا فى شهادتك أنت أيضاً •

ــ أنا أفهمك كل الفهم • ما دمت لن تتحدث عن هذا الأمر أنت ، فسأسكت أنا أيضــاً عن تفاصيل ذلك الحديث الذى جرى بيننا حينذاك أمام المنزل •

خرج ايفان فيدوروفتش من غرفة المريض مسرعاً ، ولم يدرك فجأة ما قد تشتمل عليه الكلمــات الأخيرة التى قالها ســمردياكوف من اهانة له ، الا بعد أن قطع نحو عشر خطوات فى الممر ، فأوشــك عندئذ أن يقفل راجعاً الى المريض ، ولكن هذه النية التى هجست فى نفســه نصــف ثانية ، لم تلبث أن تبددت ، واكتفى ايفان بأن دمدم قائلاً : « ذلك كله سخافات ! » ، ثم أسرع يغادر المستشفى • كان الأمر الأساسى فى نظره هو أنه تأكد من أن القاتل هو أخوه ميتيا لا ســمردياكوف ، رغم أنه كان يتوقع عكس ذلك • لماذا انقلبت تنبؤاته هذا الانقلاب ؟ كان ايفان لا يريد أن يعرف لماذا انقلبت تنبؤاته ، حتى لقد كان ينفر بعض النفور من تحليل نفسه فى هذه النقطة • كان يحاول ، فيما يبدو ، أن ينسى شيئاً ما • وقد اقتنع أثناء الأيام التالية اقتناعاً كاملاً بأن ميتيا هو الجانى ، ولا سيما بعد أن عرف جملة القرائن والأدلة التى تجمعت على أخيه • وكان عدد من الشهادات يدينه ادانة خاصة ، رغم صدور هذه الشهادات عن أشخاص غرباء عن الدرامة وضيعى الظروف الاجتماعية ، من ذلك شهادة فينيا وجدتها • أما تصريحات برخوتين وروّاد الكباريه ومستخدمى متجــر بلوتنيكوف وأهــل موكرويه ، فقد كانت خطورتها

واضحة وضوحاً يخطف البصر • وكانت التفاصيل خاصـــة تدعو الى القلق • ان المعلومات التى تتعلق بالاشارات السرية قد اثرت فى قاضى التحقيق ووكيل النيابة تأثيراً قوياً يعادل تأثير شـــهادة جريجورى عن الباب المفتوح ان لم يزد عليها • وقد أجابت امرأة جريجورى ، مارفا اجناتفنا ، أجابت عن ســـؤال ألقاه عليها ايفان فيدوروفتش فقالت ان سمردياكوف قد قضى الليلة كلها وراء الحاجز راقدا على حصيرة « تبعد ثلاث خطوات عن سريرنا نفسه » ، وانها رغم أنها نامت نوماً عميقاً ، قد استيقظت عدة مرات من سماعها أنات المريض • وأضافت تقول : « انه لم ينقطـــع عن الأنين ، لم ينقطـــع عن الأنين » • وأما الدكتـــور هرتسنشتوبه الذى أطلعه ايفان على انطباعاته عن سمردياكوف ، قائلاً انه لا يصدق قط أن سمردياكوف مجنون ، فقد أجاب يقول بابتسامة رقيقة : « هل تعرف ما الذى يشغله الآن ؟ تصور أنه يقضى وقته فى حفظ كلمات فرنسية على ظهر القلب • انه يخفى تحت وسادته دفتراً سجَّل له عليه أحدهم كلمات فرنسية بأحرف روسية • هىء هىء ! » • هكذا عدل ايفان أخيراً عن شـــكوكه ، وأصـــبح لا يفكر فى أخيه دمترى الا ويشعر باشمئزاز • ومع ذلك بقى هنالك شىء يبدو له غريباً : ان أليوشـــا ما يزال يدَّعى ، فى اصرار وعناد ، أن الجريمة لم يرتكبها دمترى ، وأن « أغلب الظن » أن سمردياكوف هو الجانى • ولقد كان ايفان يحترم دائماً ، فى قرارة نفسه ، آراء أليوشا ، لذلك كان موقف أليوشا فى هذه القضية يدهشه كثيراً • ومن الغريب أيضاً أن أليوشا لم يسع يوماً الى انتهاز فرصة يتحدث فيها اليه عن ميتيا ، لا ولا كان البادىء فى الكلام عن هذا الموضوع قط ، وانما كان يقتصر على الاجابة عن الأسئلة التى يلقيها عليه أخوه • ذلك أمر أدهش ايفان كذلك • يحســـن أن نلاحظ على كل حال أن ايفان كان فى تلك الفترة غارقاً غرقاً تاماً فى

مشاغل غريبة كل الغرابة عن دعوى أخيه • انه منذ عودته من موسكو قد عاوده هيامه العنيف العارم بكاترين ايفانوفنا • ليس هنا مجال الكلام على هذا الحب الجديد الذى استبد بايفان فيدوروفتش والذى سيؤثر فى مجرى مصيره كله • فذلك يمكن أن يكون موضوع قصة أخرى ، موضوع رواية أخرى لا أدرى بعد هل أكتبها فى يوم من الأيام • ولكننى لا أستطيع مع ذلك أن أسكت عن تسجيل هذه الملاحظة الآن : وهى أن ايفان حين رجع من عند كاترين ايفانوفنا ليلاً بصحبة أليوشا ، فصرّح لأخيه بأن هذه المرأة الشابة لا تهمه ولا يعنيه أمرها ، انما كان يكذب كذباً لا حياء فيه • فالحق أنه كان يحبها حباً جنونياً ، رغم أنه صدق حين قال انه يكرهها فى بعض اللحظات كرهاً يبلغ من القوة أنه قادر على أن يريد قتلها • ولهذا أسباب كثيرة : منها أن كاترين ايفانوفنا التى هزتها الدرامة وهزها اعتقال ميتيا هزاً عميقاً قد استقبلت ايفان فيدوروفتش حين عودته من موسكو استقبالها لمنقذ ومخلّص • لقد كانت تشعر بأن الأحداث التى جرت قد أهانتها وأذلت عواطفها وجرحت كبرياءها ، وها هو ذا رجل كانت تحبه منذ زمن طويل ـ آ ••• نعم ، هى تعرف أنها تحبه منذ زمن طويل ـ رجل كانت تحترم ذكاءه وقلبه على كل حال ، ها هو ذا يعود اليها • ولكن هذه الفتاة المتكبرة لم تستسلم تماماً رغم ما يتصف به هيام صديقها من عنف عارم مضطرب ـ وهو واحد من آل كارامازوف فى هذه الناحية ـ ورغم ما تشعر به نحوه من عبادة • وكانت فى الوقت نفسه تحس بعذاب الضمير يلاحقها ويطاردها بغير انقطاع ، لأنها خانت ميتيا ، وكانت فى اللحظات العاصفة من مشاجراتها مع ايفان (وهى مشاجرات كانت تتكرر كثيراً فى ذلك الأوان) ، لا تتردد عن أن تصرخ فى وجهه غاضبةً غضباً شديداً • وبسبب هذا الموقف الذى كانت تقفه انما اتهمها ايفان ، فى حديثه مع

أليوشا ، بأنها تتلذذ بالكذب ويحلو لها أن تسترسل فيه . والحق أن سلوكها كان يشتمل على كثير من الكذب اللاشعورى ، وذلك ما كان يُحنق ايفان فيدوروفتش خاصةً ... ولكننا سنعود الى هذا فيما بعد . وحسبنا أن نقول الآن أن ايفـان كاد ينسى وجود سـمردياكوف خلال بعض الوقت . غير أن الخواطر الغريبة التى سبق أن عذبته لم تلبث أن عاودته بعد أسبوعين من زيارته الأولى لسمردياكوف . فاذا هو يعود يلقى على نفسه تلك الأسئلة نفسها بغير انقطاع : لماذا نزل الى الطابق الأدنى من منزل أبيه صامتاً كسارق فى الليلة الأخيرة التى قضاها فى المنزل قبل رحيله الى موسكو ؟ لماذا شعر بعد ذلك باشمئزاز من تذكر هذا الأمر ، ولماذا اجتاحت نفسـه فجأة عند وصـوله الى موسـكو كآبة عميقة ، حتى صرخ ذات مرة قائلاً : « أنا شقى ! » ؟ انه ليبدو له الآن أن هذه الخواطر المقلقة تجتاح نفسه اجتياحاً يبلغ من القوة أنه ينسيه حتى كاترين ايفانوفنا . وفيما هو يجيل هـــذا الخاطر فى رأسه ذات يوم ، التقى باليوشا فى الشارع ، فاستوقفه ثم اذا هو يسأله على حين فجأة :

ـ هل تذكر أننى فى عصر اليوم الذى اقتحم فيه دمترى منزل أبينـا بعد الغـداء ، وضربه ، قد قلت لك بعد ذلك اننى أحتفظ لنفسى « بحق الرغبة والتمنى » ؟ هل قدّرت فى ذلك اليوم أننى كنت أتمنى موت أبينا ؟ هه ؟ أجب !

قال أليوشا بصوت خافت :

ـ نعم قدّرت ذلك .

ـ كان ذلك هو الحقيقة على كل حال ، ولا حاجة بالمرء الى كبير مكرٍ حتى يحزر هذه الحقيقة . ولكن ألم تشعر فى ذلك اليوم أننى كنت

أتمنى فعلاً أن أرى « السراطين يلتهم بعضها بعضاً » ، أي أن يقتل دمترى أبانا ، وأن يقتله بأقصى سرعة ممكنة ••• وأننى ما كان يسوءنى أن أسهم من جهتى فى هذا الحادث ؟ قل ! •••

اصفر لون أليوشا قليلاً وحدّق الى عينى أخيه صامتاً •

صاح ايفان يقول :

ـ هلاّ تكلمت أخيراً ؟ اننى أريد أن أعرف ، بأى ثمن ، ما فكرت فيه يومذاك • أريد أن أعرف الحقيقة ، الحقيقة ، هل سمعت ؟

وتنفس ايفان تنفساً شاقاً ، ونظر الى أخيه أليوشا بنوع من غضب مستبق •

فدمدم أليوشا يقول :

ـ سامحنى ••• لقد قدّرت ذلك أيضاً •

ولكن أليوشا لم يلبث أن صمت دون أن يضيف ذكر أى « ظرف مخفف » •

قال له ايفان بجفاف :

ـ شكراً •

ثم تركه هناك وابتعد بخطى سريعة •

أحسّ أليوشا منذ ذلك اليوم أن أخاه يحاول أن يتحاشاه ، بل وأنه يشعر نحوه بشىء من الكره ، لذلك كفّ هو نفسه عن زيارته • وبعد ذلك اللقـــاء الذى تحدثنا عنه مضى ايفان فيدوروفتش الى عنـد سمردياكوف رأساً ، دون أن يعرّج على مسكنه •

٧

ثاني اجتماع بسمردياكوف

كان سمردياكوف قد غادر المستشفى . ان ايفان يعرف عنوانه الجديد ، ويعرف أن الخادم قد أقام فى البيت الخشبى الصغير الذى تداعى جزء منه منذ الآن ، والذى يتألف من حجرتين اثنتين لا ثالث لهما ، يفصل بينهما ممر . اما ماريا كوندراتيفنا تشغل احدى الغرفتين مع أمها ، بينما يشغل سمردياكوف الغرفة الثانية . ما من أحد يعرف بأى صفة كان سمردياكوف يعيش عند هاتين السيدتين : أبصفته صديقاً أم بصفته مستأجراً ؟ ولقد دعت أسبابٌ ، فيما بعد ، الى افتراض ان سمردياكوف انما اتخذ مقره هناك بصفته خطيباً لماريا كوندراتيفنا ، وأنه كان لا يدفع أجراً . وكانت الأم وابنتها تحترمانه كثيراً وتعدانه رجلاً متفوقاً .

قرع ايفان فيدوروفيتش الباب ، ثم دخل الممر ؛ ودلّته ماريا على « الغرفة الجميلة » التى يسكنها سمردياكوف ، فاتجه اليها قدماً لا يلوى على شىء . الغرفة مدفّأة تدفئة شديدة بموقد من خزف . والجدران مغطاة بورق أزرق متمزق تمزقاً كثيراً فى مواضع عدة ، وفى شقوق الورق ترتع حشراتٌ لحركاتها أصوات لا تنقطع . والأثاث بائس : دكتان على طول الجدارين ، وكرسيان قرب مائدة من خشب ، بسيطة جداً ، لكنها

مغطاة بغطاء مشجَّر وردى اللون • والنافذتان الصغيرتان تزدان كل منهما بأصص أزهار • وفي أحد الأركان تُرى أيقونات • وعلى المائدة سماور من نحاس ، صغير الحجم ، كثير التقعر ، مع صينية وفنجانين •

كان سمردياكوف قد فرغ من شرب الشاى ، فالسماور قد أطفىء • ان سمردياكوف جالس الآن على دكة قد دفعها نحو المائدة ، عاكف على كتابة شيء في دفتر • هذه محبرة صغيرة موضوعة في متناول يده ، وهذه شمعة في شمعدان من البرونز تلقى ضوءاً ضعيفاً على مائدته • أدرك ايفان فيدوروفتش من أول نظرة ألقاها على سمردياكوف أن سمردياكوف قد أبل من مرضه ابلالاً تاماً • أصبح لونه أكثر نضارة ، وأصبح خداه أقل خسوفاً ، واسترد ذؤابة رأسه ، وعاد يدهن شعره من جديد • انه يرتدى الآن معطفاً للمنزل زاهي الألوان مبطناً بقطن ، لكنه مهترىء جداً • وعلى عينيه نظارتان لم يسبق لايفان أن رآهما من قبل ، فكان من شأن ذلك الأمر التافه أن أورى حنق ايفان فجأة • قال ايفان لنفسه : « أهذا المخلوق يجرؤ أن يضع على عينيه نظارتين ؟ » •

رفع سمردياكوف رأسه ببطء ، وشخص ببصره الى الزائر من خلال النظارتين محدقاً • ثم خلعهما بغير تعجل ، ونهض متوانياً متكاسلاً ، بحركة تبدو فيها قلة الاحترام ، كأنه يقتصر على أن يقوم بواجب تمليه اللباقة التى لا يملك أن يستغنى عنها • سرعان ما أدرك ايفان معنى هذا الوضع ، وقد لاحظ خاصةً نظرة سمردياكوف التى كانت تعبّر عن الاستياء وتعبّر عن عداوة وقحة ، فكأنه يقول له : « ما الذى يحملك على ازعاجى هنا وقد سبق أن تكلمنا عن كل شيء ؟ » • كبح ايفان جماح نفسه حتى لا ينفجر غيظاً • وقال له واقفاً وهو يحل أزرار معطفه :

ـ الحر فى غرفتك شديد •

فأجابه سمردياكوف متلطفاً :

ـ فاخلع اذن معطفك •

خلع ايفان معطفه ورماه على الدكة ، ثم تناول كرسياً بيد ترتعش غضباً ، فأدناه من المائدة بحركة عنيفة وجلس عليه • وكان سمردياكوف قد استطاع أن يسبقه الى الجلوس •

سأله ايفان بلهجة قاسية ملحاح :

ـ قبل كل شيء : هل نحن هنا وحيدان ؟ ألا يسمعنا أحد فى الجهة الأخرى ؟

ـ لا ••• انك لترى أن الغرفتين يفصلهما ممر !

ـ اسمع يا صديقى : ماذا أردت أن تقول غامزاً فى المرة الماضية حين تركتك بالمستشفى ؟ لماذا قلت لى انك ستسكت عن تفاصيل الحديث الذى جرى بيننا أمام المنزل اذا أنا لم أتكلم عن حذقك فى اصطناع نوبات الصرع والتظاهر بها ؟ ما هى تلك « التفاصيل » التى أردت أن تشير اليها ؟ الى ماذا أردت أن تلمع ؟ أتراك أردت أن تهددنى ؟ أتراك تريد أن تزعم أننى كنت متواطئا معك وأننى اليوم خائف ؟

كان ايفان يتكلم بغيظ مكظوم وحنق مكبوح ، وكأنه كان يريد أن يبرهن بالقاء هذه الأسئلة مباشرةً على أنه يكره المراوغة واللف والدوران ، وأنه يحب أن يلعب بالورق مكشوفاً على المائدة • ومض التماعٌ خبيث فى نظرة سمردياكوف ، وأخذت عينه اليسرى تطرف ، وأسرع يجيب قائلاً (على لزومه ما عُهد فيه من تحفظ واعتدال وقصد ، وكانت هيئة تشبه أن تقول : « أتريد الحقيقة ؟ اذن سأقولها لك ») :

ـ ما أردت أن أقوله ؟ ان ما أردت أن أقوله هو التالى تماما : أنك تركت أباك بغير حماية ، مع علمك سلفاً بمشروع قتله • لقد وعدتك بأن أسكت عن هذه النقطة، وأن لا أقول للسلطات شيئاً ، حتى لا تستخرج منها نتائج سيئة فى موضوع عواطف الكره التى لعلها كانت تجيش فى نفسك ، وربما فى موضوع أمر آخر أيضاً •

نطق سمردياكوف بهذه الكلمات دون تعجل ، مسيطراً على نفسه كل السيطرة فيما يبدو ، ولكن لهجته كانت قد تغيرت ، كما أن صوته أصبح فيه شيء من ثبات واصرار ، وشيء من شر وتحد فى الوقت ذاته• وحدّق بوقاحة الى ايفان فيدوروفتش الذى أفقدته هذه الجرأة سيطرته على نفسه فى الوهلة الأولى • قال ايفان صائحاً :

ـ ماذا ؟ كيف ؟ أأنت تملك كل عقلك ؟

ـ ثق أننى أملك عقلى كاملاً •

قال ايفان فيدوروفتش وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة:

ـ ولكن لم يكن فى وسعى أن أتنبأ بجريمة القتل • وماذا تعنى بهذه الكلمات : « وربما فى موضوع أمر آخر أيضاً » ؟ هلاّ أجبت أيها الوغد ؟

كان سمردياكوف صامتاً ، مصراً على التفرس فى ايفان فيدوروفتش بنظرة وقحة •

زأر ايفان فيدوروفتش يقول له :

ـ تكلم أيها الوغد العفن ! ما الذى تعنيه بالأمر « الآخر » ؟

ـ الأمر الآخر الذى أردت الالماع اليه هو أنك كنت أنت نفسك تتمنى موت أبيك حينذاك •

وثب ايفان فيدوروفتش من مكانه ، ولطم الخادم على كتفه لطمة قوية عنيفة ، فترنح هذا حتى اصطدم بالجدار ، وغرق وجهه بالدموع ، ودمدم يقول :

ــ ألا تستحى يا سيدى أن تضرب انساناً لا يملك دفاعاً عن نفسه.

ثم غطى عينيه بمنديل قذر ذى مربعات زرقاء ، وأخذ يبكى بكاء صامتاً . وانقضت على ذلك دقيقة .

قال له ايفان فيدوروفتش أخيراً بلهجة آمرة وهو يعود الى الجلوس:

ــ كفى ! كفَّ عن البكاء الآن . خيرٌ لك أن لا تُفقدنى صبرى!

أزاح سمردياكوف المنديل عن عينيه . ان جميع قسمات وجهه الرث تعبر الآن عن الاهانة التى أُلحقت به .

ــ أتخيلتَ اذن أيها الشقى أننى كنت اتمنى موت أبى ، متفقاً مع دمترى ؟

أجاب سمردياكوف بلهجة جريحة :

ــ لم يكن فى وسعى أن أحزر أفكارك حينذاك . لذلك استوقفتك أمام الدار لأسبرك فى هذه النقطه بعينها .

ــ لتسبرنى ؟ ماذا تعنى ؟

ــ أردت أن أعرف أأنت تتمنى أن يُقتل أبوك بأقصى سرعة أم لا ؟

كانت هذه اللهجة الوقحة العنيدة التى يصر هذا الخادم على أن لا يتخلى عنها تثير حنق ايفان فيدوروفتش اثارة خاصة .

صاح يقول له فجأة :

ــ أنت الذى قتلته !

فضحك سمردياكوف ضحكة احتقار صغيرة ، وقال :

ـ أنت نفسك تعلم تمام العلم أننى لست القاتل • كنت أظن أن رجلاً ذكياً مثلك لا بد أن يوفر على نفسه مزيداً من اكثار الكلام فى هذا الموضوع •

عاد ايفان يسأله :

ـ ولكن لماذا ، لماذا قامت فى ذهنك شبهة كتلك الشبهة عنى ؟ قل لى : لماذا ؟

ـ أنت تعرف جيداً لماذا • هو الخوف وحده • كنت فى ظرف يحملنى الخوف فيه على الاشتباه فى كل انسان• لذلك قررت أن أسبرك أنت أيضاً ، قائلاً لنفسى : اذا صدق أن ايفان فيدوروفتش يتمنى مايتمناه أخوه ، فقد سوّى الأمر اذن ، وسأهلك أنا فى هذه المغامرة كذبابة لا تملك عن نفسها دفاعاً •

ـ اسمع : انك لم تكن تتكلم على هذا النحو منذ أسبوعين •

ـ أردت أن أُفهمك هذا كله أثناء الحديث الذى دار بيننا فى المستشفى ، ولكننى افترضت أنك فاهم عنى بلا أقوال زائدة ، وأنك وأنت الرجل الذكى لا تحب أن أواجه هذا الموضوع مواجهة مباشرة•

ـ عجيب • ولكن أجبنى ، أجبنى ، اننى أصرُّ على سماع جوابك: كيف أمكن أن تنبت فى نفسك الدنيئة تلك الشبهة الحقيرة ؟ على ماذا أقمت ذلك الاشتباه ؟

ـ أما أن تقتل أباك بنفسك ، فذلك ما لم تكن تستطيعه ولا تريده• وأما أن يتولى قتله عنك شخص آخر فلقد تمنيتَ ذلك !

هتف ايفان متعجباً :

ـ ويقول هذا الكلام بهدوء ، بهدوء ••• يا للشقى ! لأى غرض كان يمكنني أن أتمنى ذلك ؟ ما الذى كنت أرجوه من مقتل أبى ؟

أجاب سمردياكوف يقول بلهجة مسمومة انتقامية :

ـ لأى غرض ؟ ما هذا السؤال ؟ هو الميراث طبعاً ••• كان كل واحد منكم ، أنتم الثلاثة ، سيرث عن أبيه عند موته أربعين ألف روبل فى أقل تقدير ، وربما ورث أكثر من ذلك • ولكن لو تزوج فيدور بافلوفتش تلك المرأة ، أقصد أجرافين ألكسندروفنا ، لوضعت يدها على الثروة كلها بعد الزفاف ، ولما نلتم منها أنتم الاخوة الثلاثة حتى ولا ألفى روبل • معنى ذلك أن هذا الزواج لو تمَّ لشنقكم من أنوفكم شنقاً • ولقد كان تمام هذا الزواج أمراً سهلاً كل السهولة : كان يكفى أن ترفع تلك المرأة اصبعها الصغيرة حتى يأخذها أبوكم الى الكنيسة صاغراً طائعاً •

استطاع ايفان فيدوروفتش أن يكظم غيظه ويسيطر على نفسه بكثير من المشقة والعناء • وقال له أخيراً :

ـ طيب • هأنت ذا ترى أننى لم أثب من مكانى لأضربك ، وأننى لم أقتلك بسبب أقوالك هذه • أتمم كلامك : أنت تتصور اذن أننى تركت لأخى دمترى مهمة ارتكاب الجريمة ، واننى فى قرارة نفسى قد عوّلت عليه ، أليس كذلك ؟

ـ وكيف لا تعوّل عليه ؟ المسألة واضحة : حين يقتل أخوك أباه ، فانه يفقد امتيازات النبالة ، ويفقد رتبته وثروته ويُرحَّل الى سيبيريا • وبذلك يئول اليك والى أخيك ألكسى فيدوروفتش نصيبه من ميراث أبيه ، ويقسَّم بينكما هذا النصيب ، فلا يكون حظ كل واحد منكما أربعين ألفاً بل ستين ألفاً • لا شك أبداً فى أنك عوّلت على دمترى فيدوروفتش لتحقيق هذا الهدف والوصول الى هذه النتيجة !

ـ عجيب أننى احتمل أقوالك ، وأدعك تتابع شروحك ! اعلم أيها الشقى أننى لو عوّلت على أحد لعوّلت عليك أنت لا على دمترى ! ويميناً لقد أحسست فعلاً أثناء ذلك الحديث بأنك مقبل على ارتكاب حقارة ما... اننى أتذكر ذلك الاحساس الذى هجس فى قلبى تذكراً واضحاً !

أجاب سمردياكوف ساخراً :

ـ أنا أيضاً أحسست أثناء ذلك الحديث أنك تعوّل علىّ كذلك ... خطر هذا على بالى لحظة قصيرة ... ولكن ما كان لهذا الأمر الا أن يزيدنى اقتناعاً برغبتك فى وقوع الجريمة . فما دمت قد قدّرت أننى أبيّت جريمة ، فلقد كان سفرك رغم ذلك لا يعنى الا أنك تقول لى : « اقتل أبى ان شئت ، فلست أعارض فى هذا » .

ـ يا لك من وغد حقير ! أهكذا أوّلت سلوكى اذن ؟

ـ السبب هو ذلك السفر الى تشرماشنيا يا سيدى . فكرّ قليلاً : كنتَ قد قررت أن تسافر الى موسكو ، ورفضت رغم الحاح أبيك أن تذهب الى تشرماشنيا ؟ ثم اذا بك تقبل فجأة أن تذهب الى تشرماشنيا استجابةً لبضع كلمات سخيفة غبية قلتها أنا ، فلماذا قبلت السفر الى تشرماشنيا لا الى موسكو ؟ ما دمت قد غيرّت قرارك بدون سبب ذى بال الا ما أوحيت به أنا اليك ، فليس لهذا من معنى غير أنك كنت تنتظر شيئاً منى أنا .

زأر ايفان يقول كازاً أسنانه :

ـ لا ، لا ، أحلف لك أن لا ...

ـ كيف لا ؟ لقد كان من واجبك ، خلافاً لما حدث ، أن تستدعى الشرطة وتأمرها باعتقالى فوراً لأننى قلت تلك الأقوال لك انت ، ابن فيدور بافلوفتش ! كان من واجبك على الأقل أن تقتلنى فى مكانى !

ولكنك بدلاً من ذلك ، ودون أن تغضب البتة ... غيرّت قرارك حالاً واتبعت النصيحة الغبية التى أسديتها اليك ... اتبعتها بحذافيرها . ثم ان ذلك السفر الى تشرماشنيا كان سخيفاً ، فانما كان عليك أن تبقى هنا قرب أبيك لتحميه ... فكيف لا أستخرج من سلوكك ذاك بعض النتائج ؟

ظل ايفان جالساً ، مكفهر الوجه ، قابضاً كفيه على ركبتيه . وقال وهو يبتسم ابتسامة صغيرة مرة :

ـ خسارة حقاً أننى لم أضربك حينذاك . أما أن تعتقلك الشرطة فقد كان ذلك مستحيلاً : لم يكن فى امكانى أن أتهمك بأى شىء معيّن ، ولو قد اتهمتك لما صدقونى. ولكن كان يجب علىّ أن أضربك ، نعم كان يجب علىّ أن أضربك . وكان فى وسعى أن أهشم وجهك راضياً مسروراً ، رغم أن ذلك محظور .

كان سمردياكوف ينظر الى ايفان وقد لاح فى وجهه ما يشبه الافتتان .

وقال سمردياكوف بتلك اللهجة البلاغية الراضية عن نفسها التى كان يصطنعها فى الماضى أثناء مناقشاته عن الايمان مع جريجورى فاسيلتش حين كان يحاول أن يناكده وأن يشاكسه فى خلافات لاهوتية واقفاً قرب مائدة فيدور بافلوفتش ، قال بتلك اللهجة :

ـ صحيح أن استعمال القوة أمر يحظره القانون ، وأن الناس قد عدلوا عن هذا فى أيامنا هذه . ذلك فى الأحوال العادية. أما فى الأحوال الاستثنائية فان الناس ما يزالون يضربون أقرانهم البشر ، تماماً كما كانوا يفعلون فى عهد آدم وحواء . وهذا لا يجرى فى بلادنا وحدها ، بل يجرى فى العالم بأسره ، ويجرى حتى فى أجمل الجمهوريات ،

كالجمهورية الفرنسية ، وسيظل الأمر كذلك أبد الآبدين • وأنت لم تجرؤ أن تضربني في تلك الحالة الاستثنائية التي نحن بصددها •

سأله ايفان وهو يومئ الى الدفتر الموضوع الى المائدة :

ـ ماذا عندك هناك ؟ أتتعلم كلمات فرنسية ؟

ـ ولماذا لا أتعلم أنا الفرنسية ؟ انني أريد اتمام تحصيلي ، فربما قادتني الظروف الى أن أعيش ذات يوم ، أنا أيضاً ، في تلك البلاد السعيدة ، بلاد أوروبا •

صاح ايفان يقول وقد سطعت عيناه وارتعد جسمه غضباً :

ـ أسمع أيها الشيطان ! أنا لا أخشى اتهاماتك ، وفي وسعك أن تشهد عليّ كما تشاء • ولئن لم أضربك حتى الموت في هذه اللحظة نفسها ، فان السبب الوحيد الذي يجعلني أمسك عن ذلك هو أنني أشتبه في أن تكون أنت الجاني ، ولست أريد أن أنقذك من العدالة • سأعرف كيف أكشف عنك القناع ، صدقني !

ـ في رأيي أن الأفضل أن تسكت فلا تقول شيئاً • ما الذي يمكنك أن تستند اليه وتعتمد عليه لاتهام برئ ، ومن ذا الذي يمكن أن يحمل كلامك محمل الجد ؟ على أنني أنبهك وأحذرك منذ الآن : اذا أنت تصرفت هذا التصرف ، فلأقولنّ من جهتي كل شيء ، اذ لا بد لي من أن أدافع عن نفسي •

ـ أتظن الآن أنني أخاف منك ؟

ـ هب المحكمة لم تقم أي وزن لأقوالي ولم تهتم أي اهتمام بشيء مما قلته لك في هذه اللحظة : ان الناس سيصدقون كلامي ، فيُطعن من هذا شرفك ، وتسوء سمعتك •

سأله ايفان وهو يصرف بأسنانه :

ـ هو الأمر نفسه دائماً : « يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكى » • أهذا ما تعنيه بتلك العبارة اذن ؟ هه ؟

ـ هو بعينه • ستتصرف تصرف رجل ذكى •

نهض ايفان فيدوروفتش وهو يرتعد استياء وغضباً ، وارتدى معطفه، وأسرع يخرج دون أن يكلف نفسه عناء الردّ على سمردياكوف ، وحتى دون أن يلقى نظرة الى وراء • وقد أحسن اليه الهواء الطرى الذى يشيع فى جو المساء • كان القمر يضيء السماء • وكان ايفان يشعر باختناق من ذلك الازدحام الرهيب للخواطر المبعثرة والاحساسات المضطربة التى تغلى وتجيش فى نفسه : « أأمضى أشى بسمردياكوف فوراً ؟ ولكن ما الذى أستطيع أن أقوله ضدّه ؟ ليس هو القاتل على كل حال ••• بالعكس : هو الآن يتهمنى أنا ••• حقا ، لماذا سافرت الى تشرماشنيا ؟ لأى غرض ، لأى هدف ؟ نعم نعم ••• هذا صحيح ، هذا واضح ، لقد كنت أتوقع شيئاً ••• ان ذلك الوغد على حق فيما قال••• » • بهذا كان ايفان يحدث نفسه• وتذكر ، ربما للمرة المائة ، أنه تجسس على حركات أبيه وسكناته، متسللاً على السلم أثناء الليلة الأخيرة التى قضاها عنده ، ولكن هذه الذكرى بلغت من ايلامه على حين فجأة أنه جمد فى مكانه كأن طعنةً نفذت فى قلبه ، وقال يخاطب نفسه : « هذا صحيح ، لقد تمنيت ذلك ••• لقد توقعته ••• هذا حق ! نعم ، كنت أتمنى وقوع جريمة القتل هذه ، كنت أريد وقوعها ! هل كنت أتمنى وقوع هذه الجريمة فعلاً ، أكنت أتمناها حقاً أم لا ؟ ••• يجب قتل سمردياكوف ••• اذا لم تسعفنى الشجاعة اليوم لقتل سمردياكوف ، فان الحياة لن تستحق منى أن أحياها ••• » •

لم يرجع ايفان الى مسكنه ، بل اتجه رأساً الى بيت كاترين ايفانوفنا

التي روّعها ظهوره المباغت : كان زائغ النظرة تائه الهيئة ، فاذا رآه الرائي أحس أنه قد جُن . قصَّ على كاترين ايفانوفنا جميع تفاصيل اجتماعه بسمردياكوف ، لم يُسقط منها كلمة واحدة . ولم يفلح في تهدئة نفسه رغم نصائح المرأة الشابة ، وكان لا ينفك يسير في الغرفة قائلاً كلمات غريبة مضطربة مفككة . ومع ذلك جلس آخر الأمر ، واضعاً كوعيه على المائدة ، جاعلاً رأسه في يديه ، وقال هذه العبارة المذهلة :

ــ اذا صدق أن القاتل ليس دمتري بل سمردياكوف فانني أكون عندئذ شريكه في هذه الجريمة ... حتماً ... لأنني أنا الذي حرضته على القتل . الواقع انني لا أعرف أنا نفسي بعدُ هل دفعته الى الجريمة أم لا . ولكن اذا كان هو الذي قتل ، لا دمتري ، فعندئذ أكون أنا القاتل الحقيقي .

حين سمعت كاترين ايفانوفنا هذه الكلمات ، نهضت دون أن تقول شيئاً ، فاقتربت من مكتبها ، ففتحت درجاً صغيراً فأخرجت منه ورقة وضعتها أمام ايفان . هذه هي بعينها الوثيقة التي سيقول ايفان فيدوروفتش لأخيه أليوشا فيما بعد انها تثبت بيقين رياضي أن دمتري هو الذي ارتكب جريمة قتل أبيهما . انها رسالة كتبها ميتيا الى كاترين ايفانوفنا وهو في حالة سكر ، مساءَ التقائه بأليوشا في الحقول حين كان أليوشا عائداً الى الدير بعد المشهد الذي أهانت فيه جروشنكا غريمتها كاترين ايفانوفنا . فان ميتيا ، بعد أن ترك أليوشا في ذلك اليوم ، قد أسرع يذهب الى جروشنكا . لا ندري هل وجدها في بيتها . ولكنه شوهد تلك الليلة في كاباريه « العاصمة الكبرى » يسرف في الشراب ، حتى اذا أخذ منه السكر مأخذه ، أمر أن يُؤتى بريشة وورقة ، فكتب وثيقة تشهد عليه وتدينه . هي رسالة ملتهبة مهذارة ، هي سلسلة من جمل مضطربة تليق بسكران حقاً ، تذكّرُ قليلاً بالخطب التي يلقيها السكارى حين يرجعون

الى منازلهم فيقصون على زوجاتهم بحرارة مستعرة وحماسة شديدة أنهم قد أهينوا اهانات خطيرة ، وان الذى أهانهم انسان حقير ، أما هم فرجال عظماء سيعرفون كيف يؤدبون الوقح الذى اعتدى عليهم • كتب ميتيا هذه الرسالة مطنباً مفيضاً ، وهو فى حالة هياج شديد ، فكان يرصف جملاً لا ترابط بينها ، ويخبط المائدة بقبضة يده من حين الى حين ، ويبلل الورقة بدموع من بلغ به الثمل أشده • وكانت الورقة التى أعطيها فى الكاباريه رديئة وسخة قد خربش أحدهم على ظهرها بعض الحسابات ، ومن أجل أن تتسع الورقة للكتابة ، ملأ ميتيا هوامشها ، حتى أن العبارات الأخيرة التى انطلقت تعبر عن عواطفه فى اطناب السكارى قد خطت عرضاً لا طولاً • واليكم مضمون تلك الرسالة :

« كاتيا ! سوف أجد المال غداً ، وسوف أرد اليك الثلاثة آلاف روبل حتى أستطيع أن أتركك ، يا امرأة شديدة الغضب ! لننته من هذا الأمر ! سأحاول غداً أن ألتمس هذا المبلغ لدى جميع أنواع الناس ، فان لم أوفق ، فلك علىّ عهد الشرف أن اذهب الى أبى فاهشم جمجمته ، واستولى على المال الذى يخبئه تحت وسادته ••• شريطة أن يكون ايفان غائباً ! اننى أقبل أن يحكم علىّ بالسجن مع الأشغال الشاقة ، ولكننى سأرد اليك الثلاثة آلاف روبل • أما أنت ، فوداعاً !••• اننى أنحنى أمامك حتى الأرض ، لأن الذى يحبك انسان شقى ! سامحينى • بل لا ••• لا تسامحينى ! ذلك أسهل ، علىّ وعليك ! اننى أوثر السجن على حبك ، لاننى أحب امرأة أخرى ، تعرفينها أنت حق المعرفة • لقد استطعت أن تعرفيها اليوم ، فكيف يمكنك أن تغفرى لى بعد هذا ؟ سأقتل الرجل الذى سرقنى ! سأبتعد عنكم جميعاً ، سأذهب الى المشرق حتى لا أراكم بعدئذ قط ! أصبحت لا أريد أن أراها « هى » أيضاً ••• ما أنت بالانسانة الوحيدة التى عذبتنى • لقد عذبتنى هى كذلك • وداعاً •

« حاشية : اننى ألعنك ، ومع ذلك أعبدك ! أشعر بقلبى يخفق فى صدرى ! ما يزال هنالك وتر يهتز لك • أوثر أن يتحطم هذا القلب • سأقتل نفسى ، ولكننى سأقتل ذلك الشيطان الرجيم أولاً • سأنتزع منه الثلاثة آلاف روبل ، فأرميها اليك • ان الذى يكتب اليك الآن انسان شقى ، ولكنه ليس سارقاً ! ستحصلين على الثلاثة آلاف روبل • المبلغ مخبأ عند ذلك الشيطان الرجيم تحت الوسادة ، يلفه شريط وردى اللون • أنا لست لصاً ، لأننى سأقتل ذلك الذى نهب أموالى • لا تحتقرينى يا كاتيا : ليس دمترى لصاً بل هو قاتل • قتل أباه وضيّع نفسه حتى يستطيع أن يقف أمامك منتصب القامة رافع الرأس ، وحتى لا يكون عليه أن يتحمل احتقارك الصلف المتكبر ، وأيضاً حتى يكف عن حبك •

حاشية : أقبّل قدميك • وداعاً •

حاشية : كاتيا ! صلّى واضرعى الى الله أن يقرضونى المبلغ ، فما اضطر الى أن أسفح دماً • أما اذا لم يقرضونى فسوف يجرى الدم ! اقتلينى !

خادمك وعدوك

د• كارامازوف

أقنعت قراءة هذه « الوثيقة » ايفان • لقد اتضح له الآن أن القاتل هو أخوه دمترى وليس سمردياكوف • وما دام الخادم بريئاً ، فليس عليه هو ايفان ، أن يتهم نفسه بشىء • ومنذ تلك اللحظة أصبح ايفان يحمّل هذه الرسالة دلالة يقين رياضى ، وأصبح لا يساوره أى شك فى أن ميتيا هو هو القاتل • يحسن أن نذكر هنا أنه لم يخطر ببال ايفان فى لحظة من اللحظات أن يفترض أن جريمة القتل الذى ارتكبها ميتيا قد تمت بالتواطؤ مع سمردياكوف • ثم ان مثل هذا الافتراض لا ينسجم مع الوقائع •

خلاصة القول ان هذه الرسالة قد حملت الى ايفان طمأنينة تامة ، فلما أصبح في الغداة وتذكر سمردياكوف وسخرياته لم يشعر الا باحتقار ، حتى انه بعد بضعة أيام استغرب أن يكون قد شعر بذلك الألم كله من الغمزات المهينة التي وجهها اليه سمردياكوف • وقرر أن يتجاهله في المستقبل وأن ينساه نسياناً تاماً • ثم لم يسأل عن سمردياكوف أحداً ممن يعرفونه بعد ذلك ، ولكنه سمع مرةً أو مرتين أن سمردياكوف مريض جداً وأنه أصبح لا يبدو مالكاً كل عقله ؛ وقال عنه الطبيب الشاب فارفنسكي في ذات يوم انه « سيهوى الى الجنون » ، فحفظ ايفان هذه العبارة • وفي أثناء الأسبوع الأخير من هذا الشهر أخذ ايفان يحس هو نفسه بأنه مريض ، فقرر أن يستشير الطبيب الذي استقدمته كاترين ايفانوفنا من موسكو • وفي تلك الفترة بعينها انما كانت علاقاته بالمرأة الشابة قد توترت أقصى التوتر ، فهما يتعاملان تعامل عدوين يحب كل منهما الآخر • كانت رجعات كاترين ايفانوفنا الى الهيام الشديد بميتيا ، وهي رجعات طارئة لكنها عنيفة قوية، كانت تُخرج ايفان عن طوره وتخنقه أشد الخنق • شيء غريب : ان ايفان ، الى أن وقع ذلك المشهد الأخير الذي وصفناه والذي جرى في منزل كاترين ايفانوفنا حين زارها أليوشا بعيد زيارته ميتيا ، لم يسمع كاترين ايفانوفنا مرةً واحدة طوال الشهر ، تعبّر عن أي شك في أن ميتيا هو القاتل ، رغم « رجعاتها » الى هيامها به من حين الى حين ، وهي رجعات كانت ثقيلة الوطأة على نفس ايفان • ومن الأمور البارزة أن ايفان ، رغم احساسه بتزايد كرهه لميتيا يوماً بعد يوم ، كان يدرك ادراكاً تاماً أن كرهه لأخيه لم يكن سببه « رجعات كاتيا » هذه الى التوله به ، بل كان سببه أن « أخاه قد قتل الأب » • كان ايفان يعي ذلك وعياً قوياً ، ومع ذلك ذهب يزور ميتيا في السجن قبل بدء المحاكمة بعشرة أيام ، عارضاً عليه خطةً للهرب ، وهي خطة كان واضحاً

أنه أعدها منذ مدة طويلة • وانما قرر ايفان أن يقوم بهذا المسعى بسبب الحنق الشديد الذى أثاره فى نفسه قول سمردياكوف ، غامزاً ، انه ، هو ايفان ، يجنى نفعاً من اتهام أخيه ديمترى بالقتل ، لأن نصيبه ونصيب أليوشا من الميراث سيرتفعان عندئذ من أربعين الفاً الى ستين ألفاً • ان الجرح الصغير الذى أصاب قلبه من هذا الكلام الذى قاله سمردياكوف لم يمكن أن يندمل • لذلك قرر أن يضحى وحده بثلاثين ألف روبل ليدبر هرب ميتيا • وحين عاد ايفان من السجن بعد أن عرض هذا المشروع على أخيه ، أحس بحزن رهيب واضطراب فظيع يستوليان عليه : لقد تراءى له فجأة أنه يتمنى هرب أخيه من السجن لا ليتاح له أن يضحى بثلاثين ألف روبل وأن يشفى جرح قلبه ، لا لهذا فحسب ، بل لسبب آخر أيضاً • لقد تساءل : « ترى ألست أتمنى ذلك لأننى فى قرارة نفسى قاتل كأخى سواء بسواء ؟ » • وهذا ألم غامض بعيد ، ولكنه لاذع كاو ، يستيقظ فى قلبه • وكانت كبرياؤه خاصة هى التى قاست كثيراً خلال هذا الشهر ، غير أننا سنعود الى ذلك فيما بعد •

حين أمسك ايفان جرس بيته بعد أن ترك أليوشا ، قرر فجأة أن يرجع أدراجه ليذهب الى سمردياكوف • انه حين قرر ذلك انما خضع لغضب مفاجىء مرده الى سبب خاص • ذلك أنه تذكر فى تلك اللحظة أن كاترين ايفانوفنا قد صرخت تقول له أمام أليوشا منذ دقائق انه هو وحده الذى حاول اقناعها بأن ميتيا هو الجانى • فحين تذكر ايفان هذا الكلام أصيب بذهول شديد : انه لم يحاول أن يقنعها فى يوم من الأيام بأن القاتل ميتيا • بالعكس : لقد اتهم نفسه أمامها بعد زيارته السابقة لسمردياكوف • وهى ، هى التى وضعت أمام عينيه عندئذ « وثيقة » الاتهام تلك التى أرادت أن تبرهن بها على أن الجانى ميتيا • وها هى ذى تصرح له منذ لحظات أنها ذهبت هى نفسها الى سمردياكوف ! متى رأت

سمردياكوف اذن ؟ ان ايفان لا يعرف عن ذلك شيئاً • هل معنى هذا أنها لم تكن مقتنعة بأن ميتيا هو القاتل ؟ ما الذى يمكن أن يكون سمردياكوف قد ذكره لها ؟ ما الذى قاله لها على وجه الدقة ؟ استولى الحنق على ايفان ، واستغرب كيف لم ينتبه الى تلك الكلمات قبل نصف ساعة ، ولماذا لم ينفجر حينذاك ؟ وفيما كان على هذه الحال انما أرخى جرس بيته ، وأسرع يمضى الى سمردياكوف • وقد قال محدثاً نفسه أثناء الطريق : « قد أقتله فى هذه المرة ! » •

٨
ثالث وآخر اجتماع بسمردياكوف

لما قطع ايفان نصف الطريق هبّت ريح جافة شديدة تشبه الريح التى هبت فى الصباح • وأخذ يهطل ثلج ناعم كثيف يغطى الأرض دون أن يلتصق بها • فالريح تحمل الثلج وتدور به فى الفضاء ، وسرعان ما صار ذلك الى إعصار • ان الحىّ الذى يقيم فيه سمردياكوف من المدينة سىء الاضاءة ، ومصابيح الشوارع فيه قليلة نادرة • فكان ايفان يمشى فى الظلام غير عابىء بزوبعة الثلج ، متبعاً طريقه على هدى غريزته • كان فى رأسه صداع ، وكان صدغاه يدندنان ، فكان يشعر من ذلك باحساس أليم • وقد بلغت نبضات عروقه من القوة أنه خيّل اليه أن قبضتى يديه تتشنجان • وعلى مسافة قصيرة من البيت الحقير الذى تسكنه ماريا كوندراتيفنا التقى ايفان فيدوروفتش فجأةً بفلاح صغير سكران ، يلبس قفطاناً مرقعاً ، ويسير مترنحاً ، ويدمدم شاتماً ، ويقطع سبابه من حين الى حين فيأخذ فى الغناء بصوت أجش من أصوات السكارى :

سافر فاليا الى بيتر *
لكننى لن انتظره

ولكن السكران يتوقف عن الغناء كلما وصل الى البيت الثانى من الأغنية ، فيستأنف شتم أحد الناس ، ثم يرتد فجأة الى لازمته الأبدية •

كان ايفان قد سمع أصواته منذ برهة، فشعر نحوه بكره عنيف لاشعورى حتى قبل أن يراه . ولم يلبث أن أدرك سبب حنقه بغتةً، فودَّ لو يصرع الرجل بضربة يهوى بها على رأسه . وبينا هو كذلك اذ أصبح الاثنان جنباً الى جنب ، وكان الفلاح الصغير يترجح فى مشيته ويترنح فصدم ايفان صدمة قوية ، فما كان من ايفان الا أن دفعه حانقاً ، فهوى السكران على الأرض المتجلدة كتلة واحدةً بعد أن أطلق من صدره أنةً أليمة ثم لبث صامتاً . مال ايفان على الرجل ، فرآه راقداً على ظهره مغشياً عليه . فقال فى نفسه : « سيتجمد من البرد » ، ثم تابع طريقه .

وفى ممر البيت الصغير الذى يسكنه سمردياكوف ، قالت له ماريا كوندراتيفنا التى أسرعت تستقبل ايفان حاملةً بيدها شمعداناً ، قالت له فى همس ان بافل فيدوروفتش (أى سمردياكوف) مريض جداً ، وانه ان لم يكن عليه أن يلزم فراشه حتماً ، فانه لا يبدو مالكاً كل عقله ، حتى لقد رفض شرب الشاى الذى قُدِّم اليه وأمر برفعه .

سألها ايفان بلهجة شرسة :

ـ أهو يحاول جرسةً اذن ؟

فقالت ماريا كوندراتيفنا :

ـ بالعكس : انه هادىء كل الهدوء ، ولكنك تحسن صنعاً اذا لم تُطل حديثك معه حتى لا تتعبه .

فتح ايفان الباب ، ودخل غرفة الخادم .

كانت الغرفة مدفأة تدفئة شديدة ، كما فى الزيارة الأولى ، غير أن هناك تغيرات طرأت على ترتيب الأثاث : أُبعدت احدى الدكتين ووُضعت فى مكانها كنبة عتيقة عريضة من جلد ، لها مسند من خشب يحاكى خشب الأكاجو ؛ ولقد جُعلت هذه الكنبة سريراً عليه وسائد نظيفة .

كان سمرد ياكوف جالساً على تلك الكنبة مرتدياً معطف المنزل ذاك الذى كان يرتديه أثناء الزيارتين السابقتين • وقد دُفعت المائدة نحو الكنبة ، فأصبح المكان فى الغرفة ضيقاً • وكان على المائدة كتاب سميك ذو غلاف أصفر ، غير أن سمرد ياكوف لم يكن يقرأ ، وكان يبدو غير عاكف على القيام بأى عمل البتة • استقبل ايفان بنظرة طويلة صامتة ، ولم يظهر عليه أى استغراب لهذه الزيارة • وكانت قسمات وجهه قد انقلبت انقلاباً شديداً أثناء تلك الفترة • كان وجهه ناحلاً أصفر ، وكانت عيناه غائرتين ، وكانت جفناه السفليين مزرقتين •

قال ايفان فيدوروفتش للخادم وهو يقف أمامه :

ـ انك لتبدو مريضاً حقاً ! لن أمكث مدة طويلة ، ولن أخلع معطفى • هل من كرسى لى ؟

ودار حول المائدة ، وتناول كرسياً فدفعه نحو الكنبة وجلس •

قال ايفان مبتدئاً كلامه :

ـ لماذا تنظر الىّ هكذا ؟ لقد جئت لألقى عليك سؤالاً واحداً فى هذه المرة • ولكننى أحلف لك أننى لن أنصرف قبل أن تجيبنى • هل جاءت اليك كاترين ايفانوفنا ؟

صمت سمرد ياكوف برهة طويلة وهو ما يزال يتفرس فى ايفان بهدوء • ثم حرك يده باشارة تململٍ على حين فجأة ، وأشاح وجهه •

هتف ايفان يسأله :

ـ ما بك ؟

ـ لا شىء !

ـ كيف لا شىء ؟

ـ نعم جاءت ! فيم يعنيك هذا ؟ دعنى وشأنى !

ـ لا ، لن أدعك . متى جاءت ؟ أجب !

قال الخادم وهو يضحك ضحكة احتقار :

ـ نسيت .

ثم التفت نحو ايفان بحركة مفاجئة ، وألقى عليه نظرة مثقلة بكره هو ذلك الكره الشديد نفسه الذى سبق لايفان أن رآه فى عينيــه أثناء اجتماعه السابق به منذ شهر .

قال سمردياكوف :

ـ يبدو أنك مريض أنت نفسك . عجيب ! ان خديك خاسفتان ، وان قسمات وجهك منقلبة .

ـ دعك من صحتى وأجب عن سؤالى .

ـ ولماذا اصفرت عيناك ؟ لقد اصفر بياض عينيك يا سيدى . لعل ذلك يرجع الى أنك تتعذب كثيراً .

قال سمردياكوف ذلك وهو يطلق ضحكة احتقار من جديد ، ثم أخذ يقهقه صراحةً .

هتف ايفان يقول وقد بلغ أوج الغضب والحنق :

ـ أكرر ما قلته : لن أنصرف من عندك قبل أن تجيبنى .

فقال سمردياكوف بلهجة أليمة :

ـ لماذا تعذبنى ؟ ماذا تريد منى ؟

ـ شيطان يأخذك . أنا لست أهتم بك أنت. أجبنى فأتركك حالاً.

قال سمردياكوف وهو يغض طرفه من جديد :

ـ لن أجيبك !

ـ سأعرف كيف أجبرك على أن تجيبنى • صدقنى !

سأله سمردياكوف وهو يحدّق اليه على حين فجأة ، معبراً فى هذه المرة لا عن احتقار فحسب، بل عن شعور يشبه الاشمئزاز والتقزز أيضاً :

ـ لماذا أنت مضطرب هذا الاضطراب ؟ أبسبب تلك المحاكمة التى تبدأ غداً ؟ ولكن لا خوف عليك أنت ، اطمئن أخيراً • ارجع الى منزلك، وارقد هادىء البال ، ونم مرتاحاً لا يساورك أى جزع !

ـ لا أفهم ما تريد أن تقول ••• ما الذى يمكن أن اخشاه أنا من الغد ؟

كذلك قال ايفان مدهوشاً ، ثم لم يلبث أن شعر فجأة بخوف غريب يجتاح نفسه ويبث برداً فى ظهره •

ألقى عليه سمردياكوف نظرة فاحصة من أخمص قدميه الى قمة رأسه ، ثم قال له بلهجة بطيئة مليئة بالعتب :

ـ أ•• لا •• تف ••• هم ؟ أية لذة يجد الرجل الذكى فى تمثيل مهزلة كهذه ؟

نظر اليه ايفان صامتاً • ان هذه اللهجة غير المتوقعة ، المليئة بتعال غير معهود ، التى كلمه بها خادمه القديم ، كانت وحدها كفيلة بأن تدهشه ، لأن سمردياكوف لم يسمح لنفسه يوماً الى الآن ، حتى أثناء اجتماعيهما السابقين ، أن يصطنع هذا الوضع •

وتابع سمردياكوف كلامه :

ـ أكرر أنك لا خوف عليك ، فلا تخش شيئاً ؟ لن أشهد ضدّك ، وليس هناك أى برهان يمكن الاستناد اليه لاتهامك أنت • ما هذا ؟ ما ليديك ترتجفان ؟ لماذا تختلج أصابعك هذا الاختلاج ؟ ارجع الى منزلك • لست أنت القاتل !

ارتعش ايفان متذكراً كلمات أليوشا • وتمتم يقول :

ـ أعرف هذا • لست أنا •••

فكرر سمردياكوف يقول :

ـ تعرف هذا ؟

فوثب ايفان وأمسك سمردياكوف من كتفه وقال :

ـ تكلم ، قل الحقيقة أيها الثعبان ! قل كل ما تعرفه •

لم يظهر على سمردياكوف أنه خاف أى خوف ، واكتفى بأن ألقى على ايفان نظرة مثقلة" بكره شديد • ثم انطلق قائلاً" بصوت صافر مسموم :

ـ آ ••• أهكذا ؟ اعلم اذن أنك أنت الذى قتلته •

فتهالك ايفان على كرسيه ، وبدا عليه الغرق فى خواطره وأفكاره • ثم ابتسم ابتسامة خبيثة •

ـ أتقول هذا بصدد تلك القصة نفسها ؟ بصدد تلك الاستنتاجات والاستدلالات الغبية التى حدثتنى فيها المرة الماضية ؟

ـ تماماً • ثم انك قد فهمتنى فى المرة الماضية حق الفهم ، وأنت تفهمنى اليوم كل الفهم •

ـ كل ما أفهمه هو أنك مجنون •

ـ ألم تكتف بعد ؟ نحن هنا وحيدان ، وليس ثمة شهود • فلماذا هذه المراوغة ، لماذا يخادع أحدنا الآخر ؟ اللهم الا أن تكون ما تزال تنوى أن تلقى التبعة كلها علىّ ، علىّ وحدى ! ألا تشعر بخجل منى ؟ انك أنت الجانى الرئيسى ، انك أنت القاتل الحقيقى ، أما أنا فلم أكن الا مساعدك ، لم أكن الا خادمك « لتشاردا » * الوفى الأمين • لقد قمت بما قمت به مستلهماً أقوالك وايحاءاتك •

سأله ايفان وهو يشعر بأنه قد تجمد من شدة الهلع :

ـ قمت بما قمت به ؟ أأنت الذى قتلته اذن ؟

أحسّ ايفان بتزلزل نفسى ، وسرت فى جسمه كله رعدات صغيرة باردة . فنظر اليه سمردياكوف عندئذ مدهوشاً بعض الدهشة . لكأن صدق الجزع الذى أصاب ايفان قد خطف بصره أخيراً .

دمدم سمردياكوف يسأل ايفان بشىء من الشك وهو ما يزال ينظر اليه نظرة مواربة ويحبس ضحكة ساخرة :

ـ هل يُعقل حقاً أن لا تكون قد عرفت شيئاً ؟

ظل ايفان يتفرس فى الخادم ، وكأنه أصبح أبكم لا يستطيع الكلام . وترجّعت فى رأسه هذه اللازمة على حين فجأة :

سافر فانيا الى بيتر
لكننى لن انتظره

ثم قال أخيراً :

ـ انى لأتساءل أأنا فى حلم ؟ ألا يمكن أن تكون شبحاً ظهر لى ؟

ـ لا شبح هنا . لا أحد الا نحن الاثنين ، وثالثاً أيضاً . وهو الآن هنا ذلك الثالث ، هو حاضر بيننا حتماً فى هذه اللحظة .

ـ من هو ؟ من ؟ من هنا ؟ عن أى ثالث تتكلم ؟

كذلك سأله ايفان فيدوروفتش مذعوراً ، وهو ينظر حواليه ، ويبحث بعينيه القلقتين عن أحد فى زوايا الغرفة .

قال سمردياكوف :

ـ الثالث هو الله . ان الله حاضر بيننا الآن . ولكن لا تبحث عنه ، لأنك لن تراه .

انفجر ايفان فجأة وزأر يقول :

ـ كذبت حين زعمت أنك أنت الذى قتلته . أمران لا ثالث لهما : فاما انك مجنون ، واما أنك تسخر منى كما فعلت فى المرة الماضية !

ظل سمردياكوف هادئاً . ولم يحفل بغضب ايفان ، وانما كان يتفرس فيه بانتباه واستطلاع . انه لم يستطع أن يتغلب على شكه وارتيابه، لأنه كان يتصور ، حتى فى هذه اللحظة ، ان ايفان « يعرف كل شيء » ، وأنه يتظاهر بالجهل تظاهراً ، « بغيـة أن يلقى التبعة كلها عليه ، هو سمردياكوف ، وأن يجبره على قبول هذا الوضع » .

وقال أخيراً بصوت ضعيف واهن :

ـ انتظر قليلاً .

وسحب ساقه اليسرى من تحت المائدة ، وأخذ يشمر سرواله .

ظهرت قدمه فى حذاء المنزل ، ثم ظهر جورب طويل أبيض . وبدون تعجل ، حلَّ حمالة الجورب ، وأغطس يده الى القاع . كان ايفان فيدوروفتش ينظر اليه وهو يفعل ذلك ، فاذا هو يأخذ بالارتعاش فجأة ، واذا بذعر متشنج يستولى عليه . وهتف يقول :

ـ جُنَّ عقله ، جنَّ عقله .

ثم وثب عن مكانه ، وتراجع الى الوراء بحركة بلغت من القوة أنه صدم الجدار بظهره ، ثم لبث لاصقاً بالجدار ، متصلباً كعصا .

كان يتأمل سمردياكوف بهلع لا حدود له . لم يضطرب سمردياكوف من ذعر ايفان ، واستمر ينبش قاع جوربه ، محاولاً أن يقبض بأصابعه على شيء مخبأ هناك . وظفر بهذا الشيء أخيراً ، فأخرجه. رأى ايفان أن هذا الشيء هو أوراق أو حزمة من أوراق . ووضع سمردياكوف الحزمة على المائدة . وقال بصوت خافت :

ـ هو ذا •••

فسأله ايفان الذى كان يرتعش :

ـ ما هذا ؟

فأجابه سمردياكوف بصوت خافت أيضاً :

ـ أنظر فترى •

دنا ايفان من المائدة ، وتناول الحزمة ، وأخذ يفضها • فاذا هو يسحب أصابعه فجأة ، كأنه قد لمس شيئاً مقززاً أو دنيئاً •

قال سمردياكوف :

ـ أصابعك ترتجف يا سيدى !

ثم تولى فض الحزمة بنفسه دون تعجل • فظهرت تحت الورقة التى تلف الحزمة ، ظهرت ثلاث رزم من أوراق مالية من فئة المائة روبل •

وأضاف سمردياكوف قائلاً وهو يومىء الى المبلغ :

ـ المال كله هنا • ثلاثة آلاف روبل بالتمام والكمال • لا داعى الى العد •

تهاوى ايفان على الكرسى ، وقد اصفر وجهه اصفراراً شديداً • ثم دمدم يقول بضحكة غريبة :

ـ روّعتنى ••• بسبب جوربك •••

عاد سمردياكوف يسأله :

ـ هل يُعقل ، هل يمكن حقاً أن لا تكون قد عرفت شيئاً حتى الآن ؟

ـ كنت أجهل كل شيء • كنت أظن أن دمترى هو القاتل •

ثم صاح ايفان يقول وهو يمسك رأسه بيديه :

ـ أخي ! أخي ! آه ••• رباه ! ••• اسمع : هل قتلته وحدك ؟ هل قتلت بمساعدة أخي أم بدون مساعدته ؟

ـ لم يكن لى شريك فى الجريمة سواك • أنا انما قتلت بالتواطؤ معك • أما دمترى فيدوروفتش فهو برىء براءة كاملة •

ـ طيب ، طيب ، سنتحدث عنى أنا فيما بعد• ما لى ارتجف هكذا ؟ اننى لا أتوصل الى أن أحسن الكلام •••

قال سمردياكوف مدهوشاً :

ـ كنتَ فى الماضى أكثر جرأة وأعظم جسارة حين كنتَ تقول : « كل شىء مباح » • وهأنت ذا اليوم مذعور أشد الذعر • هل تقبل أن تشرب كأساً من شراب الليمون ؟ سآمر لك بكأس من شراب الليمون ، فانه يحسن اليك • ولكن يجب أولاً اخفاء هذا •

قال سمردياكوف ذلك وهو يومىء الى حزمة الأوراق المالية •

واتجه نحو الباب على نية استدعاء ماريا كوندراتيفنا ليأمرها باعداد شراب الليمون واحضاره • ولكن عدل عن ذلك فجأة ، وحاول أن يبحث شىء يمكنه أن يخفى به الأوراق المالية حتى لا تراها تلك المرأة ، فأخرج فى أول الأمر منديله • ولكنه لاحظ أن المنديل وسخ جداً فأعاده الى جيبه وتناول الكتاب السميك الأصفر الذى لاحظه ايفان على المائدة حين دخل ؟ فجعله غطاءً يخفى تحته الحزمة • واستطاع ايفان فيدوروفتش أثناء ذلك أن يقرأ عنوان الكتاب قراءة آلية : « مواعظ أبينا المقدس اسحق السورى » * •

وقال ايفان بعد ذلك :

ـ لا أريد شيئاً من شراب الليمون • سنتحدث عنى أنا فيما بعد • اجلس الآن واقصص علىّ : ماذا فعلت لتقتله ؟ قل الحقيقة كلها •

ـ يجب أن تخلع معطفك والا شعرت بحر شديد ونضح منك العرق .

خلع ايفان معطفه بسرعة ، كأنه لم يخطر بباله ذلك الا فى تلك اللحظة ، ورمى المعطف على الدكة دون أن ينهض من مكانه .

ـ تكلم الآن ، أرجوك ، تكلم .

كان قد هدأ روعه ، فهو ينتظر واثقاً أن سمردياكوف سيقول له الحقيقة « كلها » .

بدأ سمردياكوف كلامه وهو يتنهد :

ـ ماذا فعلت ؟ الأمر بسيط جداً . استوحيت أقوالك أنت ، ف ...

قاطعه ايفان قائلاً دون أن يصيح كما كان يصيح من قبل ، ولكنه ينطق الآن بكلماته واضحةً كل الوضوح ، ويبدو أنه استرد سيطرته على نفسه تماماً :

ـ ستتحدث عن أقوالى أنا فيما بعد . أما الآن فأشرح لى بالتفصيل كيف تدبرت الأمر . ابسط الوقائع مرتبةً ولا تسقط أى تفصيل من التفاصيل . أريد أن تذكر التفاصيل ، التفاصيل خاصة . أنا مصغ اليك.

ـ بعد سفرك سقطت فى القبو ...

ـ أسقطت بنوبة صرع صادقة أم سقطت متظاهراً بنوبة صرع ؟

ـ متظاهراً طبعاً . تظاهرت بنوبة الصرع الى النهاية . هبطت سلّم القبو بهدوء حتى آخر درجة من درجاته ، ثم استلقيت على الأرض بهدوء أيضاً . حتى اذا صرت راقداً على الأرض أخذت أعول ، وظللت أتخبط حين نقلونى .

ـ لحظة . اذن كنت تتظاهر طول الوقت ، أليس كذلك ؟ وفى المستشفى بعدئذ أيضاً ؟

ـ لا • ففى صباح الغد ، قبل نقلى الى المستشفى أُصبت بنوبة صرع صادقة ، وكانت نوبة عنيفة جداً لم أعان مثلها منذ سنين • ولبثت يومين كاملين مغشياً علىّ •

ـ طيب • طيب • أكمل كلامك •

ـ أرقدونى على مضجع وراء حاجز غرفة جريجورى فاسيلتش • كنت أتوقع ذلك ، لأن مارفا اجناتفنا قد اعتادت أن ترقدنى هناك ، على مقربة منها ، حين أمرض • لقد أحاطتنى دائماً بكثير من الحنان منذ ولدت • وفى الليلة التالية كنت أئن ، ولكن أنيناً ضعيفاً ، بانتظار دمترى فيدوروفتش •

ـ كيف ؟ هل كنت تنتظر مجيئه اليك فى غرفتك ؟

ـ لا ••• علام يجىء الى غرفتى ؟ كنت أنتظر وصوله الى الدار • ذلك أننى كنت واثقاً كل الثقة بأنه سيجىء فى تلك الليلة• كان لا بد له ، وقد حُرم من معونتى وانقطعت عنه الأنباء التى أزوده بها ، كان لا بد له حتماً من أن يتسلل الى الدار متسلقاً السور كما يجيد ذلك ، ليعرف من ذا أتى ، وليتصرف على ضوء ذلك •

ـ فماذا لو لم يجىء ؟

ـ لو لم يجىء لما وقع شىء • لولا أنه جاء لما عزمت أمرى •

ـ طيب ، طيب •• تكلم بمزيد من الدقة ، ولا تتعجل • وخاصةً لا تسقط أى تفصيل من التفاصيل !

ـ كنت أتوقع أن يقتل فيدور بافلوفتش • ذلك أمر ما كان يمكن أن لا يحدث • كنت قد أثرته اثارة شديدة فى الأيام الأخيرة ••• ثم لقد كان يعرف الاشارات السرية ••• فلم يكن يمكنه ، وهو فيما هو فيه من شك قوى وحنق مسعور ، الا أن يستعين بهذه الاشارات ليدخل المنزل • كان هذا مرتباً من قبل • لذلك كنت انتظره موقناً أنه آتٍ لا محالة •

قاطعه ايفان قائلاً :

ـ لحظة ! لو قتل لاستولى هو على المال • أما كان ينبغي لك أن تفكر على هذا النحو ؟ فأية فائدة كان يمكنك أن تجنيها في هذه الحالة ؟ لست أفهم •

ـ دعك من هذا الكلام ! ما كان له أن يعثر على الظرف المودع فيه المال • أنا وحدى الذى أوهمته بأن الظرف مخبأ تحت الفراش • ولكن ذلك كان كذباً منى • كان فيدور بافلوفتش يخفى المبلغ قبل ذلك فى صندوق صغير • ولما كنت الانسان الوحيد الذى يثق به ويركن اليه فقد نصحته بأن يدس الظرف خلف الأيقونات فى زاوية الغرفة حيث لا يخطر ببال أحد أن يبحث عنها ، ولا سيما اذا كان سارقاً يتعجل الهروب • فهناك ، وراء الايقونات ، انما كان المال مخبأً لحظة وقوع الجريمة • أما وضع الثلاثة آلاف روبل تحت الفراش ، فهو فكرة غبية بليدة أفضلُ منها أن يوضع المبلغ فى الصندوق الصغير • لقد اعتقد جميع الناس هنا أن المال كان تحت الفراش• ذلك تفكير أبله• نعود الى دمترى: لو قتل دمترى أباه لما عثر على المال ، ولأسرع يهرب متحاشياً أن يحدث ضجة • هكذا يتصرف القتلة دائماً • والا لضُبط واعتُقل • وكيف دار الأمر ، فاننى أستطيع فى الغد أو حتى أثناء تلك الليلة نفسها أن أمضى آخذ المال من خلف الأيقونات ، فأحمله الى مسكنى • وكانت السرقة ستُنسب عندئذ الى دمترى فيدوروفتش• يحق لى أن أتوقع ذلك•

ـ فاذا لم يقتل دمترى أباه ، ولم يزد على أن يصرعه ؟

ـ اذا لم يقتله ، لا أجرؤ أن آخذ المال طبعاً • هذا بديهى• وتكون خطتى قد اخفقت • على أننى كنت افترض ، فيما اجريته من حسابات ، أن دمترى كان سيبلغ من صرعه أباه أن الأب كان سيفقد وعيه ويسقط

مغشياً عليه • وكنت سأنتهز عندئذ هذه الفرصة فآخذ المال ، ثم أوهم فيدور بافلوفتش بعد ذلك أن السرقة من صنع دمترى ، وأن دمترى قد سطا على المال بعد أن ضربه •

ـ لحظة أخرى ••• اننى لا أفهم بوضـوح ••• هل دمترى هو الذى قتل اذن ، ثم لم تزد أنت على أن سرقت المال ؟

ـ لا ، ليس هو الذى قتل • لقد كان سهلاً علىّ ، حتى فى هذه اللحظة ، أن أزعم أنه هو القاتل ••• ولكننى لا أريد أن أكذب عليك، لأننى ••• لأننى أدرك الآن أنك لم تفهم شيئاً البتة حتى هذه اللحظة ، وأنك لم تكن تمثل تمثيلاً لتلقى التبعة كلها علىّ ، ولتجعلنى أقبل هذا الوضع • ومع ذلك فانك أنت الجانى الأكبر فى هذه القضية ، لأنك كنت على علم بما كان يتهيأ ، وقد كلفتنى بأن أقتل أباك • وسافرت بعد ذلك وأنت تعرف ما سيحدث • لهذا أصرّ على أن أؤكد لك جازماً ، فى هذا المسـاء ، أن القـاتل الرئيسى هو أنت ، أنت وحـدك ! أما أنا فلست الا معاون قاتل ، معاوناً ثانوياً ، رغم أن القتل قد تم بيدى • أنت القـاتل شرعاً ، أنت ، أنت !•••

هتف ايفان أخيراً يقول وقد نفد صبره ، ناسياً أنه منذ لحظة قد أرجأ الحديث عن نفسه الى ما بعد :

ـ كيف أكون أنا القاتل ؟ آه ••• يا رب !••• أبسبب سفرى الى تشرماشنيا أيضاً ؟ قل لى اذن : لماذا كنت تحرص ذلك الحرص كله على موافقتى اذا كنت تؤول سفرى وحده على أنه موافقة ؟ هل لك أن تشرح لى هذا التناقض ؟

ـ حين أثق بأنك موافق، أعلم أنك لن تحدث فضيحة عند عودتك، بسبب اختفاء الثلاثة آلاف روبل ، اذا اشتبهت فىّ السلطات بدلاً من أن

تعتقل دمترى فيدوروفتش ، أو اذا هى عدتنى شريكاً له فى الجريمة ، حتى لقد تدافع عنى فى هذه الحالة • ثم انك بعد تنال نصيبك من الميراث قد تكافئنى أثناء حياتك • ألم تنل هذا الميراث بفضيلى أنا ؟ فلو قد تزوج أبوك أجرافين ألكسندروفنا ، لما آل اليك كوبك واحد من تلك الثروة كلها !•

دمدم ايفان يقول كازاً أسنانه :

ـ ها ••• كنت تنوى اذن أن تضطهدنى طوال حياتى ! ولكن ما الذى كان يحدث لو أننى أبلغت عنك حينئذ بدلاً من أن أسافر ؟

ـ لا تملك دليلاً ضدى • ليس يكفى لاتهامى أن أكون قد حضضتك على السفر الى تشرماشنيا • وهذا كله سخافات على كل حال ! هناك أمران لا ثالث لهما : اما أن تسافر بعد الحديث الذى دار بيننا ، واما أن تبقى هنا • فلو بقيت لما حدث شىء البتة ، لأننى أفهم عندئذ أنك لا تريد وقوع جريمة القتل ، فأمتنع عندئذ عن الشروع فى العمل • أما اذا سافرت فانك تجعلنى أوقن أنك لن تشى بى الى القضاء وأنك ستغفر لى سرقة الثلاثة آلاف روبل • ومن جهة أخرى ، فانك لم تكن تستطيع ملاحقتى ، لأن من الممكن أن اكشف أمام المحكمة عن كل شىء ، وأن أذكر لا أننى سرقت وقتلت ـ فذلك ما لم أكن لأقوله بداهة ـ وانما أذكر أنك حرضتنى على أن أسرق وأن أقتل ، وأننى رفضت ذلك • لقد كنتَ اذن فى حاجة الى موافقتك بغية أن لا تزعجنى بعد ذلك ، فما هى الأدلة التى تملكها ضدى ؟ ولا كذلك أنا ، فاننى أستطيع أن أزعجك فى كل لحظة ، بالكشف عن رغبتك القوية العارمة فى موت أبيك • ويميناً ان جميع الناس كانوا سيصدقون كلامى ، وان سمعتك كانت ستسوء الى الأبد ، وان شرفك كان سيلطخ مدى الحياة •

سأله ايفان غاضباً غضباً شديداً :

ـ أنت تزعم اذن أنني أتمنى بحرارة وقوة أن يموت أبي . فهل صحيح أنني تمنيت ذلك ؟

أجاب سمردياكوف بلهجة ثابتة وهو يحدق الى ايفان :

ـ لا شك اطلاقاً في أنك تمنيت ذلك ، ولقد كلفتني ضمناً بارتكاب هذه الجريمة ، دون أن تطلب مني هذا الطلب بكلام ملفوظ صريح .

كان سمردياكوف ضعيفاً جداً ، وكان يتكلم بصوت أجش متعب ، ولكن نوعاً من هوى متأجج سرى كان يجيش في نفسه ويحرك لسانه . كان واضحاً أنه يهدف الى غاية ما . وقد أحس ايفان بذلك .

قال له ايفان آمراً :

ـ كمّل . اقصص تفاصيل وقائع تلك الليلة .

ـ ماذا أقصُّ أيضاً ؟ كنت راقداً على مضجعي ، فاذا أنا يتراءى لي انني أسمع صوتاً يطلقه أبوك . كان جريجوري فاسيلتش قد خرج قبل لحظات ، وسُمع يُعول على حين فجأة ، ثم ارتد كل شيء الى صمت مطبق . كنت انتظر في الظلمات راقداً ، وكان قلبي يخفق خفقاناً قوياً يكاد ينشق له صدري . لم أطق صبراً ، فنهضت أخيراً وخرجت . في اليسار ، كانت النافذة المطلة على الحديقة مفتوحة . سرت بضع خطوات أيضاً لأتجسس على أبيك ، ولأعرف أهو ميت أم حي . سمعته يضطرب ويتنهد . قلت لنفسي : « اذن مايزال حياً ! اذن أخفقت الخطة ». اقتربت من النافذة وناديت أباك قائلاً : « هذا أنا ، لا تخف! ». فأجابني: « لقد جاء ، جاء ثم هرب ! » . كان يقصد دمتري فيدوروفتش .

وأضاف يقول : « لقد قتل جريجورى فاسيلتش » . سألته هامساً : « أين وقع هذا ؟ » فأجابنى بهمس أيضاً : « هناك ، فى الركن » . قلت له : « انتظر لحظة » . واتجهت نحـو الركن الذى دلنى عليـه ، فاكتشـفت جريجورى فاسيلتش عند أسفل السـور راقداً على الأرض ، مضرجاً بالدم ، مغشياً عليه . « صحيح اذن أن دمترى فيدوروفتش قد جاء » . هاجتنى هذه الفـكرة فوراً ، فسرعان ما قررت أن أتولى بنفسى اكمـال المهمة واتمام الأمر ، لأن جريجورى فاسيلتش ، حتى ولو كان مايزال حياً ، لن يستطيع أن يرى شيئاً ولا أن يسمع شيئاً وهو فيما هو فيه من اغماء . والخطر الوحيد هو أن تسـتيقظ مارفا اجناتفنا فجأة . شـعرت شعوراً واضحاً ، فى تلك اللحظة، بالخطر الذى أتعرض له اذا استيقظت مارفا اجناتفنـا ، ولكن الاغـراء كان أقوى من أن أتراجع ، وشـعرت باندفاع مسعور يقطّع أنفاسى . عدت الى النـافذة التى كان أبوك واقفاً عندها وقلت له : « جاءت ، جاءت أجرافين الكسـندروفنا . هى هنـا ، وتطلب أن تدخل » . فارتعش من شدة الانفعال كطفل صغير ، وطفق يسألنى : « أين ؟ أين هى ؟ » . كان لا يستطيع أن يسيطر على نفسه من فرط الهياج ، ومع ذلك لم يصدّق بعد تصديقاً تاماً . قلت أجيبه : « هى هنا . انها تنظر . هلاّ فتحت البـاب ! » . كان ينظر الىّ من النافذة حائر النظرة مرتبك الهيئة ، متسائلاً أيجب عليه أن يصدقنى أم لا ، ولكنه تردد فى فتح الباب . قلت فى نفسى : « هو الآن خائف منى أنا » . أمر غريب مضحك : خطر ببالى فى تلك اللحظة فجأة أن أقرع زجاج النافذة بالاشـارات المتفق عليها ايذاناً بوصول جروشنكا . فعلت ذلك ، فاذا به ، هو الذى لم يصدّق أقوالى ، اذا به يقتنع فجأة باشاراتى فيسرع يفتح الباب فوراً . فتح الباب ، فاردت أن أدخل ، ولكنه وقف أمامى يمنعنى من العبور ويسألنى مرتعشاً : « أين هى ؟ أين ؟ أين ؟ » .

قلت لنفسي : « اذا كان خائفاً مني هذا الخوف ، فمعنى ذلك أن الأمور تجرى مجرى سيئاً » • وفى تلك اللحظة • أحسست بساقيّ تخوران اذ تصورت أنه لن يدع لى أن أدخل غرفته ، أو أنه سيأخذ يصرخ ، أو أن مارفا اجناتفنا ستجيء مسرعة ، أو ما لا أدرى أيضاً • لا أتذكر الآن تذكراً جيداً ما حدث فى نفسى عندئذ • لا بد أن وجهى كان قد اصفر اصفراراً شديداً • دمدمت أقول : « هى هناك ، أمام النافذة ، كيف لا تراها ؟ » • قال : « ائت بها الى هنا ، ائت بها الى هنا » • قلت : « لقد خافت • روّعتها الصرخة التى أطلقها جزيجورى فاسيلتش ، فاختبأت وراء الأشجار • هيّا ، نادها أنت من النافذة » • عاد يدخل البيت ، ومضى الى غرفته ، ودنا من النافذة فوضع على حافتها شمعة مشتعلة ، وصاح ينادى : « جروشنكا ! جروشنكا ! أأنت هنا ؟ » • ولكنه لم يشأ أن يميل من على النافذة حتى لا يبتعد عنى ، وذلك بسبب خوفه • كان يخشانى فى تلك اللحظة خشيةً رهيبة ، لذلك لم يبتعد عنى قيد انملة • قلت له وأنا اقترب من النافذة وأميل بنفسى الى الخارج : « ها هى ذى ! وراء تلك الأشجار • هل رأيتها ؟ انها تبتسم لك • انظر ! » • صدقنى فجأة ، وأخذ يرتعش ، لأنه كان مغرماً بها أشد الغرام ! عندئذ انما مال من على النافذة تماماً • لم أضيّع ثانية واحدة ، تناولت ضاغطة الورق المعدنية التى كانت موضوعة على المنضدة ، لا شك أنك تتذكرها • انها تزن ثلاثة أرطال تقريباً • رفعتها ، وهويت بها على رأس أبيك بكل ما أوتيت من قوة • فلم تخرج من صدره حتى صرخة واحدة • كل ما حدث أنه تهاوى • وضربته مرة ثانية ، فمرة ثالثة ؛ وفى المرة الثالثة شعرت أننى حطمت جمجمته • سقط على الأرض منقلباً ، مضرجاً بدمه • نظرت الى نفسى لأرى هل تلطخت ، فلاحظت أن ثيابى نظيفة لم ينبجس عليها شيء من الدم • مسحت ضاغطة الورق ، وأرجعتها

الى مكانها • ثم اتجهت نحو الايقـونات ، فأخرجت المال من الظرف ، ورميت الظرف على الارض ، وحرصت على أن اضع جانبا ، الشريط الوردى الذى كان يلف الظرف • وبعـد ذلك نزلت الى الحديقـة وأنا ارتعش ارتعاشاً شديدا ، فمضيت رأسا الى الشجرة المجوفة الساق ، تلك التى تعرفها ••• كنت قد اخترت هذه الشجرة مخبأ منذ مدة طويلة ، حتى لقد وضعت فيها ورقاً وخرقة استعداداً لذلك اليوم • لففت الاوراق الماليـة بالورقـة ، ثم غلفت الورقـة بالخـرقة ، ودسست الرزمة فى بطن الشجرة الجوفاء • بقيت الرزمة هنالك أسبوعين • ولم أخرجها الا بعدة مدة ، عقب خـروجى من المستشـفى • عـدت الى بيتى ، فرقدت على مضجعى ، وأخذت أفكر عندئذ مذعوراً : « اذا كان جريجورى ميتاً ، فقد فسد كل شىء ودارت علىّ الدوائر ، أما اذا كان حياً فصحا من اغمائه فسوف يجرى كل شىء على خير وجه ، لأنه سيشهد بأن دمترى قد جاء فعلاً ، وسيستنتجون من ذلك أنه هو الذى قتل وسرق المال » • وبينا أنا فى هذا القلق وهذا الاضطراب ، أخـذت أئن لأوقظ مارفا اجناتفنا بأقصى سرعة • فاستيقظ مارفا أخيراً وهرعت الى • ولاحظت فجأة أن جريجورى فاسيلتش غائب ، فأسرعت الى الحديقـة وأخذت تعـول • وأنت تعرف التتمة ، وتعرف ما حدث بعد وقوع الجريمة • ومنذ ذلك الحين شعرت باطمئنان كامل •

هنـا توقف سـمردياكوف عن الكلام • وكان ايفان يصغى اليـه صامتاً كصمت ميت ، لا يتحرك ولا يحول عنـه بصره لحظة واحـدة • وكان سمردياكوف أثناء حديثه لا ينظر اليه الا نادراً ، واذا نظر اليه نظر اليه خلسةً • لقد كان واضحاً أن سمردياكوف يؤثر أن يتحاشى نظرة ايفان فيدوروفتش ويحاول اتقاءها • فلما فرغ من كلامه بدا عليه الانفعال هو أيضاً ، وأصبح يتنفس تنفساً ثقيلاً ، وظهرت على جبينـه

قطرات عرق • ومع ذلك كان يستحيل على المرء أن يعرف أهو يشعر بندم أم لا •

وكان ايفان يفكر ، فعاد يقول له :

ـ لحظة • والباب ؟ اذا كان أبى لم يفتح الباب الا لك وحدك ، فكيف رآه جريجورى مفتوحاً قبل ذلك ؟ ان جريجورى يؤكد أنه رأى الباب مفتوحاً •

شىء غريب : ان ايفان يلقى الآن أسئلته بلهجة هادئة كل الهدوء ، دون أى اهتياج أو حنق ، فلو دخل شخص الى الغرفة فى تلك اللحظة ، وألقى من العتبة نظرة على المتحادثين ، لأحس أنه يشهد حديثاً هادئاً ودياً صداقياً يدور بين الرجلين على أمور عادية وان تكن هذه الأمور تعنيهما بعض العناية •

أجاب سمردياكوف يقول مبتسماً ابتسامة فيها مكر وسخرية :

ـ أما حكاية الباب الذى يزعم جريجورى فاسيلتش أنه رآه مفتوحاً ، فذلك وهم منه لا أكثر • أؤكد لك أن جريجورى ليس رجلاً ، بل هو خروف عنيد • انه لم ير شيئاً البتة ، ولكنه يتخيل أنه رأى الباب مفتوحاً ، وما من أحد يستطيع أن يزحزحه عن اعتقاده هذا • من حظنا كلينا أنه وضع هذه الفكرة فى رأسه ، لأن هذه الواقعة تدين دمترى فيدوروفتش ادانة حاسمة •

قال ايفان وقد بدا عليه أنه فقد تسلسل أفكاره من جديد ، وأنه يحاول أن يفهم شيئاً ما :

ـ اسمع أيضاً ••• أردت أن ألقى عليك أسئلة أخرى •••

ولكنني سيت ما الذى كنت أريد أن أسألك عنه ••• لقد تاه عقلى تماما ••• ها ••• نعم ! اشرح لى هذه النقطة على الأقل : لماذا فضضت الظرف ثم تركته على أرض الغرفة ؟ لماذا لم تأخذ الظرف مع المال ؟ ••• لقد تراءى لى ، أثناء حديثك ، أنك قد فعلت ذلك عامداً ، وأن ذلك كان أمراً ضروريا ••• ولكننى لا أفهم لماذا كان ذلك ضرورة •••

ــ فعلت ذلك لسبب معيّن • لو ارتكب الجريمة شخص يعرف المنزل ويعرف نيات أبيك ، مثلى أنا ، شخص لعله سبق أن رأى المال ، ولعله شهد صرّه أو حتى ساهم فى صرّه ، فان ذلك الشخص ما كان ليحتاج الى فض الظرف بعد ارتكاب الجريمة ، لا سيما وهو يستعجل الهروب سريعاً ، ذلك أنه يعرف على وجه اليقين أين يوجد المال • لو كان القاتل واحداً من أهل الدار ، مثلى أنا ، لاكتفى بدسّ الظرف فى جيبه دون أن يفضّه ، ولولّى هارباً بأقصى سرعة • ولا كذلك شأن أخيك دمترى فيدوروفتش : فلقد كان لا يعلم بوجود هذا الظرف الا عن طريق السماع ، ولم يره بعينيه فى يوم من الأيام • فاذا فرضنا أنه أخرجه من تحت الفراش ، كان عليه أن يفضه حتماً ليتأكد من وجود المال فيه ، ثم كان لا بد أن يلقى الظرف على الأرض متعجلاً ، دون أن يتسع وقته للتفكير فى أن هذا الظرف يمكن أن يكون شهادةً عليه • ان هذا الطيش هو من شأن جميع اللصوص المبتدئين ، فهم لا يفكرون فى الأمور ولا يتبصرون بالعواقب • يجب أن لا ننسى ان دمترى فيدوروفتش نبيل المحتد ، وأنه لم يسرق فى يوم من الأيام حتى ذلك الحين • واذا قرر أن يسرق فى هذه المرة فلأنه يرى أن الأمر ليس أمر سرقة البتة ، وانما هو استردادٌ لمالٍ يخصه شرعاً • كان دمترى فيدوروفتش قد أعلن ذلك فى المدينة كلها سلفاً ، حتى لقد تفاخر أمام شهود بأنه سيمضى يسترد حقه من فيدور بافلوفتش • اننى لم أفصح عن

هذا التفكير صراحةً فى شهادتى أمام وكيل النيابة ، ولكننى جعلته يدركه باشارات وتلميحات ، دون أن يبدو علىّ أننى أفهم أنا نفسى ما أقول ، فاعتقد أنه اهتدى بنفسه الى هذه الأفكار التى أوحيتها اليه • ما أزال أذكر أنه بلغ من سروره وافتتانه عندئذ أن لعابه أوشك أن يسيل قطرات من شفتيه •

هتف ايفان يقول وقد بلغ من الدهشة أوجها :

ـ هل يمكن فعلاً أن تكون قد بنيت هذا كله فى لحظة الجريمة نفسها ؟

ونظر الى سمردياكوف مرتاعاً من جديد •

ـ طبعاً لا ••• ما كان يمكن أن يخطر هذا كله ببالى فى لحظة كتلك اللحظة • وانما رُتّب كل شىء من قبل •

صاح ايفان فيدوروفتش يقول متعجباً :

ـ اذن ••• اذن لقد ساعدك الشيطان نفسه ! لا ، لا ، لستَ غبياً • بل انك لأذكى كثيراً مما كنت أظن •••

ونهض ايفان ينوى أن يمشى بضع خطوات فى الغرفة • كان يشعر بانهيار نفسى شديد • ولكن المائدة كانت تسد الطريق ، والمكان الخالى بينها وبين الجدار ضيق لا يسمح للمرء بأن يمشى فيه على مايحب• لذلك اضطر ايفان أن يقتصر على أن يدور فى مكانه ، ثم عاد فجلس • ولعل عدم تمكنه من أن يتحرك كما كان يتمنى قد أثار غيظه ، فاذا هو يعود الى الكلام بلهجة مهتاجة كالتى تكلم بها حين وصوله • قال :

ـ اسمع أيها الشقى، أيها الانسان الدنىء الحقير ! ألم تفهم حتى الآن أننى ان امتنعت عن قتلك منذ بضع دقائق فما ذلك الا لأستطيع أن أسلمك

الى المحكمة غداً ؟ ألا فليشهد الله عليّ (قال ذلك وهو يرفع يده كمن يحلف يميناً) ••• ربما كنت أنا نفسي جانياً ••• لعلني كنت أشعر سراً برغبة في ••• أن يموت أبي ••• من يدري ؟ ولكنني أحلف لك أنني لست جانياً بمقدار ما تتصـور ، وانني لم أحرضك على ارتكاب هـذه الجريمة فيما يخيّل اليّ • لا ، لا ، لم أحرّضك ! على كل حال ، ليس هذا بالأمر الهام ! لسوف أتهم نفسي غداً ، أيةً كانت الشهادة التي قد تدلي بها ضدي ، فانني أقبلها منذ الآن ، ولا أخشاك • بالعكس : سأؤيد كل ما تقوله • ولكن يجب عليك أن تعترف في الغد أنت أيضاً • هذا واجب يقع على عاتقك • يجب عليك ان تعترف ، يجب عليك ، سنذهب معاً • تقرّر هذا !

قال ايفـان هذه الكلمـات بلهجة قوية حازمة ، وكان واضحاً في سطوع عينيه أن قراره هذا قاطع لا رجوع عنه •

قال سـمردياكوف ، ولكن دون سخرية في هذه المرة ، وبلهجة توشك أن يكون فيها شيء من عطف :

ـ أرى أنك مريض ، مريض جداً • ان عيناك صفراوان تماماً •

واستأنف ايفان كلامه فقال :

ـ سنذهب معاً • فان رفضت ، فلا ضير ••• سأذهب وحدي !

صمت سمردياكوف بضع لحظات كأنه يفكر ، ثم قال أخيراً كمن يصدر قراراً مبرماً :

ـ لن يكون شيء من هذا • لن نذهب الى المحكمة • ولن تذهب أنت •

هتف ايفان يقول بلهجة عتب :

ـ أنت لا تفهمني •

ـ ستستحي من اتهام نفسك هذا الاتهام ، ولن يكون لهذا أي فائدة على كل حال ، لأنني سأصرّح عندئذ تصريحاً قاطعاً بأنني لم أجر معك أحاديث من هذا النوع في يوم من الأيام ، وسأؤكد أنك اخترعت هذا كله اختراعاً بسبب ما أنت فيه من حالة مرضية (سيصدقون كلامي لما يبدو عليك من مرض) ؛ أو أقول أيضاً انك قلتَ ما قلت اشفاقاً على أخيك ورأفةً به ، مؤثراً اتهام نفسك في سبيل انقاذه ، وانك ألقيت الذنب عليّ لأنك لم تحسبني في يوم من الأيام انساناً كسائر البشر ، وانما عاملتني طوال حياتي كما يعامَل مخلوق حقير لا قيمة له • فمن ذا الذي سيصدق كلامك بعد هذا ؟ فكِّر قليلاً : أين الأدلة ؟

قال ايفان :

ـ قل لي : أنت أريتني هذا المال الذي كنت تخبئه عندك ، لتقنعني بصدق ما رويته لي ، أليس كذلك ؟

فنحّى سمردياكوف الكتاب السميك الأصفر الذي كان يغطي حزمة الأوراق المالية ، وقال متنهداً :

ـ خذ المال واحمله معك •

ـ سأحمله طبعاً ! ولكن لماذا ترده اليّ الآن وأنت انما قتلت لتحصل عليه ؟

كذلك سأله ايفان وهو ينظر اليه بدهشة كبيرة •

فأجابه سمردياكوف بصوت مرتجف وهو يحرك يده بحركة ملل وسأم :

ـ أصبحت لا أريد هذا المال ! لقد قدّرت خلال مدةٍ ما أن أبدأ

بهذا المال حياة جديدة فى موسكو ، أو قل أيضاً أن أسافر الى الخارج . كان لى هذا الأمل ، ولا سيما أنك كنت تقول « ان كل شيء مباح » . أنت علمتنى أن أفكر هذا التفكير ، وأن أقضى فى الأمور على هذا النحو . كنت تقول لى دائماً : « اذا لم يوجد الاله الذى لا نهاية له ، فالفضيلة اذن باطل لا جدوى منه ولا داعى اليه » . هكذا كنت تفكر أنت ، ولقد استندت أنا الى أقوالك واعتمدت عليها .

سأله ايفان وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ ثم توليت تطبيق هذا التفكير بنفسك فى هذه الجريمة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، مستوحياً آراءك .

ـ والآن هل عدت الى الايمان بالله ، ما دمت ترد الىّ المال ؟

دمدم سمردياكوف يقول :

ـ لا ، أنا لا أؤمن بالله .

ـ فلماذا ترد الىّ المال اذن ؟

قال سمردياكوف وهو يحرك يده بحركة ملل وسأم من جديد :

ـ كفى ! فيم يهمك هذا ؟ أما كنت تقول عندئذ ان كل شيء مباح؟ فما بالك تضطرب الآن هذا الاضطراب كله ، حتى لتنوى أى تشى بنفسك ؟ على أنك لن تفعل ذلك ، لا ، لن تشى بنفسك ، لن تشى بنفسك .

كذلك ردّد سمردياكوف بصوت جازم ينم عن اقتناع كامل .

فأجابه ايفان بقوله :

ـ سترى !

ـ هذا مستبعد استبعاداً مطلقاً • أنت أذكى من أن تفعل ذلك • أنت تحب المال ، أعرفُ هـذا ؛ وأنت تحـرص كثيراً على أن يحترمك الناس ، لأنك مزهو متكبر • ثم انك عدا ذلك تتأثر تأثراً شديداً بمفاتن الجنس اللطيف ، وأنت فوق هذا كله تحب أن تعيش على ما يشـاء لك هواك دون أن تكون رهناً بأحد • أنت تحرص على هذا أكثر مماتحرص على أى شيء آخر • ولن تريد أن تفسـد حياتك هذا الافسـاد بتلطيخ شرفك الى الأبد أمام المحكمة • أنت تشبه فيدور بافلوفتش • أنت بين سائر ابنائه أكثرهم شبهاً به ، لأنك قد ورثت عنه نفسه •

قال ايفـان وقد ظهر عليـه الاعجاب بملاحظات سـمردياكوف ، وتدفق الدم الى وجهه :

ـ لستَ بالغبى • كنتُ أظنك فى الماضى أبله •

ثم أضاف يقول وهو يتفرس فى الخادم باستطلاع وفضول :

ـ أرى أنك تتكلم الآن فى جد •

ـ بسبب زهوك وكبريائك انما كنتَ تعدنى غبيـاً • خذ المال • هلاّ أخذته !

لمّ ايفان رزم الأوراق المالية الثـلاث ، ودسّها فى جيبه ، حتى دون أن يهتم بلفّها • وقال :

ـ غداً سأُظهر عليها المحكمة •

ـ لن يصـدقك أحد ، لأنك الآن غنى ، فسيقدرون أنك اقتطعت هذا المبلغ من ثروتك أنت •

نهض ايفان وقال :

ـ لئن لم أقتلك اليوم ، فما ذلك الا لأننى سـأحتاج اليك غداً • تذكر هذا !

قال سمردياكوف بصوت غريب وهو يلقى على ايفان نظرة عجيبة:

ـ اقتلنى اذا شئت ، اقتلنى فى هذه اللحظة ...

ثم أسرع يضيف وهو يبتسم ابتسامة مرة :

ـ ولكنك لن تجرؤ . انك لن تجرؤ على شىء بعد اليوم ، يا من كنت فى الماضى رجلاً جسوراً .

قال ايفان :

ـ الى اللقاء .

وتقدم خطوة نحو الباب .

ـ لحظة ! ... أرنيه مرة أخرى ، هذا المال ...

أخرج ايفـان الأوراق الماليـة من جيبـه ، وأراه اياها . فتأملها سمردياكوف بضع ثوان ، ثم قال وهو يحرك يده بتلك الحركة التى تنم عن الملل والسأم :

ـ طيب . اذهب الآن !

فلما همّ ايفان أن يفتح الباب صرخ سمردياكوف يقول على حين فجأة :

ـ ايفان فيدوروفتشف !

فالتفت ايفان وسأله :

ـ ماذا تريد ؟

فقال له الخادم :

ـ وداعاً !

فاجابه ايفان :

ـ بل الى اللقاء ، الى الغد !

وخرج من البيت •

كانت زوبعة الثلج في الخارج ما تزال تعصف مسعورة • أخذ ايفان يسير بخطى ثابتة ، ولكنه أحس بعد لحظات أنه يترنح • فقال لنفسه وهو يبتسم : « هذه لحظة تعب جسمى » • واستولى عليه نوع من فرح • كان يحس فى نفسه ثباتاً لا يتزعزع : هذه خاتمة الشكوك والمخاوف وضروب القلق التى كانت تعذبه منذ زمن طويل • قال لنفسه وهو يشعر بارتياح نفسى كبير : « قررت • ولن يتغير قرارى » • وفى تلك اللحظة صدم شيئا على الأرض ، فكاد يتعثر ويقع • توقف عن السير ، فاذا هو يرى الفلاح الصغير الذى كان قد صرعه قبل وقت قصير ، راقداً على الأرض ، جامداً على ذلك الوضع نفسه ، مغشياً عليه • كان الثلج قد دفن وجهه تقريباً • رفعه ايفان وحمله على كتفيه • واذ رأى نافذة مضاءة فى منزل على يمينه ، اقترب من النافذة وقرعها ، فأجابه صاحب البيت ، فعرض عليه ايفان ثلاثة روبلات ليساعده فى نقل الرجل الى أقرب قسم من أقسام الشرطة • قبل صاحب البيت • سأصرف النظر عن التفاصيل ، فلا أذكر الا أن ايفان فيدوروفتش قد استطاع أخيراً ، بتوزيع بقاشيش كبيرة ، أن يضع الفلاح الصغير فى مقر الشرطة ، واتخذ الاجراءات اللازمة لاستدعاء طبيب على الفور • وحسبى أن أشير الى أن هذه القضية قد استغرقت قرابة ساعة من وقت ايفان • ولكن ايفان كان يحس برضى عن نفسه • كان فكره يعمل بعنف ، رغم أن خواطره مشتتة • قال يحدث نفسه مسروراً : « لولا أن كان قرارى فيما سأفعله من الغد حاسماً فعلاً ، لما أنفقت ساعة كاملة فى الاهتمام بهذا الفلاح السكران ، ولمررت به دون أن اكترث لمصيره ، ودون أن أفعل شيئاً فى سبيل أن لا يتجلد من البرد ••• » ثم تساءل وهو يشعر بمزيد من الرضى والسرور والارتياح : « ولكن كيف امكن أن أكون قادراً على

تحليل نفسي هذا التحليل الصادق العميق ... ألا ما أغبى أولئك الأطباء الذين يدعون انني بسبيل أن أجن ! » . حتى اذا وصل الى مسكنه هاجمه شك على حين فجأة . فقال لنفسه : « أليس الافضل ان أذهب الى وكيل النيابة فوراً فأقص عليه كل شيء ؟ » . ولكنه أبعد هذه الفكرة ، واتجه نحو الباب عازماً أمره قائلا : « غداً ، غداً يتم هذا كله » . شيء غريب : بينما كان ايفان يدمدم بتلك الكلمات الأخيرة ، اذا بالفرح الذي كان يملأ نفسه منذ قليل ، يتبدد في غمضة عين . وحين اجتاز عتبة غرفته شعر فجأة ببرد في قلبه ، كأنه تذكر شيئاً مقززاً معذباً موجوداً في هذه الغرفة بعينها ، في هذه اللحظة نفسها ، وكان موجوداً فيها كذلك قبل الآن . وترامى على أريكته متعباً مكدوداً . وجاءته الخادمة العجوز بالسماور . فصنع لنفسه شيئاً من الشاي ، ولكنه لم يشربه ، وأمر الخادمة بأن تتركه وحده الى الغد . كان يشعر وهو جالس على ديوانه بدوار . كان يشعر بأنه مريض خائر القوى . حاول أن ينام . ولكنه نهض ثانيةً وهو في حالة قلق شديد ، وأخذ يمشي في غرفته بغية أن ينفض عنه خدره النعس . وخيِّل اليه في بعض اللحظات أن فكره أخذ يهذي . على أن المرض ليس هو الذي كان يهمه ويشغل باله في تلك الساعة . وعاد يجلس ، ونظر الى جميع الجهات كأنه يراقب المكان . وأجال بصره حوله عدة مرات . وتجمدت عيناه أخيراً على اتجاه معيَّن ، وأخذتا تحدقان الى نقطة بعينها في أقصى الغرفة . وابتسم ايفان . ولكن حمرة الغضب لم تلبث أن صبغت وجهه بعد ذلك فوراً . ولبث جامداً خلال مدة طويلة ، ضاغطاً رأسه بيديه ضغطاً قوياً ، ولكن عينيه ما تنفكان تلتفتان الى تلك النقطة نفسها في جهة الكنبة الموضوعة حذاء الحائط أمامه . وواضح أن شيئاً ما كان يحنقه ويقلقه ويعذبه .

٩

الشيطان

كابوس ايفان فيدوروفتش

أحسب أنه قد آن لى ، رغم أننى لست طبيباً ، أن أقدم للقارىء بعض الايضاحات عن طبيعة مرض ايفان فيدوروفتش • ولا أريد أن أستبق تتمة القصة ، سأقتصر على أن أقول هنا انه كان فى ذلك المساء نفسه على أهبة أن يُصاب غداً بنوبة حمى حارة • لقد تغلب المرض أخيراً على جسمه الخائر الواهن الذى كان مع ذلك ما يزال يقاوم مقاومة عنيفة ، وعلى أننى أجهل الطب ، فسوف أجازف فأفترض أنه كان قد استطاع ، بفضل توتر ارادته توتراً شديداً ، أن ينحّى ، الى حين ، ذلك المرض الذى كان يدمّره ، آملاً أن يقضى عليه فيما بعد • كان يعرف أنه مريض ، ولكنه يكره أن يكون مريضاً فى هذه الآونة التى يجب عليه فيها أن يملك جميع قواه ، ليتكلم بحرية ، ليتكلم بوضوح ، « ليبرر نفسه أمام نفسه » • على أنه قد ذهب الى الطبيب الذى وصل من موسكو منذ مدة قصيرة ، والذى استدعته كاترين ايفانوفنا بدافع النزوة وحدها ، كما سبق أن قلت من قبل • فبعد أن أصغى الطبيب الى كلام ايفان ، وبعد أن فحصه ، انتهى الى أنه مصاب باضطراب دماغى ، ولم يستغرب

أيّ استغراب الاعترافَ الذى اعترفه له ايفان على مضض . قال الطبيب:
« من الممكن جداً ، وأنت على ما أنت عليه الآن من اضطراب دماغى ،
من الممكن جداً أن توافيك هلوسات ، رغم أن الأمر يحتاج الى مزيد من
التثبت والتحقق ... وكيف كان الحال ، فيجب عليك أن تشرع فى
معالجة نفسك بغير ابطاء ، والا كان يُخشى حدوث أسوأ العواقب » .
ولكن ايفان فيدوروفتش ، حين خرج من عيادة الطبيب ، قرر أن
لا يلقى الى هذه النصيحة بالاً وأن لا يقيم لها وزناً ، ثم أهمل التداوى.
قال يحدث نفسه : « ما أزال قادراً على أن أمشى ، وما أزال أملك من
القوة ما يمكننى من أن أسعى مهتماً بشئونى . ويومَ أنهار وأسقط
فليصنعوا بى ما يشاءون ، وليعاملونى كما يحلو لهم أن يعاملونى » .
بهذا ختم كلامه لنفسه وهو يحرك يده باشارة الملل والسأم .

جلس ايفان اذن ، وكان يدرك هو نفسه فى تلك اللحظة أنه فى
حالة هذيان . كان كما قلت منذ هنيهة يحدق تحديقاً قوياً الى شىء
موجود قرب الجدار المقابل من الغرفة . ذلك أنه على الكنبة المستندة
الى ذلك الجدار كان قد ظهر منذ هنيهة شخص دخل الغرفة لايدرى الا الله
كيف ، لأن هذا الشخص لم يكن موجوداً حين ولج ايفان فيدوروفتش
غرفته عائداً من عند سمردياكوف . ان هذا الشخص سيد روسى ، أو
هو يشبه أن يكون كذلك ، متقدم فى السن قليلاً ، يناهز الخمسين من
العمر ، كما يقول الفرنسيون . شعره قاتم طويل كثيف ، أشيب فى بعض
المواضع ، وكذلك لحيته الصغيرة المدببة . وهو يرتدى صدرة بنية
اللون ، رائعة التفصيل ، ولكنها عتيقة قليلاً ، قد بليت « موضتها » .
لا شك أن عمر ثيابه ثلاث سنين ، وما من أحد بين رجال المجتمع الثرى
يرتدى مثل هذه الثياب فى هذا الزمان . ان القميص والكرافتة الطويلة
التى تشبه أن تكون منديلاً ، أنيقان أيضاً كل الأناقة ، فهما مما يلبسه

في العادة سادة يُعنون بهندامهم أشد العناية ، ولكنك تشك في نظافتهما اذا أنت أنعمت فيهما النظر من قرب • والكرافتة تبدو مهترئة كذلك • والرجل يرتدي سروالاً ذا مربعات ، يناسبه كثيراً ، رغم أن لونه فاقع جداً ، ورغم أنه مسرف في الضيق قد اندثرت موضته • ويصدق هذا أيضاً على قبعته المصنوعة من لباد أبيض لا يناسب هذا الفصل البارد من فصول السنة • خلاصة القول أن الرجل يبدو سيداً محترماً لكنه لا يملك الا موارد محدودة • فلا شك أنه ينتمي الى فئة ملاكي الأراضي القدماء الذين كانت أوضاعهم مزدهرة في عهد القنانة • وهو يجيد الآداب الاجتماعية ، فلا شك أنه خالط المجتمع الراقي ، ولا شك أنه ما يزال محافظاً على بعض العلاقات والصلات • غير أن هذا السيد ، وقد صار شيئاً بعد شيء الى فقر سببه تبذيره في ابان شبابه ، وفاقمه الغاء نظام القنانة في الآونة الأخيرة ، قد تردى الآن الى حيث أصبح طفيلياً يتنقل بين أصدقائه وأصحابه القدامى فيحسن هؤلاء استقباله لما يتحلى به من طبع دمث وتربية حسنة ؛ حتى لقد كان من الممكن استقباله في المآدب على الموائد بصحبة أعلى الناس قدراً وأوسعهم جاهاً ، شريطة أن يُعيَّن له مكان متواضع بطبيعة الحال • وان الطفيليين الذين هم من هذا النوع ، الطفيليين الذين يرجعون الى محتد طيب ويملكون طبعاً حلواً ويعرفون كيف يقصون حكايات ويروون نوادر ، ويجيدون المشاركة في لعبة بالورق ، ولا يكرهون أن يقوموا بخدمات حين يُرجون أن يقوموا بمثل ذلك ، ان هؤلاء يكونون في أكثر الأحيان أرامل أو عازبين• وقد يكون لهم أولاد ، لكن أولادهم يعيشون دائماً في بعيد، تربيهم عمة أو خالة يتحاشى السيد أن ينطق باسمها في المجتمع الراقي كأنه يخجل أن تكون له قرابة كهذه القرابة• وبمضي الزمن ينسى هؤلاء السادة أولادهم

تقريباً ، ويتلقون منهم فى أحيان متباعدة تهنئات بأعياد ميلادهم أو بأعياد الميلاد ، وقد يردون على هذه التهنئات سراً وقد لا يردون •

كان زائر ايفان فيدووفتش لطيف الهيئة ، ان لم نقل محبب الوجه، يشعر المرء أنه يهم فى كل لحظة أن يهش ويبش • ولم يكن يحمل ساعة ، ولكنه فى مقابل ذلك يضع على عينه نظارة ً لها حمالة من صدف ، مربوطة ً بشريط أسود • وكانت اصبعه الوسطى تزدان بخاتم كبير من ذهب ، له فص من حجر بخس الثمن • تأمل ايفان فيدوروفتش زائره الدخيل بعين مرتابة محاذرة ، ورفض أن يبدأ الحديث • كان يبدو على ضيفه أنه ينتظر ، وكان الضيف يلتزم وضع الاحترام الذى يلتزمه طفيلى هبط من الغرفة المخصصة له فى الطابق الأول ليحسو الشاى مع رب الدار وليسليه بصحبته ، حتى اذا رأى رب الدار غارقاً فى تأملاته معتكر المزاج ، أمسك عن الكلام ما لم يبادره بالخطاب رب الدار • ومع ذلك يدرك المرء أنه مستعد للاندفاع فى حديث لطيف كيّس حلو متى أتيحت له الفرصة• وفجأة أصبح وجه الزائر يعبر عن هم ، وقال يخاطب ايفان فيدوروفتش :

ـ اسمع • اعذرنى اذا أنا ذكّرتك بهذه النقطة : لقد زرت سمرد ياكوف على نية أن تعرف تفاصيل عن زيارة كاترين ايفانوفنا له ، ولكنك تركته دون أن تطلع على شىء • أغلب الظن أنك نسيت •••

هتف ايفان يقول وقد أظلم وجهه :

ـ صحيح ، صحيح ، لقد نسيت •••

ثم دمدم يقول وكأنه يحدث نفسه :

ـ لا بأس الآن ، سيتم هذا كله غداً •

ثم استأنف يقول فى حنق وهو يلتفت الى زائره :

ـ أما أنت فاعلم أنني أدركت بنفسي هذا النسيان الذي كانت روحي بسببه قلقة معذبة . ما تدخلك أنت في الأمر ؟ أتراك تتخيل أنك أنت الذي ذكّرتني مع أنني تذكرت من تلقاء نفسي ؟

قال السيد المهذب وهو يبتسم ابتسامة عذبة جداً :

ـ يستوي أن أكون أنا الذي ذكرتك ، وأن لا أكون أنا الذي ذكرتك . لا قيمة لهذا . ولك أن تعتقد بما تشاء . ان الايمان التي يتم بقسر واكراه لا قيمة له . ثم ان البراهين لا يمكن أبداً أن تصلح أساساً يقوم عليه الايمان ، ولا سيما البراهين المادية . ان القديس توما لم يؤمن لأنه رأى المسيح يُبعث ، بل لأنه كان ظامئاً الى الايمان قبل ذلك . انظر مثلاً الى أولئك الذين يدعون الاتصال بالأرواح ... أنا من جهتي أحبهم كثيراً ... تخيل أنهم يتصورون أنهم ينفعون الدين لأن الشيطان يظهر لهم قرونه من حين الى حين . هم يقولون : « ذلك برهان ، مادي في أقل تقدير ، على وجود العالم الآخر » . فانظر الى هذا التفكير : يؤمنون بالعالم الآخر ويريدون براهين مادية. ثم ... هبهم برهنوا على وجود الشيطان ، فهل يترتب على ذلك أن الله موجود أيضاً ؟ في نيتي أن أنتسب الى جمعية من جمعيات المثاليين لأنشيء فيها حزباً معارضاً . سأقول لهم : « أنا واقعي ، لا مادي » . هأ هأ !...

قال ايفان وهو ينهض فجأة بقوة :

ـ اسمع . يخيّل الىّ أنني الآن أهذي ... أنا أهذي يقيناً ... فتكلم واكذب ما شاء لك هواك أن تتكلم وأن تكذب ... سيان عندي ... لن تفلح في اثارة غضبي وغيظي كما فعلت في المرة الماضية . ولكنني أشعر بخجل وعار ... لا أدري لماذا ... أتمنى أن أمشي في الغرفة ... هناك لحظات تغيب فيها عني ، فلا أراك ولا أسمع صوتك ، تماماً كما في المرة الماضية ، ولكنني أحزر دائماً ما ستقوله لي ، « لأنني

أنا ، أنا وحدى ، الذى أنطق بهذه الأقوال ، لا أنت » ! وانى لأتساءل من جهة أخرى أأنا نمت فى المرة الماضية فرأيتك فى الحلم ، أم أنت ظهرت لى فى الواقع أثناء اليقظة ؟ سأغطس هذه الخرقة فى الماء البارد فأضعها على رأسى • فلعلك تختفى عندئذ •

اتجه ايفان فيدوروفتش نحو زاوية الغرفة ، وتناول فوطة بللها بالماء ووضعها على جبينه • وأخذ يمشى بعد ذلك فى الغرفة طولاً وعرضاً •

قال الزائر :

ـ انه ليسرنى حقاً أن نتخاطب الآن بصيغة المفرد فى غير كلفة ولا حرج •

فأجابه ايفان ضاحكاً :

ـ ألا انك لغبى ! أتراك تتخيل أننى سأستعمل الآن ميم الجمع فى مخاطبتك ؟ أنا فى هذه اللحظة منشرح النفس منطلق المزاج ، غير أننى أشعر بأوجاع فى صدغىَّ ••• وأشعر بصداع فى رأسى ••• فأرجوك ••• لا تتفلسف اليوم كما تفلسفت فى ذلك اليوم • اذا لم يكن فى وسعك أن تغيب ، فتكلم فى أمور فرحة • قصَّ علىَّ نمائم وشائعات• ذلك يناسبك ويليق بك ما دمت طفيلياً • يا له من كابوس فظيع أن لا أستطيع التخلص من هذا الشخص ! ولكننى لا أخشاك • سأنتصر عليك آخر الأمر • لن أُقاد الى مستشفى المجانين •

ـ أنا طفيلى ؟ أنا ؟ كلام جميل ! حقاً ، ذلك هو دورى فى هذا العالم • هل أنا فى الواقع الا طفيلى ؟ بالمناسبة : لقد شعرتُ حين أُصغيت الى كلامك بشىء من الدهشة والاستغراب • لكأنك أخذت تعدنى شيئاً واقعاً لا شبحاً من صنع خيالك كما زعمت فى المرة الماضية بعناد شديد واصرار قوى •••

هتف ايفان يقول حانقاً :

ـ ما عددتك شيئاً واقعاً في لحظة من اللحظات • أنت تكذب • انك مرضي • ما أنت الا شبح • ولكنني لا أعرف كيف أتحرر منك ، وألاحظ أن عليّ أن احتمل حضورك زمناً • أنت هلوسة في دماغي المتعب المكدود • أنت تجسُّدُ ذاتي ، ولكنك تجسُّد جانب واحد من جوانب طبيعتي ••• انك تمثل من أفكاري وعواطفي أحطها وأغباها • وكان يمكن ، من هذه الناحية ولهذا السبب ، أن يعنيني أمرك قليلاً ، وأن أهتم بك بعض الاهتمام ، لو كان في وقتي متسع •••

ـ لحظة ••• سوف أربكك وأفضحك اذا سمحت : منذ قليل ، قرب مصباح الشارع ، ثرت على أخيك أليوشا صارخاً : « هل علمت هذا منه هو ؟ فمن أين علمت أنه يزورني ؟ » • لقد كنت تقصدني أنا اذن • معنى هذا أنك كنت خلال لحظة قصيرة تؤمن بوجودي ، وتعدني شخصاً موجوداً في الواقع •

قال السيد ذلك وهو يبتسم ابتسامة لطيفة

ـ نعم وا أسفاه ! كانت تلك لحظةً من ضعفٍ طبيعيٍ جداً ••• ولكن من المستحيل أن أكون قد آمنت بأنك واقع لا وَهم • اني لأتساءل أأنا نمت أم سرت في الغرفة في المرة الماضية • فلعلني لم أرك عندئذ الا في الحلم لا في الواقع •

ـ هلاّ قلت لي لماذا كنت قاسياً تلك القسوة كلها مع أخيك أليوشا منذ قليل ؟ انه فتى لطيف غاية اللطف ! واني لأشعر بأنني آثم في حقه بسبب حكاية الأب زوسيما تلك •

هتف ايفان يقول ضاحكاً :

ـ أمنعك من ذكر اسم أليوشا . كيف تجرؤ أن تفعل ذلك أيها الدنيء !

ـ تشتمنى وتضحك فى آن واحد . تلك علامة حسنة . ثم انى ألاحظ أنك اليوم أرق فى معاملتى كثيراً مما كنت فى المرة السابقة . اننى افهم سبب هذا : هو ذلك القرار العظيم النبيل الذى اتخذته .

زأر ايفان يقول وقد عصف به الحنق من جديد :

ـ حذار أن تقول كلمة واحدة عن قرارى .

ـ أفهم ، أفهم كل الفهم . هذا عمل نبيل ، هذا عمل رائع . انك تنوى أن تدافع عن أخيك ، وأن تضحى بنفسك فى سبيله ... هذه فروسية !...

ـ اسكت والا هويت عليك ركلاً بالقدم !

ـ ركلاً بالقدم ؟ هذا يناسبنى من ناحية من النواحى ، وبه يتحقق هدفى . ذلك أن لجوءك الى استعمال العنف معى سيكون برهاناً على أنك أصبحت تؤمن بوجودى واقعاً لا وهماً . هل يركل أحد شبحاً ؟ ولكن دعنا من هذه الأمازيح . اشتمنى اذا كان يحلو لك ذلك ... سيان عندى ... ولكن من الأفضل للمرء أن يكون على شيء من الأدب والكياسة والتهذيب حتى فى معاملتى أنا . لقد وصفتنى بأننى غبى وبأننى دنيء ! فما هذه التعابير ! عيب أن تصدر عنك هذه الألفاظ !

عاد يقول ايفان ضاحكاً :

ـ حين أهينك فانما أهين نفسى . ما أنت الا أنا ... أنت نفسى ، أنت روحى ، ولكن فى وجه غير وجهى . أنت لا تزيد طول الوقت على أن تعبر عن أفكارى وتفصح عن خواطرى فى نفس اللحظة التى توافينى

فيها هذه الأفكار والخواطر ••• أما أن تقول لى شيئاً جديداً لا أتوقعه فذلك ما أنت عاجز عنه كل العجز !

ردّ عليه السيد بوقار يفيض رقة ورهافة :

ـ اذا كانت الأفكار التى أعبّر عنها هى أفكارك أنت أيضاً ، فلا يسعنى الا أن أعتز بهذا التوافق بيننا •

ـ المؤسف أنك لا تختار من أفكارى الا أردأها ، والا أغباها على وجه الخصوص • أنت غبى ودنىء • أنت غبى غباءً رهيباً فى الواقع • لا ، لا ، لا أطيق أن أحتمل حضورك ! ما العمل ؟ ما العمل ؟

كذلك هتف ايفان حانقاً •

استأنف الزائر كلامه فقال باعتزاز الطفيلى ، الى مسكنةٍ واستعدادٍ لما يجب من تنازلات :

ـ أما أنا ياصديقى فأحرص علىأن أبقى رجلاً مهذباً وأن أُعرف بذلك • صحيح أننى فقير ، ولكن ••• دون أن أزعم أننى أشرف من غيرى ••• أستطيع أن أقول ان من المسلّم به فى المجتمع عامةً ، كبديهية من البديهيات ، أننى ملاك سقط • شهد الله اننى لا أستطيع أن اتخيل كيف أمكن أن أكون فى الماضى ملاكاً • وهبنى كنت فى الماضى ملاكاً ، فان ذلك يرجع الى عهد يبلغ من البعد أننى أُعذر اذا أنا نسيته • وكل ما أحرص عليه الآن هو أن يُعرف عنى اننى رجل لائق محترم ، ثم أن أعيش كما يمكننى أن أعيش محاولاً أن أسرّ أقرانى البشر • آه ••• اننى لأحب الناس حباً صادقاً ، وطالما رُوِّجت فى حقى النمائم من هذه الناحية • حين أجد نفسى بينكم وحين أقيم عَرَضاً عند واحدٍ من أمثالكم ، فان وجودى يتخذ عندئذ صورة محسوسة واقعية ، وذلك ما يحلو لى أكثر من أى شىء آخر فى الأمر كله • ذلك أننى أنا ايضاً

مصاب مثلك بخيال مضطرب مختل ، ولهذا اقدر واقعيتكم الأرضية السليمة حق قدرها • ان كل شيء في نظركم محدد تحديداً دقيقاً ، وان كل شيء عندكم يتم التعبير عنه بصيغ معينة ، فالهندسة هي الظافرة المنتصرة • أما عندنا !••• أما نحن ••• فاننا نظل نتيه الى الأبد في معادلات غير محددة • أنا هنا أحلم وأتنزه • ما أكثر ما أحب أن أحلم• ثم انني متى وجدت على الأرض أصبحت أؤمن وأصدق الأوهام • لا تسخر مني ، أرجوك : لشد ما يحلو لي أن أؤمن بالخرافات وأن أصدق الأوهام • انني أتعود جميع عاداتكم في هذه الحياة الدنيا • لقد أصبحت أحب الاختلاف الى الحمامات العامة ، وأصبح يحلو لي أن أجد نفسي في حمام البخار بين التجار والقسس • ان أخفى رغبة تجيش في نفسي هي أن أتجسد (ولكن تجسداً نهائياً لا عودة عنه) في تاجرة سمينة بدينة تزن مائة كيلوغرام ، وأن آخذ أؤمن بكل ما تؤمن به : وسيكون مثلي الأعلى عندئذ أن أدخل كنيسة فأشعل شمعة باندفاعة صادقة من القلب • سيكون ذلك خاتمة آلامي وتباريحي • واني لأجد لذة كبيرة كذلك في أن أُداوى كما تُداوَوْن • في هذا الربيع انتشر في البلاد وباء الجدري ، فذهبت التمس أن أُلقَّح كسائر الناس • لا تستطيع أن تتخيل مدى ما شعرت به من سعادة في ذلك اليوم • حتى لقد تبرعت في تلك المناسبة بعشرة روبلات لمساعدة اخوتنا السلافيين المضطهدين !••• ولكنني ألاحظ أنك لا تصغي الى كلامي •

وأضاف السيد المهذب يقول بعد لحظة من صمت :

ـ انك تبدو لي مريضاً جداً ، هل تعلم ؟ وأنا أعرف أنك ذهبت الى الطبيب امس ••• فماذا قال لك الطبيب ؟ كيف حال صحتك ؟

فقطع ايفان أسئلته قائلاً :

ـ أبله !

ـ أما أنت فذكي جداً • لقد عدتَ الى الفظاظة : أنا لم أسألك عن صحتك من باب التعاطف معك والمودة لك ، وانما لأقول أي شيء • لا تجبني ان شئت • لقد أصبحت أوجاع الروماتزم موضة •••

كرر ايفان يقول :

ـ أبله !

ـ أبله اذا شئت • ولكن هذا لا ينفي أنني أُصبت في السنة الماضية بأوجاع روماتزم ما زلت أتذكرها حتى هذا اليوم •

ـ دعك من هذا الكلام ! هل يمكن أن يعاني شيطان آلام روماتزم؟

ـ لِمَ لا يمكن ذلك ، ما دمت أتجسد أحياناً ؟ انني اقبل جميع نتائج تجسداتي • « أنا شيطان ، ولا شيء مما هو انساني غريبٌ عني » * •

ـ كيف ؟ ما هذا الذي تقول ؟ « انا انسان ولا شيء مما هو انساني ••• » ليس هذا الكلام غباءً كبيراً حين يقوله شيطان !

ـ يسعدني أن أحظى أخيراً برضاك عني واكرامك لي •

قال ايفان فجأة وقد توقف عن المشي ، كأنما دهش وذُهل :

ـ ولكنك لم تستعر هذه العبارة مني أنا ! ان هذه الجملة الذكية لم تخطر ببالي في يوم من الأيام ! هذا عجيب مع ذلك •••

ـ كلام فيه جدة وطرافة ، أليس كذلك ؟ على أنني سأكون أميناً شريفاً في هذه المرة ، فاشرح لك هذا اللغز ••• كثيراً ما يحدث في الأحلام ، ولا سيما في الكوابيس ـ كتلك الكوابيس التي تنشأ عن اضطراب في المعدة مثلاً ، أو عن أي سبب آخر ـ أن تخطر أمام البصر مشاهد فنية جداً ، أن تخطر أمام البصر قطعٌ حقيقية من الحياة صادقة صدقاً عميقاً مركباً معقداً ، أحداث وحتى سلسلةٌ من أحداث تربط

بينها وتشد بعضها الى بعض فكرة موجّهه ، وتملؤها تفاصيل غير متوقعة، تتراوح بين أعلى تجليات الوجود الانسانى كما تقولون ، وبين أحقر السفاسف التافهة ، كزر كم مثلاً • ان القصص التى يعيشها المرء على هذا النحو فى الحلم يمكن أن تكون لها قيمة فنية تبلغ من العظمة أن ليون تولستوى نفسه لا يستطيع أن يتخيلها• ومع ذلك فليس الكتاب على وجه العموم هم الذين يرون أحلاماً من هذا النوع ، وانما يرى هذه الأحلام أناس من طراز عادى جداً ، أناس ليسوا أكثر من موظفين أو صحفيين أو قسس ••• والحق أن هذه الظاهرة تثير مشكلة وتلقى سؤالاً : لقد صرّح لى وزير فى ذات يوم أن أخصب الأفكار انما توافيه عادةً وهو نائم • ذلك بعينه هو ما يحدث لك فى هذه الساعة • مهما أكن مجرد هلوسة صادرة عن دماغك ، فهذا لا ينفى أننى أقول أشياء فيها جدة وطرافة وأصالة ، كما يقع ذلك فى كابوس • فأنا لا أردد اذن أفكارك أنت ، ومع ذلك لست الا كابوسك لا أكثر •

ـ كذبت ! ان هدفك هو أن تقنعنى بأن لك وجوداً واقعياً وبأنك لست مجرد رؤيا تتراءى لفكرى • ثم هأنت ذا تعلن أنت نفسك أنك لست الا حلماً •

ـ اعلم يا صديقى أننى قد اصطنعت اليوم اسلوباً جديداً وتبنيت طريقة جديدة • سأشرح لك هذا فى المستقبل اذا واتت فرصة • لحظة ••• الى أين وصلت من حديثى ؟ ها ••• نعم ••• قلت لك اننى أصبت ببرد • ومع ذلك لم يحدث هذا على الأرض ، وانما حدث هناك أيضاً ••

ـ هناك ؟ أين ؟ قل لى : هل تنوى أن تمكث عندى زمناً طويلاً أيضاً ؟ ألا تركتنى أخيراً ؟

كذلك هتف يقول ايفان وقد كاد يبلغ ذروة الكرب واليأس •

وكفّ عن المشي وجلس على الديوان متكئاً بكوعيه على المائدة ، ضاغطاً رأسه ضغطاً قوياً • ثم نزع الخرقة المبللة عن جبينه ورماها بحركة أسف وحسرة : لم تنفعه هذه الوسيلة في شيء •

قال السيد المهذب بلهجة منطلقة ولكن فيها كثير من المودة :

ـ أعصابك مهدودة • تثور عليّ لأنني أصبت ببرد ، مع أن هذا قد حدث لي على نحو طبيعي جداً • كنت قد وصلت الى حفلة استقبال دبلوماسية أقامتها سيدة عظيمة من سان بطرسبرج تستقبل شخصيات كثيرة ذات نفوذ ، وتكاد ترى أنها لاتقل خطورة شأن وعلوّ منزلة ورفعة جاه عن وزير من الوزراء • كنت مرتدياً اذن ثياباً رسمية مع كرافتة بيضاء وقفازين • ولكنني كنت قد تأخرت ، لأنني اضطررت أن أذهب قبل ذلك الى مكان ما ، فكان عليّ حتى أصل اليكم على الأرض أن أقطع فضاوات واسعة بين الكواكب ••• المسألة مسألة ثوانٍ طبعاً ••• ومع ذلك تعلمون اليوم أن أشعة الشمس تستغرق ثماني دقائق حتى تصل الى الأرض • كنتُ اذن ـ لا تنس هذا ـ ارتدي ثياباً رسمية مع صديرة مفتوحة جداً • ان الأرواح لا تتجلد من البرد ، هذا معروف • غير أن تجسد الروح يعرضها أحياناً لبعض العواقب السيئة • الخلاصة أنني ارتكبت في ذلك المساء شيئاً من الطيش والخفة حين مضيت في طريقي الى الأرض مرتدياً تلك الثياب • وليتك تعلم ما أشد البرد في تلك الفضاوات ، في الأثير ، هذا السائل ••• انه برد فظيع ، بردٌ لا يكفي أن نقارنه بالصقيع هنا • الصقيع ؟ هه ••• تصور أن درجة البرودة كانت مائة وخمسين تحت الصفر ! ان بنات قراكم قد تخيلن مزاحة شائعة جداً • فحين يشير الترمومتر الى الثلاثين تحت الصفر ، يطلبن من فتى ساذج غير ذي خبرة أن يلحس بلسانه حديد فأس ، فاذا بلسانه يتجلد فوراً ، واذا بالغبي يسلخ جلد لسانه لينتزعه من الحديد • هذا اذا كانت

درجة البرودة ثلاثين فحسب • أما اذا بلغت مائة وخمسين ، فأحسب أنه يكفي أن تقترب الاصبع من الفأس حتى تزول ••• شريطة أن يكون في الأثير فأس طبعاً •••

سأله ايفان ذاهلاً بلهجة متقززة :

ـ هل يمكن أن يكون في الفضاء فأس ؟

كان ايفان يشد جميع قواه في سبيل أن لا يصدق أنه يهذي ، وذلك حتى لا يتردى الى الجنون نهائياً •

سأله الزائر مدهوشاً :

ـ فأس ؟

فهتف ايفان يقول فجأة بعناد غاضب :

ـ نعم نعم ، ما عسى يحدث للفأس هناك ؟

ـ ما عسى يحدث للفأس في الفضاء ؟ يا لها من فكرة عجيبة • لو رميت الفأس الى مسافة بعيدة جداً عن الأرض ، فأظن أنها ستأخذ تدور حول سيارتكم هذه دون أن تعرف تماماً ما هو الهدف وأين المستقر ، كما يحدث لتابع من التوابع ، كما يحدث لقمر من الأقمار ؛ وسيحسب علماء الفلك ساعة طلوعها وساعة مغيبها حساباً دقيقاً ؛ وسيدوّن جانسوك ذلك في التقاويم * ، وهذا كل شيء •

قال ايفان مغتاظاً :

ـ أنت غبي ، غبي غباءً فظيعاً • حاول أن تكذب كذباً ذكياً على الأقل ، والا كففت عن الاستماع لك • انك تحاول أن تقنعني عن طريق الواقعية في كلامك ، وأن تجعلني بذلك أسلم بوجودك • ألا فاعلم أنني لا أريد أن أسلّم بهذا ، انني أرفض أن أصدقه ! لن أصدقه !

ـ أنا مع ذلك لا أكذب • ان كل ما أقوله حق • من سوء الحظ أن الحقيقة لا تكاد تكون مفرحة في يوم من الأيام • أنت مثلاً تتوقع منى ، فيما ألاحظ ، أفكاراً خارقة ، وربما رائعة • يؤسفني هذا كثيراً ، لأنني لا أستطيع أن أعطى الا ما أملك •••

ـ دعك من التفلسف يا حماراً أبله !

ـ أفتظن اذن أننى اشتهى أن أتفلسف والجنب الأيمن كله من جسمي يكاد يكون مشلولاً ؟ ألا انى لأتمنى ، بدلاً من ذلك ، أن أئن وأتوجع ! لقد استشرت عدداً كبيراً من الأطباء : انهم يملكون قدرة هائلة على تشخيص المرض ، ويشرحونه بأدق التفاصيل ••• أما أن يشفوه فذلك أمر يعجزون عنه • حتى لقد أتيحت لى فرصة التحدث مع طالب متحمس من طلاب الطب ، فقال لى فرحاً : « هبك مت من هذا المرض ••• لسوف يتيح لك ذلك فى أقل تقدير أن تعرف على وجه اليقين حقيقة الداء الذى أماتك » • وانظر بعد ذلك الى طريقتهم تلك فى ارسالك الى اخصائيين حين يقولون لك : « مهمتنا نحن تقتصر على تشخيص المرض • بقى عليك الآن أن تذهب الى الاخصائى فلان أو فلان ، فهو الذى سيشفيك » • واحسرتاه ! ان الطبيب الجيد القديم الذى عرفناه فى الزمان الماضى وكان يداوى من جميع العلل والأسقام قد اختفى تماماً ، تماماً ، أؤكد لك !•• لم يبق اليوم الا الاخصائيون ، والصحف ملأى بالاعلانات عنهم • اذا شعرت بآلام فى الأنف ، أرسلوك الى باريس : يظهر ان فى باريس اخصائياً له شهرة فى أوروبا كلها ، يعرف معرفة رائعة كيف يعالج كل ما له علاقة بالأنف • وتذهب الى باريس فيفحص الاخصائى أنفك ، فيقول لك : « أنا لا أستطيع أن أشفى الا منخرك الأيمن ، لأننى لا أهتم أبداً بالمنخر الأيسر ، فهو لا يدخل فى دائرة اختصاصى • فعليك بعد اتباع معالجتى أن تذهب الى فيينا حيث يوجد اخصائى حاذق جداً

سيفعل لك ما يجب فعله لمعالجة منخرك الأيسر » • ما العمل في هذه الحالة ؟ لجأت عندئذ الى استعمال الأدوية التي تنصح بها النساء العجائز • وصف لي طبيب أن أدلك جسمي بعد الحمام بمزيج من عسل وملح • ذهبت الى الحمامات العامة لا لشيء الا لاستمتع بوجودي مرةً في حجرة البخار ، وهنالك وسَّخت جسمي بذلك المزيج اللزج الذي لم يجدني نفعاً • فلما يئست كتبت الى الكونت ماتيئي في ميلانو : فأرسل اليَّ نشرة وقطرة • غفر الله له ! تخيَّلْ أن مستحلب الشعير الذي ينتجه هوف هو الذي شفاني تقريباً • كنت قد اشتريته عرضاً ، فما شربت زجاجة ونصف زجاجة حتى شعرت بأسي شفيت ، حتى لقد اشتهيت أن أرقص • زالت أوجاعي كلها • فحلفت لأنشرن في الصحف رسالة شكر أطري فيها مزايا هذا الانتاج • كان يدفعني الى ذلك شعور صادق بالامتنان ، ولكن لهذا قصة جميلة جداً ! تخيل أنني لم أجد جريدة واحدة ترضى نشر نثري ••• قالوا لي : « ان تصريحك هذا يتصف بشيء من الرجعية • ثم ان أحداً لن يصدقك • فالشيطان لا وجود له » • ونُصحت بأن أنشر شكري في رسالة لا تحمل اسم صاحبها • ولكن ما قيمة شكر لا يحمل اسم صاحبه ؟ مازحت موظفي مكاتب تلك الجرائد ، فقلت لهم : « ان الايمان بالله هو الذي يمكن أن يعد شيئاً رجعياً في زماننا هذا • أما أنا الشيطان ، فانه مباح تماماً أن أصدَّق » • فأجابوني بقولهم : « اننا نفهمك حق الفهم • فمن ذا الذي لا يؤمن بالشيطان ؟ ومع ذلك يستحيل نشر رسالتك ، لأن هذا يخالف الاتجاه العام الذي تلتزمه جريدتنا • اللهم الا أن تريد أن تسبغ على رسالتك طابع الهزل ! » • قلت لنفسي : « لا بد أن يخلو الأمر من روح الفكاهة اذا هو جُعل هزلاً » • وهكذا لم يكتب لشكري أن يظهر في الصحف • هل تصدق ؟ وقد بقيت هذه الحكاية تثقل على قلبي • ان أنبل عواطفي ، كعاطفة الشكران مثلاً ،

قد حكم عليها أن تظل مكتومةً لا أفصح عنها ، دونما سبب غير وضعي الاجتماعي •

قاطعه ايفان مغتاظاً يقول :

ـ هأنت ذا تسترسل في التفلسف من جديد !

ـ وقانا الله شر التفلسف • أنا لا أتفلسف البتة ، وانما ينبغي أن يجوز للمرء أن يشتكي من حين الى حين • أنا كائن تُقال في حقي نمائم خطيرة • لقد اتهمتني أنت نفسك بأنني غبي • هذا موقف يقفه شاب • اعلم يا صديقي أن الذكاء ليس أهمَّ شيء • لقد وُلدتُ طيب السريرة مرح الطبع • « وقد كتبت أيضاً مسرحيات هزلية » * • يبدو أنك تعدني هلستاكوفاً دبَّ فيه الهرم ، مع أن لمصيري شأناً أخطر من ذلك كثيراً • انني بسبب قَدَرٍ أجهل أسبابه وهدفه ، لأنه كُتب عليَّ قبل خلق هذا العالم ، أن أظلَّ « أجحد » بغير انقطاع ، أن أجحد كل شيء ، مع مع أنني في حقيقة الأمر صادق النية طيب القلب عاجز عن الانكار المنظم المذهبي • « لا مفر • يجب عليك أن تنكر وأن تجحد رغم كل شيء • فبدون انكار لا يكون نقد ، وكيف يمكن تخيل جريدة أو مجلة خالية من زاوية موقوفة على النقد• ان الكون لن يكون بغير النقد الا تسبيحاً متصلاً مستمراً • ولكن الحياة لا يمكن أن تقوم على تسبيح الله فقط ، وعلى تمجيد خلقه فحسب • لا بد لاندفاع البشر الى شكر الله وحمده من أن يمر بحفرة الشكوك * ، وهلم جراً ••• » على أنني لا أطمع في أن أقضي برأي في هذا النظام ، فلست أنا من تخيله ووضعه ، ولست مسئولاً عنه البتة • كل ما هنالك أنني جُعلت كبش فداء ، وأُمرت أن أقوم بوظيفة ناقد أبدي • على هذا النحو انما نشأت الحياة الأرضية • اننا نحن أيضاً نشعر شعوراً كاملاً بدناءة هذه المهزلة التي أريد لنا أن نمثلها • واني من جهتي أطالب بأن أستطيع الارتداد الى العدم • فأُجاب : « بل يجب

عليك أن تحيا ، فبدونك لن يجرى أمر • اذ لو كان كل ما على الأرض معقولاً ، لما حدث ما فى الأرض شيء البتة • بدونك لن يكون ثمة أحداث ، وهل عن الأحداث غنى ؟ » • أنا اذن أقوم بوظيفتى وأحقق مهمتى محطَّم القلب مهدود النفس ، من أجل أن يكون ثمة أحداث ، وأشيع الضلال فى هذا العالم بأمرٍ أعلى • والبشر المساكين يأخذون هذه المهزلة مأخذ الجد ، رغم ما وُهب لهم من ذكاء عظيم • وذلك هو ما يجعل مصيرهم فاجعاً ، وحياتهم أليمة • انهم يتعذبون عذاباً لا نهاية له ••• هذا صحيح ••• ولكنهم فى مقابل ذلك يحيون ••• يحيون حياة واقعية ، لا وهمية • لأن العذاب هو الحياة • ما عسى تصير اليه الفرحة بالحياة فى هذا العالم اذا لم يوجد الألم ؟ لن يكون هنالك عندئذ الا نشيد متصل ولطف لا ينتهى • وذلك شيء نبيل جداً ، مقدس جداً ، ولكنه باعث على أشد الملل وأعمق السأم • وأنا ؟ أنا أيضاً أتألم ، ومع ذلك لا أحيا • أنا حرف «س» فى معادلة غير ذات حدود • أنا شبح ، أنا طيف أضاع فكرة الزمان وانتهى حتى الى نسيان اسمه الحقيقى • أتضحك ؟ لا ••• أنت لا تضحك ••• وانما تغضب من جديد • انك تغضب دائماً • انك لا تريد أن تسمع الا أشياء فيها ذكاء • ولكننى أعود فأقول لك : اننى مستعد لأن أتنازل ، راضياً ، عن حياتى السماوية فى الفضاءات فوق الكواكب ، وعن جميع امتيازاتى العالية وألقابى الرفيعة، فى سبيل أن أستطيع التجسد فى نفسِ بائعةٍ تزن مائة كيلو وتقدم شموعاً للرب بسذاجة وبراءة •

سأله ايفان وهو يبتسم ابتسامة كره :

ـ هل معنى هذا أنك أصبحت لا تؤمن بالله أنت أيضاً ؟

ـ بم أجيبك ؟ اذا كنت تلقى علىّ هذا السؤال جاداً •••

صاح ايفان يسأله بعناد حانق :

ـ هل الله موجود أم هو غير موجود ؟

ـ ها ••• أنت جادٌ اذن ؟ نشهد الله يا بني العزيز أنني أنا نفسي لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً • وتلك قولة كبيرة أفلتت مني •••

ـ كيف لا تعرف عن هذا الأمر شيئاً مع أنك ترى الله بعينيك ؟ لا ، لا ، ليس لك وجود واقعي ؟ أنت أنا ••• ما أنت الا أنا ، ما أنت الا أنا ••• أنت دخان لا أكثر ، أنت ثمرة خيالي أنا •••

ـ بل قل ان فلسفتي هي فلسفتك • ذلك أصوب • « أنا أفكر ، فأنا اذن موجود »*، تلك هي القضية الوحيدة اليقينية • أما كل ما عداي، أما كل ماحولي، أما جميع تلك العوالم البعيدة ، أما الله ، وحتى الشيطان، أما كل ذلك فلست أملك برهاناً على وجوده ، ولا يستطيع أحد أن يؤكد على وجه الثقة واليقين أهذه وقائع موجودة بذاتها ، أم هي صادرة عن فكري تحققاً مادياً تدريجياً للأنا ، لهذه الأنا التي لا يكون عندئذ وجود لسواها ، والتي تكون قد وُجدت منذ الأبد ••• جملة القول ••• ولكنني أمسك عن الكلام ، أمسك عن الكلام ، لأنني أرى أنك تهمُّ أن ترتمي عليَّ لتشبعني ضرباً •

قال ايفان بلهجة فيها ألم :

ـ خير من هذا الكلام كله أن تروى لي نادرة فكهة أو نكتة مسلية •

ـ أعرف نادرة تتصل بموضوع حديثنا • والحق أنها ليست نادرة بالمعنى الأصلي ، بل هي الى الأسطورة أقرب • انك تأخذ عليَّ امتناعي على التصديق ، ويدهشك أن تراني لا أؤمن بالأسرار التي أبصرها بعينيَّ • فاعلم اذن أن هذه الحالة ليست حالتي وحدي ، وأننا جميعاً ، نحن معشر الذين نعيش في المناطق السماوية ، تهزنا روح الاضطراب

والقلق ، وذلك بسبب اكتشافاتكم العلمية اللعينة • انكم حين تقتصرون على تعليل العالم بالجواهر الفردة ، والحواس الخمس ، والعناصر الأربعة ، يظل الأمر مقبولاً بعض الشيء • ثم ان الاقدمين كانوا يعرفون الجواهر الفردة • ولكن حين ذاعت بيننا الشائعة التى تقول انكم قد اكتشفتم الذرة الكيماوية ، والبروتوبلازما ، وما لا أدرى أيضاً ، فان أصحابنا قد شدوا على أذنابهم بسيقانهم ، وحدث فى صفوفنا اضطراب نفسى شديد ، وأصبحنا فى فوضى شاملة وسديم كامل ، وانتشرت فى بيئتنا الخرافات والأوهام ، وازدهرت الأقاويل والنمائم • لاحظ أن عندنا نمائم بقدر ما عندكم وأكثر • ومنذ ذلك الحين أخذت الوشايات والسعايات تعيث فساداً فى أرجائنا السماوية • يجب أن تعلم ، فى هذه المناسبة ، أن عندنا نحن أيضاً « شعبة خاصة » ، أن عندنا نحن أيضاً « مخابرات » تجمع بعض « المعلومات » ••• والأسطورة التى سأرويها لك يرجع عهدها الى قروننا الوسطى ــ أقول قروننا الوسطى نحن ، لا قرونكم الوسطى أنتم ــ وهى أسطورة أصبح لا يصدقها أحد منا الآن ، باستثناء البائعات السمينات اللواتى يزنّ مائة كيلو ، لا البائعات السمينات اللواتى عندكم أنتم ، بل اللواتى عندنا نحن • ان كل ما يوجد فى الأرض يوجد أيضاً فى عالمنا • ذلك سر أكشف لك عنه اليوم من باب الصداقة الخالصة ، رغم أن هذا محظور علينا • والأسطورة التى سأرويها لك تتعلق بالجنة : يُقال انه كان يعيش على أرضيكم فى ذات زمان فيلسوف « ينكر كل شيء ، ينكر القوانين والشعور والايمان » * ، ويرفض خاصةً أن يسلّم بوجود الحياة الآخرة • وقد مات هذا الفيلسوف وهو على يقين من أنه يغيب فى غياهب العدم ، فاذا هو يرى نفسه فجأة أمام أبواب الحياة الآخرة • كانت دهشته من ذلك عظيمة ، وأعظمُ منها كان استياؤه • صاح يقول : « لست أريد الحياة الآخرة هذه ، لأنها تخالف عقيدتى » • فحوكم

وحكم عليه بسبب هذه القولة الطائشة ... معذرةً اذا أنا قصصت عليك الأمور على نحو ما قُصَّت عليَّ ... وما هذه الا أسطورة على كل حال ... ما هذه الا أسطورة على كل حال ... حكم على الرجل بأن يقطع في الظلمات ، سيراً على الأقدام ، مسافة كادريون كيلومتر (ان كل شيء يعدُّ عندنا الآن بالكيلومترات) ، وبعد ذلك تُفتح له أبواب الجنة ، ويُغفر له كل شيء ...

قاطعه ايفان سائلاً بانتعاش قوى وحرارة شديدة :

ـ ما هي أنواع العذاب التي يمكن أن يتحملها الانسان في الحياة الآخرة ، عدا هذا الكادريون من الكيلومترات ؟

ـ ما هي أنواع العذاب ؟ آه ... انني لا أحدث نفسي بهذا !... في الماضي كان الأمر ما يزال معقولاً ، وكنا نعرف أنواعاً من العذاب . أما الآن فقد اعتقدوا أن عليهم أن يلغوها وأن يستبدلوا بها تباريح روحية ، أن يستبدلوا بها « آلام الضمير » ، وخزعبلات من هذا النوع. لقد استوردنا هذا من عندكم ، وهو ثمرة من ثمرات ما وصلت اليه عاداتكم وأخلاقكم من « لطف ورقة » . فمن ذا الذي جنى من هذا النظام فائدة ، في رأيك ؟ ان الأشرار وحدهم انتفعوا بهذا النظام وأفادوا منه . أنَّى لهؤلاء أن يعرفوا « آلام الضمير » وليس لهم ضمير ؟ وفي مقابل ذلك كان على النفوس الصادقة التي احتفظت بشيء من الاستقامة والشرف والأمانة أن تتألم عوضاً عن الآخرين وأن تفتديهم ! ذلك ما يحدث حين يراد ادخال اصلاحات في تربة لم تتهيأ لقبولها ، وحين تُقلَّد أنظمة أجنبية تقليداً أعمى . أمر يستحق الرثاء ! ألا ان نار جهنم القديمة كانت خيراً من هذا . ولنعد الى فيلسوفكم الذي حكم عليه بأن يقطع مسافة كادريون كيلومتر : انه لم يزد على أن رفع كتفيه غير مبالٍ ، ثم رقد على الطريق بالعرض قائلاً : « أرفض أن أمشي ،

حفاظاً على العقيدة وتمسكاً بالمبدأ ! » • خذ نفس ملحدٍ روسى مثقف ، وامزجها بنفس النبى يونس الذى لبث فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال يلعن حظه ، تخرج من ذلك الحالةُ النفسية لصاحبنا المفكر هذا الذى رقد على الطريق بالعرض مصراً معانداً •

ـ على أى شىء رقد ؟

ـ لا بد أنه كان هنالك شىء رقد عليه • أأصبحت لا تضحك الآن؟

هتف ايفان يقول وهو على تلك الحالة نفسها من الانتعاش والحرارة (وكان يصغى الآن بنهمٍ غير متوقع) :

ـ مرحى لذلك المفكر ! مرحى ! ألا يزال راقداً على الطريق بالعرض حتى الآن ؟

ـ لا • لبث على ذلك الوضع قرابة ألف سنة ، ثم عاد ينهض وأخذ يمشى •

صاح ايفان بضحكة عصبية :

ـ يا له من حمار !

ثم بدا على ايفان أنه يفكر تفكيراً عميقاً ، ثم استأنف كلامه فقال :

ـ ولكن أليس يستوى ، على كل حال ، أن يبقى راقداً الى الأبد وأن يقطع مسافة كارديون كيلومتر ؟ أظن أنه سيحتاج من أجل ذلك الى بليون سنة ، أليس كذلك ؟

ـ أكثر أكثر ! لو كان معى قلم وورقة لأجريت لك هذا الحساب بسرعة • على كل حال ، لا قيمة لهذا ، ما دام قد انتهى من قطع هذه المسافة منذ زمن طويل • وعند ذلك انما تبدأ النادرة أو النكتة •

ـ انتهى من قطع المسافة ؟ كيف هذا ؟ من أين جاء ببليون سنة ؟

ـ أنت تندهش لأنك تقيس الزمان بمقاييس زمان أرضكم • والواقع أن هذه الأرض لعلها قد عرفت الوجود بلايين المرات قبل وجودها الحالى • وهى فى كل مرة قد شاخت وتغطت بالثلج وتشققت فى كل اتجاه ثم تحللت وارتدت الى عناصرها الأولى ، فساد ملكوت المياه من جديد ، ثم ظهر مذنَّب جديد فشمس جديدة ولَّدت بدورها أرضاً • وتكرر هذا التطور عدداً لا نهاية له من المرات بهذه المراحل نفسها وهذه التفاصيل ذاتها • ذلك ضجر قاتل بغير حياء •••

ـ طيب ، فماذا حدث حين انتهى من قطع مسافة الكادريون كيلومتر ؟

ـ لم يحدث أى شىء خارق• ُفتحت له أبواب الجنة فدخلها ، فما ان انقضت على دخوله ثانيتان ـ ثانيتان عدَّهما والساعةُ فى يده ، نعم والساعة فى يده ، ُألح على هذا (رغم أن ساعته لا بد أن تكون فى رأيى قد فسدت فى جيبه أثناء رحلته) ـ أقول ما ان انقضت على ذلك ثانيتان حتى هتف قائلاً ان هاتين الثانيتين لا تعدل قيمتهما مسافة الكادريون كيلومتر فحسب ، بل تعدل قيمتهما كادريون الكادريونيات مرفوعةً الى أسٍّ الكادريون أيضاً • الخلاصة أنه قد أخذ يرتل تسبيحته ، وبلغ من الغلوِّ فى التسبيح والحمد أن بعضهم ممن كانت لهم أفكار أكثر تطوراً وأرفع نبلاً ، قد رفضوا فى الآونة الأولى أن يصافحوه ، لاعتقادهم بأنه قد بالغ فى الانحدار الى حضيض النزعة المحافظة • تلك هى طبيعة الروس • ولكننى أعود فأكرر لك أن الأمر أمر أسطورة أرويها لك على علاَّتها • تلك هى المفاهيم السائدة عندنا اليوم فى هذه الشئون •

هتف ايفان يقول بفرح يشبه أن يكون فرح طفل ، كأنه قد تذكر فى هذه اللحظة شيئاً ما على حين فجأة :

ـ ضبطتك ! ان هذه النكتة التى ترويها عن الكادريون من السنين انما اخترعتها أنا نفسي • كنت حينئذ فى السابعة عشرة من عمـرى ، وكنت فى المدرسة التانويه ••• تخيلت هذه النكتة وقصصتها فى تلك الآونة على رفيق من رفاقي اسمه كوروفكين • كان ذلك فى موسكو •• ان هـذه النكتة تبلغ من تميز أفكارى بها أننى ما كان لى أن أستمدها من غير أفكارى هـذه ••• ولكننى نسيتها بعد ذلك الزمان ••• وقد عاودت ذاكرتي الآن على غير شعور منى • فأنا الذى تذكرتها اذن ، ولم تقصصها علىّ أنت ! انه ليحدث هكذا أن تنبجس من النسيان طائفةٌ من الأشياء بغتةً عند الانسان حين يُقاد الى التعذيب أو حين لا يزيد على أن يحلم وهو راقد فى سريره • فما أنت اذن الا حلم ، ما أنت الا صورة فكرى وليس لك وجود واقعى •

قال السيد الراقى وهو يضحك مشرق المزاج :

ـ اننى ألاحظ من جموحك العاطفى فى انكار وجودى أنك تؤمن بى مع ذلك •

ـ أنا ؟ أؤمن بك ؟ أبداً ••• أنا لا أؤمن بك البتة ، أنا لا أؤمن بك حتى ولا جزءاً من مائة جزء من الايمان !

ـ ولكن ربما آمنت بى جزءاً من ألف جزء ! ان المقادير الصغيرة فى الأدوية التى تعالج الداء بالداء نفسه قد تكون هى الأقوى أثراً • هلاّ اعترفت ، هلاّ اعترفت بأنك تؤمن بى ، ولو جزءاً من عشرة آلاف جزء مثلاً !•••

هتف ايفان يقول :

ـ ولا لحظة من اللحظات !

ثم أضاف بعد ذلك بصوت ترفق ترفقاً غريباً :

ـ لكننى أود لو أؤمن بك •

ـ عظيم، هذا اعتراف له قيمة كبيرة ! اعلمْ اننى طيب القلب واننى أريد أن أهبّ الى نجدتك • اسمع : أنا الذى ضبطتك ، لا أنت الذى ضبطتنى • لقد تعمدت أنا أن أروى لك نكتتك التى كنت قد نسيتها ، وانما فعلتُ ذلك بغية أن أقودك الى أن تشك فىّ شكاً نهائياً •

ـ كاذب ! أنت انما ظهرت لى لتقنعنى بوجودك •

ـ صحيح • ولكن اعلمْ أن الشكوك والقلق الذى تحدثه هذه الشكوك ، اعلمْ أن الصراع بين الايمان وعدم التصديق يمكن أن يورثا الانسان الذى يملك شعوراً مرهفاً مثلك عذابات تبلغ من الهول أن الانتحار شنقاً خير منها • ولما كنتُ أعلم أنك تؤمن بى قليلاً ، فقد زرعت الشك فى نفسك برواية تلك النادرة لك • فبذلك أقودك من الايمان الى الشك ومن الشك الى الايمان مرة بعد مرة على التناوب • وحين أفعل ذلك فانما أهدف الى غاية • وأنا أطبّق هنا منهجاً جديداً : فمتى شككت فى وجودى شكاً نهائياً أردت أن تبرهن لى على اننى لست الا حلماً وعلى أننى غير موجود فى الواقع • ذلك اننى أعرفك • فبهذه الوسيلة أكون قد حققت هدفى ، وهو فى الحقيقة هدف نبيل جداً • فأنا انما أرمى فى الواقع الى أن أضع فى نفسك بذرة ايمان متواضعة فاذا بشجرة قوية من أشجار السنديان تخرج من هذه البذرة فى المستقبل ، شجرة تبلغ من القوة أنك ستريد أن تعيش فى حماها حياة ناسك وقديس • والحقيقة أن هذه هى رغبتك الخفية المستسرة المكتومة منذ زمن طويل • ولسوف تحقق هذه الرغبة يوماً، فتتغذى بالجراد ساعياً الى الخلاص فى الصحراء••

ـ يا لك من شقى ! أفى سبيل خلاص روحى انما حمّلت نفسك اذن هذا العناء كله ؟

ـ لا بد لى ، أنا أيضاً ، من أن أقوم بعمل خير من حين الى حين. ولكننى أرى أنك تغضب ، تغضب غضباً يا له من غضب !...

ـ مهرّج ! هل أغريتهم وأغويتهم أيضاً أولئك الذين يقتاتون بالجراد ويقضون فى الصحراء سبعة عشر عاماً وهم يصلون وتغطيهم الطحالب ؟

ـ ذلك هو عملى الرئيسى يا صديقى العزيز . ما أسهل أن ينسى أحدنا الكون وعوالمه التى لا تعد ولا تحصى من أجل أن يتعلق بواحد من أولئك الرجال ، لأنهم فى نظرنا بمثابة جواهر ثمينة جداً . ان نفساً واحدة من هذا النوع تعدل فى بعض الأحيان كوكباً مع جميع توابعه . لدينا فى هذا الشأن جدول أسعار . ان نصراً نحققه على واحد من هؤلاء الرجال لهو فى نظرنا ذو قيمة عظيمة . أؤكد لك أن بينهم أناساً لا يقلون عنك ثقافة وذكاء ، رغم أنك لا تريد أن تسلّم بهذا ، أنا أعرف ذلك ... وهم قادرون على أن يسبروا ، فى لحظة واحدة بعينها ، أعماقاً من الشك والايمان ، حتى ليحسب المرء فى مثل تلك الهنيهات أنهم يوشكون أن يسقطوا « وأرجلهم فى الفضاء » على حد التعبير الذى يحبه جوربونوف * .

ـ طيب ؟ وفى كل مرة تعود الى نقطة البداية شاعراً بالخزى من أنك طويل الأنف فيما أتخيل ، أليس كذلك ؟

أجاب الزائر بلهجة الواعظ :

ـ ياصديقى لأن ينصرف المرء طويلَ الأنف خير" فى بعض الأحيان من أن ينصرف بغير أنف البتة ، كما قال ذلك فى الآونة الأخيرة مركيز مريض أثناء اعترافه لكاهن يسوعى (أغلب الظن أن المركيز كان قد عهد بأنفه الى عناية اخصائى). هتف المركيز يقول وهو يلطم صدره : « ردّ

الىّ أنفى » ، فقـال له الكاهن الطيب هامسـاً : « يا بنى ، ان أوامر الله لا يُسبر غورها ولا تدرك حكمتها أحيـاناً • فرب بلاء ظاهر هو ينبوع سعادة عظيمة وان لم تكن هذه السعادة غير بادية للنظر أحياناً • لئن شاء حظ قاسٍ أن يحرمك من أنفك ، ان فى ذلك لميزةً واحدة على الأقل ، هى أن أحداً لن يجرؤ بعد الآن أن يجرّك من طرف أنفك » ، فاستأنف المريض اليائس كلامه قائلاً : « ذلك عزاء هزيل ! • لسـوف يسرنى ويسـعدنى ويفرحنى أن أُجـرّ كل يوم من طرف أنفى ، شريطة أن يكون أنفى فى مكانه » ، فأجابه الكاهن متنهداً : « يا بنى ، لا يمكن أن يملك المـرء جميع النعم والخيرات فى آن واحـد ؛ وان الأمنيـة التى أفصحت عنها الآن لهى فى حد ذاتها معصية لله الذى ما نسيك فى هذه الحـالة ، لأنك حين تؤكد أنه سيسـعدك أن تُجـرّ كل يوم من طرف أنفك ، كما أعلنت هذا بنفسك منذ هنيهة ، فانما أنت تحقق أمنيتك على نحو غير مبـاشر : انك اذ فقدت أنفك قد احتفظت به مع ذلك ، بالمعنى المجازى ••• » •

صاح ايفان قائلاً :

ـ ما أغبى هذا الكلام !

ـ يا صديقى ، انمـا كانت غايتى الوحيـدة حين رويت لك هذه النادرة هى أن أسلّيك وأضحكك • ولكننى أحلف لك أن هذا مثـال على الجدل اللاهوتى الذى يمارسه اليسوعيون • ان هذا الأمر قد حدث كما رويته لك تماماً ، كلمة كلمة • وهو حالة وقعت فى الآونة الأخيرة وأحدثت لى متاعب جمة وأورثتنى هموماً كثيرة • ان ذلك الشاب المسكين الذى حدثتك عنـه قد انتحـر فى تلك الليلة نفسـها حين عـودته الى البيت بعد الاعتراف • وقد لبثت بقربه الى آخـر لحظة ••• أما كراسى الاعتراف لدى اليسـوعيين فاننى اختلف اليهـا كثيراً ، وتلك فى الواقع

تسلية من تسلياتي المفضلة ، حين يوافيني ضجر ويلم بي سأم وحزن .
وسأقص عليك الآن حالة أخرى يرجع عهدها الى بضعة أيام خلت .
استقبل كاهن يسوعي عجوز على كرسي الاعتراف فتاة شقراء ،
نورماندية ، صبية في العشرين من عمرها ، جميلة يفتن جمالها العقل ...
أما جسمها فان لعابي ليسيل حين أتصوره . ولها عدا هذا طبيعة من تلك
الطبائع ... ما شاء الله ... جثت على ركبتيها ، ودمدمت تعترف
بخطيئتها من خلال القضبان . هتف الكاهن الصارم يقول : « هل يمكن
حقاً ، يا ابنتي ، أن تكوني قد سقطت من جديد ؟ أوه ! يا مريم العذراء !
ماذا أسمع ؟ مع رجل آخر ؟ الى أين تمضين يا بنيتي ؟ ألا تستحين ؟ » ،
فأجابته الخاطئة تقول وقد غرق وجهها في الدموع ندماً وحسرة : « آه
يا ابتاه ! ان ذلك يحدث له هو لذة عظيمة ، ولا يحدث لي أنا الا ألماً
قليلاً ! » . جواب عظيم ، هه ؟ ما رأيك ؟ لقد دهشت أنا نفسي من هذا
الجواب . كانت تلك صيحة الطبيعة ... بدا لي ذلك أطهر من البراءة
نفسها . غفرت لها خطيئتها فوراً ، وبينما كنت أهم أن أنصرف ، رأيتني
اضطر الى أن أعود أدراجي : فقد سمعت الكاهن يتواعد مع الفتاة من
خلال القضبان على أن يلتقيا في المساء . وكان الكاهن مع ذلك شيخاً
صارماً شديد العبوس . لقد سقط في مدى لحظة . لقد ظهر أن الطبيعة
هي الأقوى . مالك تكشر ؟ أغضبت من جديد ؟ حقاً لقد أصبحت
لا أدري ما الذي يجب علي أن اخترعه حتى أسرك ...

صاح ايفان يقول بصوت موجع فيه أنين ، لأنه كان يحس أنه
عاجز عن التخلص من هلوسته :

ــ دعني ! انك تحدث في دماغي جلبة كابوس . ان حضورك
يضجرني ضجراً قاتلاً . لقد أصبحت لا أطيق احتمالك . انني مستعد
لأن أعطي كثيراً في سبيل أن أتخلص منك !

ـ أكرر أن عليك أن تخفف من غلوائك ، وأن تعتدل في مطالبك.
كف عن توقع أفكار « رفيعة عظيمة » منى ، فترى كيف أننا سنتفاهم حينذاك . الواقع أنك حانق على لأننى لم أمثل أمامك فى اطار أكثر مهابة ، تحف بى هالة حمراء ، وتحيطنى بروق ، وتصحبنى رعود . كنت تود لو ترانى بجناحين كبيرين محمرين بنار جهنم ، ولا تغفر لى أننى جئت اليك بثياب متواضعة هذا التواضع . انك تشعر بأنك أوذيت، أوذيت فى مشاعرك الجمالية الفنية أولاً ، وفى كبريائك وعزتك ثانيا : كيف يستقبل رجل عظيم هذه العظمة ـ أليس كذلك ؟ ـ كيف يستقبل مثل هذا الرجل زيارة شيطان مسكين هذه المسكنة التى تستحق الرثاء ؟ صحيح ! أنا لا أنكر ذلك ! ان هذه السمة الرومانسية التى طالما ندد بها الناقد بيلنسكى هى جزء من طبيعتك . ولكن ما حيلتى أيها الشاب الطيب ؟ منذ قليل ، حين كنت آتياً اليك ، خطر ببالى أن أرتدى ثياب مستشار دولة محال على التقاعد سبق له أن خدم فى القفقاس ، فهو يضع على ردائه وسام « الأسد » و « الشمس » * . وكانت هذه الفكرة محببة الى النفس ، ولكننى لم أجرؤ أن أنفذها ، فلو قد فعلت لضربتنى حتماً لأننى وضعت على صدرى وسام « الأسد » و « الشمس » بدلاً من أن أضع « نجمة القطب » و « نجمة الأبرق » . وأنت الى هذا لا تكف عن تذكيرى بأننى غبى . شهد الله مع ذلك أننى لم يخطر ببالى أن أنافسك فى الذكاء . حين جاء مفستوفيليس الى فاوست قال انه يريد الشر ثم لا يستطيع أن يفعل الا الخير * . ذلك شأنه هو . أما أنا فعلى نقيض هذا. ربما كنت فى الكون بأسره الانسان الوحيد الذى يحب الحقيقة مخلصاً ويصبو الى الخير صادقاً . لقد كنت حاضراً حين صعدت « الكلمة » الى السماء ، بعد موتها على الصليب ، حاملة على صدرها روح لص اليمين المصلوب * . وسمعت صيحات الفرح التى صدحت بها أصوات الكروبيين

مسبحين بحمد الله ، وسمعت الأناشيد الصاخبة يضج بها الساروفيين الذين هزّوا السماء بأصواتهم المرعدة وأرعشوا بها الخليقة كلها • فيميناً بكل ما أقدس فى هذا العالم ، لقد تمنيت عندئذ أن أنضمّ الى جوقة المنشدين مسبحاً بحمد الله أنا أيضاً • كان صدرى يرتفع ، وكانت كلمات الحمد والثناء تندفع الى شفتى ••• ذلك أننى ـ اعلمْ هذا ـ حساس جداً ، وأننى قد أوتيت عاطفة فنية مشبوبة • ولكن العقل ـ هذه الملكة اللعينة فى طبيعتى ـ قد صدتنى فى تلك المرة أيضاً ، واضطرتنى الى القصد والاعتدال ، فأفلتت منى اللحظة الرائعة ، أفلتت منى الفرصة الوحيدة • تساءلت عندئذ : « ما عسى يحدث بعد أن أغنى نشيد تمجيد الرب ؟ سوف ينطفىء حينذاك كل شىء فى هذا العالم ، فلا تحدث بعد ذلك أحداث » • فبسبب وظائفى وحدها ومن أجل وضعى الاجتماعى وحده انما خنقت اذن فى نفسى ذلك الاندفاع الطيب الخيّر الكريم ، وبقيت وفياً لما أقوم به من أعمال الدناءة • ان شخصاً آخر قد احتكر لنفسه ما يرتبط بالخير من شرف ومجد ، ولم تُترك لى أنا الا حطة الشر • ولكننى لا أحسد أولئك الذين يعيشون فى السهولة واليسر ، فما أنا بالطماع • ولكنى أتساءل مع ذلك : لماذا كُتب علىّ وحدى ، من دون سائر مخلوقات الكون ، أن أتلقى لعنات الأخيار من الناس، بل وأن احتمل ركلات أرجلهم فى بعض الأحيان ، لأن علىّ أن أذعن لهذه المساوىء حين أتجسد • أنا أعلم أن فى هذا سراً ، ولكنهم يأبون أن يطلعونى على هذا السر • ربما كانوا يعرفون أننى ، يومَ أعرف السر ، سأسبح أنا أيضاً بحمد الله ، فسرعان ما يتبدد عندئذ ما فى هذا العالم من عيوب ضرورية ، وسرعان ما ينتصر الرشاد ، فيكون ذلك نهاية كل شىء ، حتى الجرائد والمجلات ، اذ من ذا الذى يخطر بباله عندئذ أن يشترك فى الجرائد والمجلات اذا هى أصبحت خاضعة لسلطان العقل

والرشاد • لست أجهل طبعاً أننى سأتصالح آخر الأمر مع الخليقة ، وأننى بعد أن أقطع ما يجب علىّ أن أقطعه من مسافة تبلغ كادريون كيلومتر ، سأعرف السرّ الذى يخفونه عنى • ولكن الى أن يتحقق ذلك ، سأظل فى صف المعارضة ، فأقوم بعملى على مضض ، وأنهض بأعباء مهمتى متألماً أشد الألم : أهلك ألوفاً لأنقذ واحداً • كم من نفس وجب اهلاكها وكم من سمعة وجب تلطيخها ، من أجل الوصول الى رجل صالح واحد مثل أيوب ، باستخدامى أنا ؟ لا ••• ما ظل السر مكتوماً عنى خافياً علىّ ، فسيبقى هنالك حقيقتان فى نظرى : حقيقة السماء التى أجهلها الآن جهلاً تاماً ، وحقيقتى أنا • ولا يدرى أحد حتى الآن أى الحقيقتين أشرف ••• ولكنك نمت فيما أرى ؟

قال ايفان فى أنين وغضب مكظوم :

ـ وكيف لا أنام ؟ ان أغبى ما فى طبيعتى من أمور ، ان أسخف ما كان فى ذهنى من أفكار تجاوزتها منذ زمن طويل ونبذتها نبذ القاذورات ، تأتى أنت الآن فتقدمها لى كما لو كانت شيئاً جديداً •

ـ حظى سيء ! كنت آمل أن أفتنك بما فى كلامى من جمال أدبى• أحسب مع ذلك أننى أجدت وصف التسبيح الذى غنته الأصوات فى السماء • ما رأيك فى هذه اللهجة الساخرة التى تقتفى آثار هاينى ؟ يخيل الىّ أنها تناسبنى ••• ألا ترى ذلك ؟

ـ لا ، أنا لم أكن فى يوم من الأيام خادماً من هذا الطراز ! كيف أمكن أن تلد نفسى خادماً مثلك ؟

ـ يا صديقى ، أعرف شاباً روسياً من أسرة طيبة ، فتى أحلف لك أنه رائع : هو فيلسوف ، وهو يهتم بالأدب ويعنى بالفن • وقد ألّف

قصيدة تلوح فيها موهبته الشعرية منذ الآن ، عنوانها : « المفتش الكبير »• وفيه وحده انما كنت أفكّر •

صاح ايفان يقول وقد احمر وجهه خجلاً :

ـ أمنعك من الكلام عن « المفتش الكبير » !•

ـ و « التحول الجيولوجي » ؟ ألا يزال يتذكره ؟ تلك قصيدة !

ـ اسكت والا قتلتك !

ـ تقتلني أنا ؟ دعني أكمل أولاً ما كنت أريد أن أقوله لك • فمن أجل أن أحصل على هذه المتعة انما جئت • انني أعبد أحلام أصدقائي الشباب الذين يفيضون حرارة وحماسة ونبضاً وحياة • كنت تقول لنفسك في الربيع الماضي وأنت تستعد للمجيء الى هذه المدينة : « سأجد هنالك أناساً جدداً • انهم ينوون أن يحطموا كل شيء وأن يعودوا فيبدأوا من البداية ، أي من أكل لحوم البشر ! يا لهم من حمقى ! لماذا لم يستشيروني ؟ لا حاجة الى التحطيم في رأيي ، وانما يكفي أن نطرد من أذهان البشر فكرة الاله • بهذا انما ينبغي لنا أن نبدأ مهمتنا • ذلك هو المنطق الحقيقي الذي يجب أن ننطلق منه في عملنا ، وهؤلاء العميان لم يدركوا من هذه الحقيقة شيئاً • فمتى نبذت الانسانية الايمان بالله دفعةً واحدة (وأنا مقتنع بأن هذا العصر آتٍ لا ريب فيه ، ليحل محل العصور الجيولوجية الأخرى التي تعاقبت حتى الآن) ، فان المفاهيم القديمة عن الكون ستختفي من تلقاء نفسها دون أن يكون من الضروري أن نرتد الى عهد أكل لحوم البشر • وستزول الأخلاق القديمة خاصةً ، وسيُبنى عالم جديد بعد أن يمحي الماضي • سوف يتحد البشر ليردوا الى الحياة الحد الأقصى مما تستطيع الحياة أن تعطيه من سعادة وبهجة ومتعة ، ولكن في هذا العالم وحده • وسيشعر الانسان بعزة عظيمة

وكبرياء جبارة تحركه وتحمله ، لأنه يكون قد أصبح « الهاً ـ انساناً ».
ان ما سيحققه الانسان من انتصارات على الطبيعة لا انقطاع لها ولا حدود لها ، بفضل ارادته المتحالفة مع العلم ، ستغمر نفسه في كل ساعة بفرح يبلغ من السمو والرفعة أنه سينسيه ما كان يوعد به في الماضي من ثواب سماوي . سيعرف كل انسان أنه فانٍ ، وأنه لا بعث بعد الموت ، ولكن جميع الناس سيقبلون الموت بهدوء فيه عزة وشمم ، كأنهم آلهة . سيعدل الانسان يومئذ ، من شدة أنفته وكبريائه ، عن الشكوى من القدر وعن الاستياء من أن حياته طارئة ووجوده عارض. وسوف يحب الانسان أخاه الانسان حباً مبرأً من المنفعة ، لا يرجو أن ينال على حبه مثوبة فيما بعد . صحيح أن الحب لن يتفتح الا لحظات قصاراً ، ولكن قِصَره نفسه سيجعل سناءه وقوته أشد وأعنف ، بينما كان في الماضي يضيع في صبوات غامضة الى حب أبدي ولو من خلف القبر » ... وهلم جرا . شيء جميل .

كان ايفان قد سدّ أذنيه بيديه ، وأطرق الى الأرض وهو جالس على الديوان ، وأخذ جسمه كله يرتجف .

تابع الصوت كلامه يقول :

ـ « ان المسألة المطروحة الآن ـ هكذا كان يفكر فيلسوفنا الشاب ـ هي : هل سيأتي عصر من هذا النوع أم لا ؟ فاذا كان الجواب على هذا السؤال بنعم ، فسوف تحل المشكلة ، وسوف تنتظم الانسانية على أسس جديدة . ولكن لما كان من المستحيل ، بسبب حماقة البشر ، بحكم حماقتهم ، أن يحل هذا العصر الجديد قبل انقضاء ألف سنة أخرى ، فانه يترتب على ذلك أن من حق كل فرد ، وقد وعى الحقيقة منذ الآن ، أن يبني حياته على النحو الذي يناسبه دون أن يعبأ بالمفاهيم البالية أو أن يكترث لها . وبهذا المعنى انما يمكن أن يقال « ان كل شيء مباح » .

وهب أن ذلك العصر الجـــديد لن يأتى فى يوم من الأيام ، فانه ليظل صحيحاً أنه لا وجود للاله ، ولا خلود للنفس ، فمن المباح اذن للانسان الجديد أن يصبح « الهاً انساناً.» ولو وجب عليه أن يكون الوحيد كذلك في الكون كله • وواضح أنه سيستطيع ، فى دوره الجديد ، أن يتحرر فَرِحاً من الضغوط الأخلاقية التى كان يخضع لهـا « الانســان العبد » فى الماضى ، وسيـكون عليه أن يتحـرر هذا التحـرر كلما بدا له ذلك ضرورياً • فلا قوانين تُفرض على اله ، لأن الاله على حق دائماً ؛ فأى شىء يفعله الاله فهو الصواب ، وأى مكان يكون فيه الاله فهو مكانه • ان كل ما سأفعله بعد اليوم فهو خير ، وسأحتل المكان الأول ••• كل شىء مباح ، وكفى ! » ـ هذا كله جميل جداً ، ولكننى أتساءل لماذا يكون الانسان فى حاجة الى أن يتدثر بدثار الحقيقة ما دام قد قرر أن يعيش وأن يخادع ؟ فيم هذا التأييد للحقيقة ؟ هذا هو انساننا الروسى المعاصر : انه فى حاجة الى تأييد الحقيقة ولو ليقرر أن يغش ••• فالى هذا الحـد يبلغ حبه الحقيقة •••

كان الزائر يبـدو مسروراً ببلاغته وفصاحته • فهو يرفع صـوته أكثر فأكثر ، وينظر الى صاحب البيت فاحصاً فى مكر • ومع ذلك لم يستطع أن يكمل كلامه ، فان ايفان تناول الكأس الموضوعة على المائدة فجأة ، فرمى بها الخطيب البليغ بكل ما أوتى من قوة •

فهتف الخطيب يقول وهو ينهض متعجلاً ويمسح بأصابعه قطرات الشاى التى تناثرت على ثيابه :

ـ آ ••• ألا ان هذا لغبـاء أخـيراً ! لقد تذكر محبرة لوثر * • هو يدعى أننى لست الا حلماً ، فيقذف الأقداح الى رأس الخيال الذى ظهر له فى هلوسته ! لكأنه امرأة حقاً ••• يا لهذا المنطق ما أغربه !••

لقد كنت أقدّر فعلاً أنك تتظاهر بسدّ أذنيك تظاهراً بينما كنت فى الواقع تسمعنى وتصغى الىّ ...

وفى تلك اللحظة سُمعت طرقات ملحة على زجاج النافذة ، فنهض ايفان عن ديوانه واثباً .

هتف الزائر يقول :

ــ هل سمعت ؟ خير لك أن تفتح ، فهو أخوك أليوشا يطرق النافذة حاملاً اليك نبأً لست تتوقعه البتة ، نبأً هاماً جداً ، صدقنى ...

قال ايفان وهو فى حالة حميا شديدة :

ــ اسكت أيها الدجال ! لقد عرفتُ قبلك أنه أخى أليوشا . وكنت أحس أنه سيأتى ، ولا بد أن يكون هناك سبب حمله على المجئ .. انه يحمل الىّ « أنباء » ، هذا بديهى .

ــ فافتح اذن ، افتح له . ان فى الخارج زوبعة ثلج ... وهو أخوك ... هل تعرف يا سيدى رداءة الجو فى الخارج ؟ ان الجو يبلغ من الرداءة أن المرء لا يسمح لنفسه بأن يدع كلباً هناك !...

واستمر الطرق على النافذة . أراد ايفان أن يهرع فيفتح الباب ، لكنه أحس فجأة كأنه مشلول ، فهو لا يستطيع أن يتحرك من مكانه . بذل جهداً كبيراً من أجل أن ينتزع نفسه من ذلك التجمد ، وأن يحطم هذه الحبال التى تشده ، ولكنه لم يفلح . وأصبحت الطرقات على النافذة أقوى وأصرم . فشعر ايفان فجأة بأنه يتحرر من عوائقه ، فنهض منتفضاً ، ونظر حواليه حائراً زائغ البصر . كانت الشمعتان قد ذابتا أو أوشكتا ، وكانت الكأس التى رمى بها الزائر منذ لحظة ما تزال فى مكانها على المائدة . وليس هناك أحد على الكنبة الموضوعة قبالته حذو الجدار .

ورغم أن الطرق على النافذة ما يزال مستمراً بالحاح ، فان الطرقات بدت لايفان أضعف مما كان يسمعها أثناء حلمه ، حتى لقد كانت خفيفة مستخفية •

هتف ايفان فيدوروفتش يقول وهو يندفع نحو النافذة :

ـ لم يكن ذلك حلماً ! لا ••• لم يكن حلماً ••• أحلف أنه لم يكن حلماً ••• أنا لم أحلم ••• ولقد كان ذلك كله منذ لحظة واقعاً •

وفتح فرجة النافذة ، وصرخ يقول لأخيه حانقاً :

ـ أليوشا ! ألم أحظر عليك أن تجيء الىّ ؟ قل بكلمتين لا ثالث لهما : ماذا تريد منى ؟ أجب ••• ولكن أوجز ، هل تسمع ؟

فأجابه أليوشا من فناء الدار قائلاً :

ـ شنق سمردياكوف نفسه من ساعة •

فقال له ايفان :

ـ تعال الى المدخل •

ومضى يفتح الباب •

١٠

« هو الذى قال ذلك »

دخل أليوشا ، وذكر لايفان فيدوروفتش فوراً أن ماريا كوندراتيفنا قد زارته منذ أقل من ساعة ، فأبلغته انتحار سمردياكوف ، قالت له : « دخلت الى غرفته لآخذ السماور ، فاذا أنا أراه مشنوقاً على مسمار أمام الحائط » ، فلما سألها أليوشا هل أبلغت من يجب ابلاغه ، أجابت بأنها لم تحدث أحداً فى هذا الأمر بعد • قالت : « وانما أسرعت اليك على الفور ، لكى تكون أول من يطلع على الحادث ، وكنت أركض ركضاً طوال الطريق » هذا ما أضافته ماريا كوندراتيفنا منقلبة السحنة زائغة النظرة ، وكانت كالمجنونة اضطراباً وكانت ترتعش كورقة فى مهب الريح • وقد صحبها أليوشا بعد ذلك الى بيتها ، فوجد سمردياكوف مشنوقاً بالفعل على النحو الذى وصفته ؛ ووجد على المائدة ورقة مكتوباً عليها ما يلى : « أنهيت حياتى بارادتى حراً ، فلا تتهموا أحداً » • ترك أليوشا الورقة على المائدة ، ومضى فوراً الى رئيس الشرطة ، فأطلعه على الحادث • وختم أليوشا كلامه لأخيه ايفان قائلاً : « ومن هناك جئت اليك رأساً » ، وكان أثناء ذلك يحدّق بانتباه الى ملامح وجهه التى أدهشه تعبيرها • ثم هتف يقول له فجأة :

ـ أخى ! لا بد أنك مريض ، مريض جداً ، جداً ! فأنت تنظر الىّ دون أن يبدو عليك أنك تفهم ما أقوله لك •

فقال له ايفان واجماً مفكراً ، دون أن يلوح أنه سمع تعجب أخيه :

ـ أحسنت صنعاً اذ جئت • على أننى كنت أعلم أنه شنق نفسه •

ـ ممن علمت ذلك ؟

ـ لا أدرى ممن ، ولكننى كنت أعلم • أكنت أعلم أم لا ؟ بل كنت أعلم • هو قال لى ذلك ، قاله لى منذ لحظة قصيرة •

كان ايفان واقفاً فى وسط الغرفة ، وكان يتكلم ذاهلاً حالماً ، وهو يحدّق الى الأرض •

سأله أليوشا وهو ينظر حواليه على غير ارادة منه :

ـ من « هو » ؟•

ـ اختفى •

قال ايفان هذه الكلمة وأنهض رأسه وابتسم ابتسامة رقيقة • ثم أردف يقول :

ـ خاف منك ، خاف منك ، نعم خاف منك أنت يا حمامتى • أنت « كروبى طاهر جداً » • دمترى يرى أنك كروبى • كروبى •• رعود أغانى الحماسة التى يغنيها الساروفيون ••• ما الساروفى ؟ ألعله برج نجوم قد لا يكون هو كله فى آخر الأمر الا ذرة كميائية بسيطة ••• هناك برج « الأسد » وبرج « الشمس » ، هل تعلم ذلك ؟

قاطعه أليوشا يقول مذعوراً أشد الذعر :

ـ اجلس يا أخى ، اجلس على الديوان ، أرجوك ••• أنت تهذى• اضطجع هنا ، ضع رأسك على المخدة ، هكذا • هل تريد أن أضع على جبينك خرقة مبللة ؟ قد يفيدك هذا •

ـ ناولني الفوطة الموجودة على ذلك الكرسي من فضلك • لقد ألقيتها عليه منذ قليل •

ـ ليس على الكرسي فوطة • لا تهتم • سأعرف أين أجد فوطة • هذه فوطة •••

كذلك قال أليوشا وهو يتجه نحو الزاوية المقابلة من الغرفة ، حيث أبصر ، قرب الحوض ، فوطة نظيفة لم تُمسّ وما تزال مطوية •

نظر ايفان الى الفوطة وفي وجهه تعبير غريب • كأن الذاكرة أخذت تعود اليه فجأة •

قال وهو ينهض عن الديوان :

ـ لحظة • انني منذ ساعة ـ أتذكر ذلك ـ قد تناولت هذه الفوطة من قرب الحوض فبللتها بالماء البارد ، ثم وضعتها على جبيني ، ثم رميتها الى هناك بعد مدة • فكيف تكون الآن ناشفة ومطوية ؟ لم يكن في غرفتي فوطة أخرى •

سأله أليوشا :

ـ أتقول انك وضعت هذه الفوطة على جبينك ؟

ـ نعم ، ومشيت في الغرفة منذ ساعة والفوطة على جبيني ••• لماذا ذابت الشموع ؟ كم الساعة الآن ؟

ـ قاربت منتصف الليل •

فصاح ايفان يقول فجأة :

ـ لا ، لا ، لا ، لم يكن ذلك حلماً ! كان هو هناك ، كان جالساً هناك ، على تلك الكنبة ، أمامي • فلما طرقت أنت زجاج النافذة ، رميتُ رأسه بكأس ••• هو هذا الكأس نفسه ••• لحظة ! في المرة الماضية أيضاً ، كنت قد نمت ، ولكن الحلم في هذه المرة ليس حلماً • الأمر

فى هذه المرة كما فى المرة الماضية • هل تعلم يا أليوشا أننى أرى الآن أحلاماً ؟••• ولكنها ليست بالأحلام ••• أنا يقظ ، أنا أمشى وأتكلم وأرى ••• ومع ذلك فأنا نائم ••• ولكنه كان هناك ، كان هناك ، نعم ، على تلك الكنبة • انه غبى غباءً فظيعاً ، يا أليوشا ، غباءً فظيعاً •

كذلك أضاف ايفان وقد أخذ يضحك على حين فجأة ، وطفق يمشى فى الغرفة •

سأله أليوشا مرة أخرى قلقاً :

ـ من هو الغبى ؟ عمَّن تتكلم ؟

ـ عن الشيطان • لقد أخذ يختلف الىّ • جاءنى مرتين ، مرتين ، ان لم يكن ثلاث مرات • قال لى ليزعجنى ويغيظنى اننى أغضب لأنه شيطان عامى لا ابليس محمرٌ الجناحين بنار جهنم ، معتاد أن يظهر محاطاً ببروق ساطعة ورعود مدوِّية • ولكنه ليس ابليس اذن • لقد كذب علىّ • انه دجال • هو شيطان عادى تماماً ، شيطان حقير ، من طبقة دنيئة • انه يرتاد الحمامات العامة ! فلو خُلعت ثيابه لاكتُشف حتماً ذنبه الذى لا بد أن يكون طويلاً جداً ، لا بد أن يكون طوله أكثر من متر ••• ذنب أشقر أملس ••• ذنب غير مهيب ، كذنب كلب خسيس ••• أليوشا ، أرى أنك متجلد من شدة البرد ! لقد مشيت فى الثلج مدة طويلة • هل تريد شيئاً من الشاى ؟ ما رأيك ؟ الجو البارد ، أليس كذلك ؟ هل تريد أن آمر باعداد شىء من الشاى لك ؟ الجو بارد جداً ، يبلغ من البرودة أن المرء لا يرضى أن يدع فى الخارج كلباً •••

أسرع أليوشا الى الحوض ، فبلل الفوطة بالماء البارد ، ثم حمل ايفان على أن يجلس ووضع الفوطة المبتلة على جبينه ، ثم جلس الى جانبه •

استأنف ايفان الكلام فقال وقد أصبح كثير الهذر :

ـ ماذا قلت لى أمس عن ليزا ؟ انها تعجبنى ، ليزا هذه ! أحسب أننى قلت لك سوءاً فى حقها . لم أكن صادقاً . انها تعجبنى ... أنا خائف من الغد ، خائف على كاتيا قبل كل شيء ، وفوق كل شيء . وخائف على المستقبل أيضاً . ستهجرنى فى الغد هجراً نهائياً ، وتركلنى بقدميها . هى تتخيل أننى أريد هلاك ميتيا بسببها ! نعم ، ذلك ماتتصوره . ولكن لا ، هذا خطأ . غداً يكون الصليب ، ولكن لن يكون الشنق . لأننى لن أشنق نفسى . هل تعلم يا أليوشا أننى عاجز عن أن أشنق نفسى ؟ لعلك تظن أن هذا جبن منى ، أليس كذلك ؟ ولكن لا ، أنا لست جباناً . فلأننى أحب الحياة حباً قوياً انما أعجز عن الانتحار ! من أين علمتَ أن سمردياكوف شنق نفسه ؟ آ ... نعم ... « هو » الذى قال لى ذلك ...

سأله أليوشا :

ـ أأنت مقتنع اذن ، أأنت مقتنع اقتناعاً تاماً بأن أحداً قد زارك .

ـ طبعاً . كان جالساً هناك ، على تلك الكنبة ، فى زاوية الغرفة . لا شك فى أنك طردته . أنت الذى حملته على الهرب قطعاً . لقد غاب فى اللحظة التى وصلت فيها أنت . اننى أحب وجهك يا أليوشا . هل كنت تعلم أننى أحب وجهك ؟ أما « هو » فانه أنا يا أليوشا ، أنا وحدى . هو كل ما فىّ أنا من دناءة وخسة وحقارة ! صحيح أننى «رومانسى» ، وقد لاحظ هو ذلك ... ولكن هذه نميمة كاذبة . انه غبى غباءً فظيعاً ، وبهذا انما هو قوى . هو ماكر ، ماكر كحيوان . كان يعرف بماذا يستطيع أن يثير غضبى وغيظى . زعم ليحنقنى أننى أؤمن به ، وبهذه الوسيلة حملنى على أن أسمع له وأصغى اليه . ولكنه ذكر لى أيضاً

حقـائق كثيرة عنى ، ذكر أشـياء ما كان لى أن أعترف بها فى يوم من الأيام •

ثم أضاف ايفان يقول بلهجة أصبح فيها على حين فجأة كثير من الجد والنجوى :

ــ هل تعلم يا أليوشا أننى أتمنى كثيراً أن يكون « هو » لا أنا ؟

قال أليوشا وهو ينظر الى أخيه فى شفقة وعطف :

ــ لقد أتعبك •

ــ أرهقنى بسخرياته • وما كان أبرعه وأحذقه ! ليتك تعلم كم كان بارعاً حاذقاً : « الضمير ؟ ما هو الضـمير ؟ هو ثمـرة دماغى • لماذا يشعر الانسان بعذاب الضمير ؟ يشعر بعذاب الضـمير من قبيل العادة ، نتيجةً لطريقة فى التفكير تكونت فى الانسانية خلال سبعة آلاف سنة ، فمتى تحررنا من هذه العـادة ، أصبحنا آلهة » • هو الذى قال ذلك ، هو الذى قال ذلك !

لم يملك أليوشا أن يمنع نفسه من سؤال أخيه وهو يحدّق اليه تحديقاً قوياً :

ــ هو ؟ ألا يمكن أن تكون أنت الذى قلت ذلك ؟ أنت بالأحرى؟ دعه الآن ، لا تفكر فيه ، انسـه • فليـأخذ معـه كل ما تستنكره اليوم وتدينه ، ولا يعودنّ بعد الآن أبداً •

قال ايفان بلهجة المتألم المهان •

ــ ليكن ذلك • ولكنه خبيث شرير • لقد ازدرانى جهاراً • كان وقحاً ، صدقنى يا أليوشـا • ولكنـه افترى علىّ ، افترى علىّ فى أمور كثيرة • قال : « أنت تنوى أن تقوم بعمل نبيل فاضل ! هاً ! أنت تنوى

أن تتهم نفسك أمام المحكمة بقتل أبيك ، مؤكداً أن الخادم قتله بتحريض منك ... » .

قاطعه أليوشا قائلا :

ـ قف يا أخى ! لست أنت القاتل . هذا خطأ !

ـ هو الذى قال ذلك ، ولا بد أنه على علم به « أنت تنوى أن تقوم بعمل فاضل ، مع أنك لا تؤمن بالفضيلة ؟ ذلك ما يهيجك ويعذبك ، ذلك هو سبب تجهمك وشراستك » . هكذا تكلم ، وهو يعرف ما يقول ...

هتف أليوشا يقول بمرارة :

ـ هذه أقوالك أنت لا أقواله هو . انك مريض ، انك تهذى ، وتعذب نفسك فى هذيانك !

ـ لا ... انه يعرف ما يقول . قال لى مؤكداً : « أنت تصدر عن زهو وخيلاء ، تريد أن تمثُل أمام القضاة فتقول لهم بكبرياء : « أنا القاتل ، ما لكم تصطنعون هذه الهيئات المروّعة ؟ ألا انكم لكاذبون . اننى اسخر من ذعركم هذا ! » . تلك هى الخواطر التى نسبها الىّ ، ثم أضاف يقول : « هل تعرف ماذا تتمنى ؟ أنت تتمنى أن يغمروك بالمديح قائلين : « هو مجرم ، نعم ، هو قاتل ، ولكنه تحركه عواطف سامية كل السمو رفيعة كل الرفعة ! يريد أن يتهم نفسه لينقذ أخاه ! »». أما هذا يا أليوشا فهو كذب (كذلك هتف ايفان فجأة وقد سطعت عيناه) . أنا لا أتمنى أبداً أن يُعجب بى بُلهاء ! لقد كذب فى هذا يا أليوشا ، كذب فى هذا ، أحلف لك ! وبسبب ذلك انما قذفته بكأس، فتحطم الكأس على وجهه القذر !

توسل اليه أليوشا قائلاً :

ـ هدىء روعك يا أخى ، اكفف عن الكلام هكذا !

أردف ايفان يقول دون أن يصغى الى أخيه :

ــ لا ، انه يجيد التعذيب ، انه قاس شديد العتو . كنت أوجس دائماً الغرض الذى يجىء من أجله . كان يقول : « لكن ! ان الزهو هو الذى يحركك ويدفعك . ولكنك تأمل رغم كل شىء أن يفتضح أمر سمردياكوف ، فيرسل الى السجن ، ويُبرَّأ ميتيا ، ولا يُحكم عليك أنت الا حكماً « أخلاقياً » (وقد ضحك حين نطق بهذه الكلمة ، هل فهمت ؟) ، بينما يُكبر آخرون عظمة نفسك ونبل روحك . ولكن هاهو ذا سمردياكوف قد مات ! لقد شنق نفسه، فمن ذا الذى سيصدقك أمام المحكمة ، من ذا الذى سيؤمن بأقوالك وتصريحاتك بعد أن أصبحت وحيداً ؟ ومع ذلك ستذهب الى المحكمة ، وتقف أمام القضاة . لقد قررتَ ذلك ، وستفعل . فلأى هدفٍ تريد أن تذهب الى المحكمة بعد الآن ؟ » . شىء فظيع يا أليوشا ! اننى لا أطيق احتمال هذه الأسئلة . من ذا الذى يحق له أن يستجوبنى بهذه الطريقة ؟

قاطعه أليوشا قائلاً وقد جمد من الذعر ، ولكنه ما يزال يأمل أن يرد ايفان الى الواقع :

ــ أخى ، كيف يمكن أن يكون قد كلمك عن موت سمردياكوف قبل وصولى ، بينما كان جميع الناس ما يزالون يجهلون الحادث ، ولم يتسع وقتهم للاطلاع عليه ؟.

قال ايفان بصوت قاطع جازم لا يحتمل الشك :

ــ لقد قال لى ذلك ، بل ظل يكلمنى فى هذا طول الوقت اذا شئت أن تعرف الحقيقة ، ولم يكلمنى الا فى هذا . كان يقول لى : « ويا ليتك تؤمن بالفضيلة ! ... ان احداً لن يصدقنى ، ولكن ذلك لايهمنى ، فانما أنا أصدر عن مبدأ . ألا أنك لتسخر من الفضيلة ، لأنك

خنزير ، مثل فيدور بافلوفتش ! فعلام ذهابك الى المحكمـة ، ما دامت تضحيتك لن تجدى ؟ ... الحقيقة أنك أنت نفسك لا تدرى لماذا تريد أن تذهب الى المحكمة ! آه ... أنك لمستعد أن تهب كثيراً فى سبيل أن تعرف ذلك . أتظن أن هذا ما قررته ؟ ألا انك لم تقـرر شيئاً بعد . ستقضى الليل كله مفكراً متسائلاً أتذهب أم لا تذهب . وانك لتعلم حق العلم ، مهما يكن قرارك ، أن الحل النهائى أصبح لا يتوقف عليك . سوف تذهب لأنك لا تجرؤ الا أن تذهب . أما لماذا لا تجـرؤ ، فذلك سؤال أدع لك أنت أن تحـزر جـوابه . هذا لغز حاولْ أن تتسـلى بحله ! » . قال هذه الكلمات ثم نهض وانصرف . وصلت أنت ، فغاب هو . ولقد وصفنى بأننى جبان يا أليوشـا ! ان ذلك اللغز هو أننى جبان . لقد أضاف قائلاً : « لستَ من تلك النسـور التى تحلق عالياً فى السماء » . نعم ، أضاف هذه الجملة . وكان سمردياكوف قد قال هذا الكلام نفسه . يجب قتله . ان كاتيا تحتقرنى . لاحظتُ أنا ذلك . وسوف تحتقرنى ليزا أيضاً . «ستذهب الى المحكمة لتحظى بالاعجاب» . هذا كذب دنىء . أنت أيضاً تحتقرنى يا أليوشا . سوف أكرهك الآن من جديد . والمسخ أيضاً ، اننى أكره المسخ كذلك . لا أريد أن أنقذ المسخ . ألا فليعفن فى السجن ! لقد غنى نشيد فرح . أوه ! سأذهب ، سأذهب غداً . سأمثُل أمامهم ، وسأبصق فى وجوههم جميعاً !

ونهض ايفان فجأة وقد استبدت به حميًّا شديدة ، فنزع الفوطة عن جبينه وطفق يمشى فى الغـرفة . تذكر أليوشـا أقواله : « أنام وأنا أحس بأننى يقظان ... أمشى وأتكلم وأرى ، وأنا مع ذلك أحلم » . ذلك بعينه ما يبدو أنه يحدث الآن . لم يشـأ أليوشا أن يترك أخاه . وخطر بباله أن يمضى ليستقدم طبيباً ، ولكنه عدل عن ذلك من خوفه أن يترك ايفان وحيداً . كان من جهة أخرى لا يدرى الى من يعهد به .

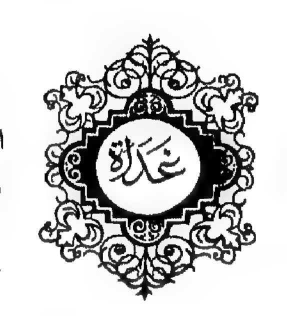
وأخيراً أخـذ ايفـان يفقد الذاكرة • كان ما يزال يتكلم بغير توقف ، وكانت أقواله مفككة كل التفكك ، حتى لقد أصبح يبدو عليه أنه يجد عناء فى النطق بالكلمات • وترنح على حين فجأة ، ولكن أليوشا استطاع أن يسنده فى الوقت المناسب ، ومضى به نحو السرير ، فانقاد ايفان دون مقاومة ؛ وبعد أن نضا أليوشـا عن أخيه ثيـابه كيفما اتفق ، أرقده على السرير ، ثم جلس قربه ، ولبث سـاهراً عليـه سـاعتين أخريين • نام المريض نوماً عميقاً دون أن يتحرك ، وكان تنفسه منتظماً • فلما لاحظ أليوشا أن أخاه ينام نوماً مريحاً هادئاً تناول وسادة ورقد على الديوان دون أن يخلع ثيابه • وقبل أن ينام ، دعا الله لميتيا وايفـان • لقـد كان أليوشا يدرك الأسباب العميقة التى نشأ عنها مرض ايفان : « هذه تباريح قرار فيه عزة وكبرياء ، هذا قلق صادر عن ضـمير قوى ! » • ان الله الذى كان ايفـان يرفض أن يؤمن به يفرض نفســه الآن على وجدان ايفان ، وان الحقيقة الالهية تشق طريقها على هونٍ الى قلبه الذى ما يزال عصياً • حدث أليوشا نفسه قائلاً وهو مضطجع على الديوان : « نعم ، لقد مات سمرد ياكوف ، ولن يصدّق أحد الشهادة التى سيدلى بها ايفان• ولكن سيذهب الى المحكمة وسيقول الحقيقة مع ذلك » • وابتسم أليوشا ابتسامة رقيقة عذبة حين جال فى ذهنه هذا الخاطر ، ودمدم يقول أيضاً: « سينتصر الله ! » • ثم قال لنفسه بعد ذلك بمرارة : « اما أن يُبعث ايفان بعثاً جديداً بنور الحقيقـة ، واما ••• أن يهـوى الى الكره منتقمـاً من نفسه ومن الآخـرين لأنه خدم قضـية لم يكن مؤمناً بها • » • وعاد أليوشا يصلى من أجل ايفان •



الباب الثاني عشر: خطأ قضائي

١

اليوم الحاسم



الأحداث التى فرغت من وصفها الآن ، افتتحت فى الساعة العاشرة من الصباح ، جلسة محكمة مقاطعتنا ، وبدء النظر فى قضية دمترى كارامازوف •

وانى لأحب أن أقول فوراً بالحاح اننى أعد نفسى عاجزاً عن أن أصف وصفاً دقيقاً كل ما جرى أثناء المحاكمة ، وأن أروى جميع الوقائع لا من حيث الكمال والتمام فحسب، بل من حيث التسلسل الزمنى أيضاً• وأحسب أننى لو كان علىّ أن أتذكر جميع التفاصيل وأن أشرحها شرحاً مناسباً ، لوجب أن أقف عليها كتاباً بكامله ، كتاباً أكبر حجماً من هذا الكتاب • لذلك آمل أن يتفضل القارىء فيعذرنى اذا أنا اقتصرت على ذكر الأمور التى أثارت اهتمامى شخصياً فبقيت فى ذاكرتى لهذا السبب • ربما أكون قد أقمت وزناً كبيراً لعناصر ثانوية على حساب الأمور الأساسية ، وربما أكون قد أسقطت كذلك اسقاطاً كاملاً بعض الوقائع الهامة ••• على أننى أعدل الآن عن تسويغ نفسى • فلسوف أبذل قصاراى ، وسوف يدرك القارىء أننى أعطيته كل ما استطعت أن أعطى •

وانى لأحرص أولاً وقبل الدخول الى قاعة المحكمـة ، أن أذكر ما أثار دهشتي أكثر من أي شيء آخر في ذلك النهار • على أن دهشتي هذه قد شاركنى فيها عدد كبير من الأشخاص، كما علمت ذلك فيما بعد• واليكم الأمر : كان من المعلوم طبعاً أن قضـية هذه الجريمـة قد أثارت اهتمـام عدد لا حصر له من البشر ، وأنهـا قد أثارت اهتمـامهم اثارة شديدة ؛ وأن جميع الناس كانوا يحترقون شوقاً الى أن يبدأ النظر فى هذه القضـية ؛ وأن مجتمع المدينـة كان منذ شـهرين لا يفعل شـيئاً غير التحدث عنها مع تكهنات كثيرة وصيحات اندهاش لا آخر لها • وكان من المعلوم كذلك أن القضية قد اشتهرت في روسيا كلها • الا أن أحداً لم يكن يتخيل أن الاهتمام الذىأثارته هذه المحاكمة قد بلغ من قوة الجموح وشدة العصبية أنه هزّ هزاً عميقاً لا سكانَ مدينتنا فحسب ، بل سـكان مناطق أخرى أيضاً • وقد أدركنا هذه الحقيقة فى ذلك اليوم نفسه أثناء المحاكمة • لقد هرع المستطلعون الفضوليون لا من مركز اقليمنا وحده ، بل من مدن روسية أخرى كثيرة أيضاً ، وهرعوا حتى من موسكو ومن سان بطرسبرج• كان بينهم أناس من رجال القانون ، وشخصيات معروفة مشـهورة ، ونسـاء من المجتمع الراقى • وقد اختُطفت تذاكر حضـور المحاكمة فى طرفة عين • واعتقد القائمون على الأمر ، فى هذه المناسبة ، أن من الواجب ، على خلاف ما جرت به العادة ، حجز أماكن خاصـة وراء منصة المحكمة ، يُخصّ بها بعض الزائرين الذكور من أصحاب الرتب العليا • هكذا رأينا وراء القضاة عدداً من الأشخاص جالسين على مقاعد وثيرة ، وذلك أمر لم يحدث عندنا من قبـل قط • وكانت النسـاء كثيرات كثرة خاصة ، سواء أكنّ من سيدات مجتمعنا المحلى أم كنّ من سيدات الطبقة العليا فى مدن أخرى • أما رجال القـانون الذين وفدوا لحضور هذه الدعوى فقد بلغوا من الكثرة أن القائمين على الأمر لم يعرفوا

أين يضعونهم لأن الأماكن المتوفرة كانت قد ُوزّعت فأُعطيت أو ُوعد بها منذ مدة طويلة . وقد رأيت بعيني قيام العمال على عجل ببناء حاجز موقت في آخر القاعة وراء المنصة ، فبذلك حُدِّد مكان خصّ به رجال القانون الذين عدوا أنفسهم سعداء بالتمكن من متابعة مناقشات المحاكمة وقوفاً ، لأن الكراسي كانت قد رفعت ليتسع المكان لعدد من الأشخاص أكبر . فهكذا ظل الجمهور الكثيف واقفاً طوال مدة المحاكمة كتفاً الى كتف . وقد جاءت بعض السيدات ، ولا سيما السيدات اللواتي وفدن من خارج مدينتنا ، جاءت الى قاعة المحكمة في أبهى حلة وأجمل زينة ، غير أن أكثر السيدات قد أهملن ما ألفنه من عناية بهندامهن . وكان يُقرأ في وجوههن فضول قوي شره يشبه أن يكون مرضياً . ومن خصائص هذا الجمهور المحتشد في قاعة المحكمة ، من خصائصه التي تستحق أن تُذكر أن الكثرة الغالبة من النساء (كما أيدت ذلك شواهد كثيرة فيما بعد) كنّ متحزبات لميتيا ، وكن يتمنين أن تبرئه المحكمة . وربما كان السبب الأساسي في هذا ما اشتهر به من أنه شاب يفتن المرأة ويخلب لبّها ويغويها ؟ ولقد كان معروفاً عدا ذلك أن هناك امرأتين تتنافسان عليه وستتجابهان في سبيله أثناء المحاكمة . فأما أولاهما وهي كاترين ايفانوفنا ، فقد كانت تثير اهتمام جميع الناس بها . كان الناس يذكرون أموراً خارقة عن تولهها بميتيا تولهاً قوياً لم ينل منه ولا أضعفه أن ميتيا ارتكب هذه الجريمة . وكانت تُذكر عن هذا الموضوع تفاصيل مذهلة . وكانت كبرياء كاترين ايفانوفنا هي التي تثير اهتمام الناس خاصة (ان كاترين ايفانوفنا لم تكد تزور أحداً) ، وكان الناس يتحدثون عن صلاتها الارستقراطية ، ويؤكدون أنها ستلتمس من الحكومة اذناً بأن تصحب الجاني الى السجن ، وأن تتزوجه في مكان ما بالمناجم تحت الأرض . وأما المرأة الثانية ، وهي جروشنكا،منافسة كاترين ايفانوفنا ، فقد

كان الناس يتلهفون الى ظهورها باهتمام لا يقل شدة عن هذا الاهتمام • وكانت المجابهة التى ستتم بين المرأتين ـ الفتـاة الارسـتقراطية المتكبرة و « الهيتائير » ـ تثير فى الجمهور انتظاراً محموماً وفضـولاً يوشك أن يكون موجعـاً • ثم ان سـيدات مدينتنا كنّ يعرفن جروشـنكا أكثر مما يعرفن كاترين ايفانوفنا • لقد رأين مراراً « تلك المخلوقة التى كانت سبب هـلاك فيدور بافلوفتش وابنه المسـكين » ، وكان يدهشن أشـد الدهشة أن يكون الرجلان قد التهب قلباهما هذا الالتهاب كله بحب هذه « البورجوازية الروسية الصغيرة التى هى امرأة عادية جداً ، حتى انها ليست جميلة » • خلاصة القول أن التعليقات كانت قائمة قاعدة • وانى لأعرف من مصادر مطلعة موثوقاً بها ان انشقاقات عائلية خطيرة قد حدثت فى مدينتنا بسبب ميتيا • ان عدداً كبيراً من سيدات مجتمعنا قد اشتجرن فى ذلك الوقت مع أزواجهن اشتجاراً عنيفاً ، لاختلاف رأيهن فى هذه القضية المؤلمة عن رأى أزواجهن • فكان أمراً مفهوماً بعد ذلك أن يجىء ازواج هاته السيدات الى المحكمة متحيزين ضدّ المتهم ، بل ومعادين له صراحةً ؛ حتى ليمكننا أن نؤكد جازمين أن جميع الرجال الذين شهدوا المحاكمة ، على نقيض العنصر النسائى فى ذلك الجمهور ، كانوا قد تحيزوا ضدّ المتهم ، فبعضهم عابس الوجه قاسى النظرة مكفهر الأسارير ، وبعضهم الآخر ، وهو الأكثرية الغالبة ، كان يظهر الكره والعـداوة بمزيد من الوضوح والصراحة • والحق أن ميتيا ، أثناء اقامته فى مدينتنا ، كان قد أهان عدداً كبيراً من هؤلاء الرجـال • وكان هنـالك ، فى مقابل ذلك ، أناس يكاد يبدو عليهم الفـرح ، فهم لا يكترثون بمصـير ميتيا ، وانما تهمهم النتيجة التى ستنتهى اليها المحاكمـة ، ولا يفكرون الا فى الحكم الذى سيصدر ، وكان أكثرهم يتمنى معاقبة الجانى تمنيـاً قوياً صارماً ، باستثناء رجال القانون مع ذلك ، فلقد كان هؤلاء لايعنيهم الجانب الأخلاقى

من القضية ، وانما تعنيهم الجوانب القضائية وحدها دون غيرها . وقد أحدث وصول المحامي الشهير فيتوكوفتش هزةً عنيفة في النفوس . فقد كانت موهبته الخطابية معروفة مشهورة في كل مكان ، وقد سبق أن ترافع في الاقاليم مراراً في قضايا كان لها دوى عظيم . وكانت الدعاوى التي يترافع فيها تصبح ذائعة الصيت في روسيا كلها ، وكان الناس يحتفظون بذكرى مرافعاته زمناً طويلاً . وكانت تُروى كذلك نوادر شتى عن وكيل النيابة عندنا وعن رئيس المحكمة . كان يقال مثلاً ان وكيل النيابة في مدينتنا يتهيب لقاء فيتوكوفتش ويخشاه ، وان بينه وبينه عداوةً يرجع تاريخها الى أول عهده بالوظيفة ، الى الفترة التي كان فيها هيبوليت كيريلوفتش المندفع ، وهو بمدينة سان بطرسبرج ، يشعر دائماً بجراح في كبريائه لأن كفاءاته لم تكن تقدر حق قدرها . ولقد ردَّت اليه قضية كارامازوف أملاً كبيراً ، فيما يقال ، حتى لقد كان يحلم في أن يستعيد في هذه المناسبة شهرته الخطابية التي انطفأ سناؤها وبهت بريقها ، ولكن حضور فيتوكوفتش يقلقه الآن ويبعث في قلبه هماً وغماً. على أن الحقيقة هي أن الناس قد أخطأوا الظن حين تصوروا أن وكيل النيابة كان يخشى لقاء المحامي الشهير هذه الخشية كلها . ان وكيل النيابة في مدينتنا لاينتمي الى تلك الفئة من الرجال الذين يتقهقرون أمام الخطر، بل لقد كان ، على نقيض ذلك تماماً ، من أولئك الرجال الذين تلتهب كبرياؤهم القتالية مزيداً من الالتهاب وتشتعل مزيداً من الاشتعال على قدر قوة العقبات التي تعترض طريقهم والحواجز التي تقف في وجههم . يحسن أن نضيف الى ذلك أن هيبوليت كيريلوفتش كان ذا طبيعة حارة ومزاج جياش ، وأنه كان شديد التأثر الى درجة المرض . كان يضع نفسه كلها في بعض مطالعات النيابة التي يعدها ، وكان يتصرف عندئذ كما يمكن أن يتصرف رجل يتوقف مصيرة الشخصي وتتوقف ثروته على

النتيجة التي ستنتهي اليها الدعوى • وكان الناس في الأوساط القضائية يسخرون منه بسبب هذه الخصلة من خصال طبعه ، التي جلبت له شهرة ان لم تكن واسعة كثيراً فهي أكبر مما يمكن تصوره على أساس المركز المتواضع الذي كان يحتله في محكمتنا • وكانوا يسخرون خاصة من شدة شغفه بالسيكولوجيا • وأحسب أن جميع الناس كانوا مخطئين في هذه النقطة • فلقد كان وكيل النيابة في مدينتنا يملك فكراً أقرب الى الجد كثيراً مما كان يتخيل الناس عندنا عامة • ولكن هذا الرجل الذي يتميز بحساسية مرضية لم يكن قد أفلح في اصطناع اللهجة المناسبة والوضع اللائق في أول عهده بالمهنة ، فامتد هذا الخطأ الذي ارتكبه منذ البدء ، امتد على حياته كلها •

أما رئيس محكمتنا فيمكن أن يقال عنه انه مثقف ، وانساني ، وانه كان يعرف مهنته ويجيدها ، ويشارك في آراء العصر المتقدمة المتطورة • انه قوي الشعور بنفسه ، لكنه لا يعبأ كثيراً بوظيفته ، فان أكبر طموح يهزه هو أن يعرف عنه أنه رجل تقدمي • وكانت له صلات عالية وكان ينعم بثروة ضخمة • وقد اهتم اهتماماً قوياً جداً بدعوى كارامازوف ، كما أدركنا ذلك فيما بعد ، ولكنه لم ينظر الى هذه القضية الا من زاوية عامة تماماً ، فهو يرى فيها ، على وجه الخصوص ، ثمرة من ثمرات ظروفنا الاجتماعية ، ومظهراً مميزاً من مظاهر الطبيعة الروسية ، أي ظاهرة من الظاهرات عليه أن يحكم عليها وأن يصنفها تصنيفاً مناسباً • أما الجانب الشخصي من الدرامة ، وأما المأساة الروحية الأخلاقية التي تتألف منها هذه الدرامة ، وأما المصير الفردي الذي ينتظر الأشخاص الرئيسيين في هذه الدرامة ، وعلى رأسهم المتهم ، فتلك كلها أمور لا يعبأ بها رئيس المحكمة كثيراً ، ولا ينظر اليها الا من أفق مجرد • وربما كان ذلك مطلوباً ومستحسناً في مركزه ووضعه •

غصت القاعة بالحضور قبل ظهور أعضاء المحكمة بزمن طويل • انها أحسن قاعة فى مدينتنا : فسيحة واسعة عالية يترجع فيها الصوت واضحاً رناناً •

على يمين أعضاء المحكمة الذين يجلسون على منصة ، قد وضعت منضدة ووضع صفّان من المقاعد للمحلّفين • وعلى اليسار كان مكان المتهم ومحاميه • وعلى منضدة أخرى فى وسط القاعة ، غير بعيد عن المنصة ، قد جُمعت ثبوتيات الاتهام ، فمن بينها الثوب الأبيض الذى كان يلبسه فيدور بافلوفتش ساعة مقتله فى منزله وكان ملطخاً بالدم ؛ ومدقُّ الهاون النحاسى المشئوم، وهو السلاح الذى يُعتقد أنه استعمل فى ارتكاب الجريمة ؛ وقميص ميتيا الذى كان على أحد كميه بقع دماء ؛ وصدرته الملطخة بدم كثير من خلف ، فى موضع الجيب الذى دسّ فيه منديله حين كان المنديل ما يزال يقطر دماً ؛ ثم ذلك المنديل نفسه وقد تيبس واصفر وغشيته قشرة من دم متخثر ؛ ومن بينها أيضاً المسدس الذى كان ميتيا قد حشاه بالرصاص عند برخوتين على نية الانتحار ، وقد جرّده منه تريفون بوريستش خلسةً فى قرية موكرويه ، والظرف الذى كان قد ضمّ الثلاثة آلاف روبل المخصصة لجروشنكا ، وعليه كتابة بخط المجنى عليه ، والشريط الوردى الدقيق الذى رُبط به ذلك الظرف ، وطائفة أخرى من أشياء لا أتذكرها الآن • وعلى مسافة من هناك ، فى قرارة القاعة ، يبدأ المكان المخصص للجمهور • غير أن عدداً من المقاعد قد صُفّ أمام المنصة ، للشهود الذين قد يطلب منهم أن يبقوا فى القاعة بعد ادلائهم بشهاداتهم •

دخل أعضاء المحكمة فى الساعة العاشرة • انهم رئيس ، وقاض، وقاضى صلح شرفى • وطبيعى أن وكيل النيابة ظهر فى الوقت نفسه تقريباً • الرئيس رجل قوى البنية متورد اللون ، قامته أقصر من

متوسط قامة الرجال ، فى نحو الخمسين من عمره ، له وجه محتقن ، وشعر قاتم قد اشتعل شيباً فى بعض المواضع وقُص قصيراً • وهو يتوشح بشريط طويل لوسامٍ نسيت اسمه الآن • أما وكيل النيابة فقد بدا لى شاحباً فى ذلك اليوم شحوباً خاصاً ، كما بدا كذلك لكثير آخرين • كان لون وجهه يبدو ضارباً الى زرقة بل والى خضرة ، وكأنه قد نحل فجأة فى ليلة واحدة ، لأننى كنت قد رأيته أمس الأول معافى تماماً •

بدأ الرئيس العمل بأن سأل حاجب المحكمة هل حضر جميع المحلفين ••• ولكننى ألاحظ أنه يستحيل علىّ أن استمر فى سرد الوقائع سرداً مفصلاً هذا التفصيل كله ، لأن هناك أموراً لم أحسن سماعها ، وأموراً أخرى لم أنتبه اليها انتباهاً كافياً ، كما أن هناك أموراً من خصائص هذه الجلسة قد اختفت من ذاكرتى اختفاءً تاماً منذ ذلك الحين • ثم اننى ــ وتلك هى الصعوبة الكبرى ــ لا يتوفر لى الزمان والمكان الكافيان لأن أقص هنا كل ما جرى فى أثناء ذلك اليوم ، وهذا ما سبق أن قلته • ولكننى أعلم أن عدد المحلّفين الذين رفضهم هذا الطرف أو ذاك من الطرفين ، أعنى وكيل النيابة والمحامى ، كان ضئيلاً جداً • وقد حفظت من جهة أخرى تشكيل هيئة المحلّفين : كانت هيئة المحلّفين تضم أربعة موظفين من مدينتنا ، وتاجرين ، وستة فلاحين وبورجوازيين صغار من البلدة • وانى لأتذكر أن الناس فى مجتمعنا الصغير ، ولا سيما السيدات ، قد تساءلوا طويلاً قبل بدء المحاكمة بمدة طويلة ، تساءلوا بكثير من الاندهاش والانفعال : « كيف يمكن أن يُعهد بالفصل فى مثل هذه القضية الى بضعة موظفين مغمورين والى قبضة من الفلاحين ؟ ما الذى يستطيع أن يفهمه من هذه القضية موظف ، ناهيك عن فلاح ؟ » • والحق أن الموظفين الأربعة المشتركين فى هيئة المحلّفين كانوا أناسا صغار الشأن ليسوا من أصحاب الرتب العالية ، وكانوا جميعاً

متقدمين فى السن بيض الشعور ، باستثناء واحد كان يبدو أصغر سناً من سائرهم • وكانوا مجهولين فى مجتمع مديننا ، فلا بد أنهم كانوا يعيشون بمرتبات صغيرة حياة مغمورة ، وأنهم قد كان لهم زوجات عجائز لا يحرصون على أن يتجولوا بهن فى المجتمع • ولا بد انهم قد كان لهم أولاد كثيرون يركضون حفاةً فى أغلب الظن ، ولا بد أن التسليات الوحيدة التى كانوا يتيحونها لأنفسهم عند الاقتضاء هى أن يلعبوا بالورق قليلاً من حين الى حين • وطبيعى أن أحداً منهم لم يكن قد قرأ كتاباً فى يوم من الأيام • صحيح أن اثنين من المحلَّفين ، وهما تاجران ، قد كان فى هيئتهما شىء من مهابة ، ولكنهما ظلا صامتين صمتاً غريباً ، ولبثا جامدين لا يحركان ساكناً • فأما أحدهما فكان حليقاً وكان يرتدى ثياباً على الطراز الأوروبى ؟ وأما الثانى ، وهو ذو لحية شائبة ، فقد كان يتدلى على عنقه شريط أحمر علِّق به وسام • وأما الفلاحون والبورجوازيون الصغار الذين تضمهم هيئة المحلفين ، فليس هناك أمور كثيرة يمكن أن تقال عنهم • ان البورجوازيين الصغار فى مدينتنا لا يختلفون كثيراً عن الفلاحين ، وهم يمارسون أعمال الفلاحة مثلهم • كان اثنان من هؤلاء البورجوازيين الصغار من سكان بلدتنا الطيبة سكوتوبريجونيفسك يلبسون ثياباً على الزى الأوروبى ، وكان هذا يضفى على هيئتهم ، فيما يبدو ، مزيداً من الوساخة ويجعل مظهرهم أكثر تنفيراً من زملائهم الأربعة • فمن الطبيعى اذن أن يكون اشخاص كثيرون ، أنا واحد منهم ، قد تساءلوا منذ ألقوا نظرة على أعضاء هيئة المحلَّفين : « ما عسى يفهم من القضية هؤلاء المساكين ؟ » • ومع ذلك بدا لنا فى تعبير وجوههم جميعاً شىء من سلطة ، وشىء يشبه أن يكون تهديداً • لقد كانوا جميعاً قساة مقطبين متجهمين •

وأخيراً طلب الرئيس النظر فى قضية الموظف المتقاعد فيدور

بافلوفتش كارامازوف ـ وقد نسيت الآن التعابير الدقيقـة التى استعملها عندئذ • وأمر الحاجب بادخال المتهم فظهر ميتيا فى القاعة ، فاذا بصمت شديد يخيم عندئذ على حين فجأة ، فلو طارت ذبابة لسُمع صوت طيرانها • لا أدرى ما الذى دار فى خواطر الحضور ، ولكننى أستطيع أن أقول ان المتهم قد أحدث فى نفسى شعوراً سيئاً كل السوء • والأمر الذى ساءنى منه خاصة هو افراطه فى السعى الى أناقة هندامه • لقد ظهر أمام المحكمة يومئذ ببدلة جديدة مفرطة فى التأنق • وقد علمت فيما بعد أنه قد أوصى بهذه البدلة لذلك اليوم عن قصد وعمد ، أوصى بها خياطه بموسكو الذى كان يحتفظ بمقاسه • وكان المتهم يلبس قفازين جديدين كل الجدة ، مصنوعين من جلد ملمّع ، وقميصاً بالغ الرهافة والبذخ • وبعد أن اجتاز القاعة بخطاه العسكرية العريضة ، ناظراً الى أمام بجمود غريب ، جلس فى مكانه بكثير من الثقة • وفى الوقت نفسه ، ظهر محاميه ، فيتوكوفتش الشهير ، فاذا بهمهمة مستخفية تطوف فى أرجاء القاعة من أولها الى آخرها • ان هذا المحامى اللامع رجل طويل القامة جاف المظهر ، له ساقان طويلتان نحيلتان ، وأصابع ضاوية كابية ، وشعر قصير قد صفّف بغير كبير عناية • وشفتاه الرقيقتان تلتويان فى بعض اللحظات ، دون أن يعرف المرء على وجه الدقة أهما تعبران عندئذ عن مكر أم هما تبتسمان• وكان يبدو فى نحو الأربعين من عمره • ولولا عيناه الصغيرتان اللتان ليس لهما تعبير ، ولكنهما متقاربتان احداهما من الأخرى تقارباً شديداً ، حتى لكأنهما لا تفصل بينهما الا العظمة الحادة من أنفه الدقيق الطويل ، لولا عيناه هاتان لكان يمكن أن يُعدّ وجهه لطيفاً محبباً • الخلاصة أن سحنته كان فيها شيء من سحنة عصفور ، وهى بهذا تلفت الانتباه وتخطف البصر • وكان يرتدى رداء رسمياً مع كرافتة بيضاء •

أننى أتذكر تذكراً واضحاً الأسئلة الأولى التى ألقاها الرئيس على

ميتيا ، وهي تتناول هويته ، ورتبته ، وما الى ذلك . وقد أجاب ميتيا عن هذه الأسئلة بجفاف وخشونة ، ولكن بصوت قوى يثير الاستغراب حتى ان الرئيس هزّ رأسه ونظر اليه في دهشة . وبعد ذلك قرئت قائمة أسماء الأشخاص المستدعين الىالادلاء بأقوالهم شهوداً أو خبراء، وكانت القائمة طويلة جداً . واتضح أن أربعة من الشهود غائبون ، وهم : ميوسوف الذي كان قد سافر الى باريس ، ولكن أقواله قد سجلت أثناء التحقيق التمهيدي؛ والسيدة هوخلاكوفا ، والمالك ماكسيموف ، وكلاهما معذور بسبب المرض ؛ وأخيراً سمردياكوف الذي مات فجأة قبل افتتاح المحاكمة وقُرِّرت وفاته بشهادة من الشرطة قُدِّمت الى المحكمة . وقد أحدث نبأ انتحار سمردياكوف جلبة ودمدمات في القاعة . ذلك أن عدداً كبيراً من جمهرة الحضور لم يكن قد علم بالحادث بعد. ولكن الشيء الذي أدهش الناس خاصةً هو أن ميتيا قد انفجر صائحاً على حين فجأة : فانه ما ان علم بالنهاية التي انتهى اليها سمردياكوف حتى صرخ من مكانه يقول بصوتٍ دوّى في القاعة كلها :

ـ كان كلباً فمات ميتة كلب .

أذكر أن محاميه قد اندفع نحوه حينئذ ، وأن رئيس المحكمة قد وجه اليه تحذيراً قاسياً ، وهدّده باتخاذ اجراءات صارمة في حقه اذا هو كرر فعلته هذه . وقد كرر ميتيا لمحاميه ، عدة مرات ، بصوت هامس ، وهو يحرك رأسه ويتكلم كلاماً متقطعاً ، ولكن دون أن يبدو عليه انه آسف لصرخته نادم عليها :

ـ لن أعيدها ، أعدك بذلك ! لقد افلتت مني ! طيب ... لن أعيدها !

بديهي أن هذا الحادث الطارىء لم يخدم ميتيا في ذهن المحلفين وفي ذهن الجمهور . فقد رأى هؤلاء أن ميتيا قد كشف في هذه الفعلة

عن طبعه • وبذلك أساء هذا الانفجار الى الصــورة القائمة فى الأذهان عنه • وفى هذا الجو السيء انما تلا كاتب المحكمة قرار الاتهام ، وهو نص مقتضب رغم اشتماله على وقائع القضــية ، يقتصر على عرض الأســباب الداعية الى الاتهام ، الباعثة على الادانة ، الخ • وقد أحدثت قراءة القرار تأثيراً كبيراً فى نفسى أيضاً • كان كاتب المحكمة يقرأ بصوت واضح جلى بيّن رنان • فانبعثت صورة الدرامة فى أذهان الحضور مرةً أخرى ببروز يأسر اللب ، كأنما انصبت عليها والتقت عندها أضواء ساطعة صادرة من عدة جهات • وانى لأذكر أنه ما ان فرغ كاتب المحكمة من قراءة قرار الاتهام حتى بادر الرئيس يسأل ميتيا بصوت قوى نافذ :

ـ المتهم ••• هل تعترف بارتكابك هذه الجريمة ؟

فنهض ميتيــا عن مكانه فجـأة ، وصاح يقــول بحــرارة لم تكن فى الحسبان :

ـ اعترف بارتكابى جرائم الســكر والعربدة والفسق والفجور ، اعترف بأننى امرؤ كسول سيء الخلق والســلوك • ولقد كنت أنوى أن أصلح أمرى وأن أصبح الى الأبد انساناً شريفاً ، فى اللحظة التى حطمنى فيها القــدر • ولكننى بريء من مقتل العجــوز ، عدوى وأبى • أنا لم أسرقه ، لا ، لا ا••• لم أفعل ذلك ، ولا كان لى أن أفعل ذلك : ان دمترى كارامازوف انسان شقى ولكنه ليس لصاً •

أطلق دمترى هــذه الصيحــات ثم عــاد يجلس وهو يرتعش بكل جســمه • فاتجه اليه الرئيس من جديد يطلب منه بايجــاز ولكن بالحاح صارم أن يقتصر على الأسئلة التى تُلقى عليه ، دون أن يندفع فى خطب وصيحات لا فائدة منها ولا طائل تحتها • وبعد ذلك أمر الرئيس بسماع

أقوال الشهود . فأُدخل الشهود ليحلفوا اليمين ، فرأيتهم عندئذ جميعاً.
على أن أخوى المتهم قد أعفوا من هذا الاجراء وسُمح لهما أن يدليا
بشهادتيهما دون قسم . وبعد النصائح والمواعظ التى قالها الرئيس
وقالها كاهن ، أُخرج الشهود ، وعُزل بعضهم عن بعض . ثم نودوا
الى القاعة واحداً بعد واحد .

٢

شهود خطرون

لا أدرى هل وزّع الرئيس شهود الاتهام وشهود الدفـاع الى فئتين متميزتين ، ولا أدرى ما هـو الترتيب الذى اتبعه فى استدعائهم . أغلب الظن أنه اتخذ الاجراءات الضرورية . ولكننى أعرف أن شهود الاتهام هم الذين دعوا الى الادلاء بأقوالهم أول من دُعى. أعود فأكرر أننى لا أنوى أن أصف هذه الاستجوابات بالتفصيل كلمة كلمة . ثم ان عرضاً يبلغ ذلك المبلغ من التمام والكمـال سيكون زيادة لا داعى اليها ، لأن ما اشتملت عليه شهادات الشهود فى ذلك اليوم من معنى ودلالة قد تولى وكيل النيابة والمحامى تلخيصه وايضاحه فى آن واحد ، وذلك فى مطالعة النيابة ومرافعة الدفاع فى آخر المناقشات . وقد سجلت هذين الخطابين الرائعين ، وأخذت منهما أجـزاء برمتها سأعرضها حين يجىء الأوان . وسأذكر كذلك حادثاً وقع أثنـاء المحاكمة على غير توقع ، وقع فى البداية وكان له تأثير كبير على النهاية المشئومة . أما الآن فسأقتصر على الاشارة الى وجه خاص من وجوه هذه « القضية » تكشـّف دفعةً واحدة وخطف أبصار الجميع ، وهو قوة الاتهام من جهة وضعف الدفاع من جهة أخـرى . لقد بدا منـذ الوهلة الأولى أنه ليس هنـاك تكافؤ بين الاتهام

والدفاع ، وأدرك جميع الحضور حين رأوا عناصر الاتهام تتجمع وتتركز مزيداً من التجمع والتركز شيئاً بعد شيء كلما اتضحت الوقائع بشهادات الشهود مزيداً من الاتضاح ، وكلما تجلى هول الجريمة بارزاً مزيداً من البروز . ثم ان جميع الناس قد فهموا منذ الوهلة الأولى أن القضية مفهومة ، وأنه لا مجال لأي شك ، حتى لكأن المناقشات زائدة لا لزوم لها ولا داعي اليها ، وأنها لن تجرى الا من باب التقيد بالشكل ، اذ كان واضحاً أن المتهم هو الجاني ، وأن ارتكابه الجريمة أمر لا مشاحة فيه ولا سبيل الى انكاره . وأحسب أن السيدات اللواتي شهدن المحاكمة وكنّ يتمنين بنهم شديد وشراهة قوية تبرئة هذا المتهم الشائق ، أحسب أن هاته السيدات كنّ مقتنعات جميعاً ، دون استثناء ، اقتناعاً مطلقاً بأن المتهم هو القاتل . وأكثر من ذلك أنهن كنّ سيشعرن بكثير من خيبة الأمل لو وُضع ارتكابه الجريمة موضع الشك ، لأن الخاتمة تكون عندئذ أقل اثارة للمشاعر ، ولأن تبرئة الجاني تكون عندئذ أضعف أثراً وأقل بهاءً . ومن الأمور العجيبة أن هؤلاء السيدات جميعاً قد ظللن حتى آخر لحظة على يقين من أنه سيُبَرَّأ : « صحيح أنه هو الجاني ، ولكنه سيُبرَّأ باسم الانسانية وباسم الأفكار الجديدة الرائجة الآن » ، الخ ، الخ . وعلى هذا الأمل انما كانت جموعهن الغفيرة قد هرعت الى حضور المحاكمة ، وكنّ يضربن الأرض بأقدامهن من فرط نفاد صبرهن أثناء المناقشات . أما الرجال فكان يهمهم ، خاصةً ، الصراعُ بين وكيل النيابة وفيتوكوفتش الشهير . كان الرجال يستغربون ويتساءلون ما الذي سيعمد اليه المحامي ليدافع عن هذه القضية الخاسرة مقدماً ، وما الذي سيتوصل الى الظفر به فيها. لذلك كانوا يرصدون جميع حركاته واشاراته وأوضاعه بانتباه شديد . ولكن فيتوكوفتش ظل حتى النهاية موصداً لا يُسبر غوره ولا تعرف سريرته ، الى أن حان حين المرافعة . وكان أهل الخبرة

والتجربة يقدرون أنه قد هيأ نظام دفاعه ، وأنه يسعى الى هدف معيَّن ، ولكن يستحيل عليهم أن يعرفوا ماهو ذلك الهدف • وفى أثناء ذلك كانت ثقته وطمأنينته واضحتين تخطفان البصر • يضاف الى هذا أنهم قد عرفوا بارتياح أن وقته قد اتسع أثناء المدة التى قضاها فى مدينتنا ، وهى لا تكاد تبلغ ثلاثة أيام ، لأن يدرس القضية دراسة عميقة ، فأصبح يعرف جميع مداخلها ومخارجها » • وقد رووا بعد ذلك بكثير من التلذذ كيف استطاع أن يربك جميع شهود الاتهام فى اللحظة المناسبة ، وكيف استطاع خاصةً أن يدمِّر سمعتهم الأخلاقية بحذق ما بعده حذق ، وأن يحطم بذلك قيمة الشهادات التى أدلوا بها • على أنهم كانوا يرون أنه فعل ذلك كله من قبيل اللعب فى الدرجة الأولى ، حباً بالفن ، وشغفاً بالمهنة ، حتى لا يُغفل أية حيلة من حيل الدفاع الكلاسيكية • ذلك أن الجميع كانوا مقتنعين بأنه لا يستطيع أن يعوِّل على جنى أية فائدة ذات بال من تلك « التشهيرات » ، وأنه لا بد أن يكون عارفاً بهذا أكثر من أى انسان آخر ، فلعله كان يدَّخر فكرة من الأفكار ، لعله كان يخبىء سلاحاً خفياً آخر ، لعله كان يحتفظ بأدلة وحجج لم يستعملها بعد ، ولكنه سيخرجها فجأة فى اللحظة المناسبة • وبانتظار ذلك كان يبدو شاعراً بقوته ، وكان يجد لذة فى التلاعب بالشهود • كان من يراه يحس أنه يتسلى • من ذلك مثلاً أنه حين جاء دور جريجورى فاسيلتش ، خادم فيدور بافلوفتش ، الذى أدلى بشهادة خطيرة فى موضوع « الباب المفتوح » المطل على الحديقة ، أمسك المحامى بتلابيبه ان صح التعبير ، منذ أتيح له أن يلقى عليه بعض الأسئلة • يحسن أن نذكر هنا أن جريجورى مَثَل أمام المحكمة دون أن يضطرب أى اضطراب ، دون أن يبدو عليه أى تهيب لا من جلال المحكمة ولا من كثرة الجمهور الذى يصغى اليه • كان هادىء المظهر ، بل كان فيه شىء من مهابة ووقار ، وقد

أدلى بشهادته بثقة مطمئنــة كتلك الثقــة التى يخاطب بهــا امرأته مارفا اجناتفنا فيما يجرى بينه وبينها من أحاديث ، ولكن باحترام وتوقير • كان يبدو أن ارباكه مستحيل • ســأله وكيل النيـابة أولاً عن تفاصيل الحياة العائلية التى تحياها أسرة كارامازوف ، فرسم جريجورى لهــذه الحياة صورة حية جداً • وقد أدرك الناس أن هذا الشاهد انسان ساذج أمين غير متحيز • فان ما أظهره من احترام عميق لذكرى مولاه الراحل، أكد أن المرحوم لم يكن عـادلاً نحو ميتيـا ، وأنه « لم يحسن تنشــئة أولاده » • وحين تحدث عن ســنى طفولة ميتيـا ذكر أن الطفل « كان ســيأكله القمل لولا أن عُنى هو به » ، وأضاف الى ذلك أنه « ما كان ينبغى للأب أن يحرم ابنه من حقه فى ميراث أمه » • فلما سأله وكيــل النيابة عن الوقائع التى تسمح له بأن يقول ان فيدور بافلوفتش قد غبن ابنه عند تصفية الحساب ، عجز جريجورى عن ذكر وقائع دقيقة (وهذا ما أدهش الجميع) ، ولكنه أصرّ على أن تصفية الحساب كانت غير عادلة، وأن « ميتيا كان من حقه فعــلاً أن يطالب أباه ببضعة ألوف أخرى من الروبلات » • أحب أن أضيف أن هذا الســؤال ـ أعنى الســؤال عن الغبن الذى لحق ميتيا ـ قد طرحه وكيل النيـابة بالحاح خاص على جميع الشهود الذين مثلوا أمام هيئة المحكمــة والذين كان يمكن أن يذكروا بعض الايضاحات حول هذا الموضوع ، ولم يستثن من هؤلاء الشــهود أليوشـا وايفـان فيدوروفتش ، ومع ذلك لم يســتطع أحد من الشــهود أن يقدم وقائع مقنعة حاسمة فى هذه النقطة • لقد أطبقت آراؤهم جميعاً على أن الغبن واقع ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يجىء ببرهان قاطع• وحين وصف جريجورى المشــهد الذى جرى فى غــرفة الطعـام لحظة اقتحمها دمترى وضرب أباه مهدداً بأنه سيعود ليقتله فيما بعد ، خرج من سرده لهذه الوقائع شعور بادانة المتهم ، لا سيما وأن الخادم العجوز كان

يتكلم بهدوء ، لا يسترسل في عبارات لا فائدة منها ، وانما هو يستعمل اللغة المألوفة عنده ، المعهودة فيه ، فكان بذلك بليغاً كل البلاغة دون أن يقصد الى البلاغة . أما فيما يتعلق بالاهانة التى ناله بها ميتيا (كان ميتيا قد لطمه على وجهه وأسقطه على أرض الغرفة) فقد قال جريجورى انه لا يحمل لميتيا حقداً أو ضغينة وأنه غفر له هذه الاساءة منذ مدة طويلة . ولما سئل عن المرحوم سمردياكوف ، رسم اشارة الصليب أولاً ، ثم قال ان الفتى لم يكن خالياً من بعض المزايا ، لكنه كان غبياً ، وكان مرضه قد أوهن جسمه وعقله ؛ وأخذ عليه خاصةً أنه كان ملحداً ، دون أن ينسى ان يقول ان فيدور بافلوفتش وايفان بافلوفتش هما اللذان لقّناه الالحاد . وفى مقابل ذلك ألحّ بشىء من الحرارة على أن سمردياكوف كان فتى أميناً ، وروى كيف أن هذا الخادم ، حين عثر بالأوراق المالية التى أضاعها مولاه فى فناء المنزل ، لم يخطر بباله أن يستولى عليها ، وانما ردّها الى فيدور بافلوفتش الذى كافأه على أمانته بدينار ذهبى ، وأصبح يثق بخادمه منذ ذلك الحين ثقة مطلقة . وأكد جريجورى من جهة أخرى ، بعنادٍ لا سبيل الى زحزحته عنه ، أن الباب المطل على الحديقة كان مفتوحاً . هذا وقد طُرحت عليه أسئلة كثيرة يستحيل علىّ أن آتى على ذكرها كلها .

وأخيراً جاء دور المحامى لاستجواب الشاهد ، قبل كل شىء ، عن الظرف الذى « يُزعم » أن فيدور بافلوفتش كان قد أودع فيه الثلاثة آلاف روبل « لشخص ما » : « هل رأيت هذا الظرف بعينيك ، أنت الذى تعيش فى صميم حياة مولاك خلال تلك السنين الطويلة كلها ، وكنت قريباً منه ذلك القرب كله ؟ » . فأجابه جريجورى بأنه لم يرَ ذلك الظرف ، وأنه كان يجهل وجود هذا المبلغ « الى اللحظة التى أصبح فيها جميع الناس يتحدثون عنه » . وقد ألقى فيتوكوفتش هذا السؤال عن

الظرف على جميع الشهود الذين كان يمكن أن يجيبوا عن هذه النقطة ، وألح في ذلك الحاحاً كالحاح وكيل النيابة في السؤال عن اقتسام الميراث. فأجاب جميع الشهود ، في هذه المرة أيضاً ، واحداً بعد واحد ، بأنهم لم يروا الظرف ، وان يكن بعضهم قد سمع عنه. وقد لوحظ أن المحامي يولي هذه النقطة اهتماماً كبيراً ويقيم لها وزناً عظيماً ، ويرى أن لها شأناً خطيراً .

قال فيتوكوفتش فجأة على نحو غير متوقع :

ـ أحب الآن أن ألقي عليك سـؤالاً ... اذا سمحت . هل في وسعك أن تقول لي شيئاً عن تركيب ذلك المرهم ، أو ان شئت عن تركيب ذلك السائل المغلي الذي استعملته ذلك المساء قبل أن تنام ، كما يظهر من التحقيق الأولى ، في تدليك كليتيك الموجعتين ، آملاً أن تشفى بهذه الوسيلة !

نظر جريجوري الى المحامي نظرة بلهاء ، وصمت بضع ثوان ، ثم قال :

ـ يدخل في تركيبه نبات القويسة .

ـ لا شيء الا نبات القويسة ؟ لا شيء الا القويسة بتاتاً ؟ تذكر...

ـ ويدخل فيه نبات لسان الحمَل أيضاً .

ـ وربما قليل من الفلفل ؟

ـ وفيه فلفل كذلك .

ـ عظيم . وهذه النباتات كلها غليت في خمرة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، في كحول .

سُمعت في القاعة عندئذ ضحكات مكتومة .

ـ عظيم ، عظيم ، في كحول . وبعد أن دلكت ظهرك شربت مابقي

فى الزجاجة من هذا السائل ، وأنت تتلو صلاة خاشعة لا يعرف أحد نصّها الا زوجتك ، أليس كذلك ؟

ــ نعم شربته .

ــ هل شربت مقداراً كبيراً من هذا السائل ؟ كم شربت ، مثلاً ؟ أقدحاً واحداً أم ربما قدحين ؟

ــ قدحاً ملآن تقريباً .

ــ هه ؟ قدحاً كاملاً ؟ أم قدحاً ونصف قدح مثلاً ؟

صمت جريجورى . لكأن ضياءً قد بزغ فى ذهنه .

قال المحامى :

ــ قدح ونصف قدح من كحول صاف . ليس هذا قليلاً ، هه ؟ ان الانسان يستطيع بعد ذلك لا أن يرى الباب المطل على الحديقة مفتوحاً فحسب ، بل أن يرى كذلك « أبواب الجنة » كلها مفتوحة .

ظل جريجورى صامتاً . وسُمعت فى القاعة ضحكات صغيرة مكظومة من جديد . فاضطرب الرئيس .

عاد فيتوكوفتش يسأل بالحاح وهو يحدّق الى فريسته :

ــ أما كنت فى حالة وسنٍ حين أبصرت الباب المطل على الحديقة مفتوحاً .

ــ كنت واقفاً على قدمى .

ــ هذا لا ينفى أن تكون فى حالة وسن (ضحكات مكظومة) . هل كان فى وسعك عندئذ أن تجيب فى تلك اللحظة عن سؤال يلقيه عليك أحدهم ، كأن يسألك مثلاً فى أى سنة نحن ؟

ــ لا أدرى !

ــ طيب ... فى أية سنة من العصر المسيحى نحن الآن ؟ هل تعرف ؟

بدت الحيرة على جريجوري الذى كان لايحوّل بصره عن جلاده. ومن الغريب أنه كان يجهل فعلاً فى أى سنة نحن .

ــ هل تستطيع أن تقول لى ما عدد أصابع يديك ؟

فقال جريجوري فجأة بصوت قوى واضح :

ــ انا امرؤ احترم السلطة ، وقد تعودت أن أطيع ، فاذا حلا لمن هم أعلى منى مقاماً أن يسخروا منى ، فمن واجبى أن أتحمل ذلك .

بدا على فيتوكوفتش شيء من الغيظ ، ولكن الرئيس أسرع يتدخل فطلب من المحامى أن يلقى أسئلة تتعلق بالدعوى تعلقاً مباشراً. فلما سمع المحامى طلب الرئاسة انحنى بوقار ، وأعلن أنه ليس لديه سؤال آخر يلقيه. واضح أن شكاً خفيفاً قد زرع الآن فى أذهان الجمهور وفى أذهان المحلفين ، فيما يتعلق بقيمة شهادة يدلى بها رجل يمكن أن « يرى أبواب الجنة » بتأثير دواء ، عدا انه يجهل السنة التى نحن فيها من العصر المسيحى . فى وسعنا أن نقول اذن ان المحامى قد حقق هدفه على كل حال . وقبل أن ينصرف جريجوري وقع حادث آخر. ذلك أن الرئيس اتجه الى المتهم فسأله هل لديه ملاحظات على هذه الشهادة ، فصاح ميتيا يقول بصوت قوى :

ــ باستثناء ما قاله عن الباب ، فان كل ما ذكره هو الحقيقة بعينها. صحيح ما ذكره من أنه أنقذنى من القمل ، وأنا أشكر له ذلك . ولقد غفر لى اللطمات ، فأنا أشكر له ذلك أيضاً . ان هذا العجوز كان رجلاً شريفاً أميناً صادقاً طوال حياته ، وكان وفياً لأبى وفاء سبعمائة كلب .

قال الرئيس بلهجة قاسية :

ــ المتهم ! ... عليك أن تراقب ألفاظك .

وقال جريجوري متذمراً بدوره :

ـ أنا لست كلباً •

فهتف ميتيا يقول :

ـ اذن أنا الكلب • اذا كان اهانة أن يكون المرء كلباً فانني أصف نفسي بهذه الصفة ، وأطلب منه الصفح والعفو • لقد كنت قاسياً وعنيفاً معه • ومع ايزوب أيضاً •

فتدخل الرئيس قائلاً بقسوة :

ـ أي ايزوب تعني ؟ عمَّن تتكلم ؟

ـ أتكلم عن بيرو ••• أبي ••• أبي ••• فيدور بافلوفتش •

فأنَّب الرئيس ميتيا وقرَّعه ، وأمره بلهجة صارمة أن يحسن اختيار ألفاظه بعد الآن ، وقال له :

ـ انك تسيء الى نفسك بنفسك في أذهان قضاتك •

وبتلك البراعة نفسها عرف المحامي كيف يعبث بالشاهد راكيتين الذي كان من أهم شهود الاتهام ، والذي كان وكيل النيابة يعوِّل عليه كثيراً • لقد اتضح دفعة واحدة أن راكيتين كان يعرف كل شيء ، وأنه مطلع على الأمور اطلاعاً غريباً ، وأنه اختلف الى جميع الأشخاص ، وأنه رأى كل شيء ، وتحدث مع كل واحد ، وأنه يعرف تفاصيل سيرة فيدور بافلوفتش ، كما يعرف تفاصيل سير آل كارامازوف جملةً • صحيح أنه، فيما يتعلق بالظرف الذي أودعت فيه الثلاثة آلاف روبل ، لم يكن قد سمع شيئاً عن هذا الأمر ، هو أيضاً ، الا من ميتيا • ولكنه في مقابل ذلك قد وصف سلوك ميتيا في كاباريه « العاصمة الكبرى » وصفاً دقيقاً، ونقل أقواله وذكر اشاراته وحركاته ، وروى حادثته مع الكابتن سنيجيريف • أما عن أن فيدور بافلوفتش كان لا يزال مديناً لميتيا ببعض

المال تصفية لحساب الميراث ، فان راكيتين نفسه لم يستطع أن يذكر شيئاً دقيقاً واضحاً ، واكتفى بأن قال بضع عبارات غامضة فيها ازدراء واحتقار : « من ذا الذى يستطيع أن يقول أيهما كان مذنباً فى حق الآخر ، وأنى للمرء أن يعرف شيئاً واضحاً عن حساباتهما فى ظل هذا النظام المنزلى العجيب الذى تعيشه أسرة كارامازوف ، وفى ظل تصريفهم للأمور المالية تصريفاً لا يتسنى لأحد أن يفهم منه شيئاً البتة ! » • لقد صوّر راكيتين الدرامة التى أدت الى الجريمة على أنها ثمرة عاداتنا وأخلاقنا المتخلفة ، وثمرة نظام القنانة ، وثمرة الفوضى التى تسيطر على بلادنا روسيا التى تعانى شقاء كبيراً وتفتقر الى أنظمة لا غنى لها عنها • خلاصة القول أنه سُمح لراكيتين أن يلقى خطاباً مسهباً • وبمناسبة هذه الدعوى انما اشتهر راكيتين وذاع صيته لأول مرة • كان وكيل النيابة يعرف أن الشاهد ينوى أن ينشر مقالاً عن القضية فى جريدة من الجرائد ، حتى لقد أورد فى مطالعته (كما سنرى ذلك فيما بعد) عدداً من الأفكار التى يعبر عنها ذلك المقال ، فكان اذن مطلعاً على مضمون المقال • كانت الصورة التى رسمها راكيتين مظلمة قاسية دكناء يخرج منها شعور يعزز « الاتهام » تعزيزاً قوياً • ونستطيع أن نقول على وجه الاجمال ان العرض الذى قدمه قد خلب ألباب الجمهور بما اشتمل عليه من استقلال الرأى وحرية التفكير ، وبما أكده من نبل العواطف وسمو المشاعر • حتى لقد سُمعت فى القاعة تصفيقات انطلقت هنا وهناك من تلقاء نفسها ، وذلك أثناء كلامه عن نظام القنانة ، وعن روسيا الشقية التى ترين عليها الفوضى • ولكن راكيتين ، الذى لم يكن الا شاباً على كل حال ، لم يستطع أن يتجنب خراقة سرعان ما استغلها المحامى استغلالاً يدل على مقدرة فائقة فى انتهاز الفرص المناسبة • لقد أُلقيت على راكيتين أسئلة عن جروشنكا ، فاذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة

منقاداً لما حقق من نجاح شعر به هو نفسه ، ومنتشياً بالسمو الأخلاقي الروحي الذي ارتقى اليه ، اذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة يزل لسانه فيتكلم عن أجرافين الكسندروفنا بشيء من الاحتقار ويصفها بأنها «امرأة ينفق عليها التاجر سامسونوف» ، فسرعان ما استولى المحامي على هذه العبارة الشقية التي زلّ بها لسان راكيتين والتي أصبح راكيتين مستعداً بعد ذلك لأن يضحي بكل شيء في سبيل أن يسحبها • وما كان لهذا كله أن يقع على كل حال لو قد تنبأ راكيتين بأن المحامي قد اطلع أثناء هذه الفترة القصيرة على أدق تفاصيل الأمور •

قال المحامي حين جاء دوره لاستجواب الشاهد ، قال وعلى ثغره ابتسامة فيها كثير من اللطف والمودة والاحترام •

ـ اسمح لي أن أسألك هل أنت ذلك السيد راكيتين نفسه الذي نشرت له سلطات الأبرشية في الآونة الأخيرة كتيباً عنوانه « سيرة الأب السعيد الشيخ زوسيما » ، وهو كتيب ملىء بأفكار دينية أخلاقية عميقة ، ومُهدى بكثير من التبجيل واللباقة الى صاحب العظمة سيادة البطريق ؟ لقد قرأت هذا الكتيب مؤخراً بكثير من الاهتمام •

تمتم راكيتين يقول وقد بدا عليه الاضطراب فجأة كأنه يشعر بخزي :

ـ أنا لم أكتب هذه السيرة لتُنشر ، وانما نشرت بعد ذلك دون علمي •

ـ ها ••• عظيم !! ان مفكراً مثلك يستطيع ويجب عليه أن يبرهن على سعة عظيمة في النظر الى الأمور ، ازاء جميع جوانب الحياة الاجتماعية • وقد قُيّض لكتيبك الممتاز ، بفضل حماية صاحب العظمة البطريق ، أن ينتشر انتشاراً واسعاً وأن يكون ذا فائدة ••• ولكنني

أحب من جهتى ، دون أن أكون مسرفاً فى الفضــول ، أن ألقى عليك سؤالاً صغيراً : لقد ذكرتَ منذ قليل أنك تعرف جيداً السيدة سفيتلوفا، أليس كذلك (ليلاحظ القارىء أنه عُرف فى تلك اللحظة وحدها أن اسم أسرة جروشــنكا هو سفيتلوفا • ولقد ســمعت هذا الاسم فى هــذه المناسبة لأول مرة) •

هتف راكيتين يقول وقد احمر وجهه احمراراً شديداً :

ـ لا يمكن أن أؤاخذ على معرفتى بجميع من أعرف مِن النـاس ••• أنا شاب ••• ومن ذا الذى يتحمل تبعـة جميع ما يعرض له من لقاءات ؟

فهتف فيتوكوفتش هو أيضاً يقول متظاهراً بالخجل حريصـاً على المبادرة الى الاعتذار :

ـ طبعاً ، طبعاً ، مفهوم ! أنا أفهم هذا حق الفهم • انه لمن الطبيعى جداً أن تجتذبك ، كما تجتذب أىَّ انســـان آخر غيرك ، متعةُ امرأة جميلة يحلو لها أن تستقبل فى بيتها زهرة شبان المدينة••• ولكننى ••• أريد أن توضح لى نقطة واحدة : نحن نعلم أن السيدة سفيتلوفا قد تمنت منذ شــهرين ، بكثير من الالحاح ، أن تتعرف الى الكسى فيدوروفتش ، أصغر الاخوة كارامازوف ، وأنها رجتك أن تجيئها به ، وأن تجيئها به مرتدياً ثوب الرهبان الذى يرتديه ، وقد وعدتك اذا أنت أفلحت فى أن تجيئها به ، وعدتك بمكافأة مقدارها خمســة وعشرون روبلاً • ونحن نعلم أنك لبيت طلبها ، وأن الزيارة تمت فى تلك الســهرة نفســها التى اختتمت بالفاجعة موضوع الدعوى• لقد قدت ألكسى فيدوروفتش الى بيت السيدةسفيتلوفا، وأخذت منها المبلغ الذى وعدتك به، وهو خمسة وعشرون روبلاً ، هل هذا كله صحيح ؟ ذلك ما أحب أن توضحه لنا الآن •

ـ كانت تلك مزحة لا أكثر ••• ولست أرى فيم يمكن أن يعنيك هذا الأمر ••• وقد أخذت المبلغ من باب اللعب والعبث ••• وعلى نية ردّه اليها بعد ذلك •••

ـ ولكنك قبلت المبلغ ، ولم تردّه حتى الآن ••• أم تراك رددته ؟

تمتم راكيتين يقول :

ـ هذه سفاسف • وأنا أرفض أن أجيب عن أسئلة من هذا النوع ••• طبيعي أنني سأرد هذا المال •

همّ الرئيس أن يتدخل في تلك اللحظة ، ولكن المحامي أسرع يعلن نه لم يبق لديه سؤال اخر يلقيه على راكيتين • وانصرف راكيتين منكسراً مهزوماً • لقد فسد ما أحدثه خطابه من شعور بانه انسان نبيل النفس، فسد هذا الشعور فساداً لا صلاح له بعده••• وكأن فيتوكوفتش الذي لاحقه بنظرة ساخرة، كان كمن يخاطب الجمهور قائلاً له: « انظروا الى شهود الاتهام هؤلاء ، ما قيمتهم ! » واني لأذكر أن ميتيا قد أحدث حادثاً في هذه المناسبة أيضاً • فانه وقد احنقته اللهجة التي تكلم بها راكيتين عن جروشنكا ، صاح فجأة يطلق على راكيتين من مكانه هذا اللقب : « برنار » ، وحين اتجه الرئيس ، بعد استجواب راكيتين ، حين اتجه الى المتهم ليسأله هل له ملاحظات يريد ابداءها ، صرخ ميتيا يقول بصوت مجلجل :

ـ لقد اقترض مني مالاً عدة مرات • هذا برنار حقير ، لا يؤمن بالله ، وقد ضلل صاحب العظمة البطريق وغرّر به •

طبيعي أن ميتيا قد أُمر من جديد بالتزام النظام ، واجتناب الألفاظ النابية ، ولكن السيد راكيتين كان قد فقد مهابته وتجلل بالخزي •

ولم يكن حظ الاتهام مع الشاهد التالي ، وهو الكابتن سنيجيريف،

أكبر من حظه مع الشاهدين السابقين ، ولكن لسبب آخر • لقد جاء سنيجيريف الى المحكمة مشعث الثياب وسخ الهيئة موحّل الحذاءين ، وسرعان ما أدرك الناس أن المسكين سكران سكراً تاماً ، رغم جميع الاحتياطات المتخذة ورغم « تقرير الخبير » • فلما سئل عن الاهانة التى ألحقها به ميتيا رفض باصرار عنيد أن يجيب • وقال :

ــ سامحه الله • ان صغيرى ايليوشا لا يريد هذا • سينصفنى الله فى الآخرة •

ــ من الذى لا يريد ؟ من يمنعك من الكلام ؟

ــ ايليوشا ، ابنى الصغير : « بابا ••• حبيبى بابا ••• ما أكثر ما أذلك ! » • هكذا كلمنى قرب الصخرة • وهو الآن يموت •

قال الكابتن ذلك ثم انفجر باكياً منتحباً على حين فجأة ، وسجد أمام قدمى الرئيس • فأسرعوا يخرجونه وسط ضحك الحضور وقهقهاتهم ، وضاع على وكيل النيابة ما كان يعوّل عليه من أثر يمكن أن يحدثه هذا الرجل المسكين •

واستمر المحامى يستعمل جميع أساليب فنه ، واستمر الناس يدهشون مزيداً من الدهشة لاطلاعه العجيب على القضية بأدق تفاصيلها• هكذا احدثت الشهادة التى أدلى بها تريفون بوريستش أثراً قوياً فى أول الأمر ، وكانت هذه الشهادة تُدين ميتيا طبعاً • من ذلك خاصة أنه حسب ، قرشاً قرشاً ، النفقات التى أنفقها ميتيا أثناء رحلته الأولى الى موكروبه قبل وقوع الفاجعة بشهر ، فبيَّن أن ميتيا لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون قد أنفق أقل من ثلاثة آلاف روبل ، أو ما يقرب من ذلك • ما أكثر ما رمى للغجريات من مال ! « أما فلاحونا المقمّلون فانه لم يكتف بأن ينفحهم نقوداً صغيرة أو نقوداً من فئة الخمسين كوبك بل

كان يوزع عليهم أوراقاً مالية لا تقل واحـدة منها عن خمسـة وعشرين روبلاً ! ناهيكم عما سُرق منه في تلك الليلة !! ان اللصوص لم يتركوا بطاقات زيارة ، ولا كان يمكن أن يخطر ببال أحد أن يبحث عنهم ويعثر عليهم بينما كان ميتيا نفسه يتلف المال اتلافاً ويبدده تبديداً • ان فلاحينا لصوص لا ضمير لهم ولا وجدان • والبنـات ! بنات قريتنـا ! انه لم يفسهن ! لقد اغتنين منذ ذلك الحين ، بينما كان جميع الناس عندنا فقراء قبل تلك الليلة » • الخلاصـة أن تريفون بوريستش أحصى جميع النفقات ، وبدا أنه يجرى حساباً دقيقاً • وبذلك يكون الافتراض القائل بأن ميتيا لم ينفق الا ألفاً وخمسمائة روبل ، وانه خاط باقى المبلغ فى كيس صغير ، بذلك يكون ذلك الافتراض مردوداً مرفوضاً • « رايت الثلاثة آلاف روبل بعينى ، ما أنا بمن يُخدع فى مثل هذه الأمور ! » • كذلك كان يصيح تريفون بوريستش ، وكان واضحاً أنه انما يفعل ذلك حباً بارضاء السـلطات ؟ ولكن حين جاء دور المحامى لالقـاء الأسئلة على الشاهد ، اكتفى المحامى بأن ذكر الواقعة التالية دون أن يحاول الطعن في شهادة صاحب الفندق ، قال : ان الحوذى تيموتى وفلاحاً آخر اسمه آكيم قد عثرا بورقة مالية بمائة روبل كانت قد سقطت على أرض الدهليز من ميتيا وهو فى حالة سكر ، فحملا هذه الورقة المالية وأعطياها تريفون بوريستش الذى كافأ كلاً منهما بروبل ، « فهل أرجعت المائة روبل هذه الى السيد كارامازوف أم أنت لم ترجعها ؟ أجب ! » • فحـاول تريفون بوريستش أن يتملص من الجواب ، ولكنه بعد سـؤال الفلاحين اللذين عثراً بالورقة المالية ، اضطر أن يعترف بالواقعة ، واكتفى بأن يؤكد أنه قد أرجع الورقة الماليـة الى دمترى فيدوروفتش فوراً ، وأنه فعـل ذلك بدافع الأمانة والشرف ، ولكن المتهم كان قد بلغ منه السـكر كل مبلغ حينذاك ، فمن الجائز أن يكون قد نسى ان المال أعيد اليه فى حينه » •

ولكن لما كان تريفون بوريستش قد ظل الى حين مثول الفلاحين ينكر العثور بورقة نقدية على ارض الدهليز أصلاً ، فان ما ادعاه بعد ذلك من أن الورقة قد أرجعت الى ميتيا الثمل ، أصبح مطعوناً فيه . هكذا رأينا شاهداً من أخطر شهود الاتهام يفرغ من شهادته وقد تزعزعت سمعته تزعزعاً قوياً .

وكذلك كان شأن « السيدين » البولنديين . لقد أظهرا فى البداية كبرياء وغروراً ، وأكد بصوت قوى انهما « خدما التاج » ★ بأمانة واخلاص وأن « السيد » ميتيا عرض عليهما أن يدفع لهما ثلاثة آلاف روبل ثمناً لشرفهما ، وأنهما شاهدا ذلك المبلغ فى يديه بأعينهما . وقد استعمل « السيد » موزيالوفكتش عدداً كبيراً من الألفاظ البولندية فى جمله ، فلما لاحظ أن ذلك قد رفع قدره وزاد قيمته فى نظر رئيس المحكمة ووكيل النيابة ، شعر بارتياح وسرور وأخذ يتكلم بالبولندية . ولكن فيتوكوفتش عرف كيف يقتنص هذين الرجلين أيضاً بشباكه : فرغم أن تريفون بوريستش ، الذى استدعى الى القاعة مرة أخرى ، قد حاول الانكار ، فانه اضطر أخيراً أن يعترف بأن « السيد » فروبلفسكى قد استبدل بورق اللعب الذى أخذه منه ورقاً آخر أخرجه خلسة ، وأن «السيد» موزيالوفكتش قد غش فى اللعب أثناء استلامه دور «البنك» . وقد جاءت أقوال كالجانوف الذى أدلى بشهادته بعد ذلك ، جاءت مؤيدة لصحة هذه « التفاصيل » ، فخرج « السيدان » البولنديان مرتبكين مجللين بالعار تشيعهما قهقهات الحضور .

وهذا المصير نفسه كان ينتظر شهود الاتهام الآخرين الخطرين . فقد عرف فيتوكوفتش كيف يسقط اعتبار كل واحد منهم من الناحية الأخلاقية ، فانصرفوا وهم فى حالة يرثى لها . وقد أعجب محبو الاطلاع ورجال القانون ببراعة المحامى هذه ، ولكنهم كانوا يتساءلون

ما الذى يمكن أن يجنيه بهذا الأسلوب من فائدة للقضية ؟ ذلك لأنهم ـ أكرر هذا ـ كانوا يشعرون جميعاً بأن الاتهام قوى قوة لا تقاوم ولا تغالب ؛ ولأن الأدلة ضدّ المتهم كانت تتكاثر ويتراكم بعضها فوق بعض ، وما تنفك تزداد تهديداً باقتراب المتهم من الادانة مزيداً من الاقتراب • ومع ذلك كان الناس يدركون ، من ملاحظة الثقة البادية فى هيئة «المجوسى الكبير» ، أنه كان هادئاً مطمئناً ، لذلك كانوا ينتظرون الخاتمة بكثير من الشوق • ليس عبثاً أن يزعج « مثل هذا الأستاذ » نفسه بالمجىء الى بلدتنا من سان بطرسبرج ، فما هو حتماً بالرجل الذى يرجع خائباً دون ثمرة يجنيها •

٣

الشهادة الطبية ورطل من بندق

كذلك لم يبد أن شهادة الطب تنفع المتهم . وكان فيتوكوفتش نفسه لا يعوّل كثيراً عليها ، فيما يبدو ، كما ظهر ذلك من بعد . وانما عُمد الى استخدامها بسبب الحاح كاترين ايفانوفنا التى استقدمت لهذا الغرض طبيباً شهيراً من موسكو . كان واضحاً أن الدفاع لن يخسر باستخدام شهادة الطب شيئاً ، حتى لقد يجنى بعض النفع اذا واتت الظروف . على أن شهادة الطب هذه قد صحبتها مشاهد مضحكة جداً ، وذلك بسبب اختلاف الأطباء فى الرأى . كان الأطباء الذين عُيِّنوا خبراء للادلاء بآرائهم فى هذه القضية هم أولاً الاخصائى الشهير الذى استُقدم من موسكو ، ثم طبيبنا الطبيب الدكتور هرتسنشتوبه ، وأخيراً الطبيب الممارس الشاب فارفنسكى . على أن هذين الطبيبين الأخيرين قد مَثَلا أمام المحكمة بصفتهما شاهدَين أيضاً ، لأن وكيل النيابة قد طلب ذلك . فأما الخبير الأول الذى استدعى للادلاء برأيه فهو الدكتور هرتسنشتوبه . انه عجوز فى السبعين من عمره ، أشيب أصلع ، مربوع القامة قوى البنية ، كان الناس فى مدينتنا يعتبرونه ويحترمونه كثيراً . كانوا يعلمون أنه صاحب ذمة وضمير ، وأنه طيب القلب عالى الأخلاق . حتى لقد كانوا يزعمون أنه ينتمى الى ملة دينية هى ملة « الاخوان

المورافين » * اذا لم يخطىء ظنى • وهو يقيم فى مدينتنا منذ سنين طويلة وكان على جانب عظيم من الوقار والمهابة • وكان رجلاً انسانياً كريماً ، فهو يعالج الفقراء والفلاحين مجاناً ، ويعـودهم فى أكواخهم ويترك لهم مالاً لشراء الأدوية • ولكنه كان في الوقت نفسه عنيداً عناد بغـل • كان لا يمكن أن يُزحزح قيد شعرة عن رأى قلم فى ذهنه • ومهما يكن من أمر ، فلقد كان جميع النـاس يعلمون ان الاخصـائى الشـهير الآتى من موسكو قد استطاع خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التى قضـاها فى مدينتنا أن يُفصح مراراً عن آراء تطعن فى كفاءات الدكتور هرتسنشتوبه الطبيـة طعناً بالغاً جارحاً • ورغم أن هذا الاخصائى قد تقاضى خمسـة وعشرين روبلاً على الأقل عن كل كشف طبى أجـراه ، فمـا كان أكثر الذين ابتهجوا فى مدينتنا لقدومه ، وانتهزوا الفرصة لزيارته واستشـارته غير ضانين بالمال • وطبيعى أن جميع هـؤلاء المرضى كان قد عالجهم الدكتـور هرتسنشتوبه قبل ذلك ، فكان الاخصائي الشهير ينتقد المعالجة التى وصفها لهم الدكتور هرتسنشتوبه نقداً لاذعاً بألفاظ قاسية جداً ، حتى لقد صار آخر الأمر يبـادر المرضى الوافدين اليه بهذا السـؤال : « هيـه ! أليس الدكتور هرتسنشتوبه هو الذى صيـرك الى هذه الحال ؟ قه قه قه ! ... » • وقد أنبىء الدكتور هرتسنشـتوبه طبعاً بما كان يقـوله عنه هذا الطبيب الاخصائى • وها هم أولاء الأطباء الثلاثة يمثلون أمام المحكمة واحداً بعد واحد كخبراء ! أكد الدكتور هرتسنشتوبه دفعـةً واحـدة ان « المتهم لا يملك كامل قواه العقليـة ، وأن هذا يُرى من أول نظرة » • وحين بسط آراءه فى هذا الموضوع (وهى آراء لن أعرضها هنا) أضاف يقول ان الشذوذ النفسى الذى يعانى منه المتهم يتجلى لا فى طائفـة كبيرة من الأعمال التى سبق أن ارتكبها فحسب ، بل يمكن أن يلاحظ أيضاً ـ وهذا أهم ـ فى سلوكه فى جلسة المحاكمة هذه نفسها • فلما طلب الى الدكتور

هرتسننشتوبه أن يقول أين هو الشذوذ في وضع المتهم الآن ، أجاب الطبيب العجوز قائلاً بالسذاجة المعهودة فيه ان المتهم حين دخل القاعة « كان يمشي مشية غريبة لا تلائم الظروف التي هو فيها ، فهو يسير قدماً لا يلوى على شيء ، كما يسير جندي ، وهو يحدّق بعينيه تحديقا ثابتاً لا ينظر يمنةً ولا يسرة ، مع أن الشيء الطبيعي السوي بالنسبة اليه هو أن ينظر يسرةً ، حيث توجد النساء من الحضور ، لأنه رجل يحب الجنس اللطيف حبا عظيما ، فلابد أن يقيم وزنا كبيرا لرأي السيدات ، لما عسى أن يكون رأي السيدات فيه حينذاك » • وكان الطبيب العجوز يتكلم بلغة أصيلة خاصة به • يحسن أن نذكر أنه كان يتكلم اللغة الروسية بانطلاق وتدفق ، ولكن كل جملة من جمله كان فيها شيء ألماني لا أدري ما هو ، وذلك أمر لم يكن يقلقه البتة ، لأنه تعود طوال حياته أن يعتقد أنه يتقن الروسية اتقاناً كاملاً ، وأن روسيته « خير من روسية الروس أنفسهم » • وكان يحب كثيراً أن يروي أمثالاً روسية ، وكان يؤكد في كل مرة أن الأمثال الروسية أجمل وأبلغ من أمثال سائر الشعوب• يجب أن أضيف الى هذا أنه كثيراً ما كان يتفق له أثناء الحديث – عن ذهول في أغلب الظن – أن ينسى ألفاظاً هي أكثر الألفاظ استعمالاً ، ألفاظاً يعرفها حتماً ، ولكنها اختفت من ذهنه على حين فجأة• على أن هذا نفسه كان يحدث له حين يتكلم بالألمانية أيضاً • وهو في اللحظات التي يحدث له فيها ذلك ، يأخذ يحرك يده أمام وجهه كمن يريد أن يلتقط الكلمة التي طارت ، وما من أحد يستطيع عندئذ أن يجبره على مواصلة كلامه قبل أن يهتدي الى اللفظة الضائعة •

أثارت الملاحظة التي ذكرها عن المتهم حين قال انه كان عليه أن ينظر الى جهة السيدات لحظة دخوله قاعة المحكمة ، أثارت هذه الملاحظة في جمهور الحضور دمدمات ضاحكة • لقد كان العجوز يؤثر النساء على

الرجال • وكانت النساء تعرف أنه ـ على كونه عازباً ـ قد عاش طوال حياته عفاً طاهراً ، وأنه يعد النساء كائنات عليا ومخلوقات مثالية • ولذلك بدت ملاحظته هذه التي لم تكن تُتوقع منه ، بدت لجميع النـاس مثيرةً للدهشة والاستغراب •

وجاء دور سؤال الاخصائي القادم من موسـكو ، فصرّح بلهجة قاطعة والحاح حاسم ان حالة المتهم العقلية هي في رأيه حالة غير سويه ، بل هي « غير سوية الى أقصى حد » • وتكلم في اسهاب وتفقه عن مرض «الحصار» وعن مرض «المانيا» ، وبرهن بالاستناد الى المعلومات المتجمعة أن المتهم كان قبل اعتقاله ببضعة أيام قد أصيب بحالة حصار ؛ فاذا سلمنا جدلاً بأنه كان حين ارتكابه الجريمة واعياً شاعراً بما يفعل ، فمما لا شك فيه أنه فعل ما فعله بغير ارادة تقريباً ، لأنه لا يملك القدرة على مقاومة الاندفاع المرضى الذي كان قد سيطر عليه واستبد به • كذلك قال الاخصـائي شـارحاً • ثم أضاف يقول : على أن المريض كان مصـاباً ، عدا مرض الحصار ، بداء « المانيا » ، وهذا يجعلنا نتنبأ بتطور سيؤدى به الى الجنون الكامل (ملاحظة: انني أنقل هنا بلغتي أنا ، أقوال ذلك الطبيب الاخصائي في الأمراض العقليـة الذي اسـتعمل عندئذ لغة تكنيكيـة فيها كثير من التفقـه) • وتابع الطبيب كلامه فقـال : « لقـد كان يتصرف في جميع الأحـوال تصرفاً يخالف العقل والمنطق • لن أقول شـيئاً عمـا لم أره بنفسي ، أعني الجريمة وتلك الدرامة كلها ؛ ولكن يجب عليّ أن أذكر مع ذلك أن نظرته ، أمس الأول ، أثنـاء حديث جـرى بيني وبينـه ، كان فيها جمود غريب ليس له تفسير • يضاف الى هذا أنه كان يضحك بدون أي سبب يدعو الى الضحك • وقد لاحظت لديه حنقاً مستمراً غير مفهـوم ، كما لاحظت أنه يسـتعمل كلمـات غريبـة مثل « برنار » ، « ايطيقا » ، وغير ذلك من الفـاظ لا محل لهـا اطلاقاً » • على أن أبرز

شيء يتميز به مرض « المانيا » لدى المتهم ، في نظر الطبيب ، هو أن المتهم كان لا يستطيع أن يواجه مشكلة الثلاثة آلاف روبل التي يعتقد أن أباه حرمه منها ، والا يُصاب بحالة شديدة من الاندفاع ، بينما يكون قبل ذلك هادئاً كل الهدوء أثناء كلامه عن اخفاقات أخرى أو اهانات أخرى تحملها أثناء حياته وهو يتذكرها الآن دون أي اضطراب ظاهر . هذا ويخرج من معلومات أخرى تم الحصول عليها أن المتهم كان يستعر حنقه كلما ذُكرت هذه الثلاثة آلاف روبل ، رغم أنه ، على ما يشهد به الشهود ، لا يعد متهافتاً على المنفعة ولا يعد طماعاً . ثم أضاف الطبيب الوافد من موسكو يقول بلهجة ساخرة خاتماً كلامه : « أما عن رأي زميلي العالم الذي يذهب الى أن المتهم كان ينبغي له عند دخوله القاعة أن ينظر الى جهة السيدات لا أن ينظر الى أمام ، فانني أعتقد أن من واجبي أن أؤكد ، بصرف النظر عما تتسم به هذه الملاحظة من طابع الملاحة الفكهة ، أن هذه الملاحظة خطأ فاحش . فانني على موافقتي لرأي زميلي المحترم في أن المتهم ما كان ينبغي له أن ينظر الى أمام ، أثناء دخوله قاعة المحكمة التي سيتقرر فيها مصيره ، وعلى موافقتي لرأي زميلي المحترم في أن فعلة المتهم هذه يجب ان تعد عرضاً من اعراض حالته العقلية المختلة ، أقول انني من جهتي أرى أن المتهم كان يجب عليه لا أن ينظر سرةً الى جهة السيدات ، بل أن ينظر يمنةً الى جهة محاميه باحثاً عنه في تلك اللحظة بعينيه ، لأن محاميه هو الآن أمله الوحيد ، ولأن مصيره كله متوقف على دفاع هذا المحامي . » . أعرب الطبيب الاخصائي عن رأيه هذا بلهجة قاطعة جازمة لا تُرد . غير أن الخلاف المضحك الذي قام بين الأطباء الخبراء انما وصل الى أوجه وبلغ ذروته حين جاء دور الدكتور فارفنسكي الذي سئل عن رأيه آخرَ من سئل من الأطباء ، فأخذ يدلي بآرائه ويقدم شروحه . قال هذا الطبيب ان المتهم هو ، الآن

وفي الماضي على السواء ، رجلٌ حالته النفسية سليمة كل السلامة ؟ ولئن كان قبل اعتقاله في حالة عصبية ، وكان مضطرباً اضطراباً شديداً ، فذلك كله يمكن تعليله بأسباب طبيعية تماماً ، كالغيرة ، والغضب ، والاسراف المستمر في الشراب وما الى ذلك . فهذه العصبية ليس فيها أي شيء من الاختلالات التي تنتمي الى مرض «الحصار» الذي جيء على ذكره ؟ أما فيما يتعلق بالمسألة التي أثيرت حول الجهة التي كان ينبغي للمتهم أن ينظر اليها لحظة دخل القاعة ، فقد أعلن هذا الخبير الثالث أنه كان على المتهم « بحسب رأيه المتواضع » أن ينظر الى أمام ، كما فعل تماماً ، ذلك لأن رئيس المحكمة وأعضاءها ، وهم الذين يتوقف عليهم مصيره ، كانوا قبالته في تلك اللحظة . « وهو ، اذ نظر الى أمام فعلاً ، قد برهن على أنه في حالة نفسية سليمة بريئة من المرض » . بهذا ختم الطبيب الممارس الشاب « رأيه » المتواضع .

فصرخ ميتيا من مكانه يقول :

ـ مرحى يا حكيم ! هذا صحيح كل الصحة !

وأُسكت ميتيا طبعاً ، ولكن رأى الطبيب الشاب أحدث أثراً حاسماً في أعضاء المحكمة وفي جمهرة الحضور على السواء ، لأن جميع الناس في مدينتنا قد انحازوا الى رأيه ، كما ظهر ذلك فيما بعد. ثم ان الدكتور هرتسنشتوبه ، حين استُجوب كشاهد ، أدلى بأقوال خدمت قضية ميتيا على نحو لم يكن يتوقعه أحد البتة . ان الدكتور هرتسنشتوبه ، وهو يقطن مدينتنا منذ عهد بعيد ويعرف أسرة كارامازوف من زمان طويل ، قدّم معلومات تساعد الاتهام كثيراً ، ولكنه أضاف يقول وكأنه تذكر شيئاً ما على حين فجأة :

ـ ومع ذلك فان هذا الفتى المسكين كان يمكن أن يستحق مصيراً أفضل ، لأنه كان في طفولته طيب القلب ، وكان طيب القلب بعد ذلك

أيضاً ، أنا أعرف هذا . على أن هناك مثلاً روسياً يقول : « حسن أن يكون المرء ذا عقل ، ولكن أحسن من ذلك أن يزوره رجل آخر ذو عقل ، لأن عقلين اثنين خير من عقل واحد ... » .

ـ تريد أن تقول ان فى اتحاد العقول قوة لها ...

كذلك تدخل الرئيس متململاً وهو يعرف طريقة الطبيب العجوز فى بطء الكلام وجر الألفاظ دون أن يعبأ بأثر ذلك فى مستمعيه ودون أن يحفل بنفاد صبرهم عند الاصغاء اليه (حتى لقد كان يبدو أنه يقدر قدراً كبيراً مزاحاته الجرمانية الثقيلة الضخمة ، ويستعملها مبتهجاً ابتهاجاً واضحاً . وكان الى ذلك يحب الأقوال الحلوة حباً عظيماً) .

استأنف الطبيب العجوز كلامه فقال معانداً :

ـ نعم ، ذلك هو ما قلته . عقلان اثنان خير من عقل واحد. ولكن هذا الشاب لم يزره رجل عاقل آخر ، فمضى عقله هو ... مضى ي ... مضى يعمل ماذا ؟ ... نسيت الكلمة ... الكلمة التى تعبر عما مضى يعمله عقله . نسيت تلك الكلمة (كذلك ردد وهو يحرك يده أمام عينيه) آ ... نعم ... تذكرت ... مضى عقله يتنزه .

ـ مضى عقله يتنزه ؟

ـ نعم يتنزه . ذلك ما قلته أيضاً . مضى عقله يتنزه ، فوصل الى مكان بعيد تائه لايستطيع فيه أن يهتدى الى نفسه ويجد ذاته. ولكنه كان فتى نبلاً حساساً . أوه ... اننى أتذكره يوم كان صغيراً جداً قد أهمله أبوه فهو يجرى فى فناء المنزل حافى القدمين لا يكاد يمسك سرواله الا زر واحد ...

وهنا اختلج صوت العجوز الشريف برنة انفعال صادق . فارتعش فيتوكوفتش اذ أوجس مواتاة الفرصة الحسنة ، وسرعان ما تشبث بهذا الشاهد .

واصل الطبيب العجوز كلامه فقال :

ـ نعم ، نعم ، كنت ما أزال شاباً في ذلك الوقت ••• كان عمرى ••• نعم ••• كان عمرى خمسة وثلاثين عاماً • وكنت قد استقررت في هذه المدينة منذ فترة قصيرة • لقد أشفقت على الصبى وتساءلت : « لماذا لا أشترى له رطلاً من ••• » نعم ، رطلاً من ••• ولكن رطلاً مماذا ؟ نسيت الكلمة ••• ما اسم ذلك النوع ؟ هو شيء من تلك الأشياء التى يحبها الأطفال كثيراً ••• هوه ! كيف نسيت ؟ ••• كيف نسيت ؟ ••• (وحرّك الطبيب يديه أمام عينيه من جديد) ••• هو ينبت على الأشجار ، على الشجيرات فيقطف ويوزّع على الجميع •••

ـ من تفاح ، ربما ؟

ـ أوه ! لا ، لا ! رطلاً ، قلت رطلاً • التفاح يباع بالدسته لا بالرطل ••• عجيب !••• هو وافر جداً ، وهو صغير ••• تضعه فى فمك فتضغط عليه بأسنانك فيطق •••

ـ بندق ؟

ـ نعم ، بندق ، ذلك بعينه ما قلته أنا •••

كذلك وصل الطبيب العجوز قوله هذا بقوله السابق هادئاً كل الهدوء ، كأنه لم يبحث عن تلك الكلمة ، فتابع يقول :

ـ جئت الصبى برطل من البندق ، لأن أحداً لم يكن قد جاءه بشيء منه قبل ذلك • رفعت اصبعى وقلت له : « اسمع أيها الصبى الصغير العزيز ، باسم الاله الأب ••• » فضحك وردّد : « باسم الاله الأب » ، فقلت : « باسم الاله الأب ، باسم الاله الابن » ، فردّد ضاحكاً مزقزقاً من جديد : « باسم الاله الأب ، باسم الاله الابن » ، فقلت :

« باسم الاله الابن ، باسم الاله روح القـدس » ، فضحك وطفق يردد عدة مرات « باسم الاله روح القدس » ★ • ثم انصرفت • ومررت قرب الصبى غداة غدٍ • فصرخ يقـول : « سـيدى ! باسم الاله الأب ، باسم الاله الابن ! » ولكنـه نسى روح القـدس • فذكرته بها ، ورثيت لحاله وأشـفقت عليه من جديد • ولكنهم نقلوه من هذه المدينـة فلم أره بعد ذلك • وانقضت ثلاثة وعشرون عاماً ، ففيما أنا فى عيادتى ذات صباح ، وكان شعرى قد ابيضّ ، اذا بى أرى شاباً مزهر الوجه زاهى المحيا يدخل علىّ • ما كان لى أن أعرف من هو هذا الشاب • وها هو ذا يرفع يده ويقول : « باسم الاله الأب ، باسم الاله الابن ، باسم الاله روح القدس • لقد وصلت الى هذه المدينة منذ قليل ، وأحب أن أشكر لك رطل البندق الذى أهديته الىّ فى الماضى • ما كان أحدٌ قد أهدى الىّ شيئاً منه قبلئذٍ • أنت وحدك أهديت الى رطلاً من بندق » • تذكرت عندئذ شبابى الغابر السعيد ، وتذكرت الصبى الصغير الذى كان يجرى فى فنـاء الدار حافى القدمين • وتأثر قلبى فقلت له : « أنت شاب نبيل النفس كريم القلب ، لأنك لم تنس رطل البندق الذى جئتـك به فى طفولتك » • وقبّلته ، وباركته باكيـاً • فكان يضحك ، ويبكى أيضـاً ••• ان الروس كثيراً ما يضحكون حيث يحسن البكاء • ولكنـه بكى ، أنا متـأكد من ذلك ، رأيته يبكى • والآن ••• واحسرتاه ! هو ذا •••

صاح ميتيا من مكانه يقول :

ـ والآن أبكى أيها الألمانى الشهم ! نعم أبكى••• أنت انسان شهم•

مهما يكن من أمر ، فان هذه القصة الصغيرة قد أحدثت فى الحضور

أثراً طيباً . غير أن الأقوال التي أدلت بها كاترين ايفانوفنا والتي سأتحدث عنها بعد قليل ، هي التي خدمت قضية ميتيا خاصة . وفي وسعنا أن نقول على وجه العموم ان الحظ أخذ يبتسم فعلاً لميتيا منذ بدأ توافد شهود النفي ، لأسباب لم يكن يتوقعها المحامي نفسه ، وهذا ما يلفت النظر أكثر من أي شيء آخر . على أن أقوال أليوشا قد سُمعت قبل أقوال كاترين ايفانوفنا. وقد تذكر أليوشا على حين فجأة واقعة يبدو أنها يمكن أن تكون برهاناً وضعياً يفيد ميتيا ، ويدمّر نقطة من أهم النقاط التي يرتكز عليها الاتهام .

٤

الحظ يبتسم لميتيا

تغيّر الحظ كأنما بمصادفة ، دون أن يكون أليوشا قد سعى الى هذه النتيجة . لم يُحلَّف أليوشا اليمين . وانى لأتذكر أن الطرفين كليهما قد أحسنا استقباله وشعرا نحوه بعطف ومودة منذ الأقوال الاولى من شهادته . ولعل القارىء يدرك أن سمعة أليوشا الحسنة كانت قد سبقته الى قاعة المحكمة . تكلم أليوشا بلهجة فيها تواضع وتحفظ ، ولكن ما يشعر به نحو أخيه البائس من عاطفة حارة قد تدفق فى أقواله . قال فى الجواب عن سؤال ألقى عليه ان أخاه ان يكن عنيفاً شديد الاندفاع فى أهوائه ، فانه فى الوقت نفسه نبيل القلب كريم النفس سخى جواد قادر على التضحية حين تجب التضحية . ولكن أليوشا اعترف أن توله أخيه بغرام جروشنكا ، وتنافسه مع أبيه ، قد جعلاه فى الأيام الأخيرة صعب المراس ، ووضعاه فى حالة لا تطاق . وفى مقابل ذلك استاء أليوشا استياءً شديداً من الفكرة القائلة بأن أخاه يمكن أن يقتل بدافع الطمع فى المال ، ولكنه اعترف من جهة أخرى أن هذه الثلاثة آلاف روبل كانت قد ولّدت فى نفس ميتيا شيئاً يشبه أن يكون مساً ، فهو دائب التفكير فيها ، وهو يعدها جزءاً من ميراثه الذى حرمه أبوه منه زوراً واختلاساً ، وهو على كونه زاهداً فى الربح قليل الاهتمام بالمنفعة ، لا يستطيع أن

يتكلم فى أمر هذه الثلاثة آلاف روبل دون أن يستبد به حنق شديد وغضب ملتهب • أما التنافس الذى أشار اليه وكيل النيابة بين «المرأتين» ، أى بين جروشنكا وكاترين ايفانوفنا ، فقد تكلم عنه أليوشا متهرباً متملصاً ، ورفض أن يجيب عن بعض النقاط •

سأله وكيل النيابة :

ـ ألم يذكر لك أخوك ، على الأقل ، أنه كان ينوى أن يقتل أباه ؟

ثم أضاف :

ـ تستطيع الامتناع عن الاجابة اذا كنت تؤثر الامتناع •

قال أليوشا :

ـ لم يقل لى ذلك على نحو مباشر •

ـ أقاله اذن على نحو غير مباشر ؟ كيف قاله ؟

ـ حدّثنى عن الكره الذى يحمله لأبينا ، وعن خوفه من أنه قد لا يستطيع أن يمسك عن قتله ••• ذات يوم ••• فى لحظة اندفاع شديد ••• اذا استبد به تقزز لا سبيل الى التغلب عليه •

ـ هل صدّقته حين سمعته يقول هذا الكلام ؟

ـ لا أجرؤ أن اقول انى صدقته • ولكننى كنت دائم الاقتناع بأن عاطفة عليا ستنقذه فى اللحظة الحاسمة ، وقد انقذته فعلاً لأنه ليس هو الذى قتل أبى •

هكذا ختم أليوشا كلامه بصوت ثابت قوى ترجّع الى آخر القاعة •

ارتعش وكيل النيابة كحصان فى ساحة القتال سمع صوت البوق ؛ وقال :

ـ ثق اننى مقتنع بصدقك ، واننى لا أنسب اقتناعك هذا الى ما تشعر به نحو أخيك المسكين من حب • وقد اطلعنا من التحقيق الأولى على نظرتك الخاصة الى الأحداث المفجعة التى جرت فى أسرتك ؟ ولكننى لا أكتمك أن رأيك يبدو لنا غريباً الى أبعد حدود الغرابة ، وأنه يناقض جميع الشهادات الأخرى التى جمعها الاتهام • ذلك هو السبب فى اننى أرى من واجبى أن أطلب اليك ملحاً أن تذكر لنا الأساس الذى تبنى عليك رأيك حين تؤكد باقتناع جازم أن أخاك برىء ، وحين تسند هذه الجريمة الى شخص آخر سبق لك أن أسميته على نحو غير مباشر فى التحقيق التمهيدى •

قال أليوشا بصوت هادىء عذب :

ـ فى التحقيق التمهيدى ، اقتصرتُ على الاجابة عن الأسئلة التى أُلقيت علىّ ، ولم أتهم سمردياكوف من تلقاء نفسى •

ـ ولكنك أسميته ، أليس كذلك ؟

ـ ذكرتُه مستنداً الى أقوال دمترى • لقد ذُكر لى ، قبل ذلك الاستجواب ، ما قد حدث عند اعتقال أخى ، وقيل لى ان أخى اتهم هو نفسه سمردياكوف حينذاك • اننى مقتنع اقتناعاً كاملاً ببراءة أخى • واذا لم يكن هو القاتل ، فقد لا يكون القاتل الا •••

ـ الا سمردياكوف ؟ لماذا سمردياكوف بالذات ؟ وما الذى يحملك على هذا الاقتناع كله ببراءة أخيك ؟

ـ لا أملك أن أشك فى صدق أقواله • أنا أعلم أنه لن يكذبنى بحال من الأحوال • ثم اننى رأيت فى عينيه أنه كان يقول الحقيقة •

ـ فى عينيه فقط ؟ أليس لديك براهين أخرى ؟

ـ ليس لدىّ براهين أخرى •

ـ وبالنسبة الى اتهام سمردياكوف ، أليس عندك من البراهين أيضاً الا أقوال أخيك وتعبير وجهه ؟

ـ لا ، ليس لدىّ براهين أخرى •

هنا عدل وكيل النيابة عن الاستمرار فى استجواب أليوشا • وقد أثارت أجوبة أليوشا كثيراً من خيبة الأمل لدى الجمهور • كان الناس فى مدينتنا قد تكلموا عن سمردياكوف كثيراً قبل المحاكمة • وكان هناك أشخاص ممن يزعمون الاطلاع على خفايا الأمور ، قد ألقوا فى روع الناس أن أليوشا جمع أدلة قوية كل القوة تقرر براءة أخيه وتثبت أن الخادم هو الجانى • فاذا بكل شىء يتبدد الآن • ان أليوشا لم يأت بأى عنصر حاسم ، ولم يجىء الا باقتناع نفسى وهو أمر طبيعى عند أخى المتهم •

عندئذ جاء دور فيتوكوفتش لاستجواب الشاهد • بدأ المحامى بسؤال أليوشا متى حدثه المتهم عن كرهه أباه وعن شعوره بأنه قد يقتله ، وهل أفضى اليه بهذه المسارات أثناء اقائهما الأخير قبل وقوع المأساة ؟•

وفيما كان أليوشا يجيب عن هذا السؤال ، اذا هو يرتعش فجأة كأنه تذكر شيئاً ما فى تلك اللحظة نفسها •

وأخذ يقص بكثير من الحرارة والانتعاش ، كأن فكرة مفاجئة قد ومضت فى ذهنه ، كيف أن أخاه ، أثناء آخر لقاء له معه على طريق الدير قرب شجرة فى المساء ، قد لطم صدره عدة مرات ، قد لطم «أعلى صدره» عدة مرات ، مردداً بالحاح أنه يملك الوسيلة لاسترداد شرفه ؟ وأن هذه الوسيلة موجودة هنا ، فى هذا الموضع ، على الصدر ••• « ظننتُ عندئذ أنه حين لطم صدره على ذلك النحو كان يشير الى قلبه » • قدّرت أنه كان يرى أن قلبه يملك من القوة ما يكفيه لاتقاء عارٍ رهيب يهدده ،

عار لا يجسرؤ أن يعترف لى به • أعترف أننى افترضت أنه كان يلمع الى أبيه ويلطم صدره لشعوره بالخجل والخزى من أنه اندفع يعامل أباه بالعنف • ولكننى أتذكر الآن أنه انما كان يشير الى شيء ما على صدره ، حتى اننى خطر ببالى فى تلك اللحظة أن القلب ليس هذا موضعه ، فانما يوجد القلب تحت ذلك ، وهو يلطم من صدره موضعاً أعلى كثيراً من موضع القلب ؛ كان يلطم هنا ، تحت العنق ، ويظل يشير الى ذلك الموضع نفسه دائماً • لقد بدا لى هذا غباء حينذاك فلم أعبأ به ، ولكننى أتساءل الآن فجأة ألم يكن يشير لى الى الكيس الصغير الذى خاطه على الألف وخمسمائة روبل ؟ ••• »

صاح ميتيا من مكانه يقول :

ـ هو ذاك تماماً ! لقد حزرت يا أليوشا • هو ذاك • كنت ألطم الكيس الصغير فى تلك اللحظة •

أسرع فيتوكوفتش يهدىء ميتيا متوسلاً اليه أن يسكن ويطمئن ؛ ثم التفت نحو أليوشا يتابع الاستماع الى شهادته متشبثاً بها تشبثاً قوياً •

تحمس أليوشا لذكراه هذه ، فعرض فكرته بحرارة ، قائلاً ان العار الذى حدثه عنه ميتيا ربما كان قوامه أن ميتيا ، رغم أنه يملك الألف وخمسمائة روبل ، أى نصف المبلغ الذى يدين به لكاترين ايفانوفنا ، ورغم أن فى وسعه أن يرد اليها هذا الجزء من دينها عليه ، قد آثر أن لا يرد المبلغ ، وذلك ليستخدمه فى غرض آخر هو أن يملك ما يمكنه من الرحيل مع جروشنكا متى وافقت جروشنكا على أن تتبعه •

وصاح أليوشا يقول بحماسة شديدة :

ـ نعم نعم ، هو ذاك ، هو ذاك . لقد ذكر لى أخى فى ذلك المساء أن فى وسعه أن يتخلص من نصف ذلك العار ، نعم من نصفه ، نصفه ، لقد قال لى ذلك (ردّد أليوشا كلمة « نصفه » مراراً) ، ولكن ضعف ارادته يمنعه من الاقدام ... كان يعلم مقدما أنه لن يستطيع الاقدام ، أنه لا يملك القوة اللازمة لذلك !

سأله فيتوكوفتش بنهم :

ـ أنت تتذكر تذكراً واضحاً جلياً أنه لطم من صدره ذلك الموضع بعينه تماماً ؟

ـ أتذكر ذلك تذكراً واضحاً جلياً ، لأننى تساءلت عندئذ : « لماذا يلطم من صدره ذلك الموضع العالى مع ان القلب يقع تحت هذا الموضع ؟ » . وأتذكر أن هذا التساؤل بدا لى غبياً ... أتذكر ذلك تذكرا واضحا جداً . كان هذا خاطرا خاطفاً ومض فى ذهنى ومضا . وبسبب ذلك التساؤل انما تذكرت الآن هذه الواقعة . واننى لأتساءل كيف أمكن أن أنساها حتى الآن ؟ واضح أنه كان يشير عندئذ الى الكيس الصغير برهاناً على أن فى وسعه أن يردّ الألف وخمسمائة روبل ، ولكنه لن يفعل . وبعد ذلك ، حين قُبض عليه فى موكرويه ، صرخ يقول ـ أنا أعلم هذا فقد ذُكر لى ـ صرخ يقول انه يرى أن أكبر عار فى حياته هو أنه رغم أنه كان يملك القدرة على أن يردّ الى كاترين ايفانوفنا نصف دينها (نعم ، ذكر كلمة النصف) ،فلا يكون فى نظرها بعد ذلك لصاً ، لم يعزم أمره على ردّ المبلغ ، مؤثراً أن يُعدّ لصاً فى نظرها على أن يتنازل عن المال . ومع ذلك ما أشد ما كان يعذبه هذا المال ! أوه ! ما أشدّ ما كان يعذبه !

بهذا ختم أليوشا كلامه .

وقد تدخل وكيل النيابة طبعاً ، فرجا أليوشا أن يصف المشهد ثانيةً وألحّ مراراً كثيرة من أجل أن يعرف هل صحيح أن المتهم كان يبدو مشيراً الى شيء موجود على صدره حين لطم صدره . لعله كان لا يزيد على أن يضرب صدره بقبضة يده غضباً ؟

هتف أليوشا يقول :

ـ لا ، لا ، انه لم يضرب صدره بقبضة يده . وانما كان يشير الى الموضـع بأصابعه ، بأصابعه ، وكان يريني الموضـع ، هنا ، فوق ، عالياً جداً ... كيف أمكن أن أنسى هـذا ، وأن لا أتذكره الا في هـذه اللحظة ؟

عندئذ سـأل الرئيس ميتيـا هـل لديه ملاحظات يبديهـا في أمر هذه الشهادة ، فأكد ميتيا أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً ، وأنه قد أشار بيده الى الألف وخمسمائة روبل التي كان يحملها معلقةً في صدره ، تحت الرقبة بقليل . وصرحّ بأن هذا كان في نظره هو العار . وهتف يقول : « ذلك عار لا يخطر ببالي أن أنكره ، فهو أحقر عمل قمت به في حياتي ! كان في امكاني أن أردّ المال ، ولكنني لم أفعل ، آثرت أن تعدني لصاً ، ولم أرجع المال . وأحقر ما في الأمر أنني أعلم مقدماً أنني لن أردّ المال . صدق أليوشا . شكراً يا أليوشا ! » .

هنا انتهى اسـتجواب أليوشا . ان أهمّ وأبلغ عنصر في شـهادة أليوشا هو أنه اكْتشفت أخيراً واقعة يمكن أن تكون ولو شبه برهان ، ولو بداية برهان على صـدق حكاية ذلك الكيس والألف وخمسـمائة روبل التي يضمها . فمن المحتمل اذن أن لا يكون ميتيا قد كذب أثناء

التحقيق الأولى حين صرخ ، فى موكرويه ، أن هذه الألف وخمسمائة روبل « هى له » .

شعر أليوشا بسعادة . ومضى يجلس فى المكان الذى دُلَّ عليه وقد احمر وجهه من الانفعال ، ولبث بضع دقائق يدمدم بصوت خافت : « كيف أمكن أن أنسى هذه الواقعة ؟ كيف أمكن أن تخرج من رأسى ؟ ما أغرب أن لا أتذكرها الا الآن ! » .

ودُعيت كاترين ايفانوفنا الى الادلاء بشهادتها بعد أليوشا . فلما ظهرت فى القاعة اجتاح الحضور انفعالٌ قوى . فالسيدات وجهن نحوها نظاراتهن ، والرجال اضطربوا فى أماكنهم ؛ ونهض بعض الحضور ليحسنوا النظر اليها ، وليجيدوا رؤيتها . وقد رُوى فيما بعد أن ميتيا امتقع لونه فى تلك اللحظة فجأة ، وشحب شحوباً شديداً .

كانت ملابس كاترين ايفانوفنا سوداء كلها ؛ وتقدمت الى المكان الذى دُلَّت عليه ، تقدمت بتواضع وبما يشبه الخجل . ظلت قسمات وجهها هادئة ساكنة ، فلا شىء مما تشعر به قد ظهر للعيان . غير أن عزيمةً لا تنثنى كانت تسطع فى عينيها الدكناوين المهيبتين . وقد أكدَّ أشخاص كثيرون فيما بعد أنها كانت جميلة جمالاً خاصاً فى تلك اللحظة . كانت تتكلم بصوت خافت ، ولكنه صوت واضح متميز ، فكان الناس يسمعونها فى آخر القاعة . وكانت تتحدث هادئة ، أو كانت على الأقل تحاول أن تظل هادئة . استجوبها الرئيس بكثير من التأنى وأظهر لها كثيراً من المداراة ، كأنه كان يخشى أن يمس « أوتاراً معينة » ، ويريد أن يبرهن على احترامه لتعاسة شديدة ، وبلية كبيرة . ولكن كاترين ايفانوفنا أسرعت تؤكد بقوة ، منذ البداية ، جواباً عن سؤال أُلقى عليها ، أنها كانت خطيبة المتهم « الى اللحظة التى هجرنى فيها

من تلقاء نفسه » (كذلك أضافت تقول) • فلما سئلت عن الثلاثة آلاف روبل التى عهدت الى ميتيا أن يرسلها الى قريباتها بالبريد ، أجابت بحزم وثبات قائلة : « أنا لم أطلب منه أن يرسل هذا المبلغ فورا • لقد أدركت أنه كان فى حاجة ماسة الى المال ••• فى ذلك الأوان ••• فأعطيته تلك الثلاثة آلاف روبل ورجوته أن يرسلها فى غضون شهر اذا شاء • ولقد أخطأ اذن حين عذّب نفسه ذلك التعذيب كله بسبب هذا المبلغ ••• » •

لن أنقل بالتفصيل جميع الأسـئلة التى أُلقيت عليها ، وجميع الأجوبة التى أجابت بها ، وانما سأقتصر على اجمال الأمور الأساسية فى شهادتها • واصلت كاترين ايفانوفنا كلامها فقالت :

ـ كنت مقتنعةً اقتناعاً جازماً بأنه سيرسل هذه الثلاثة آلاف روبل متى حصل على هذا المبلغ من أبيه • أنا لم يساورنى أى شك فى نزاهته وأمانته يوماً ••• لم يساورنى أى شك فى شدة نزاهته وفرط أمانته•• فى شئون المال ••• لقد كان واثقاً ثقة مطلقة بأنه سيقبض من أبيه هذه الثـلاثة آلاف روبل ، وقد حدثنى فى ذلك مراراً وتـكراراً • كنت لا أجهل أن بينه وبين أبيه خلافات ونزاعات ، وكنت مقتنعةً وما أزال أن اباه قد حـرمه من حقـه • على أننى لا أذكر أنه نطق بأقوال يهدد فيها أباه • بحضورى على الأقل لم يتكلم بهذه الطريقة مرةً واحدة • اننى لم أسمعه يهدّد ويتوعد فى يوم من الأيام • ولو قد جاءنى فى تلك الآونة اذن لطمأنته فى شأن تلك الثلاثة آلاف روبل الشقية التى كان مديناً بها لى • ولكنه لم يعد الىّ منذ ذلك الحين ••• ورأيتنى أنا نفسى فى وضع لا يمكننى من أن أبادر الى استدعائه •

ثم أضافت تقول فجأةً وقد دوّت فى صوتها عندئذ نبرة قوية :

ـ ثم اننى ما كان يحق لى بحال من الأحوال أن أتشدد معه فى موضـوع هذا الدين • فأنا نفسى قد أخذت منه فى الماضى مبلغاً أكبر

كثيراً من تلك الثلاثة آلاف روبل ، وقد قبلت منه ذلك المبلغ عندئذ رغم اننى لم أكن أستطيع أن أتنبأ فى ذلك الحين أننى سأصبح فى يوم من الأيام قادرة على أن أردّه اليه ...

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وقد ألمت بصوتها نبرة حسرة وأسف ولوعة . وفى تلك اللحظة نفسها جاء دور فيتوكوفتش ليلقى أسئلته .

قال فيتوكوفتش بحذر المحامى ، وهو يوجس مقدماً الفائدة التى سيجنيها من هذه الشهادة :

ـ لم يحدث ذلك فى هذه المدينة ، اذا صدق فهمى ، وانما حدث فى بداية علاقاتكما ، أليس كذلك ؟ (يجب أن نذكر بين قوسين ما يلى : رغم أن المحامى قد استدعى من بطرسبرج بمبادرة كاترين ايفانوفنا تقريباً ، فلقد كان يجهل كل شىء عن مسألة الخمسة آلاف روبل التى أعطاها ميتيا للمرأة الشابة فى المدينة التى كانت ترابط فيها كتيبته ، وكان يجهل كل شىء عن « التحية الساجدة » التى حيّاها بها عندئذ . ان كاترين ايفانوفنا لم تحدث المحامى عن هذا الأمر ، واعتقدت أن من واجبها أن تخفى عنه تلك الوقائع حتى ذلك الحين . وقد يبدو هذا الكتمان من جهتها غريباً . ولكن من الممكن أن نقدّر مع ذلك أنها كانت هى نفسها تجهل حتى آخر دقيقة أتكشف للمحكمة عن وقائع تلك الفترة أم لا تكشف عنها ، وأنها كانت تنتظر نوعاً من الالهام أو ضرباً من الوحى لتعزم أمرها وتتخذ قرارها) .

لا ، لن أستطيع فى يوم من الأيام أن أنسى تلك اللحظات الطافحة بالتأثر ! لقد بدأت كاترين ايفانوفنا قصتها فكشفت عن كل شىء ، كشفت عن جميع التفاصيل التى أفضى بها ميتيا الى أخيه أليوشا بصدد « التحية الساجدة » ، والأسباب والدوافع التى قادت خطاها ، والحالة التى كان

عليها أبوها ، ومجيئها الى بيت ميتيا . ولكنها في مقابل ذلك ، لم تذكر أن ميتيا كان قد أوحى الى أختها بأن ترسل اليه كاترين ايفانوفنا لتأخذ المال . » . لم تقل عن هذا كلمةً واحدة ، وصمتت صمتاً كريماً عن سلوك ميتيا نحوها قبل ذلك . لم تخجل أن تؤكد أنها هى التى هرعت من تلقاء نفسها الى بيت ضابط شاب آملةً لا أدرى ماذا ... للحصول منه على مال . كانت تلك لحظات رهيبة . شعرتُ ببرد يسرى فى ظهرى وأخذت أرتعش وأنا أصغى الى كلام كاترين ايفانوفنا . وجمد جمهور الحضور على صمت مطبق وكأنه يشرب كل كلمة من كلماتها شرباً . كان فى وضع هذه المرأة الشـــابة شىء لا عهد لأحد بمثله من قبل ، فما من أحد يمكن أن يتوقع حتى من امرأة تبلغ هذا المبلغ من الكبرياء والتسـلط والازدراء ، أن تدلى بشـهادة فيها كل هذه الصراحة التامة الكاملة ، تضحيةً وفداءً . ولماذا تضحى بنفسها هذه التضحية ؟ فى سبيل من تضحى بنفسها هذه التضحية ؟ فى سبيل انقاذ رجلٍ خانها وأهانها ، فى سبيل أن تساهم فى انقاذه على قدر طاقتها الضعيفة ، وذلك بأن ترسم له صـورة جميلة تؤثر فى نفوس الناس تأثيراً حسناً . وذلك ما حدث فعلاً : فان الصورةَ التى رسمتها ، صورةَ ضابط يهب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التى يملكها – أى كل ما تبقى له من ثروة – يهبها لفتاة بريئة ثم ينحنى لها احتراماً الى درجة السجود ، أقول ان هذه الصورة قد أعجبت الجميـع وفتنتهم ! وقد أحسـست عندئذ أنها بذلك تعرّض نفسها للأقاويل والنمـائم ، وأن تخرصات كثيرة ستسعى بين النـاس فى حقها . وذلك ما حـدث كما لعلكم تتوقعون . فقـد أخذ أهل مدينتنا يومئون فى أحاديثهم بعد ذلك ، وهم يبتسمون ابتسامات ملأى بالغمزات الخبيثة ، الى أن القصة التى روتها المرأة الشـــابة لم تكن كاملة جداً ، ولا سيما فى الموضع الذى يتضمن أن الضابط تركها تنصرف « مكتفياً » –

فيما ادعت ــ بأن حيّاها ساجداً » • فأغلب الظن أنها « أسقطت » هنا جزءاً مما جرى • وقالت السيدات المحترمات فى مجتمع مدينتنا : « هبها لم تُسقط من القصة شيئاً ، هبها قالت الحقيقة كلها كاملة ، فان هذا لا يمنع من التساؤل : هل كان يليق حقاً بفتاة فيها حشمة وحياء أن تتصرف هذا التصرف وأن تسلك هذا السلوك ، ولو لانقاذ أبيها ؟ » • كيف يمكن أن يصدّق المرء أن كاترين ايفانوفنا ، بما لها من ذكاء حاد وبصيرة نفاذة ، لم تتنبأ بأن أقاويل من هذا القبيل ستسعى بين الناس فى حقها ؟ لا شك فى أنها تنبأت بذلك حتماً ، ومع ذلك قررت أن تقول كل شيء ! وطبيعى أن هذه الشكوك المسيئة المهينة لم تولد الا فيما بعد• أما أثناء ادلاء كاترين ايفانوفنا بشهادتها فان جميع الناس قد سيطر عليهم انفعال قوى حاد • فأعضاء المحكمة أصغوا الى كلام كاترين ايفانوفنا بصمت فيه احترام حتى لكأنهم خجلون • ووكيل النيابة لم يسمح لنفسه بالقاء أى سؤال فى هذا الشأن • وفيتوكوفتش اقتصر على أن انحنى لها انحناء شديداً • أوه ! انتصر المحامى ! ان هذه الشهادة رصيد كبير له : هل يتصور عقل أن الرجل الذى وهب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التى يملكها ، فى وثبة كريمة من قلبه ، هل يتصور عقل أن يكون من الممكن أن يقتل هذا الرجل أباه ، ليلاً ، فى سبيل أن يجرّده من ثلاثة آلاف روبل ؟ ان فى سلوك كهذا السلوك لتناقضاً لا سبيل الى فهمه • وأحسّ فيتوكوفتش أنه يستطيع بعد الآن أن يبعد تهمة السرقة فى أقل تقدير • لقد اكتست « القضية » وجهاً جديداً ، وظهر ميتيا على حين فجأة انساناً محبباً • أما عن سلوكه هو أثناء ادلاء كاترين ايفانوفنا من كلامها فقد هتف يسألها بصوت يخالجه نشيج وهو يمد نحوها ذراعيه :

ــ كاتيا ، لماذا سببت هلاكى ؟

ثم أخذ ينتحب انتحاباً قوياً جداً ، لكنه لم يلبث أن ثاب الى نفسه ، وصاح يقول :

ـ الآن ضعت !

ثم سكن جامداً ، كازاً أسنانه ، مصالباً ذراعيه على صدره . وطُلب من كاترين ايفانوفنا أن تبقى فى القاعة ، فجلست على الكرسى الذى عُيِّن لها . كانت شاحبة اللون غاضة طرفها . وقد روى الأشخاص الذين كانوا على مقربة منها أنها كانت ترتعد بكل جسمها ، كأن بها حمّى . واستُدعى الشاهد التالى ، جروشنكا .

اننى اقترب هنا من لحظة الكارثة التى سقطت على ميتيا فجأة ، وكانت سبب ضياعه فعلاً ، فيما يبدو . وأنا من جهتى مقتنع بأنه لولا ذلك الحادث الذى وقع ـ وذلك رأى يشاركنى فيه الجميع ، ويشاركنى فيه رجال القانون خاصةً ـ لكان من الممكن أن ينتفع بوجود ظروف مخفّفة على الأقل . سأعود الى ذكر هذا الحادث بعد قليل ، ولكن يجب أن أقول بضع كلمات عن شهادة جروشنكا أولاً .

لقد دخلت جروشنكا ، هى أيضاً ، بثياب سوداء ، واضعةً شالها الأسود الرائع على كتفيها . تقدمت الى المكان الذى يقف فيه الشاهد ماشيةً مشيتها الصامتة الرفيقة الهادئة ، مع شىء من ذلك الاهتزاز الذى نراه احياناً فى النساء البدينات بعض البدانة ، محدّقة الى الرئيس تحديقاً ثابتاً ، لا تنظر يمنةً ولا يسرة . فى رأيى أنها كانت فى تلك اللحظة جميلة جداً ، ولم تكن شاحبة اللون البتة ، كما زعمت ، فيما بعد ، السيدات اللواتى شهدن جلسة المحاكمة . وقد زُعم أيضاً أن وجهها كان فيه تقلص يعبر عن خبث وشر . ولكننى أميل الى الاعتقاد بأنها كانت تشعر بغيظ وغضب ، وتتألم من نظرات الاحتقار والفضول

التى كان يرشقها بها جمهور مدينتنا التواق الى الفضيحة. ان جروشنكا ذات شمم وكبرياء وأنفة ، فهى لا تطيق الاحتقار . وان فيها كذلك لخجلاً مع شعور خفى بالخزى من هذا الخجل فى الوقت نفسه ، فكان طبيعياً والحالة هذه أنها لم تتكلم بصوت واحد أثناء ادلائها بشهادتها ، وانما تكلمت بغضب تارة ، وباحتقار تارة أخرى ، مصطنعةً فى الحالتين لهجة خشنة قاسية ؟ ثم اذا هى بعد لحظة واحدة تتكلم بلهجة يدرك فيها المرء نبراتٍ صادقة من أسف وحسرة حين تتهم ذاتها وتأخذ تلقى اللوم على نفسها . كانت فى بعض الأحيان تتكلم كمن يسقط فى هوة ولا يبالى العواقب ، وكأنها تقول لنفسها : « ليكن ما يكون ! ليحدث ما يحدث ! فسأقولها ... » صرّحت تقول فيما يتعلق بصلاتها مع فيدور بافلوفتش ، صرّحت تقول بلهجة قاطعة : « هذه كلها سفاسف ! هل ذنبى أنا أنه تعلق بى ؟ » ثم ما انقضت على ذلك دقيقة واحدة حتى أخذت تقول : « أنا الآثمة ، أنا المسئولة عن كل شىء . لقد عبثت بهما كليهما ـ عبثت بالعجوز وعبثت بهذا ـ فدفعتهما بذلك دفعاً الى الكارثة . الذنب ذنبى أنا فى كل ما حدث . » ولما ذُكر اسم سامسونوف ، انطلقت تقول بلهجة متحدية تكاد تكون وقحة : « ليس لأحد أن يتدخل فى هذا . انه الرجل المحسن الىّ . لقد انتشلنى من وهدة البؤس حين طردنى أهلى » . فذكّرها الرئيس ، ولكن بلهجة مهذبة جداً ، بأن عليها أن تقتصر على الاجابة عن الأسئلة التى تلقى عليها دون الخوض فى تفاصيل لا داعى اليها . فاحمرت جروشنكا ، والتمعت عيناها .

صرحت جروشنكا بأنها لم تر الظرف والمال المودع فيه ، وانما هى علمت من ذلك « الوغد » أن فيدور بافلوفتش قد أعدّ لها ثلاثة آلاف روبل . ثم أضافت تقول :

ـ على أن هذه كلهـا سخافات ، لأنني لم أحمل الأمر على محمل الجد ، وما كان لى أن أذهب اليه بحال من الأحوال ، هذا مؤكد •••

سألها وكيل النيابة :

ـ من هذا الذى وصفته بأنه « وغد » ؟

فأجابت :

ـ هو ذلك الخادم ، هو ذلك السمردياكوف الذى قتل مولاه ، ثم شنق نفسه أمس •

طبيعى أنها سئلت فوراً عن الأساس الذى تبنى عليه رأيها حين تقرر اتهاماً واضحاً هذا الوضوح ، ولكن اتضح أنها هى أيضاً لا تستطيع أن تذكر أية واقعة محددة • قالت :

ـ دمترى فيدوروفتش نفسه هو الذى قال لى ذلك وليس عليكم الا أن تصدّقوه !

ثم أضافت تقول وهى ترتعد كرها وحقداً ، ويختلج فى صوتها شر وخبث :

ـ ان تلك المرأة هى التى ضيعته ، هذه هى الحقيقة كلها ! انها هى سبب كل شىء ، هى وحدها ! ذلكم واضح !

سئلت جروشنكا من جديد أن تعيّن الشخص الذى تعنيه بكلامها ، فقالت :

ـ أعنى الآنسة ، أعنى هذه الكاترين ايفانوفنا الحاضرة هنا ! لقد دعتنى الى منزلها ، وقدمت لى شوكولاته ، آملةً أن تغرينى وأن تفتننى • ليس فيها حياء ، هذه المرأة •••

تدخل الرئيس ليوقفها عن هذا الكلام ، وطلب منها بلهجة قاسية أن تراقب ألفاظها . ولكن قلب المرأة الشاب كان يغلي من الغيرة ، وكانت تشعر كأنها مستعدة لأن تمضي الى النهاية لا تخشى النتائج ولا تهاب العواقب ...

وتدخل وكيل النيابة فقال :

ـ حين قُبض على المتهم في قرية موكرويه ، فان الناس منذ هرعت مسرعةً من الغرفة المجاورة ، قد رأوك وسمعوك تصرخين قائلةً انك أنت سبب كل شيء وانك تريدين أن تصحبيه الى السجن . فهل يجب أن نستنتج من ذلك أنك كنت موقنةً منذ تلك اللحظة بأن المتهم قد قتل أباه ؟

فأجابت جروشنكا قائلة :

ـ لا أتذكر المشاعر التي اضطربت في نفسي حينذاك . كان جميع الناس يتهمونه في تلك اللحظة بأنه قتل أباه ، فأدركت أن الذنب ذنبي ، وأنه انما قتل أباه بسببي . ولكن حين أكدّ لي أنه بريء ، صدقته فوراً ، وما زلت أصدقه ، وسأظل أصدّقه الى الأبد ، لأنه ليس بالرجل الذي يكذب .

وجاء دور فيتوكوفتش ليلقي أسئلته .

أذكر أنه أشار عندئذ ، بين أمور أخرى ، الى حكاية راكيتين والمبلغ الذي أعطته اياه ، وهو خمسة وعشرون روبلاً ، مكافأةً له على أنه أتاها بألكسي فيدوروفتش كارامازوف الى منزلها . فقالت جروشنكا وهي تضحك ضحكة صغيرة خبيثة فيها ازدراء واحتقار :

ـ لا عجب أن أخذ المبلغ . لقد كان يجيء اليّ دائماً ليستعطيني بعض المال ، وكان يسحب مني بهذه الطريقة حوالي ثلاثين روبلاً

فى الشهر ينفقها على سلياته خاصة ، لأن المأوى والطعام كانا مؤمنين له.
سألها فيتوكوفتش ، غير عابىء بالرئيس الذى أخذ يتحرك ويضطرب :

ـ ما هو السبب الذى جعلك سخية ذلك السخاء كله مع السيد راكيتين ؟

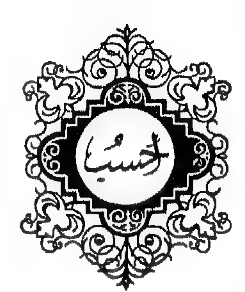
ـ السبب بسيط ، هو أن راكيتين ابن خالتى . أمى وأمه اختان. صحيح أنه رجانى أن لا أقول هنا كلمة واحدة عن هذه القرابة ، اذ يبدو أنه يشعر بعار كبير من كونه يمت الى بقربى !

بوغت الجميع بهذه الواقعة الجديدة ودهشوا منها ، لأنها كانت مجهولة فى مدينتنا حتى ذلك الحين ، وكانت مجهولة حتى فى الدير . وكان ميتيا نفسه لا يعرفها . وقد ادعى بعضهم أن راكيتين قد احمر احمراراً شديداً على كرسيه حينذاك . وكانت جروشنكا قد علمت ، قبل دخولها الى القاعة ، أن راكيتين أدلى بشهادة تسىء الى ميتيا ، فأغضبها ذلك وأحنقها . وها هو ذا الخطاب الجميل الذى كان قد ألقاه راكيتين مفيضاً فى كلام نبيل ، ثائراً على نظام القنانة ، منتقداً لما يسيطر على روسيا من فوضى ، ها هو ذا الخطاب يتحطم تحطماً لا قيام له بعده ، فلا يبقى منه فى أذهان الحضور أى أثر . وغبط فيتوكوفتش نفسه : لقد أسعفته السماء . ولم يطل استجواب جروشنكا كثيراً على وجه الاجمال ، لا سيما وأنها لم تجىء بمعلومات جديدة كثيرة . وقد تركت شهادتها فى النفوس أثراً هو الى السوء أقرب منه الى الحسن . وتابعتها مئات نظرات الاحتقار حين انتهت من الادلاء بشهادتها. فمضت تجلس فى القاعة بعيداً عن كاترين ايفانوفنا . وفى أثناء استجوابها كان ميتيا صامتاً كأنه متجمد ، وكان غاضاً بصره ، مطرقاً بعينيه الى الأرض .

واستدعى الشاهد التالى : ايفان فيدوروفتش .

٥

نازلة مباغتة



أن من المفيد أن أذكر أنه كان قد استدعى مرة قبل أليوشا . غير أن حاجب المحكمة جاء يبلغ الرئيس أن الشاهد لا يستطيع أن يمثل أمام المحكمة الآن ، وذلك بسبب وعكة أو نوبة مباغتة ، وانه مستعد للمثول متى أريد له أن يمثل بعد أن تتحسن حالته . ولم ينتبه أحد الى هذا الأمر ، ولم يعلم به أحد الا فيما بعد . ولم يكن الحضور ، على كل حال ، يولون ظهور هذا الشاهد اهتماماً كبيراً ، فان الأشخاص الرئيسيين فى هذه الدرامة ، ولا سيما المرأتين المتنافستين ، كانت قد سُمعت أقوالهم ، فارتوى فضول الناس بذلك الى حين . حتى لقد لوحظ شيء من التعب أصاب الجمهور . وما تزال هنالك عدة شهادات يجب سماعها ، لكنها شهادات لا يمكن أن تأتى بأشياء جديدة كثيرة ، لأن الأمور الأساسية قد قيلت . وكان الوقت يمضى .

اقترب ايفان بخطى بطيئة بطئاً غريباً ، دون أن ينظر الى أحد ، غاضاً بصره مطرقاً الى الأرض ، كأنه يبذل جهوداً شاقة فى سبيل أن يجمع شتات أفكاره . كان ملبسه سليماً لا مأخذ عليه ، ولكن تعبير وجهه قد أحدث فى النفوس أثراً أليماً ، أو أحدث هذا الشعور الأليم فى نفسى

أنا على كل حال : كان وجهــه يبـدو بلون التراب كأنه وجه انســان يُحتضر . وكانت نظرته زائغــة تائهة مضطربة . رفع عينيــه ، وأجال بصره فى القاعة ببطء . انتفض أليوشا ، وأنَّ أنةً صغيرة . اننى اتذكر هذا تذكراً واضحاً ، رغم أن أحداً لم يكد ينتبه اليه .

بدأ الرئيس بأن قال له انه لن يُحلّف اليمين ، وان فى وسعه أن يتكلم أو أن يسكت ، على ما يحب ، وانما ينبغى له أن يقتصر طبعاً على ذكر الحقيقة وحدها فيما يقول ، الخ . فكان ايفـان يصغى محـدقاً اليه بنظرة غامضة مبهمــة . غير أن قســمات وجهه افترت عن ابتســامة شيئاً بعد شىء ، فما ان فرغ الرئيس الذى كان يراقبه مدهوشــاً ، ما ان فرغ الرئيس من كلامه ، حتى انفجر ايفـان ضاحكاً مقهقهاً ، وقال للرئيس سائلاً بصوت رنان :

ـ وماذا أيضاً ؟

خيمَّ على القاعة صمت مطبق ، وأحس الناس بأن درامة ستقع . واضطرب الرئيس . وسأله وهو يبحث بعينيه عن الحاجب :

ـ أتراك ما تزال مريضاً ؟

فأجابه ايفان بصوت هادىء فيه احترام وتوقير :

ـ اطمئن يا صاحب السعادة ، فاننى بخير تماماً ، واننى قادر على أن أذكر لكم أشياء هامة .

فعاد الرئيس يسأله وهو ما يزال فى شك من أمره :

ـ أعندك أشياء هامة تريد أن تنقلها الينا ؟

فخفض ايفان فيدوروفتش عينيــه ، وانتظر بضع ثوان ، ثم رفع رأسه وأجاب فى تردد :

ـ لا ... لا شىء ، ليس عندى شىء خاص يمكن أن أذكره لكم.

وألقيت عليه أسئلة ، فكان يجيب عنها على مضض ، مقتضباً اقتضاباً مخلاً ، متضايقاً تضايقاً ما ينفك يزداد • ولكن اجاباته كانت متزنة معقولة • وأعلن عدة مرات أنه لا يعرف شيئاً عما يُسأل عنه • من ذلك أنه قال انه يجهل كل شيء عن تصفية الحساب بين أبيه ودمترى • وأضاف يقول : « وكان ذلك لا يهمنى على كل حال » • واعترف بأنه سمع المتهم يهدد بقتل أبيه • أما الظرف الذى كان يضم المال فانما علم بوجوده من سمردياكوف •

وصاح ايفان يقول فى ملل وضجر وسأم :

ــ لا جديد ••• ليس لدىّ شيء خاص أقوله لكم •

وبدأ الرئيس يتكلم فقال :

ــ أنا أدرك أنك مريض ، وأفهم أن •••

ثم اتجه الى وكيل النيابة والمحامى يدعوهما الى استجواب الشاهد اذا كانا يريان فى ذلك فائدة •

فاذا بايفان يتضرع على حين فجأة قائلاً بصوت منطفىء :

ــ اسمح لى بالانصراف يا صاحب السعادة ، فاننى أشعر بضعف شديد •

وما ان قال هذه الكلمات حتى استدار على عقبيه دون أن ينتظر أن يؤذن له بالانصراف ، واتجه نحو باب الخروج • ولكنه لم يسر بضع خطوات حتى توقف كأنه يفكر فى شيء ما ، وابتسم صامتاً ، وعاد الى حيث كان من مكان الشهود ، وقال :

ــ أنا يا صاحب السعادة شبيه بتلك الفلاحة الشابة التى كانت ••• كما تعلمون••• تقول : « ان شئت ذهبت ، وان شئت لم اذهب » • كانوا

قد جاءوها بثوب الزفاف ليقـودوها الى الهيكل ، ولكنها كانت تردد بغير انقطاع : « ان شئت ذهبت ، وان شئت لم أذهب • » •

هذا مشهد من مسرحية هزلية شعبية •

قاطعه الرئيس قائلاً بلهجة قاسية :

ـ ما الذى تريد أن تخلص اليه من هذا الكلام ؟

فأجاب ايفان فيدوروفتش وهو يسل من جيبه حزمة الأوراق المالية فجأة :

ـ ما الذى أريد أن أخلص اليه ؟ اليك ما الذى أريد أن أخلص اليه •••• ان هذا المال هو الذى كان موجوداً فى هذا الظرف (وأومأ الى المائدة التى جُمعت عليها وثائق الاتهام) ، والذى بسببه قُتل أبى • أين تريدون أن أضعه ؟ ياسيدى حاجب المحكمة ، انقل هذا المال الى من يجب نقله اليه •

تناول الحاجب حزمة الأوراق المالية ومدّها الى الرئيس •

سأله الرئيس مدهوشاً :

ـ كيف وُجد هذا المال معك ؟ أهو ذلك المبلغ نفسه فعلاً ؟•••

ـ أخذته أمس من سمردياكوف ، من القاتل • زرته قبل انتحاره ببرهة قصيرة • انه هو الذى قتل أبى • ليس أخى القاتل • سمردياكوف هو الذى قتل ، وأنا الذى حرضته على ذلك ودفعته اليه • من ذا الذى لا يتمنى موت أبيه ؟

صاح الرئيس يقول على غير ارادة منه :

ـ أأنت تملك عقلك كاملاً ؟

ـ المصيبة كلها هى اننى أملك عقلى كاملاً ••• وهو عقل قذر من جهة أخرى ، لا يقل قذارةً عن عقولكم أنتم وعن عقول جميع هؤلاء الأغبياء البلهاء •••

قال ذلك وهو يلتفت فجأة نحو الجمهور • وأضاف يقول صارفاً بأسنانه معبراً عن احتقار مبغضٍ كاره :

ـ هم جميعاً قتلوا آباءهم ، ثم يتظاهرون بالهول والروع ! انهم يمثّلون أيها السادة ، يضحك بعضهم على بعض ••• كاذبون ! انهم جميعاً يتمنون موت آبائهم • السراطين يأكل بعضها بعضاً • اذا لم يوجد أناس يقتلون آباءهم ، ساءهم ذلك وخرجوا غاضبين ••• انهم فى حاجة الى مشهد يتسلون بالنظر اليه ! خبزاً ومشاهد سيرك * • ولست أنا خيراً منهم على كل حال • هل عندكم ماء ؟ اسقونى ماء ناشدتكم الله !

كذلك صاح وهو يمسك رأسه بيديه •

أسرع الحاجب يقترب منه • ووثب أليوشا من مكانه صائحاً :

ـ انه مريض ، لا تصدّقوه ، انه مصاب بنوبة حمى حارة !

وانتصبت كاترين ايفانوفنا واقفةً وقد جمّدها الخوف ، وحدّقت الى ايفان فيدوروفتش • ونهض ميتيا أيضاً ، فتأمل أخاه وهو يبتسم ابتسامة أليمة بينما كان يصغى اليه فى نهم وشراهة •

واستأنف ايفان كلامه فقال :

ـ اطمئنوا • ما أنا بمجنون • أنا قاتل فحسب •

ثم أضاف يقول لا يدرى أحد لماذا :

ـ ليس يُسأل قاتل أن يكون فصيحاً •

وضحك مقهقهاً ساخراً •

مال وكيل النيابة على الرئيس مضطرباً اضطراباً واضحاً ؟ واضطرب سائر أعضاء المحكمة وأخذوا يتهامسون • كان فيتوكوفتش يصغى بانتباه شديد • وصمت الجمهور ينتظر متجمداً • وبدا على الرئيس فجأة أنه ثاب الى نفسه واسترد ثبات جنانه ، فقال :

ـ أيها الشاهد • ان أقوالك غير مفهومة وغير مقبولة فى هذا المكان• هدىء روعك اذا استطعت ، وقل لنا هل لديك شيء تريد أن تذكره فعلاً ••• قل لنا ما هى الأدلة التى تقيم عليها مثل هذا الاعتراف ••• اذا كنت لا تهذى فحسب !

ـ ليس عندى شهود • ان ذلك الكلب سمردياكوف لن يرسل اليكم اعترافه من السماء ••• فى ظرف • وأنتم لا بد لكم دائماً من ظروف • فلو أرسل اليكم سمردياكوف ظرفاً لكان هذا الظرف كافياً • لا ، ليس عندى شهود •

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة واجمة :

ـ اللهم الا شاهداً واحداً •

ـ من هو هذا الشاهد ؟

ـ ان له ذيلاً يا صاحب السعادة ، وليس يتفق والنظام أن تُسمع شهادته هنا • الشيطان لا وجود له البتة !

وواصل ايفان كلامه ، دون أن يضحك فى هذه المرة ، وانما هو يصطنع لهجة المسارّة والنجوى :

ـ لا تلقوا اليه بالاً ، انه شيطان تعيس حقير• لا شك فى أنه مختبىء بمكان ما هنا ، ربما تحت مائدة وثائق الاثبات • أين عساه يختبىء ان لم يختبىء هناك • اسمعوا ، اصغوا الىّ : لقد قلت له اننى لن أستطيع أن أسكت ، وكان هو لا ينفك يحدثنى عن ذلك التحول الجيولوجى •••

سخافات ! هيه ! ماذا تنتظرون لتفكوا أسر المسخ الأشوه ولتطلقوا سراحه ؟ ... لقد غنى نشيده لأنه كان فرح القلب ! هو مثل ذلك الوغد السكران وأغنيته عن فانيا المسافر الى بيتر ! أنا من جهتي مستعد لأن أهب كادريوناً من الكادريونات في سبيل ثانيتين من فرح ! أوه ! انكم لا تعرفونني ! ما أغبى هذا كله ! خذوني أنا بدلاً عنه ! لا بد أنني جئت لأمر ما ... لماذا ، لماذا كل هذا الغباء ؟ ...

وأجال ايفان على القاعة نظرة بطيئة ، وهو واجم مفكر . اضطرب جميع الناس . اندفع أليوشا نحو أخيه ، ولكن الحاجب كان قد أمسك ايفان من ذراعه .

صرخ ايفان وهو يتفرس في الحاجب :

ـ ما هذا أيضاً ؟

ثم قبض على كتفيه فجأة ، ورماه على أرض القاعة .

هرع الحرس وسيطروا على ايفان . فأطلق عندئذ من صدره عويلاً حاداً ، وظل يعول هذا الاعوال راشقاً عبارات مفككة ، بينما كان يُقاد الى خارج القاعة .

نشب اضطراب شديد ، وقامت بلبلة كبرى . لا أتذكر جميع التفاصيل ، لانني كنت أنا نفسي منفعلاً أشد الانفعال في تلك اللحظة ، فلا أستطيع لهذا السبب أن أحسن الرصد والملاحظة. لكنني أعلم أنه حين عاد النظام الى نصابه ، قُرِّع الحاجب تقريعاً قاسياً ، رغم أنه أفاض في الشرح قائلاً ان الشاهد لم تظهر عليه قبل ذلك أية علامة من علامات المرض ، وان الطبيب الذي فحصه منذ ساعة حين أصيب بوعكة خفيفة قد وجده سليماً معافى . وأضاف الحاجب يقول : ثم انه كان حتى لحظة دخوله قاعة المحكمة يقول كلاماً معقولاً ، فما كان يمكن التنبؤ بما حدث له .

هذا الى أنه كان يحرص هو نفسه أشد الحرص على أن يدلى بشهادته ، وكان يريد المثول أمام المحكمة مهما يكلف الأمر •

ولم يكن الانفعال الذى أثاره هذا المشهد في النفوس قد تبدد تماماً ، حين حدث حادث أليم آخر • لقد أصيبت كاترين ايفانوفنا بنوبة عصبية ، فأخذت تنشج نشيجاً قوياً ، وتطلق صرخات حادة ، ولكنها رفضت أن تنصرف ، وظلت تتخبط ضارعةً متوسلة أن لا يبعدوها • ثم صرخت تقول للرئيس فجأة :

ـ عندى تصريح آخر أريد أن أفضى به • يجب عليّ أن أذكر الحقيقة فوراً ••• فوراً ! اليكم هذه الورقة ، انها رسالة ••• خذوها فاقرأوها ، بسرعة ! هى رسالة أرسلها الىّ هذا الانسان الأشوه ، هذا ، نعم ، هذا (وأومأت الى ميتيا) • انه هو الذى قتل أباه ، سترون ، لقد ذكر لى ذلك كتابةً • كتب الىّ أنه سيقتل أباه ! أما الآخر فهو مريض ، مريض ، انه مصاب بحمى حارة ! لاحظت منذ ثلاثة أيام أنه مريض •

كانت تصرخ وهى نهب اضطراب شديد • تناول الحاجب الرسالة ومدّها الى الرئيس • وتهاوت كاترين ايفانوفنا على كرسيها وهى تغطى وجهها بيديها ويهزها بكاء تشنجى صامت • وكانت تحاول مع ذلك أن تخنق نشيجها مخافة أن تُطرد من قاعة المحكمة • ان الورقة التى تناولها الحاجب من كاترين ايفانوفنا هى بعينها الرسالة التى كتبها ميتيا فى كاباريه « العاصمة الكبرى » ، والتى كان يصفها ايفان فيدوروفتش بأنها برهان رياضى على الجريمة • واحسرتاه ! لقد عُدّت هذه الرسالة برهاناً له قوة اليقين الرياضى فعلاً ، فلولا هذه الرسالة الشقية لكان من الجائز جداً أن لا يضيع ميتيا ، أو أن لا تكون نهايته تلك النهاية البائسة كل البؤس على الأقل • أعود فأقول : لقد كان من الصعب على المرء أن يلاحظ كل شيء تفصيلاً ، وما تزال ذكرياتى الى الآن تختلط فى شعورٍ بفوضى شاملة•

لعل الرئيس قد أطلع المحكمة ووكيل النيابة والمحامي والمحلفين على تلك الرسالة فوراً • لا أدرى • ولكننى أتذكر أن كاترين ايفانوفنا قد أعيد استجوابها • سألها الرئيس فى رفق ولطف أهى تشعر بأنها هادئة هدوءاً كافياً لتستطيع الاجابة ، فهتفت تقول بقوة :

ـ أنا مستعدة ، مستعدة كل الاستعداد •

وأضافت وهى تخشى خشية رهيبة ، فيما يبدو ، أن يرفضوا الاستماع اليها :

ـ أنا قادرة على الاجابة كل القدرة ، كل القدرة !

سئلت أن تشرح بالتفصيل أمر هذه الرسالة وظروف وصولها اليها• فقالت :

ـ وصلتنى عشية وقوع الجريمة ، وقد كتبها هو فى اليوم السابق ، أى قبل ارتكابه الجريمة بيومين • انظروا : ان هذه الرسالة مكتوبة على ورقة هى نوع من فاتورة حساب (كذلك صاحت تقول لاهثة) • كان يكرهنى فى تلك الآونة ، لأنه اقترف عملاً حقيراً وتعلق بتلك المخلوقة ••• ولأنه كان مديناً لى بتلك الثلاثة آلاف روبل أيضاً ••• أوه ! كان يتعذب بسبب ذلك المبلغ ، لأنه كان يدرك حطته ودناءته ! أما عن تلك الثلاثة آلاف روبل ، فاليكم كيف جرت الأمور • أرجوكم أن تستمعوا الىّ ، أضرع اليكم أن تستمعوا الىّ : قبل وقوع جريمة القتل بثلاثة أسابيع جاء الىّ فى ذات صباح • كنت أعلم أنه فى حاجة الى مال ، وكنت لا أجهل سرّ حاجته الى المال • كان يريد ، نعم ، كان يريد أن يغرى هذه المخلوقة وأن يرحل بها • وكنت أعلم منذ ذلك الحين أنه قد خاننى وأنه يفكر فى تركى • وعندئذ قدمت له ذلك المبلغ من تلقاء نفسى • أعطيته ذلك المبلغ بحجة أننى أريد منه أن يرسله الى أختى فى موسكو•

وحين سلمته المال أعلنت له ، وعيني في عينيه ، أنه يستطيع أن يرسله « بعد شهر » اذا كان ذلك يناسبه . فكيف ، كيف يمكن أن لا يكون قد أدرك في تلك اللحظة أنني كنت في الواقع أقول له : « أأنت في حاجة الى أن تخونني مع تلك المخلوقة ؟ اذن خذ المال ، انني أعطيك المال من تلقاء نفسي . خذه ، اذا كنت خالياً من المروءة والشرف خلواً تستطيع معه أن تقبل المال مني » . كنت أريد أن أُخجله . فماذا تظنون أنه فعل ؟ لقد أخذ المال ، أخذه ومضى لينفقه بعد ذلك في ليلة واحدة ، هنالك ، مع هذه المخلوقة . وقد فهم مع ذلك ، فهم في تلك اللحظة أنني كنت على علمٍ بكل شيء . صدقوني أنه فهم أنني كنت أريد أن أمتحنه حين عهدت اليه بهذا المال ، وانني كنت أحب أن أعرف هل تبلغ به قلة الشرف أن يأخذ مني هذا المال . كنت أحدّق الى عينيه ، وكان يحدّق الى عيني هو أيضاً ، لأنه كان يفهمني حق الفهم ، وكان يفهم كل شيء. ورغم ذلك أخذ المال ، أخذه ومضى به .

زأر ميتيا يقول فجأة :

ـ هذه هي الحقيقة بعينها يا كاتيا ، كنت أحدّق الى عينيك فأدركت أنك تريدين تلطيخ شرفي بالعار . ومع ذلك أخذت المال . احتقريني. انا انسان شقي ، وعليكم جميعاً أن تحتقروني . انني استحق هذا الاحتقار !

هتف الرئيس يخاطبه :

ـ يا متهم ! اذا قلت كلمة واحدة أخرى ، فلأخرجنك من القاعة.

وواصلت كاتيا كلامها بسرعة تشنجية :

ـ كان يعذبه هذا المبلغ . كان يريد أن يردّه اليّ ، هذا صحيح، كان يحرص على أن يردّه ، ولكنه كان في حاجة الى مال من أجل هذه

المخلوقة • لذلك قرر أن يقتل أباه ، ولكنــه لم يردّ الىّ دينى ، وانما ذهب مع هذه المرأة الى تلك القرية ، فتم القبض عليه هناك • لقد بدّد فى تلك القرية ، مرةً أخرى ، المال الذى سرقه من أبيه بعد أن قتله • وقبل الجريمة بيومين كان قد كتب الىّ الرسالة • كتبها وهو سكران ، أدركتُ ذلك فوراً • وكتبها عن خبث وشر ، لعلمــه علمَ اليقين بأننى لن أطلع عليها أحداً ، ولو ارتكب هذه الجريمــة ، والا لما كتبها • كان يقدّر أننى لن أرضى أن أنتقم منه وأن أكون سبب ضياعه • هلاّ قرأتم الرسالة ! اقرأوا بمزيد من الامعان ، أرجوكم ، لتعلموا انه قد وصف فى هذه الرسالة كل شىء سلفاً ، ذكر كيف سيتدبر الأمر ليقتل أباه ، وذكر أين يوجد المال مخبأً ، ذكر ذلك كله سـلفاً • وأحب أن ألفت انتباهكم الى احدى عباراته خاصةً ، راجيــةً أن تقفوا عندها ، وتتلبثوا عليها : « شريطة أن يكون ايفان غائباً » • هل رأيتم ؟ لقد قتل عن سابق تصــور وتصــميم ، وفكّـر فى جميع التفــاصيل (كذلك قالت كاترين ايفانوفنا بخبث وشر وسوء ، كأنما لتؤثر فى عقول القضاة تأثيراً أقوى وأضمن • (وواضح أنها كانت قد درست هذه الرسالة المشئومة دراســة دقيقة ، وأنها تحفظ كل كلمة من كلماتها على ظهر القلب) • ولولا أنه كان عندئذ فى حالة ســكر لما كتب الىّ بهذه الطريقــة • انظروا كيف تذكر هذه الرسالة سلفاً كل شىء ، كل شىء ، حتى أدق التفاصيل • لقد عرض لى خطة قتل حقيقية !

هكذا كانت تصيح غضبى ؟ وواضح أنهــا كانت لا تبــالى فى تلك اللحظة عواقب شهادتها • ولعلها كانت قد تنبأت بهذه العواقب منذ زمن طويل ، ذلك أنها لا بد أن تكون قد تساءلت مراراً كثيرة وهى ترتعش استياءً : « أيجب علىّ أن أقرأ هذه الرسالة فى جلســة المحاكمة ؟ » • أما وأنها عزمت أمرها ، فانها لا تأسف الآن على شىء ، ولا تبالى شيئاً •

أذكر أن هذه الرسالة قد تلاها كاتب المحكمة عندئذ بصوت عالٍ ، فأحدثت فى الجميع شعوراً بالادانة .

وسئل ميتيا بعد ذلك هل يعترف بأنه هو كاتب الرسالة ، فصاح ميتيا يقول :

ـ هى رسالتى ، نعم ، رسالتى . وما كنت لأكتبها لولا السكر !.. يا كاتيا ، ان كلاً منا يكره الآخر لأسباب كثيرة . ولكننى أحلف لك ، أحلف لك على أننى ، حتى حين كرهتك ، كنت لا أزال أحبك . أما أنت فلا !...

قال ميتيا ذلك ، وتهالك على كرسيه وهو يلوى يديه كرباً ويأساً. وتناوب وكيل النيابة والمحامى القاء الأسئلة على كاترين ايفانوفنا ، ملحّين خاصةً على الأسباب « التى دفعتها الى أن تسكت فى بداية شهادتها عن وجود رسالة تبلغ هذا المبلغ من خطورة الشأن ، وأن تدلى بتصريحات تختلف فى لهجتها وروحها عن أقوالها الآن » . فقالت كاتيا منقلبة السحنة تقريباً :

ـ صحيح ، نعم ، كذبتُ منذ قليل . كذبت عن عمد وقصد ، على خلاف ما توجبه أمانتى ويوجبه ضميرى . ولكننى أردت أن أنقذه فى تلك اللحظة ، لأنه كان يكرهنى ويحتقرنى . أوه ! كان يحتقرنى احتقاراً فظيعاً ؟ واعلموا أنه كان يحتقرنى دائماً ! احتقرنى منذ اللحظة التى انحنيت فيها أمامه ساجدةً فى سبيل ذلك المال . رأيتُ ذلك ... أحسست به فوراً ، ولكننى لبثت زمناً طويلاً أتردد فى تصديقه . كم من مرة قرأت فى عينيه أنه يقول لى : « مع ذلك ، أنت التى جئت الىّ فى الماضى » . آه ... انه لم يفهمنى ، انه لم يفهم شيئاً من سلوكى فى يوم من الأيام ، انه لم يدرك سبب مجيئى اليه ، لأنه لا يستطيع أن

يتخيل الا أحقر الدوافع وأدنأ البواعث • لقد حكم عليّ من خلال نفسه هو •

وأضافت كاترين ايفانوفنا تقول وهى تصرف بأسنانها غضباً ، لأنها كانت فى حالة اندفاع شديد :

ـ ظن أن جميع الناس مثله • ولم يخطر بباله أن يتزوجنى بعد ذلك الا لأننى ورثت ثروة • ذلك هو السبب ، ذلك هو السبب ! لقد قدرت دائماً أن ذلك هو السبب الحقيقى ! آه ••• هذا شيطان رجيم • ظن أننى سأظل طول حياتى أرتعش أمامه خجلاً من أننى ذهبت اليه فى الماضى ، وأنه سيستطيع أن يحتقرنى لهذا وأن يتسلط عليّ • ذلكم هو السبب فى أنه أراد أن يتزوجنى ، ذلكم هو السبب ! هذا ما حدث ، أؤكد لكم أن هذا ما حدث ! حاولت أن آخذه بالحب ، بحب لا نهاية له ، حتى لقد كنت مستعدة لأن أغفر له خيانته • ولكنه لم يفهم شيئاً ، لم يفهم شيئاً البتة ، البتة ! وهل هو قادر على أن يفهم أى شىء ؟ هذا مخلوق أشوه ! وصلتنى منه هذه الرسالة فى صباح الغد ، جاءونى بها من الكاباريه ، بينما كنت فى ذلك الصباح نفسه أستعد لأن أغفر له كل شىء ، حتى خيانته !

حاول رئيس المحكمة ووكيل النيابة أن يهدئاها طبعاً • وانى لعلى يقين من أنهم جميعاً كانوا يشعرون فى قرارة أنفسهم بالخجل من استغلال اندفاع المرأة الشابة هذا الاستغلال ، ومن الاستماع الى اعترافاتها • أذكر أن رئيس المحكمة ووكيل النيابة قالا لها : « نحن نفهم مدى ما تعانين من ألم ، وثقى أننا نشاطرك هذا الألم » الخ ، الخ• ولكن هذا لا ينفى أنهما انتزعا منها شهادة بينما كانت فى حالة قريبة من الهستريا ، وبينما أصبحت لا تسيطر على نفسها ولا تتحكم بسلوكها • ووصفت أخيراً بوضوح ما بعده وضوح ـ وهذا ما يتجلى فى كثير من

الأحيان ، « ولو على نحو عابر » ، في لحظات التوتر النفسي الشديد الذي من هذا النوع ـ كيف ان ايفان فيدوروفتش قد أصبح مجنوناً خلال الشهرين الأخيرين بسبب الفكرة التي حاصرته واستبدت به ، وهي أن عليه أن ينقذ أخاه ، « هذا الشيطان ، هذا القاتل » .

وهتفت تقول :

ـ كان عذابه لا ينقطع ولا يهدأ . وكان يريد أن يطفف ذنب أخيه قائلاً لي انه كان هو نفسه لا يحب أباه ، وانه ربما كان يتمنى موته . آه ... هذا انسان ذو ضمير حي ووجدان رفيع ! لقد مرض من كثرة ما عاني من عذاب الوجدان والضمير . قال لي كل شيء ، كل شيء اطلاقاً ! كان يجيء الىّ كل يوم فيتحدث الىّ حديثه مع صديقته الوحيدة ! (هكذا هتفت تقول فجأة بنوع من التحدي وقد التمعت عيناها) لقد ذهب الى سمردياكوف مرتين . وفي ذات يوم جاء الىّ فقال لي : « اذا لم يكن القاتل أخي بل سمردياكوف (ذلك أن الأسطورة القائلة بأن سمردياكوف قد يكون هو القاتل ، كانت قد أُطلقت في الناس) ، فمن الجائز أن أكون أنا أيضاً جانياً ، لأن سمردياكوف كان يعلم انني لا أحب أبي وأنني أتمنى موته » . وعندئذ انما أخرجت تلك الرسالة فأطلعته عليها . فلما قرأها اقتنع بأن أخاه هو القاتل ، فاذا بهذه الفكرة تحطم نفسه أخيراً . لم يطق أن يتصور أن يكون أخوه قاتل أبيه . وقد لاحظت ، منذ أسبوع ، أن ذلك أمرضه فعلاً . كان يتفق له في الأيام الأخيرة أن يأخذ يهذي أثناء زيارته لي . وأدركت أنه في الطريق الى الجنون . كان يهذي وهو يسير ، وقد شوهد هائماً على وجهه محدثاً نفسه في شوارع مدينتنا . وحين فحصه ، أمس الأول ، تلبيةً لطلبي ، الطبيبُ الاخصائي الذي وفد الى مدينتنا ، قال لي انه على وشك أن يُصاب بالحمى الحارة . ذلك كله بسببه ، بسبب هذا الشيطان

الرجيم • وفاقم الأمر أنه علم أمس أن سمردياكوف قد انتحر ، فأحدث هذا النبأ فى نفسه أثراً بلغ من القوة أنه فقد عقله ••• وذلك كله بسبب هذا الشيطان الرجيم ، بسبب رغبته فى انقاذ هذا الشيطان الرجيم •

أنا أعلم أن المرء لا يمكن أن يتكلم بهذه الطريقة وأن يدلى باعترافات من هذا النوع الا مرةً واحدة طوال حياته ، فى اللحظات التى تسبق الموت مثلاً ، أو حين يصعد درجات المشنقة • ولقد كانت كاتيا فى حالة من هذا النوع نفسه ، وهى حالة تتفق وطبعها على كل حال • انها فى الواقع تلك الفتاة الجامحة نفسها التى هرعت فى الماضى الى بيت الضابط الفاسق انقاذاً لأبيها ، انها كاتيا تلك نفسها التى ارتضت منذ قليل أن تضحى على رءوس الأشهاد بحيائها وخفرها ، هى العفة الطاهرة ذات الأنفة والكبرياء ، فقصت قصة « السلوك النبيل الذى سلكه ميتيا » ، لا لشىء الا أن تخفف المصير الذى ينتظره بعض التخفيف • وهى بهذه الطريقة نفسها ، وعلى هذا النحو نفسه ، انما تضحى بنفسها الآن ، ولكن فى سبيل رجل آخر ، فى سبيل رجل لعلها أدركت لأول مرةً فى تلك اللحظة مدى ما تضمر له من محبة • تضحى بنفسها فى سبيله مخافة أن يكون قد أساء الى شرفه والى سمعته حين قال انه هو القاتل • لقد بدا لها فجأةً أنه بشهادته قد ضيّع نفسه ، فهى تضحى بنفسها لتنقذه هو ، لتنقذ اسمه وسمعته ومهابته ! على أن هناك سؤالاً مقلقاً يطرح نفسه : هل كذبت قبل ذلك حين تكلمت عن عواطفها نحو ميتيا ، وهل تجنت عليه حين وصفت موقفه منها ؟ لا ، لا ، لا••• انها لم تندد به عامدةً حين صرخت تقول انه يحتقرها بسبب التحية الساجدة التى حيته بها فى الماضى ! لقد كانت تؤمن بذلك صادقة ، لقد كانت مقتنعة ، ربما منذ حيته بتلك التحية ، أن ميتيا ، هذا الطفل البسيط الطيب الذى كان يحبها حب العبادة فى ذلك الأوان ، قد احتقرها وسخر منها

واستهزأ بها. وهي ماتعلقت به ذلك التعلق، ولا أحبته ذلك الحب الهستري المصطنع المغالى الا من قبيل الكبرياء وحدها • ان ذلك الحب ، الذى نشأ عن زهو جريح ، كان أقرب الى الانتقام منه الى الحنان • صحيح أن هذه العاطفة المجلوبة كان يمكن أن تستحيل الى حب حقيقي ، ولقد كانت كاتيا تتمنى ذلك بحرارة على كل حال ، ولكن ميتيا أساء اليها بخيانته اساءة عميقة ، وأهانها اهانةً بالغة ، فلم تستطع نفس الفتاة المتكبرة المتغطرسة أن تغفر له • وحلَّت ساعة الانتقام فجأة ، على نحو لم تكن تتوقعه هى نفسها ، فاذا بالأحقاد التى تراكمت فى قلب المرأة المهانة تراكماً أليماً خلال هذه المدة الطويلة كلها ، اذا بهذه الأحقاد تتدفق دفعةً واحدة على حين بغتة • ان كاتيا تخون ميتيا الآن ، ولكنها تخونه بخيانة نفسها ! وطبيعي أن التوتر العصبي قد زال منذ أفصحت عما يعتلج فى قلبها فأخذ يستولى عليها الشعور بالخزى والعار • لقد أصيبت عندئذ بنوبة عصبية جديدة ، فتهاوت على مقعدها وهى تنشج وتئن • فاضطروا الى نقلها من القاعة • وفيما كانوا يبعدونها هرعت جروشنكا نحو ميتيا صارخة قبل أن يتسع وقت أحد لصدِّها والسيطرة عليها :

ــ ميتيا ! ان هذه الأفعى قد ضيعتك !

وأضافت تقول وهى ترتعش غضباً وتتجه بكلامها الى أعضاء المحكمة :

ــ ها هى ذى الآن تظهر على حقيقتها •

وبأمرٍ من رئيس المحكمة ، أُمسكت جروشنكا واقتيدت الى خارج القاعة • كانت تقاوم وتتخبط وتندفع نحو ميتيا • فأخذ ميتيا يعول هو أيضاً ، وقام بحركة مباغتة ليلحق بها • فأمسكوه وسيطروا عليه •

افترض أن سيداتنا اللواتى جئن الى جلسة المحاكمة كمشاهدات ، قد أرضاهن ما رأين : ان هذا المشـــهد يستحق منهن ما لقين من عنـاء فى سبيل أن يرينه • وأتذكر أن الطبيب الاخصائى الوافد من موسكو قد ظهر فى تلك اللحظة • يبدو أن رئيس المحكمـة كان قد كلف الحاجب باستدعائه لاسعاف ايفان فيدوروفتش • قال الطبيب للمحكمة ان ايفـان فيدوروفتش مصاب بنوبة خطرة جداً من نوبات حمى حارة ، وان من الواجب صرفه فوراً • وجـواباً عن أسـئلة ألقاها عليه وكيل النيـابة والمحـامى ، صرّح بأن المريض قد جاء يستشـيره فى أمر مرضه منذ يومين ، وبأنه قد تنبـأ له بنـوبة حمى حارة وشـيكة ، ولكن ايفـــان فيدوروفتش رفض أن يُعالَج • قال الطبيب راوياً : « لقد كان منذ ذلك الحين مريضاً جداً • واعترف لى هو نفسه بأن أشباحاً تتراءى له ، فتارةً يرى فى الشـارع أشخاصاً ماتوا منذ زمن بعيد ، وتارة يزوره فى المساء ابليس » •

وانصرف طبيب الأمراض العقلية بعد أن فرغ من عرض آرائه •

وضُمّت الرسـالة التى قدمتهـا كاترين ايفانوفنـا ، ضُمّت الى وثائق الاثبات• وتشاور أعضاء المحكمة ، فقرروا أن يواصلوا المناقشات ، ودُوّنت الشـهادتان اللتـــان لم تكونا متوقعتين (أعنى أقوال كاترين ايفانوفنا وايفان فيدوروفتش) فى محاضر المحاكمة •

أحسب أنه لا داعى الى سرد تتمـة وقائع المناقشـات • فان أقوال الشهود الذين سُمعت شهاداتهم بعد ذلك لم تأت بشىء جديد ، ولم تزد على تكرار ما عـرفه القـارىء حتى الآن ، مع بعض الفـروق الطفيفـة الشخصية • وأقول مرةً أخرى : ان جميع الشهادات قد لخصتها وكثفتها مطالعة وكيل النيابة التى سأعرض لها حالاً • وحسبى أن أشير هنا الى

أن الحضــور كانوا يرزحون تحت وطأة انفعال شــديد عنيف من هول النازلة ، وكان الجميع ينتظرون خاتمة الدرامة وخطابى الاتهام والدفاع بقلوب يحرقها نفاد الصبر. وكان يبدو على فيتوكوفتش أن أقوال كاترين ايفانوفنا قد أرهقته من أمره عسراً . أما وكيل النيابة فكان يبدو منتصراً. حتى اذا انتهت المناقشــات رفعت الجلســة نحو ساعة . وأعلن الرئيس أخيراً أن الكلام لوكيل النيابة . وأظن أن الساعة كانت هى الثــانية من المساء حين بدأ هيبوليت كيريلوفتش القاء مطالعته .

٦

مطالعة النيابة . عناصر بارزة

حين بدأ هيبوليت كيريلوفتش القاء مطالعته كان يرتعش ارتعاشة عصبية ، وكان يشعر بعرق بارد على جبينه وصدغيه . انه يصاب بحمى ثم يصاب بارتعاد ، مرةً بعد مرةً . بهذا وصف هو نفسه ، فيما بعد ، الحالة التى كان عليها حينذاك . كان يرى أن هذا الخطاب « خير انتاجه » و « أحسن آثاره » ، وتاجاً يتوّج حياته فى آخر عهده بمهنته ، ونشيداً كنشيد البجعة يصدح به صوته قبيل مماته . وقد مات هيبوليت كيريلوفتش فعلاً بعد ذلك بتسعة أشهر ، من سل خبيث لم يمهله طويلاً ، فلعله كان على حق حين شبه نفسه ببجعة تغنى قبل موتها ، اذا صدق أنه أوجس ذلك حقاً . لقد وضع فى هذه المطالعة كل قلبه ، ووضع فيها كل ذكائه أيضاً ، وبرهن فى هذه المناسبة على أنه يملك حساً وطنياً اجتماعياً لم يكن متوقعاً منه ، وأنه يهتم هو أيضاً « بالمشكلات الحادة » ، على الأقل فى حدود قدرة صاحبنا المسكين هيبوليت كيريلوفتش على فهمها . وقد فتن الناس بصدقه خاصة : كان هيبوليت كيريلوفتش يؤمن فعلاً بأن المتهم هو الجانى ، فكان لا يتهمه ويطالب بانزال « العقاب » فى الحال بحكم ما تقتضيه منه مهنته فحسب ، وانما كان كذلك مقتنعاً اقتناعاً عميقاً بما يقول ، وكان مشبعاً بعاطفة « انقاذ

المجتمع » • ان النساء من جمهور المشاهدين ، وهن يعادين بمشاعرهن هيبوليت كيريلوفتش ، لم يخفين الأثر العميق الذى أحدثه خطابه فى نفوسهن • ولقد بدأ وكيل النيابة القاء خطابه بصوت متوتر متقطع، ولكنه صوت ما ينفك يقوى ويثبت شيئاً فشيئاً ، ثم يدوّى فى القاعة كلها الى نهايته • ومع ذلك أوشك هيبوليت كيريلوفتش أن يُغمى عليه حين فرغ من القاء الخطاب • بدأ وكيل النيابة مطالعته هكذا :

« سادتى المحلفين ! ان القضية التى ننظر فيها اليوم قد أحدثت ضجة كبيرة فى روسيا كلها • ولكن فيم نُدهش وفيم نروّع ؟ هل من حقنا أن نُدهش وأن نُروّع ؟ ألم نألف هذا النوع من القبائح منذ زمن طويل ؟ ألا ان أشنع ما فى الأمر هو أن فظاعات تبلغ هذا المبلغ من السواد قد أصبحت لا تهز نفوسنا ! ذلكم هو بلاؤنا ! وان هذا التعود على الشر هو ما ينبغى أن نحزن له ، لا هذه أو تلك من الجرائم يرتكبها هذا أو ذاك من المجرمين • فما هى أسباب قلة اكتراثنا ، ما هى أسباب عدم انفعالنا ازاء جرائم من هذا النوع ، جرائم هى فى حقيقة الأمر علامات شر مستطير تنذر بمستقبل مظلم ؟ هل ترجع تلك الأسباب الى ما صرنا نتصف به من استهتار واستخفاف ، هل ترجع الى أن العقل والخيال قد نضبا نضوباً مبكراً فى مجتمعنا هذا الذى ما يزال فتياً ثم هو قد اهترأ قبل الأوان ؟ هل نعزو عدم انفعالنا وقلة اكتراثنا الى أن مبادئنا الأخلاقية قد اهتزت ، اللهم الا أن تكون هذه المبادىء الأخلاقية أموراً تعوزنا أصلاً ؟ لست أريد أن أجيب عن هذه الأسئلة ، ولكن يجب أن نعترف بأنها أسئلة مقلقة ، وبأن كل مواطن يستحق اسم المواطن ، لا يحق له أن يطرحها فحسب ، بل يجب عليه أن يطرحها أيضاً • ان صحافتنا التى ماتزال فى بداياتها ، والتى تُظهر شيئاً من التهيب فى بعض الأحيان لهذا السبب، قد قدمت للمجتمع من هذه الناحية خدمات كبيرة ، فلولاها لما

استطعنا أن نعرف كل ما يعيث فى بلادنا فساداً من انحلال الارادة وفساد الأخلاق. انها تطلعنا على الأنباء فى أعمدتها كلّ يوم ، وبذلك لا تقتصر معرفة الواقع المرير على الذين يحضرون المحاكمات التى يعد نشر وقائعها حسنة من حسنات النظام القائم ، وانما تتعداهم الى جميع المواطنين بغير استثناء. فماذا نقرأ كل يوم فى هذه الصحف ؟ وا أسفاه ! اننا نقرأ فى هذه الصحف أنباء عن جرائم يفوق هولها هول القضية التى ننظر فيها اليوم ، ولا تعد هذه القضية بالقياس اليها الا حادثاً تافهاً مبذولاً . وأخطر ما فى الأمر أن عدداً كبيراً من قضايانا الجنائية الوطنية ، قضايانا الروسية ، يدل على نوع من سقوط جماعى عام شامل هو بلاء مشترك بيننا جميعاً ، بلاء رسخ فى أخلاقنا وعاداتنا رسوخاً عميقاً ، فأصبحت محاربته أمراً شاقاً عسيراً . ضابط شاب لامع ينتمى الى الأوساط الارستقراطية . انه فى بداية حياته وبداية مهنته . ها هو ذا لا يتردد ، فى ذات يوم ، عن ذبح موظف بسيط متواضع كان قد قدّم له خدمة ، وعن ذبح خادمة هذا الموظف ، دون أن يشعر بشىء من حياء ، ودون أن يحس بشىء من عذاب الضمير ، وذلك ليسترد من هذا الموظف سنداً كان حرّره له اعترافاً منه بدينه عليه ؛ ثم هو ينتهز الفرصة ، فيسطو على ما يجده فى منزل القتيل من مال ، قائلاً لنفسه : « سينفعنى هذا المال فى الاستمرار على معاشرة المجتمع الراقى ، وسيسهّل ارتقائى فى وظيفتى تبعاً لذلك »؛ حتى اذا فرغ من الاجهاز على ضحيتيه ، لم ينس أن يضع تحت رأسيهما وسادة ، وانصرف . واليكم مثالاً آخر : شاب بطل يزدان صدره بأوسمة حصل عليها لشجاعته . ها هو ذا يقتل فى الطريق ، كما يفعل قاطع الطريق ، ها هو ذا يقتل أمّ رئيسه المحسن اليه ؛ ومن أجل أن يطمئن شركاءه فى الجريمة ، ومن أجل أن يشجعهم على مشاركته فى ارتكاب الجريمة ، يقول لهم : « ان هذه المرأة تحبنى كابنها ، ولهذا

ستنبع نصائحى دون أن تتخذ أى احتياط من الاحتياطات » • صحيح أن هذا انسان شاذ • ولكننى لا أجرؤ أن أقول انه حالة مفردة فى هذا العصر الذى نعيش فيه • وهناك آخرون قد لا يقتلون ، ولكن نفوسهم تجيش بهذه الرغبات نفسها وهذه المشاعر نفسها التى تجيش بها نفس ذلك المجرم ، وهم خالون من الشرف خلوه هو منه ، ولعلهم حين ينفردون بأنفسهم يتساءلون : « ما هو الشرف ؟ أليس الخوف من سفك الدم وهماً من الأوهام الباطلة ؟ » • قد تأخذون على أننى متشائم تشاؤماً هو الى المرض أقرب ، وأننى أجتر رؤى مظلمة ، وأشهر بالناس تشهيراً خبيثاً ، وأغالى فى وصف الشر الذى ألاحظه مغالاة هاذية ! آه ••• كم أتمنى يا رب السماء أن يكون هذا المأخذ قائماً على أساس صحيح !• لكم أن لا تصدقونى اذا شئتم ، ولكم أن تعدوا قلقى هذا وخوفى هذا مرضاً ، ولكن تذكروا مع ذلك ما أقوله لكم اليوم : اذا لم يكن فى أقوالى الا عشر معشار من صدق ، فذلك وحده رهيب ! هل فكرتم ، أيها السادة ، فى العدد المروع من الشباب الذين ينتحرون فى بلادنا ؟ انهم يقتلون أنفسهم بلا كلام ، دون أن يتساءلوا ، كما فعل هاملت ، عما سيصيرون اليه بعد الموت • لكأن مشكلة النفس الانسانية ، لكأن مشكلة المصير الذى ينتظرنا فى الحياة الآخرة ، أصبحت غريبة عن عقولهم ، فهم قد نسوا ودفنوا هذا النوع من الاهتمامات والتساؤلات منذ زمان طويل • وانظروا ، بعد ، الى فساد أخلاقنا وتحلل عاداتنا الذى يتجلى لدى الفاسقين الماجنين من أبناء مجتمعنا • ان فيدور بافلوفتش ، الشقى المجنى عليه فى هذه القضية ، يمكن أن يعد طفلاً بريئاً اذا قيس بأولئك الفاسقين الماجنين ، ولقد عرفناه جميعاً ، « وكان واحداً منا » ••• قد يجىء يوم تعكف فيه عقول متفوقة ، فى بلادنا وفى البلاد الأخرى ، على دراسة سيكولوجية المجرم الروسى ، لأن الموضوع

يستحق عناء الدرس طبعاً • ولكن هذه الدراسة ستتم في المستقبل ، حين يهدأ البال ويطمئن العقل ، حين تصبح ضروب المآسي التي يعاني منها عصرنا ذكرى لا أكثر ، فيكون من الممكن عندئذ أن تدرس دراسة فيها من الانصاف والعدل والحياد ما لا يستطيعه رجال مثلي في هذا الأوان ؟ نحن الآن مروّعون ، أو نحن نتظاهر بأننا مروعون ، مع تلذذنا بمشهد الجريمة ، لأننا نحب الاحساسات القوية الشاذة العنيفة التي توقظ نفوسنا من الخدر وتهز ما نعانيه من قلة الانفعال وكثرة الاستخفاف والاستهتار ؟ أو قولوا أيضاً اننا أشبه بأطفال صغار ، نطرد الرؤى المرعبة بحركة من يدنا ، وندفن وجهنا في الوسادة الى أن تغيب تلك الرؤى المرعبة ، عازمين على أن ننساها فوراً بالمسرات واللعب • ولكن لا بد لنا مع ذلك من أن نعزم أمرنا مرة على أن نأخذ الحياة مأخذ الجد ، وعلى أن نفكر فيما توجبه علينا الحياة وما تقتضيه منا • لا بد لنا أن نفكر وأن نتأمل وأن نحاسب أنفسنا لنستطيع أن نفهم ، أو لنحاول أن نفهم ، على الأقل ، ما يجري في مجتمعنا • ان كاتباً كبيراً من كتاب عهد قريب ، * قد شبّه روسيا ، في خاتمة كتابه الرائع ، بعربة ترويكا تعدو عدواً سريعا نحو غاية مجهولة ، فهتف يخاطبها قائلا : « أيتها الترويكا ، يا طائراً سريعاً ، من ذا الذي أوجدك ؟ » وأضاف يقول في اندفاعة كبرياء وعجب وزهو : ان الشعوب لتتنحى باحترام عن طريق الترويكا الجبارة • ليكن ، أيها السادة ! لنسلم بأن الشعوب تتنحى أو لا تتنحى • ولكنني أعتقد ، في رأيي المتواضع ، أن الفنان العبقري انما استعمل هذه الصورة وهو في حالة اندفاع مثالي طفولي يُغفر له ، أو لعله لجأ الى هذه الصورة لأنه كان يخشى الرقابة على المطبوعات في ذلك العهد ؟ اذ لو شُدّ الى هذه الترويكا أبطالُ روايته نفسها ، أمثال سوباكيفتش ونوزدريوف وتشيتشيكوف ، فهل تعلمون الى أين يمكن أن تقودنا الترويكا بهذه

الخيول أياً كان الحوذى الذى يقودها ؟ وتلك مع ذلك خيولٌ من عهد غابر لا تضارع خيول هذا الزمان • وقد رأينا بعدها كثيراً ••• » •

هنا قطع خطابَ هيبوليت كيريلوفتش تصفيقٌ من الجمهور • لقد طرب الجمهور مما فى صورة الترويكا هذه من لبرالية • ولكن التصفيق الذى انطلقت به الأكف كان تصفيقاً متفرقاً هنا وهناك ، لذلك لم يرَ رئيس المحكمة أن عليه أن « يهدد باخلاء القاعة » ، واقتصر على أن يرشق الأشخاص المذنبين بنظرة قاسية • غير أن هيبوليت كيريلوفتش قد تشجع • انه لم يُصفَّق له حتى الآن يوماً فى حياته • لقد ظل الناس سنين طويلة يرفضون الاصغاء اليه ، وها هو ذا يستطيع على حين فجأة أن يسمع صوته روسيا كلها ! وتابع وكيل النيابة خطابه فقال :

« ما الذى تمثله فى الواقع أسرة كارامازوف هذه التى اكتسبت فى بلادنا ، بين عشية وضحاها ، شهرةً سوداء هذا السواد كله ؟ قد تظنون اننى أبالغ ، ولكنى أحسب أن حياة هذه الأسرة تعكس عناصر بارزة يتميز بها مجتمعنا المثقف المعاصر ؟ صحيح أنها تعكسها مصغَّرة تصغيراً مكروسكوبياً ، كما « تعكس الشمسَ قطرةُ ماء » ، ولكننا نجد فيها قبساتٍ ذات دلالة • انظروا أولاً الى ذلك العجوز الشقى ، ذلك الفاسق الجرىء ، ذلك « الأب » الذى لقى مصيراً حزيناً تعيساً • لقد بدأ حياته طفيلياً مسكيناً رغم نبالة محتده ؟ وأتاح له زواج موفق لم يكن بأمله ، أن ينال مهراً هو رأس مال لا بأس به • لم يكن الرجل فى ذلك الحين الا غشاشاً ضيِّق المدى ومهرِّجاً يتملق الأقوياء ، لكنه يملك مزايا ذكاء تُجحد • وهو قبل كل شىء مراب • وتنقضى السنون ، فيربو رأس ماله ، ويأخذ يرفع رأسه شيئاً بعد شىء • وتختفى المذلة والاستكانة وتزول الزلفى والمداهنة ، ولا يبقى من الرجل الا انسان فاجر عاهر ، انسان شرير خبيث ساخر • غابت الحياة الروحية من نفسه غياباً تاماً

لا رجعة لها بعده ، وأصبح ظمؤه الى اللذة ظمأً جارفاً لا حدود له ، وغدا لا يرى في الوجود الا المباهج والمتع والملذات ؟ وبهذه الروح انما نشأ أولاده ، أما الواجبات الأخلاقية التي تقع على عاتق أب فانه لم يعبأ بها ولم يكترث لها . انه لا يبالي أبناءه ، بل يتركهم في الفناء الخلفي من منزله ، ويعد نفسه سعيداً حين يُنتزعون منه . ثم ينسى وجودهم آخر الأمر نسياناً تاماً . ان قاعدة السلوك التي ارتضاها هذا الرجل لنفسه وأخذ بها تتلخص في قول القائل : من بعدي الطوفان ! * ان نظراته ومفاهيمه تجعل منه نقيض المواطن ، فهو يعيش بعيداً عن المجتمع ، في عزلة تشبه أن تكون معادية للمجتمع ، ولسان حاله يقول : « ألا فليهلك المجتمع كله ، شريطة أن أكون أنا بخير » . ولقد كان بخير فعلاً ، فهو راض عن مصيره ، مغتبط بما ناله ، يتمنى بحرارة أن يعيش عشرين سنة أخرى أو ثلاثين سنة أخرى . وهو يغبن ابنه ويسلبه حقه ؟ وبالمال الذي آل الى الفتى من ميراث أمه ورفض الأب أن يردّه اليه ، يحاول الأب أن ينتزع من الابن عشيقته . لا ، لن أترك عبء الدفاع عن المتهم للمحامي اللامع الذي وفد الينا من سان بطرسبرج ! سأقول الحقيقة بنفسي ، لأنني أفهم الاستياء والحقد اللذين راكمهما هذا الأب في نفس ابنه . ولكن كفانا ما قلناه عن ذلك العجوز ، لأنه قد عوقب على آثامه عقاباً كافياً . ولكن يجب أن لا ننسى أن هذا الأب من معاصرينا . أتقولون انني أهين المجتمع اذا زعمت أنه واحد من عدد كبير من الآباء المعاصرين ؟ واأسفاه ! ما أكثر الآباء الذين لا يمتازون عليه ، في عصرنا هذا ، الا بأدب أرهف يمنعهم من أن يفصحوا عن أنفسهم بذلك الاستهتار نفسه ، بينما هم في الواقع يشاطرونه آراءه ! لنسلّم جدلاً بأنني متشائم . لقد اتفقنا على أن تعذروني هذه المرة . فليكن مفهوماً منذ الآن أنكم قد لا تصدقونني ، ولكنني سأعبّر عن آرائي تعبيراً حراً ،

وسأقول كل ما أعتقد به فى قرارة نفسى • لكم أن لا تصدقونى • ولكن شيئاً مما سأقوله سيبقى فى نفوسكم مهما يكن من أمر •

لننتقل الآن الى أبنـاء ذلك العجـوز ، ذلك الأب الذى هـو رب أسرة : ان واحداً منهم يجلس الآن أمامكم على دكة المتهمين ، وسأتحدث عنه ، فيما بعد ، حديثاً أطول • أما الآخران ، فسأوجز الكلام عليهما • ان أكبرها هو واحـد من شـبابنا الحديثين يملك ثقافة ممتـازة وذكاءً عظيماً ، ولكنه لا يؤمن بشىء ، لأنه كان قد نبذ وجحد أموراً كثيرة قبل ذلك ، كأبيه تماماً • اننـا نعرفه جميعاً : لقد اسـتُقبل اسـتقبالاً حاراً فى مجتمعنا ، وأُحسنت وفادته • وكان لا يخفى آراءه • بالعكس : كان يجاهر بهـا ، وذلك يجيز لى أن أتكلم عنـه اليوم بشىء من الصراحة ، فأحلله لا من حيث هو شخص مفرد طبعاً ، بل من حيث هو واحد من أسرة كارامازوف • لقد انتحر بالأمس ، فى الطرف الأقصى من المدينة ، رجلٌ شقى ضعيف العقل مريض ، مرتبط بهذه القضية ارتباطاً وثيقاً ، هو الخادم القـديم وربما الابن غير الشرعى لفيدور بافلوفتش • أقصـد سمردياكوف • لقد روى لى ذلك المسكين ، أثناء التحقيق الأولى ، وهو يبكى بكاءً متشنجاً ، كيف أن هذا الشـاب كارامازوف ، أعنى ايفـان فيدوروفتش ، قد روّعه باباحيـة تفكيره • كان يقـول له : « كل شىء مباح ، كل شىء مشروع ، كل ما قد يشـتهيه الانسـان فى هذا العالم حلال ، وما ينبغى أن يحرّم شىء بعد الآن » • ذلكم ما كان يعلّمه اياه • ويظهر أن هذا الرجل الضعيف العقل قد فقد صـوابه نهائياً بتأثير هذه الأفكار ، وان يكن من الجـائز أيضـاً أن يكون مرضـه ، وهو مرض الصرع ، قد أثر فى حالته العقلية كذلك ، وأن تكون الدرامة الرهيبـة المروّعة التى وقعت بالمنزل قد أسهمت فى اختلال عقله • ومع ذلك فان هذا الأبله قد ساق فى يوم من الأيام ملاحظة شائقة هامة يمكن أن يفاخر

يمثلها رجل أذكى منه ، ولذلك أرى أن المفيد أن أذكرها هنا • لقد أفضى الى بقوله : « بين جميع أبناء فيدور بافلوفتش ، لا شك أن الذى يشبهه فى طبعه أكثر مما يشبهه سائرهم ، هو ايفان فيدوروفتش • » • أريد أن أختم ، بهذه الملاحظة ، التحليل السيكولوجى الذى عرضته لكم ، فليس يجمل أن ألح مزيداً من الالحاح • ولا أريد أن أتعجل استخراج النتائج وأن أكون المتنبىء بالشقاء لشاب فى فجر حياته • لقد رأينا فى هذه القاعة ، منذ اليوم ، أن القوة التى لا سبيل الى مغالبتها ، أعنى قوة الحقيقة ، ما تزال تؤكد نفسها فى قلب هذا الفتى ، وأن عواطف التعلق العائلى لم يخنقها الكفر بالدين ولاقضى عليها الاستخفاف بالأخلاق، وهما كفر واستخفاف يرجعان الى الوراثة أكثر مما يرجعان الى تفكيره الخاص •

« وانظروا بعد ذلك الى أصغر هؤلاء الأبناء • ان هذا الابن ما يزال مراهقاً متواضعاً تقياً يحاول ، على نقيض المفاهيم الفلسفية المظلمة التى تدفع الى الانحلال والتى أخذ بها أبوه ، يحاول أن يتعلق بما يُزعم أنه « أسس روح الشعب » ، أو ما يطلق عليه فى أيامنا هذه ، فى صفوف بعض الأوساط المثقفة من مجتمعنا ، هذا الاسم الذى فيه شىء من الادعاء• لقد بحث عن النجاة فى الاعتصام بدير ، وكاد يرتدى هو نفسه مسوح الراهب • يخيَّل الى أنه لا بد أن يكون قد أحس ، ربما على غير شعور منه ، بذلك الكرب الوجل وذلك القنوط الخائف اللذين يقاسى منهما الآن ، فى بلادنا الشقية ، هذا العدد الكبير كله من الأشخاص الذين يروّعهم ما يشيع فى مجتمعنا من استهتار واستخفاف ، وتحلل من الأخلاق • واذ كان هؤلاء الأشخاص يعزون الشر كله الى الثقافة الغربية ظلماً بغير حق ، فانهم يرجعون ، كما يُقال ، الى « تراب الوطن » ، ويسارعون الى الاحتماء بذراعى الأرض الأم التى أرضعتهم ،

مثلهم كمثل أولئك الأطفال الذين روّعهم رؤى أشباح ، فهم يلوذون بالصدور الناضبة من أمهاتهم الموهنة ، آملين أن يجدوا فيها هدوء النوم وراحة الغفو على أقل تقدير . وهم يتمنون أن يستطيعوا أن يناموا هذا النوم طول حياتهم ، هرباً من منظر الأهوال التى تروّعهم . انني ، من جهتى ، أتمنى أحسن التمنيات لمستقبل هذا المراهق اللطيف المحبب الموهوب . وآمل أن لا تنقلب مثاليته الشابة وأن لا ينقلب ميله الى الأفكار الشعبية ، كما يحدث هذا فى كثير من الأحيان ، الى صوفية ضبابية وغيبية جاهلة فى مجال الأخلاق ، والى تعصب قومى أعمى على صعيد السياسة. فهذان ضلالان هما فى نظرى أشد شؤماً على مستقبل أمتنا من الانحلال الأخلاقى المبكر الذى ولّدته فى أخيه ثقافة غربية لم يحسن هضمها وتمثلها » .

هنا انطلقت بعض الأكف بالتصفيق من جديد ، على ذكر التعصب القومى والصوفية الغيبية . وواضح أن هيبوليت كيريلوفتش قد استرسل فى هذا الكلام المستفيض بدافع الفصاحة والبلاغة ، وأن ملاحظاته لا تمت الى القضية بأية صلة من الصلات . ثم لقد كان كلامه كله غامضاً مبهماً ، ولكن هذا الرجل المصدور الحانق قد أراد أن يفصح عمّا بنفسه مرةً واحدة فى حياته على الأقل . وقد قيل فيما بعد انه انما انقاد فى تحليله النفسى لايفان فيدوروفتش لعاطفة فيها شىء من حقد ، لأن ايفان فيدوروفتش كان قد أحرجه وأربكه مراراً فى الأحاديث التى كانت تدور فى صالونات المجتمع ، فلم ينس هيبوليت كيريلوفتش ذلك ، فاستغل هذه المناسبة من أجل أن يثأر لنفسه وأن ينتقم فيما قيل . أما أنا فانني أتساءل هل هذا الرأى صحيح له ما يسوّغه . مهما يكن من أمر ، فان هذا الجزء من خطابه لم يكن الا استهلالاً ، وسوف يأخذ الآن بمعالجة القضية من كثب . واصل وكيل النيابة القاء خطابه فقال :

« أعود الآن الى الابن الثالث من أبناء رب هذه الأسرة الحديثة •
انكم ترونه أمامكم جالساً على دكة المتهمين ، وأمام أبصاركم تخطر حياته
كلها ، أعماله وسلوكه : لقد حانت الساعة التي يتضح فيها كل شيء •
انه يمثل ، خلافاً لما يمثله أخواه من اتجاهات أوروبية أو ميول شعبية ،
انه يمثل روسيا على حالتها الطبيعيـة ان صح التعبير ، ولكن لا روسـيا
كلها من حسن الحظ ، لا روسيا كلها والحمد لله ! ولكننا نجـد روسـيا
فيه ، نشم رائحتها المألوفة ، نحزر حضورها ! نعم ، نحن أناس على حالة
الطبيعة ، يختلط فينا الخير والشر اختلاطاً غريباً • نحب الثقافة ونعجب
بشيللر ، ولكننا نتحدث عن الفضائح في الكاباريهات ونجد لذة في جر
رفاق السكر من لحاهم • صحيح أننا نعرف كيف نكون أخيـاراً طيبين
وكراماً أسخياء في المناسبات ، ولكن ذلك لا يحدث لنـا الا حين نكون
سعداء راضين عن أنفسنا • نحن نحب الأفكار النبيلة ، ونلتهب حماسة
لها ، نعم ، نلتهب حماسة لها ، ولكن شريطة أن تهبط علينا من السماء بغير
جهد نبذله ، وأن لا تكلفنا شيئاً ، خاصة أن لا تكلفنا شيئاً • نحن لا نريد
أن نبذل لها شـيئاً ، نحن نكره أن نكون مضطرين الى العطاء • ولكننا
في مقابل ذلك نحب أن نأخذ ، نحب الأخذ في جميع الميادين • لسـان
حالنا يقول : اعطونا ، اعطونا جميع خيرات الحياة (أقول جميع الخيرات
لأننـا لا نرضى بأقل من ذلك) ، ولا تعارضوا رغبـاتنا في شيء ، تروا
عندئذ كيف نستطيع ان نكون لطافاً محببين ؟ ما نحن بالطماعين النهمين
طبعاً ، ولكننا نريد أن تعطونا مالاً ، أن تعطونا مالاً كثيراً ، أن تعطونا
أكبر قدر ممكن من المال : وسوف ترون عندئذ كيف نستطيع ، باحتقار
نبيل كريم للمعدن الخسيس ، أن نبدده وأن نتلفه في ليلة واحدة أثناء
قصف محموم ولهو مسعور • فاذا شـاء سـوء الحظ أن يمنع عنا هذا
المال ، أظهرنا ما نحن قادرون على أن نفعله للحصول عليه متى اشتدت

حاجتنا اليه • ولكنني ألاحظ أنني أستبق الأمور • فلنعمد الى عرض الأشياء مرتبة منظمة • هذا هو الصبي الصغير يتركه أبوه ، « فيتسكع في الفناء الخلفي حافي القدمين » ، على حد تعبير مواطننا المحترم المحبب ، الذي يرجع الى أصل أجنبي واأسفاه ! أعود فأقول : انني لن أترك لأحد عبء الدفاع عن المتهم • سوف أكون المتهم له والمحامي عنه في آن واحد • ذلك أننا بشر نحن أيضاً ، وسأعرف كيف أقيم وزناً لما تخلفه مشاعر الطفولة وحياة المنزل الأبوي من آثار في النفس وما تتركه من بصمات على الطبع • ويكبر الصبي ، فيصبح مراهقاً ، ثم يصبح شاباً ، ويخدم في الجيش ضابطاً • وفي أعقاب أعمال عنف بها ، وعلى أثر استفزاز الى مبارزة ، نُفي الى مدينة صغيرة نائية ، تقع قرب حدود وطننا الغني الواسع • وهناك واصل حياته العسكرية ، واسترسل يستمر في افراطه طبعاً ، فهو يلهو ويقصف ويعبث • ولا بد له من المال ، لا بد له من المال قبل كل شيء • لذلك قرر ، بعد مناقشات طويلة ومجادلات كثيرة ، أن يتساهل مع أبيه ، فقبل أن يدفع له أبوه مبلغاً أخيراً قدره ستة آلاف روبل ، وقد تقاضى هذا المبلغ فعلاً • لاحظوا أن هناك سنداً ممهوراً بتوقيعه هو رسالة يصرِّح فيها أنه يتنازل عن باقي الميراث ، وأنه يعد استلام هذه الستة آلاف روبل نهاية لنزاعه مع أبيه في أمر هذا الميراث • وفي تلك الفترة يلتقي بفتاة نبيلة الطبع عالية الثقافة • أوه ! اعفوني من الدخول في التفاصيل ، فقد سمعتم هذه القصة هنا ! ان المسألة مسألة شرف ومروءة ، مسألة تضحية ، فلا يسعني الا أن أسكت باحترام واجلال • ان الصورة التي رُسمت لكم عن شاب هو انسان طائش منحل ولكنه يعرف كيف ينحني أمام نفس نبيلة صادقة ، أمام مثل أعلى كريم رفيع ، ان هذه الصورة قد أحببناها جميعاً وأعجبنا بها جميعاً • ولكنكم قد اطلعتم بعد ذلك بلحظات ، في هذه القاعة نفسها ،

على نحو لم يكن يتوقعه أحد ، اطلعتم على قفا الصورة . سأمتنع هنا أيضاً عن فرض الفروض ، وسأعدل عن تحليل الأسباب التى دفعت الشاهدة الى تغيير موقفها . وهى أسباب موجودة حتماً . لقد سمعنا هذه الشاهدة نفسـها ، وهى تبكى من آلام طال كظمها ، تعلن لنـا أنه كان أول من ازدراها واحتقرها للعمـل الذى قامت به ، العمل الذى ربما كان فيه طيش وعدم تبصر ، ولكنه نبيل المنبع كريم الهدف على كل حال . ففى منزل هذا الشاب ، فى منزل خطيبها ، انما رأت هذه الفتاة ، لأول مرة ، تلك النظرة التى تشتمل على معنى الاحتقار والسخرية ، تلك النظرة التى لم تطق هذه الفتاة خاصـة أن تحتملها . وحين علمت أنه خانها (وقد خانها لاعتقاده بأن عليها أن تحتمل منه كل شىء ، حتى الخيانة) ، تعمَّدت أن تعرض عليه تلك الثلاثة آلاف روبل وهى تُفهمه بوضـوح ، وربما بوضوح مفرط ، انها انما تعطيه هذا المال لتتيح له أن يمضى فى خيانته الى نهايتها. وكانت نظرتها الفاحصة تسأله : « هيه ! أتقبل المال أم لا ؟ أتبلغ هذا المبلغ من الاستخفـاف ؟ » وقد قرأ هو نظرتها ، وأدرك ما يخفيـه تفكيرها ، أدركه ادراكاً تاماً (ألم يعترف فى هذا المكان نفسه ، أمامكم ، أنه أدركه ؟) ولكنه قبل الثلاثة آلاف روبل دون تردد ، وأنفقها خلال يومين على لهوه فى حبه الجديد . فماذا نصـدق ؟ هل الحقيقـة قائمـة فى الصورة الأولى التى رُسمت لنا عنه ، هل الحقيقة قائمة فى أسـطورة تلك الاندفاعة النبيلة الكريمة التى حملت الضابط الشاب على أن يضحى بآخر ما يملك ، وعلى أن ينحنى أمام الفضيلة ؟ أم الحقيقة قائمة فى ظهر تلك الصورة ، فى ظهرها الذى يبعث على الاشمئزاز ويثير التقزز ؟ انه ليحدث فى الحياة عادةً أن توجد الحقيقة فى الوسط ، حين يكون هناك عنصران متناقضان . ولكن الأمر ليس كذلك فى الحـالة التى ننظر فيها الآن . وانما أغلب الظن أن الشـاب كان صـادق النبل فى المرة الأولى

بقدر ماكان صادق الخسة والحطة فى المرة التانية • فاذا سألتمونى : لماذا؟ قلت لأننا ازاء طبائع واسعة هى طبائع آل كارامازوف ـ وذلك ما أريد أن أخلص اليه ـ أعنى أننا ازاء أناس قادرين على أن تضم نفوسهم جميع تناقضات الحيـاة ، وعلى أن يرنوا بأبصـارهم الى الهوتين كلتيهما فى آن واحد ، الهوة العليا التى تحلق فيها أنبل الصبوات وأرفع الأشـواق ، والهوة السفلى التى تغوص فيها أحقر المخازى وأدنأ أنواع السقوط • تذكروا تلك الفكرة اللامعة التى عبَّر عنها ، منذ قليل ، السيد راكيتين، هذا الشـاب الذى أوتى موهبة الملاحظة العميقـة ، وأتيح له أن يدرس آل كارامازوف من كثب ، وذلك حين قال : « ان هذه الطبائع العنيفـة المسعورة تحتاج الى الاحسـاس بالدناءة والسـقوط كحاجتها الى أرفع النبل » • ألا ان هذا لصادق كل الصدق : ان هذا المزيج الشـاذ وهذا الخليط العجيب هما من الأمور التى يقتضيها طبعهم بغير انقطاع • لا بد لنا من هوتين اثنتين أيها السادة ، هوتين اثنتين نستطيع أن نرنو اليهما معاً فى آن واحد ، والا شعرنا بالشـقاء وعدم الرضى ، لأن حياتنـا يعوزها الامتلاء عندئذ • نحن واسعون ، واسعون سعة أمنا الطيبة روسيا ! نحن نسـتطيع أن نضم فى أنفسـنا كل شىء ، أن نضم كل شىء وأن نقبـل كل شىء ! بالمناسـبة ، أيها السـادة : لقـد أثرت الآن موضـوع تلك الثـلاثة آلاف روبل ، فاسـمحوا لى أن أسـتبق الأمور قليـلاً • هـل فى وسعكم أن تتصوروا أن هذا المتهم ، الذى وصفت لكم طبعـه ، قد أمكنه فى ذلك اليوم نفسـه الذى أخذ فيه المال من خطيبته ـ لقاء مذلة لا مذلة بعدها ، وخزى لا يضارعه خزى ـ هل فى وسعكم أن تتصوروا أنه قد أمكنه فى ذلك اليوم نفسه أن يقتطع نصف ذلك المبلغ وأن يخيط عليه كيساً يعلقه بعد ذلك فى عنقـه خلال شـهر بكامله دون أن يفض الكيس ويأخذ المال ، رغم الاغراءات التى لا حصر لها والحاجات التى

سبيل الى مغالبتها ، رغم هذه الاغراءات وهذه الحاجات التى تحفل بها حياته ؟ كيف يمكنه أن لا يمس هذه الذخيرة لا أثناء افراطه فى الشراب فى الكاباريهات ، ولا فى اللحظة التى قام فيها بمساع لا يعلمها الا الله فى سبيل الحصول على المال من خارج هذه المدينة بغية أن يستطيع السفر مع حبيبته الغالية التى يريد أن يوقيها ما يريده منها أبوه ، غريمه ومنافسه ؟ أما أنا فأرى أنه كان لا بد له أن يفض الكيس ، ولو لم يكن له من هدف الا أن لا يترك هذه المرأة العزلاء أمام اغراءات أبيه الذى يغار هو منه ، وأن يبقى الى جانبها حارساً يقظاً بانتظار اللحظة التى تقول له فيها اخيراً « أنا لك » ، فيستطيع عندئذ أن يهرب معها الى حيث يبعد بها عن هذه البيئة الموبوءة • ولكن لا ، انه يأبى أن يمس حرزه ! وما حجته فى ذلك ؟ ان الباعث الأول الذى ذكره ، كما قلنا منذ قليل ، هو رغبته فى أن يدخر هذا المال للحظة التى ستقول له فيها : « أنا لك ، فخذنى الى حيث تشاء » ، فيكون فى وسعه عندئذ أن يرحل معها مستعيناً بذلك المال • ولكن هذه الحجة الأولى لا قيمة لها بالقياس الى الحجة الثانية ، وذلك باعتراف المتهم نفسه • كان المتهم يحدث نفسه قائلا : « ما ظللت أحمل هذا المال ، فاننى أكون شقياً ولكننى لا أكون لصاً ، لأننى أكون قادراً فى كل لحظة على أن أذهب الى خطيبتى التى أهنتها ، وأن أضع أمامها نصف المبلغ ، وأن أقول لها : « انظرى ! لقد أتلفت نصف مالك فى اللهو والقصف ، مبرهناً بذلك على أننى ضعيف مخل بما تقتضيه الأخلاق ، وعلى اننى شقى ان شئت (اننى استعمل تعابير المتهم نفسها) ، ولكنى ، مهما أكن شقياً ، لست بسارق ! فلو كنت سارقاً لما رددت اليك النصف الذى بقى لى من مالك ، وانما كنت أسطو عليه كما سطوت على النصف الأول • » • يا لهذا التعليل لسلوكه ما أشد غرابته ! ان هذا الرجل العنيف ، ولكن الضعيف ، ان هذا الرجل الذى

عجز عن مقاومة اغراء الثلاثة آلاف روبل فأخذها في ظروف تلطخ شرفه ذلك التلطيخ كله ، يجد في نفسه على حين فجأة قوة رواقية تمكنه من أن يعلق بعنقه أكثر من ألف روبل دون أن يمس هذا المبلغ في لحظة من اللحظات ! هل يتفق هذا التعليل وسيكولوجية المتهم ؟ انني لا أتردد في رفض هذا التعليل ؛ وسأجيز لنفسى أن أقول لكم كيف كان يمكن أن يتصرف ، في رأيي ، دمترى كارامازوف الحقيقي ، اذا صدق أنه خاط على ذلك المال كيساً علقه في صدره . انه في سبيل أن يسر المرأة الحبيبة التي كان قد أتلف معها قبل ذلك مبلغاً مماثلاً ، كان سيفض الكيس فيأخذ منه ولو مائة روبل ، مثلاً ، في أول الأمر ، قائلاً لنفسه عندئذ : « علام أدّخر نصف المبلغ تماماً ، أي ألفاً وخمسمائة روبل ؟ يكفي أن أرد اليها ألفاً واربعمائة ، فالأمران واحد » لأنه سيظل قادراً على أن يقول لها : ــ أنا شقي ولكنني لست لصاً ، فهأنا ذا أرد اليك ألفاً وأربعمائة روبل ، على حين أن اللص يأخذ المبلغ كله ولا يرد منه شيئاً » . وبعد مدة من الوقت ، يفض الكيس مرة أخرى ليأخذ منه مائة روبل أخرى ، ثم يفضه ليأخذ منه مائة ثالثة ، فمائة رابعة ، وهكذا دواليكم ؛ فما ينقضي الشهر الا ويكون قد أخرج ألفاً وأربعمائة ألف روبل محتفظاً بورقة واحدة من أوراق المائة روبل قائلاً لنفسه : « يكفي أن أردّ اليها مائة روبل ، أليس الأمران واحداً ؟ « ــ أنا شقي ، ولكنني لست لصاً . لقد أتلفت في اللهو والقصف ألفين وتسعمائة روبل، ولكنني أرد اليك مائة روبل رغم كل شيء ، وما كان اللص أن يرد اليك شيئاً . » . وفي النهاية ، بعد أن يتلف تلك المائة السابقة على الأخيرة ، كان سيهتف قائلاً : « علام أرد اليها مائة روبل ؟ فلأنفقها كما أنفقت ما عداها ! » . ذلكم هو التصرف الذى كان سيتصرفه دمترى كارامازوف الحقيقي ، الذى نعرفه . على أن أسطورة الكيس هذه تتناقض مع الواقع

تناقضاً مطلقاً • ان فى وسع المرء أن يتخيل كل شىء الا هذا • ولكننا سنعود الى هذا الأمر فيما بعد » •

وبعد أن عرض هيبوليت كيريلوفتش ، بالترتيب ، كل ما تبيّن من التحقيق الأولى فيما يتعلق بالمنازعات المالية والخلافات العائلية بين الابن وأبيه ، وبعد أن أشار مرة أخرى الى أن الوقائع المعروفة ليس فيها أى شىء يجيز لنا أن نقطع برأى حاسم وأن نجيب اجابة شافية على سؤالنا أى الرجلين غش الآخر وغبنه عند اقتسام الميراث ، انتقل هيبوليت كيريلوفتش الى الكلام عن الحالة النفسية التى كان عليها ميتيا حين غدا اهتمامه بالثلاثة آلاف روبل فكرة ثابتة تحاصر ذهنه ولا تبرحه فى لحظة من اللحظات ، فجاء فى هذه المناسبة على ذكر تقرير الخبرة الطبية •

٧

لمحة تاريخية

يريد تقرير الخبرة الطبية أن يبرهن لنا على أن المتهم لا يملك جميع قواه العقلية وأنه مصاب بمرض « المانيا » . أما أنا فأؤكد أن المتهم يملك عقله كاملاً ، وذلك هو بلاؤه وشقاؤه : فلو كان لا يملك عقله كاملاً ، لكان من الممكن أن يتصرف تصرفاً أقرب الى الذكاء . أما أن يكون مصاباً بمرض « المانيا » ، فذلك أمر أسلّم به ، ولكن مرض « المانيا » عنده لا ينصب على نقطة واحدة هي تلك التى أشار اليها تقرير الخبير الطبى ، أعنى الفكرة التى رسخت فى ذهنه عن أن أباه قد سلبه تلك الثلاثة آلاف روبل فيما يزعم . ومع ذلك نستطيع لتعليل ذلك الحنق الذى يجتاح نفسه ويستبد به كلما دار الكلام على هذه الثلاثة آلاف روبل ، نستطيع لتعليل ذلك أن نجد تفسيراً أبسط كثيراً من هذا التفسير القائم على أن بالمتهم استعداداً للجنون . اننى ، من جهتى ، أشاطر الطبيب الشاب رأيه الذى يقول ان المتهم كان يملك وما يزال يملك جميع قواه العقلية ، وأنه طبيعى سليم من الناحية السيكولوجية ، ولكنه منفعل حانق حاقد . تلكم هى عقدة القضية : ليس مبلغ الثلاثة آلاف روبل ، ليس المال هو السبب فيما كان يعانيه المتهم من

غضب متصل وحنق مستمر • ان هناك سبباً آخر كان يثير غضبه ، وهو سبب خاص : انه الغيرة ! » •

أفاض هيبوليت كيريلوفتش بعد ذلك في الكلام على الهوى الجامح المشئوم الذى شدّ المتهم الى جروشنكا ؛ وذكر تاريخ هذا الهوى منذ اليوم الذى ذهب فيه المتهم الى « تلك المرأة الشابة » على نية أن «يضربها» ـ على حد تعبيره ـ فاذا هو بدلاً من أن يضربها يتهاوى على قدميها • قال وكيل النيابة : « تلك كانت بداية هذا الحب • وفي ذلك الأوان نفسه انما ألقى العجوز ، أبو المتهم ، عينيه على هذه المخلوقة • يا للمصادفة العجيبة المشئومة ! لقد اشتعل القلبان حباً فى آن واحد ، فى ساعة واحدة تقريباً ، مع أن كلاً منهما قد أتيح له أن يراها قبل ذلك مراراً كثيرة• وكان الهوى الذى ألهب الرجلين هوى محموماً مسعوراً يتفق وطبيعة آل كارامازوف • وفي وسعنا أن نصدّق أقوال هذه المرأة الشابة • لقد ذكرت لنا ، فى هذا المكان نفسه ، أنها قد ضحكت على الرجلين كليهما وسخرت منهما كليهما • وتلكم هي الحقيقة : لقد اشتهت فجأة أن تضللهما وأن تغرر بهما كليهما • لم تكن قد اشتهت ذلك من قبل ، ولكن هذه الفكرة استهوت نفسها وفتنت فكرها على حين فجأة ، فاذا بالرجلين يزحفان وراء قدميها آخر الأمر • فالعجوز الذى كان حتى ذلك الحين لا يعبد شيئاً الا المال ، أعدّ لها ظرفاً فيه ثلاثة آلاف روبل يهديها اليها متى ارتضت أن تمن عليه بزيارة فى منزله ، بزيارة لا أكثر؛ ثم اذا هو يعلن أنه مستعد لأن يلقى على قدميها اسمه وثروته متى قبلت أن تصبح زوجته الشرعية • ان أمامنا شهادات واضحة جداً فى هذا الموضوع • أما المتهم فان المأساة التى صار اليها وضعُه واضحة لنا مبسوطة أمامنا • وهى « لعبة » هذه الانسانة مع ذلك • ان المغوية الخطرة لم تهب لهذا الشاب حتى أملاً ، لأنه لم يعرف أملاً ، أعنى لم يعرف

أملاً حقيقياً ، الا فى آخر لحظة ، حين جثا أمام المرأة التى سببت له تلك الآلام كلها ومدّ نحوها يديه اللتين كانتا قد تلوثتا بدم أبيه ، غريمه ومنافسه . وقد قبض عليه فى تلك اللحظة نفسها ، فلما رأت أنه يعتقل ، استولت عليها ندامة صادقة ، فهتفت تقول : « اسجنونى معه ، أريد أن أتبعه ، لأننى أنا التى أوردته موارد الهلاك ، لأننى أنا المذنبة ! » . ان السيد راكيتين ، الشاب الذى يملك حساً سيكولوجياً مرهفاً والذى تحدثت عنه منذ قليل ، قد تولى تحليل خفايا هذه القضية ، ووصف طبع بطلتنا فى بضع جمل موجزة ، فقال : « خيبة الآمال وتبدد الأوهام فى ميعة الصبا ؛ والمقاساة من كذب البشر فى سن مبكرة ؛ ثم السقوط ؛ وخيانة خطيب أغواها ثم هجرها ؛ وأخيراً موكب البؤس والفقر ، ولعنات أسرة محترمة ، والاحتماء بتاجر عجوز ما تزال تعده الى هذا اليوم محسناً اليها منعماً عليها . هكذا تجمّع الغضب وتراكم الحقد فى قلبها الذى لعله عرف اندفاعات طيبة كريمة . فنشأ عن ذلك طبع حيسوب ، وميل الى كنز المال ، كما نشأ عنه موقف من المجتمع تسيطر عليه روح المكر والخداع والاحتقار والثأر والانتقام . » . ان هذا التحليل السيكولوجى يتيح لنا أن ندرك كيف أمكن هذه المرأة أن تلعب بالرجلين كليهما فى آن واحد ، بدافع النزوة وحدها ، لتلهو بهما لهواً خبيثاً شريراً ولو أدى ذلك بهما الى الدمار . وفى أثناء ذلك الشهر الملىء بحب لا يعرف الأمل ، وبسقوط أخلاقى ، وبالخيانة للخطيبة ، وبالاستيلاء على مبلغ أؤتمن عليه وليس له ، فى أثناء ذلك الشهر لا بد أن يكون المتهم قد عرف ، عدا هذا ، حنقاً شديداً بسبب غيرة متصلة كانت تعذبه عذاباً قاسياً ؛ وممن كانت غيرته ؟ من أبيه نفسه ! وأخطر ما فى الأمر أن العجوز الطائش المجنون كان يحاول أن يفتن المرأة التى توله بحبها بواسطة ذلك المال نفسه الذى كان ابنه يعده حقاً آل اليه من ميراث أمه ،

ويدأب أبوه على حرمانه منه وحجبه عنه • نعم ، انني لأعترف بأن احتمال هذا كان عسيراً عليه ، قاسي الوقع في قلبه ! حتى ليمكن أن يتصور المرء أن يُصاب الشاب من ذلك بمرض « المانيا » • فليست المسألة مسألة مالٍ في الواقع ، وانما هي مسألة أن هذا المال نفسه يُستخدم في تحطيم سعادته باستهتار يثير الحنق والغيظ كل تلك الاثارة ! » •

بعد ذلك وصف هيبوليت كيريلوفتش كيف أن رغبة المتهم في قتل أبيه قد استولت على نفسه شيئاً فشيئاً ، وذكر الوقائع التي تسمح بتتبع نشوء الجريمة خطوة بعد خطوة • قال :

« كان في أول الأمر يذم ويقدح في الكاباريهات ، وظل شهراً بكامله لا يعمل شيئاً غير أن يذم ويقدح • انه يحب صحبة الناس ، ويحلو له أن يفضي ، الى جميع من يلقاهم ، حتى بأشد أفكاره خطراً وايذاءً ، متوقعاً من هؤلاء الأشخاص الذين يسمعون لبوحه الى حين ، أن يظهروا له عطفهم عليه ومودتهم له وأن يعربوا عن فهمهم لآرائه وتأييدهم لأفكاره • كان يقتضيهم ، لا يدري أحد لماذا ، أن يشاركوه همومه ويشاطروه هواجسه ، وأن يؤيدوه تأييداً كاملاً ، فلا يعارضوه في شيء مما عقد النية عليه ، والا ثارت ثائرته وأخذ يقلب كل شيء في الكاباريه (هنا ذكر وكيل النيابة الحادثة التي وقعت للمتهم مع الكابتن سنيجيريف) • وقد انتهى الأمر بالذين لاحظوه وسمعوا كلامه خلال هذا الشهر الى الشعور بأن ما يعلنه هذا الشاب ليس صرخات باطلة وتهديدات عقيمة ، وأن دمتري كارامازوف ، وهو على ما هو عليه من اندفاع أخرجه عن طوره ، قد يضع تهديداته موضع التنفيذ متى حان الحين (وهنا وصف وكيل النيابة الاجتماع العائلي الذي عُقد في الدير ، وذكر أحاديث المتهم مع أليوشا ، وصوّر ذلك المشهد الكريه الذي وقع في منزل الأب بعد الغداء يومً اقتحم ميتيا المنزل واستعمل مع أبيه

العنف ثم تابع وكيل النيابة كلامه) • لست أمضى الى حد الادعاء أن المتهم كان ، قبل وقوع مشهد العنف هذا ، قد فكر فى الجريمة ملياً ، وعزم عزماً جازماً قاطعاً على ارتكابها • ولكننى أقول ان فكرة القتل هذه قد راودته مراراً وأنه قد فكر فيها تفكيراً واعياً ، وهذا ما تثبته الوقائع ، وتثبته أقوال الشهود ، كما تثبته اعترافاته هو نفسه • اننى اعترف لكم ، يا سادتى المحلَّفين ، أننى ظللت حتى هذا اليوم أتردد فى اتهام الرجل بأنه ارتكب ، عن سابق تصور وتصميم ، جريمة القتل هذه التى كان يحس بأنه مدفوع اليها • صحيح أننى كنت مقتنعاً بأنه فكر مراراً فى أن يقدم فى المستقبل على انهاء القضية بهذه الخاتمة الفاجعة ، ولكننى كنت مقتنعاً بأنه لم يفكر فى هذا الحل الا على أنه احتمال قد يتحقق ، دون أن يحدد لتنفيذه يوماً بعينه ، وطريقة بعينها• وقد زالت اليوم تردداتى هذه ، حين اطلعت على تلك الوثيقة الحاسمة التى قدمتها الآنسة فرخوفتزيفا الى المحكمة • لقد سمعتم يا سادتى كيف صاحت تقول : « هذه خطة قتل ! » بهذا وصفت تلك الرسالة المشئومة التى كتبها هذا الرجل العاثر الحظ وهو فى حالة سكر • والحق أن هذه الرسالة تدل على أن هناك خطة ، وعلى أن الجريمة قد ارتكبت عن سابق تصور وتصميم • لقد كتبت هذه الرسالة قبل وقوع الجريمة بيومين ، ومعنى هذا أن المتهم قد حلف ، قبل تنفيذه خطته الرهيبة بثمانى واربعين ساعة ، أنه اذا لم يستطع أن يحصل على المال فى الغد ، فليقتلن أباه ليستولى على المبلغ المخبأ تحت الوسادة فى ظرف مربوط بشريط وردى اللون ، « شريطة أن يكون ايفان غائباً » • هل سمعتم ؟ « شريطة أن يكون ايفان غائباً » • كان اذن فى تلك اللحظة قد عيَّن جميع تفاصيل التنفيذ ، ووزن جميع الاحتمالات • ونحن نعلم أن الجريمة قد تم تنفيذها بعد ذلك على هذا النحو نفسه الذى ورد وصفه فى الرسالة ! ان التصور والتصميم

واضحان : لقد ارتكبت الجريمة بقصد السرقة • المتهم نفسه أعلن هذا كتبه بخط يده وذيّله بتوقيعه • ولم ينكر المتهم توقيعه • فاذا قيل انه كان في تلك اللحظة سكران ، قلت ان ذلك لا ينقص من خطورة الأمر شيئاً • بالعكس : لقد كتب وهو في حالة السكر ما سبق أن فكرّ فيه ملياً وهو في حالة الصحو • فلولا أنه كان قد اتخذ هذا القرار قبل أن يسكر ، لما كشف عن نياته وفضح نفسه حين أثر فيه السكر • وقد يقال أيضاً : فلماذا أعلن عن نياته قبل ذلك جهاراً في الكاباريهات ؟ ان الذين يريدون ارتكاب جريمة من الجرائم عن سابق تصور وتصميم حقاً ، يصمتون في العادة ، ويكتمون ما يجول في أذهانهم ، ويخفون ما عقدوا العزم عليه ! هذا صحيح ، ولكن المتهم لم يكن يصيح ذلك الصياح الا حين لم يكن لديه خطة مبيتة وبرنامج مدبر ، وانما كان يشعر بمجرد الرغبة في القتل والميل الى القتل • ولقد اصبح بعد ذلك لا يتكلم عن هذا الأمر الا قليلاً • وفي المساء الذي كتب فيه تلك الرسالة ، بعد أن سكر في كاباريه « العاصمة الكبرى » ، بدا صامتاً على غير عادته ، ولم يلعب البلياردو ، وظل منتحياً لا يقترب من أحد ، ولا يخاطب أحداً ، واكتفى بأن صفع مستخدماً صغيراً يعمل في محل تجاري • ثم انه قد فعل ذلك على غير شعور منه تقريباً ، لأنه كان يستحيل عليه أن لا يتشاجر مع أحد في كاباريه • صحيح أن المتهم ، حين عزم عزماً حاسماً على ارتكاب الجريمة ، لا بد أن يكون قد ساوره خوف من أنه أسرف في الكلام بالمدينة قبل ذلك ، لأن ما قاله يمكن أن يكون شهادة عليه بعد تنفيذ خطته ، ولكن لم يكن له في الأمر حيلة ، فقد فات الأوان وليس في وسعه أن يسترد الأقوال التي أفلتت من لسانه • وقد راعاه الحظ حتى ذلك الحين ، فما يزال يعوّل على الحظ • لقد كان يتكل على نجمه يا سادتي ! على أن من واجبي أن أعترف أنه قد بذل جهوداً كثيرة في

سبيل أن يؤخر اللحظة المشئومة ، آملاً أن يتجنب هذا الحل الدموى • كتب يقول بتلك اللغة الخاصة به : « سأحاول فى الغد أن ألتمس هذا المبلغ لدى جميع أنواع الناس ، فان لم أحصل عليه ، فسوف يسيل الدم » • هنا أيضاً يبوح وهو فى حالة السكر بما كان قد انتواه وهو فى حالة الصحو ، وسوف يتصرف فى حالة الصحو هذا التصرف نفسه الذى وصفه فى رسالته • • » •

عرض هيبوليت كيريلوفتش بعد ذلك بالتفصيل المحاولات التى قام بها ميتيا فى سبيل الحصول على المال لتجنب الجريمة • روى مساعيه لدى سامسونوف ، والرحلة التى قادته الى عند لياجافى ، مستشهداً على ذلك بوقائع مستمدة من ملف القضية •

« عاد الى المدينة أخيراً وقد انهدت قواه ، وأرهقه التهكم عليه ، وأنهكه الجوع ، وباع ساعته ليدفع للحوذى أجره (مع أنه كان يحمل ألفاً وخمسمائة روبل ، فى زعمه ، فى زعمه !) ، ومزقته الغيرة لأنه ترك محبوبته التى تشعل نار قلبه ، ويخشى أن تذهب أثناء غيابه الى فيدور بافلوفتش ••• عاد الى المدينة أخيراً • الحمد لله ! لم تذهب حبيبته الى فيدور بافلوفتش • وها هو ذا يوصلها بنفسه الى منزل حاميها سامسونوف (الغريب أنه لم يكن يغار من سامسونوف • تلك سمة سيكولوجية خاصة تتميز بها هذه القضية) • ثم يسارع الى المرابطة فى مرصده خلف الحديقة • وهناك يعلم بنبأ نوبة الصرع التى أصابت سمردياكوف ، ويعلم كذلك بمرض الخادم الآخر • الساحة اذن خالية• وهو يعرف « الاشارات السرية » • أليس فى هذا اغراء قوى له ؟ ولكنه يقاوم نداء الجريمة رغم كل شىء ، ويذهب الى هوخلاكوفا ، السيدة الجليلة التى تقيم فى مدينتنا الى حين ، والتى نحمل لها جميعا هنا أعمق الاحترام • ان هذه السيدة تشفق عليه وترثى لحاله وتهتم بمصيره

منذ زمن ، فها هي ذى تسدى اليه بنصيحة حكيمة عاقلة ، وهى أن يعدل عن هذا الحب المخزى، وأن ينقطع عن هذا التنقل اللاهى بين الكاباريهات، وأن يعزف عن تبديد قوى شبابه فى هذه الترهات الباطلة ، فيسافر الى سيبيريا ، الى مناجم الذهب . وقالت له : « هنالك ستجد مصباً للقوى والطاقات التى تفور وتغلى فى نفسك ، وهنالك ستجد فرجاً لطبيعتك الرومانسية المولعة بالمغامرات . » .

وبعد أن قصّ وكيل النيابة كيف انتهى هذا الحديث ، وحين وصل الى اللحظة التى علم فيها المتهم فجأة أن جروشنكا لم تمكث عند سامسونوف ، وصف الغضب الذى استولى على المسكين ، والغيرة التى تأججت نيرانها فى قلبه حين تصور أن هذه المرأة قد كذبت عليه ، وأنها الآن عند فيدور بافلوفتش . واعتقد هيبوليت كيريلوفتش عندئذ أن عليه أن يلفت الانتباه هنا الى الدور الذى لعبته المصادفة ، فقال :

« لو قد اتسع وقت الخادمة لأن تقول له ان حبيبته موجودة فى موكرويه مع « الصديق القديم المشروع » ، لكان من الجائز أن لا يحدث شيء البتة . ولكن الخادمة ، وقد ماتت من الخوف ، طفقت تحلف له أغلظ الأيمان على أنها لا علاقة لها بالأمر ولا دخل لها فيه ، ولئن لم يقتلها المتهم فوراً ، فما ذلك الا لأنه أسرع يلاحق الغادرة الخائنة فى الحال . ولكن لاحظوا هذه النقطة : ان المتهم ، رغم أنه قد جُن جنونه غضباً ، لم ينس أن يأخذ معه مدق الهاون النحاسى . فلماذا يأخذ هذا المدق بعينه ولا يأخذ سلاحاً آخر ؟ ما دام قد فكر فى ارتكاب الجريمة خلال شهر كامل ، فمن الطبيعى أن يتناول أول شيء تقع عليه يداه مما يصلح أن يكون سلاحاً . لذلك أدرك عفو الخاطر أن هذا المدق يفى بالغرض ويحقق الهدف . معنى ذلك أنه لم يتناول المدق المشئوم على غير شعور منه ، على غير ارادة منه . وها هو ذا الآن فى حديقة

أبيه : الساحة خالية ، لا شهود ، لا شيء الا الليل العميق ، والظلمات ، والغيرة . وتصوّرَ أنها الآن هناك ، قرب غريمه ، مع منافسه ، وربما كانت في هذه اللحظة تسخر منه وتستهزىء به . استولت هذه الفكرة على المتهم . ليس الأمر فى هذه المرة أمر شكوك وشبهات ، ليس الأمر أمر خوف مبعثه الخيال ، وا أسفاه . قال لنفسه : « الخيانة واضحة ! » هى هنا ، هنا ، فى هذه الغرفة التى يرى نافذتها مضاءة ... انها مختبئة وراء الستائر . ويتسلل المسكين نحو النافذة ... هل تريدون منه أن يكتفى بأن يلقى على الغرفة نظرة احترام ، ثم يهدأ على الفور ، وينصرف فى تعقل وحكمة ، تجنباً لبلية من البلايا وتحاشياً للاندفاع فى عمل خطر مجافٍ للأخلاق ؟ ذلكم هو مع ذلك ما يحاولون أن يقنعونا به نحن الذين نعرف طبع المتهم وندرك الحالة النفسية التى كان عليها فى تلك الدقيقة ! اننا نعرف الحالة النفسية التى كان عليها ، نعرفها من وقائع ثابتة ، ونعرف خاصة أنه كان على علم بالاشارات التى يستطيع بواسطتها أن يحمل أباه على أن يفتح له الباب ، فيدخل الى البيت ! » .

حين جاء هيبوليت كيريلوفتش على ذكر الاشارات السرية ، اعتقد أن من اللازم أن يستطرد قليلاً ، وأن يقطع ، الى حين ، عرضَه للأدلة التى تدين المتهم ، وأن يندفع فى تحليلات تتناول شخص سمردياكوف . كان واضحاً أنه انما يريد أن يقضى على ذلك الافتراض الذى يذهب الى أن سمردياكوف قد يكون هو الجانى ، وأن يستأصل هذه الفكرة من عقول المحلفين استئصالاً نهائياً . لم يهمل وكيل النيابة أى أمر من الأمور التفصيلية . وأدرك الجميع أنه ، وان كان يستبعد هذا الافتراض باحتقار وازدراء ، يرى أن التوقف عنده والتلبث عليه أمر هام جداً .

٨

مقالة عن سمردياكوف

بدأ هيبوليت كيريلوفتش كلامه عن سمردياكوف بهذا السؤال : « أولاً ، كيف نشأ هذا الافتراض ؟ » ثم قال : « ان أول من اتهم سمردياكوف هو المتهم نفسه • صرخ يتهمه لحظة القبض عليه ، ولكنه لم يستطع أن يقدم حتى الآن واقعة واحدة يمكن أن تؤيد مثل هذا الاتهام • واقعة ؟ بل ولا ظلّ واقعة يستطيع انسان أوتى ذرة من عقل أن يعدها مقبولة محتملة • وبعد المتهم ، لم يعبر عن هذا الاتهام الا ثلاثة أشخاص هم : أخوا المتهم والسيدة سفيتلوفا • ولكن ايفان فيدوروفتش لم يفصح عن شكوكه وشبهاته حول هذا الموضوع الا في هذه الجلسة ، بينما هو مريض قد انتابته نوبة هذيان وحمى حارة لا شك فيها • أما خلال الشهرين الماضيين ، فقد ظل مقتنعاً ، كما نعلم ذلك ، بأن أخاه هو الجانى ، ولم يحاول قط أن يدحض هذه الفكرة • وان لنا عودة الى تصريحاته على كل حال • ثم لقد أكد لنا الأخ الأصغر من أخوى المتهم ، أكد لنا منذ قليل أنه لا يملك أى دليل يمكن أن يثبت أن سمردياكوف هو الجانى ؛ وانما هو يبنى اتهامه على هذيان المتهم ، وعلى « تعبير وجهه » • نعم أيها السادة ، ان هذا الشاهد قد قدّم لنا هذا الدليل مرتين ! أما السيدة سفيتلوفا فقد قالت كلاماً أغرب من هذا الكلام

أيضاً ، قالت : « ما عليكم الا أن تصدقوا المتهم ، فليس هو بالرجل الذى يكذب ! » •تلكم هى جميع الأدلة المادية التى أمكن تقديمها ضد سمردياكوف حتى الآن ، وقد قدمها الينا ثلاثة أشخاص يعنيهم مصير المتهم ويهمهم كثيراً • ومع ذلك ، أيها السادة ، فان الشكوك والشبهات حول سمردياكوف قد انتشرت بين الناس وما تزال تنتشر ، رغم كل ما فى ذلك من غرابة ، ورغم أن هذا الاتهام لا يمكن أن يصدقه العقل • » •

وهنا اعتقد هيبوليت كيريلوفتش أن من واجبه أن يرسم صورة سريعة لشخصية المتوفى سمردياكوف ، الذى « أنهى حياته أثناء نوبة جنون » ، فصوّره على أنه امرؤ ضعيف العقل ، يملك مبادىء ثقافة ، ولكن المفاهيم الفلسفية التى تتجاوز حدود ذكائه قد هزّت عقله ، كما أن بعض الآراء الحديثة فى الواجب والالتزامات الأخلاقية قد روّعت قلبه • وقد تعلم هذه النظريات ، على الصعيد العملى ، من الحياة الفاسقة التى يعيشها مولاه فيدور بافلوفتش الذى ربما كان أباه أيضاً ، وتعلمها على الصعيد النظرى من الأحاديث التى كانت تدور بينه وبين ايفان فيدوروفتش ، الابن الثانى من أبناء مولاه • كان ايفان فيدوروفتش يتسلى هذه التسلية من حين الى حين ، من قبيل التفكه والتندر ، ومن قبيل الضحك على هذا المسكين فى أغلب الظن ، وذلك حين لا يكون لديه شىء آخر يسرّى به عن نفسه » •

وواصل هيبوليت كيرلوفتش كلامه قائلاً :

« لقد وصف لى هو نفسه الحالة النفسية التى كان عليها طوال الأيام الأخيرة التى قضاها فى منزل مولاه • وأيّد ذلك أشخاص آخرون : أيّده المتهم نفسه خاصةً ، وأيّده أخو المتهم ، بل وأيده جريجورى أيضاً ، أى أيده جميع أولئك الذين يعرفونه من كثب • ثم ان سمردياكوف ، الذى هدّه مرض الصرع ، « كان وجلاً كدجاجة » . لقد أسرّ الينا المتهم

فى عهد لم يكن يتصور فيه ، بعد ، ما قد يشتمل عليه هذا التصريح من ضرر له ، أسرّ الينا قوله : « كان يرتمى على قدمىّ ويقبلهما » ، وقال لنا فى يوم آخر ، بهذه اللغة الخاصة به المعهودة فيه : « هو دجاجة مصابة بداء الصرع » . ومع ذلك فان هذا الرجل الضعيف هو الذى يتخذه المتهم نجياً له يفضى اليه بأسراره ويبوح له بخفايا نفسه (وذلك ما اعترف هو به) ، ويبلغ من ترويعه وارهابه وتخويفه أن المسكين ارتضى آخر الأمر أن يكون له جاسوساً يزوده بالأخبار ويحمل اليه الأنباء ، فلما ارتضى أن يكون « مخبراً » ، خان مولاه وأطلع المتهم على وجود الظرف المودع فيه المال ، وعلّمه فى الوقت نفسه الاشارات التى سيتسنى له بواسطتها أن يدخل المنزل . وهل كان فى وسعه أن لا يطلعه عليها ؟ لقد قال لنا سمردياكوف أثناء التحقيق وهو يرتعش أمامنا خوفاً ، رغم أن جلاّده كان قد قُبض عليه فى ذلك الحين وأصبح لا يستطيع أن يقتصّ منه ، قال لنا : « لو كتمت عنه تلك الأمور لقتلنى ، رأيت بعينىّ أنه سيقتلنى لو كتمتها عنه . كان لا ينفك يشتبه فىّ ويشك فى صدقى ؛ فكنت حين يروّعنى ويرهبنى ، أسارع فأكشف له عن جميع الأسرار التى أعرفها ، لأدفع عن نفسى غضبه ، مبرهناً له على براءتى وصدقى ، منقذاً بذلك حياتى » . تلكم هى الألفاظ التى أستعملها المسكين فى كلامه بنصها ، وقد دوّنتها . « كنت اذا أخذ يصرخ ، ارتمى جاثياً على ركبتىّ أمامه » . وكان الخادم المسكين ، وهو بطبيعته أمين أمانة بالغة ، قد حظى بثقة مولاه الذى أيقن من صدقه وأمانته يوم ردّ اليه الأوراق النقدية الضائعة . ولا بد أن يكون سمردياكوف قد عانى كثيراً من عذاب الضمير لأنه خان مولاه هذا الذى كان يحبه ويرى أنه محسن اليه منعم عليه . ان أطباء الأمراض العقلية البارزين يعرفون أن الأشخاص المصابين بداء الصرع ميالون الى اتهام أنفسهم بغير انقطاع ، وأنهم يقاسون عذابا شديداً

من شعورهم بأنهم « مذنبون » فى حق أحد أو فى حق شىء ، وأن تبكيت الضـمير يرهقهم ارهاقاً مضنيا دون أن يكون هنالك ما يدعو الى ذلك فى كثير من الأحيان ، وأنهم يضخمون أخطاءهم وربما اخترعوا جرائم خيالية يقع فى وهمهم أنهم ارتكبوها • فما بالكم بانسان من هذا النوع أصبح مذنباً أو جانياً بالفعل لأنه أكره على ذلك بالارهاب • يضاف الى ذلك أن سمردياكوف كان يحس سلفاً أن الأحوال التى يرى تطورها فى منزل مولاه قد تؤدى الى بلاء عظيم وشر مستطير • فحين أراد الابن الثانى من أبناء فيدور بافلوفتش أن يسافر الى موسكو قبيل وقوع الكارثة ، تضرع اليه سمردياكوف أن يبقى ، ولكنه بحكم ما تتصف به طبيعته من خوف ووجل ، لم يجرؤ أن يفصح له بوضوح وجلاء عن المخاوف التى تساوره ، واكتفى بالالماع اليها الماعاً ، ولكن ايفان لم يفهم عنه • يجب أن نلاحظ أن وجود ايفان فيدوروفتش فى المنزل كان يبدو لسمردياكوف نوعاً من الحماية له ، كأنه كان على يقين من أن شـيئاً لن يحدث ما بقى ايفان حاضراً • تذكروا ما كتبه دمترى كارامازوف فى « رسالة السكر » التى بعث بها الى كاترين ايفانوفنا : « شريطة أن يكون ايفان غائباً » • كان حضور ايفان اذن ضمانة لاستتباب الأحوال وطمأنينة البال فى نظر الجميع • ولـكنه سافر • فما أن انقضت على رحيله سـاعة واحدة ، حتى انتابت سـمردياكوف نوبة صرع • وذلك أمـر مفهـوم معقـول • يجب أن لا ننسى أن سـمردياكوف كان ، خـلال الأيام الماضـية ، وقد هدّه الخـوف وأضـناه نوع من اليـأس النفسى ، كان يحس بدنوّ نوبة من نوبات الصرع هذه التى سبق أن انتابته مراراً فى سـاعات التوتر العصبى والانهيـار النفسى • صحيح أن من المستحيل على المصـاب بهذا الداء أن يتنبأ بالساعة واليوم اللذين ستوافيه فيهما نوبة كهذه النوبة ، ولكن جميع المصابين بهذا الداء يستطيعون أن يحسـوا مقدماً بوشك حدوثها •

ما ان ابتعدت عربه ايفان فيدوروفتش عن المنزل حتى نزل سمردياكوف الى القبو لشأن من شئون الخدمة . وكان فى تلك اللحظة يرزح تحت وطأة الشعور بالعزلة والهجران ، ويحس بأنه أعزل لا يملك عن نفسه دفاعا ، وكان يتساءل وهو يهبط السلم : « هل ستوافينى نوبة ؟ ما عسى يحدث لو سقطت الآن ؟ » . وبسبب هذه الحالة النفسية ، بسبب هذا الخوف وهذا السؤال الذى ألقاه على نفسه ، انما حدث له على حين فجأة تقلص فى الحلق هو ذلك التقلص الذى يسبق موافاة النوبة دائماً ، ثم اذا هو يتدحرج الى القبو مغشياً عليه . ان هذا الحادث ، الطبيعى تماماً ، قد ولد شكوكاً وشبهات ، فأراد بعضهم أن يرى فيه دليلاً على نية مبيتة ، وادعى أن هذا الرجل قد اصطنع النوبة اصطناعاً وتظاهر بها تظاهراً . فلنفرض الآن أن هذا الادعاء صحيح . غير أن هناك سؤالاً ما يلبث أن يطرح نفسه علينا وهو : ما عسى يكون هدف هذا الرجل من ذلك التظاهر المزعوم ؟ ما عسى يكون الحساب الذى أجراه ، وما عسى يكون الغرض الذى سعى الى تحقيقه باصطناع النوبة والتظاهر بها ؟ لنترك الطب جانباً . فانه يقال ان الطب يمكن أن يخطىء ، وكثيراً ما يؤدى الى ضلال الرأى وفساد الحكم ، وان الأطباء لا يستطيعون أن يميزوا دائماً بين مرض صادق ومرض مصطنع . لنسلم بأن هذا صحيح . ولكننى أطلب منكم أن تجيبوا عن هذا السؤال : ما هى الفائدة التى كان يمكن أن يجنيها من التظاهر بالصرع ؟ لو كان قد نوى ارتكاب الجريمة ، أفكان يتمنى مثلاً أن يلفت اليه انتباه جميع من فى المنزل سلفاً بنوبة صرع يفتعلها ؟ لاحظوا ، يا سادتى المحلفين ، أنه كان فى منزل فيدور بافلوفتش ، ليلة حدوث الدرامة ، خمسة أشخاص لا أكثر : فأما الأول فهو فيدور بافلوفتش نفسه . ولكن من الواضح أن فيدور بافلوفتش ليس هو القاتل ، وأما الثانى فهو خادمه جريجورى ، ولكن جريجورى أوشك

أن يكون قتيلاً هو نفسه ؟ وأما الثالث فهو زوجة جريجورى ، الخادمة مارفا اجناتفنا ، ولكن من المضحك أن نتخيل أن تكون هى التى قتلت مولاها • لم يبق هنالك اذن الا شخصان ، هما المتهم وسمردياكوف • ولما كان المتهم يدعى أنه برىء ، فلا يمكن اذن أن تكون جريمة القتل قد ارتكبها أحد الا سمردياكوف • ليس هناك حل آخر ، اذ يستحيل اكتشاف شخص يمكن اتهامه بهذه الجريمة غير هذين الرجلين • على هذا النحو انما نشأ اذن ذلك الافتراض « البارع » الذى سمح بتوجيه هذا الاتهام الرهيب الى أبله مسكين هو ذلك الشقى الذى انتحر بالأمس • لقد اتهموه لسبب واحد هو أنه ليس هناك شخص آخر يمكن أن يوجهوا اليه اتهامهم ! ولو كانوا يملكون ولو ظلاً شبهة تسمح باتهام شخص سادس ، لاستحى المتهم نفسه ـ وأنا من هذا على يقين ـ أن ينسب الجريمة الى سمردياكوف ، ولوجه التهمة عندئذ الى ذلك الشخص السادس • ان الاشتباه فى سمردياكوف سخف محض !•

« ولكن دعونا من السيكولوجيا أيها السادة ، ودعونا من الطب ، ودعونا حتى من المنطق ، ولنقتصر على النظر فى الوقائع وحدها ، وفى الظروف المادية • لنترك للوقائع أن تتكلم • لنفرض أن سمردياكوف قد قتل ، ولنتساءل كيف قتل ؟ أقتل وحده ، أم قتل بالتواطؤ مع المتهم• لننظر فى الافتراض الأول ، وهو أن يكون سمردياكوف قد قتل بمفرده• من البديهى أنه اذا كان قد قتل ، ففى سبيل أن يجنى نفعاً ما ، ولما كان لا يجيش فى نفسه أى باعث من البواعث التى يمكن أن تحض المتهم على القتل ، كالكره والغيرة وما الى ذلك ، فان سمردياكوف ما كان ليرتكب هذه الجريمة الا بدافع الطمع فى المال طبعاً ، وذلك ليستولى على تلك الثلاثة آلاف روبل التى رأى مولاه يودعها فى ظرف ؛ حتى اذا عقد النية على ارتكاب هذه الجريمة أسرع يفضى الى شخص آخر ـ الى

شخص يعنيه الأمر كثيراً ، أعنى الى المتهم - بجميع التفاصيل المتصلة بالمال ، وبالاشارات السرية ، وبالمكان الذى خبىء فيه الظرف ، وبالكتابة التى كتبت على الظرف ، وبالطريقة التى تسمح بدخول منزل رب الدار. أفقال هذا الكلام ليفضح نفسه ؟ أقاله ليحرض على الاستيلاء على المال شخصاً يستطيع أن يستولى عليه ويحرمه منه ؟ رب قائل يقول انه انما تكلم من شدة خوفه ! عجيب ! هل يقبل رجل لم يتردد لحظة واحدة عن ارتكاب جريمة فظيعة هذه الفظاعة كلها ، جريئة هذه الجرأة كلها ، أن يفضى - عن خوف ! - بمعلومات لا يعرفها أحد فى العالم سواه ، ولا يمكن أن تخطر ببال أحد اذا هو كتمها ؟ لا ، لا ، ان الرجل مهما يكن شديد الخوف ، ما كان له أن يبوح لأحد ، بعد أن انتوى ارتكاب مثل هذه الجريمة ، بالتفاصيل المتعلقة بالظرف والاشارات ، ولو فعل ذلك لكان يشى بنفسه سلفاً . ان هذا الرجل كان يمكن أن يتخيل شيئاً آخر، أن يكذب وأن يخترع ويلفق اذا هو أجبر على الكلام ، أما أن يبوح بهذه التفاصيل فلا ! ولو لم يذكر شيئاً عن المال ، ثم استولى على الظرف لنفسه ، لما خطر ببال أحد فى العالم - أكرر هذا - أن يتهمه بالقتل طمعاً فى المال ، لأن أحداً غيره فى العالم لم يكن يعرف شيئاً عن هذا المبلغ ، ولا رأى هذا المبلغ ، ولا يخطر بباله أن له وجوداً فى المنزل . واذا اتهم الرجل بعد ذلك بالقتل ، فلا بد عندئذ من تخيل سبب آخر دفعه الى ارتكاب الجريمة . ولكن أحداً لم يتصور حتى ذلك الحين أن هناك أى سبب يمكن أن يحضه على القتل ، بل لقد كان جميع الناس يعرفون أن مولاه يحبه ويكرمه بمحضه ثقته ، فما كان للشبهات والحالة هذه أن تحوم حوله ، ولكان آخر من يمكن أن توجه نحوه الشكوك ، ولفكر الناس عندئذ فى اتهام ذلك الذى تجيش فى نفسه بواعث من هذا النوع سبق أن جاهر بها فى كل مكان ، ولم يكتمها عن أحد ،

بل كان يصـــارح بها أول قادم ، أى لا تهم الناس عندئذ ابنَ المجنى عليه ، أعنى دمترى فيدوروفتش •أفلا يكون هذا فى مصـــلحة القاتل سمردياكوف ؟ فما قولكم اذا كان دمترى هذا نفسه هو بعينه الشخص الذى أفضى اليه سمردياكوف ، بعد أن عقد النية على القتل ، بالمعلومات التى تتصل بالمال والظرف والاشارات السرية ؟ ياللمنطق الواضح !

« ويجىء يوم ارتـكاب الجريمـة التى انتواها ســمردياكوف ، ويتدحرج الى أرض الكهف « متظاهراً » بنوبة صرع • ولكن ما هو هدفه من ذلك ؟ أيكون هدفه من ذلك أن يعدل الخادم جريجورى ، الذى كان قد قرر أن يداوى مرضه ، أن يعدل عن هذه المداواة وأن يرجئها الى وقت آخر ، ليتولى بنفســه حراســة المنزل ، اذ يلاحـظ أن المنزل أصبح بغير حراسة ؟ أم يكون هدفه من ذلك أن يبادر رب الدار ، حين يلاحظ أنه لم يبق هناك أحد يحرسه من عدوان ابنه الذى يخشى أن يداهمه ولا يكتم خشـيته هذه ، أن يبـادر رب الدار الى مزيد من الحذر والاحتياط والتيقظ ؟ أكثر من ذلك : هل كان ســمردياكوف يستهدف ، من التظاهر بنوبة الصرع ، أن يُنقل من المطبخ الذى كان ينام فيه عادةً والذى كان يستطيع أن يخرج منه دون أن يراه أحد ، هل كان يستهدف أن يُنقــل الى الطرف الآخــر من المبنى الملحق ، الى غرفة جريجورى ليُمدَّد هناك صريعاً وراء حاجز رقيق لا يبعـد عن سرير الخادم العجـوز وامرأته الا ثلاث خطوات ، كما كان يُفعل ذلك به كلما وافتــه نوبة من نوبات الصرع ، بأمرٍ من رب الدار ومن مارفا اجناتفنا الرحيمة الشفوق ، حتى اذا أُضجع على حصيرة وراء ذلك الحاجز كان عليه أن يواصل التوجع والأنين طوال الليل ، ليحسن تمثيل دوره ، فاذا هو يوقظ الشخصـين النـائمين على بعد ثلاث خطوات منه (وذلك

ما حدث فعلاً ، بشهادة جريجورى وامرأته) ؟ أيكون سمردياكوف قد تخيَّل هذا كله ، قد تخيل هذه التمثيليــة كلهــا ، ليتسنى له أن ينهض فيمضى نقتل مولاه بمزيد من السهولة واليسر ؟

« رب معترض يقول لى ان سمردياكوف انما تظاهر بنوبة الصرع ليدفع عن نفسه الشبهات بحجة مرضه ، وانه أطلع المتهم على المعلومات المتصلة بالظرف والاشارات السرية ، ليغرى المتهم بأن يجىء فيتولى القتل بنفسه ، حتى اذا فرغ المتهم من قتل أبيه وغادر المنزل حاملاً معه المال ، بعد أن يحدث ضجة وجلبة من شأنهما أن توقظا سكان الدار ، نهض سمردياكوف ، نعم ، نهض فمضى ... مضى يفعل ماذا ؟ مضى ليقتل مولاه مرةً أخرى ، وليسرق مرة أخرى المال الذى سبقه اليه المتهم وذهب به . أتضحكون أيها السادة ؟ انى لأعترف لكم بأننى أشعر أنا نفسى بالخجل حين أرانى مضــطراً الى النظر فى افتراضــات من هذا النوع . ولكن هذا التفسير هو بعينه التفســير الذى يقدمه لنا المتهم . فتصوروا وتأملوا ! ان المتهم يدعى أن سمردياكوف قد قام بقتل مولاه وبسلبه ماله ، فى الوقت الذى كان هو فيه قد غادر المنزل بعد أن جندل جريجورى . لن أطيل الكلام على هــذا التســاؤل : كيف تســنى لسمردياكوف أن يتنبأ بكل شىء هذا التنبؤ ، وأن يحسب حساباً دقيقاً ان الابن العنيف المندفع الخارج عن القانون سيجىء لا لغرضٍ آخر غير أن يلقى من خلال النافذة نظرة احترام ، وأنه على علمه بالاشارات السرية سينصرف فى الحال تاركاً الغنيمة له هو سمردياكوف ؟ أيها السادة ، اننى أسألكم جاداً : فى أية لحظة ارتكب سمردياكوف الجريمة ؟ دلُّونى على تلك اللحظة ، والا لم يمكن النظر فى هذا الافتراض أساساً .

« قد يقــال لعل نوبة الصرع كانت صــادقة غير مصطنعة ، ولعــل المريض صحا من غيبوبته فجــأة ، فســمع صراخاً فخــرج . وماذا بعد

ذلك ؟ لعله نظر حواليه فعزم أمره على حين بغتة قائلا : « آ ••• عندى فكرة ! سأمضى أقتل مولاى ! » • ولكن أنَّى لسمردياكوف أن يكون قد حزر ما وقع وقد كان حتى ذلك الحين مغشياً عليه ؟ اننى أتوقف عن الاسترسال فى مثل هذا الكلام ، لأن للخيال حدوداً هو أيضاً •••

« وقد يقول نفر ممن أوتوا فكراً مرهفاً : ربما كان هذا كله صحيحاً ، ولكن أفلا يمكن أن يكون قد قام بين الرجلين تواطؤ على الجريمة ، فارتكباها معاً واقتسما المال ؟

« ذلكم فى الواقع افتراض له وزنه ، افتراض يستند الى قرائن قويه جداً ، كما سترون : أحد الشريكين يقتل ويتحمل كل العناء وحده ، بينما الثانى يستريح متظاهراً بنوبة صرع ، لا لشىء الا أن يجعل جميع من بالمنزل فى يقظة ، وأن لا يثير القلق فى نفس مولاه وفى نفس جريجورى ! ألا أنه لأمر شائق أن نعرف ما عسى تكون الأسباب التى دفعت الشريكين الى تخيل خطة حمقاء الى هذا الحد ! وقد يقول بعضهم ان مشاركة سمردياكوف فى الجريمة لم تكن مشاركة فعّالة ، وانما كانت مشاركة سلبية لعله قبلها على مضض ، فلعل المسكين لم يزد على أن ارتضى أن لا يعارض صاحبه فى ارتكاب الجريمة ، وذلك من شدة ماشعر به من خوف ، وما كان يقاسيه من ارهاب صاحبه له ؟ واذ أدرك مع ذلك أنه سيتهم بأنه سهّل مقتل مولاه لأنه لم ينبّه ولم يسارع الى الدفاع عنه ، فلعله توسّل الى دمترى فيدوروفتش كارامازوف سلفاً أن يأذن له بأن يصطنع أثناء ذلك نوبة صرع قائلاً له : « اقتل ما شاء لك هواك أن تقتل ، فذلك أمر لا شأن لى به » • ولكن لو صحّ هذا لكان من شأن نوبة الصرع أن تنبّه المنزل كله حتماً ، ولما قبل دمترى كارامازوف الذى لا بد أن يتنبأ بذلك ، لما قبل تدبيراً من هذا النوع • ومع ذلك فلنسلم بأن دمترى قد ارتضى هذا التدبير • سوف ينتج عن ذلك فى هذه الحالة

أن دمترى كارامازوف يكون هو القاتل ، هو المحرِّض والفاعل في آن واحد ، أما سمرد ياكوف فلا يكون الا شريكاً مستتراً ، بل انه يكون أقلَّ من شريك ، يكون شاهداً كتم الجريمة رغم ارادته من شدة الخوف ؛ ولن يفوت المحكمةَ عندئذ أن تحدد درجة مسئولية كل من الرجلين. ولكن ما الذى رأيناه بالفعل ؟ رأينا المتهم ، ما ان قُبض عليه ، حتى ألقى الجرم كله على عاتق سمرد ياكوف ، واتهمه بأنه « وحده » الفاعل . انه لم يشِ به شريكاً له في الجرم ، بل وشى به فاعلاً منفرداً بارتكاب جناية القتل . صاح يقول : « هو القاتل ، هو وحده القاتل ، هو الذى قتل وسرق ! . الجريمة من صنع يديه وحده ! » . فكيف نتصور أن يتهم كل من الشريكين صاحبه منذ أول لحظة ؟ ذلك أمر لم يسبق أن حدث حتى الآن . وانظروا أيضاً الى الخطر الذى يعرِّض له دمترى كارامازوف نفسه حين يتصرف هذا التصرف : انه هو القاتل الرئيسى ، على حين أن الآخر ليس له من المشاركة في الأمر الا نصيب ضئيل وحصة تافهة ، فما هو الا شاهد لم يحرك ساكناً ، ولبث راقداً على حصيرته وراء الحاجز ؛ فحين يلقى دمترى كارامازوف الجرم كله على عاتق هذا الرجل ، فانما يعرِّض نفسه عندئذ لأن يستاء منه هذا الرجل وأن يثور عليه فيبادر الى الكشف عن الحقيقة كاملةً على الفور ، ولو بدافع غريزة حب البقاء وحدها . كان سمرد ياكوف سيروى عندئذ أنهما ارتكبا الجريمة معاً ، ولكنه لم يتولَّ هو تنفيذ القتل ، وانما اكتفى من شدة خوفه بأن يدع لصاحبه أن يفعل وأن لا يعارضه فيما عزم عليه من ارتكاب جريمة القتل . ذلك أن سمرد ياكوف لا بد أن يدرك أن المحكمة كانت ستعترف بأن نصيبه من المشاركة في الجريمة نصيب ضئيل ، ولا بد أن يأمل أن يكون عقابه ، اذا هو عوقب ، أخفَّ كثيراً من العقاب الذى ستنزله المحكمة في الفاعل الرئيسى الذى يحاول أن يلقى الجرم كله على

عاتقه • فلو كان الأمر كذلك ، اذن لأحس سمردياكوف بأنه مدفوع الى الاعتراف بكل شيء • ولكننا لم نر شيئاً من هذا • ان سمردياكوف لم يتفوه بكلمة واحدة عن هذا التواطؤ المزعوم ، رغم أن القاتل قد اتهمه اتهاماً قاطعاً صريحاً ، وكان يسميه دائماً على أنه الفاعل الوحيد الذى ارتكب الجريمة • وأكثر من ذلك أن سمردياكوف قد ذكر من تلقاء نفسه أثناء التحقيق أنه « هو » الذى زوّد المتهم بالمعلومات التى تتعلق بالمبلغ ، وبالاشارات السرية ، فلولاه لما عرف المتهم من هذه المعلومات شيئاً • فهل كان يمكن أن يكشف لقاضى التحقيق عن هذه الحقائق كلها ، هل كان يمكن أن يعترف بأنه قد أطلع المتهم على هذه الأمور بنفسه ، لو كان شريكه فى الجرم فعلاً ؟ ألا انه لو كان شريكه حقاً لحاول استبعاد هذه التفاصيل ، ولأنكرها محاولاً أن يشوه الوقائع وأن يخففها • ولكنه لم يشوه شيئاً ولم يخفف شيئاً • ولا يمكن أن يتصرف هذا التصرف الا انسان برىء ، انسان لا يخشى أن يُتهم بالاشتراك فى الجريمة • وأمس شنق هذا الرجل نفسه وهو فى حالة انهيار مرضى مرده الى داء الصرع والى النازلة التى ألمت بذويه ؟ وقبل موته كتب كلمة يقول فيها بأسلوبه الخاص : « أنهيت حياتى بارادتى حراً ، فلا تتهموا أحداً » • فلماذا لم يضف الى ذلك قوله : « أنا القاتل ، لا كارامازوف » ؟ انه لم يضف هذا الكلام • أيكون عنده من شرف الذمة وعذاب الضمير ما يكفى لدفعه الى قتل نفسه ، ثم لا يكون عنده منهما ما يكفى لدفعه الى تبرئة برىء ؟ دعونا من هذا الكلام ايها السادة ، دعونا من هذا الكلام !

« واليكم الآن شيئاً آخر : لقد أُتى الى هذه المحكمة منذ قليل بمبلغ من المال هو ثلاثة آلاف روبل (على زعم أن هذا المبلغ هو الذى كان مودعاً فى الظرف الموجود الآن على منضدة وثائق الاتهام ، وقد ادعى الشاهد أنه أخذه أمس من سمردياكوف) • ولكن المشهد الأليم الذى

جرى هنا منذ قليل ، ما يزال ماثلاً في أذهانكم • لن أذكر تفاصيل هذا المشهد ، وسأكتفي بأن أسوق بعض الملاحظات في هذا الصدد ، وهي ملاحظات تافهة ، ولكنها لتفاهتها هذه نفسها قد تغيب عن البال وقد تهمل ؟ فأقول أولاً : ان المفروض هو أن سمردياكوف قد انتحر أمس ورد المال لأنه شعر بعذاب الضمير • (فلولا عذاب الضمير لما رد المال) • وبالأمس اذن انما يكون سمردياكوف قد اعترف بجريمته لايفان كارامازوف لأول مرة ، كما ذكر لنا ايفان كارامازوف ذلك في شهادته ؟ وبدون هذا لا يمكننا أن نفهم لماذا يكون سمردياكوف قد سكت عن الأمر حتى الآن • ولكن اذا كان سمردياكوف قد اعترف بجريمته ، فانني أعود فأسأل : لماذا لم يعترف بالحقيقة كلها في الكلمة التي كتبها قبل موته وهو يعلم أن بريئاً قد يصدر في حقه غداً حكم فظيع ؟ ان المال وحده لا ينهض دليلاً على شيء • من ذلك مثلاً أنني علمت منذ أسبوع ، بطريق المصادفة وحدها ، كما علم ذلك شخصان آخران حاضران في هذه القاعة أن ايفان كارامازوف قد صرف في مركز المقاطعة سندين بفائدة خمسة في المائة ، قيمة كل منهما خمسة آلاف روبل • واذا كنت أذكر هذا فانني لا أذكره الا لأبيّن أن أي انسان يستطيع أن يحصل على مبلغ من المال في لحظة معينة ، وان ابراز ثلاثة آلاف روبل يستحيل أن يبرهن برهاناً قاطعاً على أن هذا المبلغ هو بعينه المبلغ الذي كان مودعاً في درج معين أو في ظرف معيّن • ثم انني أتساءل أخيراً : لماذا لم يبادر ايفان كارامازوف ، حين حصل بالأمس من فم القاتل الحقيقي على اعترافات تبلغ هذا المبلغ من الخطورة ، أقول لماذا لم يبادر الى القيام بعمل من الأعمال على الفور ، لماذا لم يبادر الى ابلاغ القضاء في الحال ؟ لماذا أرجأ تصريحه الى الغد ؟ لماذا ؟ أحسب أنني أحزر : انه وهو مريض منذ ثمانية أيام ، انه وهو يعاني من هلوسات

ويرى أشباحاً وتهجس فى نفسه أوهام فيتخيل أنه يرى فى الشارع أشخاصاً قد ماتوا منذ زمن طويل ، انه وهو فى عشية نوبة من نوبات حمى حارة رأيتم كيف صرعته منذ قليل ، انه وهو فى تلك الحال قد علم فجأة بأن سمردياكوف مات ، فاذا هو يفكر التفكير التالى : « لقد مات هذا الرجل فيمكن اتهامه . أما أخى فسوف أنقذه . وعندى مال : سوف آخذ من هذا المال حزمة بمبلغ ثلاثة آلاف روبل ، فأصرح للمحكمة بأن سمردياكوف أعطانيها قبل موته » . قد تقولون لى ان فى هذا مجافاة للشرف والأمانة ، وان من واجب المرء أن لا يتجنى ولو على ميت ، وان من الواجب على المرء أن لا يفترى ولو لانقاذ أخيه ». اننى أسلم بهذا . ولكن لعل ايفان فيدوروفتش قد كذب على غير شعور منه بأنه يكذب ، متخيلاً أن الأمور قد جرت فعلاً على هذا النحو ، لأن عقله قد اختل اختلالاً نهائياً حين علم بغتة بنبأ موت ذلك الخادم . لقد شهدتم المشهد الذى جرى هنا ، فرأيتم الحالة التى كان عليها هذا الشاهد . كان واقفاً على قدميه وكان يتكلم ، ولكن أين كان عقله ؟ وبعد الأقوال التى أوردها هذا الرجل المريض ، قدمت الينا وثيقة هى رسالة كتبها المريض قبل وقوع الجريمة بيومين ، وأرسلها الى الآنسة فرخوفتزيفا ، مضمناً هذه الرسالة خطة مفصلة لتنفيذ الجريمة . فهل من الضرورى بعد هذا أن نطيل التفكير وأن نمعن فى التأمل من أجل أن نكتشف الفاعل ؟ لقد تم ارتكاب الجريمة على النحو الذى جاء وصفه فى هذه الرسالة تماماً ، فلا يمكن أن يكون الجانى الا ذلك الذى كتب الرسالة . نعم ، يا سادتى القضاة ، « ذلك مكتوب ! » . ان المتهم لم يترك نافذة أبيه لائذاً بالفرار فى احترام ووجل ، بينما كان فوق ذلك مقتنعاً بأن حبيبته موجودة مع أبيه . وانما الواقع أنه دخل البيت ، ونفذ خطته الى النهاية . جائز أن يكون قد قتل وهو فى حالة اهتياج شديد

وحنق مباغت سيطرت عليه واستبدت به منذ رأى غريمه المقيت • جائز أن يكون قد قتل في لحظة واحدة ، جائز أن يكون قد قتل بضربة واحدة هوت بها ذراعه المسلحه بالمدق النحاسي ، ثم أدرك بعد ذلك ، حين فتش جميع أركان الغرفه ، أن تلك المرأة لم تكن هناك • ولكنه لم ينس ، بعد أن أنفذ جريمه القتـل ، لم ينس أن يدس يده تحت الوسـادة ، فيسل الظرف الذي يحتوي على المال ، ذلك الظرف الممزق الذي يوجد الآن على منضدة وثائق الاثبات • وانا أجيء الآن على ذكر هذا الظرف لأوجه انتباهكم الى أمر هو في نظري من الأمور الهامة جداً • لو كان الجاني مجرماً ذا خبرة ، لو كان قاتلاً يهدف الى سرقة مال ، أكان يترك هذا الظرف على أرض الغرفة ، قرب الجثة ، حيث عُثر عليه فيما بعد ؟ اذا فرضنا مثلاً أن جريمة القتل قد ارتكبها سـمردياكوف بغية السطو على المال ، أفما كان يكتفي سـمردياكوف عندئذ بأن يأخذ الظرف دون أن يخطر على باله أن يفضه ، لأنه موقن من أن المال مودع فيه ، فقد رأى مـولاه يضـع المال في الظرف ويغلق الظرف على المـال ؟ لو كان سـمردياكوف هو القاتل اذن لأخذ الظرف قائلاً لنفسـه : متى اختفى الظرف فلن يخطر ببال أحد أن هناك سرقة • انني لأسألكم يا سـادتي المحلَّفين : هل كان يمكن أن يتصرف سـمردياكوف على النحو الذي تكشف عنه وقائع القضـية ؟ هل كان يمكن أن يترك الظرف ملقى على أرض الغرفة ؟ لا ، ان هذا التصرف لا يمكن أن يكون الا تصرف قاتل خارج عن طوره ، قاتل أصبح لا يفـكر تفكيراً واضحاً ، قاتل لم يجيء من أجل أن يسرق ولا سبق له أن سرق قبل ذلك في يوم من الأيام ، قاتل لا يتصرف حتى في تلك اللحظة ، حين دس يده في السرير ليسل المال ، تصرفَ سارق يسطو على غنيمـة ، وانما يتصرف تصرفَ رجل يسـترد مالاً كان قد سُلب منـه ؟ وتلك هي في الواقع أفكار دمتري

كارامازوف فى هذا الشأن ، وهى أفكار كادت تصير فى دهنه الى هوس يحاصره ولا يبارحه • لذلك فانه حين أمسك الظرف الذى لم يسبق أن رآه قبل ذلك ، سارع يمزقه ليتأكد من أن المال مودع فيه حقاً ، ثم وضع المال فى جيبه وولى هارباً دون أن يحمل نفسه عناء التفكير فى أنه يخلف وراءه دليلا قاطعاً هو هذا الظرف الممزق الملقى على الأرض • ذلك كله من فعل كارامازوف ، لا من فعل سمردياكوف ، ذلك كله من فعل رجل لم يفكر ولم يتسع وقته لأن يفكر ! ويهرب ايفان كارامازوف ، ويسمع صرخة الخادم العجوز الذى لحق به فأمسكه ، وكان سيقبض عليه ، فاذا بالعجوز يتهاوى على حين فجأة مجندلا بضربة من المدق ؛ وعندئذ يثب المتهم من على السياج ، ويميل على العجوز • هل مال على العجوز من باب الشفقة والعطف ؟ ذلك ما يدعيه ، تخيلوا !••• انه يزعم أنه مال على الخادم العجوز شفقةً ورأفة ، ليرى هل فى وسعه أن يسعفه وينجده ! أتلك لحظة يشعر فيها المرء بالرحمة والحنان فعلاً ؟ لا ، وانما هو مال عليه ليرى هل الشاهد الوحيد الذى عرف جريمته ما يزال حياً ؟ ان كل باعث آخر ، وكل عاطفة أخرى ، لا يمكن أن يتصور العقل وجودهما فى مثل تلك اللحظة • لاحظوا أنه أخذ يتحرك ويضطرب قرب جريجورى ، وأنه مسح رأسه بمنديله ، فلما أيقن أن الخادم قد مات ، مضى ينصرف كمجنون ، ملطخاً بالدماء ، ليركض مرة أخرى الى منزل حبيبته • كيف لم يخطر بباله فى تلك الدقيقة أنه مغطى بالدماء وأنه سرعان ما سيشتبه فيه ؟ ان المتهم يصرح لنا هو نفسه بأنه لم ينتبه الى الدم الذى كان ملطخاً به • ان فى وسعنا أن نصدق كلامه فى هذه النقطة • ذلك جائز جداً ، وذلك ما يحدث للمجرمين فى مثل

تلك اللحظات على وجه العموم • انهم يجرون حسابات شيطانية فى بعض الأمور ، ثم هم ينســون التفكير فى أمور أخــرى نســياناً تاماً • ثم ان سؤالاً واحداً كان يشغل باله فى تلك اللحظة ، فهو لا يفكر الا فى ذلك السؤال : أين « هى » ؟ كان يريد أن يعرف بأقصى سرعة أين عساها تكون • وهرع الى منزلها ، فعلم هنالك بنبأ لم يدر فى خلده ولا كان فى حســبانه ، نبأ هز نفســه هزاً قوياً عنيفاً ، وهو : أنهــا ســافرت الى موكرويه ، وأنها مع « صديقها القديم الذى لا يُجحد » •

٩

سيكولوجية سريعة
عربة الترويكا تعدو ـ خاتمة

واضح أن هيبوليت كيريلوفتش قد اختار لخطابه منهجاً فى العرض هو المنهج التاريخى الصارم الذى يصطنعه جميع الخطباء العصبيين محاولين أن يلتزموا أطراً ذات حدود دقيقة فى سبيل أن يضبطوا سيل اندفاعهم العارم • فلما وصل الى هذه النقطة من خطابه ، أفاض فى الكلام على الحبيب الأول الذى « لا يُجحد » ، فساق فى هذا الموضوع أفكاراً شائقة • قال ان كارامازوف ، الذى يشعر بغيرة كاسرة من الجميع ، قد امحى فجأة وزال أمام هذا الحبيب « القديم الذى لا يُجحد » ؟ وذلك أمر يثير الاستغراب والدهشة لا سيما وأنه لم يكد يفكر قبل الآن فى الخطر الجديد الذى كان يهدده به هذا الغريم الذى لم يكن فى حسبانه • كان يتصور هذا الخطر بعيداً ، فان رجلاً مثل كارامازوف لا يعيش الا فى اللحظة الحاضرة • ولعل هذه الصفحة من الحياة الماضية التى عاشتها المرأة الشابة كانت قد اتخذت فى ذهنه صورة وهم من الأوهام أو خيال من الأخيلة لا يمت الى الواقع بصلة • ولكن ها هو ذا يدرك الآن ، محطمَ القلب ، ان هذه المرأة ان أخفت عنه حتى ذلك

الحين أمر وصول هذا الرجل في القريب ، وان كذبت عليه تلك الكذبة الأخيرة ، فما ذلك الا لأن لهذا الرجل وزناً كبيراً في حياتها بالفعل ، ولأنه يمثّل في الواقع كل آمال روحها ، وأشواق قلبها . فلما أدرك هذه الحقيقة أذعن واستسلم . « ليس في وسعي ، يا سادتي المحلفين ، أن أغفل هذه السمة من سمات طبع المتهم الذي كان يبدو عاجزاً عن القيام بتضحية كهذه التضحية حتى الآن . لقد استولت على نفسه فجأةً حاجةٌ قوية الى الحقيقة ، واستولى عليه شعور بالاحترام لهذه المرأة ولحقّها في أن تحب كما يشاء لها هواها حـرةً طليقة ، وذلك في تلك اللحظة التي كان فيها قد صبغ يديه بدم أبيه من أجلها وفي سبيلها . ولا شك أن هذا الدم كان يطالب بالثأر منذ ذلك الحين ، ولا بد أن المتهم كان يتساءل بعد أن ضيّع نفسه وحطم وجوده على هذه الأرض : « ما أنا بالنسبة اليها بعد اليوم ، ما الذي أستطيع أن أهبه الآن لهذه الانسانة التي أحبها وأعبدها أكثر من أي شيء في العالم ؟ ما أنا في نظرها بالقياس الى الصديق « القديم » الذي عاد تائباً مليئاً بعذاب الضمير تجاه المرأة التي هجرها في الماضي ثم رجع يحمل اليها الآن حباً جديداً وآمالاً مشرقة في حياة شريفة سعيدة تبعثها بعثاً جديداً ؟ » . نعم ، ما الذي يستطيع أن يقدمه اليها في هذه الساعة ، ما الذي يمكنه أن يهبه لها الآن ؟ لقد أدرك كارامازوف ذلك كله ، أدرك أن جريمته قد سدّت أمامه جميع سبل الحياة ، وأنه ليس بعد اليوم الا قاتلاً سينزل فيه العقاب ، وأنه أصبح لا ينتمي الى عالم الأحياء . أرهقته هذه الفكرة ودمّرته . وفي تلك اللحظة انما تصور ، على حين فجأة ، مشروعاً لا بد أن يكون بالنسبة الى طبع كطبعه المخرج الوحيد من وضع يائس . ذلك المخرج هو الانتحار . فها هو ذا يهرع الى الموظف برخوتين ليسترد مسدسيه المرهونين لديه ؟ وفيما هو في الشارع ، يسرع فيُخرج من جيبه الأوراق المالية التي من أجلها

صبغ يديه بدم أبيه منذ قليل • ذلك أنه أصبح الآن في حاجة الى المال أكثر من أي وقت مضى : فان كارامازوف سيموت ، ان كارامازوف سينتحر ، وينبغي أن يتذكر الناس هذا المشهد ! ليس عبثاً أننا شعراء ، ليس عبثاً أننا شعراء ، ليس عبثاً أننا أفنينا حياتنا كشمعة أشعلناها من طرفيها • « يجب أن أراها ، يجب أن أراها أولاً ••• وبعد ذلك ••• آه ••• بعد ذلك سأقصف وألهو ما شاء لي هواي أن أقصف وأن ألهو ، سأحتفل احتفالاً لم يُر له مثيل من قبل ، احتفالاً يظل يتحدث الناس عنه زمناً طويلاً بعدي • وفي وسط الصرخات الوحشية ، والأغاني الغجرية ، والرقصات المحمومة ، سأرفع كأسي ، فأشرب نخب السعادة الجديدة التي ستنعم بها المرأة المعبودة • وبعد ذلك ، فوراً بعد ذلك ، اهشم دماغي فأسقط على قدميها مكفراً عن ذنوبي وآثامي ! هكذا ستتذكر ميتيا كارامازوف ، وسترى كم كنت أحبها ، وسترثي عندئذ لحال ميتيا وتشفق عليه ! » بهذا كان المتهم يحدث نفسه • ان في هذا المشروع الذي عزم المتهم على انفاذه غير قليل من الخيال الحار والحماسة الروائية ، وان فيه كثيراً من ذلك الاندفاع العارم والحساسية الشديدة اللذين يتميز بهما آل كارامازوف ، وان فيه شيئاً آخر ، شيئاً آخر يا سادتي القضاة ، شيئاً كان يصرخ في أعماق نفسه ويحاصر فكره ويسمم قلبه ، ألا وهو ضميره ، يا سادتي القضاة ، ضميره الذي أدانه وحكم عليه ، وأصبح يعذبه ويرهقه من أمره عسراً ! ولكن المسدس سيتيح له أن يضع حداً لكل شيء ، فهو الحل الوحيد ، ولا حل سواه • أما عما سيحدث بعد ذلك ، فانني لا أدري هل تساءل كارامازوف في ذلك الأوان عمّا سيصير اليه في العالم الآخر • لا أدري هل كان كارامازوف قادراً على أن يفكر في حياته الآخرة كما فعل هاملت • لا يا سادتي القضاة ، نحن أناس

ليس عندنا أمثال هاملت ؟ ان بلادنا ليس فيها حتى الآن الا أمثال كارامازوف ! » .

وبعد ذلك وصف هيبوليت كيريلوفتش ما أعدّه ميتيا بالتفصيل ، وصف زيارته للموظف برخوتين ، ومروره بمتجر البقالة ، ومناقشاته مع أصحاب العربات ؛ وذكر عدداً كبيراً من أقواله وصيحاته واشاراته وحركاته ، مستمداً ذلك كله من شهادات الشهود . فكان للوحة التى رسمها تأثير كبير فى الحضور ، وكان تكامل الوقائع التى سردها هو الذى خطف الانتباه وأسر العقول خاصةً ، وأصبح واضحاً للجميع أن هذا الرجل الذى كان يتخبط طائش العقل ولا يراعى نفسه هو الجانى فعلاً .

وتابع هيبوليت كيريلوفتش كلامه فقال :

« أصبح المتهم فى غير حاجة الى الحذر والتروى ، لذلك اتفق له مرتين أو ثلاث مرات أن كاد يعترف بكل شيء ؛ فكان يُلمع الى جريمته بدون انقطاع ، ولكنه لم يمض الى حد التحدث عنها صراحةً (هنا ذكرّ وكيل النيابة بشهادات الشهود) ؛ حتى لقد صرخ يسأل الحوذى وهو فى طريقه الى موكرويه : « هل تعرف أنك تُقلُ فى عربتك قاتلاً ؟ » . ومع ذلك كان لا يملك أن يمضى فى اعترافاته الى آخرها . فانما المهم أن يصل أولاً الى موكرويه وأن يكمل القصيدة . ولكن اليكم ما كان ينتظر المسكينَ هناك : لقد لاحظ منذ الدقائق الأولى ، منذ أن وصل الى تلك القرية ، لاحظ أولاً ثم ادرك ادراكاً واضحاً بعد ذلك أن منافسه الذى « لا يُجحد » ، أو الذى كان يظن أنه « لا يُجحد » ، ليس بالمنافس الذى « لا يُجحد » حقاً ، وأن الحبيبة لا تنتظر منه ، هو ميتيا ، أن يهنئها بالسعادة الجديدة . على أنكم تعرفون الوقائع ياسادتى المحلّفين ، تعرفونها من نتائج التحقيق . لقد انتصر كارامازوف على منافسه انتصاراً كاملاً . وعندئذ ، عندئذ يا سادتى ، انما بدأت مرحلة جديدة من مراحل عذابات

قلبه وتباريح نفسه ، مرحلة هى أفظع المراحل التى عرفها والتى سيعرفها ايضاً . آه يا سادتى القضاة ! الا اننا لنستطيع أن نؤكد ان الطبيعة تنزل فيمن يسىء اليها عقاباً أشد هولاً من العقاب الذى تنزله فيه عدالتنا الأرضية : ذلك هو عذاب القلب ! بل نستطيع أن نذهب الى أبعد من هذا فنؤكد أن العقاب الذى يمكن أن توقعه العدالة الانسانية يخفف العقاب الذى توقعه الطبيعة ، وهو فى هذه الأحوال ضرورى لنفس المجرم ، لأنه السبيل الوحيد الى نجاة روحه من اليأس . ليس فى وسعنا أن نتخيل انواع الهول وضروب العذاب وصنوف الروع التى لا بد أن يكون كارامازوف قد عاناها وقاسى منها حين علم أن هذه المرأة تحبه ، وأنها تعدل فى سبيله عن صديقها « القديم الذى لا يُجحد » ، وأنها تدعوه هو ، هو ميتيا، الى أن يبدأ معها حياة جديدة ، وأنها تَعِده هو ، هو ميتيا، بالسعادة ؟ وذلك فى اللحظة التى كان فيها كلّ شىء فى نظره قد انتهى ، فأصبح لا يستطيع أن يتعلق بأى أمل ، وأن يتشبث بأى رجاء . أحب فى هذه المناسبة أن أثبت واقعة أحسب أنها هامة جداً لفهم الوضع الذى كان عليه المتهم فى تلك اللحظات : ان تلك المرأة التى كان يحبها ويشتهيها شهوة جياشة عارمة ، كانت قد ظلت الى آخر دقيقة ، الى حين القبض عليه ، بعيدة المنال لا يستطيع الظفر بها . فرب سائل يسأل : لماذا لم ينتحر اذن ، لماذا عدل عن نيته حتى لقد نسى مسدسه ؟ الجواب على هذا أن هواه المشبوب وأمله المفاجىء فى ارضاء هذا الهوى لم يلبثا أن صدّاه عن انفاذ ما عقد النية عليه . انه وهو فى سكرة اللهو والقصف قد التصق بحبيبته التى كانت تشاركه لهوه وقصفه ، والتى كانت تبدو له فى تلك اللحظات أجمل وأروع وأفتن وأحق بالحب والعبادة منها فى أى وقت مضى ، فهو لا يحوّل عنها بصره ، وهو لا ينفك يزداداً اعجاباً بها وامحاءً أمامها . حتى أن هذا الهوى الحار وهذا الظمأ الشديد الى الحب

قد خنقا فى نفسه ، أول الأمر ، لا الخوف من الاعتقال فحسب ، بل عذاب الضمير ايضاء ولكنهما لم يخنقاهما الا لحظات قصارا ايها السادة، لحظات قصارا أيها السادة ، لحظات لا اكثر ! اننى أتخيل الحالة النفسية التى كان عليها المتهم وقد استبدت به عناصر ثلاثة : اولها ابخرة الخمرة التى صعدت الى رأسه وضوضاء الرقصات والأغانى التى تدوى فى أذنيه وهذه المراة التى تخضب وجهها بالحمـرة من أثر الشراب واخـذت تغنى وترقص سكرى هى أيضاً ، وكانت تبتسم له ابتساماً فتاناً ؛ وثانيها أملٌ فى أن الخاتمة المحتومة ما تزال بعيدة ، او أنها ليست وشيكة على الأقل ، وأنها لن يحين حينها قبل الغداة ، وأنه لن يُقبض عليـه قبل طلوع الفجر ، وأن أمامه اذن ساعتين من الوقت هما وحدهما سعادة كبيرة عظيمة! وثالثها ان فى وسع المرء أن يضع خلال بضع ساعات خططاً كثيرة • اننى أتصور أن حالته النفسية حينذاك لا بد أن تكون شبيهة بحالة المحكوم عليه الذى يقاد الى الميدان الذى سيُشنق فيه ، فهو يقول لنفسه وهو راكب عربة التحقير والتشهير بينما الحصان يسير بخطى بطيئة أمام ألوف المشاهدين : « ما يزال هناك شارع ، شارع طويل سأجتازه » ، ثم تنعطف العـربة يمنة وتلج شارعاً آخر لا يظهر الميدان الذى نُصبت فيه المشنقة الرهيبـة الا فى نهايته ••• يُخيل الىّ أن المحكوم عليه لا بد أن يشعر ، فى بداية هذه الرحلة ، أنه ما تزال أمامه أبدية حياة • ولكن المنـازل تخطر أمام عينيه واحداً بعد آخر ، والعربة تتقدم بغير شفقة ولا رحمة ، والرجل يقول لنفسه : « ما هذا بشىء ، ما يزال المنعطف بعيداً » ، ويظل يتفرس، رابطَ الجأش ، فى ألوف المستطلعين الذين يزدحمون على اليسار واليمين من ممره دون اكتراث ، والذين تحـدق أبصـارهم اليه • انه يتصـور عنـدئذ أنه شـبيه بجميع هـؤلاء الخلق ، وأنه ما يزال ينتمى الى عالم الأحياء • وها هى ذى العربة تنعطف الى الشارع الآخر • أوه ! ما هذا

بشيء، ما هذا بشيء ، فما يزال هناك هذا الشارع كله • وتخطر المنازل واحداً بعد آخر ، ولكنه يظل يردد : « ما يزال هناك منازل كثيرة » ، ويستمر على ذلك حتى النهاية ، حتى لحظة الوصول الى الميدان المحتوم المشئوم • تلكم هى فى رأيى الحالة النفسية التى كان عليها كارامازوف أثناء تلك الساعات • كان يقول لنفسه : « لم يتسع وقتهم لاكتشاف الجريمة ، وفى وسعى أن أهتدى الى تعليل ما • أوه ! سوف أهتدى الى تعليل ما • أوه ! سوف أهتدى فى أثناء هذا الوقت الى خطة دفاع ، الى وسيلة أدرأ بها الخطر عن نفسى ••• أما الآن ، أما الآن ، فما أجملها وما أروعها ! » • صحيح أنه كان مضطرباً مهموماً ، ومع ذلك فقد ملك من حضور البديهة ما مكّنه من اقتطاع نصف المبلغ الذى جاء به ، واخفائه فى مكان ما ــ ذلك أننى لا أستطيع أن أفسِّر بغير هذا كيف أمكن أن يختفى نصف تلك الثلاثة آلاف روبل التى استلها من تحت وسادة أبيه • كان قد جاء قبل ذلك الى موكرويه ، وظل يقصف فيها يومين فهو يعرف هذا المنزل الخشبى الكبير القديم ، يعرفه حق معرفته ، يعرف جميع أركانه وزواياه ، طاف فى أروقته ، وتجول فى حجراته • اننى افترض أنه فى ذلك المنزل انما خبأ نصف المال قبل أن يُقبض عليه بلحظات ، دسّه فى شق من الشقوق أو تحت وتد من الأوتاد ، فى زاوية مظلمة ، أو بين القرميد ، هل أدرى ؟ فاذا سألتمونى ماذا كان هدفه من اقتطاع نصف المبلغ واخفائه ، قلت ان الهدف واضح • فالمصيبة قد تسقط عليه من لحظة الى لحظة ، وهو لمّا يفكر بعد فى وسائل حماية نفسه منها ، وليس فى وقته متسع للتفكير فى ذلك ، ما دام رأسه يضج هذا الضجيج كله ، ولأن كل شيء خلال تلك الدقائق انما كان يدفعه نحو الحبيبة !• ولكن المرء يحتاج الى المال فى جميع الظروف • ومن ملك شيئاً من مال، فقد ظل فى هذا العالم شيئاً مذكوراً • رب قائل يقول ان مثل هذا

الحساب ليس طبيعياً في ساعة كتلك الساعة • ولكنني أسألكم : ألم يقل لنا المتهم نفسه انه منذ شهر ، في ساعة مضطربة درامية أيضاً من حياته ، قد اقتطع نصف الثلاثة آلاف روبل وخاط عليها كيساً ؟ ولئن كان زعمه هذا كاذباً ، كما سأبرهن على ذلك بعد قليل ، فان هذا لا ينفي أن هذه الفكرة كانت قد ساورته وأنه كان قد درسها ؛ حتى ليمكن أن نذهب الى أنه حين أعلن لقاضي التحقيق بعد ذلك أنه احتجز نصف المبلغ في كيس (كيس لم يوجد في يوم من الأيام على كل حال) ، انما وافته فكرة هذا الادعاء عفو الخاطر لهذا السبب عينه ، أعني لأنه كان قد اقتطع نصف المبلغ في موكرويه ، قبل ساعتين ، وخبأه من باب الاحتياط الى الفجر ، حتى لا يحتفظ به في أحد جيوبه ، خاضعاً في ذلك لوحي مباغت والهام مفاجيء • تذكروا الهوتين ، يا سادتي القضاة ، تذكروا الهوتين اللتين يمكن أن يتأملهما رجل مثل كارامازوف في آن واحد معاً ! ولقد فتشنا المنزل مع ذلك فلم نعثر على شيء ؛ فمن الجائز أن يكون المال ما يزال موجوداً فيه ، ولكن من الجائز أيضاً أن يكون المال قد أُخذ في الغد وأنه الآن في حوزة المتهم • مهما يكن من أمر ، فلقد كان المتهم قرب هذه المرأة ، جاثياً على ركبتيه أمامها ، حين جاء رجال السلطة للقبض عليه • كانت هي مستلقية على السرير ، وكان هو ماداً ذراعيه نحوها ، وقد بلغ من نسيان كل ما عدا ذلك في تلك اللحظة أنه لم يسمع حتى وقع أقدام الرجال الذين جاءوا للقبض عليه • لم يكن قد هيأ بعد شيئاً يجيب به عن أسئلتهم • لقد داهموه على غير توقع منه •

« وها هو ذا يقف عندئذ أمام قضاته الذين سيقررون مصيره • سادتي المحلفين ، اننا ، أثناء ممارسة وظيفتنا ، نمر بلحظات يعترينا فيها ، على حين فجأة ، خوف ووجل أمام المتهم وأمام المصير الذي ينتظره ؛ وهي اللحظات التي نرى فيها لدى المجرم ذلك الهلع الغريزي الذي

يستولى عليه حين يدرك أن كل شيء قد ضاع ، ولكنه يظل يناضل ، ويظل يحاول أن يقاومنا . ان غريزة البقاء تستيقظ فى نفسه عندئذ قوية قوة هائلة ، فاذا هو وقد تسلطت عليه رغبة محمومة مسعورة فى الافلات منا ، يتفرس فينا بنظرة نافذة ، نظرة مستفهمة أليمة فى آن واحد ، محاولاً أن يحزر أيسر تعبيرات وجوهنا وأن يعرف أخفى ما يجول فى خواطرنا ، متسائلاً ما هى الجهة التى سنأتيه منها ؟ وسرعان ما تقوم فى ذهنه المضطرب عندئذ ألوف الخطط الدفاعية ، ولكنه يخاف مع ذلك أن يتكلم ، يخاف أن تفلت منه كلمة متعجلة ليس فيها ترو أو تبصر . ان هذه اللحظات التى يذل فيها الانسان ، وهذه الشدائد التى تقاسى منها النفس ، وهذه الرغبة البهيمية فى الافلات من العقاب ، ان هذا كله يبعث منظره أشد الألم ، ويثير الشفقة والعطف حتى لدى قاضى التحقيق. لقد شهدنا هذا المنظر حين القبض على كارامازوف . بدا فى أول الأمر مصعوقاً ، قد انهارت قواه وانهدت مقاومته ، فأفلتت من لسانه كلمات تعرضه للخطر . قال : « سفحت دماً ! استحق هذا المصير ! » ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه ، فماذا يقول ، ماذا يقول ؟ هو لا يعرف بعد ماذا يقول لأنه لم يهيىء شيئاً ، فلجأ فى أول الأمر الى انكارات قاطعة هاتفاً : « أنا لم أقتل أبى ! » . كان ذلك هو المتراس الوحيد الذى أقامه ارتجالاً ليحتمى به ، وفى نيته أن يقيم متاريس أخرى . قال لنفسه : « سأجد تعليلاً ، سأتخيل شيئاً ما ! » . وحاول بعد ذلك أن يصلح ما أفسده وأن يتدارك ما ورطته فيه صيحاته الطائشة التى لم يكن فيها شيء من التروى والتبصر، فاستبق أسئلتنا وأعلن أنه لا يعد نفسه مسئولاً الا عن موت الخادم جريجورى . قال : « صحيح أننى سفحت دمه هو ، ولكن من الذى قتل أبى ، من الذى قتله أيها السادة ؟ من ذا الذى قتله اذن ، ما دمت لست أنا القاتل ؟ » هل سمعتم : انه يلقى علينا نحن هذا

السؤال ، نحن الذين انما جئنا لنلقى هذا السؤال نفسه عليه ! لاحظوا هذه الطريقة التى يعمد اليها فى استباق الأمور وأخذ زمام المبادرة قائلاً : « ما دمت لست أنا القاتل » ، انظروا الى هذا المكر البهيمى ، والى هذه السذاجة ايضاً ، والى هذا التسرع الذى يدل على نفاد الصبر والذى هو شىء من طبيعة رجل مثله ! لست أنا القاتل ، وانى لأحظر عليكم حتى الوقوف عند هذه الفكرة والتلبث عليها . ثم لا يلبث أن يعترف قائلاً بعد قليل (انه يتعجل ، يتعجل تعجلاً رهيباً) : « كنت أريد أن أقتله أيها السادة ، كان فى نيتى ذلك ؟ ولكن لست أنا الذى قتله ، لست أنا المسئول عن مقتله ! » . هو يسلّم لنا بأنه كان ينوى أن يقتله ، فكأنه يقول لنا : انظروا كم أنا صادق ، فعليكم أن تصدّقونى متى أكدت لكم اننى لم أقتل . ان المجرمين يبرهنون فى لحظات من هذا النوع على خفة كبيرة وطيش شديد وسذاجة لا يتصورها العقل . وفى تلك اللحظة نفسها سُئل ، كأنما بمصادفة ، وكأن الأمر عادى طبيعى الى أبعد الحدود : « أليس من الجائز أن يكون سمردياكوف هو القاتل ؟ » . فعمد الى طريقة هى بعينها الطريقة التى تنبأنا بها : غضب حين لاحظ أننا كشفنا خبيئة نفسه بغتةً بينما هو لم يتسع وقته بعدُ لاعداد متراسه واختيار أفضل لحظةٍ لالقاء التهمة على سمردياكوف ؟ فبادر يندفع الى الطرف الأقصى الآخرَ ، خاضعاً فى ذلك لقوانين الطبيعة ، وطفق يحاول أن يبرهن لنا بحماسة وحرارة على أن سمردياكوف لا يمكن أن يكون القاتل ، وعلى أنه عاجز عن أن يقتل . ولكن لا تصدّقوه ، فما كان هذا الا حيلة ومكراً ودهاء : انه لم يعدل أبداً عن فكرة استعمال سمردياكوف لتبرئة نفسه . بالعكس : سوف يقدّم سمردياكوف متى آن الأوان ، وهل يوجد الا سمردياكوف شخصٌ يستطيع أن يحمّله الجريمة ؟ ولكنه سيفعل ذلك فيما بعد ، أما الآن فقد ضاعت الفرصة وفسد الأمر .

قد يُخرج سمردياكوف غداً أو بعد بضعة أيام • سوف ينتظر الفرصة المواتية ليصيح قائلاً : « انظروا ! ألا تتذكرون أنني استبعدت أن يكون سمردياكوف هو القاتل ؟ ألا تتذكرون أنني دافعت عنه أكثر مما دافعتم انتم عنه ؟ ولكنني قد اقتنعت الآن بأنه هو الذى قتل ، وأنه الوحيد الذى يمكن أن يكون مرتكب هـذه الجريمـة ! » • أما فى تلك اللحظة فقد اصطنع أمامنا موقف الانكار القاطع والنفى الجازم ، متظاهراً بكثير من الغيظ والحنق • ومع ذلك فان نفاد الصبر وشـدة الغضب قد أوحيا اليه بتفسير لسلوكه هو بين جميع التفاسير الممكنة أقلها حذقاً وبراعة وأبعدها عن المعقول ، فأخذ يروى لنا كيف أنه اقتصر ــ فى زعمه ــ على أن نظر من خـلال نافذة أبيه ثم انصرف بعد ذلك باحترام • يجب أن لا ننسى خاصةً أن المتهم لم يكن على علم فى تلك اللحظة بخطورة الأقوال التى وردت فى شهادة جريجـورى بعد أن صحا جريجورى من غيبوبته • وقمنا بتفتيشه على ما توجبه الأنظمة ، فأحنقه هذا الاجراء ، ولكنه شجعه فى الوقت نفسه ، فاننا لم نعثر على الثلاثة آلاف روبل كاملةً ، ولم نجد الا ألفاً وخمسمائة روبل • وواضح أنه فى أثناء تلك اللحظات من الصمت الغاضب والانكار المقهور انما خطرت بباله لأول مرة فكرة أن يحدثنا عن ذلك الكيس • لا شك فى أنه كان هو نفسه يحس بأن هذا الاختراع غير معقول ولا مقبول ، ولا شك فى أنه كان يُعمل فكره جاهداً من أجل أن يجعل هذا التلفيق جائزاً محتملاً ، دون أن يدرى ما الذى يجب عليه أن يتخيله حتى ينشىء رواية يصدقها العقل • ولكن أول واجب يقع على عاتق المحققين فى مثل تلك اللحظات هو أن يباغتوا المتهم فلا يدعوا له فسحة من الوقت لتحضير اجابته ، وأن يقـودوه بذلك الى الكشف عمّا يضمره من حساب مع كل يشتمل عليه هذا الحساب من سذاجة ومن بعد عن الاحتمال ، ومع كل ما يحتويه من تناقضـات • ولا يمكن اجبـار

المجرم على أن يفضح نفسه هذا الفضح الا اذا أُطلع بغتةً ، بما يشبه المصادفة العابرة ، على واقعة لها دلالة بليغة وخطورة عظيمة ، ولكنه ما يزال يجهلها ولم يخطر على باله وجودها ولا استطاع اذن أن يستعد لها . وكنا نحن قد أعددنا هذه الواقعة ... كنا قد أعددناها منذ مدة طويلة ... ألا وهي شهادة الخادم جريجورى الذى صرّح حين صحا من غيبوبته أنه رأى الباب الذى هرب منه القاتل مفتوحاً . كان المتهم قد نسي نسياناً تاماً أن يفكر فى ذلك الباب ، ولم يخطر بباله أن من الممكن أن يكون جريجورى قد رآه . فلما فاجأناه بهذه الواقعة ، كان لها فيه أثر فظيع ، فها هو ذا يثب عن مكانه ويصرخ قائلاً لنا : « سمردياكوف هو الذى قتل ! انه سمردياكوف ! » . هكذا كشف المتهم عن فكرته الخبيثة ، وفضح خطة دفاعه الأساسية ، ولكنه أسلمنا ذلك فى صورة هى أبعد الصور عن المعقول والمحتمل ، لأن سمردياكوف ما كان يمكن أن يقتل الا بعد أن جندل المتهمُ جريجورى وولّى هارباً . فلما قلنا له بعد ذلك ان جريجورى رأى الباب مفتوحاً قبل أن يهوى على الأرض مضرجاً بدمائه وانه حين خرج من غرفته قد سمع سمردياكوف يئن ويتوجع وراء الحاجز ، حين قلنا له ذلك صُعق فعلاً . ان زميلى المحترم الذكى نيكولا بارفينوفتش قد روى لى بعد ذلك أنه أشفق عندئذ على المتهم ، وتأثر تأثراً شديداً حتى كادت تفيض عيناه بالدموع . وفى تلك اللحظة انما سارع المتهم ، اصلاحاً للموقف ، فأفضى الينا بقصة الكيس العجيبة تلك ، فلا بد أنه قال لنفسه عندئذ : « طيب ... اليكم الآن هذه الرواية فابلعوها ! » . سبق أن ذكرت لكم رأيى فى هذه القصة يا سادتى المحلّفين ، وسبق أن ذكرت لكم لماذا أعدّ اختراع هذا الكلام عن مبلغ اقتطعه المتهم وخاط عليه كيساً قبل الحادث بشهر ، لماذا أعد اختراع هذا الكلام أسخف وأضعف تفسير من التفسيرات التى كان

يمكن اختلاقها في حالة من هذا النوع • ومهما يبحث المرء فلن يستطيع أن يتصور شيئاً أبعد عن المعقول وأنأى عن الاحتمال من هذه القصة الملفقة • ان في وسعنا في هذه النقطة أن نريك قصّاصنا المرتجل الواثق من نفسه ، وأن نفضح كذبه وندمّر حجته ، بأن نجابهه ببعض التفاصيل ، أن نجابهه بتفاصيل من تلك التفاصيل التي ما أكثر ما يحفل بها الواقع ، ولكن هؤلاء المساكين الذين يلفقون القصص الوهمية على غير ارادة منهم يهملونها ويغفلونها على أنها تافهة زائدة لا قيمة لها ، بل ولا تخطر لهم على بال أصلاً • فان وقتهم لا يتسع للاهتمام بهذه السفاسف ، وانما هم يتصورون حكاياتهم في خطوطها العريضة وصورتها المجملة ... ولكن ها هم أولاء يجابَهون بتلك التفاصيل الشقية ! وعندئذ انما نستطيع أن نضبطهم • ألقينا على المتهم هذا السؤال : « من أين جئت بقماش ذلك الكيس الصغير ، ومن الذى خاطه لك ؟ » فأجابنا : « خطته بنفسى » • فألححنا نسأله : « والقماش ، من أين جئت به ؟ » فشعر باستياء وضيق ، كأن الأمر أمر ترهات لا تليق به • ولقد كان عندئذ صادقاً كل الصدق ، نعم كل الصدق • فلا تعذّبوه • انهم جميعاً على هذه الشاكلة ، هؤلاء المجرمون ! قال : « انتزعت قطعة قماش من قميصى » • قلنا : « عظيم• اذن سنعثر غداً على هذا القميص بين ملابسك، سنعثر على هذا القميص الذى تنقصه قطعة » • انكم لتدركون يا سادتى المحلّفين أننا لو كنا قد عثرنا فعلاً على ذلك القميص (وهل كان يمكن أن لا نعثر عليه فى حقيبته أو فى درج من الأدراج لو كان له وجود حقاً) ، لكان ذلك واقعة محسوسة ملموسة تشهد بصدق أقواله • ولكن ذلك لم يكن قد خطر على باله • واستأنف كلامه يقول : « لست أتذكر جيداً • أظن اننى لم انتزع قطعة القماش من قميص ، بل قصصتها من طاقية لصاحبة المنزل الذى أسكن فيه » • سألناه : « أية طاقية ؟ »

فأجاب : « طاقية أخذتها من عندها وكانت ملقاةً في غرفتها ، هي متاع من تلك الأمتعة العتيقة القطنية » • قلنا : « هل ذكرياتك دقيقة ؟ » قال : « لا ، ليست دقيقة ! » ، وأخذ يغضب ويثور علينا • ألا انني لأسألكم : كيف يمكن أن ينسى هذا الأمر ؟ ان التفاصيل التي من هذا النوع هي التي تعود الى ذاكرة المرء في أشقى ساعات الحياة ، في لحظة الاعدام مثلاً ، فاذا بالمحكوم عليه ، الذي ربما يكون قد نسي كل ما عدا ذلك ، يتذكر السطح الأحمر من منزل أبصره أثناء الطريق ، أو يتذكر غراباً أسود رآه واقفاً على صليب ، لأن هذه التفاصيل تبقى محفورة في الذاكرة الى الأبد • ولا بد أن المتهم قد اختبأ عن أعين الناس الذين يقيم عندهم حين أخذ يخيط ذلك الكيس ، ولا بد أن يتذكر ما كان يشعر به عندئذ من خشية مذلة وألم ممض حين كان ممسكاً بالابرة وهو يرتعش خوفاً من أن يدخل عليه أحد فيباغته متلبساً بالفعل ؛ ولا بد أنه كان ينتفض لدى سماعه أيسر ضجة فيهرع يختبيء وراء الستارة (لأن في غرفته ستارة) ••• على أنني أتساءل ، يا سادتي المحلَّفين ، لماذا أذكر لكم هذا كله ، لماذا أذكر لكم جميع هذه التفاصيل ، وجميع هذه الترهات !

بهذا هتف هيبوليت كيريلوفتش على حين فجأة ، ثم واصل كلامه قائلاً :

« انني مضطر الى أن أفعل ذلك لأن المتهم ما يزال مصراً في عناد ما بعده عناد على أن يورد مثل هذه المزاعم السخيفة الباطلة • انه خلال هذين الشهرين الماضيين ، منذ تلك الليلة التي حملت اليه ذلك الشؤم كله ، لم يأتنا بتعليل واحد مقبول ، ولم يستطع أن يضيف أيسر واقعة مادية محسوسة الى ما سبق أن لفقه لنا خياله العجيب • هذه في نظره تفاصيل لا قيمة لها ، وانما يجب علينا أن نصدق أقواله على عهد الشرف وحده • والحق أننا لا نتمنى الا أن نصدقه ، والحق أننا نحب كثيراً أن

نثق به وأن نركن الى كلامه ولو على عهـد الشرف وحده • فهل نحن أناس سفاكون سفاحون متعطشـون الى دماء البشر ؟ ألا فاعطونا واقعـة واحدة ، ألا فدلونا على واقعة صغيرة واحدة يمكن أن تساعدنا على تبرئة المتهم ، فنفرح بذلك أشد الفرح ، ونغتبط له أشد الاغتباط• ولكن لا بد لنا من عنصر محسوس ملموس ، لا بد لنا من عنصر واقعى ، لا بد لنا من شيء غير الاستنتاجات التى يستنتجها أخوه من تعبير وجهه ، ولا بد لنا من شيء غير قول القائل ان المتهم حين ضرب صدره انما كان يدل على الكيس المخبأ فيه ، انما كان يشير الى هذا الكيس ، وذلك فى ظلمة الليل أيضاً ! لسوف يسرنا أن نعرف أية واقعة جديدة ، ولسوف نكون عندئذ أول من يعدل عن الاتهام ويسـارع الى الاعتراف ببراءة المتهم • ولكن حرصنا الشديد على العدالة يلزمنا بواجبنا فى هذه الساعة ، فلا بد لنا أن نلح على ذكر الأدلة التى تدين المتهم ، ولسنا نملك الا أن نظهركم عليها »•

هنا وصل هيبوليت كيريلوفتش الى خاتمة مطالعته • كان يرتجف عندئذ من الحمى ، فتحدث بصوت متهدج متألم عن الدم المسفوح ، دم الأب الذى قتله ابنه « بدافع حقير هو الطمع فى المال » ؛ وألحّ الحاحاً شديداً على أن الأدلة القاطعة التى تدين المتهم متوافرة توافراً تاماً لا يدع مجـالاً لشـك أو تردد • وختم كلامه قائلا : « أياً كان الكلام الذى سيقوله لكم بعدى وكيلُ المتهم ، المحامى المعروف بموهبته (لم يملك هيبوليت كيريلوفتش الا أن يضيف هذه الكلمات) الذى سترجع فى هذه القاعة أصداء خطابه البليغ المؤثر من أجل أن يهز عواطفكم ، فلا تنسوا يا سادتى المحلفين أنكم أمام هيكل العدالة المقدس • تذكروا أن رسالتكم هى أن تدافعوا عن الحقيقة ، وأن مهمتكم هى أن تحموا وطننا المقـدس روسيا ، وأن تصونوا أسس حياتنا القومية ، وأن تذودوا عن الأسرة وعن أرفع قيم الحياة الاجتماعية ! نعم يا سادتى المحلفين ، انكم تمثلون الآن

روسيا كلها ، تمثلون روسيا التى تشخص بأبصارها اليكم فى هذه الساعه حماةً وقضاةً من حماتها وقضاتها ، فعلى قراركم يتوقف أن يشتد أزرها وتتشجع حميتها ، أو أن يخيب ظنها ويخور عزمها • فلا تعذبوا روسيا ، لا تخيبوا رجاءها ، لأن الترويكا الجامحة التى تحمل مصائرنا القومية تعدو عدواً سريعاً ربما هوى بهذه المصائر الى الضياع والهلاك• ان العقلاء من رجال بلادنا يمدون أذرعهم الى الخيول الهائجة ، منذ زمن طويل ، ضارعين مبتهلين أن يوقّف اندفاعها العنيف العارم • واذا كانت الشعوب الأخرى تتنحى الآن عن طريق الترويكا الطائشة ، فربما كانت لا تتنحى الآن من باب الاحترام ، كما أراد الشاعر أن يقول ، وانما هى تتنحى من قبيل الخوف والذعر ، من قبيل الخوف والذعر ، وربما من باب الاشمئزاز والتقزز أيضاً ••• ومن حسن الحظ أنها ما تزال تتنحى على كل حال ، لأنها ستكف فى يوم من الأيام عن الخوف منها ، فاذا هى تنتصب سداً منيعاً أمام الاندفاع المسعور فتوقف ركبنا المجنون المتحلل الفاسد صيانةً لنفسها ، وانقاذاً للحضارة والثقافة • ان أصواتاً قلقة قد ارتفعت منذ الآن فى أوروبا ، ووصلت الى مسامعنا • ان احتجاجات قد أخذت تنطلق فى البلاد الأخرى • فلا تغروا بنا أعداءنا ، ولا تزيدوا كرههم لنا وحقدهم علينا باصدار حكم يسوّغ أن يُقتل أبٌ بيد ابنه ! ••• » •

جملة القول ان هيبوليت كيريلوفتش قد انقاد لفصاحته وانساق مع بلاغته ، ولكنه مع ذلك قد أنهى كلامه بنغمة مؤثرة فعلاً ، فكان الأثر الذى أحدثه فى نفوس الحضور أثراً كبيراً جداً • فلما انتهى من القاء مطالعته أسرع يخرج الى الغرفة المجاورة ، وكاد يُغمى عليه كما سبق أن ذكرت• ولم يصفق الجمهور ، غير أن الرصينين الوقورين من الحضور قد شعروا بالارتياح والرضى • وكانت السيدات أقل اغتباطاً وابتهاجاً

بطبيعة الحال ، ولكنهن قد تذوقن ، هنّ أيضاً ، فصاحة وكيل النيابة وأعجبن ببلاغة ، لا سيما وأن الشك في نهاية المحاكمة لم يساورهن ، فهنّ لا يخشين شيئاً من هذه الناحية ، لأنهن يعوّلن كثيراً على فيتوكوفتش ، فانه « سيتكلم أخيراً ، وسينتصر لا محالة ! » • واتجهت جميع الأعين نحو ميتيا : كان قد أصغى الى مطالعة النيابة صامتاً ، متشنج اليدين ، كازّ الأسنان ، خافض البصر • وكان في بعض الأحيان يرفع رأسه ، ويصيخ بسمعه• وهذا ماحدث خاصةّ حين جاء ذكر جروشنكا• فحين أورد وكيل النيابة رأى راكتين فيها ، ارتسمت على شفتى ميتيا ابتسامة شريرة محتقرة ، وقال بصوت مسموع : « هؤلاء أناس من أمثال برنار ! » • وحين روى هيبوليت كيريلتوفتش كيف عذب المتهم في موكرويه ، رفع ميتيا رأسه من جديد ، وبدا عليه أنه يصغى بانتباه شديد • وفي لحظة من اللحظات ، كاد يثب عن مكانه ، على نية أن يقول شيئاً ما بطبيعة الحال ، ولكنه لم يلبث أن كبح جماح نفسه واكتفى برفع كتفيه احتقاراً • وقد أثارت خاتمة المطالعة التي ألقاها وكيل النيابة ، ولا سيما حديثه عن المهارة التي قاد بها استجواب المتهم في موكرويه ، أثارت مناقشات كثيرة ومحادثات طويلة بعد ذلك في مجتمعنا ؛ ولم ينس الناس أن يسخروا من هيبوليت كيريلوفتش ، فكانوا يقولون : « انه لم يستطع مقاومة الاغراء الذي يحضه على الزهو بنفسه والاعجاب بمقدرته » •

ورُفعت الجلسة ، ولكنها لم تُرفع الا مدة قصيرة جداً هي ربع ساعة أو عشرون دقيقة في أكثر تقدير ، سُمعت أثناءها بين الجمهور أحاديث شتى وصيحات تعجب كثيرة اليكم بعض ما حفظته منها :

قال سيد بين نفر من الناس وهو يقطب حاجبيه :

ـ خطاب جاد كل الجد ، خطير كل الخطورة !

فأجابه آخر :

ـ أسرف فى السيكولوجيا مع ذلك !

ـ ولكن ما قاله هو الحقيقة ، هو الحقيقة بعينها خالصة !

ـ نعم هو حجة فى هذا الميدان .

ـ عرض تاريخ حياة المتهم .

وتدخل ثالث فقال :

ـ وقد نلنا نصيبنا نحن أيضاً ، فى بداية مطالعته ، هل تتذكرون ؟ حين أكد أننا جميعاً نشبه فيدور بافلوفتش .

ـ وفى نهاية خطابه كذلك . ولكنه كذب !

ـ ثم لقد تضمن خطابه فقرات كثيرة غامضة .

ـ انقاد لدافع الفصاحة والبلاغة .

ـ كان ظالماً ، ظالماً جداً .

ـ لا أرى هذا الرأى . وقد كان بارعاً على كل حال . طال انتظاره ساعتَه ، ولكنه عرف كيف يفصح عما بنفسه أخيراً ! هيه !

ـ اننى أتساءل عما سيقوله المحامى .

وفى جماعة أخرى ، دار الحديث التالى :

ـ أخطأ حين نال من هذا المحامى الآتى من سان بطرسبرج : « حتى يؤثر فى عواطفكم » . لا شك أنكم تتذكرون هذه العبارة .

ـ نعم ، لقد أخطأه التوفيق هنا !

ـ أسرف فى التعجل .

ـ هو رجل عصبى .

ـ نحن نضحك ، نحن ، أما بالنسبة الى المتهم فليس فى كلام وكيل النيابة ما يبعث على الضحك •

ـ أى والله • مسكين ميتيا !

ـ وددت لو أعرف ما سيقوله المحامى !

وفى جماعة ثالثة جرى هذا الحوار :

ـ من هى تلك السيدة الجالسة فى الركن ، الواضعة على عينيها نظارة صغيرة ؟

ـ هى زوجة جنرال • انها مطلقة • أنا أعرفها •

ـ آ ••• لهذا تضع نظارة •

ـ هى هول من الأهوال •

ـ أما أنا فأرى أنها مثيرة •

ـ على مقربة منها ، بعد كرسين ، توجد صغيرة شقراء أوثرها عليها •

ـ لقد عرفوا كيف يفحمونه بحذق وبراعة فى موكرويه ، ألا ترون هذا الرأى ؟

ـ لا أنكر أنهم كانوا بارعين • لم يستطع وكيل النيابة مقاومة الاغراء الذى يحضه على سرد هذه الأمور مرة أخرى • لقد طالما سمعناه يقص هذه القصة مراراً قبل الآن ، فى بيوت بعض الأصدقاء !

ـ لا حيلة له فى دفع هذا الاغراء • غلبه حب الظهور على أمره •

ـ هو رجل ما ينفك يشعر أنه مغبون ! هه !•••

ـ وهو الى ذلك سريع التأذى • وقد أسرف فى اصطناع أساليب البلاغة ، وكانت عباراته مفرطة فى الطول •

ـ ثم لقد حاول أن يخيفنا ، حاول أن يروّعنا باستمرار • هل تتذكرون ما قاله عن الترويكا ؟ « ان عند الشعوب الأخرى رجالاً من أمثال هاملت ، أما نحن فليس عندنا بعد الا أمثال كارامازوف ! » • تلك براعة منه •

ـ أراد أن يتملق اللبراليين • انه يخاف منهم •

ـ حتماً ! انى لأتساءل ما الذى سيقوله السيد فيتوكوفتش •

ـ مهما يتكلم فلن ينتصر على فلاحينا !

ـ أتظن ذلك ؟

وفى جماعة رابعة جرى هذا الحديث :

ـ أحببت كثيراً تلك الفقرة التى تكلم فيها عن الترويكا ، الفقرة التى تكلم فيها عن الأمم الأخرى •

ـ لقد قال الحقيقة بعينها ـ هل تتذكر ؟ ـ حين أكّد أن الشعوب الأخرى ستضيق ذرعاً بنا آخر الأمر !

ـ لماذا ؟

ـ ظهرت بوادر ذلك منذ الآن • ففى الأسبوع الماضى قام أحد أعضاء البرلمان الانجليزى ، فقدم سؤالاً الى الوزارة عن العدميين ، وسأل: أما آن الأوان لردع هذا الشعب الهمجى وردّه الى الصواب من أجل تأديبه • الى هذا انما ألمع هيبوليت كيريلوفتش • أنا أعرف ذلك • لقد حدثنا عن هذه الواقعة منذ بضعة أيام •

ـ ان ايديهم أقصر من أن تستطيع أن تنالنا بشىء •

ـ كيف ؟

ـ الأمر بسيط • يكفى أن نغلق ميناء كرونشتات ، وأن ننقطع عن امدادهم بالقمح • فمن أين يجيئون بالقمح عندئذ ؟

ـ من أين ؟ أنسيت اذن أمريكا ؟ ان عندهم الآن قمحاً ، فى أمريكا !

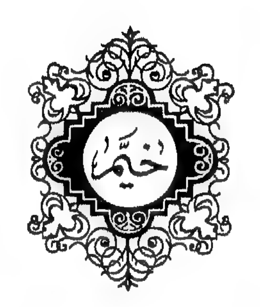
ـ غير صحيح !

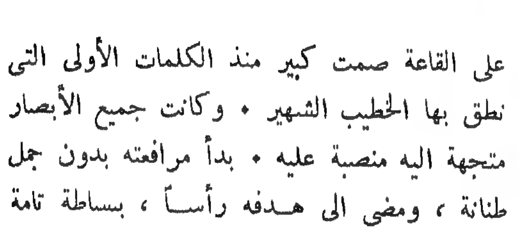
ولكن جرس رئيس المحكمة دوّى رنينه ، فأسرع الجميع الى أماكنهم • وتقدم فيتوكوفتش لالقاء مرافعته •

١٠

المرافعة

سلاح ذو حدين





خيّم على القاعة صمت كبير منذ الكلمات الأولى التى نطق بها الخطيب الشهير • وكانت جميع الأبصار متجهة اليه منصبة عليه • بدأ مرافعته بدون جمل طنانة ، ومضى الى هـدفه رأسـاً ، ببساطة تامة مقنعة ليس فيها شىء من ادعـاء أو غرور • خلا كلامه من كل ما يمكن أن يدل على رغبـة فى الفصـاحة وميل الى البـلاغة ، أو ايثار للألفاظ الرنانة التى تسهل التأثير فى العواطف • لكأنه رجل يتحدث فى حلقة ضيقة من الأصدقاء • وكان له صوت جميل قوى محبّب ينم جرسه عن الصدق وطيب السريرة وحسن النية • غير أن جميع الناس قد أدركوا مع ذلك أن هذا المتحـدث قادر على أن يرتفع الى مسـتوى الخطابة التى تؤثر فى السامعين تأثيراً قوياً حقاً ، وأن « يهزّ أوتار القلوب هزاً عنيفـاً لا يجاريه فيه أحـد » • لعله كان يتحدث بلغـة تقل سـلامةً عن لغـة هيبوليت كيريلوفتش ، ولكنه لا يستعمل عبارات طويلة ، وهو أميل منه الى الوضوح وأقرب الى الدقة • ومع ذلك هناك أمر لم يعجب السيدات

فيه : لقد كان يحنى ظهره دائماً ، ولا سيما فى بداية مرافعته ، لا كما يحنى المرء ظهره فى التحيـة ، وانما هو يحنى ظهره كمن يندفع نحو سامعيه • وأكثر من هذا أنه كان لا يحنى الا نصف ظهره الطويل الذى كان يبدو كأنه مزود بمفصّلة فى وسطه تتيح له أن ينثنى زاويةً تكاد تكون قائمة •

وقد تكلم فى بداية خطابه على نحو مبعثر مشتت ، دون أن يلاحظ السامع وجود خيط ينظم الكلام أو خطة تربط أجزاءه بعضها ببعض ، وانما هو ينتقل من واقعة الى أخرى بما يشبه المصادفة ، غير أنه قد أخرج من ذلك فى النهاية مجموعة متسقة الأجزاء ملتحمة الترابط • وفى وسعنا أن نقسم مرافعته قسمين : فأما القسم فهو يشتمل على نقد ودحض للاتهام ، وكان فى بعض مواضعه لاذع السخر كاوى التهكم • وأما القسم الثانى فقد غيرَّ فيه الخطيب لهجته بل وغير موقفه فجأة ، فاذا هو يرتقى دفعةً واحدة الى نبرة مؤثرة تهز أوتار القلب • وكأن القاعة كانت تنتظر تلك اللحظة ، فأخذت ترتعش حماسة جياشة • وقد عمد المحامى الى مواجهة القضية رأساً ، فأعلن قبل كل شىء أنه وان كان يمارس المحاماة عادةً فى سان بطرسبرج فقد اتفق له مراراً أن ذهب الى مدن الأقاليم ليدافع عن بعض المتهمين ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك الا حين يقتنع ببراءة أولئك المتهمين أو يحسُّها • وأضاف يقول شارحاً :

« وهذا ما حدث لى أيضاً فى القضية التى يُنظر فيها الآن • فاننى منذ قرأت أولى المقالات التى نشرتها الصحف عن هذه القضية قد خطفت انتباهى ظروفٌ تشهد ببراءة المتهم • على أن جانباً قانونياً محضاً هو الذى همنى فى أول الأمر • لقد رأيت عندئذ ، رغم أن الملاحظات التى من هذا النوع كثيرة فى ممارسة القضاء ، رأيت أن الأمور التى تشهد ببراءة المتهم لم تكن فى أية قضية من القضايا واضحة بقوة كقوة وضوحها

فى هذه القضية ، ولم نشتمل على تفاصيل بارزة تبلغ هذه الكثرة التى تبلغها فى هذه القضية ، فيما يخيّل الىّ . وربما كان ينبغى لى أن أحتفظ بهـذه الآراء الى آخر المرافعـــه ، حين أكون قد فرغت من تمحيص الوقائع ، ولكننى أوثر أن أعبّر عما يجول فى فكرى منذ البداية ، لأن من عيوبى أننى أمضى الى هدفى رأساً ، غيرَ مبالٍ بما يكون لكلامى من تأثير ، وغيرَ مكترث بما يجب على المحامى فى مثل هذه الظروف اصطناعه من تدرج فيما يريد أن يحمله الى نفوس السامعين . وقد أكون فى هذا متهوراً غير متروٍ ، ولكننى مخلص صادق على كل حال . اليكم الفكرة التى أريد أن أعبِّر عنها : اننا نرى ، من جهة أولى ، قرائن قوية ثقيلة قاطعة تشهد بأن المتهم هو الجانى ، ونرى من جهة ثانية أنه ما من واقعة من الوقائع التى تُتخذ أساساً للاتهام يمكن أن تصمد وحدها لأى تفنيد جدى ! وقد عزّز هذا الشعورَ فى نفسى كلُّ ما قاله النـاس أو نشرته الصحف عن هذه القضية. ثم هأناذا أتلقى من أهل المتهم، على حين فجأة، دعـوة الى تولى الدفاع عنـه . فقبلت على الفـور ، حتى اذا وصلت الى هذه المدينة ، صار اقتناعى الى يقين . فمن أجل أن أهدّم تلك القرائن المتراكمة التى تميل الى ادانة المتهم ، ومن أجل أن اكشف عن بطلانها واستحالتها ، ومن أجل أن أُظهر ضعف كل عنصر من عنـاصر الاتهام على حدة ، انما قبلت أن أتولى الدفاع عن المتهم . » .

بهذه الكلمات استهل المحامى مرافعته ، ثم هتف يقول :

« ســادتى المحلّفين ، أنا امرؤ جـاء من مدينـة أخرى لا يحمل أفكاراً ميتــة ، ولا أثّر فى مشـاعره أى تحيز . ان هـذا المتهم الذى يتصف بطبع عنيف جامح لم يسىء الىّ فى الماضى كما لعله أساء فى هذه المدينة الى عدد من الأشخاص اساءاتٍ تفسّر لنا ما يحمله له هذا العدد الكبير كله من الناس من شعور العداء . اننى اعترف طبعـاً بأن الرأى

العام ليس ثائراً عليه بغير سبب : فان المتهم رجل عنيف لا يلجم نفسه ولا يكبح جماحه • ومع ذلك كان يُستقبل في المجتمع الراقي ، وكان يُدلَّل حتى في أسرة السيد وكيل النيابة الذي أقدر موهبته العظيمة وأعجب بها كثيراً •

(ملاحظة : أثارت هذه الكلمات في الجمهور ضحكات صغيرة لم تلبث أن خُنقت ، ولكن جميع الناس لاحظوها ، لأنهم كانوا يعرفون أن وكيل النيابة استقبل ميتيا في منزله على مضض ، لمجرد أن زوجته رأت في ميتيا فتى شائقاً . ان زوجة وكيل النيابة امرأة محترمة ، وهي سيدة فاضلة الى أبعد الحدود ، ولكنها غريبة الطبع قليلاً ، تحب أن تعاكس زوجها أحياناً ، ولا سيما في الأمور التي ليس لها كبير شأن • على أن ميتيا لم يزرهما الا لماماً) •

تابع المحامي كلامه فقال :

« ولكنني أستطيع أن أؤكد مع ذلك أن موكّلي العاثر الحظ قد خلَّف أثراً سيئاً حتى في نفس خصمي الذي يتصف باستقلال الرأي ويتميز بالانصاف والعدل • انني لأعرف أن هذا المسكين قد فعل كل ما من شأنه أن يحمل الناس على اساءة الظن فيه واساءة الحكم عليه ، وأن يحملهم على أن لا يضمروا له عاطفة طيبة • ان مخالفة الشعور الأخلاقي ، ومجافاة الحس الجمالي خاصة ، أمران لا يغتفران • لقد سمعنا في المطالعة اللامعة التي ألقتها النيابة تحليلاً قاسياً لنفسية المتهم وأعماله ، وسمعنا عرضاً تناول وقائع القضية بنقد صارم ؛ وقد حاولت النيابة خاصةً ، في سبيل أن تُفهمنا جوهر القضية ، أن تطل بنا على أغوار سيكولوجية ما كان للسيد وكيل النيابة أن يسبرها لولا أنه يضمر لشخص المتهم شيئاً من العداء أو سوء الظن • على أن هناك ، في مثل هذه الحالات ، أموراً أنكى وأشأم مما قد يحمله المرء للمتهم من عاطفة

سيئة ، أو ما قد يتخـذه منه من موقف معـادٍ عن عمد وقصـد • ذلك ما يحدث خاصةً حين ننقاد لنوعٍ من العبث الفني ، لنوعٍ من الحاجة الى الخلق الشعرى ان صح التعبير ، لنوع من الرغبة فى انشـاء رواية وتأليف قصة ، وهذا أمر مفهوم معقول حين تكون العناية الالهية قد أعطتنا مواهب سيكولوجية • اننى وأنا فى سـان بطرسبرج بينما كنت أستعد للمجىء الى هذه المدينة قد نُبِّهت ـ وما كنت أجهل ذلك على كل حال ـ اننى سأواجه فى هذه القاعة خصـماً أوتى احسـاساً سيكولوجياً خارقاً مرهفاً عميقاً ، وهو خصم اكتسب بفضل كفاءاته المرموقة فى هذا الميدان قدراً من السمعة والمجد لدى الأوساط التى ليس لها خبرة واسعة من رجال هيئتنا القضائية الشابة • ولكن السيكولوجيا ، يا سادتى ، سلاح ذو حدين ، مهما تكن عميقة • (هنـا سُمعت فى الجمهور ضـحكات صغيرة) • اننى لعلى ثقة بأنكم ستغفرون لى هذا التشبيه العامى ، فأنا أمرؤ لا أملك ما يملكه غيرى من جمال البيان وقوة البلاغة • لنأخذ مثالاً هو أول مثال يعرض لنا فى مطالعة النيابة • ان المتهم ، حين هرب فى جوف الليل من خلال الحديقـة ، تسـلق السـور ، ثم هوى بضربة من مدق الهاون على رأس الخادم الذى تشبث بساقه • وعاد يثب الى الحديقة بعد ذلك من جديد ، فقضى قرب العجوز الذى جندله خمس دقائق طويلة محاولاً أن يعرف أهو قد قتله أم لا • ان النيابة ترفض رفضاً قاطعاً أن تسلِّم ، بحال من الأحوال ، أن المتهم قد قال الحقيقة حين أكَّد أنه قد شُغل بجريجورى شفقةً عليه ورأفةً به • يقول خصمى : « لا ، ان هذه العاطفة لا محل لها فى مثل هذه الحالة ، ولا يمكن أن تكون طبيعيـة ، فانما قفز المتهم الى الحديقة من جديد لا لسبب الا أن يتأكد من ان الشاهد الوحيد قد مات ، فكأنه حين فعل ذلك قد وقَّع اعترافاً بجريمته ، فما كان ليحضه على ذلك أى باعث آخر أو أن تحضه عليه أية عاطفة أخرى ،

حين عـاد يثب الى الحديقـة » • انني أسلم بأن هـذا الكلام هـو من السيكولوجيا • ولكن ألا فلنأخذ هذه السـيكولوجيا فنطبقها على الوقائع تطبيقاً جديداً من الجهة المعارضة ، فنرى أن النتائج التي نصل اليها عندئذ لا تقل اقناعاً عن النتائج التي وصلت اليها النيابة • ان القاتل الذي وثب الى الحديقة ليتأكد من أن الشاهد على جريمته قد مات ، كان قد ترك ، منذ لحظات ، في غرفة أبيه الذي قتله ، قرينةً يصفها السيد وكيل النيابه نفسه بأنها قرينـة قاطعة ودليـل حاسم ، ألا وهي الظرف الممزق الذي تثبت العبارة المكتوبة عليه أنه كان يضم مبلغ ثلاثة آلاف روبل • فلو أن المتهم قد أخذ هذا الظرف ، اذن لما خطر ببال أحد أنه كان هنالك ظرف ، لا ولا خطر ببال أحد أنه كان هنالك مال ، ولما استطاع أحد أن ينسب الى المتهم فعل السرقة • ذلك ما قاله السيد وكيل النيابة • فمن جهة أولى اذن ، نرى رجلاً طاش صـوابه وذهب عقله ، واستحوذ عليـه الخوف فهرب تاركاً في أرض الغـرفة برهاناً على ارتكابه الجريمـة ؟ ومن جهة ثانية نرى هذا الرجل نفسـه يسـترد على حين فجأة كل صحو ذهنـه وحضور بديهته ، ويبرهن على أنه يحسب الأمور حساباً يبلغ أبعد حدود الدهاء ، ويمضي الى أقصى آماد النأي عن العاطفة الانسانية • لنسلّم مع ذلك بأن الأمور قد جرت على هذا النحو فعـلاً ، لنسلّم بأن كل رهافة السـيكولوجيا انما تكمن هنـا : فرب فرد واحد بعينـه يملك في بعض الظروف بصيرة دموية كبصيرة نسر من نسـور القفقاس ، ثم هو يصبح بعد لحظة واحدة أعمى هلوعاً كخلدٍ مروّع بائس • ولكن اذا كنا قد بلغنا من شدة القسوة ودقة الحساب حدّ الوثوب مرة أخرى الى أسـفل السور بعد ارتكابنا جريمة قتل ، لا لهـدف الا أن نتأكد من أن الشـاهد الذي قد يشهد علينا قد مات ، فلماذا نشغل أنفسنا بعد ذلك خمس دقائق طويلة قرب هذه الضحية الجديدة متعرضين لأن يتنبه الينا شهود آخرون

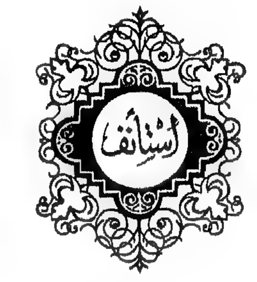
فى أغلب الظن ؟ لماذا نبلل منديلنا بالدم الذى يسيل من رأس الضحية ، مع أن هذا المنديل قد يُستخدم بعد ذلك دليلاً علينا ؟ ألم يكن من الأفضل لنا ، ونحن على هذا القدر من شدة التوحش وقسوة القلب ، أن نبادر بعد الوثوب عن السور الى الحديقة من جديد ، فنجهز على الخادم بضربات أخرى نهوى بها على رأسه بمدق الهاون لنصبح على يقين من موته ، ثم نهرب وقد فرغنا من هذا الهم وتخلصنا من هذا الخوف ! والكيم تناقضاً آخر : أأثب الى أسفل السور لأتأكد من موت شاهد مزعج ، ثم أترك على ممرٍ فى الحديقة دليلاً قاطعاً علىَّ هو ذلك المدق الذى أخذته من عند امرأتين يمكن أن تتعرفاه وأن تشهدا بأننى أنا الذى أخذته من عندهما ؟ ولا يمكن الادعاء بأننا نسينا هذا المدق فى الممر نسياناً أو انه سقط منا سهواً بسبب ما كنا فيه من انفعال واضطراب • لا ، فانما نحن رمينا ذلك السلاح رمياً عامدين ، فقد وُجد على مسافة خمس عشرة خطوة على الأقل من المكان الذى كان راقداً فيه جريجورى. فاذا سأل سائل لماذا فعلنا ذلك ، قلنا فانما نحن فعلناه لما شعرنا به من أسف شديد ومرارة عظيمة لصرعنا رجلاً هو خادم عجوز • فلما استولى علينا الغضب من أنفسنا ألقينا السلاح الذى استعملناه فى ارتكاب هذا الذنب ، ألقيناه بعيداً عنا • ذلكم هو التفسير الوحيد الممكن • وبدون هذا لا يمكن أن يفهم أحد لماذا رمى المتهم ذلك السلاح بمثل ذلك الاندفاع • ولكن اذا استطعنا أن نشعر بتلك المرارة كلها وتلك الشفقة كلها لأننا قتلنا ذلك الخادم العجوز ، فان معنى هذا أننا لم نقتل أبانا : فلو قد ارتكبنا جريمة قتل الأب ، لما ملنا على الضحية الثانية مشفقين ، ولكان شعورنا عندئذ مختلفاً عن هذا الشعور كل الاختلاف ، ولما فكرنا عندئذ الا فى نجاتنا نحن وفى خلاصنا نحن ، ولما أشفقنا على غير أنفسنا البتة • ذلك أمر بديهى لا سبيل الى المماراة فيه • بالعكس : كنا سنجهز عندئذ على

الضحية ، بدلاً من أن نُشغل بها خمس دقائق طويلة !••• ولئن شعرنا بالشفقة ، ولئن استيقظت فينا العواطف الخيّرة فى تلك اللحظة ، فما ذلك الا لأننا كنا نحس حتى ذلك الحين ببراءة الذمة وطهارة الضمير • ان هذا من السيكولوجيا أيضاً ، ولكنه سيكولوجيا مختلفة بعض الاختلاف• وانما تعمدت ، يا سادتى المحلّفين ، أن أعمد أنا أيضاً الى استدلالات سيكولوجية ، لأظهر لكم بوضوح وجلاء أن فى وسع المرء أن يخلص من أمثال هذه التحليلات الى ما يشاء الخلوص اليه من نتائج ، وأن يستخرج منها ما يحب له هواه أن يستخرجه من أحكام • والأمر كله يتوقف على الهدف من استعمال هذه التحليلات ، ويتوقف على الشخص الذى يقوم بهذه التحليلات • ان السيكولوجيا ، يا سادتى ، يمكن أن تغرى أحرص الناس على الجد وأكثرهم تمسكاً بالانصاف ، يمكن أن تغريهم بانشاء روايات وتأليف قصص ، وذلك على غير ارادة منهم • وطبيعى يا سادتى أن ما قلته الآن لا يتناول الا بعض مبالغات التحليل السيكولوجى ، وبعض اساءات استعماله » •

هنا سُمعت ضحكات صغيرة أخرى يؤيد بها الجمهور سخرية المحامى من وكيل النيابة • ولكننى لن أنقل كل المرافعة التى القاها المحامى ، وانما أقتصر على مقتطفات منها هى أهم ما ورد فيها •

١١

لم يكن ثمة مال ، إلا ولا سرقة



المحامى كلامه فقال :

« سادتي المحلفين ، ان فى هذه القضية أمراً خاصاً يخطف انتباه كل انسان غير متحيز . هذا الأمر الخاص هو اتهام موكلى بالسرقة مع انتفاء أى دليل قاطع على أن هناك مالاً قد سُرق . يُقال ان مبلغ ثلاثة آلاف روبل قد اختفى ، ولكن ما من أحد يعرف على وجه اليقين هل كان لهذا المبلغ وجود . فكروا قليلاً : من الذى أعلمنا بوجود هذه الثلاثة آلاف روبل ، من الذى رآها ؟ لا أحد الا الخادم سمردياكوف الذى زعم أن هذا المال كان مودعاً فى طرف عليه الكتابة التى علمتم . وهذا الخادم سمردياكوف هو الذى نقل أيضاً هذا النبأ ، قبل وقوع الكارثة ، الى المتهم والى أخيه ايفان فيدوروفتش ، كما تحدث عنه كذلك الى السيدة سفيتلوفا . غير أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة لم يروا هذا المال بأعينهم . وما من أحد رآه الا سمردياكوف فيما زعم . ولكن لا بد لنا أن نلقى على أنفسنا عندئذ هذا السؤال : لنفرض أن سمردياكوف كان صادقاً فيما قال ، فمتى رأى هذا المبلغ آخر مرة ؟ لنتخيل مثلاً أن مولاه قد أخرج المال بعد ذلك من تحت الفراش ووضعه فى صندوقه دون أن يبلغ الخادم ذلك . لاحظوا أن أقوال

سمردياكوف تذهب الى أن المال كان مخبأً فى السرير تحت الفراش • فلا بد اذن أن يكون المتهم قد نبش السرير • فهل رأيتم السرير منبوشاً ؟ كلاً ••• وتلك واقعة مسجلة فى محضر التحقيق • فكيف يمكن أن لا يكون المتهم قد جعّد غطاء السرير ولو تجعيداً يسيراً ، بل كيف يمكن أن يكون قد دسّ يديه الملطختين بالدماء تحت الفراش دون أن يلوّث المفارش النظيفة المصنوعة من دقيق النسيج ، التى وُضعت على السرير فى ذلك المساء خصيصاً ؟ رب سائل يسأل : فما قولك بالظرف ؟ ألا فلنتكلم اذن عن هذا الظرف قليلاً • لقد دُهشت بعض الدهشة منذ قليل حين رأيت السيد وكيل النيابة ، أثناء حديثه عن هذا الظرف نفسه ، فى مطالعته اللامعة ، حين رأيته هو نفسه — نعم هو نفسه أيها السادة — يقول من أجل أن يبرهن على بطلان اتهام سمردياكوف بارتكاب جريمة قتل : « لولا وجود ذلك الظرف ، لولا أن ذلك الظرف كان ملقى على الأرض دليلاً مادياً ، لولا أن السارق لم يأخذ هذا الظرف معه ، اذن لما خطر ببال أحد فى العالم شىء عن وجود هذا الظرف ووجود المال المودع فيه ، ولما أمكن أن يُنسب الى المتهم أنه سرق » • معنى ذلك أن هذه القطعة الحقيرة من الورق الممزق ، مع العبارة المكتوبة عليها ، هى وحدها الأساس الذى يقوم عليه اتهام المتهم بالسرقة • فلولا هذا الظرف لما عرفنا أن سرقة حدثت ، ولما كنا على يقين من وجود المال • فهل يمكن حقاً أن نزعم أن هذه المزقه الحقيرة من الورق الملقاة على الأرض تنهض دليلاً كافياً على وجود المال وحدوث السرقة ؟ قد يُعترض على هذا بأن « سمردياكوف قد رأى المال فى الظرف » ، ولكننا نسأل عندئذ : متى ، متى رأى هذا الظرف آخر مرة ؟ ذلكم هو السؤال الذى ألقيه عليكم • لقد تحدثت فى هذا الأمر مع سمردياكوف ، فذكر لى أنه رآه قبل حدوث الدرامة بيومين • فهل محظور علينا أن نفترض والحالة هذه أن

العجوز فيدور بافلوفتش قد خطر بباله فجأة ، حين كان وحده في الغرفة منتظراً حبيبته على قلق ، أن يخرج الظرف من السرير وأن يفضه ، قائلاً لنفسه : « اذا كان المال مودعاً في الظرف فقد يراودها شك ، أما اذا رأت في يدي ثلاثين ورقة جميلة من فئة المائة روبل ، فسوف تقتنع رأساً ، وسوف يسيل لعابها طمعاً ! » • ها هو ذا اذن يمزق الظرف ويخرج منه المال ، ثم يرميه على أرض الغرفة بحركة واثقة هي حركة رب الدار الذي لا يخشى طبعاً أن يكون في ذلك شهادة عليه • هل هناك حقاً ، أيها السادة ، افتراض أقرب الى المعقول وأدنى الى الجواز من هذا الافتراض الذي صورته لكم ؟ لماذا لا تكون الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً ؟ ولكن اذا جرت الأمور على هذا النحو ، أو على نحو قريب من ذلك ، فقد سقطت تهمة السرقة من تلقاء نفسها : فلا وجود لسرقة ما لم يوجد مال • اذا كانت النيابة العامة ترى أن وجود الظرف ملقى على أرض الغرفة دليل على وجود المال ، فلا شيء يمنعني أنا من أن أؤكد نقيض ذلك • وهو أن الظرف لم يكن ملقى على الأرض الا لأنه قد أفرغ من المال ، أفرغه منه صاحبه نفسه سلفاً • رب سائل يسأل الآن : « ولكن اذا صح هذا ، اذا صح أن فيدور بافلوفتش هو الذي أخرج المال من الظرف ، فأين صار هذا المال ؟ اننا لم نجد المبلغ أثناء تفتيش المنزل» • ان جوابي عن هذا السؤال هو أولاً أن جزءاً من المال قد عثر عليه في صندوق القتيل ؛ وثانياً أن من الممكن أن يكون العجوز قد أخرج المال في صباح يوم الحادثة ، أو قبل ذلك بيوم ، لينصرف فيه تصرفا آخر ، كأن يدفعه لأحد أو أن يرسله الى أحد ؛ وثالثاً أن من الجائز أن يكون قد عدل عن رأيه فيما بعد ، فغير خطة عمله تغييراً كاملاً ، دون أن يرى اطلاع سمردياكوف على ذلك سلفاً • فاذا كان هناك أيسر امكان لتفسير الأمور على هذا النحو ، ففيم هذا الاصرار كله وهذا الاستمرار كله على

تأكيد أن المتهم قد قتـل ليسرق ، وأنه سرق بعد أن قتـل ؟ ألا ان هذا لرواية مؤلفة تأليفا ! حين يزعم أحد أن شيئاً ما قد سُرق ، فانما ينبغي له ، على الأقل ، أن يقول لنا بوضوح ما هو ذلك الشيء ، وأن يبرهن لنا على أنه وُجد فعـلاً • أما في هذه القضـية فان الشيء المسروق لم يره أحد • لقد حدث في سان بطرسبرج ، منذ وقت قصـير ، أن شاباً يكاد يكون مراهقاً ، في الثامنة عشرة من عمره ، يعمل بائعـاً متجولاً ، قد داهم دكان صراف في وضح النهار ، متسلحاً ببلطة ، فقتل الصراف بجرأة قصوى ، وسطا على ألف وخمسمائة روبل • ولكنه قبض عليه بعد بضع ساعات ، فعثر على المبلغ معه كاملاً لم ينقص منه الا خمسة عشر روبلاً كان قد اتسع وقت الشاب لتبديدها • هذا الى أن أجير الصراف ، حين عاد الى الدكان بعد وقوع الجريمة ، استطاع أن يذكر للشرطة لا مقدار المال المسروق فحسب ، وانما ذكر للشرطة أيضاً ممَّ يتألف ذلك المال، أي ذكر عدد الأوراق النقدية المسروقة وقيمة كل منها ، وعدد الدنانير الذهبية التي حملها القاتل• وقد عُثر مع القاتل على تلك الأوراق ذاتها وعلى تلك الدنانير نفسها• يضاف الى ذلك أن القاتل أدلى أخيراً باعترافات كاملة صادقة ، فقال انه قتل وسرق • ذلكم يا سادتي المحلَّفين ما أستطيع أن أسميه أدلة قاطعة • ها هنا لا مجال للشك : فالمال أمامي ، أراه وألمسه ، ويستحيل عليَّ أن أزعم أنه لم يوجد • فهل الأمر على هـذا النحو في القضية الراهنة ؟ والمسألة مع ذلك مسألة حياة أو موت ، مسألة مصـير انسان ! رب قائل يقـول : « طيب ••• ولكن هذا لا ينفي أن المتهم قد قصف في تلك الليلة نفسـها ، وأنه بعثر المال يمنـةً ويسرة ، وأنه قد عُثر معه على ألف وخمسـمائة روبل • فمن أين أتى بهذا المال ؟ » • ولكنني أقـول ان هذه الواقعـة ، وهي أنه لم يُعثـر معـه الا على ألف وخمسمائة روبل وأنه استحال رغم جميع الجهود المبذولة أن يُكتشف

النصف الثاني من المبلغ الذى يُزعم أن المتهم قد سرقه ، أقول ان هذه الواقعة نفسها تبرهن برهاناً كافياً على أن المال ليس مصدره السرقة وأنه لم يكن مودعاً في ظرف • ان التدقيق في أجزاء الزمن الذى قضاه المتهم بعد وقوع الجريمة (وقد حُسب هذا الزمن حساباً دقيقاً) قد أوضح وبيّن أثناء التحقيق أن المتهم لم يذهب الى بيته بعد أن خرج راكضاً من عند الخادمتين ليمضى الى منزل الموظف برخوتين ، وانه لم يذهب الى أى مكان آخر ، وأنه عدا ذلك كان فى صحبة أشخاص آخرين طول الوقت بعد ذلك ، فمن المستحيل والحالة هذه أن يكون قد اقتطع جزءاً من الثلاثة آلاف روبل ليخفيها فى مكان ما بالمدينة • وهذه الاعتبارات بعينها هي التى حملت السيد وكيل النيابة على أن يتصور أن المال لا بد أن يكون قد أُخفي فى جحر من الجحور أو شق من الشقوق فى قرية موكرويه ؟ لماذا لا نقول انه مخبأ فى أقبية قصر أودولف ؟ * أليس هذا الافتراض عجيباً غريباً فى الواقع ؟ لاحظوا يا سادتى المحلّفين أنه متى سقط هذا الفرض ، أعنى متى سقط الفرض الذى يذهب الى أن المتهم قد خبأ المال فى موكرويه ، فقد سقط الاتهام بالسرقة سقوطاً تاماً ، والا فأين ذهبت الألف وخمسمائة روبل الأخرى ؟ بأية معجزة اختفت ما دام قد ثبت أن المتهم لم يدخل الى أى مكان ؟ أبالاستناد الى روايات ينشئها الخيال على هذا النحو ، يجوز لنا أن ندمّر مصير انسان ؟ فاذا قيل لى ان المتهم لم يستطع أن يدلنا على مصدر الألف وخمسمائة روبل التى عُثر عليها معه ، وانه كان معروفاً لدى جميع الناس أن المتهم لم يكن يملك قرشاً واحداً قبل تلك الليلة ، قلت : من يدرى ؟ ان المتهم قد قدم لنا ، من جهته ، تفسيراً واضحاً قوياً لمصدر ذلك المبلغ ؟ وما أحسب الا أنكم تسمحون لى ، يا سادتى المحلّفين ، بأن أنادى قائلاً انه لا يمكن أن يكون هناك ولا يتصور العقل أن يكون هناك أقوال أقرب الى الصحة وأدنى

الى الاحتمال من الأقوال التى أدلى بها المتهم حول هذه النقطة ، لا سيما وأن ما رواه المتهم يتفق كل الاتفاق مع طبعه وخصاله النفسية . لقد حلا للاتهام في القصة التى ألفها أن يتخيل أن رجلاً ضعيف الارادة يأخذ ثلاثة آلاف روبل نقدمها اليه خطيبته فى ظروف مخزية الى ذلك الحد ، لا يمكن أن يملك من القوة ما يمكّنه من أن يقتطع نصف ذلك المبلغ وأن يخيط عليه كيساً يخفيه في صدره ؛ وهبه فعل ذلك فانه ماكان ليستطيع الا أن يفتح الكيس كل يومين فيسل منه مائة روبل بعد مائة روبل ، الى أن يتلف المبلغ كله في غضون شهر . ذلك كله قد قاله لنا السيد وكيل النيابة ، كما تتذكرون ، بلهجة قاطعة لا تقبل الأخذ والرد. فماذا اذا كانت الأمور لم تجر على نحو ما صوّرت قصتكم هذه التى حركتم فيها شخصية روائية من صنع الخيال والوهم ؟ ألا ان البلاء هو انكم صورتم لنا شخصية روائية لا وجود لها في الواقع ! رب معترض يقول ان هناك شهوداً رأوا المتهم يبدد مرةً واحدة فى موكرويه ، قبل وقوع المأساة بشهر ، كل الثلاثة آلاف روبل التى أخذها من الآنسة فرخوفتزيفا ، فلا يمكن أن يكون قد احتفظ من ذلك المبلغ بنصفه. ولكن من هم هؤلاء الشهود ؟ ان درجة الثقة التى يستحقون أن نوليهم اياها قد اتضحت لنا اتضاحاً كافياً أثناء المناقشات . ثم ان قطعة الخبز تبدو لنا دائماً أكبر مما هي فى الواقع حين نراها فى يد غيرنا . يضاف الى ذلك أن أحداً من أولئك الشهود لم يعدد المبلغ بنفسه ، ولم يتكلم أحد عن مقدار ذلك المبلغ الا على أساس رؤية العين . ألم يمض الشاهد ماكسيموف الى حد ادعاء أنه رأى فى يدى المتهم عشرين ألف روبل؟ هكذا ترون ، ياسادتى المحلّفين ، أن السيكولوجيا سلاح ذو حدين ، فاسمحوا لى لذلك أن أواجهها من الطرف الآخر لنرى ما سيخرج منها .

« قبل وقوع المأساة بشهر ، عهدت الآنسة فرخوفتزيفا الى المتهم

بثلاثة آلاف روبل ، وكلفته أن يرسلها بالبريد • انني لأتساءل مع ذلك هل صحيح أن هـذا المال قد سُلِّم اليه على النحو المذل المخـزى الذى وُصف لنـا منذ قليل ؟ ان الشـهادة الأولى التى أدلت بهـا الآنسـة فرخوفتزيفا كانت مختلفـة عن هـذا ، كانت مختلفـة عن هذا اختـلافاً كبيراً • أما شهادتها الثانية فلم تكن الا خليطاً مشوشاً مضطرباً من صرخات غضب وانتقام ، والا انفجاراً لكره طال أمد كبته • ويكفى أن لا يكون هذا الشاهد قد قال لنا الحقيقة دقيقةً فى تصريحاته الأولى حتى نشك فى صدق التصريحات الأخرى التى أدلى بها بعد ذلك • ان السيد وكيل النيابة « لم يشأ ولم يجرؤ » ــ وتلك كلمـاته نفسـها ــ أن يمسّ هذا الجانب من المأساة • ليكن له ذلك ، وهأناذا أتنازل أنا أيضاً عن التوقف على هذا والتلبث عنده • غير أننى أسـمح لنفسى مع ذلك بابداء هـذه الملاحظة : حين نرى انسانة طاهرة فاضلة مثل الآنسة فرخوفتزيفا التى نحترمها جميعاً أكبر الاحترام ، حين نراها تسمح لنفسها فجأة بأن تتراجع أثناء جلسـة المحاكمـة عن شـهادتها الأولى على نية أن تضيّع المتهم ، فانه يكون واضحاً عندئذ أن شـهادتها لا تخلو من الهـوى ولا تتصف بالموضوعية • فهل حرام علينا والحالة هذه أن نتصـور أن امرأة تجيش فى نفسها روح الانتقام وتحركها عواطف الثـأر ، هل حرام علينـا أن نتصور أن هذه المرأة قد بالغت فى كثير من الأمور ، وضخمت كثيراً من الأشياء ؟ ان من الممكن خاصـةً أن تكون قد ضخّمت طابع الذل وصفة الخزى والعار فى تقديمها المال الى خطيبها • وانى لمقتنع بأن هذا المبلغ قد قُدِّم الى المتهم تقديماً يمكّن من قبوله ، لا سيما بالنسـبة الى رجل خفيف خفة صاحبنا المتهم هذا • ويجب أن لا ننسى خاصةً أن المتهم كان ينتظر أن يستلم من أبيـه فى القـريب مبلغ الثـلاثة آلاف روبل الذى يدين أبوه له به تصفيةً لحساب الميراث • صحيح أن ذلك كان منه طيشاً

وتسرعاً ، ولكن الخفة هي بعينها التي جعلته لا يشك في أن أباه سيرد اليه هذا المبلغ ، فيكون في وسعه في كل وقت أن يعيد الى الآنسة فرخوفتزيفا بالبريد المال الذي عهدت اليه به وائتمنته عليه ، فيسدّد دينها عليه ويبرىء تجاهها ذمته • ولكن السيد وكيل النيابة يرفض رفضاً قاطعاً أن يصدّق أن من الممكن أن يكون المتهم قد اقتطع ، في ذلك اليوم نفسه ، نصف المبلغ الذي أخذه من خطيبته وأنه خاط عليه كيساً ؛ فالسيد وكيل النيابة يرى أن ذلك « لا يتفق وطبع المتهم ، وأن المتهم ما كان له أن يشعر بمثل هذه العواطف » • ولكن ألم تهتفوا أنتم أنفسكم قائلين ان لأمثال كارامازوف طبيعة واسعة ، ألم تتكلموا هنا عن الهوّتين اللتين يمكن أن يتأملهما في آن واحد معاً رجلٌ مثل كارامازوف ؟ ألا ان كارامازوف هو فعلاً ذلك الرجل الذي لا حدود لامكانياته في الاتجاهين كليهما ، انه رجل الهوّتين الذي اذا انقاد لفرحة اتلاف المال واستسلم لظمأ الابتهاج واللهو والقصف كان يستطيع في تلك اللحظة نفسها أن يتوقف فجأة متى راودته فكرة أخرى تريه الوجه الآخر للموقف • ولقد كان هذا الوجه الآخر قائماً : انه الحب الذي اشتعل في نفسه ، وكان يحتاج من أجله الى المال احتياجاً أشد من احتياجه اليه في سبيل اللهو والقصف مع حبيبته • فيومَ تقول له حبيبته : « أنا لك • انني لا أريد فيدور بافلوفتش » ، سيرحل معها ، وسيكون عندئذ في حاجة الى مال • وذلك أخطر شأناً من القصف واللهو ، ما في ذلك ريب • ان رجلاً مثل كارامازوف لا يمكن الا أن يدرك هذا • وذلك بعينه هو ما كان يعذبه تعذيباً يوشك أن يصير الى مرض ، لأن هذه الفكرة كانت تحاصره محاصرة ولا تبرحه في لحظة من اللحظات • فلماذا نستبعد أن يكون قد اقتطع ذلك المبلغ وادخره من باب الاحتياط ؟ ولكن الوقت كان يمضي وفيدور بافلوفتش لا يرد الى المتهم الثلاثة آلاف روبل • والأدهى من

ذلك أن المتهم قد علم أن فيدور بافلوفتش ينوى أن يستخدم هذا المبلغ نفسه لاغواء حبيبته ، لاغوائها بماله هو • فقال لنفسه عندئذ : « ان لم يردّ الىّ فيدور بافلوفتش هذا المبلغ فسوف تعدنى كاترين ايفانوفنا لصاً » • عندئذ وُلدت فى ذهنه تلك الفكرة ، وهى أن يمضى فى يوم من الأيام بالألف وخمسمائة روبل التى ما يزال يحملها فى عنقه ، أن يمضى بها الى الآنسة فرخوفتزيفا فيقول لها : « أنا شقى ولكننى لست لصاً » • أصبح هنالك اذن سببان يدفعانه الى الاحتفاظ بهذه الألف وخمسمائة روبل ، والى المحافظة عليها محافظة شديدة والى أن يصونها كما يصون بؤبؤ عينيه والى أن لا يفض الكيس ليسلّ مائة روبل بعد مائة روبل• لماذا تنكرون على المتهم أن يملك شيئاً من الشعور بالشرف ؟ لا يا سادتى ! ان هذا المتهم يملك الاحساس بالشرف ؟ قد يكون فى احساسه بالشرف شىء من البعد عن طريق الصواب ، وقد يظهر هذا الاحساس فى بعض الأحيان مقلوباً ، ولكنه يحس بالشرف احساساً قوياً ويتصوره تصوراً جياشاً بالهوى والاندفاع ، ولقد برهن على هذا ! ويتعقد الأمر مع ذلك، فهذه تباريح الهوى تبلغ أوجها ، وهذان سؤالان ، سؤالان قديمان ، ما يزالان يلحان على نفسه المضطربة الحاحاً شديداً ، وما يزالان يؤلمانه مزيداً من الألم : « سأرد الى كاترين ايفانوفنا مالها ، ولكن من أين أجىء بعد ذلك بما سأحتاج اليه من مال لأرحل مع جروشنكا ؟ » • ولعل السبب فى أن سلوكه كان طوال هذا الشهر فاسداً ذلك الفساد وأنه كان يقبل على السكر بغير انقطاع ، لعل السبب فى هذا هو أن نفسه كانت تفيض مرارة ، وأنه لم يفلح فى السيطرة على ألمه ؟ وتفاقمت الخواطر التى كانت تثيرها هذه المسائل فى ذهنه ، تفاقمت حتى أودت به الى اليأس• وأوفد أخاه الصغير الى أبيه يرجوه مرة أخيرة أن يدفع له تلك الثلاثة آلاف روبل ، ولكنه داهم المنزل دون أن ينتظر جواباً ، وانتهى به الأمر

الى ضرب العجوز على مرأى من شهود • وبعد ذلك فقد أى أمل فى الحصول على هذا المبلغ ، لأنه أيقن أن أباه سيرفض حتماً اعطاءه المال ، حقداً عليه وانتقاماً منه • وفى ذلك اليوم نفسه ، حين التقى بأخيه فى المساء ، لطم صدره ، لطم أعلى صدره ، فى الموضع الذى يوجد فيه الكيس ، وحلف أن فى امكانه أن لا يصبح شقياً حقيراً ، ولكنه سيصبح كذلك ، لأنه يتنبأ بأنه لن يستعمل هذا الامكان ، لافتقاده القوة النفسية التى تتيح له ذلك • انى لأسألكم لماذا يرفض الاتهام أن يثق بأقوال ألكسى كارامازوف وأن يركن الى شهادته التى أدلى بها بريئاً تلك البراءة كلها ، صادقاً ذلك الصدق كله ، عفوياً تلك العفوية كلها ، والتى هى من جهة أخرى معقولة محتملة الى أبعد الحدود ؟ ولماذا يُراد لى ، فى مقابل ذلك ، أن أُقسر قسراً على الاعتقاد بأن هناك مبلغاً من المال قد خبىء فى شق خفى من الشقوق أو فى قبو من أقبية قصر أودولف ؟ وفى ذلك المساء نفسه ، بعد حديثه مع أخيه ، كتب المتهم تلك الرسالة المشئومة ، تلك الرسالة التى هى أقوى قرينة ضده ، وأكبر دليل عليه ، والتى هى الأساس الرئيسى لاتهامه بالسرقة • « سأمضى ألتمس المال لدى جميع أنواع الناس ، فان لم أحصل عليه ، فسوف أقتل أبى ، وسوف استولى على المال المخبأ تحت الفراش فى ظرف مربوط بشريط وردى اللون ، شريطة أن يكون ايفان غائباً » • هذه خطة قتل• فكيف لا يكون هو القاتل والحالة هذه ، أليس كذلك ؟ « ذلك مكتوب » • بهذا صاح السيد وكيل النيابة • ولكننى أقول أولاً ان هذه الرسالة قد كتبت فى حالة سكر ، بينما كان يستحوذ على المتهم حنق شديد وغيظ كبير ؛ وأقول ثانياً ان المتهم لا يتكلم فى هذه الرسالة عن الظرف الا اعتماداً على أقوال سمردياكوف ، لأنه لم ير الظرف بنفسه ؛ وأقول ثالثاً ان هذه الرسالة قد كُتبت فعلاً ، ولكن ما الذى يبرهن لنا على أن

المتهم قد تصرف بعد ذلك وفقاً لما جاء في تلك الرسالة ؟ هل أخرج الظرف من تحت الفراش ، هل وجد فيه المال ، بل كان لهذا المال وجود ؟ تذكروا ان المتهم لم يهرع الى منزل أبيه بغرض الحصول على هذا المال . تذكروا هذا أيها السادة ! وانما هو تسلل الى الحديقة كالمجنون ، لا ليسرق ، بل ليعرف أين توجد تلك المرأة ، تلك المرأة التي يحبها حب العبادة ، فهو اذن لم يذهب الى منزل أبيه لينفذ الخطة الموصوفة في الرسالة ، انه لم يذهب الى منزل أبيه لارتكاب سرقة مدبرة ؛ وانما هو أسرع الى هناك بغير تدبير ولا تفكير ، وقد استبدت به وسيطرت عليه نوبة غيرة مسعورة . رب قائل يقول : « ولكن هذا لا ينفي أنه قتل أباه بعد ذلك ، واستولى على المال » . هنا أسألكم أخيراً : « هل قتل ؟ هل قتل حقاً ؟ » . انني ارفض تهمة السرقة مستنكراً مستهجناً : فليس يجوز لنا توجيه تهمة من هذا النوع حين لا نستطيع أن نحدد الشيء المسروق على وجه الدقة : تلك بديهية من البديهيات . ولكن هل قتل المتهم ، هل قتل دون أن يسرق ؟ هل جريمة القتل ثابتة ؟ ألسنا ، هنا أيضاً ، بصدد رواية مؤلفة ؟

١٢

الا والا كان قتل

معذرة ، سادتى المحلّفين ، ولكن الأمر يتوقف عليه مصير انسان ، فيجمل بالمرء أن يلتزم جانب الحكمة والحذر والتروى . لقد سمعتم السيد وكيل النيابة يصرّح هو نفسه بأنه قد تردد حتى آخر يوم ، حتى انعقاد جلسة المحاكمة هذه ، فى أن ينسب الى المتهم جريمة قتلٍ عن سابق تصور وتصميم ، وأنه ظل يتردد فى ذلك حتى اللحظة التى قُدّمت فيها الى المحكمة تلك الرسالة المشئومة ، تلك الرسالة التى كتبها سكران . « ذلك مكتوب » . ولكننى أعود فأقول مكرراً ان المتهم قد تسلل الى الحديقة ليعثر على تلك المرأة ، وليس له من هدف الا أن يعرف أين هى . تلك واقعة ثابتة لا سبيل الى انكارها . فلو قد وجدها فى منزلها لما ذهب الى دار أبيه ، ولظلّ الى جانب تلك المرأة ، ولما نفّذ ما أعلن عنه فى رسالته . لقد هرع الى منزل أبيه بحركة مباغتة لم يكن يتوقعها ، ولعله كان فى تلك اللحظة قد نسى الرسالة التى كتبها وهو سكران . رب قائل يقول : « ولكنه أخذ مدق الهاون ، أليس كذلك ؟ » . ولا شك أنكم تتذكرون التحليلات السيكولوجية التى اتخذ هذا المدق الشقى ذريعة لها وحجة ، وكيف أريدَ اقناعنا بأن المتهم لا بد

أن يكون قد عدّ هذا المدق سلاحاً ، وأنه قد استولى عليه أداةً لارتكاب جريمه قتل الخ . ان فكرة بسيطة جداً تحضرنى فى هذه المناسبة : ترى ما الذى كان يمكن أن يحدث لو أن مدق الهاون هذا لم يكن موضوعاً على المائدة أو على رف فرآه المتهم فتناوله ، وانما كان مودعاً فى خزانة مثلاً ؟ ما كان لهذا المدق عندئذ أن يخطف بصر المتهم ، ولانصرف المتهم عندئذ خالى اليدين ، لا يملك سلاحاً ، ولما أتيح له والحالة هذه أن يقتل أحداً . فكيف نستطيع بعد هذا أن نعدّ ذلك المدق دليلاً على سابق تصور وتصميم ، وبرهاناً على نية التزود بسلاح ؟ رب قائل يقول : طيب ... ولكن المتهم قد صرخ يقول هو نفسه ، فى الكاباريهات ، انه سيقتل أباه ؟ ومع ذلك فانه قبل الحادث بيومين ، فى المساء الذى كتب فيه رسالة السكران تلك ، كان هادئاً لم يزد على أن تشاجر قليلاً فى أحد الكاباريهات مع مستخدم صغير من مستخدمى المتاجر : « لأن كارامازوف كان لا يستطيع الا أن يتشاجر مع أحد » . وأقول فى الردّ على هذه الحجة ان رجلاً فكر فى ارتكاب مثل هذه الجريمة وانتوى أن يقترفها وفق خطة مرسومة سلفاً ، ما كان له قطعاً أن يتشاجر مع أحد ،ولو مع مستخدم فى متجر ؛ بل ولا كان له أن يدخل الى أحد الكاباريهات أصلاً ، لأن الرجل الذى يفكر فى اقتراف جريمة من هذا النوع ، انما ينشد الهدوء والعزلة ، ويحاول أن لا يلاحظه أحد، يحاول أن لا يراه أحد ولا أن يسمعه أحد ، وكأنه يتمنى فى قرارة نفسه أن يقول للناس : « انسوا وجودى ، اذا أمكن ذلك » ، لا عن حساب وتدبير ، بل بغريزته وحدها . ان السيكولوجيا سلاح ذو حدين يا سادتى المحلّفين ، وانا لنحسن استعمالها نحن أيضاً . أما التهديدات التى أطلقها فى الكاباريهات طوال ذلك الشهر فما هى الا زعيق شبيه بزعيق الأطفال ، وما هى الا أقوال حمقاء يطلقها سكارى يشتجرون

فيأخذون يعولون قائلين : « لأصرعنك ، لأقتلنك ! » ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً • وأما تلك الرسالة المشئومة فليست الا صرخة سكر وغضب هى أيضاً ؟ ليست الا تبجح رجل يصيح وهو خارج من خمارة : « لأقتلنكم، يميناً لأقتلنكم جميعاً ! » • فيم البحث عن تعليل آخر غير هذا التعليل ، فيم الاصرار على رفض هذا التعليل ؟ ان هذه الرسالة توصف بأنها حجة دامغة ، أفليس الأولى أن توصف بأنها كلام مضحك ؟ نعم ••• ان الأولى أن توصف بأنها كلام مضحك ! ولكن لا ••• انهم لا يريدون لها الا أن تكون دليلاً قاطعاً وحجة دامغة ، لسبب واحد هو أن الأب قد وُجدت جثته قتيلاً ، وأن شاهداً قد رأى المتهم يهرب خلال الحديقة وفى يده سلاح ، وأن هذا الشاهد قد صُرع هو أيضاً بعد ذلك ؛ فرتبوا على هذا أن كل شيء قد تم وفقاً لخطة مرسومة من قبل ، فلا يمكن اذن أن تكون تلك الرسالة كلاماً مضحكاً ، ولا يمكن الا أن تكون دليلاً قاطعاً ؛ وحمدوا الله على أنهم وصلوا الى النقطة الحاسمة فقالوا : « أما وأنه كان فى الحديقة فقد قتل » • ان هذه الكلمات الصغيرة الثلاث « أما وأنه » هى فى الواقع جوهر الأساس الذى تقوم عليه القضية ويستند اليه الاتهام • « كان فى الحديقة ، فهو اذن ••• » • ماذا لو أسقطنا كلمة اذن ••• » • ماذا لو أسقطنا كلمة « اذن » هذه دون أن ننكر مع ذلك أن المتهم كان فى الحديقة ؟ ألا اننى لأسلّم بأن الوقائع فى هذه القضية متوافقة ، وأن كثرتها تخطف البصر وتستأثر بالانتباه • ولكن هلاّ حملتم أنفسكم عناء تحميص كل واقعة من هذه الوقائع فى ذاتها على حدة ، دن أن تهتموا بتوافقها ؟ لماذا يرفض جانب الاتهام مثلاً أن يصدّق أن المتهم ذكر الحقيقة حين قال انه انصرف عن نافذة أبيه ؟ تذكروا الأسلوب الساخر المتهكم الذى استعمله السيد وكيل النيابة حين تكلم فى هذا الموضوع فأشار الى مشاعر الاحترام وعواطف الفضيلة التى

اجتاحت نفس القاتل على حين فجأة • أى عجب فى أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً ، أى فى أن يكون المتهم قد استيقظت فى نفسه حينئذ مشاعر قد لا تكون مشاعر احترامٍ بالضرورة ، ولكنها مشاعر فضيلة • لماذا يكون هذا مستحيلاً ؟ لقد قال المتهم أثناء التحقيق : « لا بد أن تكون أمى قد تشفعت لى فى تلك اللحظة » • فالمتهم قد هرب اذن منذ أدرك أن السيدة سفيتلوفا ليست فى صحبة أبيه • فان ردّت النيابة على هذا قائلة : « ما كان المتهم ليستطيع أن يدرك ذلك حين ينظر من النافذة » ، قلت لم لا ؟ لقد فُتحت النافذة بعد أن قرع المتهم النافذة بالاشارات المتفق عليها • ومن الجائز أن يكون فيدور بافلوفتش قد أفلتت منه فى تلك اللحظة كلمات أو صرخات استنتج منها المتهم أن السيدة سفيتلوفا ليست فى المنزل • لماذا هذا الاصرار على تأويل الوقائع تأويلا يتفق وما تخيلته النيابة أو ما جهدت أن تتخيله ؟ ان الواقع يشتمل فى كثير من الأحيان على احتمالات لا حصر لها ، احتمالات تغيب عن أدق الروائيين ملاحظة وأنفذهم رؤيه • رب معترض يقول : « طيب ، ولكن هذا لا ينفى أن جريجورى قد رأى الباب مفتوحاً ، وهذا دليل على أن المتهم قد دخل المنزل ، وعلى أنه اذن قد قتل • » • ها نحن أولاء وصلنا الى حكاية الباب هذه ، يا سادتى المحلّفين • تعلمون يا سادتى المحلّفين أن هناك شخصاً واحداً يزعم أنه رأى الباب مفتوحاً ، وهذا الشاهد الوحيد كان عندئذ فى حالة خاصة ، كان فى حالة ••• ولكن لا داعى الى الالحاح ••• لنسلّم جدلاً ، اذا كنتم تحرصون على ذلك ، بأن الباب كان مفتوحاً ، وبأن المتهم قد كذب فى هذه النقطة أثناء التحقيق ، يدفعه الى الكذب حرصه على الدفاع عن نفسه ، وهو أمر مفهوم فى مثل وضعه • لنسلم جدلاً بأنه دخل البيت ، نعم ، لنسلّم جدلاً بذلك • فهل يترتب على هذا بالضرورة أنه قتل ؟

ان من الممكن أن يكون قد اقتحم البيت ، وطاف بالغرف راكضاً ، ودفع أباه بل وربما ضربه أيضاً • فلما ثبت له بعد ذلك أن السيدة سفيتلوفا ليست في الدار ولى هارباً وهو يشعر بسعادة لأنه لم يجدها ولأنه انصرف دون أن يقتل أباه • ولئن قفز الى الحديقة مرة ثانية بعد ذلك بدقائق فمال على المسكين جريجورى الذى صرعه فى لحظة من غضب شديد ، فانه لم يفعل ذلك الا لأنه كان قادراً على أن يشعر بعواطف شفقة ورحمة بسبب أنه انتصر على اغراء قتل أبيه ، فكان قلبه يفيض فرحاً وصفاء وبراءة • ان السيد وكيل النيابة قد وصف لنا ، ببلاغة مظلمة قاتمة ، الحالة النفسية التى لا بد أنها كانت حالة المتهم فى موكرويه ، حين أدرك أن السعادة والحب يعرضان له ، ويناديانه الى حياة جديدة ، بينما كان محظوراً عليه أن يحب ، لأنه خلّف وراءه جثة أبيه الدامية ، ولأنه كان يرى أمامه العقاب الذى لا مناص منه • ولكن السيد وكيل النيابة قد سلّم مع ذلك بأن الحب قد تكلم فى قلب المتهم ، ثم راح يفسر لنا ذلك على طريقته الخاصة معتمداً على تحليلات سيكولوجية مرهفة ، فقال : « هذه حالة تشبه السكر ، هذه حالة تشبه حالة مجرم يقاد الى ساحة الاعدام ، فيحدث نفسه قائلاً ان الطريق ما يزال طويلاً ، الخ » • ولكننى أتوجه الى السيد وكيل النيابة مرة أخرى بهذا السؤال : « ألم تخلق هنا شخصية روائية من صنع الخيال ؟ هل طبيعة المتهم فعلاً طبيعة تبلغ من قلة الاحساس وشدة الاستخفاف والاستهتار أنه يستطيع ، بعد أن سفك دم أبيه ، أن يفكر فى الحب وأن يبنى خططاً ماكرة للدفاع عن نفسه ؟ كلا ثم كلا ! اننى لا أتردد لحظة واحدة عن أن أهتف قائلاً : كلا ثم كلا ! انى لأحلف بأغلظ الأيمان على أن المتهم ، حين اكتشف أن هذه المرأة تحبه ، وحين رآها تناديه الى حياة جديدة هانئة ، كان لا بد أن يشعر برغبة فى الانتحار لا تغالب ولا تقاوم ، وكان سينتحر حتماً ،

لو أن ضميره كان مثقلاً بوزر قتل أبيه حقاً ! وما كان لينسى عندئذ أين وضع مسدسيه ! اننى أعرف المتهم : ان ما ينسبه اليه جانب الاتهام من قسوة القلب وقلة الاحساس يناقض طبيعته . لو كان المتهم آثماً لانتحر حتماً ، هذا محقق ! واذا كان لم ينتحر فلأن « أمه قد تشفعت له » فلم يسفح دم أبيه ؟ واذا ظل يتعذب طوال تلك الليلة فى موكرويه ، واذا ظل يلوم نفسه ويؤاخذها ، فان ذلك لم يكن الا بسبب جريجورى الذى كان المتهم قد صرعه ، فكان المتهم لا ينفك يسأل الله صامتاً أن يعود ذلك العجوز الى الحياة ، وأن لا تكون ضربة المدق قد قضت عليه ، وأن ينجو هو نفسه من العقاب . لماذا نرفض تأويل الوقائع على هذا النحو ؟ ماالذى يبرهن لنا على أن المتهم يكذب ؟ رب سائل يسأل : « وجثة الأب ؟ اذا كان المتهم قد هرب دون أن يقتل فمن ذا الذى قتل اذن فيدور بافلوفتش ؟ » .

« أعود فأقول : ان كل المنطق الذى يستند اليه الاتهام هو هذا . من ذا الذى قتل ، اذا لم يكن المتهم هو القاتل ؟ ... يقال لنا : انه من المستحيل علينا أن نعثر على قاتل آخر . فهل هذا صحيح يا سادتى المحلفين ؟ هل يستحيل حقاً أن ننسب هذه الجريمة الى أشخاص آخرين ؟ لقد سمعنا السيد وكيل النيابة يحصى جميع من كانوا فى المنزل ليلة وقوع الجريمة . انهم خمسة اشخاص ، منهم ثلاثة يجب استبعادهم من القضية فوراً : المجنى عليه ، وجريجورى ، وامرأته . لم يبق اذن الا اثنان يمكن اتهامهما بارتكاب جريمة القتل هما المتهم وسمردياكوف . وقد صاح السيد وكيل النيابة يقول بلهجة مؤثرة : لئن عمد المتهم الى تسمية سمردياكوف قاتلاً ، فلأنه لم يجد أحداً غير سمردياكوف يستطيع أن يشى به ؟ فلو كان هناك شخص سادس ، بل طيف شخص سادس يمكن اتهامه بالقتل ، اذن لأسرع يترك اتهامه لسمردياكوف

محمر الوجه من الخجل ، ولمضى يتهم ذلك الشخص السادس على الفور • ولكن ما الذى يمنعنى يا سادتى المحلفين من أن أقلب هذا الدليل ؟ هناك شخصان لا ثالث لهما : المتهم وسمردياكوف • أفلا يجوز لى أن أؤكد أنكم لا تتهمون موكلى الا لأنكم لا تجدون شخصاً آخر توجهون اليه التهمة ؟ ولكن لئن لم تجدوا شخصاً آخر توجهون اليه الاتهام فما ذلك الا لأنكم قد تحيزتم لسمردياكوف منذ البداية دفعةً واحدة ، فاستبعدتم كل شبهة حوله ، ورفضتم كل شك فيه •

صحيح أن أحداً لم يسمّ سمردياكوف قاتلاً ، الا المتهم وأخويه والسيدة سفيتلوفا • غير أن هناك شيئاً آخر يحمل على الاشتباه فيه • ان شائعات غامضة تجرى فى المدينة عنه ، ان أسئلة وشبهات لا يفصح الناس عنها تدور فى الخواطر حوله ، ان قلقاً مبهماً يساور الأنفس ويستحيل الى توقع عام وانتظار شامل • ثم ان هناك وقائع مقلقة تشهد عليه رغم غموض دلالتها : من ذلك أولاً نوبة الصرع تلك التى وافته فى يوم وقوع الكارثة نفسه ، بحيث رأى السيد وكيل النيابة أن من واجبه — لا أدرى لماذا — أن يهتم اهتماماً كبيراً بالالحاح على أنها نوبة طبيعية يمكن تعليلها • ومن ذلك ثانياً انتحار سمردياكوف عشية انعقاد جلسة المحاكمة انتحاراً لم يكن يتوقعه أحد • ومن ذلك أيضاً هذه الشهادة التى لم يكن يتوقعها أحد أيضاً ، أعنى شهادة أخى المتهم ، ايفان فيدوروفتش ، الذى ظل الى ذلك الحين مقتنعاً بأن أخاه هو القاتل ، فاذا هو يجىء اليوم الى المحكمة حاملاً المال المسروق قائلاً ان سمردياكوف هو القاتل ! صحيح أننى أشاطر المحكمة والنيابة العامة رأيها فى حالة الشاهد النفسية • فأنا مقتنع اقتناعاً تاماً بأن ايفان كارامازوف مريض ، وأنه مصاب بنوبة حمى حارة ، وأن أقواله قد تكون محاولة يائسة تصورها وهو فى حالة هذيان فى سبيل أن ينقذ أخاه بالقاء الجريمة على عاتق رجل

مات . ولكن هذا لا ينفي أن اسم سمردياكوف قد ذكر في هذه المناسبة مرة جديدة ، مع كل ما يرتبط بذكر اسمه هذا من أمور توشك أن تكون ألغازاً ، فكأن هناك ، يا سادتي المحلفين ، أشياء لم تذكر الى آخرها فيما يتعلق بهذا الرجل ، وكأن الملاحظات التي قيلت في حقه لم تكمل بعد ، ولعلها تكمل فيما بعد . ولكن ما ينبغي أن نستبق الأمور . لقد قررت المحكمة منذ قليل متابعة المناقشات ، ففي وسعي ، ما دمنا الآن في انتظار ذلك ، أن أبسط لكم بضع ملاحظات تتعلق بخصائص المرحوم سمردياكوف التي صورها لنا السيد وكيل النيابه بكثير من البراعة والرهافه والموهبة . انني على اعجابي بما أظهره السيد وكيل النيابة من فن في رسم تلك اللوحة النفسية ، لا أستطيع أن أشاطره رأيه في هذا الرجل مشاطرة تامة . لقد ذهبت الى سمردياكوف ، رأيته وتحدثت معه ، فترك في نفسي صورة تختلف عن الصورة التي رسمها لنا السيد وكيل النيابة . لا ، ان سمردياكوف ليس ذلك الشخص الضعيف الذي وصفه لنا الادعاء . انني لم أجد فيه أثراً من ذلك الوجل الهلوع الذي تكلم عنه السيد وكيل النيابة بالحاح شديد . أما بساطة القلب وسذاجة الطبع فلا وجود لهما عنده البتة . بالعكس : لقد لاحظت فيه حذراً رهيباً ودهاءً خبيثاً ، وان تدثر هذا الحذر وهذا الدهاء بمظاهر سذاجة مصنوعة ، كما لاحظت فيه ذكاء قادراً على أن يفهم أموراً كثيرة . سادتي المحلفين ، في رأيي أن السيد وكيل النيابة قد تسرع قليلاً حين ظن أن هذا الرجل ضعيف العقل . لقد خلف سمردياكوف في نفسي شعوراً واضحاً كل الوضوح : تركته مقتنعاً بانه انسان تفيض نفسه شراً وخبثاً ، وحقداً وحسداً ، وغروراً وميلاً الى الانتقام . ومن جهة أخرى ، فقد جمعت بعض المعلومات عنه : لقد كان يكره أصله ، ويحمر خجلاً منه ، ويكز أسنانه غضباً حين يذكر أنه ابن امرأة « نتنة » . وكان يسيء معاملة

الخادم جريجورى وامرأته اللذين أحسنا اليه وانعما عليه فى سنى طفولته • وكان يكره روسيا ويلعنها ويسخر منها ويستهزىء بها ، وكان حلمه هو أن يسافر الى فرنسا وأن يصبح فرنسياً • وكثيراً ما كان يقول انه يحتاج الى مال من أجل أن يرحل • وأعتقد أنه كان لا يحب الا نفسه ، وكان يقدر نفسه فوق قدرها كثيراً • كان يعد نفسه رجلاً مثقفاً لأنه يعنى بهندامه ويلبس قمصاناً نظيفة وينتعل حذاءين لامعين • واذ كان يعد نفسه ابناً غير شرعى لفيدور بافلوفتش (ذلك أمر تثبته الوقائع أيضاً) ، فمن الجائز أن الفرق بين وضعه ووضع أبناء مولاه الشرعيين قد أورثه مرارة وحقداً : كان هؤلاء يتمتعون بجميع المزايا ، وكان هو لا يتمتع بأية مزية • كانوا يملكون جميع الحقوق وكانوا يستطيعون أن يرثوا أباهم ، أما هو فلم يكن الا طباخاً • لقد أسرّ الىّ أنه ساعد فيدور بافلوفتش فى ايداع المال فى الظرف • والهدف الذى نُذر له هذا المبلغ ـ وهو مبلغ كان يمكن أن يعينه فى تحقيق أغراضه ـ لا بد أن يكون قد أثار فى نفسه غيظاً شديداً • ثم انه رأى فى تلك اللحظة ثلاثة آلاف روبل أوراقاً مالية زاهية الألوان (سألته عن هذا عامداً) ، وأنتم تعلمون، يا سادتى ، أنه ما ينبغى لنا أن نلألىء مبلغاً ضخماً أمام عينى انسان حسود مغرور ؟ وكانت تلك أول مرة يتاح له فيها أن يرى مالاً يبلغ هذا القدر من الضخامة فى يدى شخص واحد • فلا بد أن يكون منظر تلك الكدسة من الأوراق النقدية الجديدة قد أحدثت فى نفس هذا الرجل شعوراً مرضياً دون أن يترتب على ذلك شىء فى بداية الأمر • ان السيد وكيل النيابة الذى نعجب بموهبته كل الاعجاب قد حلل برهافة عظيمة جميع الأدلة التى يمكن اللجوء اليها لتأييد أو دحض الافتراض القائل بأن سمردياكوف ربما كان هو القاتل ، وقد ألحّ خاصةً على هذا السؤال : لأى سبب كان يمكن أن يصطنع سمردياكوف نوبة الصرع تظاهراً

وكذباً ؟ ولكن سمردياكوف لم يكن في حاجة الى ذلك التظاهر ، فمن الجائز أن تكون النوبة قد وافته طبيعيةً من تلقاء نفسها ، ومن الجائز ان تكون قد زايلتــه على ذلك النحو نفســه أيضــاً • من الجائز أن يكون المريض قد صحا من غيبوبته وثاب الى وعيــه • صحيح أنه لا يكون قد شفي عندئذ من مرضه ، ولكن كان لا بد أن يعود اليه شعوره عاجلاً أو آجلاً ، كما يحدث دائماً حين يُصاب المريض بنوبة من نوبات الصرع• ان الادعاء يسأل : في أية لحظة يمكن أن يكون سمردياكوف قد ارتكب جريمة القتل ؟ الحق ان الجواب عن هذا السؤال يسير جداً ، فما أسهل أن نعيّن تلك اللحظة • فمن الجائز أن يكون سمردياكوف قد ثاب الى وعيــه وصحا من نومه العميق (ذلك أنه كان نائمــاً فقط ، فان نوبات الصرع يعقبها دائمــاً نوم عميق) ، في تلك اللحظة نفســها التي تشبث فيها العجوز جريجوري بساق المتهم (حين كان هذا يحاول أن يهرب من فوق السياج) فصرخ يقول معــولاً بصــوت حاد ملءَ حنجرته : « يا قاتل أبيه ! » • فمن الجــائز أن تكون هــذه الصرخة الخارقة التي دوت في صــمت الليل قد أيقظت ســمردياكوف من نومه الذي لعله لم يكن عندئذ عميقاً كل العمق ، لأن ســمردياكوف لا بد أن يــكون قد أخذ يفيق منذ ساعة ؟ فلما نهض اتجه على غير شعور منه ، وبدون أية نية معينــة ، الى الجهــة التي جــاءت منها الصرخة • وكانت أفكاره ما تزال مبهمة ، وكان خياله ما يزال وسنان • ولكن ها هو ذا يصل الى الحديقــة ، وها هو ذا يقترب من النــافذة المضــاءة ، فاذا هو يعلم بالنبــأ الرهيب من فم مولاه نفسه ، الذي اغتبط لرؤيتــه طبعــاً ؟ واذا بفكرة الجريمة تنبت في رأسه فجأة • لقد أطلعه مولاه المذعور على ما جرى •

وها هي ذي الفكرة التي نبتت في رأسه المريض المشوش تظهر الى النور واضحة المعالم بينة الحدود • انها فكرة رهيبة ولكنها مغرية يؤيدها منطق

لا يرحم : وهى أن يقتل العجوز ويستولى على الثلاثة آلاف روبل ، ثم يلقى الجريمــة بعد ذلك على عاتق ابن القتيــل ! من ذا الذى يمكن أن يُشــتبه فيه الآن ، من ذا الذى يمكن أن يُتّــهم ، غير هــذا الابن الذى تشهد عليه قرائن قوية وتدينه أدلة دامغة ؟ ألم يكن هذا الابن موجوداً هنا منذ لحظات ؟ من الجائز اذن أن تكون قد استبدت بسمردياكوف عندئذ شراهة رهيبة الى السطو على المال ، وظمأ شديد الى الاستيلاء على الغنيمة، مع الشعور بأنه لن يناله عقاب • ألا اننا لنعرفها ، هذه الاندفاعات المفاجئة القاهرة التى تشب فجأة فى نفوس قتلة كانوا قبل دقيقة واحدة فى معظم الأحيان لا يخطر ببالهم ولا يدور فى خلدهم أنهم سيقتلون • من الجائز اذن أن يكون سمردياكوف قد دخل الى غرفة مولاه ، ونفذ خطته • فاذا سألتمونى ما هو السلاح الذى استعمله فى القتل ، قلت ان من الجائز أن يكون قد استعمل أول حجر عثر عليه فى الحديقة ؟ واذا سألتمونى ماهو الهدف الذى قتل من أجله قلت انه تلك الثــلاثة آلاف روبل التى يمكنها أن تؤمن مستقبله ! لا ، لا ، اننى لا أناقض نفسى : فمن الجائز أن يكون المال موجــوداً • ومن يدرى ؟ لعل ســمردياكوف هو الشخص الوحيد الذى كان يعرف المخبأ الذى أخفى فيه مولاه المال • رب معترض يقول: « والظرف ؟ الظرف المـــزق الملقى على أرض الغــرفة ؟ » ، فأجيب قائلاً : ان السيد وكيل النيابة قد أورد فى موضوع هذا الظرف نفسه فكرةً تبلغ غــاية الدقة والرهــافة ، وهى أن هذا الظرف لا يمكن أن يتركه على أرض الغرفة الا لص يقوم بفعل السرقة عرضاً ، وليس له خبرة سابقة أى لا يمكن أن يتركه الا لص مثل كارامازوف ، أما رجل مثل ســمردياكوف فما كان له بحال من الأحوال أن يرتكب مثــل هذه الغفلة فينسى على أرض الغرفة شيئاً سيكون قرينة قاطعة ودليلاً دامغاً على أنه هو الفاعل • سادتى المحلّفين ، حين سمعت السيد وكيل النيابة يبدى

هذه الملاحظة الدقيقة المرهفة أحسست أنني أسمع صوت جرس معروف عندي مألوف لى • تصوروا أن هذه الفكرة عن السلوك الذى يمكن أن يسلكه كارامازوف فيما يتصل بهذا الظرف ، تصوروا أن هذه الفكرة قد عرضها لى ، منذ يومين ، شخص ليس الا سمردياكوف نفسه • وعدا ذلك ، فان وضعه فى تلك اللحظة قد خطف انتباهى ، فشعرت شعوراً واضحاً بأن سذاجته متصنعة كاذبة ، وأنه انما كان فى حقيقه الأمر يسبقنى فيوحى الىّ بهذه الفكرة بغية أن تتجسد فى نفسى بعد ذلك ، فأستخرج منها النتائج التى يريد أن يبثها بهذه الطريقة فى ذهنى • أفلا يمكن أن يكون سمردياكوف قد لَقّن قاضى التحقيق هذه الفكرة أيضاً ؟ أفلا يمكن أن يكون قد انبتها خلسةً فى فكر السيد وكيل النيابة الذى يمتاز بمواهب عظيمة ؟ رب قائل يقول : ولكن العجوز زوجة جريجورى قد ظلت تسمع أنين سمردياكوف على مسافة ثلاثة خطوات من سريرها طوال الليل ! لست أنكر أنها سمعت أنينه ، ولكن هذه الحجة من أوهى الحجج • عرفتُ سيدة شكت يوماً بكثير من المرارة من أن كلباً ظل ينبح طوال الليل فحرمها من النوم ، وأكدت هذه السيدة أن جفنها لم يغمض • وقد تبين مع ذلك أن الكلب المسكين لم ينبح فى الواقع الا مرتين أو ثلاث مرات متباعدة جداً • ان أمثال هذه الأخطاء طبيعية : هذا انسان نائم يسمع أنيناً فيصحو حانقاً لأنه أوقظ من نومه ؛ ثم ما يلبث أن يعود ينام فوراً ؛ وتنقضى على ذلك ساعتان أو ثلاث ساعات ، فاذا بأنين جديد ينطلق ، فيستيقظ الرجل ثم يعود ينام كما فى المرة السابقة ؛ وبعد عدة ساعات أخرى يوقظه أنين ثالث ، فتكون مرات الأنين خلال الليلة كلها ثلاثا لا أكثر • ولكن صاحبنا ، حين يستيقظ فى الصباح ، سيشكو من أن أنيناً متصلاً غير منقطع قد حرمه من النوم طوال الليل • ولا بد أن يحس هذا الاحساس حتماً ، لأنه لن

يتذكر فترات الساعتين أو الثلاث ساعات التى كان أثناءها نائماً ، ولن يحتفظ الا بذكرى تلك الاستيقاظات المتكررة • لذلك سيتخيل أنه أوقظ ايقاظاً متصلاً غير منقطع • وقد هتف السيد وكيل النيابة سائلاً : « ولكن لماذا لم يعترف سمردياكوف بجريمته فى الكلمة التى كتبها قبل موته ؟ أيكون عنده من الضمير ما يكفى لحمله على الانتحار ، ثم لا يكون عنده من الضمير ما يكفى لحمله على الاعتراف ؟ » • هنا أقفكم لأقول : ان الضمير يتضمن الندم • ولعل سمردياكوف لم يكن يشعر بأى ندم حين انتحر ، ولعله لم يختر هذا المخرج الا يأساً وقنوطاً • ان الندم واليأس شيئان اثنان يختلف أحدهما عن الآخر كل الاختلاف • فاليأس قد يكون زاخراً بكره وحقد لم يشف غليلهما ؛ وحين ينتحر سمردياكوف فانه يستطيع أن يكره مزيداً من الكره أولئك الذين ظل يحسدهم طوال حياته • سادتى المحلفين ، اياكم والخطأ القضائى ! هل فى هذا التأويل الذى أضعه بين أيديكم شىء يخالف العقل ويجافى الاحتمال ؟ دلونى على خطأ واحد فيما عرضته لكم ، دلونى على استحالة واحدة ، أو بطلان واحد ! ولكن اذا كان هذا الافتراض الذى بسطته لكم يشتمل ولو على ظل احتمال ، ولو على ظل امكان أو جواز ، كان عليكم أن تمتنعوا عن اصدار حكم يدين المتهم• فما بالكم وفيما قلته لكم أكثر من ظل حقيقة ! ألا اننى لأحلف لكم بكل ما أقدسه فى هذا العالم على أننى ، من جهتى ، مقتنع اقتناعاً عميقاً بصدق تأويل الوقائع على النحو الذى وصفت • وانى لأشعر باضطراب شديد وقلق عظيم يخرجانى عن طورى حين تراودنى هذه الفكرة التى تلاحقنى وتطاردنى بغير انقطاع ، وهى أنه ليس بين مجموعة القرائن الكثيرة التى جمعها الادعاء قرينة واحدة يمكن أن تعد واضحة ، ويمكن أن تصمد للتفنيد والدحض • ان اجتماع هذه القرائن بعضها الى بعض هو الشىء الوحيد الذى يوشك أن يكون سبباً فى هلاك

انسان . أنا أعلم ان اجتماع هذه القرائن رهيب : ذلك الدم السائل من يدى المتهم ، ذلك القميص الملوث بالدم ، تلك الصرخة التى دوّت فى ظلام الليل قائلة : « يا قاتل أبيه ! » ، وسقوط الرجل الذى أطلق تلك الصرخة ، سقوطه على الفور مهشّم الجمجمة ، ثم جميع تلك الشهادات المتوافقة التى أدلى بها الشهود ، وجميع تلك الحركات والصيحات التى صدرت عن المتهم ... آه ... ان ذلك كله يمكن أن يؤثر فى الفكر وأن يولد اقتناعاً خطأ ... ولكن لا فى عقولكم أنتم يا سادتى المحلّفين ، لا فى عقولكم أنتم ، فما أنتم بمن يمكن تضليلهم على هذا النحو . تذكروا أنكم تملكون سلطةً لا حدود لها ، وأنكم قد أُعطيتم حق العقد والحل . وعلى قدر السلطة انما تكون المسئولية ! اننى لا أتراجع عن حرف واحد مما قلته ، ولكن فلنسلم جدلاً ، خلال دقيقة ، بالرأى الذى يذهب اليه الادعاء حين يزعم أن موكلى قد غمس يديه بدم أبيه . أكرر أن هذا افتراض ، فأنا لا أشك لحظة واحدة فى براءة موكلى . ولكننى اتنازل هذا التنازل ، فاسلم جدلاً بأن المتهم قد ارتكب جريمة قتل الأب . ألا فاسمعوا اذن ما أحب أن أقوله لكم حين أسلّم جدلاً بهذا الافتراض . اننى أحرص على أن أكلمكم بصراحة فى هذه النقطة ، لأننى أحس وأقدّر أن معركة تنشب الآن فى نفوسكم وعقولكم ... سادتى المحلّفين ، اغفروا لى هذا الدخول الذى لا حقّ لى فيه ، الى مشاعركم الصميمة . فقد آليت على نفسى لأبقينّ مخلصاً وصادقاً الى النهاية . نعم ، يا سادتى المحلّفين ، لنكن جميعاً مخلصين صادقين ! ... » .

هنا قطع مرافعةَ الدفاع تصفيقٌ متصل . ذلك أن المحامى قد نطق هذه الكلمات الأخيرة بلهجة فيها من الصدق ما جعل جميع الناس

يشعرون بأنه ربما كان عنده ما يقوله حقاً ، وأن ما سيعبر عنه الآن هو جوهر القضية فعلاً • ولكن رئيس المحكمة ما ان سمع التصفيق حتى علا صوته مهدداً باخلاء القاعة اذا « تكرر شيء من هذا مرةً أخرى » • فعاد الجميع الى الصمت ، واستأنف فيتوكوفتش مرافعتـه بصـوت تغيرت نبرته على حين فجـأة وأصبح نافذاً قاطعـاً يختلف اختـلاف التعـارض والتناقض عن اللهجة التى تحدث بها حتى ذلك الحين •

١٣

سفسطائي

ليس

اجتماع الوقائع وحده هو الظرف المشئوم الذى يدين موكلى . لا يا سادتى المحلفين ، وانما تدينه فى الواقع جثة أبيه ! فلو كانت جريمة القتل هذه جريمة عادية ، لترددتم كثيراً أمام هذه الوقائع التى تفقد قيمتها وتصبح غير معقولة ولا محتملة متى مُحِّصت كل واحدة منها على حدة بدلاً من النظر اليها فى مجموعها ، ولتراجعتم أمام افتقاد الأدلة والبراهين ، ولدحضتم الاتهام دفعة واحدة ؟ أو لرفضتم على الأقل أن تدمِّروا مصير انسان بسبب ما قام فى الأذهان من رأى سىء فيه ، وهو رأى يستحقه فى الحقيقة وا أسفاه ! ولكن الجريمة ليست جريمة عادية . وانما هى جريمة قتل ابن أباه ! فهذا الظرف يؤثر فى النفوس والعقول تأثيراً يبلغ من القوة أنه يضفى على أتفه الأدلة وأوهن القرائن خطورة خارقة، فاذا الضمائر لا يقلقها عندئذ أن يستحيل البرهان القاطع على أن المتهم هو الجانى . هل يخطر ببال أحد أن يبرىء مجرماً من هذا النوع ؟ ان الفكر يرفض أن يسلم بأن هذا المتهم يمكن أن يبَرَّأ . كيف يرتكب جريمة كهذه الجريمة ثم يخرج منها سليماً ؟ تلك فكرة تثير النفوس . هذا ما يحسه كل انسان فى قرارة نفسه ، على غير ارادة منه تقريباً . نعم ، انه لشىء رهيب أن نسفح دم أب ، دم

انسان وهب لنا الحياة وأحاطنا بحبه ، دم رجل لم يدخر فى سبيلنا وسعاً ، وكان فى طفولتنا يتألم اذا مرضنا ، ولم يفكر طوال حياته الا فى سعادتنا ، ولم يغتذ طوال حياته الا بما نشعر به من أفراح وما نصيبه من نجاح ! أن يقتل امرؤ أباً كهذا الأب ، فذلك يا سادتى شىء لا يتصوره العقل ؛ ولعل الخيال يرفض أن يصدق وقوع جريمة كهذه الجريمة . ما الأب يا سادتى المحلفين ؟ ما الأب الحق ؟ ماذا تضمه هذه الكلمة من معنى عظيم يهز قلوبنا ، ما هى الدلالة الرفيعة الهائلة التى تختفى فى اسم الأب هذا الذى يستأثر باحترامنا جميعاً ؟ لقد وصفنا منذ هنيهة ، ولو وصفاً ضعيفاً ما يمكن وما يجب أن يكونه أب حقيقى ، فهل كان فيدور بافلوفتش كارامازوف ، وهو الضحية فى هذه القضية التى تشغلنا وتدمى قلوبنا ، هل كان ينطبق على هذا المثل الأعلى الذى رسخ فى أعماق نفوسنا عن الأبوة ؟ ذلك شقاء يا سادتى . ان بين الآباء من هم كارثة . فلننظر فى هذه المسألة من قرب ، لأننا يجب أن لا نخشى شيئاً وأن لا نتراجع أمام شىء ، يا سادتى المحلّفين ، فان القرار الذى ينتظر الناس منكم أن تتخذوه قرار بالغ الخطورة . يجب علينا أن لا نهاب مجابهة الواقع وجهاً لوجه ، ويجب علينا أن لا نطرد بحركة من يدنا بعض الرؤى المؤلمة ، كما يفعل الأطفال أو كما تفعل نساء ضعيفات على حد التعبير الموفق الجميل الذى استعمله رجل القضاء اللامع الذى استمعتم الى خطابه منذ قليل . على أن خصمى المحترم (ولقد كان خصماً لى حتى قبل أن أنطق بكلمة واحدة) قد هتف عدة مرات يقول انه لن يترك لأحد عبء الدفاع عن المتهم ، وانه لن يتكل فى أمر الدفاع عنه على المحامى الوافد من سان بطرسبرج ، وانه سينهض بمهمتى المدعى والمدافع فى آن واحد . لقد نادى بذلك عدة مرات . ولكنه نسى أن يذكر أن هذا المتهم المقيت قد استطاع أن يحتفظ خلال ثلاثة وعشرين عاماً بعاطفة الشكر وشعور

الامتنان بسبب رطل من بندق أهداه عليه رجل كان هو الانسان الوحيد الذى دلّله فى منزل أبيه • وفى مقابل ذلك لم يكن فى وسع المتهم خلال هذه الأعوام الثلاثة والعشرين أن ينسى أنه اضطر أن يركض أثناء طفولته حافى القدمين فى الفناء الخلفى من المنزل ، « مرتدياً سروالاً لا يمسكه الا زر واحد » ، كما ذكر لكم الدكتور هرتسنشتوبه الطيب الشهم الرحيم • انى لأسألكم يا سادتى المحلّفين هل من اللازم حقاً أن نتلبث طويلاً على الكلام عن هذه « الكارثة » الأبوية ، وأن نلحّ على أمور يعرفها جميع الناس قبل الآن ؟ أىّ استقبال لقيه موكلى حين جاء الى هذه المدينة ليزور أباه ؟ لماذا ، نعم لماذا هذا الاصرار العنيد على تصوير موكلى فى صورة رجل عديم الاحساس ، أنانى الطبع ، شاذ الخلقة ؟ هو عنيف مندفع ، هو متوحش صخّاب ، وبسبب هذا انما نحكم عليه اليوم• ولكن من المسئول عن مصيره ، وعلى من يقع الذنب اذا هو ربِّى تربيةً يؤسف لها رغم حسن استعداده ونبل نفسه ورقة قلبه ؟ هل تولى أحد فى يوم من الأيام أن ينير فكره وأن يثقف عقله ، بأن يكشف له عن جمال العلم ؟ هل مال عليه أحد فى حب وحنان أثناء سنى طفولته ؟ لقد شب موكلى فى رعاية الله وحده ، شبّ كحيوان متوحش • لعله كان ظامئاً الى أن يرى أباه من جديد بعد فراق طال تلك المدة كلها ، ولا بد أنه طرد من خياله مائة مرة قبل ذلك ، الأشباحَ المقيتة التى ملأت أيام طفولته والتى كان كمن يراها أثناء تلك المدة من خلال حلم ثقيل ، أقول لا بد أنه طرد تلك الأشباح مائة مرة فى سبيل أن يغفر لأبيه بكل نفسه. ولقد أسرع يحتضن أباه بذراعيه • ولكن ما الذى حدث ؟ حدث أن تلقاه بالسخريات والأمازيح المستهترة عجوزٌ شكاك ريّاب، لا يخشى على شىء كما يخشى على مال الميراث • ولا بد أن الشاب قد شهد محادثات كان المتوفى يعرض فيها فلسفته فى الحياة وهى فلسفة تثير فى نفوسكم التقزز وكان العجوز

يبسطها وهو يشرب أقداحاً صغيرة من الكونياك . وزاد الطين بلةً في آخر الأمر أن رأى أباه يحاول أن يسلبه حبيبته ، هو ابنه ، مستعملاً في ذلك مالاً يعده الشاب ماله . آه يا سادتي المحلّفين ، ذلك كله رهيب قاسٍ الى أبعد الحدود . وكان العجوز فوق ذلك هو الذي يجرؤ أن يشكو لجميع الناس أن ابنه خالٍ من الاحترام له والعاطفة نحوه ، وكان لا يتردد عن التشهير به في المجتمع ، والاساءة اليه بالنمائم والوشايات ، وشراء سندات ديونه لايداعه السجن ! سادتي المحلّفين ، ان الرجال الذين هم من طينة موكلي ، ان هؤلاء الرجال الذين يدل ظاهرهم على العنف والقسوة والاندفاع ، يملكون في أكثر الأحيان قلباً رقيقاً الى أبعد حدود الرقة ، ولكن نوعاً من الحياء يمنعهم من اظهار ذلك . تلك حالة شائعة جداً . آه ... لا تسخروا من هذا الشرح الذي أقدمه اليكم عن طبعه وخلقه! ان السيد وكيل النيابة الذي أُعجبتُ بموهبته الخطابية قد تهكم منذ قليل بغير شفقة ولا رحمة على المتهم وعلى ميله الى شيللر وحبه للأمور « النبيلة الرفيعة » . ولو كنت في مكان السيد وكيل النيابة لامتنعت ، عند القاء مطالعة النيابة ، عن الاستهزاء بما يجيش في نفس المتهم من صبوات عليا وأشواق سامية . ان النفوس التي من هذا النوع ـ واسمحوا لي يا سادتي أن أدافع عن أمثال هذه النفوس التي ما أكثر ما يجهلها الناس وينتقدونها ظلماً بغير حق ! ـ أقول ان النفوس التي من هذا النوع كثيراً ما تكون ظمأى الى الحنان والجمال والطهارة ، كأنما تبحث بذلك عن ملجأ يقيها من عنفها نفسه ويجنبها قسوتها نفسها . قد تكون هذه الصبوات وهذه الأشواق لاشعورية ، ولكنها مع ذلك عارمة قوية . ان هؤلاء الأشخاص الذين يدل ظاهرهم على جموح الهوى وقسوة القلب ، قادرون على الحب الى درجة الألم ، قادرون على أن يحبوا امرأةً حباً روحياً سامياً الى أقصى حدود الروحية والسمو . لا ، لا ، لا تضحكوا

يا سادتي ! فذلك ما يحدث ، دائماً على وجه التقريب ، لدى الطبائع التي تشبه طبيعة هذا الرجل • والبلاء كله في هذه الطبائع أنها لا تعرف كيف تكبح اندفاعاتها الجامحة التي تكون في بعض الأحيان عنيفة فظة ؛ وما يخطف بصرَ الناس فيها هو ما يُلاحظ من ظاهر سلوكها ، أما حياتها النفسية الداخلية فتبقى خافية عن الأبصار لا يراها أحد • ومع ذلك فان أهواءها العنيفة تهدأ بسرعة ، فاذا الرجل الذي كان يُظن أنه عديم الاحساس ، وأنه فظ غليظ ، اذا هو يحاول أن يجدد نفسه وأن يجدد حياته قرب انسان نبيل طاهر متمنياً اصلاح حاله بالاتصال به ، آملاً أن يصبح طاهراً هو أيضاً• «النبل والسمو» ••• آه ••• فيم الاستهزاء بهاتين الكلمتين ؟ لقد أعلنت منذ بضع لحظات أنني لن أجيز لنفسي أن أتحدث هنا عن قصة المتهم مع الآنسة فرخوفتزيفا • ولكن يجب أن يباح لي مع ذلك أن أشير الى هذه القصة اشارة سريعة مقتضبة • ان ما سمعناه في هذه القاعة المغلقة لم يكن شهادة شاهد ، بل كان صرخة انتقام من امرأة استعر حنقها وجُنَّ جنونها ! لا ، ما هي بالتي كان يحق لها أن تتهم موكلي بالخيانة ، لأنها هي التي خانته في الواقع ! ولو قد اتسع وقتها للتفكير قليلاً ، اذن لما قالت تلك الأقوال ولما أدلت بتلك الشهادة • لا تصدقوها يا سادتي • ليس موكلي بالرجل الذي وصفته الآنسة فرخوفتزيفا بأنه « شيطان رجيم » • ان المصلوب الذي كان يحب بني الانسان قد هتف يقول وهمو يصعد التل الذي نصب عليه الصليب : « أنا الراعي الصالح الذي يبذل حياته في سبيل خرافه• فلن يهلك واحد من الخراف »* ألا فلنحاذر نحن أيضاً أن نهلك نفساً انسانية ! لقد سألت منذ هنيهة : ما الأب ؟ وهتفت أقول : هذه كلمة كبيرة ، هذه تسمية تهز النفس وتؤثر في القلب الى غير حد • ولكن يحسن بالمرء أن يكون صادقاً أميناً فيما يقول يا سادتي المحلفين ؛ ولهذا سأسمح لنفسي أن أسمي الأشياء بأسمائها فأقول : ان

رجلاً مثل العجوز كارامازوف لم يكن له حق فى أن يسمى أباً ، لأنه غير جدير بهذا الاسم • ان حب الابن أباه يصبح سخفاً باطلاً حين لا يسوّغه خُلُق الأب • ان مثل هذا الحب لا يمكن أن يقبله العقل • ما كان للحب أن يقوم على العدم ، لأن الله وحده يستطيع أن يخلق من عدم • ان الرسول بولس الذى كان قلبه يتأجج حباً قد كتب يقول : « وانتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم » * • اننى أبيح لنفسى أن أستشهد بهذه الآيات المقدسة لا لأننى أفكر فى موكلى فحسب ، وانما أنا استشهد بها متجهاً الى جميع الآباء • من الذى وهب لى حق أن أعظهم بما يقع على عاتقهم من واجب ؟ لا أحد ! ولكننى أناديهم بصفتى انساناً ومواطناً ! ان اقامتنا على هذه الأرض قصيرة ، ونحن نقوم على هذه الأرض بكثير من الأعمال الشريرة ، وننطق بكثير من الأقوال المؤسفة • فيحسن بنا لهذا السبب أن ننتهز دقيقة كهذه الدقيقة التى تجمعنا فى مكان واحد ، ليقول بعضنا لبعض بضع كلمات خيِّرة طيبة تواسى القلب وتشد الأزر وتقوى العزيمة • وذلك ما أفعله الآن : اننى أهتبل الفرصة لأخاطبكم جميعاً • ليس عبثاً أن السلطة العليا قد وهبت لنا هذا المنبر : ان الكلمات التى ننطق بها هنا تسمعها روسيا كلها • فالى جميع الآباء انما اتجه اذن بالكلام ، لا الى الآباء الحاضرين فى هذه القاعة ، فحسب ، فأهتف قائلاً : « وأنتم أيها الآباء ، لا تغيظوا أولادكم ! » • يجب علينا أن نطبق نحن أولاً تعاليم المسيح ، وبعد ذلك انما يحق لنا أن نطالب أبناءنا بتطبيقها • فاذا لم نفعل ذلك لم نكن آباء ابنائنا بل كنا أعداءهم ، وسيصبحون اعداءنا هم أيضاً ، سيصبحون اعداءنا بسبب خطئنا نحن • « بالكيل الذى به تكيلون يُكال لكم » * • لست أنا من يقول هذا الكلام ، وانما يقوله الانجيل : كيلوا بالكيل الذى يكال به لكم • فكيف نأخذ على أبنائنا أن يكيلوا لنا بالكيل الذى نكيل لهم به ؟ لقد وقع فى فلندة ،

فى الآونة الأخيرة ، أن اشتبه الناس فى امرأة خادمة واعتقدوا أنها ولدت ولداً . فأخذوا يراقبونها فاكتشفوا فى عنبر المنزل حقيبةً لها كانوا يجهلون وجودها ، وقد أُخفيت الحقيبة فى ركن من العنبر وراء بعض القرميدات . فلما فتحوا الحقيبة وجدوا فيها جثة طفل وليد ، ووجدوا فى الحقيبة أيضاً هيلكين عظيمين لطفلين وليدين كانت قد ولدتهما من قبل فقتلتهما فور ولادتهما ، وذلك ما اعترفت به هى نفسها . فهل نستطيع يا سادتى المحلفين أن نسمى تلك المرأة أماً ؟ صحيح أنها قد ولدت هؤلاء الأولاد ، ولكن هل كانت أمهم حقاً ؟ هل يجرؤ أحد منا أن يسبغ عليها هذا اللقب المقدس ، لقب الأم ؟ ألا فلنتجمل بشجاعة الفكر يا سادتى المحلَّفين ! ألا فلنكن جسورين بل ومتهورين فى هذا الأمر ، لأن من واجبنا فى هذه اللحظة أن لا نتهيب بعض الألفاظ وأن لا نخاف بعض الأفكار ، وأن لا نكون شبيهين ببائعات موسكو أولئك اللواتى يؤمن بالخرافات ، فيخشين كلمتى « معدن » و « كبريت » *. بالعكس : يجب أن نبرهن على أن التقدم الذى تحقق فى هذه السنين قد شمل تطورنا الروحى الأخلاقى . يجب أن نعلن بغير تردد أنه ليس يكفى المرءَ أن ينسل نسلاً حتى يكون أباً ، وانما ينبغى له أن يستحق شرف هذا الاسم . أنا أعلم أن هناك رأياً مختلفاً عن هذا الرأى ، أن هناك فهماً آخر لمعنى كلمة الأب ، هو أن أبى يظل أبى ولو كان شيطاناً رجيماً ومجرماً عاتياً فى حق أولاده ، وذلك يا سادتى لمجرد أنه أوجدنى . ولكن هذا التصور تصور غيبى ان صح التعبير ، تصورٌ لا يستطيع أن يدركه العقل ، ولا يمكن قبوله الا على أنه عقيدة وايمان ، مثله كمثل كثير من الأمور التى لا يفهمها عقلنا ولكن الدين يأمرنا أن نؤمن بها . ومثل هذا التصور يبقى عندئذ فى خارج الحياة الواقعية . أما فى واقع الحياة الذى لا يشتمل على حقوق فحسب ، بل يفرض علينا

واجبات أيضاً ، فانه ينبغي لنا ، اذا أردنا أن نكون انسانيين واذا أردنا أن نتصرف تصرف مسيحيين ، أن نقتصر على أفكار يؤيدها العقل وتدعمها التجربة ، أفكارٍ مرت ببوتقة التحليل المنطقي ؛ أي ينبغي لنا أن نتصرف تصرف بشر عقلاء ، لاتصرف أناس طاشت عقولهم فهم يتحركون في حلم أو هذيان وذلك حتى لا نلحق أذى بأخينا الانسان وحتى لا نعذب أحداً من الناس ظلماً بغير حق ، وحتى لا نضـيع امرءاً من مخلوقات الله • ذلكم هو الموقف المسيحي حقاً ، الموقف الذي لا يكون عندئذ غيبياً فحسب ، بل يكون في الوقت نفسه معقولاً مستوحى من حب صادق لأقراننا البشر ••• » •

هنا انطلقت الأكف بتصـفيق حاد من جميع أرجاء القاعة ، ولكن فيتوكوفتش أوقف الحضور عن التصفيق بحركة من يده ، كأنه يضرع اليهم أن لا يقاطعوه وأن يأذنوا له باتمام كلامه • فسرعان ما ساد الصمت من جديد ، وواصل الخطيب حديثه فقال :

« أتراكم تظنون يا سادتي المحلفين أن المسائل التي من هذا النوع لا تطرح نفسها على فكر أبنائنا حين يبلغون سنّ المراهقة مثلاً ، فيأخذون يفكرون ويبحثـون ويناقشـون ؟ ألا انكم اذن لتتوهمـون ! ان ابنـاءنا لا يمكن الا أن يتساءلوا في هذه الحالة ، وليس في وسعنا أن نحول بينهم وبين ذلك ، والا كنـا نطلب المستحيل • ان المراهق لا بد أن يشـعر باضطراب كبير وحيرة شديدة حين يرى أباه دنيئاً منحطاً ، ولا سيما حين يقارن سلوك أبيه بسلوك آباء أولاد آخـرين هم رفاقه ، فيلاحظ ما بين السلوكين من تضاد وتناقض • قد يقال له عندئذ ، على ما جرت به العادة المألوفة المبتـذلة : « لقد وهب لك الحيـاة ، وأنت دم دمه ، فعليـك أن تحبه » • ولكن الفتى سيتساءل عندئذ على غير ارادة منـه : « فهل كان يحبني حين وهب لي الحيـاة ؟ » ، وسـيزداد اضطراب الفتى أثنـاء

تأملاته ، وسيتابع تفكيره قائلاً لنفسه : « لا ، انه لم يهب لى الحياة حباً بى أنا ؛ انه لم يكن يعرفنى ، بل انه كان يجهل أذكر أنا أم أنثى فى لحظة الخلق تلك ، فى لحظات الهوى تلك التى لعل الخمرة هى التى كانت توقدها ، فلم يورثنى الا حب الشراب والميل الى السكر . تلك كانت كل نعمه وآلائه علىّ ... فلماذا يُراد منى أن أحبه لا لسبب غير أنه ولدنى ، مع أنه لم يكترث بى بعد ذلك فى يوم من الأيام ؟ » . قد تجدون هذا التفكير فظاً قاسياً يا سادتى ، ولكن لا تطلبوا من عقل فتى مراهق أكثر مما يطيق : « اطردوا الأمور الطبيعية من الباب ترجع اليكم من النافذة » * . ولنحاذر خاصة ، يا سادتى ، لنحاذر قبل كل شيء ، أن يسيطر علينا الخوف من « المعدن » و « الكبريت » ؟ ولنقض فى الأمر بما توجبه قوانين العقل الانسانية ، لا بما تفرضه التصورات الغيبية . فما الذى نقرره عندئذ ؟ اليكم الأمر : ليتقدم الابن الى أبيه وليلق عليه فى أناة وروية هذا السؤال « قل لى يا أبى لماذا يجب علىّ أن أحبك » * ، فاذا كان الأب قادراً على أن يجيب عن هذا السؤال ، وأن يبرهن على أن من واجب ابنه ان يحبه ، كنا بصدد أسرة طبيعية سوية سليمة حقاً ، أسرة قائمة لا على أوهام غيبية ، بل على وقائع واضحة التصور انسانية الحدود . أما فى غير هذه الحالة ، أى اذا عجز الأب عن الاتيان بالبرهان المطلوب ، فقد انتهت تلك الأسرة ، ولم يعد من حق الأب أن يتصرف تصرف أب ، وأصبح يجوز للابن ويحق له أن ينظر الى أبيه نظرته الى غريب ، بل والى عدو . ان على منبرنا هذا ، يا سادتى المحلّفين ، أن يكون مدرسة للحقيقة والمعانى السليمة » .

هنا قاطعت الخطيب عاصفة من تصفيق مسعور . ولئن لم تعرب القاعة كلها عن استحسانها وتأييدها على هذا النحو ، فاننا نستطيع أن نؤكد أن نصف الجمهور قد انطلقت أكفه بالتصفيق . كما أن صرخات

حادة وصيحات اعجاب قد قامت فى الجزء الأعلى من القاعة ، وهو الجزء الذى توجد فيه السيدات ؛ وأخذت الأيدى تلوّح بالمناديل ؛ واضطرب الرئيس وتحرك وأخذ يهز جرسه بغير انقطاع . كان واضحاً أنه غاضب من سلوك الحضور ، ولكنه لم يجرؤ أن يمضى الى حد « اخلاء القاعة » عملاً بتهديداته السابقة : ذلك أن التصفيق والتلويح بالمناديل قد نشب حتى فى صف الكراسى الموضوعة فى خلف ، الموقوفة على كبار الموظفين ، وأكثرهم شيوخ يرتدون ملابس رسمية تزينها الأوسمة والنياشين . لذلك اكتفى الرئيس ، منذ هدأت الضجة وسكن الصخب ، أن كرر تهديده السابق بلهجة قاسية قائلاً انه سيخلى القاعة اذا تكرر ما حدث مرة أخرى . وهذا فيتوكوفتش يستأنف مرافعة منفعلاً ، فيقول :

« سادتى المحلّفين ، انكم تتذكرون تلك الليلة الرهيبة التى طال الحديث عنها أثناء هذه الجلسة ، تلك الليلة التى دخل فيها المتهم الى منزل أبيه بعد أن تسلق السور ، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام الرجل الذى ولده وأساء اليه وأهانه وكان عدوه . اننى أعود فأقول ملحاً : ان المتهم لم يجىء ليسطو على المال ، فاتهامه بالسرقة سخافة كما سبق أن بينت ذلك ؛ لا ولا اقتحم منزل أبيه ليقتل ! كلا ثم كلا . فلو قد كان ينوى ارتكاب جريمة ، اذن لاحتاط للأمر سلفاًفتزود ، على الأقل ، بسلاح ، بسلاح حقيقى ، لا بمدق الهاون هذا الذى تناوله بغريزته حتى دون أن يعرف غرضه من ذلك حق المعرفة . لنسلّم جدلاً اذن بأنه خادع يقظة أبيه باللجوء الى تلك الاشارات السرية ، فدخل البيت . لنسلّم بهذا جدلاً ، لأننى لا أصدق هذه الأسطورة لحظة من اللحظات ، كما سبق أن قلت ذلك . ولكن فلنسلم جدلاً ، خلال بضع دقائق ، بأن الأمور جرت على هذا النحو فعلاً . انى لأقسم لكم بكل ما أقدسه فى هذه

الحياة يا سادتي المحلفين ، أن المتهم ، بعد أن اجتاز جميع الغرف راكضاً فاقتنع بأن المرأة التي يبحث عنها ليست في المنزل ، كان سينصرف مسرعاً دون يُلحق بمنافسه أي أذى لولا أن منافسه هذا هو أبوه . لعله كان سيضربه أو سيدفعه عابراً في أكثر تقدير ، لأن هناك شيئاً آخر كان يشغل باله . لقد كان في عجلة من أمره ، كان يريد أن يعرف بأقصى سرعة أين توجد تلك المرأة. ولكنه رأى نفسه على حين فجأة أمام أبيه ، أمام أبيه ، وجهاً لوجه ... آه يا سادتي ! ان رؤية ذلك الأب هي التي كانت سبب كل شيء ، ذلك الأب الذي كان عدوه منذ طفولته ، وكان يضطهده ويسومه سوء العذاب ، ثم أصبح الآن منافساً رهيباً له على حبه ! ان شعوراً ابلكره لا يغالَب قد استولىعليه حينذاك واستبد بروحه، فأصبح لا يستطيع أن يفكر . ثار كل شيء في نفسه حينذاك . كان ذلك انفجار جنون ، ولكنه جنون طبيعي ، جنون هو رد الطبيعة وقوانينها الانتقامية الأبدية التي تحكم الانسان بغير شعور وغير لجام ، شأن كل ما هو من الطبيعة . ولكن القاتل ، حتى في تلك الدقيقة ، لم يقتل ! انني أؤكد هذا وأصيح به هنا ! كلا ، وانما هو اكتفى بأن رفع مدقه بحركة اشمئزاز ، دون أن يكون في نيته أن يقتل ، ودون أن يتنبأ بأنه قد يقتل. ولولا أنه كان يمسك بيديه ذلك المدق المشئوم في تلك اللحظة ، فلربما كان سيكتفي بأن يضرب أباه ، أما أن يقتله فلا . وحين هرب بعد ذلك كان لا يدري أقتل العجوز الذي ضربه أم لا . ان قتلاً يحدث في هذه الظروف ليس بقتل . وان قتلاً من هذا النوع ليس قتل ابن اباه أيضاً. لا يا سادتي ، ليس يمكن أن يوصف قتل مثل هذا الأب بأنه قتل أب . اننا لا نستطيع أن نتكلم هنا عن جريمة قتل أب الا بسبب وهم قائم في الأذهان ! ولكنني أعود فأسألكم مرة أخرى صادقاً كل الصدق ، بكل نفسي : هل كان ثمة قتل فعلاً ؟ تخيلوا ياسادتي المحلفين أننا حكمنا على

هذا الرجل فقال لنفسه بعد ذلك : « ان هؤلاء الناس لم يفعلوا فى سبيلى شيئا من اجل ان يصلحوا أمرى ويحسنوا مصيرى • لم يهتموا بتربيتى ، ولم يحاولوا ان يجعلوا منى انسانا افضل • ان هؤلاء الناس لم يعطونى ما أشربه ولا ما آكله ، ولم يساعدونى يوماً فى حبسى المظلم ، وها هم أولاء يرسلوننى الان الى السجن فى المنفى ! ألا انى اذن اليوم براء حيالهم ، لا أدين لهم بشىء ، ولن أدين بشىء لأحد من الناس فى هذا العالم بعد هذه الساعة قط ! انهم جميعاً أشرار ، فسأكون شريراً مثلهم • انهم جميعاً قساة ، فسأكون قاسياً مثلهم » • ذلكم ما سيقوله يا سادتى المحلفين • أحلف لكم أنكم اذا حكمتم عليه كنتم تريحونه بهذا الحكم الذى سيمنعه من أن يسمع صوت ضميره • صحيح أنه سيلعن الجريمة التى ارتكبها ، ولكنه لن يشعر بالندامة والتوبة • انكم اذا حكمتم عليه كنتم تحطمون الى الأبد ما فى نفسه من امكانيات اصلاح حاله ، لأنه سيظل شرير النفس أعمى البصر الى آخر عمره • فلماذا لا تؤثرون على ذلك أن تنزلوا فيه عقاباً رهيباً هائلاً هو أفظع عقاب يمكن تصوره ، مع انقاذكم نفسه ، ومنحه فرصة أن يُخلق خلقاً جديداً الى الأبد ؟ ألا فأرهقوه برحمتكم ، فتروا وتسمعوا كيف سينتفض مروَّع النفس عندئذ ، قائلاً : « هل أستطيع أن احتمل هذه الرحمة ، هل أنا جدير بهذا الحب كله ، هل أنا استحق هذا الحب فعلاً ؟ » • كذلك سيكون ردُّه على رحمتكم • اننى أعرف هذا الرجل يا سادتى المحلّفين ، أنه متوحش ، ولكنه نبيل القلب فى قرارة نفسه • لسوف يعجب عندئذ بعظمة موقفكم ، لأنه ظامىء الى الحب قبل أى شىء آخر ، وسيشتعل قلبه عندئذ اشتعالاً رائعاً ، وسيولد ولادة جديدة نهائية • ان هناك نفوساً تلعن العالم كله وتتهم كل انسان ما ظلت حبيسة وحدتها الضيقة وعزلتها الخانقة • فاشملوا هذه النفس برحمتكم وبرهنوا لها على حبكم ، فاذا هى

تلعن وضعها السابق وموقفها الماضى ، لأن فيها قدراً كبيراً من الأشـواق النبيلة المكبوتة • لسوف تتفتح روح هذا الانسان متى خطفت بصره رأفة الله وطيبة الانسان وعدالة البشر • لسوف تروّعه عندئذ جريمته ، فيسحقه عذاب الضمير ، ويضنيه الشعور بالواجب الكبير الذى يقع على عاتقه بعد الآن • لن يقـول بعـدئذ : « أنا الآن براء لا أدين لأحـد بشىء » ، بل سيهتف قائلاً : « أنا آثم أمام جميع الناس ، لأننى أحط الناس قاطبةً »• ومن خلال دموع ندامته وتوبته ، سيصيح قائلاً وهو يشعر بعاطفة لاذعة كأنها حرق: « جميع الناس خير منى لأنهم أرادوا خلاصى لا ضياعى ! »• سهلٌ عليكم يا سـادتى المحلفين أن تحققوا فعل الكرم والرحمة هذا ، وسوف يعذبكم ضميركم كثيراً اذا أنتم أصدرتم حكمكم بادانته رغم عدم توفر الأدلة المقنعة حقاً ! لأن نبرىء عشرة مجرمين خير من أن نجـرّم بريئاً ــ هل تسمعون هذا الصوت العظيم الذى انطلق فى آخر قرن من تاريخنا المجيد ؟ هل علىّ أنا ، أنا المخلوق الضعيف ، أن أذكّركم بأن القضاء الروسى لا يهدف الى العقاب فحسب ، وانما يهدف كذلك الى انقاذ الانسان الذى زلت قدمه فسقط ؟ للشعوب الأخرى أن تتمسك بحرفية النص ما شاءت ، ولها أن لا تفكر الا فى العقاب ما حلا لها ذلك ؟ أما نحن الروس فنبقى أوفياء لروح النص ومعنى القـانون ، ونريد قبل كل شىء آخر أن نقيل عثرة الساقطين وأن نبعثهم بعثاً جديداً• ما دام الأمر كذلك، ما دام هذا هو الطابع الذى تتصف به بلادنا ويتميز به قضـاؤنا ، فاننـا نستطيع أن نؤكد أن المستقبلَ لوطننا • لا يا سـادتى ، ليست روسـيـا ترويكا مسعورة ! كفوا عن ترويعنا بهذا التشبيه ! ليست روسيا ترويكا

جامحة تتنحى الشعوب الأخرى من أمامها مشمئزة ! فانما روسيا مركبة فخمة ذات عظمة وجلال تتقدم نحو هدفها هادئة متئدة مظفرة . ياسادتى ، ليس بين أيديكم مصير موكلي فحسب ، بل مصير العدالة الروسية أيضا . فأنقذوا هذه الحقيقة الغالية التى عهد بكم اليها وأؤتمنتم عليها ، دافعوا عنها فتبرهنوا بذلك على أننا أوفياء لها ، وعلى أنها فى أيدٍ أمينة » .

١٤

صمد فلاحونا

بهذه الكلمات ختم فيتوكوفتش مرافعته ، فاذا بالحماسة المحمومة الهاذية تنفجر فى الجمهور انفجاراً لا سبيل الى دفعة كأنها العاصفة . كان يستحيل وقف هذا الانفجار : فالنساء تنشج وتنتحب ، وعدد كبير من الرجال يبكون ، حتى لقد شوهدت دموع فى أعين اثنين من كبار الموظفين . وبدا على الرئيس أنه يذعن ، حتى أنه تأخر فى هزّ جرسه . « لو شاء أن يلجم حماسةً كتلك الحماسة لكان ذلك منه تدنيساً للمقدسات ! » ، ذلك ما هتفت تقوله سيدات مدينتنا فيما بعد . وكان المحامى منفعلاً انفعالاً صادقاً هو أيضاً . وفى تلك الدقيقة انما اعتقد صاحبنا هيبوليت كيريلوفتش أن من واجبه أن ينهض « ليثير بعض الاعتراضات » . نظر اليه الناس نظرة توشك أن تكون كرهاً وبغضاً : « كيف ! ماذا يريد ؟ أهو من يجيز لنفسه أن يردّ الآن ؟ » . كذلك دمدمت السيدات . ولكن ما كان لجميع نساء الأرض ، وعلى رأسهن زوجة هيبوليت كيريلوفتش ، أن يجدى احتجاجهن فى شىء ، لأنه كان يستحيل ، حتى فى هذه الحالة ، أن يُصدّ وكيل النيابة عن الكلام فى تلك اللحظة . كان هيبوليت كيريلوفتش شاحب الوجه ممتقع اللون ، وكان يرتعش انفعالاً . ان الكلمات الأولى التى قالها كانت مضطربة غير

مفهومة ، لأن الرجل كان يختنق بكلامه ، وكان ينطق بألفاظه نطقاً مبهماً غير متميز ، وكانت عباراته مختلطة مشوشة . ولكنه لم يلبث أن استرد سيطرته على نفسه . وسأقتصر هنا على نقل بضع جمل من ردّه :

« ... يعاب علينا أننا ألفنا رواية أو أنشأنا قصة . ولكن ما الذى فعله الدفاع غير تركيب أوهام وتلفيق خرافات لا يصدقها العقل ؟ ألا ان مرافعته لم يكن يعوزها الا الوزن والقافية حتى تكون قصيدة . هو يرى اذن ان فيدور بافلوفتش قد مزق الظرف ورماه على أرض الغرفة بانتظار وصول حبيبته ! ... بل هو يذكر لنا أيضاً نص كلمات لا بد أن يكون فيدور بافلوفتش قد نطق بها فى تلك الظروف الغريبة ! ... كيف يمكن البرهان على أنه أخرج المال من الظرف ؟ من ذا الذى سمع الكلمات التى قالها حينذاك ؟ وهذا الانسان الضعيف العقل ، سمردياكوف ، الذى يصوره لنا الدفاع فى صورة بطل رومانسى يثأر من المجتمع لولادته غير الشرعية ، هل الكلام عنه على هذا النحو الا قصيدة من طراز قصائد بايرون ؟ أما ذلك الابن الذى اقتحم منزل أبيه وقتل أباه دون أن يقتله مع ذلك ، فان الكلام الذى قاله الدفاع عنه ليس شعراً ولا هو رواية أو قصة ، وانما هو أبو الهول يطرح ألغازاً يعجز هو نفسه عن حلّها . من قتل فقد قتل . كيف يقتل انسان دون أن يقتل ، من ذا الذى يستطيع أن يفهم كلاماً كهذا الكلام ؟ ولقد نودى بعد ذلك بأن منبرنا يجب أن يكفل للحقيقة وللأفكار السليمة أن تدوّى فى الأرجاء ، ثم ها هم يعلموننا من على منبر « الأفكار السليمة » هذا ، كما يعلمون بديهية من البديهيات ، أن اطلاق اسم جريمة قتل الأب على مقتل أبٍ بيد ابنه انما هو وهم من الأوهام الاجتماعية ! ولكن اذا كان علينا أن نعد جريمة قتل الأب وهماً من الأوهام الاجتماعية ، واذا اكتسب كل ابن حق سؤال أبيه عن الأسباب التى توجب عليه أن يحبه ، فما عسى تصير اليه بلادنا ،

ما عسى تصير اليه الأسس التي يقوم عليها مجتمعنا ، ما عسى تصير اليه الأسرة ؟ وقد زعموا أن ما نشعر به من هول تجاه جريمة قتل الأب شبيه بذلك الخوف الذي تحسه النفوس المؤمنة بالخرافات ، شبيه بخوف بائعات موسكو من « الكبريت » ! ألا انهم ليشوهون ويفسدون أقدس قواعد العدالة الروسية ، ويعبثون بمصيرنا ومستقبلها ، وذلك كله في سبيل الوصول الى الهدف الحقيقي الذين يسعون اليه ، في سبيل تسويغ ما لا يمكن تسويغه ، والعفو عما لا يمكن العفو عنه . لقد صاح المحامي يقول : « حطّموه برحمتكم ! » . ألا ان هذا هو كل ما يتمناه المتهم ، ولترونّ غداً كيف سترهقه رحمتكم هذه ! يخيّل الىّ أن المحامي كان متواضعاً جداً وكان قنوعاً جداً حين اقتصر على المطالبة ببراءة المتهم . ترى لماذا لم يطالب بانشاء جائزة تسمى باسم قاتل ابيه ، تخليداً لذكرى فعله في نفوس الأعقاب والجيل الجديد ؟ ويريدون أن يصححوا الانجيل وتعاليم الدين ، فيقولون : « هذا من الأمور الغيبية ! » . ألا اننا نحن الذين نطبق المسيحية الحقة التي يضبطها حكم العقل في ضوء الأفكار السليمة ! ومضوا الى أبعد من هذا فرسموا لنا المسيح في صورة باطلة ! « سيكال لكم بالكيل الذي كلتم به » : بهذا هتف المحامي ، ثم أسرع يستنتج من ذلك أن المسيح قد أمرنا أن نكيل للآخرين بالكيل الذي كالوا لنا به . فانظروا الى ما يجرؤون أن يعلنوه من على منبر الحقيقة والمعاني السليمة هذا ! واضح انهم من أولئك الناس الذين لا يتنازلون فيلقون نظرةً سريعة على الانجيل الا عشية القائهم مرافعاتهم أملاً في أن يلمع نجمهم بالاستشهاد بكتاب عظيم يستطيعون استغلاله للتأثير في النفوس ، ما احتاجوا الى ذلك طبعاً ! ألا ان المسيح لا يأمرنا بأن نسلك هذا السلوك الذي هو سلوك عالم خبيث فاسد شرير ؟ وانما هو يأمرنا ، على خلاف ذلك ، أن نغفر الاساءات التي أُلحقت بنا ، وأن نمد خدنا الأيسر ، بدلاً

من أن نكيل للمسيئين الينا بالكيل الذى كالوا لنا به : ذلكم ما يعلمناه اياه الرب ؛ ان الرب لم يقل ان منع الأبنـاء من قتل آبائهم وهم من الأوهـام الاجتمـاعية ! ألا فليمتنعوا عن استخدام هذا المنبر ، منبر الحق والمعانى السليمة ، فى تصحيح تعاليم ربنا الذى اقتصر المحامى فى مرافعته على أن يسميه باسم « المصلوب الذى كان يحب بنى الانسان » ، خلافاً لما تفعل روسيا الارثوذكسية كلها التى تبتهل الى الرب قائلة : « انت الهنا ! » .

عندئذ تدخل الرئيس ليذكر وكيل النيـابة بالقصـد والاعتدال ، راجياً منه أن لا يبالغ ويغلو ، وأن لا يبتعـد عن الموضـوع ، الى آخر ما هنالك ، مستعملاً اللغة المعهودة فى الرؤساء . وكانت القاعة تضطرب وتتحرك . لقد أصبح الجمهور عصبياً ، وأصبحت تسمع صيحات استياء واستهجان هنا وهناك . وعدل فيتوكوفتش عن الرد ، ولم يزد على أن تقدم واضعاً يده على قلبه ، فقال بضع كلمـات تفيض وقاراً ورصـانة ، قالها بلهجة انسان أوذى شعوره وأسىء اليه ؛ وعاد يشير اشارة عابرة سـاخرة الى « الروايات » و « السيكولوجيا » ، ووجد السـبيل الى أن يستشهد بالقول المأثور : « قد غضبت يا جوبتر ، فأنت اذن على خطأ » ، فأثار ذلك ضحكات استحسان وتأييد صغيرة ، لأن هيبوليت كيريلوفتش لم يكن فيه شىء من جوبتر البتة ؛ ثم أعلن يقول بهيئة رصينة وقورة انه لن يرد حتى على اتهامه بأنه يأذن لأبناء الجيل بأن يقتلوا آباءهم ؛ أما فيما يتعلق « بالصـورة الباطلة التى قال وكيل النيـابة ان المحـامى رسـمها للمسيح » ، وفيما يتعلق بأن المحامى لم يتنزل فيسـمى المسيح الهاً وانما اقتصر على تسميته باسم « المصلوب الذى يحب بنى الانسـان » « مخالفاً بذلك الارثوذكسية مخالفة ما ينبغى أن يسـمح بها من على منبر الحقيقة والمعانى السليمة » ، فقد قال فيتوكوفتش ان فى هذا « غمزاً » ، وانه حين جـاء الى مدينتنا كان يأمل على الأقل أن يؤذن له بالتحدث من على هذا

المنبر بحرية ، دون أن يتعرض لاتهامات خطيرة تمس شخصه كمواطن شريف مستقيم » ••• ولكن الرئيس قاطعه عندئذ ليذكره بالتزام النظام، فما كان من فيتسوكوفتش الا أن انحنى قائلاً انه أنهى كلامه ، ولم يبق لديه ما يضيفه ؛ وعاد الى مكانه تصحبه دمدمات الاستحسان والتأييد من الجمهور • أما هيبوليت كيريلوفتش فقد كان « منسحقاً انسحاقاً نهائياً » فيما أكدت سيداتنا من بعد •

وطُلب الى المتهم أن يتكلم ، فنهض ميتيا ، ولكنه لم يقل الا بضع كلمات • كان يبدو مهدود القوى روحاً وجسماً • ان هيئة الكبرياء والقوة التى كانت بادية فيه حين دخل قاعة المحكمة فى الصباح قد اختفت الآن أو كادت • كان يلوح عليه أنه قد عاش فى هذا النهار ساعات حاسمة تعلم فيها أشياء أساسية وفهم أموراً رئيسية كان يجهلها قبل ذلك• ان صوته ضعيف واهن ، فهو لا يصرخ الآن كما كان يصرخ فى بداية الجلسة ؛ وفى كلامه الآن نبرة جديدة ، نغمة فيها اذعان وانكسار ومذلة • قال :

« ماذا أستطيع أن أقول لكم يا سادتى المحلَّفين ؟ لقد دقت ساعة حسابى ، ووضع الله يده علىّ • ذلك تكفير عن حياتى المضطربة الفاسدة ! ولكننى أؤكد هنا ، أؤكد تأكيد من يعترف أمام الله : « أننى لم أسفح دم أبى » ؛ لا ، لست أنا مرتكب هذه الجريمة ! أعود فأكرر لكم « أننى لست الذى قتله » • لقد عشت حياة فاسقة ، ولكننى كنت أحب الخير • كنت أفكر دائمى فى اصلاح نفسى ، ومع ذلك ظللت أعيش كما يعيش حيوان متوحش • أشكر للسيد وكيل النيابة أنه قال عنى أموراً كنت أجهلها أنا نفسى • ولكن قوله اننى قتلت أبى قول خطأ • لقد أخطأ السيد وكيل النيابة ! وأشكر للمحامى دفاعه عنى أيضاً • لقد بكيت وأنا أصغى الى كلامه • ولكن من الخطأ أن يُقال اننى قتلت أبى ؟ وما كان

ينبغي حتى أن يفترض افتراضاً أنني فعلت ذلك ! أما الأطباء فلا تصدقوهم ! انني أملك عقلي كاملاً ، ولكن نفسي مرهقة . ان تسامحتم معي فاطلقتم سراحي دعوت لكم وصليت من أجلكم ؟ واني لأعدكم بأن أصلح ما فسد من أمري ، أحلف لكم على ذلك أمام الله ؟ وان حكمتم عليّ توليت بنفسي تحطيم سيفي وقبلت حطامه . ولكن ترفقوا بي : لا تحرموني من الهي . انني أعرف نفسي ، فلو فعلتم لثرت وتمردت ! ان نفسي مرهقة أيها السادة ... فترفقوا بي ! » .

قال ميتيا هذا الكلام وعاد يجلس على كرسيه بما يشبه السقوط . لقد تهدم صوته ، ولم يكد يستطيع أن ينطق جملته الأخيرة الا في كثير من العناء .

وانتقلت المحكمة بعد ذلك الى تحرير الأسئلة التي يجب أن تلقى على المحلفين ، ودُعيت الأطراف الى الادلاء بالنتائج التي انتهت اليها . لن أدخل في وصف التفاصيل . ونهض المحلفون أخيراً للمداولة . وكان الرئيس مكدوداً فلم يوجه اليهم الا جملة واحدة ، قال : « لا تتحيزوا ، لا تتأثروا بالأقوال البليغة الفصيحة التي تضمنها خطاب الدفاع ، بل زنوا قراركم ، وتذكروا الرسالة العظيمة الموكولة اليكم ، الخ الخ ... » . وعُلّقت الجلسة بعد خروج المحلفين . أصبح يحق للحضور أن ينهضوا ، وأن يسيروا ، وأن يتبادلوا الآراء والمشاعر مع الأصدقاء ، وأن يمضوا الى البوفيه ليصيبوا شيئاً من طعام أو شراب . وكان الوقت متأخراً ، فالساعة هي الواحدة من الصباح ، ولكن أحداً لم يخطر على باله أن ينصرف . كانت أعصاب الجميع مشدودة متوترة ، وقد بلغ فرط اهتياج النفوس أن أحداً لم يدر في خلده أن ينصرف ليرتاح . كان الناس ينتظرون قرار المحكمة بما يشبه الحمى . على أن القلق لم يكن عاماً شاملاً ؟ ان السيدات خاصةً هنّ اللواتي سيطر

عليهن نفاذ الصبر الى حد الهستريا • ومع ذلك لم يساورهن أى خوف• كن وهن يتهيأن للحظة الحماسة العارمة المؤثرة ، كن يقلن : « لا شك أنه سيبرأ » • ويجب عليّ أن أعترف من جهة أخرى أن عدداً كبيراً من الرجال أيضاً كان يشاطرهن هذا اليقين من أن المتهم سيبرأ ، فبعضهم مغتبط بذلك مبتهج له ، وبعضهم يقطب الجبين استياءً ، بل ان منهم من استطالت أنوفهم امتعاضاً واستهجاناً : كان هؤلاء لا يريدون البراءة • أما فيتوكوفش فكان واثقاً بالنصر موقناً منه • وكان الناس يحيطون به ، ويهنئونه ، ويمدحونه • فقل لجماعة منهم ، كما رُوى ذلك فيما بعد :

ـ هناك تيارات تعاطف تشد المحامي الى المحلفين كخيوط لا تُرى، وهذه الخيوط تنعقد وتدرَك أثناء المرافعة نفسها • لقد ربحنا القضية ، لا تخافوا •••

ـ انى لأتساءل عما عسى يقرره فلاحونا الصغار الآن !

كذلك قال سيد ضخم الجسم مقطب الجبين عابس الوجه وهو يقترب من جماعة حمى فيها وطيس المناقشة • انه أحد مالكى الأطيان فى ضواحى مدينتنا •

فأجابه آخر :

ـ ان هيئة المحلفين لا تضم فلاحين فحسب ، ففيها أربعة موظفين أيضاً •

فقال أحد أعضاء « مجلس المدينة » مؤمّناً وهو ينضم الى الجماعة :

ـ نعم نعم ، يوجد موظفون •••

ـ هل تعرفون نازاريف ، بروخور ايفانوفتش نازاريف ؟ انه ذلك التاجر الموشح الصدر بوسام • هو عضو فى هيئة المحلفين •

ـ وماذا ؟

ـ هو واحد من أذكى أعضاء الهيئة •

ـ ولكنه يصمت طول الوقت •

ـ صحيح • يصمت • هذا أفضل • ليس أناس بطرسبرج هؤلاء هم الذين يستطيعون أن يلقنوه دروساً • انه أقوى من جميع أهل العاصمة أولئك • ان له اثنى عشر ولداً ، تصوروا !•••

وفى جماعة أخرى هتف أحد الموظفين يقول :

ـ هه ! وكيف لا يبرئونه ؟

فقال صوت آخر بلهجة جازمة :

ـ سيبرئونه حتماً •

فعاد الموظف يقول :

ـ عار أن لا يبرئوه ، خزى أن لا يبرئوه • صحيح أنه قتل ، ولكنه قتل أباه ، قتل ذلك الأب • ثم انه كان فى حالة اهتياج شديد ••• من الجائز حقاً أن يكون قد هوى بالمدق دون أن يكون فى نيته أن يقتل ، فاذا بالآخر يسقط على الأرض مجندلاً من الضربة • على أننى أرى أن اقحام ذلك الخادم فى القضية أمر مؤسف • كان ذلك من المحاكمة جزءاً مضحكاً لا أكثر • لو كنت فى مكان المحامى ، لصحت أقول صراحة : « نعم قتل ، ولكنه ليس مجرماً ؛ وليأخذكم الشيطان جميعاً ! » •

ـ ولكن هذا بعينه هو ما قاله ، باستثناء حكاية الشيطان هذه •

فتدخل صوت ثالث يقول :

ـ بل كاد يقول لهم « فليأخذكم الشيطان » يا ميشيل سيميونتش•

ـ تصوروا يا سادة ! لقد برأوا عندنا ، أثناء الصيام ، ممثلة ذبحت عنق زوجه عشيقها الشرعية .

ـ نعم ، ولكنها لم تقطعه الى آخره .

ـ أوشكت أن تقطعه على كل حال .

ـ هل سمعتم ما قاله عن الأبناء ؟ كان كلامه رائعاً .

ـ رائعاً !

ـ وقوله عن الغيبية أو الصوفية ، هه ؟

ـ دعوكم من الغيبية أو الصوفية . أولى بكم أن تفكروا فى هيبوليت وفى المصير الذى ينتظره . لسوف تفقأ امرأته عينيه بسبب ميتيا .

ـ أهى فى القاعة ؟

ـ ما هذا السؤال ؟ لو كانت فى القاعة لفقأت له عينيه منذ مدة . ولكنها فى الدار ، لأنها تشكو من أوجاع فى أسنانها ، هىء هىء !

وفى جماعة ثالثة دار الحديث التالى :

ـ من الجائز أن يُبرأ ميتيا !

ـ لا ينقصنا الا هذا ! لسوف يقلب غداً كل شىء فى كاباريه « العاصمة الكبرى » ، ثم لا يصحو من السكر عشرة أيام .

ـ انه لشيطان رجيم حقاً !

ـ الشيطان هو الشيطان ، ولم يمكن الاستغناء عن الشيطان هنا . أين عسى يوجد الشيطان ان لم يوجد فى هذه القاعة ؟

ـ كفاكم بلاغة وفصاحة أيها السادة ! ليس يجوز تحطيم جمجمة أبٍ على كل حال • والا فالى أين المصير ؟

ـ وما قاله عن المركبة المظفرة ، هل تتذكرون ما قاله عن المركبة المظفرة ؟

ـ نعم ، جعل من العربة المبتذلة مركبة مظفرة !

ـ سيردها في الغد عربة بسيطة « ما احتاج الى ذلك » ، على حد تعبير وكيل النيابة • لا شيء الا الانتهازية !

ـ لقد زادت براعة الناس • قل لى : ألا تزال توجد حقيقة في روسيا ؟

ولكن جرس رئيس المحكمة أخذ يرن• لقد تشاورت هيئة المحلفين خلال ساعة كاملة• ساد صمت عميق منذ عاد الحضور الى أماكنهم• هأناذا أرى هيئة المحلفين تدخل القاعة • ولكن فلأوجز ! لن أذكر ، بالترتيب، الأسئلة التى كان عليها أن تجيب عنها ، لأننى نسيتها • كل ما أتذكره هو جوابها عن النقطة الأساسية كما صاغها الرئيس : « هل ارتكب المتهم جريمة القتل عن سابق تصور وتصميم بقصد السرقة ؟ » (نسيت النص الدقيق) • خيّم على القاعة صمت كصمت الموت • وقال رئيس هيئة المحلفين ، وهو أصغر الموظفين سناً ، قال بصوت قوى واضح دوى في أرجاء القاعة دويّ قرع الناقوس حين ينعى ميتاً :

ـ نعم ، انه مذنب •

وكان هذا الجواب نفسه جواباً عن سائر الأسئلة : نعم ، مذنب ، مذنب في كل مرة ، دون وجود أى ظرف مخفّف • لم يكن أحد يتوقع ذلك ، لأن جميع الناس كانوا يقدرون أن تكون هنالك أسباب مخففة على

الأقل • استمر الصمت الذى يشبه أن يكون صمت الموت ، وأصبح الجمهور كالمتجمد دهشة ، يستوى فى ذلك الذى كانوا يتمنون أن يُحكم على ميتيا ، والذين كانوا يتمنون أن يُبَرَّأ • ولكن هذا السكون لم يدم الا بضع دقائق أعقبتها جلبة كبيرة • فأما الرجال فان عدداً كبيراً منهم قد شعر بالرضى ، حتى لقد أخذ بعضهم يفرك الأيدى غبطة وسروراً دون أن يحاول اخفاء فرحته ؛ وصُعق المستاءون منهم فأخذوا يرفعون اكتافهم ويتهامسون ، ولكنهم لا يبدو عليهم أنهم قد أدركوا الواقع بعد• وأما السيدات ، فيارب السماء ! لقد خيِّل الىَّ أنهن سيقمن بثورة ! انهن فى أول الأمر لم يصدقن آذانهن ؛ ثم لم يلبثن أن انفجرن صائحات فى جميع أرجاء القاعة : « ما معنى هذا ؟ ما هذه الحكاية ؟ » ، وأخذن يثبن عن أماكنهن • واضح أنهن كان يخيل اليهن أن كل شىء يمكن أن يتغير ، وأن يستبدل بالحكم حكم آخر • وفى تلك اللحظة نهض ميتيا عن مكانه فجأة ، وأعول يقول بصوت ممزَّق ، ماداً ذراعيه الى أمام :

ــ اننى أحلف أمام الله ، بانتظار عدالته الرهيبة ، أننى برىء من دم أبى ! أما أنت يا كاتيا فاننى أغفر لك • ويا اخوتى ، يا أصدقائى ، ترفقوا بالأخرى وأحيطوها برعايتكم •••

لم يكمل ميتيا كلامه ، وانفجر ينتحب • كان ينشج نشيجاً صاخباً ، بصوت ليس صوته ، صوت مخيف ، لا يدرى المرء من أين يصدر • وفى أعلى القاعة ، من ركن مظلم بالشرفة ، انطلقت صرخة حادة : انها جروشنكا • كانت جروشنكا قد تضرعت كثيراً أن يؤذن لها أخيراً بالعودة الى القاعة ، قبل القاء مطالعة النيابة •

واقتيد ميتيا • وأرجىء اعلان الحكم الى الغد • ونهض الجمهور فى جلبة شديدة • ولكننى كنت قد أصبحت لا أصغى الى شىء • كل ما وعته ذاكرتى لا يعدو بضع صيحات سمعتها على درجات مخرج القاعة :

ـ لن يقل الحكم عليه عن عشرين عاماً بالسجن مع الأشغال الشاقة*.

ـ لن يقل عن ذلك !

ـ نعم ، لقد صمد فلاحونا .

ـ انتصفوا من ميتيا !

خاتمة :

١
مشاريع فرار

بعد صدور الحكم على ميتيا بخمسة أيام ، ذهب أليوشا فى الصباح المبكر الى كاترين ايفانوفنا ليتخذ معها اجراءات أخيرة فى أمر يهمهما كليهما كثيراً ، وليقوم عدا ذلك بمهمة كان قد كلف بالقيام بها. الساعة تجاوزت الثامنة قليلاً • واستقبلته المرأة الشابة فى تلك الغرفة نفسها التى سبق أن استقبلت فيها جروشنكا منذ بضعة أسابيع • وفى الغرفة المجاورة كان يرقد ايفان فيدوروفتش غائباً عن وعيه بتأثير الحمى الحارة • لقد نقلته كاترين ايفانوفنا الى منزلها فور حدوث المشهد الذى وقع فى جلسة المحاكمة ، دون أن تبالى بالأقاويل التى كان لا بد أن تثيرها هذه البادرة منها ، ودون أن تقلق لما سيصبه عليها المجتمع من ضروب اللوم • وقد سافرت احدى قريبتيها اللتين كانتا تعيشان معها ، سافرت الى موسكو منذ نهاية المحاكمة ، وبقيت الأخرى فى منزل كاترين ايفانوفنا • ولكن كاترين ايفانوفنا ما كان لها أن تتراجع عن انفاذ ما عزمت أمرها عليه ولو كانت وحيدةً فى منزلها ، وسهرت على المريض بنفسها نهاراً وليلاً • وكان الطبيبان فارفنسكى وهرتسنشتوبه يعالجان ايفان • أما الاخصائى الذى جاء من موسكو فقد سافر دون أن يرضى أن يفصح

عن رأيه فيما عسى تصير اليه حالة المريض ، وفيما عسى يكون من أمر تطور المرض • وكان الطبيبان يبذلان لكاترين ايفانوفنا وأليوشا أنواع التشجيع ، ولكنهما لا يجازفان فيهبان لهما آمالاً قاطعة • وكان أليوشا يزور أخاه المريض مرتين فى اليوم • على أنه انما جاء الآن لأمر محرج احراجاً خاصاً ، مربك ارباكاً شديداً ، وهو يشعر بمدى الصعوبة فى مواجهة الموضوع ، ولا يعرف من أين يأتيه• وكان عدا ذلك فى عجلة من أمره ، لأن عليه أن يقوم بواجب آخر وأن ينهض بعبء ثان ، فى حى غير هذا الحى من المدينة ، فكان يحسن به اذن أن يسرع • انهما يتحدثان منذ ربع ساعة • وكاترين ايفانوفنا شاحبة الوجه ممتقعة اللون ، تبدو مرهقة مهدودة القوى ، ولكنها فى الوقت نفسه مضطربة اضطراباً يشبه أن يكون مرضاً ، لأنها كانت فى الواقع تدرك الهدف الذى جاء من أجله أليوشا • قالت لأليوشا بلهجة تفيض ثقة :

ـ لا يقلقنك أمر القرار الذى سيتخذه ، فانه لا بد أن يتلبث على هذا الحل أخيراً : فليس أمامه من مخرج آخر غير الفرار ! ان هذا المسكين ، هذا البطل من أبطال الشرف والضمير ـ أوه ! لا ! لست أقصد دمترى فيدوروفتش ، وانما أقصد ذلك الراقد وراء هذا الباب ، ذلك الذى ضحى بنفسه فى سبيل أخيه ـ (كذلك أضافت تقول كاتيا وقد سطعت عيناها) قد أطلعنى منذ مدة طويلة على تفاصيل مشروع الفرار هذا • ولعلك تعلم أنه اتصل باشخاص عدة من أجل انفاذ هذا المشروع ••• وقد ألمعت لك الى هذا من قبل على كل حال ••• سيتم الفرار فى المرحلة الثالثة من مراحل الطريق فى أغلب الظن ، أثناء سفر قافلة السجناء الى سيبيريا • أوه ! ما يزال الأمر بعيداً • وقد زار ايفان فيدوروفتش رئيس المحطة الثالثة • ولكننا لا نعرف حتى الآن من الذى سيقود القافلة ، لأن ذلك يستحيل أن يُعرف سلفاً • وقد أطلعك

غداً على تفاصيل الخطة التى تركها لى ايفان فيدوروفتش قبل المحاكمة بيوم ، احتياطاً لما قد يحدث له ••• تمّ هذا فى ذلك اليوم نفسه الذى رأيتنا نتشاجر فيه ••• أنت تذكر هذا ••• لقد خرج من عندى فلما رأيتك أجبرته على أن يصعد ثانية • تتذكر هذا ، أليس كذلك ؟ فهل تعرف فيم كنا نتشاجر ؟

قال أليوشا :

ـ لا ، لا أعرف •

ـ أخفى عنك هذا طبعاً ! فاعلم اذن أن المشاجرة كانت تدور على موضوع الفرار هذا نفسه • كان قد عرض لى ، قبل ذلك بثلاثة أيام ، الأمور الأساسية من هذه الخطة ؛ وفى تلك اللحظة انما قام الشجار بيننا ثم استمر ثلاثة أيام • فحين أعلن لى ان دمترى فيدوروفتش سيهرب الى الخارج مع تلك المخلوقة اذا حُكم عليه ، شعرت فجأة بغضب شديد• لا أستطيع أن أقول لك لماذا غضبت ، لأننى أجهل أنا نفسى سبب غضبى ••• آه ! السبب هو تلك المخلوقة طبعاً ! فبسببها انما ثارت ثائرتى ، لأن تلك المخلوقة تطمع فى أن تسافر الى الخارج مع دمترى فيدوروفتش !

بهذا صاحت كاترين ايفانوفنا فجأة وقد أخذت شفتاها تختلجان من فرط الغضب • ووالت كلامها تقول :

ـ فلما لاحظ ايفان فيدوروفتش أننى غضبت بسبب تلك المخلوقة تخيل فوراً أننى أغار منها ، وأننى اذن مازلت أحب دمترى فيدوروفتش. هكذا نشبت مشاجرتنا الأولى فى ذلك اليوم • لم أشأ أن أقدم له شرحاً ، ولا كنت أستطيع أن اعتذر اليه أيضاً • ولكن كان يحز فى نفسى أن أتصور أن رجلاً له مثل قيمة ايفان فيدوروفتش يمكن أن يهجس فى نفسه

انني ما زلت أحب ذلك الـ ... مع أنني كنت قد أكدت له أنا نفسي منذ مدة طويلة أنني أصبحت لا أحب دمتري ، وأنني لا أحب أحداً الا هو ايفان !... فلما غضبت من تلك المخلوقة ، ثارت ثائرته على . وبعد ذلك بثلاثة أيام ، في ذلك المساء نفسه الذي جئت فيه الى ، جاءني ايفان بظرف مختوم وطلب مني أن لا أفض الظرف الا اذا وقع له شيء . أوه ! لقد كان يتنبأ عندئذ بمرضه . وقال لي ان الظرف يتضمن عرضاً مفصلاً لمشروع الفرار ، وان على أن أتولى وحدى انقاذ ميتيا ، اذا مات هو أو مرض مرضاً خطيراً . وفي تلك المناسبة نفسها ترك مالاً ، قرابة عشرة آلاف روبل ـ هو ذلك المبلغ نفسه الذي جاء على ذكره وكيل النيابة في مطالعته بعد أن علم مصادفة أن ايفان قد كلف أحد الناس باحضاره من مركز الاقليم لقاء سندات يبدلها . وقد أدهشني أشد الدهشة عندئذ أن ألاحظ أن ايفان فيدوروفتش ، رغم غيرته على ورغم اقتناعه بانني ما زلت أحب ميتيا ، لم يعدل عن فكرة انقاذ أخيه ، وأنه يعهد الى ، الى أنا ، بالقيام بهذه المهمة . آه ... ما كان أقوى روح التضحية في سلوكه هذا ! لا يا ألكسي فيدوروفتش ! انك لا تستطيع أن تدرك ادراكاً كاملاً كل ما يشتمل عليه هذا السلوك من نكران الذات ! تمنيت لو اسقط على قدميه ، شعوراً باعجاب لا حدود له . ولكن هجس في نفسي فجأة أنه قد يعزو هذه البادرة مني الى فرحتي بانقاذ ميتيا (كان سيؤول بادرتي هذا التأويل حتماً) ، فما ان تصورت أنه قد يفترض هذا الافتراض الظالم في حقي حتى ثارت ثائرتي من جديد ، واشتد حنقي ، فبدلاً من أن أقبل قدميه ، رحت أضايقه . آه ... ما أشقاني ! ذلك هو طبعي ... انه طبع رهيب ... عجيب ! سوف ترى ، سوى ترى : سوف أعمل كل ما من شأنه أن يبعث في نفسه التعب والسأم والضجر مني ، فاذا هو يهجرني أخيراً الى امرأة أخرى

يسهل عليه أن يتفاهم معها أكثر مما يسـهل عليه أن يتفاهم معى ، تماماً كما فعل دمترى . ولكن فى هذه الحالة ... لا ... لن احتمل فى هذه المرة ... سوف أنتحر ! وحين دخلت علىّ ، بعد أن أمرتُه بالصعود ثانيةً ، جُنَّ جنونى غضباً من نظرة الكره والاحتقار التى لاحظت أنه رشقنى بها فى تلك اللحظة . وعندئذ ـ هل تتذكر ؟ ـ عندئذ انما صرخت أقول انه « هو وحده » الذى جعلنى أعتقـد بأن ميتيـا قاتل ! ... لقد كذبت عندئذ عامدةً ، بغية أن أجرحه مرة أخرى . والحقيقة هى عكس ذلك : فانا التى كنت قد سعيت الى اقناعه بأن ميتيا قاتل . آه ... ان طبعى اللعين هو سبب البلاء كله ! أنا ، أنا المسئولة عن ذلك المشهد الرهيب الذى حدث فى جلسة المحاكمة ! لقد أراد أن يبرهن لى على نبل نفسه ، أراد أن يبيِّن لى أنه ، رغم حبى أخـاه ، لن يقبـل أن يضيِّـعه غيرةً وانتقاماً . لهذا انما تكلم على ذلك النحو أمام المحكمة ... أنا سبب كل شىء ، أنا وحدى الآثمة !

لم يسبق لكاتيا أن اعترفت لأليوشـا بمثل هذه الاعترافات فى يوم من الأيام ، فأحس أليوشا أنها كانت عندئذ تعانى من ذلك العذاب الذى لا يطاق ، ذلك العذاب الذى يجعل النفس العاتية المتكبرة تعدل فجأة عن صلفها وجبروتها فتنهار مغلوبة على أمرها قد هزمها الألم . ثم لقد كان أليوشا يدرك أن لتباريحها سبباً آخر أيضاً ، سبباً رهيباً حاولت أن تخفيه منذ صدور الحكم على ميتيا ، ومع ذلك كان سيؤلمه كثيراً أن يراها تذل نفسها أمامه الى حيث تبادئه الكلام عن سبب عذابها ، وأن تحدثه عن هذا السبب من تلقاء نفسها فى هذه اللحظة نفسها : الواقع ان كاتيـا كانت تتألم من « الخيانة » التى قارفتها فى المحكمة . وأحس أليوشا أن ضميرها كان يدفعها الى أن تتهم نفسها أمامه صادقةً ، أن تتهم نفسها بدموع غزار وصرخات حادة ، وربما برطم جبينها بالأرض فى نوبة هسترية من نوبات

عذاب الوجدان • وكان أليوشا يخشى هذا المشهد ، ويرفق بحال المرأة الشقية • وكان هذا يفاقم حرجه وارتباكه من القيام بالمهمة التى كُلِّف بها • وعاد يتكلم عن ميتيا •

فقاطعته بعناد جازم :

ـ لا تقلق له ! صدقنى أن معارضته لن تستمر طويلاً • أنا أعرفه، أعرف طبعه حق المعرفة • ثق أنه سيوافق على الفرار أخيراً • لا تنس خاصةً أن الأمر ليس بقريب، وسيكون فى وقت ميتيا متسع لاتخاذ قراره ومن الآن الى أن يحين الموعد ، يكون ايفان قد أبل من مرضه ، فيتولى القضية بنفسه ، ولن يكون علىّ أنا أن أهتم بها • لا تخف ، سيوافق على الهرب • بل انه لموافق منذ الآن : فأنّى له أن يترك تلك المخلوقة ! ما داموا لن يسمحوا له بأن تتبعه هذه المرأة الى المعتقل ، فلم يبق له الا أن يهرب • هو يخاف منك خاصةً ، يخاف أن تلومه على الهرب لأسباب أخلاقية • فمتى جُدت عليه فأذنت له وافق ، ومن واجبك أن تأذن له ما دام هذا الأذن ضرورياً لا بد منه •

بهذه العبارة ختمت كاتيا كلامها بلهجة مسمومة • وصمتت بضع لحظات ، وابتسمت ، ثم أردفت تقول :

ـ انه يتحدث فى السجن عن نشيد ، عن صليب عليه أن يحمله ، عن واجب عليه أن يقوم به ••• هل أدرى ماذا أيضاً ؟ اننى أتذكر هذا الكلام لأن ايفان فيدوروفتش قد روى لى تفاصيل كثيرة فى هذا الموضوع • ليتك تعلم بأى طريقة كان ايفان يتكلم ! (هكذا هتفت كاتيا تقول فجأة فى اندفاعة لا تقاوم) • ليتك تعلم كم كان يحب هذا الشقى حين كان يتكلم عنه ، وكم لعله كان يبغضه فى الوقت نفسه أيضاً ! أما أنا ، فقد أصغيت عندئذ الى هذه القصة التى رواها لى باكياً ، أصغيت اليها

وأنا أتفرس فيه متكبرة متعجرفة ساخرة ! ألا ما أحطنى من مخلوقة ! نعم أنا التي يجب أن أسمى مخلوقة ! بسببى انما أصيب بالحمى الحارة ! أما الآخر ، الذى حكم عليه ، فانه غير مستعد لأن يتألم البتة . وهل في وسع امرىء مثله أن يتألم ؟... ان رجالاً من نوعه لا يتألمون أبداً .

هكذا ختمت كاتيا كلامها حانقة غاضبة . ان نبرة بغض واشمئزاز واحتقار قد طافت بصوتها حين نطقت هذه الكلمات الأخيرة . ومع ذلك فانها هى التى خانته . قال أليوشا لنفسه : « انما هى تكرهه فى بعض اللحظات لأنها تشعر بأنها أذنبت فى حقه » . كان أليوشا يتمنى أن لا تكرهه الا فى بعض اللحظات . وقد لاحظ أليوشا فى الكلمات الأخيرة التى قالتها كاتيا شيئاً من تحد ، ولكنه لم يحفل بالأمر .

وأضافت كاتيا تقول بلهجة فيها مزيد من الاستفزاز :

ــ انما كان هدفى من استدعائك اليوم هو أن تعدنى بأن تمارس تأثيرك فيه لاقناعه ، اللهم الا أن تعد الفرار عملاً منافياً للشرف ، مناقضاً للكرامة ، أو ... ماذا أقول ؟... ربما كنت تعد الفرار مخالفاً للمسيحية ، هه ؟

فتمتم أليوشا يجيبها :

ــ لا ... لماذا ؟ سأقول له كل شىء .

ثم قال لها فجأة وهو يحدق الى عينيها بحزم :

ــ هو يرجوك أن تجيئى اليه اليوم .

فارتعشت كاتيا بكل جسمها ، وتقهقرت قليلاً الى وراء ، ودمدمت تقول وقد اصفر وجهها اصفراراً شديداً :

ــ أنا ؟... ولكن هل هذا ممكن ؟

فعاد أليوشا يقول بالحاح وقد انتعش فجأة :

ـ ليس هذا ممكناً فحسب ، بل هو ضروري أيضاً . لا بد أن يراك ، الآن خاصةً . ولولا أن ذلك واجب حتماً ، لما تعرضت لهذه المسألة مخافة أن أولمك في غير طائل . انه مريض . انه يشبه أن يكون مجنوناً . انه لا يكف عن مناداتك . وهو لا يريد أن يراك من أجل أن يصالحك . كل ما يطلبه هو تذهبي اليه وتظهرى له عند باب غرفته . ان تحولاً كبيراً قد حدث في نفسه منذ ذلك اليوم الحاسم . لقد أدرك مدى الاثم الذى اقترفه فى حقك . ليس يسألك أن تغفرى له . هو نفسه يقول : « أنا لا أستحق الغفران » . كل ما يرجوه هو أن تظهرى له عند باب غرفته ...

تمتمت كاتيا تقول :

ـ أنت تحرجنى ... كنت أتنبأ كل يوم أنك ستجيئنى طالباً منى ذلك ... كنت واثقة بأنه سيدعونى . ولكن لا ... مستحيل .

ـ مستحيل ، غير مستحيل ... يجب عليك أن تفعلى . تذكرى أنه لأول مرة فى حياته يدرك مدى الاساءة التى ألحقها بك . يدرك هذا لأول مرة فى حياته . انه لم يدركه فى يوم من الأيام ادراكاً كاملاً كما يدركه الآن . قال لى : « اذا رفضت أن تجيء فسأكون تعيساً بقية عمرى » . هل تفهمين ؟ رجل محكوم بالسجن عشرين عاماً ثم هو يريد أن يكون سعيداً ! أليس هذا مما يستحق الشفقة ؟ تذكرى أيضاً أنك تزورين انساناً بريئاً (هكذا هتف أليوشا يقول فجأة بلهجة فيها تحد) . ان يديه طاهرتان لم يلوثهما دم . فاذهبى اليه ، اذهبى اليه بسبب هذه الآلام الذى لاحدود لها !... اذهبى ، مدّى اليه يدك فى هذه الليلة ... اظهرى له على الباب فحسب ، على الباب فحسب ... هذا واجب عليك ، هذا واجب عليك ...

هكذا ختم أليوشا كلامه ملحاً على كلمة « واجب » الحاحاً يكاد يشتمل على عنف وقسوة •

قالت كاتيا بصوت فيه أنين :

ــ هذا واجب عليّ ، ولكن ••• لا أستطيع ••• سينظر اليّ ••• لا ، لا ، لا أستطيع •

ــ يجب أن تلتقى نظراتكما • كيف يمكنك أن تعيشى فى المستقبل اذا لم تعزمى أمرك ؟

ــ أوثر أن أظل أتألم طول حياتى !

ــ يجب أن تذهبى اليه ، يجب •

كذلك قال أليوشا ملحاً لا ينثنى عن عزمه •

قالت كاتيا :

ــ ولكن لماذا اليوم ؟ لماذا حالاً ؟ يستحيل عليّ أن أترك المريض وحده •

ــ بل تستطيعين أن تتركيه بضع لحظات• لن يطول غيابك • ماكنت لأقول لك هذا لولا أنه حق • ليكن فى قلبك شىء من شفقة •

أجابت كاتيا تقول بلهجة عتاب مر :

ــ أنا أوْلى بالشفقة •

وأخذت تبكى •

قال أليوشا بصوت جازم وقد رأى دموعها :

ــ معنى هذا أنك آتية • سأبلغه أنك ستجيئين •

هتفت كاتيا تقول مذعورة :

ـ بل لا تقل له شيئاً البتة • سأذهب اليه ، ولكن لا تبلغه ذلك •• وقد لا أدخل عليه ••• لا أدرى بعد •••

قالت ذلك وتحطم صـوتها • كانت تتنفس فى مشـقة • ونهض أليوشا لينصرف • فسألته فجأة بصوت خافت وقد امتقع لونها من جديد :

ـ فماذا لو لقيت أحداً هناك ؟

فأجابها أليوشا وقد أدرك من تعنى :

ـ فانما أسألك أن تجيئى الآن لأنك لن تلقى أحـداً • لن يكون هناك أحد • ثقى بذلك •

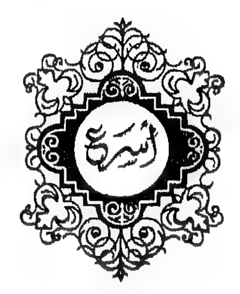
وختم كلامه يقول بالحاح :

ـ سننتظرك •

وخرج من الغرفة •

٢

صار الكذب إلى حقيقة لحظة



أليوشا الى المستشفى الذى كان فيه ميتيا الآن • لقد أصيب ميتيا بحمى عصبية بعد صدور الحكم بيومين ، فنُقل الى مستشفى مدينتنا ، وأودع القسم المخصص للسجناء • ولكن الدكتور فارفنسكي رضى أخيراً بعد شفاعات أشخاص كثيرين (السيدة هوخلاكوفا، ايزا ، الخ) أن لا يترك ميتيا بين السجناء ، ونقله الى غرفة صغيرة مستقلة ، هي تلك الغرفة نفسها التي أقام بها سمردياكوف • ان على نافذة هذه الغرفة قضباناً حديدية ، وأن موظفاً من الموظفين كان يرابط في آخر الدهليز ، فليس على فارفنسكي أن يخشى اذن شيئاً من هذه الميزة التي تفضل بها على السجين والتي تخالف القانون قليلاً • كان الطبيب شاباً طيب القلب رحيم النفس ، فأدرك مدى ما يمكن أن يلقاه رجل مثل ميتيا من عناء وألم اذا هو وجد نفسه فجأة يعيش في وسط قتلة ولصوص، وأدرك أنه لا بد له من مرحلة انتقال تتهيأ له فيها أسباب التعود على الوضع الجديد • وقد أُذن لأقرباء السجين وأصدقائه ضمناً بأن يزوروه ، أذن بذلك الطبيب والمراقب وحتى رئيس الشرطة • ولكن أليوشا وجروشنكا كانا هما الوحيدين اللذين يجيئان الى ميتيا أثناء تلك الأيام •

وقد حاول راكيتين أن يدخل عليه مرةً أو مرتين ، ولكن ميتيا رجا الدكتور فارفنسكي ملحاً أن لا يسمح له بالدخول .

وجد أليوشا أخاه مضطجعاً على مضجعه بمعطف المستشفى . كان به شيء من حمى ، وكان رأسه ملفوفاً بفوطة مبتلة بخل . فلما أبصر ميتيا أخاه أليوشا حدّق اليه بنظرة غامضة يخالطها نوع من خوف .

وكان ميتيا قد أصبح منذ صدور الحكم عليه كثير الوجوم . وكان يتفق له أن يبقى صامتاً خلال نصف ساعة وكأنه يفكر فى أمر من الأمور تفكيراً أليماً ، وكان يبدو عليه فى مثل تلك اللحظات أنه نسى مَنْ حوله نسياناً تاماً . حتى اذا خرج بعد ذلك من تأمله وأخذ يتكلم ، استرسل في حديث من الأحاديث ارتجالاً ، وعالج موضوعاً يختلف كل الاختلاف عما كان يهمه أن يقوله فى الواقع. وكان يثبت على أخيه فى بعض الأحيان نظرة مثقلة بالألم والعذاب . وكان يرتاح الى وجود جروشنكا أكثر من ارتياحه الى وجود أليوشا . صحيح أنه كان لا يكاد يكلمها ، ولكن وجهه كان يشرق فرحاً متى جاءت .

جلس أليوشا على مضجع أخيه دون أن ينبس بكلمة . وكان أخوه ينتظره فى هذه المرة مهموماً قلقاً ، ولكنه يخشى أن يسأله . كان يقدّر أن من المستحيل أن توافق كاتيا على المجيء اليه ، وكان يحس فى الوقت نفسه أن رفضها المجيء سيورثه ألماً لا يطاق . وكان أليوشا يحزر عواطفه .

بدأ ميتيا الكلام فقال بعصبية :

— يُقال ان تريفون بوريسيتش كاد يخرب فندقه . فهو يقتلع أخشاب الأرض ، وينزع ألواح الجدران ، حتى لقد هدم الرواق هدماً تاماً . انه يبحث عن الكنز ، عن الألف وخمسمائة روبل التى اتهمني

وكيل النيابة باخفائها هناك • انه منذ أن عاد الى موكرويه قلب كل شيء عاليه سافله • يستحق هذا الوغد ذلك • علمت هذا من حارس هناك قصَّه عليَّ أمس •

قال أليوشا :

ـ اسمع • انها ستجيء • ولكنني لا أعرف بعدُ متى تجيء • ربما جاءت اليوم ، أو غداً ، أو في يوم قريب ، لا أعرف على وجه الدقة • ولكنها ستجيء ، حتماً •

انتفض ميتيا ، وبدا عليه أنه أراد أن يقول شيئاً ، ولكنه صمت • لقد هزه هذا النبأ هزاً عميقاً • كان واضحاً أنه يتحرق شوقاً الى معرفة تفاصيل الحديث الذي جرى بين أليوشا وكاتيا ، ولكنه لا يجرؤ أن يسأل أخاه في ذلك : فان كلمة فيها قسوة أو احتقار تقولها كاتيا كفيلة في هذه اللحظة بأن تطعنه كخنجر •

ـ اليك ما قالته فيما قالت من أمور أخرى : انها تطلب مني ملحة أن أهدىء ضميرك فيما يتعلق بالفرار • وستتولى هي تدبير الأمر اذا لم يُشف ايفان من مرضه الى ذلك الحين •

قال ميتيا مفكراً :

ـ سبق أن ذكرتَ لي ذلك •

فأجابه أليوشا :

ـ ونقلتَ أنت هذا الكلام الى جروشنكا •

فقال ميتيا معترفاً :

ـ صحيح •

ثم أضاف وهو يلقي على أخيه نظرة خجلة وجلة :

ـ لن تأتى جروشنكا هذا الصباح • لن تأتى الا فى المسـاء • حين حكيت لهـا أمس أن كاتيـا تهىء أمر فرارى ، سـكتت فى أول الأمر وتقبضت شـفتاها ، ثم دمدمت تقول : « لها ما تشـاء » • لقد أدركت أن الأمر جد • لم أجرؤ أن أقول لهـا أكثر من ذلك • أحسب أنها تدرك الآن أن كاتيا لا تحبنى أنا ، وانما تحب ايفان •

فأفلت من أليوشا هذا السؤال :

ـ أأنت متأكد من هذا ؟

ـ ربما كنتُ مخطئاً فى ظنى •

ثم أسرع يضيف قوله :

ـ على كل حال ، لن تأتى هذا الصباح • لقد كلفتها بمهمة ستقوم بها ••• أما ايفان فانه خير منا جميعاً• هو الذى يستحق الحياة ، لا نحن• وسيُشفى •

قال أليوشا :

ـ تصور أن كاتيا رغم خوفها الشـديد عليه تكاد تكون واثقة بأنه سيُشفى •

ـ هذا برهان على أنها واثقة بأنه سيموت • فمن الخوف انما تحاول أن تقنع نفسها بأنه سيُشفى •

قال أليوشا فى قلق :

ـ ان أخانا ايفان قوى الجسم متين البنية • أنا أيضاً أتمنى بحرارة وقوة أن يبل من مرضه •

ـ سوف يبل من مرضه • ولكنها، هى ، واثقة بأنه سوف يموت•

وصمت الأخوان بضع لحظات • كان واضحاً أن هنــاك هماً ثقيــلاً يعذب ميتيا •

وانطلق ميتيا يقول فجأة بصوت راعش مثقل بالدموع :

ـ أليوشا ، اننى أحب جروشنكا حباً رهيباً •

فأسرع يقول له أليوشا :

ـ لن يسمحوا لها بأن تتبعك الى « هناك » !

فاستأنف ميتيا كلامه يقول بصــوتٍ أصبح مهتزاً مختلجاً على حين فجأة :

ـ اليك ما كنت أريد أن أقــوله لك أيضــاً • اذا ضربونى أثنــاء الطريق ، أو «هناك» ، فلن أحتمل ذلك ولن أسمح به : سـأقتل أحــداً فيرمموننى بالرصاص • أنّى لى أن أحتمل هذا عشرين سنة ! لقد بدأوا يخاطبوننى منذ الآن بصيغة المفرد هنا • الحرس ينادوننى بقولهم «أنت» • لبثت أفكر وأتساءل طوال الليل • لا ، لست مستعداً ، لست قادراً على أن أحتمل هذا المصير ! لقد أردت أن أنشد «نشيداً» ، وهأنا ذا أعجز عن احتمال أن يخاطبنى حارس من الحرس بصيغة المفرد ! لو كانوا سيأذنون لجروشــنكا بأن تصحبنى لاحتملت كل شىء فى ســبيلها ••• الا الضرب طبعاً ••• ولكنهم لن يأذنوا لها بذلك •

ابتسم أليوشا ابتسامة رقيقة عذبة ؟ وبدأ الكلام فقال :

ـ اسمع يا أخى • اليك رأيى فى هذا الموضوع ، أعلنه لك مرةً واحدة الى الأبد • أنت تعلم حق العلم أننى لن أكذب عليك • فاسمع : أنت غير مهيأ ، وذلك الصليب لم يُخلق لك • أكثر من ذلك : ليس من الضرورى البتة أن تقبل عذاباً شديداً يفوق طاقتك • لو كنت قد قتلت

أباك لما ارتضيت لك أن ترفض المحنة • ولكنك برىء ، وهذه الكفارة فوق ما تطيق • كنت تريد أن تتألم لتخلق نفسك خلقاً جديداً ، ولتصبح انساناً آخر • فى رأيى أنه يكفيك أن تظل طول حياتك تفكر فى هذا الانسان الآخر ، وأن يظل هذا الانسان الآخر ماثلاً أمامك حيثما وُجدت ، وأينما هربت • ذلك كاف من جهتك • وأن رفضك احتمال عذاب أشد لن يكون من شأنه الا أن يعزز شعورك بواجبك ، وهذه الفكرة الدائمة المستمرة التى ستتبعك حيثما تذهب قد تساهم مزيداً من المساهمة فى خلقك خلقاً جديداً لا يتحقق لك من وجودك « هناك » ؟ ذلك أنك لن تحتمل نظام الحياة هناك ، فاذا أنت تثور وتتمرد وتقول لنفسك آخر الأمر فعلاً : « هأنا ذا الآن براء تجاه المجتمع » • لقد صدق المحامى حين قال هذا الرأى • ان من المحن القوية ما لا طاقة لكل انسان به • ان من الناس من لا يستطيعون احتمال مثل هذه المحن • تلك هى آرائى ما دمت حريصاً كل هذا الحرص على معرفتها •

ثم أضاف أليوشا يقول مبتسماً :

ـ لو كان سيعاقب على هربك أشخاص آخرون ـ كالضباط أو الجنود ـ لما « سمحتُ » لك بأن تهرب • ولكن يظهر أن فى امكاننا ، بشىء من الحذق والبراعة ، أن نجنبهم المتاعب ، وفى امكانهم أن يخرجوا من الأمر بغير كبير عناء (رئيس المحطة نفسه أكد هذا لايفان) • صحيح أن رشوة الموظفين عمل غير شريف ، حتى فى حالة من هذا النوع ؛ ولكننى أمتنع هنا عن ابداء رأى واصدار حكم • فلو كلفنى ايفان أو كلفتنى كاتيا بأن أتولى هذا الأمر من أجلك ، لما أحجمت عن استعمال الرشوة • أنا أعلم ذلك • ان من واجبى أن أقول لك الحقيقة كلها فى هذا الموضوع • ولذلك لا أصلح أن أكون قاضياً يحكم على ما قد تفعله • ولكن ثق على الأقل أننى لن ألومك ولن أدينك • وأنَّى لى أن أكون

قاضيك في هذه المسألة ! هذا كل شيء • أحسب انني قلت كل ما كان يجب عليّ أن أقوله في هذا الصدد •

هتف ميتيا يقول :

ــ ولكنني سأدين نفسي بنفسي • سوف أهرب ، هذا أمر مفروغ منه ، هذا أمر تقرر حتى قبل أن تكلمني فيه • وهل يستطيع ميتكا كارامازوف الا أن يهرب ؟ هه ! ••• ولكنني سأدين نفسي بنفسي بعد ذلك ، وسأكفر عن هذا الذنب طوال حياتي في البلد الذي سألجأ اليه • قل لي : أليس يفكر اليسوعيون هكذا ؟ ألا يتكلمون كما نتكلم نحن الآن ؟

ــ بلى ••• هكذا يفكرون •

بهذا أجاب أليوشا وهو يبتسم برفق وهدوء • فصاح ميتيا يقول وهو يضحك بفرح ومرح :

ــ أحب فيك أنك تقول الحقيقة دائماً ولا تخفي شيئاً • هأنا ذا اذن قد فاجأت أليوشا متلبساً بما يفعله يسوعي ! وددت لو أقبلك من أجل هذا ، هل تعلم ؟ اسمع اذن ما أريد أن أقوله لك أيضاً ، لأنني أريد أن أفتح لك النصف الثاني من نفسي كذلك • اليك القرار الذي اتخذته بعد أن فكرت فيه ملياً وأنضجته طويلاً ووزنته من جميع النواحي : هبني هربت ، بمال وجواز سفر ، فأقمت في أمريكا • سوف يعزيني ويواسيني ويشد أزري ويقوي عزيمتي أن أتصور أنني اذ أهرب لا أهرب لأفرح وأسعد ، وانما أهرب لألقى نفسي في سجن آخر مختلف عن السجن الذي كنت سأودع فيه هنا ، ولكنه سجن على كل حال ، سجن يعدل السجن هنا أو هو أسوأ منه • أوه ! انني أمقت أمريكا هذه منذ الآن ••• شيطان يأخذها !••• وستكون جروشنكا معي •••

طيب ... ولكن فكّر قليلاً : ما الذى فى جروشنكا من امرأة أمريكية ؟ فيم تشبه جروشنكا امرأة أمريكية ؟ انها روسية ، روسية حتى النخاع من عظامها ، وستشعر هنالك بالحنين الأليم الى الارض التى ولدت فيها . وسوف أرى فى كل لحظة أنها من أجلى انما ارتضت عذاب النفس هذا ، وأنها فى سبيلى انما حملت ذلك الصليب ، هى التى لم تقترف ذنباً ولم ترتكب اثماً ! وأنا ؟ هل تظن اننى سأستطيع أن أطيق معاشرة أولئك الجفاة من سكان تلك البلاد حتى ولو كانوا كلهم خيراً منى ؟ أننى أكرهها منذ الآن ، أمريكا هذه ! شيطان يأخذ سكان تلك البلاد ولو كانوا جميعاً ، من أولهم الى آخرهم ، تكنيكيين من الطراز الأول ! ذلك أنهم ليسوا هم الناس الذين يحبهم قلبى ، ليسوا هم البشر الذين يستهوون فؤادى ! أنا أحب روسيا يا ألكسى ، أنا أحب الهنا الروسى ، رغم أننى لست أنا نفسى الا انساناً شقياً تافهاً . ولكنى سأختنق هنالك ، سأختنق ...

بهذا هتف ميتيا فجأة وقد سطعت عيناه واختلج صوته . ثم أردف يقول مسيطراً على انفعاله :

ـ فاليك ما عقدت عليه العزم يا ألكسى . اصغ الىّ : سأذهب مع جروشا ، فمتى وصلنا الى هناك اندفعنا نعمل فوراً : نستصلح الأرض ونحييها فى مكان بعيد لا تجاورنا فيه الا الدببة ، مكان هو أنأى ما يكون عن المناطق الآهلة بالسكان . لا بد أن توجد هنالك أماكن نائية مقفرة ! يُقال انه ما يزال يوجد فى أمريكا سكان حمر يعيشون فى أقاصى البلاد. فالى هناك سنذهب ... الى آخر قبائل الموهيكان سنلجأ ... وسنشرع ، أنا وجروشا ، فى دراسة قواعد اللغة على الفور ، لا نضيّع يوماً واحداً. ونقضى فى ذلك ثلاث سنين : نزرع الأرض وندرس قواعد اللغة . وفى نهاية تلك السنين الثلاث ، نكون قد أتقنا اللغة الانجليزية ، وأصبحنا نجيد الكلام بها كبريطانيين أصليين . فمتى تم لنا اتقان اللغة الانجليزية

اتقاناً كاملاً فلنا لأمريكا وداعاً ، وعدنا الى روسيا كمواطنين أمريكيين. ولكن لا تخف : لن نرجع الى هذه المدينة . وانما سنختفي في مكان ما ، بعيد عن هنا ، بالشمال ، وربما بالجنوب . والى أن نعود يكون قد تغير مظهري ، وتبدلت هيئتي ، ويكون قد حدث لها هي أيضاً مثل ذلك . ثم ان أحد أولئك الأطباء الأمريكيين سيستطيع أن يجري تعديلاً في ملامح وجهي ، كأن يزرع في خدي شامة اصطناعية مثلاً ! انهم هناك بارعون في التكنيك ! وسأفقأ احدى عيني اذا اقتضى الأمر ذلك ، وسأرخي لحيتي طويلة جداً ، بيضاء كل البياض (ذلك أن لحيتي ستكون قد شابت بسبب ماأكون قد قاسيت من حنين الى الوطن). وبذلك آمل أن لا أعرف حين أعود . واذا افتضح أمري رغم ذلك ، فلا ضير ... سيرسلونني عندئذ الى المعتقل في سيبيريا ... سيكون ذلك قدراً ولا شك ! ... وهنا أيضاً ، في روسيا ، سنحرث الأرض في ركن ناءٍ بعيد ، وسأظل أتظاهر حتى الممات بأنني أمريكي . هكذا سيتاح لنا على الأقل أن نموت في وطننا وأن نُدفن في تراب بلدنا . تلك هي خطتي ، وذلك هو قراري الذي لن أرجع عنه . هل تؤيدني في هذا ؟

ـ أؤيدك .

كذلك قال أليوشا الذي لم يشأ أن يعاكسه ويغيظه . وصمت ميتيا لحظة ثم هتف يقول :

ـ ما أسد ما شوهوا الوقائع في المحاكمة ! يا لها من مسرحية !

فقال أليوشا وهو يتنهد :

ـ حتى بدون ذلك كانوا سيحكمون عليك .

فاستأنف ميتيا كلامه قائلاً بصوت فيه ألم :

ـ نعم ، لقد ضاقوا بى فى هذه المدينة ؛ سامحهم الله ، ولكن هذه قسوة فظيعة ...

وساد الصمت مرة أخرى . ثم قال ميتيا فجأة :

ـ أليوشا ، يجب أن أعرف حتماً : أهى آتية أم لا ؟ أجب ... ماذا قالت لك ؟ بماذا وعدتك ؟

قال أليوشا :

ـ وعدتنى بأن تجىء ، ولكننى لا أدرى هل تستطيع أن تجىء اليوم .

ثم أضاف وهو يلقى على أخيه نظرة خجلى :

ـ ليس هذا سهلاً عليها .

قال ميتيا :

ـ أقدّر ان هذا ليس سهلاً عليها . وكيف يكون سهلاً ! أليوشا ، اننى أكاد أُجن . ان جروشا لا تكف عن التفرس فىّ . يبدو أنها تدرك . آه ... رباه ! اللهم ألهمنى الصبر ! أنظر ماذا اطلب الآن : اننى اطلب كاتيا ، لا بد لى من كاتيا ... أأنا أدرك ما الذى أريده بهذا ؟ هذه حمى آل كارامازوف ! هذا هو اندفاعنا المخزى ! لا ، لست قادراً على على أن أتألم ، واأسفاه ! ما أنا الا انسان شقى تافه ... ذلك كل شىء !...

فى تلك اللحظة صاح أليوشا :

ـ هى ذى !

كانت كاتيا قد ظهرت فى عتبة الباب . وتوقفت بضع لحظات تتأمل

ميتيا بنظرة زائغة تائهة • وثب ميتيا واقفاً على قدميه ، وعبّر وجهه عن ذعر ، وامتقع لونه ، ولكن سرعان ما ارتسمت على شفتيه ابتسامة مذلة وضراعة ، ومدّ ذراعيه فجأة نحو كاتيا بحركة لا تقاوَم • فاستجابت كاتيا لهذه البادرة ، واندفعت اليه ، فأمسكت يديه ، وأجلسته على مضجعه عنوةً ، وجلست الى جانبه وهي ما تزال ممسكة يديه ، وأخذت تضغط عليهما ضغطاً قوياً عنيفاً يشبه أن يكون تشنجاً • وأرادا أن يتكلما عدة مرات ، ولكنهما أمسكا عن الكلام في كل مرة ، لينظر كل منهما في الآخر صامتاً ، مبتسماً ابتسامة غريبة ، وكأن كلاً منهما قد شُدّ الى صاحبه والتصق به •

دمدم ميتيا أخيراً :

ـ هل غفرت لي ؟

والتفت في اللحظة نفسها نحو أليوشا ، وصرخ يسأله وقد التهب وجهه بفرح عظيم :

ـ هل تسمع ماذا أسألها ؟

وهتفت كاتيا تقول فجأة :

ـ لأن لك قلباً كريماً هذا الكرم انما أحببتك • ولكن لست أنا من يغفر لك ، لأنني أنا التي احتاج الى غفرانك • ولكن ليس هذا بالأمر الهام ••• لأن هذا الجرح سيظل نازفاً في قلبي طول حياتي سواء أغفرت أم لم تغفر • ستكون أنت عذابي ، وسأكون أنا عذابك • حسن هذا •••

وتوقفت كاتيا عن الكلام لتسترد أنفاسها ؛ ثم استأنفت تقول متعجلةً بصوتٍ أصبح شديد الحماسة والحرارة على حين فجأة :

ـ هل تدري لماذا أتيت اليك ؟ لأقبّل قدميك ، لأشد على يديك ، هكذا ، الى حد ايلامك ، كما كنتُ أفعل في موسكو ، أما زلت تتذكر ؟

نعم ، جئت لأقول لك مرة أخرى انك أنت الهى ، انك أنت فرحتى ، ولأصرخ أمامك ملء حنجرتى : انى أحبك حب الجنون •

صاحت تقول ذلك بصوت كأنه الأنين ، ثم أطبقت بشفتيها على يد ميتيا فجأة ، وأخذت تتدفق من عينيها دموع •

لبث أليوشا صامتاً متحيراً : انه ما كان له قط أن يتوقع مشهداً كهذا المشهد •

وتابعت كاتيا كلامها فقالت :

ـ الحب قد انقضى يا ميتيا ، غير أن ما انقضى يظل عزيزاً فى نفسى الى حد الألم • تذكر هذا الى الأبد •

ثم دمدمت تقول وهى تبتسم ابتسامة متشنجة ، وتحدق الى عينيه من جديد بنظرة فيها تعبير عن فرح :

ـ لنفرض ، خلال لحظة ، أن ما حلمنا به قد تحقق • أنت تحب الآن امرأة أخرى ، وأنا أحب رجلاً آخر • لا بأس ••• سأظل أحبك مع ذلك الى الأبد ••• وستظل تحبنى أنت أيضاً • أكنت تعرف ذلك ؟ هل تسمع ؟ أريد أن تحبنى ، أريد أن تحبنى مدى الحياة !

كذلك صاحت بهذه الجملة الأخيرة وفى صوتها ارتعاش يشبه أن يكون تهديداً •

أجابها ميتيا وهو يتوقف بعد كل كلمة من كلماته ليسترد أنفاسه :

ـ سأحبك ، نعم ••• هل تعلمين أننى كنت أحبك أيضاً منذ خمسة أيام ، فى ذلك المساء ••• حين أُغمى عليك ونُقلت من قاعة المحكمة ••• سأحبك طول حياتى ! ذلك ما سيكون ، ذلك ما سيكون الى الأبد •••

هكذا أخذا يتبادلان أقوالاً طائشة تفيض حماسة وحمياً ، ولعلها تفيض كذباً . ولكن كل شيء قد أصبح في تلك اللحظة صدقاً وحقيقة ، وكانا كلاهما مخلصين كل الاخلاص .

وصاح ميتيا يسألها فجأة :

ـ كاتيا ، أتعتقدين بأنني قتلت ؟ أنا أعلم أنك لا تعتقدين الآن بذلك ... ولكن في تلك المرة ... أثناء ادلائك بشهادتك أمام المحكمة ... هل يمكن حقاً أن تكوني قد اعتقدت بأنني قتلت ؟

ـ لا ، لم أعتقد بذلك حتى حينذاك ! لم أعتقد بذلك في وقت من الأوقات ! ولكنني كرهتك في تلك الآونة ، فأقنعت نفسي خلال لحظات بأنك القاتل ... أقنعت نفسي بذلك في تلك الدقيقة ذاتها التي أدليت فيها بشهادتي ... أقنعت نفسي بذلك ، فسرعان ما اقتنعت ... ثم كففت عن الاقتناع منذ انتهيت من الادلاء بشهادتي . أريد أن تعرف هذا . لقد نسيت انني انما جئت الى هنا لأعاقب نفسي .

أضافت كاتيا ذلك وقد تبدل تعبير وجهها فجأة وأصبح صوتها لا يشبه في شيء ذلك الصوت الذي كان يتمتم بكلمات الحب الرقيقة منذ قليل .

قال ميتيا فجأة وقد فقد كل تحفظ :

ـ روحك معذبة يا امرأة .

فدمدمت كاتيا :

ـ دعني انصرف . سأعود اليك ، أما الآن فلا أطيق البقاء . انني متألمة .

ونهضت لتنصرف . ولكنها سرعان ما أطلقت صرخة حادة

وتراجعت الى وراء . كانت جروشنكا قد ظهرت في الغرفة . لقد دخلت بغير ضجة ، ولم يكن يتوقع احد أن يراها . اتجهت كاتيا نحو الباب مسرعة ، ولكنها ما ان وصلت الى مستوى جروشنكا حتى توقفت فجأة ، ودمدمت تقول لها بصوت فيه أنين وتوجع وقد صار وجهها كالشمع اصفراراً :

ـ اغفري لي !

فحدقت اليها جروشنكا تحديقاً متفرساً ، حتى اذا انقضت بضع ثوان أجابتها بصوت مسموم يفاقمه الكره :

ـ كلتانا شريرة . نحن متساويتان في الشر . فعلام تغفر كل منا للأخرى . أنقذيه ، فأدعو لك الله الى آخر أيامي !

صرخ ميتيا يقول لجروشنكا بلهجة عتاب شديد :

ـ لم تشائي أن تغفري لها ؟

ودمدمت كاتيا تقول بسرعة :

ـ لا تخافي ! سأنقذه .

وأسرعت تفر من الغرفة .

وعاد ميتيا يهتف قائلاً بمرارة :

ـ كيف رفضت أن تغفري لها ؟

فتدخل أليوشا يقول بحرارة :

ـ لا تلمها يا ميتيا ! ليس من حقك أن تلومها !

وأجابت جروشنكا تقول باشمئزاز :

ـ لم يصدر كلامها من أعماق نفسها ، وانما أوحاه اليها العجب والكبر والصلف . ألا فلتنقذك فأغفر لها عندئذ كل شيء !

وصمتت كأنما لتكبت العواطف التى كانت تجتاح نفسها . لم تكن قد ثابت الى هدوئها ، وقد جاءت مصادفة كما اتضح ذلك فيما بعد ، دون أن تتوقع لقاء كهذا اللقاء .

قال ميتيا وهو يلتفت بحركة قوية نحو أخيه :

ـ أليوشا ، حاول أن تلحق بها ... واشرح لها ... قل لها ... لا أدرى ماذا ... ولكن لا تدعها تتصرف على هذه الحال !

فصرخ أليوشا يقول وقد اندفع فى اثرها :

ـ سأعود اليك هذا المساء !

وأدركها فى الشارع . كانت تسير بخطى سريعة ، وتبدو مستعجلة ، ولكنها حين أبصرت أليوشا قالت له بلهجة قوية :

ـ لا ، يستحيل على أن أذل نفسى أمام تلك المرأة ! وانما سألتها أن تغفر لى ، لأننى أردت أن أمضى فى التضحية الى نهايتها ، أن أشرب الكأس حتى الثمالة . وقد منعت عنى غفرانها . فمرحى لها ... اننى أحبها لموقفها هذا !...

أضافت كاتيا عبارتها الأخيرة هذه بصوت متشنج ، وطاف بعينها لهيب من كره وحشى !

دمدم أليوشا يقول :

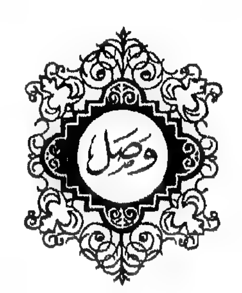
ـ لم يكن يتوقع أخى حضورها . كان واثقاً بأنها لن تجيء !

فقالت تحسم الحديث :

ـ لا أشك في ذلك • ودعنا من هذا • اسمع : يستحيل على أن أذهب معك الآن الى الجنـازة • لقد بعثت اليهم بأزهـار للنعش • أظن أنهم ما يزال معهم بقيـة من مال • قل لهـم ، اذا لزم الأمر ، أنني لن أتركهم في المسـتقبل أبدآ ••• والآن دعني ، دعني ، أرجوك ••• هأنت ذا قد تأخـرت منـذ الآن ، فلن تدرك الا القـداس الثـاني ••• اتركني ، أضرع اليك !

٣

جنازة ايليوشا . التأبين قرب الصخرة



أليوشا متأخراً بالفعل • كانوا ينتظرونه ، وقد هموا أن يذهبوا الى الكنيسة بدونه ، حاملين النعش الصغير المزيَّن بالأزهار تزييناً جميلاً • انه نعش ايليوشا ، الصبى المسكين • لقد مات بعد الحكم على ميتيا بيومين • استُقبل أليوشا أمام باب المنزل بصرخات الأطفال رفاق الصبى الراحل • كانوا جميعاً ينتظرونه بصبر نافد ، وابتهجوا أخيراً بوصوله • ان عددهم اثنا عشر صبياً يحملون حقائب المدرسة على ظهورهم • كان ايليوشا قد قال لهم قبل موته : « سيبكى بابا ، فابقوا الى جانبه » ، وتذكر الأطفال وصيته • وكان على رأسهم كوليا كراسوتكين •

هتف كوليا وهو يمد يده الى أليوشا :

ـ ما أسعدنى برؤيتك يا كارامازوف ! ان ما يجرى هنا رهيب • ان ما يجرى هنا تمزق رؤيته القلب • ليس سنيجريف سكران • نحن نعلم أنه لم يشرب اليوم شيئاً البتة ، ولكنه كالسكران • اننى قوى القلب رابط الجأش ، ولكن هذا المنظر رهيب • لا أريد أن أؤخرك يا كارامازوف ، ولكن هل يمكننى أن ألقى عليك سؤالاً واحداً قبل أن تدخل ؟

سأله أليوشا وقد توقف عن السير :

ـ ماذا يا كوليا ؟

ـ هل أخوك مذنب أم هو برىء ؟ أهو الذى قتل أباك ، أم القاتل هو ذلك الخادم ؟ سوف أؤمن برأيك ايمانى بقانون . ان هذا السؤال قد حرمنى النوم أربع ليال .

أجابه أليوشا :

ـ الخادم هو الذى قتل . أخى برىء .

فهتف الفتى سموروف يقول فجأة :

ـ ذلك هو رأيى أنا أيضاً .

صاح كوليا يقول :

ـ اذن سيهلك بريئاً ، سيهلك شهيداً من شهداء الحقيقة . لقد هوى ، ومع ذلك لا بد أن يكون سعيداً ! ألا اننى ، من جهتى ، لمستعد أن أغبطه وأحسده !

قال أليوشا مدهوشاً :

ـ كيف ؟ كيف يمكنك أن تقول مثل هذا الكلام ؟

فأجابه كوليا بحماسة :

ـ أوه ! لشد ما أتمنى أن أضحى بنفسى يوماً فى سبيل الحقيقة .

قال أليوشا :

ـ ولكن لا فى قضية من هذا النوع ، فيما أتخيل ... لا فى مثل هذا الجو من الخزى والهول !

ـ طبعاً ... أنا أتمنى أن أموت فى سبيل الانسانية كلها . أما هذا الخزى الذى تشير اليه فلا قيمة له ! ألا سحقاً لأسمائنا ! اننى أحترم أخاك .

ـ وأنا أيضاً احترمه .

كذلك قال صوت آخر فى جماعة التلاميذ ، على نحو لم يكن متوقعاً . انه صوت ذلك الصبى الذى أكد فى الماضى أنه يعرف أسماء بناة طروادة ؛ وكما حدث فى المرة السابقة اصطبغ وجهه بحمرة شديدة.

دخل أليوشا الغرفة . كان ايليوشا مسجًّى فى نعش صغير أزرق مزدان بتخريم أبيض ، وقد أُغمضت عيناه وضُمت يداه . ان ملامح وجهه الناحل لم تكد تتغيرَّ . والأمر الغريب أنه ما من رائحة تعفن تفوح من جثته . وكانت يداه جميلتين جمالاً خاصاً . انهما متصالبتان على صدره ، يحس المرء حين يراهما أنهما مقدودتان من مرمر . وكان وجهه يعبِّر عن الجد ، وكأنه يعبر عن تفكير . وقد وضعت بين أصابعه أزهار . وكان النعش كله ، من جهة أخرى ، مزداناً فى الباطن والظاهر بأزهار أرسلتها ليزا هوخلاكوفا منذ الصباح.. وقد وصلت الآن أزهار أخرى أرسلتها كاترين ايفانوفنا ، ففى اللحظة التى فتح فيها أليوشا الباب كان الكابتن ينثر تلك الأزهار الجديدة على جسد ابنه الحبيب بيدٍ مرتعشة . لم يكد ينظر الى أليوشا . وكان غير عابىء بأحد على كلّ حال ، حتى ولا بامرأته الخرفة التى كانت تبكى وتحاول أن تنهض على ساقيها المريضتين لتتأمل طفلها الميت من قرب . أما نينا فكان التلاميذ قد نقلوها على كرسيها وجعلوها قرب النعش ، فهى الآن مسندةٌ رأسها الى النعش ، ولا شك أنها تبكى هى أيضاً فى صمت . وكان وجه سنيجيريف يعبِّر عن حركة ونشاط ، غير أن فيه شراسة وشكاسة على شىء من قسوة . كان فى اشاراته وحركاته جنون ، وكذلك فى الأقوال الذى

تنطلق من لسـانه . كان يصيح فى كل لحظة قائلاً : « بنىّ الصغير الشهم ، بنىّ الصغير الشجاع ! » . لقد كان يحب ، حتى أثناء حياة ابنه ، أن يناديه بقوله : « بنىّ الشهم الشجاع ! » .

قالت الأم الخرفة وهى تنتحب :

ـ بابا ، اعطنى بضعة أزهار أنا أيضاً . خذ منه هذه الزهرة البيضاء التى يمسكها بيده ، واعطنى اياها !

أكانت تلك الوردة الصغيرة البيضاء هى التى أعجبتها ذلك الاعجاب كله ، أم هى كانت تود أن تحتفظ بالزهرة التى يمسكها ابنها بيده ، ذكرى منه ؟ لا أحد يعلم ، ولكن الأم كانت تضطرب اضطراباً رهيباً وهى تمد يديها نحو الزهرة المشتهاة .

صرخ سنيجيريف يقول بلهجة قاسية :

ـ لن أعطيها أحداً ، لن أعطى شيئاً . هذه الأزهار له هو ، لا لك أنت ! كل شىء له هو ، وليس لك شىء البتة !

قالت نينا فجأة وهى ترفع وجهها المبلل بالدموع :

ـ بابا ، اعط ماما زهرة !

ـ لن أعطى شيئاً ، لن أعطيها هى خاصةً ، لأنها لم تكن تحبه ! لقد أخذت منذ هذا المدفع الصغير من قبل ، وارتضى هو أن يهديه اليها .

كذلك قال الكابتن وهو ينفجر باكياً من ذكرى اليوم الذى تنازل فيه ايليوشا عن لعبته لأمه من تلقاء نفسه .

غطت المجنونة المسكينة وجهها بيديها ، وأخذت دموعها تسيل .

واذ لاحظ الصبية أن الأب لا يترك ابنه ، مع أنه آن أوان نقله ، فقد تحلقوا حول الميت الصغير حلقة كثيفة ، وأخذوا يُنهضون النعش .

زأر سنيجيريف يقول فجأة :

ـ لا أريد دفنه فى المقبرة • سوف أدفنه قرب الصخرة ، قرب صخرتنا • هذا ما أراده ايليوشا • لن أسمح بنقله •

الواقع أن سنيجيريف كان يؤكد منذ ثلاثة أيام أنه سيدفنه قرب الصخرة • احتج الحاضرون • وأخذ أليوشا وكراسوتكين وصاحبة البيت وأختها وسائر الصبية ، أخذوا يحاولون اقناعه •

قالت صاحبة البيت العجوز :

ـ يا للفكرة العجيبة ! كيف يُدفن قرب صخرة حقيرة كأنه منبوذ • المقبرة فيها صلبان وأرضها مباركة مقدسة • والناس يجيئون اليها فيصلون على روحه • وأناشيد الكنيسة تصل الى هناك ، وللشماس صوت يبلغ من قوة الرنين والوضوح أن أقواله يمكن أن يسمعها الصبى كأنها تُتلى على قبره •

وأخيراً حرّك الكابتن يده باشارة تنم عن الاذعان والرضوخ وكأنه يقول : « خذوه حيث شئتم ! » • أنهض الصبية النعش وساروا به ، حتى اذا مروا بالأم توقفوا لحظةً وأحنوه لتستطيع أن تودع ايليوشا الوداع الأخير • فلما رأت الأم فجأةً ، من قرب ، ذلك الوجه الصغير الغالى الذى كانت تتأمله منذ ثلاثة أيام من بعد ، أخذت ترتعش وهى ترجح رأسها الأشيب ترجيحاً هسترياً من أمام الى وراء ، فوق النعش •

صرخت نينا تقول للأم :

ـ ماما ، ارسمى عليه اشارة الصليب وباركيه !

ولكن المجنونة ظلت تهز رأسها صامتةً كأنها آلة تتحرك بغير ارادة ، وقد تشنج وجهها على ألم شديد ؟ وفجأةً أخذت تلطم صدرها

بقبضة يدها . وابتعد الصبية بالنعش . فلما مروا باخته نينا ألصقت الفتاة شفتيها بشفتى أخيها المتوفى مرة أخيرة . وحين خرجوا من الدار اتجه أليوشا الى صاحبة البيت فرجاها أن تهتم بأمر الباقين ، ولكن صاحبة البيت لم تتح له أن يتم كلامه فقالت :

ـ أعرف واجبى . لن أتركهم . نحن أيضاً مسيحيون !

وكانت العجوز تبكى أثناء كلامها .

لم تكن الكنيسة بعيدة . انها على مسافة ثلاثمائة خطوة فى أكثر تقدير . وكان النهار مضيئاً هادئاً ، على شىء من صقيع . وكانت أصوات النواقيس تُسمع مؤذنةً بالصلاة . ان سنيجيريف يركض وراء النعش مضطرب الحركة ، زائغ البصر ، تائه الهيئة ، مرتدياً معطفه العتيق القصير الذى يشبه أن يكون كساءً من أكسية الصيف ، حاسرَ الرأس يمسك بيده قبعته المهترئة الطويلة الحواف ، المصنوعة من لباد . كان كمن تملأ ذهنه مشاغلُ لا سبيل حلها ؛ هو تارةً يمد ذراعه على حين فجأة ليساعد فى حمل النعش فلا يزيد على أن يعوق أولئك الذين يحملونه ، وهو تارةً أخرى يهرع الى جانب محاولاً أن يصطف فى الموكب . وسقطت زهرة على الثلج ، فأسرع يلتقطها كأن سقوطها هذا يمكن أن يؤدى الى عواقب خطيرة لا يعلم الا الله ما هى !

وصرخ يقول مذعوراً على حين فجأة :

ـ رغيف الخبز ! نسينا الرغيف !

ولكن الصبية نبهوه الى أنه قد أخذ الرغيف ، وأن الرغيف هو الآن فى جيبه . فأسرع يخرجه ، حتى اذا تأكد من وجوده اطمأن باله . وقال لأليوشا شارحاً :

ـ ان ايليوشا هو الذى أمر بهذا • كان لا ينام الليل ، وكنت أجلس قربه • وفجأة أمرنى قائلاً : « بابا ، حين يهيلون على قبرى التراب ، فانثر فوقه فتات خبز فتتهافت عليه العصافير ، فأسمع صوتها ، فلا أشعر بأننى وحيد • » •

قال أليوشا :

ـ فكرة حسنة • يجب فعل ذلك أحياناً كثيرة •

ـ كل يوم • سأفعل هذا كل يوم !

بهذا أجاب الأب متحمساً •

ووصل الموكب أخيراً الى الكنيسة ، ووضع النعش فى وسطها ، وأحاط به الصبية يحرسونه بأبهة وجلال الى آخر القداس • انها كنيسة قديمة فقيرة ، وان عدداً كبيراً من أيقوناتها معلق بغير أُطر • وفى كنائس من هذا النوع انما يُصلى أحسن الصلاة فى أكثر الأحيان • بدا على سنيجريف أثناء القداس أنه هدأ قليلاً ، غير أن قلقاً لاشعورياً ، قلقاً ليس له سبب ظاهر ، كان يجتاح نفسه من حين الى حين • واقترب من النعش مرةً ليرتب الغطاء وليعدل العصابة التى تعصب جبين الميت * . وفى مرة أخرى سقطت احدى الشموع فأسرع يعيدها الى موضعها فشُغل بهذا العمل مدة طويلة • وعاد اليه الهدوء بعد ذلك من جديد ، فوقف عند التابوت مذعناً ، على شىء من قلق وحيرة فى تعبير وجهه • حتى اذا انتهت قراءة ما قرىء من الانجيل ، قال سنيجيريف لأليوشا هامساً فى أذنه (وكان أليوشا الى جانبه) : لم تكن القراءة « كما يجب أن تكون » ، ولكنه لم يشرح جوهر فكرته • وحين أُنشد نشيد الكروبيين ، صاحب الأب الانشاد بصوت خافت ، ولكنه لم يلبث أن توقف عن الانشاد فجأة وارتمى جاثياً على ركبتيه ، ثم سجد حتى التصق جبينه بالبلاط ، ولبث

على هذا الوضع مدة طويلة • وأخيراً تُليت صلاة الجنازة ، ووزّعت الشموع ، فاضطرب الأب عندئذ من جديد ، ولكن مهابة الغناء الجنائزى المؤثر لم تلبث أن نفذت الى قلبه فهدأت روعه ، ثم عاد الى ذاته ، وتجمع على نفسه ، وأخذ يبكى بنشيج قصير سريع ، خانقاً صوته فى أول الأمر ، تاركاً لألمه بعد ذلك أن ينفجر صاخباً غير مكظوم • حتى اذا آن أوان التوديع وأُريد اغلاق التابوت ، أسرع يحيطه بذراعيه كأنما ليحول دون اغلاقه ، وألصق شفتيه بوجه صغيره الميت ، وراح يغمره بالقبل فى ظمأ لا يرتوى ، وطفق يقبله على الفم مزيداً ومزيداً من التقبيل لا يريد أن يتوقف • وردُّوه أخيراً الى الصواب واستطاعوا أن ينحّوه • وفيما هو ينزل على الدرجات ، غيّر رأيه فجأة ، فأغار بذراعه على التابوت فاختطف منه بضع زهرات ، وأخذ يتأملها • ان فكرةً جديدة قد نبتت فى نفسه عندئذ ، حتى لكأنه نسى ، خلال لحظات ، الأمرَ الذى هو فيه • وهوى ، شيئاً فشيئاً ، الى نوع من تأمل عميق ، فلم يُظهر بعد ذلك مقاومة ولا معارضة حين أنهض التابوت الصغير لنقله الى القبر • كان القبر قريباً كل القرب ، فهو فى الحوش الى جانب الكنيسة • وقد تكلف ثمناً باهظاً تولت دفعه كاترين ايفانوفنا • وقام الحفارون بانزال التابوت فى القبر بعد اجراء الطقوس المألوفة ؛ فبلغ سنيجيريف (وكان يحمل الأزهار بيده) بلغ من شدة ميله على القبر المحفور أن الصبية أمسكوه من معطفه مذعورين وشدوه الى وراء • غير أن من يراه فى تلك اللحظة يخيّل اليه أنه أصبح لا يفهم ما يجرى حوله فهماً واضحاً • حتى اذا أهيلت على القبر أولى مجارف التراب ، خرج من خدره فجأةً ، فأشار بيده الى التراب الذى كان يتكوم ، ودمدم بعبارات غامضة لم يفهمها أحد • على أنه لم يلبث أن صمت فوراً • وذُكّر عندئذ بأن عليه أن ينثر فتات الخبز ، فاضطرب فجأة ، وأخرج الرغيف من جيبه ، وأخذ يفتته ،

مبعثراً فتاته على القبر ، مدمدماً في تشفع قلق : « هيَّا أسرعي ياعصافيري الصغيرة ! » • وقال له أحد الصبية ان الازهار التي يمسكها بيده تعوق حركته ، واقترح عليه أن يحملها عنه لحظات ، ولكنه أبى أن يعطيها ، حتى لقد بدا عليه ذعرٌ من تصور أن أحداً يريد انتزاعها منه • حتى اذا ألقى نظرة على القبر ، فاطمأن الى أن كل شيء قد تم على ما يرام ، وأن فتات الخبز قد نثر ، استدار فجأة ومضى متجهاً الى البيت وقد هدأ هدوءاً كبيراً على حين بغتة • ولكن خطواته اخذت تسرع شيئاً بعد شيء ، وأخذ يتعجل المشي مزيداً من التعجل حتى صار كمن يركض ركضاً • ولم يتركه أليوشا والصبية •

هتف يقول :

ـ أزهار للأم • لا بد من أزهار للأم • لا بد من أزهار للأم • لقد أوذيت الأم وأولمت •

ولفت أحدهم انتباهه الى أن عليه أن يضع قبعته على رأسه مخافة البرد ، فاذا بهذه الملاحظة تغضبه ، واذا هو يرمي قبعته على الثلج بعنف قائلاً :

ـ لا أريد قبعة ، لا أريد قبعة !

فمال الفتى سموروف على الثلج ، فتناول قبعة اللباد وتولى حملها• وكان جميع الصبية يبكون ، ولا سيما كوليا والصبي الذي اكتشف بناة طروادة • أما سموروف فكان يبكي بكاءً غزيراً هو أيضاً ، ممسكاً قبعة الكابتن بيده ، ومع ذلك أمكنه أثناء الطريق أن يتناول من الأرض قطعة قرميد كان يتلألأ احمرارها في الثلج ، فرماها في الهواء على سرب من العصافير ؛ فلم يصبها طبعاً ، فعاد ينضم الى جماعته وهو يبكي • وفي منتصف الطريق توقف سنيجيريف فجأة ، وشرد فكره نصف

دقيقة ، ثم اذا هو يستدير كأن فكرة مباغتة قد انبجست فى ذهنه ، واندفع يمضى نحو الكنيسة ، نحو القبر الصغير المهجور • ولكن الصبية لحقوا به وأدركوه فى مثل لمح البصر وأحاطوا به من جميع الجهات ليصدوه ، فتهاوى عندئذ على الثلج محطماً مهدم القوى ، وأخذ يئن منتحباً صائحاً :

ـ بنىّ الشهم الشجاع ايليوشا ، بنىّ الشهم الشجاع !

أنهضه أليوشا وكوليا محاولين أن يواسياه ويهدئاه •

دمدم كوليا يقول له :

ـ ما هذا يا كابتن ؟ ان على الرجل الشجاع أن يعرف كيف يحتمل الألم !

وقال له أليوشا :

ـ سوف تُفسد الأزهار ، بينما الأم تنتظرها • هى الآن فى البيت لأنك رفضت أن تعطيها بعض أزهار ايليوشا • وفى البيت أيضاً السرير الصغير الذى كان يرقد عليه ايليوشا •

فصاح سنيجيريف يقول وكأنه ذاكرته قد عادت اليه فجأة :

ـ نعم نعم ، لنركض الى البيت •

وأضاف يقول مذعوراً من تصور أنهم قد يُبعدون سرير ابنه :

ـ سوف يرفعون السرير ، سوف ينقلون السرير !

وأخذ يركض نحو البيت • ولم تكن المسافة الباقية طويلة • ووصل الجميع فى وقت واحد • وفتح سنيجيريف الباب بسرعة ، وصاح يقول لامرأته التى خاشنها تلك المخاشنة كلها منذ قليل :

ـ ماما ، ماما العزيزة ، ان ايليوشا يرسل اليك هذه الأزهار .

ثم أضاف يقول وهو يمد اليها الأزهار التى تجلدت وتكسرت بعض التكسر حين كان يتخبط فى الثلج :

ـ ماما المسكينة ! ان ساقيك مريضتان !...

ولكنه فى تلك اللحظة نفسها أبصر فى ركن من الأركان أمام سرير ايليوشا ، حذاءى ابنه اللذين رتبتهما صاحبة البيت هناك منذ هنيهة ـ وهما حذاءان عتيقان حال لونهما واهترأت أطرافهما ورقّعتا فى كل موضع ؛ فلما رآهما رفع ذراعيه وركع أمامهما ، فتناول أحدهما ، وأطبق عليه بشفتيه يقبلهما تقبيلاً نهماً ، ويئن قائلاً :

ـ بنىّ الشهم الشجاع ايليوشا ، بنىّ الشهم الشجاع ، أين هما الآن قدماك الصغيرتان الحلوتان ؟

فأعولت المجنونة تسأل بصوت ممزّق :

ـ الى أين أخذته ؟ الى أين أخذته ؟

وأجهشت نينا تبكى وتنتحب أيضاً . فخرج كوليا من الغرفة مسرعاً وتبعه الصبية الآخرون ، ولحق بهم أليوشا الى الخارج ، وقال يخاطب كوليا :

ـ لندعهم يبكون . ليس هناك ما نعمله الآن ، فلسنا نستطيع أن نعزيهم . لننتظر هنا بضع لحظات ، ثم نعود ندخل الغرفة .

قال كوليا مؤيّداً :

ـ نعم ، لا نستطيع أن نفعل الآن شيئاً . فظيع ، فظيع !

ثم أضاف يقول خافضاً صوته على حين فجأة حتى لا يسمعه أحد غير أليوشا :

ـ هل تعلم يا كارامازوف ! اننى أشعر بحزن رهيب ، وانى لمستعد أن أهب كل شىء فى العالم من أجل يُبعث حياً ، لو كان ذلك فى الامكان.

قال أليوشا ·

ـ وأنا أيضاً ٠ ولكن ذلك غير ممكن وا أسفاه !

ـ هل يجب علينا أن نعود اليهم فى هذا المساء ؟ ما رأيك يا كارامازوف ؟ ان من الجائز أن يكب على الشراب ويسكر !

ـ من الجائز فعلاً أن يسكر ٠ ولكننا سنجىء وحدنا نحن الاثنين٠ هذا كاف ٠ وسنقضى فى صحبتهم ساعتين ، مع الأم ونينا ٠ أما اذا جئنا جميعاً فقد نوقظ آلامهم ٠

كذلك اقترح أليوشا ٠

قال كوليا :

ـ ان صاحبة البيت تهيىء المائدة الآن ٠ أغلب الظن أنها تفعل ذلك اعداداً لوجبة احياء ذكرى الميت ٠ وسيجىء القس ٠ هل علينا أن نعود الى الغرفة يا كارامازوف ؟

أجابه أليوشا :

ـ حتماً !

ـ ما أغرب هذا كله يا كارامازوف ؟ أيكون الناس فى مثل هذا الألم ثم يأكلون الفطائر ؟ ما أكثر ما هنالك من أمور غريبة فى ديانتنا !

قال الفتى الذى اكتشف بناة طروادة ، قال فجأة بصوت عالٍ :

ـ هناك أيضاً سمك سومون ٠

فقال له كوليا بصوت ٍ حانق :

ـ أرجوك ملحاً يا كارتاشوف أن لا تتدخل في حديثنا بسخافاتك، لا سيما وأن أحداً لم يسألك عن شيء ، وأننا نؤثر أن نجهل وجودك !

فاحمر وجه الفتى احمراراً شديداً ولكنه لم يجرؤ أن يجيب • وكان الصبية يسيرون في الطريق على مهل ، فصاح سموروف يقول فجأة :

ـ تلكم هي صخرة ايليوشا ، الصخرة التي كان يُراد أن يدفن تحتها •

توقف الجميع أمام الصخرة ولبثوا صامتين ، فنظر اليهم أليوشا ، ورأى بخياله المشهد الذي قصه عليه سنيجيريف ، ورأى ايليوشا باكياً معانقاً أباه قائلاً له : « بابا ! حبيبي بابا ! ما أشد ما أذلك ! » • وتحرك شيء ما في نفس أليوشا عندئذ ، فطاف بنظرة رصينة ثابتة على هذه الوجوه الفتية النضرة الزاهية ، وجوه التلاميذ ، رفاق ايليوشا ، وقال لهم :

ـ يا أصدقائي ، أحب أن أوجه اليكم بضع كلمات هنا ، في هذا المكان بعينه •

فأحاط به الصبية وحدقوا اليه بأعينهم المنتبهة •

قال أليوشا :

ـ يا أصدقائي ، سنفترق عمّا قريب • أنا الآن مقيم في هذه المدينة قرب أخويّ اللذين سيُرحَّل أحدهما بعد مدة قصيرة ، أما الثاني فيُحتضر • ولكنني سأبارح هذه الديار قريباً ، وربما غبت عنها سنين طويلة • سنفترق اذن يا أصدقائي • لذلك اقترح عليكم أن نتعاهد هنا ، قرب هذه الصخرة التي كان ايليوشا يحب أن يقف عندها ، على أن لا ننسى الراحل الصغير أبداً • هذا أولاً ؛ وأن نتعاهد ثانياً على أن يتذكر

بعضنا بعضاً على الدوام • يجب علينا ، مهما يقع لنا فى هذه الحياة ، ولو طال فراقنا عشرين عاماً ، أن نتذكر دائماً هذا اليوم الذى دفنّا فيه الصبى المسكين الذى كنا نرميه بالحجارة قبل ذلك ـ قرب الجسر الصغير ، هل تتذكرون ؟ ـ ثم أصبحنا نحبه جميعاً كل هذا الحب • لقد كان فتى شهماً ، طيب القلب ، شجاعاً ، قوى الشعور بالشرف والاباء والشمم ، عميق الاحساس بالمرارة من الاهانة التى أُلحقت بابيه ، تلك الاهانة التى تمرد بسببها وثار • يجب أن نظل نتذكره طوال حياتنا • مهما يكن مصيرنا المقبل ، وأيةً كانت الأمور الخطيرة التى ستشغل فكرنا ، وسواء أأصبحنا نحتل مناصب عليا أم نزل بنا شقاء لم يكن فى الحسبان ، يجب أن لا ننسى أبداً هذا العهد الذى أسعدنا فيه شعورُنا بالاتحاد فى هذه المدينة على عاطفة طيبة بريئة طاهرة نحو الصبى الراحل ، وأسعدنا فيه هذا الحب الذى حملناه له والذى لعله جعلنا خلال هذه الفترة أحسن مما نحن فى الواقع • يا طيورى الصغار ـ اسمحوا لى أن أناديكم هكذا لأنكم جميعاً تشبهون طيور الحمام الجميلة ـ اننى أتأمل الآن وجوهكم التى تفيض طيبة ولطفاً ورقة ، فأقول لنفسى ، يا أبنائى الأعزة ، انكم قد لا تدركون أقوالى الآن لأننى فى كثير من الأحيان أعبّر تعبيراً غامضاً ، ولكنكم ستحتفظون بذكراها على الأقل ، ثم يأتى يوم تقروننى فيه على رأيى • ألا فاعلموا اذن أنه ليس فى حياتنا شىء أقوى ولا أطهر ولا أقدس من ذكرى طيبة ، ولا سيما اذا نفذت الى نفوسنا أثناء طفولتنا تحت سقوف منازل الآباء • ما أكثر ما يحدثكم الناس عن تربيتكم وتهذيبكم • ألا فاعلموا أن ذكرى مشرقة مقدسة يحملها المرء فى نفسه منذ طفولته هى خير تربية وأفضل تهذيب • ورب ذكرى مضيئة واحدة كهذه الذكرى تكون كافيةً لخلاصنا ولو لم يبق فى قلوبنا أى شىء سواها • قد نصبح أشراراً فيما بعد ، قد نعجز فى المستقبل عن مقاومة

فعل سيء ، قد نسخر من ألم الانسان ومن الناس الذين يحترقون شوقاً الى « التألم فى سبيل الانسانية » ، كما قال كوليا منذ قليل ، قد نستهزيء بمثل هؤلاء الناس فى خبث وشر ، ولكن مهما نصبح أشراراً ، لا سمح الله ، فسنظل نتذكر اليوم الذى دفنا فيه ايليوشا ، والحبّ الذى حملناه له فى الآونة الأخيرة ، وهذه المودة والصداقة والمحبة التى ترين على حديثنا فى هذه الدقيقة قرب هذه الصخرة • ان أشدنا ميلاً الى القسوة وحباً بالتهكم ـ هذا اذا أصبحنا قساة متهكمين فى يوم من الأيام ـ لن يجرؤ ، متى استيقظت فى خياله هذه الذكرى ، لن يجرؤ ، فى قرارة نفسه ، أن يسخر من العواطف الطيبة والمشاعر الكريمة النبيلة التى هزته أثناء هذه اللحظات • ومن يدرى ؟ ربما استطاعت هذه الذكرى أن تصده فى اللحظة المناسبة عن ارتكاب عمل سيء ، فمتى تذكرها ثاب الى ذاته وحدث نفسه قائلاً : « نعم ، لقد كنت فى ذلك الوقت طيباً شجاعاً شريفاً » • قد يبتسم قليلاً حين يتذكر هذا العهد ••• لا ضير ••• انه لأمر طبيعى أن يتندر الانسان على ما هو خير وطيب وبراءة • تلك خفة وطيش لا أكثر • ولكن أؤكد لكم يا أصدقائى أن أحدنا ما ان يبتسم قليلاً حينذاك حتى يبادر الى لوم نفسه فى قرارة قلبه قائلاً : « لا ، لقد أخطأت حين ابتسمت ، فلا مزاح فى هذه الأمور ! » •

هتف كوليا يقول وقد اسطعت عيناه :

ـ ذلك ما سيكون يا كارامازوف ! اننى أفهمك يا كارامازوف !

واضطرب الصبية الآخرون أيضاً ، وتمنوا أن يصيحوا قائلين شيئاً ما ، ولكنهم كبحوا جماح أنفسهم ، وحدّقوا الى الخطيب تحديقاً شديداً يفيض بالانفعال • وتابع أليوشا كلامه فقال :

ـ انما أقول لكم الآن هذا الكلام مخافة أن نصبح أشراراً • ولكن لماذا نتصور هذا الامكان ، علام نقدّر أن من الجائز أن نصبح أشراراً ؟

أليس كذلك يا أصدقائي ؟ ألا فلنكن ولنصبح أخياراً قبل كل شيء ، ولنكن شرفاء بعد ذلك ، ثم فليتذكر بعضنا بعضاً الى الأبد • انني ألح على هذا ؟ وأعاهدكم ، من جهتي ، على انني لن أنسى أي واحد منكم ! سأظل أتذكر ، ولو بعد ثلاثين عاماً ، كل وجه من وجوهكم هذه التي تنظر الىّ الآن • منذ قليل زعم كوليا للفتى كارتاشوف أننا نؤثر « أن نجهل وجوده بيننا » • ولكن انّي لي أن أنسى وجود كارتاشوف الذي أصبح لا يحمر في هذه اللحظة كما احمر حين ظن أنه اكتشف طروادة ، والذي ينظر الىّ الآن بعينيه الطيبتين الباشتين الفرحتين . يا أصدقائي ، يا أصدقائي الأعزة ، لنكن جميعاً كراماً شجعاناً كما كان الصغير ايليوشا ، لنكن جميعاً جسورين نبلاء أذكياء مثل كوليا (الذي سيتوهج ذكاؤه مزيداً من التوهج حين يكبر) ، ولنكن جميعاً خجولين على ذكاء وحلاوة مثل كارتاشوف ! ولكن لماذا أتكلم عن هذين الاثنين فحسب ؟ انني من اليوم أحبكم جميعاً يا أصدقائي ، فستحيون جميعاً في قلبي ، وأرجو أن أحيا في قلوبكم أيضاً ! من ذا الذي وحّدنا الآن على هذه العاطفة النبيلة الطيبة التي سنظل نتذكرها بغير انقطاع ، والتي سيظل يجب علينا وسنظل نريد أن نتذكرها بقية العمر ؟ من ذا الذي وحّدنا على هذه العاطفة الا ايليوشا ، ذلك الفتى الطيب الرائع ، ذلك الفتى الذي سنظل نحمل ذكراه الغالية الى الأبد ؟ نعم ، يجب أن نتذكر ايليوشا مدى الحياة ، يجب أن لا ننساه قط • ألا فلتعش في أرواحنا ، ألا فلتعش في قلوبنا ذكرى هذا الفتى الأبدية ، الآن والى آخر الزمان !

ـ نعم نعم ، ذكراه الأبدية !

كذلك ردّد جميع الصبية بأصواتهم الرنانة بينما كانت تُقرأ على قسمات وجوههم عاطفة قوية عارمة •

ـ ألا فلنتذكر وجهه ، فلنتذكر ثيابه ، وحذاءيه الصغيرين

الفقيرين ، ونعشه ، ألا فلنتذكر أيضاً أباه الشقى الخاطى ، ولنتذكر تلك الجرأة التى أظهرها ايليوشا فى دفاعه عنه ضد جميع تلاميذ الصف !

ــ نعم نعم ، فلنتذكر هذا كله ! لقد كان شجاعاً ، وكان طيباً !

بهذا راح يهتف الصبية من جديد •

وصاح كوليا قائلاً :

ــ آه ••• كم كنت أحبه !

ــ يا أصدقائى الأحبة ، يا أبنائى ، لا تخافوا الحياة ! ما أجمل الحياة حين يحقق المرء فى هذا العالم شيئاً من خير وعدل !

ــ نعم نعم ، صحيح •••

كذلك ردّد الصبية فى حماسة •

وقال صوت على حين فجأة ، هو صوت كارتاشوف فيما يبدو :

ــ نحن نحبك يا كارامازوف !

فكرر جميع الصبية قوله :

ــ نحن نحبك ، نحبك !

وسالت دمعة من أعين عدد كبير منهم •

وصاح كوليا يهتف بلهجة فيها حماسة :

ــ مرحى كارامازوف !

فأضاف أليوشا يقول بانفعال :

ــ وعاشت أبديةً ذكرى الميت الصغير !

فردد الصبية بصوت واحد :

ــ عاشت أبدية !

وقال كوليا سائلاً :

ـ كارامازوف ، هل صحيح ما يعلمنا اياه الدين من أننا سنُبعث أحيـاء بعد الموت في يوم من الأيام ، فيرى بعضنا بعضاً ، ونرى ايليوشا ؟

ـ هذه حقيقة مطلقة . لا شك في أننا سنبعث أحياء بعد الموت ، فنلتقي جميعاً ، ويقص بعضنا على بعض ضاحكاً ما وقع له .

بهذا أجاب أليوشا بين هزل وحماسة . فقال كوليا صائحاً :

ـ آه ... ما أروع هذا !

ـ كفانا الآن كلاماً ، وهيَّا بنا الى وجبة احيـاء ذكرى الميت . ولا تقلقنكم الفطائر التي سنأكلها . هذه عادة قديمة جديرة بالاحترام ، لها جانبها الجميل أيضاً . هيَّا بنا الى الطعام يداً بيد .

كذلك قال أليوشا ضاحكاً . فصاح كوليا يقول من جديد بصوت يفيض حماسة :

ـ نعم ، يداً بيـد ، وليكن الأمر كذلك على مدى حيـاتنا كلها . مرحى كارامازوف .

وردَّد سائر الصبية هتاف كوليا بصوت واحد .

حواش

٧ ★ « كان سكرتيراً حكوميا » : السكرتير الحكومى موظف من الدرجة الثانية عشرة وهى رتبة تقابل فى الجيش رتبة ملازم ثان ٠

٨ ★ « كوليا » : تصغير نيقولا

١٣ ★ « كتـــاب سماراجدوف » : هو « كتاب التاريخ العلم » الذى ســـبق أن جاء ذكره فى الجزء الأول من هذه الرواية ٠ راجع حاشية الصفحة ٢٩٩ من المجلد الاول من هذه الرواية ٠

١٧ ★ « ناستيا » : تصغير آناستازيا

١٩ ★ « كوستيا » : تصغير كونستانتين

٧١ ★ « قريب محمد أو الجنون النافع » : رواية فرنسية ماجنة من تاليف فروماجيه (١٧٤٢) وقد ترجمت الى الروســية سنة ١٧٨٥ فى عهد « حرية الطباعة » ٠ ولم تنشأ الرقابة الوقائية الا سنة ١٧٩٢ بعد ظهور الكتاب الثورى الذى ألفه ن ٠ آ ٠ راديشتيف ٠

٨٢ ★ « اللغات المندثرة » : المقصــود بهـــا هنا اللاتينية واليونانية القديمة ، أو ما يسمونه فى الغرب اللغات الكلاسيكية ٠ ومن المعروف أن وزير التعليم ، الكونت دمترى تولوستوى قد زاد زيادة كبيرة عدد ساعات تدريس اللاتينية واليونانية القـديمة فى المدارس الثـانوية ٠ وذلك اجراء كانت الاوساط اللبرالية تعده رجعيا ٠

٨٩ ★ « واعلم من جهة أخرى أننى لا آخذ على المسيح شيئا ٠٠٠ ولو عاش فى عصرنا لانضم الى الحركة الثــورية ٠٠٠ » : يروى دوستويفسكى فى «يوميات كاتب» (مجلة «المواطن» ١٨٧٣ ،

صفحة

العدد الاول) حديثه مع الناقد الشهير ف٠ج٠ بيلنسكى الذى مات سنة ١٨٤٩ ، فيقول ان بيلنسكى قال له : « ثق أن مسيحك لو ولد فى عصرنا لما كان الا انسانا تافها عاديا ، ولا محى أمام العلم المعاصر ومحركى الانسانية ٠٠٠ » ٠

٩٠ ★ « قرأت كلامه عن تاتيانا ٠٠٠ » : ان تاتيانا هى الشخصية الرئيسية فى رواية بوشكين التى هى أجمل أعماله : «أوجين أونيجين» ٠

٩١ ★ « الشعبة الثالثة » : هى ادارة الشرطة السياسية التى كان مقرها قرب «جسر الجنازير» على نهر فونتانكا ٠ والشطران التاليان مستمدان من قصيدة هجائية ساخرة نظمها الشاعر الفكاهى د٠ مينايف بمناسبة حفلات يلقى فيها الشعر على الشعب وتنظمها جمعية خيرية فى مبنى قريب ، ولكن ما لبث هذان البيتان أن أصبحا يقصدان «الشعبة الثالثة» ٠

٩١ ★ « الناقوس » : مجلة ثورية أصدرها آ٠ج٠ هرتسن فى لندن ٠

١٠٧ ★ « ألا فليعقل لسانى اذا نسيتك يا أورشليم ٠٠٠ » : المزمور المائة والسابع والثلاثون ، ٥ ــ ٦ ٠

١٣٠ ★ « الشائعات » : لعل الاشارة هنا الى مجلة « الصوت » ، التى أصدرها آ٠آ٠ كرايفسكى من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٨٣ ، وكانت ذات اتجاه لبرالى معتدل ٠

١٣١ ★ « سكوتو بريجونيفسك » : اسم فكه من اختراع المؤلف ٠

١٣٥ ★ «ان فى النية اقامة نصب تذكارى لبوشكين ٠٠٠» : كان الناس منذ سنة ١٨٦٠ يتكلمون عن اقامة نصب تذكارى للشاعر الكبير بوشكين ، وفى سنة ١٨٧١ أعلن فى الجرائد عن اكتتاب تبرعات ٠

١٦١ ★ « الايطيقا » : هى كلمة يونانية معناها علم الاخلاق ٠

١٦٢ ★ « كلود برنار » (١٨١٣ ـ ١٨٧٨) : هو عالم الفزيولوجيا الفرنسي المشهور ، مؤسس علم الامراض التجريبي • وقد نشرت عنه في الآونة التي بدأ فيها دوستويفسكي كتابة روايته طائفة كبيرة من المقالات • وان ميتيا يطلق اسم برنار على الماديين الملحدين •

١٦٣ ★ « لا جدال في الآراء » : قالها كوليا باللغة اللاتينية (de opinionibus non est disputandum) ، وهي تحريف للمثل اللاتيني القائل : « لا جدال في الأذواق » (de gustibus non est disputandum)

٢٣١ ★ « بيتر » : هو اسم التحبب المألوف الذي كان سكان بطرسبرج يطلقونه في الماضي على مدينتهم •

٢٣٦ ★ « لم أكن الا خادمك لتشاردا » : تعبير مستمد من قصة «بوفا، ابن الملك» ، وهي قصة شعبية جدا في روسيا • واسم لتشاردا هو تحريف لاسم رتشارد ، الخادم الوفي الأمين للملكة « الشقراء » •

٢٤٠ ★ « مواعظ ابينا المقدس اسحق السوري » : اسحق السوري ناسك من القرن السابع قرأ دوستويفسكي خطبه ومواعظه مترجمة الى الروسية •

٢٤١ ★ « لا تسقط أي تفصيل من التفاصيل » : تروي أرملة دوستويفسكي ان هذه العبارة كانت من العبارات الأثيرة عند زوجها الراحل •

٢٧٠ ★ « أنا شيطان ، ولا شيء مما هو انساني غريب عني » : وردت هذه الجملة باللغة اللاتينية ، وهي تحريف فكه لجملة الشاعر اللاتيني الهزلي تيرانس الذي يقول : « أنا انسان ، الخ•• » •

٢٧٣ ★ « وسيدون جاتسوك ذلك في التقاويم» : هو الكسندر جاتسوك (١٨٣٢ ـ ١٨٩١) ، ناشر حولية « تقويم الصليب » ، التي كانت رائجة جدا في ذلك الحين •

٢٧٦ ★ « كتبت أيضا مسرحيات هزلية » : أقوال المتفاخر هلستاكوف، شخصية قصة جوجول « المراجع »

٢٧٦ ★ « لا بد لاندفاع البشر الى شكر الله وحمده من أن يمر بحفرة الشــكوك ٠٠٠ » : كتب دوستويفسكى فى دفتر من دفاتره يقول : « المفتش والفصل المخصص للحديث عن لاطفال ٠٠٠ حتى فى أوروبا لا يوجد ولم يوجد تعبير عن الالحاد يبلغ هذا المبلغ من القــوة ٠ فأنا لا أومن اذن بالمسيح ايمان صبى ولا أعترف به اعتراف فتى غر ٠٠ ان تسبيحى قــد مر بهوة من الشكوك ، كما يقول الشيطان فى روايتى» ٠

٢٧٨ ★ « أنا أفكر فأنا اذن موجود » : هى القاعدة الشهيرة التى تقوم عليها فلسفة الفيلسوف الفرنسى ديكارت (١٥٩٦ ــ ١٦٥٠) ، والتى وردت فى كتابه « مقالة فى المنهج » (الجزء الرابع)

٢٧٩ ★ « ينكر كل شيء ، ينكر القوانين والشــعور والايمان » : جملة مســتمدة من المسرحية المشــهورة التى كتبها جريبويدوف وعنوانها : « كثير من الذكاء ضرر » (الفصل الرابع ، المشهد الرابع) ٠

٢٨٥ ★ «وأرجلهم فى الفضاء ، على حد التعبير الذى يحبه جوربونوف»: هو ايفان جوربونوف (١٨٣١ ــ ١٨٩٠) ، الفنان الهزلى الذى اشتهر كثيرا بقصصه المضــحكة ونوادره التى كان يلقيها فى الجمهور ٠

٢٨٨ ★ « ٠٠٠ أن أرتدى ثياب مستشار دولة محال على التقاعد سبق له أن خدم فى القفقاس ، فهو يضع على ردائه وسام «الاسد»و «الشمس» ٠٠٠ » : أى موظف من الدرجة الخــامسة نال فى القفقاس هذا الوسام من شاه ايران (فالأسد والشمس هما شعارا تلك البلاد) ٠

٢٨٨ ★ « حين جاء مفســتوفيليس الى فاوست قال انه يريد الشر ثم هو لا يستطيع أن يفعل الا الخير» : هذه هى الكلمات التى قالها الشــيطان فى الفصــل الاول من «فاوست» جوته (الفصل الثالث) ٠

٢٨٨ ★ « لص اليمين » : لص اليمين ولص الشــمال هما فيما تقول

الأناجيل السارقان اللذان صلبا مع المسيح ، وآمن أولهما قبل موته ·

٢٩٣ ★ « تذكر محبرة لوثر » : ان المصلح الديني مارتان لوثر قد تراءى له الشيطان أثناء اقامته في قصر فارتبورج ، فرماه بمحبرته · وما يزال الناس يرون بقعة الحبر على جدار غرفة النساك التي كان يقيم فيها لوثر · وان هلوسات ايفان كارامازوف تذكر بعض الشيء بذلك « الحوار مع الشيطان » الذي تحدث عنه المصلح الديني ·

٣٣٥ ★ « خدما التاج » : أي خدما العرش ، أي خدما المملكة ، أي خدما الدولة · كان تعبير «خدمة التاج» شائعا جدا في بولندا حيث كان تستعمل كلمة التاج وحدها دلالة على المملكة ، ولم يكن هذا التعبير شائعا في روسيا مثل هذا الشيوع ·

٣٣٨ ★ «الاخوان المورافيين» : ملة بروتستانتية ظهرت في مورافيا في القرن السادس عشر ·

٣٤٥ ★ « باسم الاله الاب ، باسم الاله الابن ، باسم الاله روح القدس»: بالألمانية في الأصل ·

٣٦٨ ★ «خبزا ومشاهد سيرك !» : باللاتينية في الاصل · وذلك ماكان يطلبه الشعب في روما القديمة ·

٣٨٦ ★ « ان كاتبا كبيرا من كتاب عهد قريب ، قد شبه روسيا بعربة ترويكا تعدو عدوا سريعا نحو غاية مجهولة ··· » : هو الكاتب الروسي الكبير جوجول في كتابه « النفوس الميتة » (الجزء الاول ، الفصل ١٠) · والترويكا عربة تجرها ثلاثة أحصنة ·

٣٨٨ ★ « من بعدي الطوفان » : عبارة تنسب الى لويس الخامس عشر ·

٤٥٨ ★ « ··· مخبأ في قبو من أقبية قصر أودولف » : الاشارة هنا الى الرواية التي كتبتها آن رادكليف بعنوان « أسرار قصر أودولف (١٧٩٤) » ، والتي أصابت نجاحا كبيرا في أوروبا كلها ·

٤٨٤ ★ « أنا الراعي الصالح ... » : من أقوال المسيح في انجيل القديس يوحنا (الاصحاح العاشر ، ١١) .

٤٨٥ ★ « وأنتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم » : رسالة بولس الرسول الى أهل أفسس (الاصحاح السادس ، ٤) .

٤٨٥ ★ « بالكيل الذى به تكيلون يكال لكم » : من أقوال المسيح في انجيل متى (الاصحاح السابع ، ٢) وانجيل مرقس (الاصحاح الرابع ، ٢٤) .

٤٨٦ ★ « أن لا نكون شبيهين ببائعات موسكو السمينات اللواتى يؤمن بالخرافات ، فيخشين كلمتي «معدن» و «كبريت» : ان الخشية الخرافية من هاتين الكلمتين الأجنبيتين قد أبرزها آ. ن. أوستروفسكي في مسرحيته الهزلية «الايام المشئومة» (الفصل الثاني ، المشهد الثاني) التى مثلت سنة ١٨٦٣ .

٤٨٨ ★ « اطردوا الأمور الطبيعية من الباب ترجع اليكم من النافذة » : تعبير شائع مستمد من مقالة للكاتب ن.م. كارامزين ، وقد أصبح هذا التعبير من الامثال السائرة في روسيا .

٤٨٨ ★ « قل لى يا أبى لماذا يجب على أن أحبك » : لعل هذه الجملة مستمدة من مسرحية «اللصوص» للشاعر الالمانى شيللر ، (الفصل الاول ، المشهد الاول) .

٥٠٥ ★ « لن يقل الحكم عليه عن عشرين عاما بالسجن مع الاشغال الشاقة » : كانت عقوبة جريمة قتل الأب في قانون الجزاء الروسى لعام ١٨٤٥ هى الاشغال الشاقة المؤبدة . ولكن الليوتنان ايلنسكى ، الذى تشبه حالته حالة ميتيا ، لم يحكم عليه الا بعشرين عاما ، بسبب الشك في ارتكابه الجريمة .

٥٣٨ ★ « ليعدل العصابة التى تعصب جبين الميت » : هى عصابة من قماش الساتان أو من الورق يمثل عليها يسوع المسيح ومريم العذراء والقديس يوحنا ويحاط بها جبين الميت .

٥٣٩ ★ « راح يغرقه بالقبل فى ظمأ لا يرتوى » : فى روسيا يبقى التابوت مفتوحا أثناء قداس الجنازة ، حتى اذا انتهى القداس جاء الأهل وغيرهم يقبلون الميت قبلة أخيرة . وبعد ذلك يغلق التابوت .

فهرس

الصفحة

الأعمال الأدبية الكاملة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف